موسوعة الدرر الزاهرة في الأصالة المعاصرة

لصاحبها الأستاذ الدكتور
بسيوني محمد الخولي

المجلد الرابع
الذات الحضارية للإسلام
(الحضارة الإسلامية)

الجزء السادس
العلوم الطبيعية وتطبيقاتها

١٣

موسوعة الدرر الزاهرة في الأصالة المعاصرة

لصاحبها الأستاذ الدكتور
بسيونى محمد الخولى

المجلد الرابع
الذات الحضارية للإسلام
(الحضارة الإسلامية)

الجزء السادس
العلوم الطبيعية وتطبيقاتها

١٣

إشراف

أ / محمد عمر الفاروق

موسوعة الدرر الزاهرة في الأصالة المعاصرة

المجلد الرابع : الذات الحضارية للإسلام (الحضارة الإسلامية)

الجزء السادس : العلوم الطبيعية وتطبيقاتها

المؤلف: أ.د. بسيونى محمد الخولى

رقم الإيداع: ٩٦٥٤ / ٢٠٠٨

الترقيم الدولى: I.S.B.N. 977 – 5197 – 21 – x

الطبعة: الأولى ٢٠٠٨

تصميم الغلاف: فنان تشكيلى / حسام حنيطر

الناشر: أصيلة للتصميم والنشر (فنان تشكيلى / إبراهيم حنيطر)
٣٢ شارع د. محمد عوض – مكرم عبيد – مدينة نصر – القاهرة
ت : ٢٢٧٤٢٥٠٩ email: henetar@link.net
www.tashkila.net



البريد الإليكتروني
ALDORAR_ALZAHERA@YAHOO.COM

المحتـــويات

فهرس الموضوعات

الجزء السادس

العلوم الطبيعية وتطبيقاتها

[العلوم والتكنولوجيا]

تمهيـــــــــــــــد

نختتم مقومات الحضارة الإسلامية بما يعتبره البعض منا والآخرون أهم مقومات الحضارة على الإطلاق ، وهو العلوم الطبيعية وتطبيقاتها أو ما درج على تسميته بالعلوم والتكنولوجيا ، والعلوم الطبيعية وتطبيقاتها تعد من مقومات الحضارة الإنسانية ، ولكنها ليست أهمها وبصفة خاصة من وجهة النظر الإسلامية ، وذلك أن الحضارة الإنسانية تتخذ لها سلم أفضليات ترتب فيه مقوماتها وفق أولويات تعكس وجهتها ، وأسس وجودها ومقاصدها من التعامل مع عناصر الوجود وموجودات الكون ، ومن ثم يمكن لعلماء الحضارات والتاريخ الإنساني أن يستنبطوا طبيعة كل حضارة من الحضارات الإنسانية بمجرد الوقوف على سلم أفضليات ترتيب مقومات تلك الحضارات ، فمن الحضارات ما يجعل أهم مقوماته مركزاً في التنظيم الاجتماعي والتنظيم عموماً ، ومنها ما يجعل أهم مقوماته مركزاً في القوة المادية للسيطرة على الآخرين ، ومنها ما يجعل أهم مقوماته مركزاً في المدنية والعمران ، وجاءت الحضارة الإسلامية بترتيب بديع ومتفرد لمقوماتها في سلم أفضليات ساوت فيه بين كافة المقومات ، ولكنها غلفتها جميعاً بالمقوم الأخلاقي المتمثل في الدعوة الإسلامية ، وجاءت الحضارة الغربية بالتركيز على كافة المقومات ذات الطابع المادي وزادت في التركيز على العلوم الطبيعية وتطبيقاتها ، وهذا ما نراه واقعاً ملموساً في عالم اليوم .

والعلوم التطبيقية إن هي إلا نتاج الرغبة المقصودة الهادفة إلي اكتناه حقائق الوجود وموجودات الكون والاستفادة من هذا النتاج في كافة مجالات الحياة ، ومن ثم فينبغي من البداية إيضاح الفارق بين العلوم التطبيقية من جهة ، وتطبيقات تلك العلوم من جهة أخرى ، فالعلوم – كما سبق القول – هي ما ينتج عن الجهود المتواصلة الهادفة إلي

اكتناه حقائق الوجود وموجودات الكون من معارف وخبرات ، أما التطبيقيات فهي الاستفادة من ذلك النتاج المتمثل في المعارف والخبرات في كافة مجالات الحياة في شكل تقنيات .

لقد كان للعلم والعلوم والمعرفة موقعها المميز في الحضارة الإسلامية ولم يأت هذا التميز لموقع العلم في الحضارة الإسلامية من بروعها في العلوم والمعارف الطبيعية والإنسانية وتفعيلها مع مجريات الحياة في شكل تقنيات والإفادة منها إلي درجة رفيعة ، ليس لهذا فقط تميز العلم في الحضارة الإسلامية ، ولكنه تميز كذلك لترقية المرجعيات الإسلامية من شأنه وإقرانها له بالنبوة واعتباره بابها الأول الذي يلج منه جميع الأنبياء والرسل ، وسموها بمقام العلماء إلي أن جعلتهم ورثة الأنبياء ، يضاف إلي ما تقدم أن الإسلام دين عِلماني يرتكز في معظم أسسه وأصوله على العلم وإعمال العقل والتفكير والتدبر ، فعقيدة الإيمان بالله وتوحيده التي تمثل جماع الإسلام وسنامه قائمة على التفكير والتدبر والعقل ، وما يتفرع عن هذه الكلية الإيمانية الجامعة الشاملة يرتبط كذلك بالعلم والعقل والفكر ، هكذا كان العلم في الإسلام ، وهكذا كان في الحضارة الإسلامية ، ولابد أن يظل كذلك لأن الإسلام لا يمكن أن يكون إلا بالعلم ، وحضارته لا يمكن أن تزدهر وتينع مرة أخرى إلا بالعلم .

لقد عرف الإسلام في مرجعياته وأصوله وكذا حضارته في مقوماتها وإفرازاتها ثلاثة مدركات مرتبطة بالعلم هي : العلم والتعلم والتعليم ، كيف جاءت المدركات الثلاثة في المرجعيات والأصول الإسلامية ، وما المقصد والغاية من تضمينها المرجعيات والأصول ؟ وكيف وردت هي ذاتها في الحضارة الإسلامية وكيف تطورت عبر العصور ؟ هل اختلف العلم والتعلم والتعليم عبر مراحل التاريخ الإسلامي ، وما هي أسباب ذلك الاختلاف إن وُجد ؟

هـل اتـسمت هـذه المـدركات الثلاثـة في كـل عـصر مـن العـصور عـبر التـاريخ الإسـلامي بسمات وخصائص ؟ .

كل هذه الأسئلة وغيرها سوف نتـابع الإجابـة عليهـا في تفـصيل وتحليـل معمقـين عنـدما نتناول العلوم الطبيعية وتطبيقاتها في الحضارة الإسلامية كمقوم من مقوماتها وذلـك في هـذا الجزء من المجلد الرابع ، من خلال ثمانية فصول على النحو التالي :

الفصل الأول : العلم والتعلم والتعليم والعلوم الطبيعية وتطبيقاتها في الأصول والمرجعيات الإسلامية .

الفصل الثاني : العلم والتعلم والتعليم والعلوم الطبيعية وتطبيقاتها في عصر النبوة الزاهر .

الفصل الثالث : العلم والتعلم والتعليم والعلوم الطبيعية وتطبيقاتها في عصر الخلافـة الراشدة .

الفصل الرابع : العلم والتعلم والتعليم والعلوم الطبيعية وتطبيقاتها في العصر الأمـوي .

الفصل الخامس : العلم والتعلم والتعليم والعلوم الطبيعية وتطبيقاتها في العصر العباسي .

الفصل السادس : العلم والتعلم والتعليم والعلوم الطبيعية وتطبيقاتها في عصر التفكك والانـهيار .

الفصل السابع : العلم والتعلم والتعليم والعلوم الطبيعية وتطبيقاتها في الوقت الراهن .

الفصل الثامن : العلم والتعلم والتعليم والعلوم الطبيعية وتطبيقاتها ومستقبل الحضارة الإسلامية .

الفصل الأول

العلم والتعلم والتعليم والعلوم الطبيعية

وتطبيقاتها في الأصول والمرجعيات الإسلامية

الأصول والمرجعيات الإسلامية هي المصادر والمنابع التي حددها الله سبحانه وتعالى للمسلمين لكي يأخذوا منها الحكم النهائي والوجهة الصحيحة إزاء كل أمرٍ ذى بال ، بعد أن ضمنها سبحانه أساس كل شئ ، وهذه المصادر تتحدد في كتاب الله العزيز وسنة رسوله الكريم ، وهذان المصدران هما مصدر الأحكام ، ولكن إذا أردنا أن نرى هذه الأحكام على محك التجربة وأرض الواقع فعلينا بدولة الرسول الكريم ودولة خلفائه الراشدين كنموذجين مثاليين للممارسة العملية .

وسوف نبدأ هذا الفصل باستنباط الطرح الإسلامي المتعلق بالعلم والتعلم والتعليم والعلوم الطبيعية وتطبيقاتها من المصادر والمنابع ذات الطبيعة الفكرية ، أما المصادر ذات الطبيعة العملية فسوف نرجئها لتتوالى تباعاً عندما نستعرض التطور التاريخي للعلم والعلوم الطبيعية عبر التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية التي بدأت بعصر النبوة الزاهر وانتهت بعصرنا الراهن ، وسيتم تناول هذا الفصل من خلال المباحث التالية :

المبحث الأول : تحديد المدركات .

المبحث الثاني : العلم والتعلم والتعليم والعلوم الطبيعية وتطبيقاتها في القرآن الكريم .

المبحث الثالث : العلم والتعلم والتعليم والعلوم الطبيعية وتطبيقاتها في السنة المطهرة .

المبحث الأول

تحديد المدركات

بداءة نعكف على تحديد المدركات التي سنتولاها بالدراسة والتحليل في هذا الجزء ، وتبدو أهمية هذا التحديد في كونه يحدد المدركات تحديداً قاطعاً جامعاً مانعاً لا شبهة فيه ويمحو ما اختلط منها في أذهان الناس ، وفي كونه يفرق بين ما يدخل في نطاق بحثنا الحالي وما ينصرف إلي مواضع بحثية أخرى ، ونتابع التحديد من خلال ما يلي :

❖ **الفكر :**

لعل الفكر هو أول مراحل الإدراك المعنوي عند الإنسان ، فهو جملة النشاط الذهني الذي يقوم به الإنسان لإدراك معاني الأشياء الحسية والمعنوية ، ويمثل الفكر أسمى صور العمل الذهني التي تعتمد على إعمال العقل ، وتتعين تلك الصور في تحليل وتركيب وتنسيق ما هو معلوم بهدف الوصول إلي ما هو مجهول ، وللإيضاح نعمد إلي تحليل هذا التعريف .

– الفكر هو أول مراحل الإدراك المعنوي عند الإنسان :

خلق الله الإنسان وزرع فيه وسيلتين لإكتناه حقائق الأشياء والموجودات ، الوسيلة الأولى وهي الأدنى ، وتختص بالتعرف على حقيقة الأشياء والموجودات بالحواس الخلقية المعروفة وهي السمع والبصر والشم والذوق واللمس ، والوسيلة الثانية وهي الأرقى والأعلى وتتعلق بالتعرف على حقيقة الأشياء والموجودات بالمعاني والرموز والقدرة على التخيل وهذا ما يعرف بالفكر ، وعليه فالفكر هو أول مراحل الإدراك المعنوي عند الإنسان .

– الفكر عبارة عن جملة النشاط الذهني لإدراك معاني الأشياء :

الفكر في عمومه بمثابة جملة النشاط الذهني الذي يقوم به الإنسان لإدراك معاني الأشياء الحسية والمعنوية ، فالفكر إذن نشاط وحركة فعالة يقوم بها ذهن الإنسان بهدف إدراك معاني الأشياء الحسية والمعنوية ، وقد يختلف هذا النشاط الذهني من شخص إلي آخر ، وهذا ما يميز المفكرين عن غيرهم من بنى البشر ، إذ أن أذهان هؤلاء أكثر نشاطاً وحيوية في اتجاه إدراك المعاني والحقائق .

– الفكر يمثل أسمى صور العمل الذهني التي تعتمد على إعمال العقل :

مما تقدم نستخلص أن الفكر يمثل أسمى صور العمل والنشاط الذهني ، فهو يرقى بذلك النشاط ليصل به إلي أعلى درجات النشاط والحركة ، حيث يعمل العقل بكامل قدرته وطاقته ويصبح جاهزاً لإفراز الفِكَر وإخراج الطروحات التي تتفق مع الفطرة السوية .

– تتمثل صور العمل الذهني في مجموعة صور :

تتمثل صور العمل الذهني في مجموعة صور هي تحليل وتركيب وتنسيق ما هو معلوم للوصول إلي ما هو مجهول ، ومن ثم يتوصل العقل – كما سبق الإيضاح – إلي جديد الفِكَر وحديث الطروحات ، من خلال هذه الصور أو إن شئنا سميناها بالعمليات الذهنية ، ويتميز الأفراد فيما بينهم فيما يتعلق بنشاط وحيوية هذه الصور أو العمليات ، وتقود هذه الفروق الفردية إلي تباين الأفكار والتوجهات الإنسانية .

❖ المعرفة :

المدرك الثاني المرتبط عضوياً بالفكر هو المعرفة ، والمعرفة هي الإدراك الحسي أو المعنوي للأشياء والإلمام بها ، واكتساب التجارب والخبرات كتراكمات توسع المدارك ، وتعمق

المفاهيم ، وتوطد العلاقة بين الإنسان وما يحيط به من عناصر الوجود وموجودات الكون ، ويمكن تحليل هذا التعريف على النحو التالي ، حتى تسهل مقارنته بمدرك الفكر :

- المعرفة هي الإدراك الحسي والمعنوي للأشياء :

والمعرفة في هذه المرحلة تتشابه مع الفكر ، حيث يبدأ كل منهما بادراك الأشياء حسياً أو معنوياً وللإدراك الحسي - كما سبق الإيضاح — أدواته ، وكذلك للإدراك المعنوي أدواته ، إلا أنه في حالة الفكر يقترن الإدراك بنشاط ذهني قائم على تفعيل المدركات تمهيداً لتمريرها في عمليات عديدة سبق إيضاحها ، أما في حالة المعرفة فالإدراك قد يتوقف عند حد الإلمام والاكتساب ولا يجاوز ذلك إلي النشاط الذهني .

- الإلمام بالأشياء واكتساب التجارب والخبرات كتراكمات :

كذلك يصحب عمليات الإدراك الحسي والمعنوي للأشياء في حالة المعرفة الإلمام بالأشياء واكتساب التجارب والخبرات ، ويعمد الإنسان بعد ذلك إلي تكديس كل ذلك في شكل تراكمات تتضخم مع الزمن ، وتعتبر هاتان العمليتان أهم ما في مدرك المعرفة ، فالإدراك بنوعيه الحسي والمعنوي هو المرحلة الأولى ، والإلمام بالأشياء واكتساب التجارب والخبرات هو الموحلة الثانية ، فالمرحلة الأولى بسيطة والجهد فيها محدود ، أما المرحلة الثانية فأكثر تعقيداً وتركيباً ، حيث يخوض الإنسان بعض العمليات التفاعلية مع عناصر الوجود والموجودات في شكل تجارب ، إلا أن نتائج التجارب وخبرات الآخرين قد تصله دون جهد منه ، فيعتبر ذلك نوع من الاكتساب دون تفاعل ، والخلاصة أن المعرفة تعتمد على اكتساب مدركات جديدة وخبرات وتجارب وتوسيع للمدارك .

– المعرفة مرحلة مهمة ومقدمة منطقية للفكر :

مما تقدم نصل إلي ما مؤداه أن المعرفة مرحلة مهمة ومقدمة منطقية للفكر ، حيث أن الفكر مرحلة أكثر نضجاً وتقدماً من المعرفة ولكنه يترتب عليها ، فالمعرفة من مدخلات الفكر ، والأخير لا بد أن يبدأ بالمعرفة ، ثم يطور التراكمات المعرفية عبر النشاط الذهني وعملياته إلي فِكر وطروحات المعرفة ، المعرفة إذن اكتساب وإلمام وتركيم أو تكديس ، أما الفكر فتفعيل ثم إفراز وإخراج وتوصل إلي المجهول عبر المعلوم ، كما أن المعرفة لا تنتج فِكراً بالضرورة ولا تفرز طرحاً ولا تكتشف مجهولاً ، أما الفكر فلابد أن ينتج فِكراً وطروحات ويجلي الغيم عن المجهول .

❖ العلم :

المدرك الثالث في هذه المنظومة يتعلق بالعلم ، والعلم هو رغبة في اكتناه حقائق الأشياء ومكوناتها والعلاقات فيما بينها باستخدام مناهج معينة والانتهاء إلي نظريات وقوانين تحكم تلك الحقائق والعلاقات وتوظيف مخرجات العلم في شئون الحياة ، ومن هذا التعريف يمكن استخلاص العناصر التالية :

– العلم رغبة في اكتناه حقائق الأشياء :

العلم تقوده الرغبة في اكتناه حقائق الأشياء والوقوف على تفاصيلها ودقائقها ، وتحليل العلاقات فيما بينها ، ومن ثم أصبحت الرغبة أو الإرادة من العناصر المهمة في تعريف العلم ، وهذا يرتبط أشد الارتباط بكون العلم بحثاً وتنقيباً ، في حين أن الفكر ينزع نحو التأمل ، ويهدف العلم أساساً إلي اكتشاف حقائق وعلاقات جديدة بين متغيرات ، أو تحليل لعلاقات قائمة .

- للعلم مناهج خاصة به :

للبحث العلمي والتنقيب مناهج خاصة به تتلاءم مع طبيعة المجال الذي يتم فيه البحث ، فالبحث في مجال العلوم الطبيعية يحتاج إلي مناهج تختلف عن البحث في مجال العلوم الإنسانية أو الاجتماعية ، والمنهج عبارة عن وسيلة أو أداة تستخدم تقنيات معينة لتحليل الظواهر والتوصل إلي القوانين التي تحكمها .

- العلم ينتهي إلي صياغة نظريات وقوانين :

البحث العلمي لابد أن ينتهي إلي صياغة قوانين ونظريات واستخلاص حقائق ، ويمثل ذلك هدفاً ثابتاً للبحث العلمي .

❖ العلوم النظرية :

تقسيمات العلوم تحتاج إلي دقة علمية وإعادة نظر ، حيث يواجه الدارسون لبساً وخلطاً بين بعض المفاهيم والمصطلحات الخاصة بتقسيمات العلوم ، والعلوم النظرية هي أول أنواع العلوم ولعلها أقدمها على الإطلاق ، والعلوم النظرية في معظمها أنواع من الأفكار المجردة ذات الطبيعة الفلسفية تنطلق من مقدمات وبديهيات وافتراضات فكرية وتصل إلي نتائج نظرية أيضاً ، وهذه النوعية من العلوم قلت أهميتها في الوقت الراهن ، وطغت عليها العلوم ذات الأساليب التجريبية والتي سميت فعلياً بالعلوم التجريبية ، إلا أن العلوم النظرية لا تزال تمثل الأصل والأساس لكافة العلوم ولذا يطلق عليها فلسفة العلوم .

❖ العلوم الإنسانية أو الاجتماعية :

البعض يطلق على هذه العلوم النظرية ، وقد بدأت هذه التسمية تبدو قلقة وغير دقيقة عندما أدخلت على هذه العلوم المناهج التجريبية وبدأت تنحو منحاً جاداً نحو ضبط

مناهجها وأدوات البحث فيها بضوابط دقيقة تعتمد على التجربة والمقاييس الكمية ، والعلوم الإنسانية أو الاجتماعية هي العلوم التي تهتم بدراسة الإنسان مجرداً أو في التنظيم الاجتماعي .

❖ **العلوم الطبيعية :**

العلوم الطبيعية يقصد بها كافة العلوم التي تبحث في عناصر الوجود وموجودات الكون ، وهذه العلوم تطورت بشكل سريع وحققت نتائج مبهرة انطلاقا من سهولة إخضاعها للتجارب العلمية عكس العلوم الإنسانية أو الاجتماعية ، والعلوم الطبيعية قد لعبت دوراً يعتد به في ازدهار الكثير من الحضارات ، منها الحضارة الإسلامية في أوج ازدهارها وتطورها ، ومنها الحضارة الغربية في الوقت الراهن .

❖ **تطبيقات العلوم الطبيعية [التقنيات] :**

العلوم الطبيعية لا تتوقف مهمتها على النتائج والمخرجات التي تتوصل إليها ، ولكنها تهدف أساساً إلي إفادة الناس والمجتمعات من تلك النتائج ، وذلك من خلال وضع تلك النتائج موضع التطبيق في شكل تقنيات في كافة مجالات الحياة ، فتسهل للناس سبل الحياة وهذا هو هدف العلوم الطبيعية .

❖ **التعلم :**

من المدركات الجديرة بالإيضاح والتحديد مدرك التعلم الذي يختلف عن التعليم ، فالتعلم يعنى الاستعداد والرغبة في طلب العلم والمواظبة على اكتسابه ، والمتأمل لهذا التعريف يكتشف أن التعلم عبارة عن استعداد ذاتي ورغبة نفسية تدفع الإنسان إلي طلب العلم ، وتشجعه على المواظبة على اكتسابه ، وبالرغم من دور التعلم المحوري في التعليم ، إلا أنه يظل منفصلاً عنه ولا يختلط به .

❖ **التعليم :**

التعليم عملية شاملة مركبة تستهدف تلقين العلم ونشره لزرع أفكار واكتساب سلوك ، وتتكون عملية التطيم من المتعلم والمعلم ووسائل وأدوات التعليم وأخيراً العلم ، وهذه المفردات تأتلف في منظومة واحدة هي العملية التعليمية ، التي كانت ولا تزال تمثل مقوماً مهماً من مقومات الحضارة الإنسانية على مر العصور .

المبحث الثاني

العلم والتعلم والتعليم والعلوم الطبيعية وتطبيقاتها في القرآن الكريم

من أهم المسائل التي بينها الحق تبارك وتعالى في كتابه العزيز وقلّبها على كافة وجوهها هي العلم والتعلم والتعليم والعلماء والعلوم الطبيعية وتطبيقاتها ، وفي هذا دلالة قاطعة على أن الإسلام هو دين العلم ، قام به وعليه ويهدف دوماً إليه ، وهكذا كانت الحضارة الإسلامية حضارة العلم والعلماء ! ، في هذه الجزئية نتابع ونرصد موقع العلم في القرآن الكريم ، ثم نستنبط الطرح الإسلامي في هذا الخصوص ، من خلال ما يلي :

❖ **إعمال العقل :**

عدة عمليات عقلية ذهنية وردت في القرآن الكريم ، ثم تحولت إلي أوصاف وصف بها الحق تبارك وتعالى أصنافاً من عباده ، وهذه العمليات العقلية هي أول مراحل الإدراك العقلي — كما سبق وأوضحنا — وهي تسبق العلم وتقدم له ، ولا يشترط فيمن يقوم بها ويباشرها أن يكون عالماً أو متعلماً ، ولكن يشترط أن يكون ذو فطرة سوية .

والفكر والتدبر والنظر والتعقل والتذكر والتبصر والسمع والفقه والفهم والاعتبار في ملكوت الله هي المراحل التمهيدية للإيمان عن صدق ويقين ، والتثبت من وجود خالق هذا الكون العظيم وهو الإله الواحد الأحد ، ثم يتلو ذلك مرحلة العلم حيث يترسخ الإيمان ويقترن بالعلم .

– الفكر أو التفكر :

قال تعالى ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾[1] ،

[1]. سورة البقرة : ٢١٩ .

تحمل هذه الآية الكريمة حكمين في أمرين مهمين من أمور المسلمين الأول يتعلق بالخمر والميسر ، والثاني يتعلق بالإنفاق أو الصدقة قبل نزول آية الزكاة ، وقد أنزل الله الحكمين ، ثم بيّن سبحانه أنه إنما يفصل هذه المسائل للتفكر في نعمة الإيمان ، ونقمة الكفر ومفاسده التي يجرها على العقول والأبدان .

وقال تعالى ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾[1] ، جاءت هذه الآية الكريمة في سياق الحديث عن الصدقة والإنفاق ، وأراد الحق تبارك وتعالى أن يوضح أن الصدقة تحل البركة حال ضعف الإنسان وبعد رحيله ، وهذه الآيات جديرة بالتفكر .

وقال تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾[2] ، والتفكر في هذه الآية الكريمة للتأمل ، وهي صفة أصحاب العقول النيرة والأحلام الرزينة .

وقال تعالى ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾[3] ، وقد جاء التفكير في هذه الآية الكريمة بمعنى التمييز بين الحق والباطل .

وقال تعالى ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦) ﴾[4] ، جاء التفكير في هذه الآية بمعنى الاعتبار .

---

[1]. سورة البقرة : ٢٦٦ .
[2]. سورة آل عمران : ١٩١ .
[3]. سورة الأنعام : ٥٠ .
[4]. سورة الأعراف : ١٧٦ .

وقال تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾[1] ، والتفكر في هذه الآية الكريمة بمعنى التعقل والرشد .

وقال تعالى ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[2] ، جاء التفكر في هذه الآية الكريمة بمعنى الاعتبار والتأمل في الآيات والمعجزات الكونية .

وقال تعالى ﴿ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[3] ، جاء التفكر في هذه الآية الكريمة بمعنى تدارس الآيات والمعجزات الكونية التي خلقها الله وسخرها للإنسان .

وقال تعالى ﴿ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[4] ، والتفكر في هذه الآية الكريمة بمعنى الاعتبار بآيات الذكر الحكيم .

وقال تعالى ﴿ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[5] ، جاء التفكر في هذه الآية الكريمة بمعنى الإمعان في آيات الله وتدبرها .

وقال تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴾[6] ، جاء التفكر في هذه الآية الكريمة لتأمل آيات الله العظام مثل خلق السموات والأرض وما بينهما من مخلوقات .

[1]. سورة الأعراف : ١٨٤ .
[2]. سورة يونس : ٢٤ .
[3]. سورة النحل : ١١ .
[4]. سورة النحل : ٤٤ .
[5]. سورة النحل : ٦٩ .
[6]. سورة الروم : ٨ .

وقـال تعـالى ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[1] ، والتفكر في هذه الآية جاء على غرار أختها التي سبقتها للتفكر في آيات الله والاعتبار .

وقـال تعـالى ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾[2] ، جـاء التفكـر في هـذه الآيـة بمعنـى تقليب الأمور ودراسة صفات الرسول الكريم وأخلاقه .

وقـال تعـالى ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[3] ، كذلك جـاء التفكر في هذه الآية للتأمل في آية الحياة والموت .

وقال تعالى ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[4] ، وقد جاء التفكر في هذه الآية العظيمة جامعاً شاملاً لكـل مـا في الـسموات ومـا في الأرض ، حيث سخره الله للناس وهذا أعظم دليل على قدرة الله .

وقـال تعـالى ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[5] ، جاء التفكر في هذه الآية بمعنى التأمل في الأمثال الـتي يضربها الله للناس .

---

[1]. سورة الروم : ٢١ .
[2]. سورة سبأ : ٤٦ .
[3]. سورة الزمر : ٤٢ .
[4]. سورة الجاثية : ١٣ .
[5]. سورة الحشر : ٢١ .

- التدبر :

قال تعالى ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾[1] ، والمقصود من تدبر القرآن في هذه الآية التفكر في معانيه وآياته وأحكامه .

وقال تعالى ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾[2] ، والمراد من القول في هذه الآية آيات القرآن الكريم وإعجازه .

وقال تعالى ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[3] ، والكتاب في هذه الآية هو القرآن الكريم .

وقال تعالى ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ .[4]

- النظر بمعنى التأمل والاعتبار :

قال تعالى ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ .[5]

وقال تعالى ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ .[6]

وقال تعالى ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .[7]

---

[1]. سورة النساء : ٨٢ .
[2]. سورة المؤمنون : ٦٨ .
[3]. سورة ص : ٢٩ .
[4]. سورة محمد : ٢٤ .
[5]. سورة آل عمران : ١٣٧ .
[6]. سورة الأنعام : ١١ .
[7]. سورة الأنعام : ٩٩ .

وقـال تعـالى ﴿ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَاذْكُرُوٓا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ .[1]

وقـال تعـالى ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِى مَلَكُوتِ السَّمَـٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾ .[2]

وقال تعالى ﴿ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِى السَّمَـٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى الْـَٔايَـٰتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ .[3]

وقـال تعـالى ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ الْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ .[4]

وقال تعالى ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّـٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَـٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾.[5]

وقال تعالى ﴿ قُلْ سِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ .[6]

وقـال تعـالى ﴿ قُلْ سِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ۚ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْـَٔاخِرَةَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .[7]

---

[1]. سورة الأعراف : ٨٦ .
[2]. سورة الأعراف : ١٨٥ .
[3]. سورة يونس : ١٠١ .
[4]. سورة يوسف : ١٠٩ .
[5]. سورة النحل : ٣٦ .
[6]. سورة النمل : ٦٩ .
[7]. سورة العنكبوت : ٢٠ .

وقـال تعـالى ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ .[1]

وقال تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ .[2]

وقـال تعـالى ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴾ .[3]

وقال تعالى ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴾ .[4]

وقال تعالى ﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴾ .[5]

وقال تعالى ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ .[6]

– التعقل بمعنى الفهم والاستيعاب :

قال تعالى ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ .[7]

وقال تعالى ﴿ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ .[8]

---

[1]. سورة الروم : ٩ .
[2]. سورة فاطر ٤٤ .
[3]. سورة غافر : ٢١ .
[4]. سورة محمد : ١٠ .
[5]. سورة ق : ٦ .
[6]. سورة الغاشية : ١٧ .
[7]. سورة البقرة : ٤٤ .
[8]. سورة البقرة : ٧٣ .

وقال تعالى ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾ .[1]

وقال تعالى ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .[2]

وقال تعالى ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾ .[3]

وقال تعالى ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ .[4]

وقال تعالى ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ .[5]

وقال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ .[6]

وقال تعالى ﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ .[7]

---

[1]. سورة البقرة : ٧٥ و ٧٦ .
[2]. سورة البقرة : ١٦٤ .
[3]. سورة البقرة : ١٧٠ و ١٧١ .
[4]. سورة البقرة : ٢٤٢ .
[5]. سورة آل عمران : ٦٥ .
[6]. سورة آل عمران : ١١٨ .
[7]. سورة المائدة : ٥٨ .

وقال تعالى ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ .[1]

وقال تعالى ﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ .[2]

وقال تعالى ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ .[3]

وقال تعالى ﴿ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ .[4]

وقال تعالى ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ .[5]

وقال تعالى ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ .[6]

وقال تعالى ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ .[7]

وقال تعالى ﴿ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ .[8]

وقال تعالى ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ .[9]

---

[1]. سورة الأنعام : ٣٢ .
[2]. سورة الأنعام : ١٥١ .
[3]. سورة الأعراف : ١٦٩ .
[4]. سورة الأنفال : ٢٢ .
[5]. سورة يونس : ١٦ .
[6]. سورة يونس : ٤٢ .
[7]. سورة يونس : ١٠٠ .
[8]. سورة هود : ٥١ .
[9]. سورة يوسف : ٢ .

وقال تعالى ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ .[1]

وقال تعالى ﴿ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴾ .[2]

وقال تعالى ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴾ .[3]

وقال تعالى ﴿ لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ .[4]

وقال تعالى ﴿ أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ .[5]

وقال تعالى ﴿ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ .[6]

وقال تعالى ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخۡتِلَٰفُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ .[7]

وقال تعالى ﴿ لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَن تَأۡكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ إِخۡوَٰنِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَعۡمَٰمِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَخۡوَٰلِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمۡ أَوۡ مَا مَلَكۡتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوۡ صَدِيقِكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَأۡكُلُواْ جَمِيعًا أَوۡ

---

[1]. سورة يوسف ١٠٩ .
[2]. سورة الرعد : ٤ .
[3]. سورة النحل : ١٢ .
[4]. سورة الأنبياء : ١٠ .
[5]. سورة الأنبياء : ٦٧ .
[6]. سورة الحج : ٤٦ .
[7]. سورة المؤمنون : ٨٠ .

أَشْتَاتًاۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةًۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ .[1]

وقال تعالى ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾.[2]

وقال تعالى ﴿ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ .[3]

وقال تعالى ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَاۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ .[4]

وقال تعالى ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .[5]

وقال تعالى ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ .[6]

وقال تعالى ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ .[7]

وقال تعالى ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .[8]

وقال تعالى ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .[9]

---

[1]. سورة النور : ٦١ .
[2]. سورة الفرقان : ٤٤ .
[3]. سورة الشعراء : ٢٨ .
[4]. سورة القصص : ٦٠ .
[5]. سورة العنكبوت : ٣٥ .
[6]. سورة العنكبوت : ٤٣ .
[7]. سورة العنكبوت : ٦٣ .
[8]. سورة الروم : ٢٤ .
[9]. سورة الروم : ٢٨ .

وقال تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴾ .[1]

وقال تعالى ﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ .[2]

وقال تعالى ﴿ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ .[3]

وقال تعالى ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ .[4]

وقال تعالى ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ .[5]

وقال تعالى ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ .[6]

وقال تعالى ﴿ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .[7]

وقال تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ .[8]

وقال تعالى ﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ .[9]

---

[1]. سورة يس : ٦٢ .
[2]. سورة يس : ٦٨ .
[3]. سورة الصافات : ١٣٨ .
[4]. سورة الزمر : ٤٣ .
[5]. سورة غافر : ٦٧ .
[6]. سورة الزخرف : ٣ .
[7]. سورة الجاثية : ٥ .
[8]. سورة الحجرات : ٤ .
[9]. سورة الحديد : ١٧ .

وقال تعالى ﴿ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ .[1]

- التذكر بمعنى الاسترجاع والاستحضار :

قال تعالى ﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾.[2]

وقال تعالى ﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ .[3]

وقال تعالى ﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ .[4]

وقال تعالى ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .[5]

وقال تعالى ﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ .[6]

---

[1]. سورة الحشر : ١٤ .
[2]. سورة البقرة : ٤٠ .
[3]. سورة البقرة : ٤٧ .
[4]. سورة البقرة : ٢٢١ .
[5]. سورة البقرة : ٢٣١ .
[6]. سورة البقرة : ٢٦٩ .

وقال تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ .[1]

وقال تعالى ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ .[2]

وقال تعالى ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ .[3]

وقال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ .[4]

وقال تعالى ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ .[5]

---

[1]. سورة آل عمران : ٧ .
[2]. سورة آل عمران : ١٠٣ .
[3]. سورة المائدة : ٧ .
[4]. سورة المائدة : ١١ .
[5]. سورة المائدة : ١٣ و ١٤ .

وقـــال تعـــالى ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ .[1]

وقال تعـالى ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ .[2]

وقـــال تعـــالى ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ .[3]

وقـال تعـالى ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (٦٨) وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٦٩) وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ (٧٠) ﴾ .[4]

وقال تعـالى ﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ .[5]

[1]. سورة المائدة : ٢٠ .
[2]. سورة المائدة : ١١٠ .
[3]. سورة الأنعام : ٤٤ .
[4]. سورة الأنعام : ٦٨ : ٧٠ .
[5]. سورة الأنعام : ٨٠ .

وقال تعالى ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴾ .[1]

وقال تعالى ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍۗ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .[2]

وقال تعالى ﴿ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًاۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ .[3]

وقال تعالى ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥۖ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ .[4]

وقال تعالى ﴿ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾ .[5]

وقال تعالى ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ .[6]

وقال تعالى ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ .[7]

---

[1] سورة الأنعام : ٩٠ .
[2] سورة الأنعام : ٩٩ .
[3] سورة الأنعام : ١٢٦ .
[4] سورة الأنعام : ١٥٢ .
[5] سورة الأعراف : ٢ و ٣ .
[6] سورة الأعراف : ٢٦ .
[7] سورة الأعراف : ٥٧ .

وقال تعالى ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ .[1]

وقال تعالى ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً ۖ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ .[2]

وقال تعالى ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ .[3]

وقال تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ .[4]

وقال تعالى ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ .[5]

وقال تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ .[6]

وقال تعالى ﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ .[7]

وقال تعالى ﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ .[8]

وقال تعالى ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ .[9]

---

[1] سورة الأعراف : ٦٣ .
[2] سورة الأعراف : ٦٩ .
[3] سورة الأعراف : ٧٤ .
[4] سورة الأعراف : ١٣٠ .
[5] سورة الأعراف : ١٦٥ .
[6] سورة الأعراف : ٢٠١ .
[7] سورة الأنفال : ٥٧ .
[8] سورة التوبة : ١٢٦ .
[9] سورة يونس : ٣ .

وقـال تعـالى ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴾ .[1]

وقـال تعـالى ﴿ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ .[2]

وقال تعالى ﴿ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ .[3]

وقـال تعـالى ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾ .[4]

وقـال تعـالى ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .[5]

وقال تعالى ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾.[6]

وقال تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ ﴾ .[7]

---

[1]. سورة يونس : ٧١ .
[2]. سورة هود : ٢٤ .
[3]. سورة هود : ٣٠ .
[4]. سورة هود : ١١٤ .
[5]. سورة هود : ١٢٠ .
[6]. سورة الرعد : ١٩ .
[7]. سورة إبراهيم : ٥ و ٦ .

وقـــال تعـــالى ﴿ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾.[1]

وقال تعالى ﴿ هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ .[2]

وقـــال تعـــالى ﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ .[3]

وقال تعالى ﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ .[4]

وقـــال تعـــالى ﴿ ۞ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ .[5]

وقال تعالى ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾.[6]

وقـــال تعـــالى ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴾ .[7]

وقال تعالى ﴿ إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى ﴾ .[8]

---

[1]. سورة إبراهيم : ٢٥ .
[2]. سورة إبراهيم : ٥٢ .
[3]. سورة النحل : ١٣ .
[4]. سورة النحل : ١٧ .
[5]. سورة النحل : ٩٠ .
[6]. سورة الإسراء : ٤١ .
[7]. سورة الكهف : ٥٧ .
[8]. سورة طه : ٣ .

وقال تعالى ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ .[1]

وقال تعالى ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴾ .[2]

وقال تعالى ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ .[3]

وقال تعالى ﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ .[4]

وقال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ .[5]

وقال تعالى ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ .[6]

وقال تعالى ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ .[7]

وقال تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ .[8]

وقال تعالى ﴿ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ .[9]

---

[1] سورة طه : ٤٤ .
[2] سورة الأنبياء : ٨٤ .
[3] سورة المؤمنون : ٨٤ و ٨٥ .
[4] سورة النور : ١ .
[5] سورة النور : ٢٧ .
[6] سورة الفرقان : ٥٠ .
[7] سورة الفرقان : ٦٢ .
[8] سورة الفرقان : ٧٣ .
[9] سورة الشعراء : ٢٠٩ .

وقال تعالى ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ .[1]

وقال تعالى ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ .[2]

وقال تعالى ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ .[3]

وقال تعالى ﴿ ۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ .[4]

وقال تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .[5]

وقال تعالى ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ .[6]

وقال تعالى ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴾ .[7]

وقال تعالى ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾ .[8]

---

[1]. سورة النمل : ٦٢ .
[2]. سورة القصص : ٤٣ .
[3]. سورة القصص : ٤٦ .
[4]. سورة القصص : ٥١ .
[5]. سورة العنكبوت : ٥١ .
[6]. سورة السجدة : ٤ .
[7]. سورة السجدة : ١٥ .
[8]. سورة السجدة : ٢٢ .

وقال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ .[1]

وقال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ .[2]

وقال تعالى ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ .[3]

وقال تعالى ﴿ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ .[4]

وقال تعالى ﴿ وَإِذَا ذُكِّرُواْ لَا يَذْكُرُونَ ﴾ .[5]

وقال تعالى ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ .[6]

وقال تعالى ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ .[7]

وقال تعالى ﴿ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴾ .[8]

وقال تعالى ﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴾ .[9]

---

[1]. سورة الأحزاب : ٩ .
[2]. سورة فاطر : ٣ .
[3]. سورة فاطر : ٣٧ .
[4]. سورة يس : ١٩ .
[5]. سورة الصافات : ١٣ .
[6]. سورة ص : ٢٩ .
[7]. سورة ص : ٤٣ .
[8]. سورة ص : ٤٦ .
[9]. سورة الزمر : ١٩ .

وقال تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ .[1]

وقال تعالى ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ .[2]

وقال تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴾.[3]

وقال تعالى ﴿ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ .[4]

وقال تعالى ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ .[5]

وقال تعالى ﴿ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴾ .[6]

وقال تعالى ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ .[7]

وقال تعالى ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ .[8]

وقال تعالى ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴾ .[9]

---

[1]. سورة الزمر : ٢١ .
[2]. سورة الزمر : ٢٧ .
[3]. سورة غافر : ١٣ .
[4]. سورة غافر : ٥٤ .
[5]. سورة غافر : ٥٨ .
[6]. سورة الدخان :١٣ .
[7]. سورة الدخان : ٥٨ .
[8]. سورة الجاثية : ٢٣ .
[9]. سورة محمد : ١٨ .

وقال تعالى ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ .[1]

وقال تعالى ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ .[2]

وقال تعالى ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ۖ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ .[3]

وقال تعالى ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ .[4]

وقال تعالى ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .[5]

وقال تعالى ﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴾ .[6]

وقال تعالى ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ .[7]

وقال تعالى ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴾ .[8]

وقال تعالى ﴿ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴾ .[9]

وقال تعالى ﴿ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ .[10]

وقال تعالى ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ .[11]

وقال تعالى ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴾ .[12]

---

[1]. سورة ق : ٨ .
[2]. سورة ق : ٣٧ .
[3]. سورة ق : ٤٥ .
[4]. سورة الذاريات : ٤٩ .
[5]. سورة الذاريات : ٥٥ .
[6]. سورة الطور : ٢٩ .
[7]. سورة الواقعة : ٦٢ .
[8]. سورة الواقعة : ٧٣ .
[9]. سورة الحاقة : ١٢ .
[10]. سورة الحاقة ٤٢ .
[11]. سورة الحاقة : ٤٨ .
[12]. سورة المزمل : ١٩ .

وقـال تعـالى ﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴾[1]

وقال تعالى ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴾ .[2]

وقال تعالى ﴿ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴾ .[3]

وقال تعالى ﴿ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴾ .[4]

وقال تعالى ﴿ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴾ .[5]

وقال تعالى ﴿ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾ .[6]

وقال تعالى ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ (٩) سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ (١٠) ﴾ .[7]

وقال تعالى ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾ .[8]

وقال تعالى ﴿ وَجِا۟ىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾ .[9]

---

[1]. سورة المدثر : ٣١ .
[2]. سورة الإنسان : ٢٩ .
[3]. سورة النازعات : ٣٥ .
[4]. سورة النازعات : ٤٣ .
[5]. سورة عبس : ٤ .
[6]. سورة عبس : ١١ .
[7]. سورة الأعلى : ٩ و ١٠ .
[8]. سورة الغاشية : ٢١ .
[9]. سورة الفجر : ٢٣ .

– التبصر ويقصد به التفكر والتأمل والاعتبار بما يُرى :

قـــال تعـــالى ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [1]

وقـــال تعـــالى ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَـٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ .[2]

وقال تعالى ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴾ .[3]

وقال تعـالى ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ ٱلْأَنْهَـٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ .[4]

وقال تعالى ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ .[5]

وقال تعالى ﴿ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴾ .[6]

– التبصر ويقصد به التفكر والتأمل والاعتبار بما يُسمع :

قـال تعـالى ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ .[7]

---

[1]. سورة القصص : ٧٢ .
[2]. سورة السجدة : ٢٧ .
[3]. سورة يس : ٦٦ .
[4]. سورة الزخرف : ٥١ .
[5]. سورة الذاريات : ٢١ .
[6]. سورة القلم : ٥ .
[7]. سورة الأعراف : ١٠٠ .

وقال تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ .[1]

وقال تعالى ﴿ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ .[2]

وقال تعالى ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾.[3]

وقال تعالى ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ .[4]

وقال تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾ .[5]

– الفقه وهو يعني التعمق والفهم والفطنة :

قال تعالى ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ .[6]

وقال تعالى ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ .[7]

وقال تعالى﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾.[8]

---

[1]. سورة يونس : ٦٧ .
[2]. سورة النحل : ٦٥ .
[3]. سورة الفرقان : ٤٤ .
[4]. سورة الروم : ٢٣ .
[5]. سورة السجدة : ٢٦ .
[6]. سورة الأنعام : ٢٥ .
[7]. سورة الأنعام : ٦٥ .
[8]. سورة الأنعام : ٩٨ .

وقـــال تعـــالى ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ .[1]

وقـــال تعـــالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ .[2]

وقـال تعـالى ﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾ .[3]

وقال تعالى ﴿ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ .[4]

وقـــال تعـــالى ﴿ ۞ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ .[5]

وقـــال تعـــالى ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ .[6]

وقـال تعـالى ﴿ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ .[7]

وقال تعالى " ﴿ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ .[8]

---

[1]. سورة الأعراف : ١٧٩ .
[2]. سورة الأنفال : ٦٥ .
[3]. سورة التوبة : ٨١ .
[4]. سورة التوبة : ٨٧ .
[5]. سورة التوبة : ١٢٢ .
[6]. سورة التوبة : ١٢٧ .
[7]. سورة الفتح : ١٥ .
[8]. سورة الحشر : ١٣ .

وقال تعالى ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ .[1]

وقال تعالى ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ .[2]

وقال تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴾ .[3]

وقال تعالى ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا إِذًا أَبَدًا ﴾ .[4]

– الفهم وهو يعنى الاستيعاب والفطنة :

قال تعالى ﴿ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ .[5]

– الاعتبار وهو يعنى التأمل والرشد :

قال تعالى ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾[6]

وقال تعالى ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .[7]

[1]. سورة المنافقون : ٣ .
[2]. سورة المنافقون : ٧ .
[3]. سورة الإسراء : ٤٦ .
[4]. سورة الكهف : ٥٧ .
[5]. سورة الأنبياء : ٧٩ .
[6]. سورة آل عمران : ١٣ .
[7]. سورة يوسف : ١١١ .

وقال تعالى ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ ﴾[1]

وقال تعالى ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ .[2]

وقال تعالى ﴿ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ .[3]

وقال تعالى ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾ .[4]

❖ **العلم :**

العمليات العقلية التي أوردنا الآيات الخاصة بها تحمل تفاعلات ذهنية تجهز العقل وتهيئه لأن يخوض عملية أخرى وهي عملية العلم بمعناه الذي سبق وأوضحناه ، وقد ورد العلم في الذكر الحكيم تحت مفهومين : الأول مفهوم العلم في ذاته ، والثاني مفهوم من أوتوه أو يتصفون به ، وتوضيح ذلك فيما يلي :

– مفهوم العلم في القرآن الكريم :

ورد العلم في القرآن الكريم على أنه رغبة نابعة من ذات الإنسان في اكتناه حقائق الأشياء التي تعن له أو التي يفكر فيها بشكل منظم يغلب عليه الاستدلال المنطقي ، وانقسم العلم بمعناه المتقدم – كما ورد في الذكر الحكيم – إلي قسمين ، القسم الأول يهتم باكتناه حقائق الدين، والقسم الثاني يهتم باكتناه حقائق الدنيا التي هي الوجود والطبيعة والحياة وإلي التفصيل :

[1]. سورة النحل : ٦٦ .
[2]. سورة المؤمنون : ٢١ .
[3]. سورة النور : ٤٤ .
[4]. سورة النازعات : ٢٦ .

* علم الدين :

علم الدين أو العلم بالدين هو أساس الحياة وجوهر الكون منه تنبعث كافة العلوم ، وقد يبدأ علم الدين أو ينتهي بالحقيقة الأبدية الأزلية المطلقة المتعينة في وجود الإله الخالق ، وهذه الحقيقة المطلقة قد توصل إليها الآيات الكونية والاستدلالات المنطقية ومنطقيات الوجود وكان هذا مسلك ومنهج الكثير من الأنبياء والصالحين ، وقد ينطلق الكثيرون كذلك من حقيقة وجود الإله الخالق إلي الإيمان والتسليم بما يترتب عليها ويرتبط بها من حقائق تمثل أركان الإيمان وأصلابه ، وعليه فعلم الدين هو التوصل إلي حقيقة وجود الإله الخالق عن يقين وتثبت ثم اكتناه ما يرتبط بها أو يترتب عليها من حقائق إيمانية .

ولا يهمنا أو يعنينا كثيراً في هذا الموضع أن نخوض في جدلية العلاقة بين قضيتي أن يتوصل الإنسان إلي حقيقة وجود الإله الخالق عبر الآيات الكونية والاستدلالات المنطقية ، أو أن ينطلق من الإيمان المطلق بحقيقة وجود الإله الخالق إلي الإيمان بالحقائق الأخرى المترتبة عليها ، ولكن ما نكترث له هو ذات العلم بهذه الحقيقة المطلقة وما يترتب عليها من حقائق بيقين وتثبت ، والعلم بالدين الذي يبدأ من العلم اليقين بحقيقة وجود الإله الخالق يتدرج من علم الخالق عز وجلّ ، ثم علم الملائكة ، ثم علم الرسل والأنبياء ، ثم علم المؤمنين الصالحين ، ثم علم الناس أو العوام .

قال تعالى ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ ﴾ .[1]

[1]. سورة آل عمران : ١٨ و ١٩ .

وعلم الدين بالنسبة للإنسان قرين الإيمان ، فكل إنسان مؤمن عالم بدينه ، إلا أن هذا الافتراض لم يكن دوماً محل اعتبار ، ومن ثم ظهر الإيمان المقترن بالعلم واتسم به علماء الدين في كل دين وزمان ، وكان هناك ترتيباً على ذلك إيمان العوام البسطاء الذي ينقصه العلم العميق .

قال تعالى ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ .[1]

وقال تعالى ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ .[2]

وقال تعالى ﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ .[3]

وقال تعالى ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ .[4]

وقال تعالى ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ ۚ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ .[5]

وقال تعالى ﴿ ۞ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٩٧) اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩٨) ﴾ .[6]

---

[1]. سورة البقرة : ٤٢ .
[2]. سورة البقرة : ١٥١ .
[3]. سورة البقرة : ٢٣٠ .
[4]. سورة آل عمران : ٧١ .
[5]. سورة النساء : ١١٣ .
[6]. سورة المائدة : ٩٧ و ٩٨ .

وقال تعالى ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ .[1]

وقال تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ .[2]

وقال تعالى ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .[3]

وقال تعالى ﴿ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ .[4]

وقال تعالى ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .[5]

وقال تعالى ﴿ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .[6]

وقال تعالى ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ .[7]

وقال تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ .[8]

وقال تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ .[9]

---

[1]. سورة الأنعام : ١١٤ .
[2]. سورة الأنعام : ١٠٥ .
[3]. سورة الأعراف : ٦٢ .
[4]. سورة التوبة : ١١ .
[5]. سورة يوسف : ٨٦ .
[6]. سورة يوسف : ٩٦ .
[7]. سورة الإسراء : ١٠٢ .
[8]. سورة النور : ٤١ .
[9]. سورة الشعراء : ١٩٧ .

وقال تعالى ﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ .[1]

وقال تعالى ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ .[2]

وقال تعالى ﴿ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ .[3]

وقال تعالى ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴾ .[4]

وقال تعالى ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ .[5]

وعلم الدين يقرب الإنسان من ربه ويجعله أكثر خشية وطاعة له ، وفي معيته بشكل دائم يبتغي من وراء جميع أعماله مرضاته .

* علم الدنيا :

وبالإضافة إلي ما قدمنا من علم الدين ثمة علم الدنيا ، وهو الرغبة المتولدة لدى الإنسان بالغريزة أو الاكتساب من أجل اكتناه حقائق الكون والوجود عبر أدوات ذهنية وعقلية معينة للاستدلال والقياس وموضوعات علم الدنيا عديدة ومتنوعة ، تبدأ بالإنسان كأهم مخلوقات الله ثم تنصرف إلي كل ما يحيط به من مخلوقات وموجودات في هذا الكون الفسيح .

---

[1]. سورة العنكبوت : ٦٤ .
[2]. سورة الزمر : ٩ .
[3]. سورة فصلت : ٣ .
[4]. سورة الشورى : ١٨ .
[5]. سورة الانفطار : ٥ .

قال تعالى ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ .[1]

وقـــال تعـــالى ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ .[2]

وقال تعالى ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ .[3]

وقـــال تعـــالى ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ .[4]

وقـــال تعـــالى ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ .[5]

وقـــــال تعــــــالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ .[6]

---

[1]. سورة البقرة : ٣١ .
[2]. سورة النساء : ٨٣ .
[3]. سورة النساء : ١١٣ .
[4]. سورة الأنعام : ٩٧ .
[5]. سورة الأعراف : ٣٢ .
[6]. سورة يونس : ٥ .

وقال تعالى ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ .[1]

وقال تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴾ .[2]

وقال تعالى ﴿ قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ .[3]

وقال تعالى ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ .[4]

وقال تعالى ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ .[5]

وقال تعالى ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ .[6]

وقال تعالى ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ .[7]

وقال تعالى ﴿ كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ ﴾ .[8]

---

[1] . سورة هود : ٤٩ .
[2] . سورة الإسراء : ١٢ .
[3] . سورة الكهف : ٦٦ .
[4] . سورة النمل : ٥٢ .
[5] . سورة العنكبوت : ٤١ .
[6] . سورة الروم : ٧ .
[7] . سورة الواقعة : ٦٢ .
[8] . سورة المعارج : ٣٩ .

* أهمية علمي الدين والدنيا :

العلم سواء أكان علماً بالدين أو بأمر من أمور الدنيا لا يُكتسب لذاته ، ولكن هو دوماً وسيلة لغاية نهائية تتمثل في تعميق الإيمان بالله ومعرفته بحق ويقين ، ونقل ذلك إلي الناس كي ينتشر الإيمان ويعم الصلاح ويكون الدين كله لله .

والعلاقة بين علم الدين وعلم الدنيا علاقة تبادلية جدلية ، فالعلم بالدين قد ينطلق بالإنسان العالم إلي آفاق أرحب وأعمق في اكتناه حقائق المخلوقات والموجودات في الكون والحياة ، ومن ناحية أخرى فإن علوم الحياة قد تعمق العلم بالدين وتثبت فؤاد العالم وترسخ يقينه وتقدم له الأدلة على صواب معتقده .

❖ التعلم :

علما الدين والدنيا كما أوضحناهما وأوردنا الآيات الدالة عليهما في الذكر الحكيم يحتاجان إلي اكتساب فلم يولد إنسان متعلماً ، وكذا كافة المخلوقات ، خلقها الله سبحانه وتعالى ثم علّمها كيف تحيى وتتفاعل مع مفردات وعناصر الوجود وكيف تعبده سبحانه ، من ثم فالقابلية والرغبة في التعلم واكتساب العلم صفة أودعها الله في كافة الكائنات التي خلقها جلّ وعلا في الملائكة في الرسل والأنبياء في الإنسان المسلم في الناس كافة وأخيراً في كافة المخلوقات ، وقد أوضح الخالق سبحانه في كتابه العزيز كيف أن كافة الكائنات تحمل في كيانها خاصية الرغبة والقابلية للتعلم وكيف أن تلك الخاصية تمثل قوام وجود تلك الكائنات وبدونها لا يمكن أن تواصل الحياة ، ويمكن إيضاح ذلك فيما يلي :

- الملائكة :

الملائكة مخلوقات نورانية خلقها الله بمشيئته لتمتثل لأوامره وتنفذ إرادته ، فهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، والملائكة بالرغم من منزلتها السامية القريبة من

الله عز وجل إلا أنها لا تعلم صغيرة ولا كبيرة إلا ما يعلّمها الله ، فهـي تتلقى العلم مـن الله الواحد الأحد وهي مؤهلة بمشيئة إلهية لتلقى العلم من رب العالمين .

قال تعالى ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾[1] ، رغم أن الملائكة لا تعلم إلا ما علمها الله ، إلا أن المنطق العلمـي في الإقناع اتبعه الله جل وعلا حتى مع الملائكة حيث جاءهم بالبيان والـدليل ليعلمـوا أن الله يعلم ما لا يعلمون .

– الرسل والأنبياء :

رسل الله وأنبياؤه أرسلهم الله لهداية البشر وتبليغ رسالات الله إلي عبـاده ، وهـم أفـضل خلق الله وأقربهم إليه ، وانطلاقاً من مهمتهم التي أهلهم الله لها عاكفون على تلقى العلـم من الله عن طريق الوحي لتبليغه إلي الناس ، ومن ثم فهم أكثر بنى البشر رغبة في الـتعلم وأمثلهم مقدرة وقابلية لنقل العلم إلي الناس ونشره فيما بينهم .

ورسل الله وأنبياؤه يتلقون العلم من مصادر عديدة أولها وأهمها على الإطلاق العلـم مـن الله الواحد الأحد ، ثم العلم من الملائكة ، ثم من الصالحين ، وأخيراً من العمـوم ، وسنفـصل ذلك بعد قليل .

– المؤمنون :

من المؤمنين كثير يحبون التعلم وتلقي العلم سـواء أكـان علـم الـدين أو علـم الـدنيا ، وهـم يبقنون أن كل علم هو من عند الله أنزله في كتابـه أو علمـه أحـداً مـن خلقـه ، كمـا أنهـم عاكفون على التعلم ما داموا أحياء ودائبون على نقل علمهم إلي الناس .

[1]. سورة البقرة : ٣١ ـ ٣٣ .

❖ التعليم :

ينتهي التعلم باكتساب العلم واحتوائه ، والجامع للعلم هو العالم والعليم ، وهو القادر على بث العلم إلي الآخرين ، والتعليم عملية مركبة متعددة الأبعاد تشمل العلم كما تشمل التعلم والرغبة في اكتساب العلم ، وتشمل كذلك نشر العلم وتوصيله إلي طالبيه ، وتشمل أخيراً وسائط توصيل العلم ونشره ، ويمكن متابعة تدرجية انتشار العلم على النحو التالي :

- الله العالم العليم العلام :

الله الواحد الأحد هو مصدر العلم جميعاً في هذا الكون والمحيط علماً بكل صغيرة وكبيرة ، وبكافة بواطنه وظواهره ، فهو جلّ وعلا العالم العليم العلام ، وقد جمع تبارك وتعالى في ذاته كافة صفات العالم المعلّم ، الذي ينشر ما يشاء من علمه في الكون فيحيله إلي نور ، فسبحان من لا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وجل من علم الإنسان ما لم يعلم وتبارك من يعلم السر وأخفى .

لقد جمع الذكر الحكيم صفات الخالق العظيم المتعلقة بالعلم ويمكننا رصد الآيات التي حملت تلك الصفات من خلال ما يلي :

○ العالم :

الله هو العالم بجميع مخلوقاته وموجوداته التي خلقها وأوجدها في هذا الكون العظيم ، فخالق الشيء أدرى به وأعلم ، وإذا كان كل شيء في هذا الكون هو من خلق الله فإن الله أعلم به وبكافة دقائقه ومفرداته ، وقد تعددت الآيات الكريمة التي تبين أن الله هو العالم بكل شئون الكون وما فيه من مخلوقات وموجودات .

قال تعالى ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾ .[1]

وقال تعالى ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ .[2]

وقال تعالى ﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ .[3]

وقال تعالى ﴿ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴾ .[4]

وقال تعالى ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .[5]

وقال تعالى ﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ .[6]

وقال تعالى ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴾ .[7]

وقال تعالى ﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ .[8]

---

[1]. سورة الأنعام : ٣ .
[2]. سورة الأنعام : ٧٣ .
[3]. سورة الأنعام : ٨٠ .
[4]. سورة الأعراف : ٨٩ .
[5]. سورة التوبة : ١٠٥ .
[6]. سورة هود : ٦ .
[7]. سورة الرعد : ٩ .
[8]. سورة طه : ٧ .

وقال تعالى ﴿ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾ .[1]

وقال تعالى ﴿ قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ .[2]

وقال تعالى ﴿ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴾ .[3]

وقال تعالى ﴿ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .[4]

وقال تعالى ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ .[5]

وقال تعالى ﴿ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ .[6]

وقال تعالى ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ ﴾ .[7]

وقال تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ .[8]

وقال تعالى ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ .[9]

وقال تعالى ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ .[10]

---

[1] . سورة طه : ٩٨ .
[2] . سورة الأنبياء : ٤ .
[3] . سورة الأنبياء : ١١٠ .
[4] . سورة المؤمنون : ٩٢ .
[5] . سورة الفرقان : ٦ .
[6] . سورة السجدة : ٦ .
[7] . سورة سبأ : ٢ و ٣ .
[8] . سورة فاطر : ٣٨ .
[9] . سورة الزمر : ٤٦ .
[10] . سورة غافر : ١٩ .

وقال تعالى ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ .[1]

وقال تعالى ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ .[2]

وقال تعالى ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾ .[3]

وقال تعالى ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴾ .[4]

○ الأعلم :

كذلك وردت صفة الله الأعلم وهي تفيد أن الله أعلم بكل شيء وأعلم من كل عالم وعليم وأنه مصدر العلم لكل مخلوقاته ، وعلمه جلّ وعلا علم تقدير ويقين .

قال تعالى ﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴾ .[5]

وقال تعالى ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ .[6]

وقال تعالى ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّۦنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ ﴾ .[7]

[1]. سورة الحشر : ٢٢ .
[2]. سورة التغابن : ١٨ .
[3]. سورة الطلاق : ١٢ .
[4]. سورة الأعلى : ٧ .
[5]. سورة الأنعام : ١٢٤ .
[6]. سورة النحل : ١٢٥ .
[7]. سورة الإسراء : ٥٤ و ٥٥ .

وقـــال تعـــالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾ .[1]

وقـال تعـالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ .[2]

وقال تعالى ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ .[3]

وقـال تعـالى ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾ ﴾ .[4]

وقال تعالى ﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ .[5]

وقال تعالى ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ .[6]

وقال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ .[7]

---

[1]. سورة الكهف : ٢١ .
[2]. سورة القصص : ٨٥ .
[3]. سورة القصص : ٥٦ .
[4]. سورة العنكبوت : ١٠ و ١١ .
[5]. سورة الزمر : ٧٠ .
[6]. سورة ق : ٤٥ .
[7]. سورة الممتحنة : ١ .

○ العليم :

كذلك تجتمع للحق تبارك وتعالى بالإضافة إلي الصفتين السابقتين صفة ثالثة تفيد علمه المطلق بكافة محتويات الكون صغيرها وكبيرها ظاهرها وباطنها ، وفي ذلك نورد الآيات التالية :

قال تعالى ﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ .[1]

وقال تعالى ﴿ ۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم ۚ مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ ۚ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾ .[2]

وقال تعالى ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴾ .[3]

وقال تعالى ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ ﴾ .[4]

---

[1]. سورة البقرة : ١٥٨ .
[2]. سورة النساء : ١٢ .
[3]. سورة النساء : ٣٥ .
[4]. سورة النساء : ١٤٧-١٤٨ .

وقال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ .[1]

وقال تعالى ﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ .[2]

وقال تعالى ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ .[3]

وقال تعالى ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ .[4]

وقال تعالى ﴿ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾ .[5]

وقال تعالى ﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴾ .[6]

وقال تعالى ﴿ ۞ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴾ .[7]

---

[1]. سورة المائدة : ٥٤ .
[2]. سورة يوسف : ٧٦ .
[3]. سورة النحل : ٧٠ .
[4]. سورة النمل : ٦ .
[5]. سورة الحج : ٥٩ .
[6]. سورة الروم : ٥٤ .
[7]. سورة الأحزاب : ٥١ .

وقال تعالى ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴾ .[1]

وقال تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ .[2]

وقال تعالى ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾ .[3]

وقال تعالى ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾ .[4]

وقال تعالى ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ .[5]

وقال تعالى ﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾.[6]

وقال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ .[7]

وقال تعالى ﴿ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .[8]

وقال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ .[9]

---

[1]. سورة سبأ : ٢٦ .
[2]. سورة فاطر : ٤٤ .
[3]. سورة يس : ٨١ .
[4]. سورة الزخرف : ٩ .
[5]. سورة الدخان : ٦ .
[6]. سورة الفتح : ٢٦ .
[7]. سورة الحجرات : ١ .
[8]. سورة الحجرات : ٨ .
[9]. سورة الحجرات : ١٣ .

وقال تعالى ﴿ قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾ .[1]

وقال تعالى ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .[2]

وقال تعالى ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .[3]

وقال تعالى ﴿ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٣﴾ ﴾ .[4]

وقال تعالى ﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ .[5]

وقال تعالى ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ .[6]

○ العلام :

كذلك من صفات الله سبحانه وتعالى في مقام العلم أنه العلام الذي يعلم ما يغيب عن المخلوقات جميعاً ولا ينفرد بعلمه إلا هو جلّ وعلا ، ونرصد الآيات الكريمة التي حملت تلك الصفة الجليلة لله الواحد الأحد فيما يلي :

قال تعالى ﴿ ۞ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ .[7]

---

[1] سورة الذاريات : ٣٠ .
[2] سورة المنافقون : ١١ .
[3] سورة التغابن : ١١ .
[4] سورة التحريم : ٢ و ٣ .
[5] سورة الملك : ١٣ .
[6] سورة الإنسان : ٣٠ .
[7] سورة المائدة : ١٠٩ .

وقال تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ .[1]

وقال تعالى ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ .[2]

وقال تعالى ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ .[3]

○ المعلم :

المعلم الأول في هذا الكون هو الخالق العظيم الحق تبارك وتعالى علّم كافة المخلوقات كيف تعيش وتتفاعل مع عناصر الوجود وتؤدي المهام التي جاءت من أجلها ، وكذلك علم الإنسان العلم بنوعيه ، علم الدين عن طريق الأنبياء والرسل ، وعلم الدنيا عن طريق تسخير المخلوقات والموجودات ثم عن طريق إنارة الطريق للعقل وفي ذلك يستوي المؤمن والكافر .

قال تعالى ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٣١) قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ (٣٢) ﴾ .[4]

وقال تعالى ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴾ .[5]

وقال تعالى ﴿ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾ .[6]

---

[1] سورة المائدة : ١١٦ .
[2] سورة التوبة : ٧٨ .
[3] سورة سبأ : ٤٨ .
[4] سورة البقرة : ٣١ و ٣٢ .
[5] سورة البقرة : ٢٣٩ .
[6] سورة آل عمران : ٤٨ .

وقال تعالى ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ .[1]

وقال تعالى ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ .[2]

وقال تعالى ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ .[3]

وقال تعالى ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ .[4]

وقال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ

[1]. سورة النساء : ١١٣ .
[2]. سورة المائدة : ٤ .
[3]. سورة المائدة : ١١٠ .
[4]. سورة البقرة : ٢٥١ .

مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟ ۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟ ۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .[1]

وقال تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .[2]

وقال تعالى ﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ .[3]

وقال تعالى ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .[4]

وقال تعالى ﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ .[5]

وقال تعالى ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ .[6]

وقال تعالى ﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴾ .[7]

---

[1]. سورة البقرة : ٢٨٢ .
[2]. سورة يوسف : ٦ .
[3]. سورة يوسف : ٣٧ .
[4]. سورة يوسف : ٦٨ .
[5]. سورة يوسف : ١٠١ .
[6]. سورة الكهف : ٦٥ .
[7]. سورة الأنبياء : ٨٠ .

وقال تعالى ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾ ﴾ .[1]

وقال تعالى ﴿ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾ .[2]

– الملائكة :

للملائكة دور في عملية التعليم ونقله إلي بنى البشر ، فالملائكة تتلقى العلم من الله العليم العلام، ثم تلقيه إلي بنى البشر من الأنبياء وغيرهم ، ومن ثم فالملائكة وسائط في عملية نقل العلم ونشره بين أشخاص بعينهم ، وقد ورد ذلك في الذكر الحكيم على النحو التالي :

قال تعالى ﴿ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾.[3]

وقال تعالى ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ﴾[4] ، وتفيد هذه الآية الكريمة أن جبريل عليه السلام كان يعلم الرسول القرآن ويدارسه إياه .

– الرسل والأنبياء :

الرسل والأنبياء هم حملة الرسالات السماوية التي جاءت بعلم الدين وتتمثل مهمتهم في توصيلها إلي بنى البشر بإيضاح محتواها وتبيان مضمونها ، وقد جاءت كافة الرسالات

[1]. سورة الرحمن : ١ : ٤ .
[2]. سورة العلق : ٤ و ٥ .
[3]. سورة البقرة : ١٠٢ .
[4]. سورة النجم : ٤ و ٥ .

السماوية منذ آدم عليه السلام وحتى الرسول الخاتم محمد عليه الصلاة والسلام لتدعو إلي دين الإسلام أي إسلام الوجه لله الواحد الأحد والإيمان به وعبادته وتوحيده ، وقد جمعت كل تلك الرسالات علم الدين أما القرآن العظيم فقد جمع علم الدين وعلوم الدنيا ، حيث وضع أصول تلك العلوم وأسسها .

إن مهمة الرسل والأنبياء تتمثل في تعليم الناس علوم الدين ، تلك العلوم التي تلقوها من الحق تبارك وتعالى عن طريق الوحي ، والرسل والأنبياء – كما سبق الإيضاح – يتعلمون من الخالق سبحانه ، ثم أنهم قد يتعلمون كذلك من البشر ، وكثير من الرسل والأنبياء قد تعلموا من البشر أو عباد الله الصالحين ، ونوضح ذلك فيما يلي :

○ الرسل والأنبياء يعلمون الناس الدين والحكمة :

المهمة الأولى للرسل والأنبياء هي تلقى علم الدين والحكمة ثم تعليمها للناس والشق الأول يتم عن طريق الوحي ، أما الشق الثاني فيتم عن طريق التبليغ ووسائله العديدة والمتنوعة .

قال تعالى ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .[1]

وقال تعالى ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ .[2]

وقال تعالى ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ .[3]

---

[1]. سورة البقرة : ١٢٩ .
[2]. سورة البقرة : ١٥١ .
[3]. سورة آل عمران : ١٦٤ .

وقـــال تعـــالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ .[1]

وقال تعالى ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ .[2]

وقال تعالى ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ .[3]

وقال تعالى ﴿ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴾ .[4]

وقال تعالى ﴿ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ .[5]

وقال تعالى ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .[6]

وقال تعالى ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ .[7]

وقال تعالى ﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ .[8]

---

[1]. سورة الجمعة : ٢ .
[2]. سورة يوسف : ٢٢ .
[3]. سورة طه : ١١٤ .
[4]. سورة الأنبياء : ٧٤ .
[5]. سورة الأنبياء : ٧٩ .
[6]. سورة النمل : ١٥ .
[7]. سورة القصص : ١٤ .
[8]. سورة الكهف : ٦٦ .

○ الرسل والأنبياء يتعلمون من الناس :

إذا كان رسل الله وأنبياؤه يتلقون علم الدين من الحق تبارك وتعالى عن طريق الوحي ثم يبلغونه إلي الناس ويعلمونهم إياه ، فإنهم كذلك يتعلمون من الناس بعض علوم الدين وكثيراً من علوم الدنيا ، كما يتعلمون من مخلوقات أخرى مثل الجن أو الطير والحيوان ، وقد أورد القرآن الكريم ذلك في مواضع عديدة نرصدها فيما يلي :

□ تعلم الرسل والأنبياء من عباد الله الصالحين ومن مخلوقات الله :

لم يستنكف رسل الله وأنبياؤه أن يتعلموا من عباده الصالحين الذين خصهم الله بعلم من عنده أو من مخلوقاته سواء من الملائكة أو من الطير ، وقد أوضح القرآن الحكيم ذلك فيما يلي :

قال تعالى ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾[1] ، وفي هذه الآية الكريمة يقصد الحق تبارك وتعالى طائر الهدهد الذي جاء إلي سيدنا سليمان بنبأ أهل سبأ .

وقال تعالى ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ (٣٩) قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ (٤٠) ﴾ .[2]

وقال تعالى " ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ ".[3]

وقال تعالى ﴿ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴾ .[4]

---

[1]. سورة النمل : ٢٢ .
[2]. سورة النمل : ٣٩ و ٤٠ .
[3]. سورة النمل : ١٧ .
[4]. سورة ص : ٣٧ .

وقال تعالى ﴿ وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَـٰرِيبَ وَتَمَـٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾.[1]

□ الشورى لاستحصال جماع الرأي الصواب :

بالإضافة إلي ما تقدم أمر الله سبحانه وتعالى رسله وأنبياءه بالتشاور مع أصحابهم وحوارييهم حتى يحصلوا على الآراء الصائبة والرؤى السديدة ، ومن أجل ذلك جاء قول الحق تبارك وتعالى في الآيتين الكريمتين التاليتين :

قال تعالى ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ .[2]

وقال تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ .[3]

– علماء الدين :

العلماء هم ورثة الأنبياء ، يرثون عنهم العلم والحكمة ، ويندرج علماء الدين في المرتبة الرابعة بعد الله سبحانه وتعالى ، ثم الملائكة ، ثم الرسل والأنبياء وقد حفل الذكر الحكيم بالآيات الكريمة التي تذكر مسميات العلماء ومصادر علمهم وكذا مهمتهم التي تتمثل في نقل العلم والإفادة منه وأيضاً علاقتهم بالخالق جلّ وعلا وأخيراً صفاتهم التي يتحلون بها .

O مسمياتهم :

وردت تسميات عديدة للعلماء في القرآن الكريم يمكن رصدها في الآيات الكريمة التالية :

---

[1]. سورة سبأ : ١٢ و ١٣ .
[2]. سورة آل عمران : ١٥٩ .
[3]. سورة الشورى : ٣٨ .

□ العليم :

قال تعالى ﴿ قَالُواْ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴾ .[1]

وقال تعالى ﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴾ .[2]

□ العلماء ومفردها عليم :

قال تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ .[3]

وقال تعالى ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ .[4]

□ العالمون ومفردها عالم :

قال تعالى ﴿ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴾ .[5]

وقال تعالى ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ .[6]

وقال تعالى ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾ .[7]

---

1. سورة الحجر : ٥٣ .
2. سورة الذاريات : ٢٨ .
3. سورة الشعراء : ١٩٧ .
4. سورة فاطر : ٢٨ .
5. سورة يوسف : ٤٤ .
6. سورة العنكبوت : ٤٣ .
7. سورة الروم : ٢٢ .

□ الذين أوتوا العلم :

قـــال تعـــالى ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ .[1]

وقال تعالى ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾.[2]

وقال تعالى ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ .[3]

وقال تعالى ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ .[4]

وقـــــال تعـــــالى ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾.[5]

وقـال تعـالى ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ .[6]

وقـال تعـالى ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ .[7]

---

[1]. سورة النحل : ٢٧ .
[2]. سورة الإسراء : ١٠٧ .
[3]. سورة الحج : ٥٤ .
[4]. سورة القصص : ٨٠ .
[5]. سورة العنكبوت : ٤٩ .
[6]. سورة الروم : ٥٦ .
[7]. سورة سبأ : ٦ .

وقــال تعــالى ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ .[1]

وقــال تعــالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ .[2]

□ ذوو العلم :

قــال تعــالى ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .[3]

وقال تعــالى ﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ .[4]

□ الذين جاءهم العلم :

قــال تعــالى ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ .[5]

وقــال تعــالى ﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ .[6]

---

[1]. سورة محمد : ١٦ .
[2]. سورة المجادلة : ١١ .
[3]. سورة يوسف : ٦٨ .
[4]. سورة يوسف : ٧٦ .
[5]. سورة آل عمران : ١٩ .
[6]. سورة يونس : ٩٣ .

وقال تعالى ﴿ وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ﴾ .[١]

وقال تعالى ﴿ وَءَاتَيۡنَٰهُم بَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِۖ فَمَا ٱخۡتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴾ .[٢]

□ من هم على علم :

قال تعالى ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴾ .[٣]

وقال تعالى ﴿ فَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلۡنَٰهُ نِعۡمَةٗ مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمِۭۚ بَلۡ هِيَ فِتۡنَةٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ .[٤]

وقال تعالى ﴿ وَلَقَدِ ٱخۡتَرۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ عِلۡمٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ .[٥]

وقال تعالى ﴿ أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ .[٦]

□ من عنده علم :

قال تعالى ﴿ قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيّٞ كَرِيمٞ ﴾ .[٧]

---

[١]. سورة الشورى : ١٤ .
[٢]. سورة الجاثية : ١٧ .
[٣]. سورة القصص : ٧٨ .
[٤]. سورة الزمر : ٤٩ .
[٥]. سورة الدخان : ٣٢ .
[٦]. سورة الجاثية : ٢٣ .
[٧]. سورة النمل : ٤٠ .

وقال تعالى ﴿ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴾ .[1]

□ أولو العلم :

قال تعالى ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ .[2]

□ أولو الألباب :

قال تعالى ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ .[3]

وقال تعالى ﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ .[4]

وقال تعالى ﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ .[5]

وقال تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ .[6]

وقال تعالى ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ .[7]

---

[1]. سورة النجم : ٣٥ .
[2]. سورة آل عمران : ١٨ .
[3]. سورة البقرة : ١٧٩ .
[4]. سورة البقرة : ١٩٧ .
[5]. سورة البقرة : ٢٦٩ .
[6]. سورة آل عمران : ٧ .
[7]. سورة آل عمران : ١٩٠ .

وقال تعالى ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ۚ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ .[1]

وقال تعالى ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .[2]

وقال تعالى ﴿ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ .[3]

وقال تعالى ﴿ هَٰذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ .[4]

وقال تعالى ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ .[5]

وقال تعالى ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ .[6]

وقال تعالى ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ .[7]

وقال تعالى ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ .[8]

وقال تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ .[9]

---

[1]. سورة المائدة : ١٠٠ .
[2]. سورة يوسف : ١١١ .
[3]. سورة الرعد : ١٩ .
[4]. سورة إبراهيم : ٥٢ .
[5]. سورة ص ٢٩ .
[6]. سورة ص : ٤٣ .
[7]. سورة الزمر : ٩ .
[8]. سورة الزمر : ١٨ .
[9]. سورة الزمر : ٢١ .

وقال تعالى ﴿ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ .[1]

وقال تعالى ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا ۚ قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴾ .[2]

□ أولو الأبصار :

قال تعالى ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ ۚ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾.[3]

وقال تعالى ﴿ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ .[4]

وقال تعالى ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا ۖ وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ .[5]

□ أولو النهى :

قال تعالى ﴿ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴾ .[6]

وقال تعالى ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴾ .[7]

---

[1]. سورة غافر : ٥٤ .
[2]. سورة الطلاق : ١٠ .
[3]. سورة آل عمران : ١٣ .
[4]. سورة النور : ٤٤ .
[5]. سورة الحشر : ٢ .
[6]. سورة طه : ٥٤ .
[7]. سورة طه : ١٢٨ .

○ مصادر العلم :

الحق تبارك وتعالى هو مصدر العلم جميعاً يفتح به على من يشاء من عباده ، وربنا العالم العليم العلام يهب من علمه للرسل والأنبياء والملائكة وغيرهم من البشر ما يشاء ومتى يشاء ، ويعتبر الرسل والأنبياء وسائط لنقل العلم من الخالق سبحانه إلي بنى البشر ، ومن ثم فهم مصدر للعلم بعد الحق تبارك وتعالى ، كما أن العالمين والعلماء يمثلون المصدر الثالث للعلم بعد الحق سبحانه ثم بعد الرسل والأنبياء .

□ الله مصدر العلم جميعاً :

قال تعالى ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ .[1]

وقال تعالى ﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ .[2]

وقال تعالى ﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ .[3]

[1]. سورة البقرة : ٢٥٥ .
[2]. سورة النساء : ١٦٦ .
[3]. سورة الأنعام : ٨٠ .

وقال تعالى ﴿ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴾ .[١]

وقال تعالى ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ .[٢]

وقال تعالى ﴿ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾ .[٣]

وقال تعالى ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ .[٤]

وقال تعالى ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ .[٥]

وقال تعالى ﴿ ۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴾ .[٦]

وقال تعالى ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾ .[٧]

□ الرسل والأنبياء مصدر العلم بعد الخالق سبحانه :

---

١. سورة الأعراف : ٨٩ .
٢. سورة الإسراء : ٨٥ .
٣. سورة طه : ٩٨ .
٤. سورة طه : ١١٤ .
٥. سورة فاطر : ١١ .
٦. سورة فصلت : ٤٧ .
٧. سورة الطلاق : ١٢ .

قــال تعــالى ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ .[1]

وقــال تعــالى ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ .[2]

وقــال تعــالى ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ (٦١) ﴾ .[3]

وقــال تعــالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴾ .[4]

وقال تعالى ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴾ .[5]

□ أهل العلم مصدر العلم بعد الرسل والأنبياء :

قــال تعــالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ .[6]

---

[1]. سورة البقرة : ١٢٠ .
[2]. سورة البقرة : ١٤٥ .
[3]. سورة آل عمران : ٦١ .
[4]. سورة الرعد : ٣٧ .
[5]. سورة مريم : ٤٣ .
[6]. سورة آل عمران : ٧ .

وقال تعالى ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ .[1]

وقال تعالى ﴿ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ .[2]

○ مهمة أهل العلم :

لأهل العلم مهام جليلة ومناقب عديدة ، فتح الله عليهم بالعلم ثم جعلهم ورثة الأنبياء يخلفونهم في حفظ العلم ونشره بين الناس والعمل به والتقرب به إلي الله ، ويمكننا تعديد أهم مهام أهل العلم فيما يلي :

□ نقل العلم ونشره بين الناس :

تتمثل أول مهام أهل العلم في نقل العلم ونشره بين الناس وهذا هو التعليم ، والتعليم أو نقل العلم ونشره فريضة على كل ذى علم ، كما أن التعلم وتلقى العلم هو أيضاً فريضة ، فالعلم ليس للاكتناز ولكنه للانتشار والتداول ، ويفترض أيضاً في المسلم أن يطلب العلم طالما هو على قيد الحياة وما دام يتمتع بكامل قواه البدنية والعقلية ، ويستوي في ذلك وذاك الرجال والنساء دون تفرقة على الإطلاق ، فمصدر التكليف في هذه المسالة هو الخالق سبحانه والمخاطبون به متساوون تماماً .

□ الاستفادة من العلم وتبيان تطبيقه في المجتمع :

العلم لا يكتسب لذاته ، كما لا يحجب عن الآخرين ، بل هو للتداول والتطبيق على أرض الواقع ، ومهمة أهل العلم إلي جانب نشر العلم تبيان تطبيقه داخل المجتمع والاستفادة

---

[1]. سورة النساء : ٨٣ .
[2]. سورة النساء ١٦٢ .

منه في تغيير أفكار الناس ومعتقداتهم وسلوكياتهم إلي الأصح والأصوب ، فالعالم ينشر علمه بين الناس ثم يقدم السلوك الذي يحوّل القول إلي فعل ، ويعلم الناس كيف يكتسبون العلم وكيف يتأسون به في تطبيقه على أرض الواقع .

قال تعالى ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ .[1]

وقال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (٣) ﴾ .[2]

□ التقرب بالعلم إلي الله والتفاني في طاعته :

الغاية من العلم هو التقرب به إلي الله ومعرفته بيقين ورسوخ ثم التفاني في طاعته انطلاقاً من تقديره حق قدره وتوقيره جلّ وعلا ، فلا غاية للعم ولا مقصد سواء أكان دينياً أو دنيوياً إلا عبادة الله بحق وطاعته بإخلاص وصدق .

قال تعالى ﴿ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ .[3]

وقال تعالى ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ .[4]

○ صفات أهل العلم :

أما عن صفات أهل العلم فقد تجمعت لديهم أحسن الخصائل وأفضل الشمائل التي تلتقي جميعها حول الفضيلة بشقيها العلم والحكمة ، ونعدد تلك الصفات فيما يلي :

---

[1]. سورة البقرة : ٤٤ .
[2]. سورة الصف : ٢ و ٣ .
[3]. سورة فاطر : ٢٨ .
[4]. سورة الذاريات : ٥٦ .

□ الاعتراف بفضل الله وأن العلم كله لله ومن الله :

مأمورون أهل العلم بأن يعترفوا بفضل الله الذي مّن عليهم بالعلم وفتح عليهم بالحكمة ، وهم لا يسئمون ولا يستنكفون من الإقرار بذلك ، بل يشهدون بأن ذلك هو الحق المبين ، قال تعالى ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ .[1]

□ التواضع لله والاعتزاز بالعلم في غير استكبار أو تجبر :

كذلك من صفات أهل العلم التواضع لله الخالق الذي مّن على عباده بشيء من علمه ، والاعتزاز بالعلم ، فالعلم يؤدي إلي طاعة الله ، وفي الطاعة العز والسؤدد ، واعتزاز العلماء لا يخالجه استكبار ولا يخالطه تجبر ، بل هو اعتزاز بالعبودية للملك العلام .

□ الفهم والحصافة ولا حياء في العلم :

يتسم أهل العلم بسعة الأفق ودقة الإدراك وحصافة الرأي والأدب في التعبير عن الرأي والشجاعة في إقرار الحق ، وعدم الاستحياء في العلم ، ولا يتنافى ذلك مع كون الحياء شعبة من شعب الإيمان .

□ المثابرة والصبر والجلد والدأب في طلب العلم من عادات أهل العلم المثابرة وهي المواظبة والمداومة على طلب العلم ، والصبر على الصعاب والمشاق وعدم الملل والسأم من التدقيق والبحث والتنقيب ، فالعلم ليس له نهاية ، وكلما استزاد المرء من العلم شعر بجهله واستحضر عظمة الله وسعة علمه ، فتزداد طاعته ويسمو إيمانه .

○ فضل العلم والعالم والمتعلم :

---

[1]. سورة آل عمران : ١٨ .

تمثل ثلاثية العلم والعالم والمتعلم أهم محاور العملية التعليمية أو ما يعرف بالتعليم ، وهذه المحاور لها أفضلية وفضل عظيم عند الخالق العليم وعند ذوى الفطرة السوية من البشر أجمعين ، ويمكن متابعة فضل العلم والعالم والمتعلم فيما يلي :

□ فضل العلم :

العلم جميعاً – وكما سبق الإيضاح – مصدره الخالق العظيم ، والله لا يهب عباده إلا الخير والعلم كله خير وفيه الصلاح للفرد والمجتمع والكون ، يوسّع مدارك الفرد ويعمق آفاقه ويقربه من ربه ويعرّفه به عن حق ويقين فتتحقق الغاية النهائية والمقصد الأخير المتمثل في ترسيخ الإيمان بالله وطاعته وعبادته ، والعلم كذلك يرقى بالمجتمع الذي هو مجموع الأفراد حيث يسوده الوئام والصلاح ناهيك عن الأخذ بأسباب القوة والمكنة ، وأخيراً العلم هو الوسيلة الناجعة للتعامل بحكمة ورشد مع عناصر الوجود وموجودات الكون .

□ فضل أهل العلم :

إذا كان ما تقدم هو فضل العلم وتأثيره على الفرد والمجتمع والكون ، فإن الحق تبارك وتعالى قد قدّر أهل العلم ووقرهم ورفع من شأنهم وأعلى مكانتهم وهل من فوز أعظم من تقدير الخالق ! .

قال تعالى ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۗ وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ﴾ .[1]

وقال تعالى ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ .[1]

[1]. سورة طه : ١١٤ .

وقال تعالى ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ .[2]

وقال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ .[3]

□ فضل المتعلم :

المتعلم هو طالب العلم ، وطالب العلم في سبيله إلي أن يصبح عالماً فهو في مرحلة تحصيل العلم وتجميعه وهو يجاهد في سبيل ذلك ، ويصبو إلي الفضيلة التي هي جماع العلم والحكمة ، وله من الله فضل عظيم وأجر كريم والمتعلم مثله مثل العالم كلاهما لا يزال يطلب العلم ، فمهما أوتى الإنسان من العلم فهو لا يزال جاهلاً ، فما علم العالمين إذا فطنوا إلا قليلاً كنقطة ماء من يمٍ عظيمٍ ، قال تعالى ﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ .[4]

وقال تعالى ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ .[5]

وقال تعالى ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ .[6]

العلوم الطبيعية :

---

[1]. سورة فاطر : ٢٨ .
[2]. سورة الزمر : ٩ .
[3]. سورة المجادلة : ١١ .
[4]. سورة يوسف : ٧٦ .
[5]. سورة الإسراء : ٨٥ .
[6]. سورة طه : ١١٤ .

العلوم الطبيعية هي حصيلة الجهود الذهنية التي يبذلها الإنسان عن عمد ورغبة في اكتناه حقائق الوجود ومفردات الكون التي تحيط به ، فيكتشف طبيعة تلك الحقائق وتكوينات تلك المفردات والعلاقة بينها ، وهو في سبيل ذلك يستخدم أدوات ومناهج منظمة هي ما عرف بمناهج البحث العلمي .

وقد تناول الذكر الحكيم كافة الظواهر الطبيعية ، وتعمق في كثير منها بما لم يقدّر للإنسان حتى الآن الغوص إلي مكنون تلك الظواهر ، والتوصل إلي حقائقها ومضامينها والعلاقة بينها ، ويثبت العلماء في كل يوم أجزاءً يسيرة من حقائق تلك الظواهر ، ولا يزال معظمها في علم الغيب الذي لا يملكه إلا الخالق العظيم .

- ما هية العلوم الطبيعية :

يمكننا تحديد ما هية العلوم الطبيعية من خلال جملة من العناصر بائتلافها يتكون مفهوم العلوم الطبيعية ، وتتمثل هذه العناصر فيما يلي :

- هي حصيلة جهود ذهنية يبذلها الإنسان :

العلوم الطبيعية بمثابة حصيلة لجهود ذهنية يبذلها الإنسان ، وتتجسد تلك الجهود في إعمال العقل وإقداح الذهن فيما يحيط بالإنسان ، وقد ألف الإنسان منذ وجوده القيام بهذه المهمة الذهنية وشرع يطورها من جيل إلي جيل فانتقلت حصيلة الجهد الذهني ونمت بشكل مطرد .

- بذل الجهد الذهني عن عمد ورغبة :

الجهد الذهني الذي يبذله الإنسان لمعرفة ما يحيط به من الظواهر والموجودات والمخلوقات لم يكن في معظم الأحوال عبثاً وارتجالاً وصدفة ، ولكنه كان عن عمد ورغبة ، فقد عمد الإنسان إلي فك رموز ما يحيط به من ظواهر وموجودات ، والعمد يستوجب استحضار

الاهتمام واستجماع الطاقة والمكنة ، كما كان لدى الإنسان رغبة قائمة وجادة من أجل بذل تلك الجهود الذهنية ، والرغبة تعني أن ثمة هدفاً يرجى الوصول إليه وهو المعرفة والاستفادة .

○ ازدواجية الهدف والمقصد :

العلوم الطبيعية التي هي جماع الجهود الذهنية التي يبذلها الإنسان عن عمد ورغبة ينبئنا استقراء التاريخ بأنها كانت وسيلة لهدف ومقصد مزدوج ، الهدف والمقصد الأول تمثل في اكتناه مفردات الكون وعناصر الوجود من أجل التعامل معها واستئناسها والسيطرة عليها وتسخيرها لمصلحة الإنسان ، وهذا هو ما عرف فيما بعد بالحضارة حيث أقيمت المدنيات وضمت من صنوف وأشكال الحضارة الكثير ، الهدف والمقصد الثاني تمثل في فقه مفردات الكون وعناصر الوجود من أجل التوصل إلي البارئ العظيم الذي أبدع هذا الكون على غير مثال سابق ، والتعرف عليه سبحانه بآلائه وآياته ، ثم الإيمان به وتوحيده وطاعته وعبادته بصدق ويقين ، ولا شك في أن هناك من البشر من جمع بين الهدفين في آن واحد ، فاتخذ من فهم عناصر الوجود وموجودات الكون أداة لمعرفة الخالق وتوطيد أركان الإيمان ، ثم وسيلة لاستئناس تلك العناصر والموجودات واستثمارها لمصلحة الإنسان ، حيث أن الله تبارك وتعالى قد سخرها للإنسان حتى قبل وجوده في الكون .

○ ابتكار وسائل وأدوات البحث والتنقيب :

لقد عمد الإنسان وهو بصدد بذل جهوده من أجل اكتناه حقائق الوجود إلي تنظيم تلك الجهود بشكل متواتر ، فكان يبتكر من الوسائل والأدوات ما يعينه على البحث ويمكنه من التنقيب فيما حوله من الظواهر والموجودات ، وهذا التنظيم الذي تجسد في وسائل

وأدوات هو الذي جعل حصيلة تلك الجهود تتسم بالاتساق والمنطقية والترابط ، وهو ما اصطلح على تسميته في العصور الحديثة بالعلوم ، وتولد من ذلك ما عرف أيضاً بالبحث العلمي ومناهجه وأدواته .

- العلوم الطبيعية في الذكر الحكيم :

تناول الذكر الحكيم مسألة العلوم الطبيعية وهي المتعلقة بالطبيعة والكون ، من خلال مسلكين الأول : تناول الظواهر الطبيعية ومفردات الوجود ، والثاني : تناول العلماء أو أهل العلم الذين اهتموا بهذه الظواهر وعكفوا على فهمها والاستفادة منها ، وقسم العلماء الذين اهتموا بالظواهر الطبيعية إلي قسمين : قسم أقدم على البحث في هذه الظواهر لتعميق الإيمان وطاعة الله بحق ، ثم استثمار تلك الظواهر في صالح الناس ، وقسم أنكب على التعرف على الظواهر الطبيعية من أجل المنفعة المادية وتحقيق مصلحة الناس الدنيوية وتكريس أشكال ومظاهر الحضارة المادية .

○ الظواهر الطبيعية في القرآن الكريم :

اشتمل القرآن الكريم على جل الظواهر الطبيعية التي يعيش في وسطها الإنسان ويتعامل معها وتعتبر ذات أهمية في حياته ووجوده ، وسوف نعمد إلي رصد تلك الظواهر فيما يلي :

□ الإنسان ووجوده في الكون :

قال تعالى ﴿ هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ﴾ .[1]

[1]. سورة الإنسان : ١ .

وقال تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ .[1]

وقال تعالى ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ .[2]

وقال تعالى ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ .[3]

وقال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ .[4]

وقال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ .[5]

وقال تعالى ﴿۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ .[6]

وقال تعالى ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾ .[7]

□ الماء ونشأة الحياة في الكون :

---

[1] . سورة البقرة : ٣٠ .
[2] . سورة آل عمران : ٥٩ .
[3] . سورة المؤمنون : ١٢ : ١٤ .
[4] . سورة النساء : ١ .
[5] . سورة الحجرات : ١٣ .
[6] . سورة هود : ٦١ .
[7] . سورة المؤمنون : ١٥ و ١٦ .

قال تعالى ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .[1]

وقال تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .[2]

وقال تعالى ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾ .[3]

وقال تعالى ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .[4]

وقال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ .[5]

□ السماوات السبع :

قال تعالى ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .[6]

---

[1] . سورة العنكبوت : ٢٠ .
[2] . سورة الأنبياء : ٣٠ .
[3] . سورة الفرقان : ٥٤ .
[4] . سورة النور : ٤٥ .
[5] . سورة الحج : ٥ .
[6] . سورة البقرة : ٢٩ .

وقال تعالى ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ .[1]

وقال تعالى ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ .[2]

وقال تعالى ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ .[3]

□ الأرض وحركتها :

قال تعالى ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ .[4]

وقال تعالى ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ .[5]

وقال تعالى ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢) ﴾ .[6]

وقال تعالى ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴾ .[7]

وقال تعالى ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ .[1]

---

[1] . سورة الرعد : ٢ .
[2] . سورة لقمان : ١٠ .
[3] . سورة البقرة : ٢٢ .
[4] . سورة الفرقان : ٦٢ .
[5] . سورة النمل : ٨٨ .
[6] . سورة القصص : ٧١ و ٧٢ .
[7] . سورة يس : ٣٧ .

وقال تعالى ﴿ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ﴾ .[2]

وقال تعالى ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴾ .[3]

وقال تعالى ﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴾ .[4]

وقال تعالى ﴿ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ .[5]

وقال تعالى ﴿ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴾ .[6]

□ النجوم والكواكب والبروج والأفلاك :

قال تعالى ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ .[7]

وقال تعالى ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ .[8]

وقال تعالى ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .[9]

---

[1]. سورة يس : ٤٠ .
[2]. سورة الصافات : ٥ .
[3]. سورة المعارج : ٤٠ .
[4]. سورة النازعات : ٣٠ .
[5]. سورة الغاشية : ٢٠ .
[6]. سورة الشمس : ٦ .
[7]. سورة الأنعام : ٩٧ .
[8]. سورة الأعراف : ٥٤ .
[9]. سورة النحل : ١٢ .

وقال تعالى ﴿ وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴾ .[1]

وقال تعالى ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُۤ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴾ .[2]

وقال تعالى ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴾ .[3]

وقال تعالى ﴿ وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾ .[4]

وقال تعالى ﴿ ۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴾ .[5]

وقال تعالى ﴿ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ ﴾ .[6]

وقال تعالى ﴿ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ﴾ .[7]

وقال تعالى ﴿ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ﴾ .[8]

وقال تعالى ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفۡظٗا مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ ﴿٧﴾ ﴾ .[9]

وقال تعالى ﴿ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ﴾ .[10]

وقال تعالى ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ﴾ .[1]

---

[1] سورة النحل : ١٦ .
[2] سورة الحج : ١٨ .
[3] سورة الطور : ٤٩ .
[4] سورة النجم : ١ .
[5] سورة الواقعة : ٧٥ .
[6] سورة المرسلات : ٨ .
[7] سورة التكوير : ٢ .
[8] سورة الطارق : ٣ .
[9] سورة الصافات : ٦ و ٧ .
[10] سورة الانفطار : ٢ .

وقـــال تعـــالى ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴾ .[2]

وقال تعالى ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴾ .[3]

وقال تعالى ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾ .[4]

وقال تعالى ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴾ .[5]

وقال تعالى ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ .[6]

وقال تعالى ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ .[7]

☐ الرياح والريح والأعاصير والرعد والبرق :

قال تعالى ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .[8]

وقـال تعـالى ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ .[9]

---

1. سورة الأنعام : ٧٦ .
2. سورة يوسف : ٤ .
3. سورة الحجر : ١٦ .
4. سورة الفرقان : ٦١ .
5. سورة البروج : ١ .
6. سورة الأنبياء : ٣٣ .
7. سورة يس : ٤٠ .
8. سورة البقرة : ١٦٤ .
9. سورة الأعراف : ٥٧ .

وقال تعالى ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴾ .[1]

وقال تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ .[2]

وقال تعالى ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴾ .[3]

وقال تعالى ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴾ .[4]

وقال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ .[5]

وقال تعالى ﴿ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ ﴾ .[6]

وقال تعالى ﴿ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ۙ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ ﴾ .[7]

---

[1]. سورة الحجر : ٢٢ .
[2]. سورة يونس : ٢٢ .
[3]. سورة إبراهيم : ١٨ .
[4]. سورة الأنبياء : ٨١ .
[5]. سورة الأحزاب : ٩ .
[6]. سورة الذاريات : ٤١ و ٤٢ .
[7]. سورة الإسراء : ٦٨ و ٦٩ .

وقـــال تعـــالى ﴿ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ .[1]

وقال تعالى ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ .[2]

وقال تعالى ﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴾ .[3]

وقـال تعـالى ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ .[4]

وقال تعـالى ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴾ .[5]

□ السحاب :

قال تعالى ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴾ .[6]

وقـال تعـالى ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾ .[7]

---

[1]. سورة الذاريات : ٤٣ و ٤٤ .
[2]. سورة البقرة : ٢٦٦ .
[3]. سورة الرعد : ١٣ .
[4]. سورة البقرة : ١٩ .
[5]. سورة النور : ٤٣ .
[6]. سورة الرعد : ١٢ .
[7]. سورة النور : ٤٠ .

وقـال تعـالى ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ .[1]

وقـال تعـالى ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴾ .[2]

وقال تعالى ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ .[3]

□ الغيث :

قال تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ .[4]

وقـال تعـالى ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ .[5]

وقال تعالى ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴾ .[6]

وقـال تعـالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾ .[7]

وقال تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ .[8]

---

[1]. سورة الروم : ٤٨ .
[2]. سورة فاطر : ٩ .
[3]. سورة الواقعة : ٦٨ و ٦٩ .
[4]. سورة النحل : ١٠ .
[5]. سورة الحج : ٦٣ .
[6]. سورة المؤمنون : ١٨ .
[7]. سورة لقمان : ٣٤ .
[8]. سورة الزمر : ٢١ .

وقال تعالى ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ .[1]

□ جوف الأرض :

قال تعالى ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴾ .[2]

وقال تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ .[3]

وقال تعالى ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ .[4]

وقال تعالى ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾ .[5]

وقال تعالى ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١) وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (٢) ﴾ .[6]

□ جاذبية الأرض :

قال تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ .[7]

وقال تعالى ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ .[8]

---

[1]. سورة الشورى : ٢٨ .
[2]. سورة سبأ : ٢ .
[3]. سورة فاطر : ٢٧ .
[4]. سورة ق : ٧ .
[5]. سورة ق : ٤٤ .
[6]. سورة الزلزلة : ١ و ٢ .
[7]. سورة الحج : ٦٥ .
[8]. سورة الروم : ٢٥ .

وقال تعالى ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ﴾ .[1]

وقال تعالى ﴿ ۞إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴾ .[2]

□ الليل والنهار :

قال تعالى ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴾ .[3]

وقال تعالى ﴿ وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ﴾ .[4]

وقال تعالى ﴿ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴾ .[5]

□ الجبال :

قال تعالى ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗاۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴾ .[6]

وقال تعالى ﴿ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ ﴾ .[7]

وقال تعالى ﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَأَنۡهَٰرٗا وَسُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴾ .[8]

[1] . سورة لقمان : ١٠ .
[2] . سورة فاطر : ٤١ .
[3] . سورة الحج : ٦١ .
[4] . سورة يس : ٣٧ .
[5] . سورة يس : ٤٠ .
[6] . سورة الأعراف : ٧٤ .
[7] . سورة الحجر : ١٩ .
[8] . سورة النحل : ١٥ .

وقال تعالى ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ .[1]

وقال تعالى ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴾ .[2]

وقال تعالى ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ۚ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ .[3]

وقال تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ۩ ﴾ .[4]

وقال تعالى ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ ۖ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ .[5]

وقال تعالى ﴿ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴾ .[6]

□ البحار :

قال تعالى ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ .[7]

وقال تعالى ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴾ .[8]

---

[1] . سورة الكهف : ٤٧ .
[2] . سورة طه : ١٠٥ .
[3] . سورة الأنبياء : ٧٩ .
[4] . سورة الحج : ١٨ .
[5] . سورة الأحزاب : ٧٢ .
[6] . سورة الغاشية : ١٩ .
[7] . سورة المائدة : ٩٦ .
[8] . سورة إبراهيم : ٣٢ .

وقال تعالى ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ .[1]

وقال تعالى ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴾ .[2]

□ الأنهار :

قال تعالى ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ .[3]

وقال تعالى ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴾ .[4]

وقال تعالى ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴾ .[5]

□ النبات :

قال تعالى ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾ .[6]

---

[1] سورة النحل : ١٤ .
[2] سورة الشورى : ٣٢ .
[3] سورة البقرة : ٧٤ .
[4] سورة الأنعام : ٦ .
[5] سورة إبراهيم : ٣٢ .
[6] سورة الرعد : ٣ و ٤ .

وقال تعالى ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾ .[1]

وقال تعالى ﴿ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴾ .[2]

وقال تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ .[3]

وقال تعالى ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ .[4]

□ الزراعة :

قال تعالى ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .[5]

وقال تعالى ﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ .[6]

وقال تعالى ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .[7]

---

[1] . سورة الحجر : ١٩ .
[2] . سورة طه : ٥٣ .
[3] . سورة الشعراء : ٧ .
[4] . سورة النمل : ٦٠ .
[5] . سورة الأنعام : ٩٩ .
[6] . سورة الأنعام : ١٤١ .
[7] . سورة الرعد : ٤ .

وقال تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ ﴾ .[1]

□ عالم الحيوان والحشرات :

قال تعالى ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِۦ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ .[2]

وقال تعالى ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ .[3]

وقال تعالى ﴿ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ .[4]

وقال تعالى ﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ .[5]

وقال تعالى ﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .[6]

وقال تعالى ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ .[7]

[1]. سورة النحل : ١٠ و ١١ .
[2]. سورة البقرة : ٢٦ .
[3]. سورة الأنعام : ٣٨ .
[4]. سورة الأنعام : ١٤٢ .
[5]. سورة النحل : ٥ .
[6]. سورة النحل : ٨ .
[7]. سورة النحل : ٦٨ .

وقال تعالى ﴿ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .[1]

وقال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ .[2]

وقال تعالى ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ .[3]

وقال تعالى ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .[4]

وقال تعالى ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ .[5]

وقال تعالى ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ .[6]

وقال تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ .[7]

---

[1] . سورة النحل : ٧٩ .
[2] . سورة الحج : ٧٣ .
[3] . سورة المؤمنون : ٢١ و ٢٢ .
[4] . سورة النور : ٤٥ .
[5] . سورة النمل : ١٨ .
[6] . سورة العنكبوت : ٤١ .
[7] . سورة يس : ٧١ – ٧٣ .

وقال تعالى ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ .[1]

وقال تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴾ .[2]

وقال تعالى ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ .[3]

☐ لغة المخلوقات :

قال تعالى ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ .[4]

وقال تعالى ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ .[5]

☐ بصمات الأصابع :

قال تعالى " ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴿٤﴾ ﴾ .[6]

---

[1] . سورة غافر : ٧٩ و ٨٠ .
[2] . سورة الملك : ١٩ .
[3] . سورة الغاشية : ١٧ .
[4] . سورة الأنعام : ٣٨ .
[5] . سورة النمل : ١٨ – ٢٢ .
[6] . سورة القيامة : ٣ و ٤ .

□ ازدواجية المخلوقات :

قال تعالى ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴾ .[1]

وقال تعالى ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ .[2]

وقال تعالى ﴿ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴾ .[3]

□ عدم فناء المادة :

قال تعالى ﴿ ۞ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ .[4]

وقال تعالى ﴿ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ .[5]

وقال تعالى ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴾ .[6]

□ عدم نفاد الأقوات والأرزاق في الأرض :

قال تعالى ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴾ .[7]

---

[1]. سورة طه : ٥٣ .
[2]. سورة الذاريات : ٤٩ .
[3]. سورة الرحمن : ٥٢ .
[4]. سورة الأنعام : ٥٩ .
[5]. سورة طه : ٥٥ .
[6]. سورة ق : ٤ .
[7]. سورة فصلت : ١٠ .

□ ما يعرف حديثاً بالتسجيل الكهرومغناطيسي :

قال تعالى ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾ .[1]

وقال تعالى ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ .[2]

وقال تعالى ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ .[3]

وقال تعالى ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ .[4]

وقال تعالى ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ .[5]

وقال تعالى ﴿ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .[6]

وقال تعالى ﴿ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ .[7]

□ ما يعرف حديثاً بالذبذبات أو الترددات الصوتية :

قال تعالى ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ .[8]

وقال تعالى ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ .[9]

---

[1]. سورة الإسراء : ١٣ و ١٤ .
[2]. سورة الإسراء : ٣٦ .
[3]. سورة يس : ٦٥ .
[4]. سورة فصلت : ٢٠ و ٢١ .
[5]. سورة الزخرف : ٨٠ .
[6]. سورة الجاثية : ٢٩ .
[7]. سورة القيامة : ١٣ .
[8]. سورة المؤمنون : ٤١ .
[9]. سورة العنكبوت : ٣٧ .

وقال تعالى ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ ..[1]

وقال تعالى ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ .[2]

وقال تعالى ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴾ .[3]

وقال تعالى ﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴾ .[4]

وقال تعالى ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ .[5]

وقال تعالى ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴾ .[6]

□ عبور الفضاء والسير فيه :

قال تعالى ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ .[7]

وقال تعالى ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ ﴾ .[8]

---

[1]. سورة العنكبوت : ٤٠ .
[2]. سورة الروم : ٢٥ .
[3]. سورة يس : ٢٩ .
[4]. سورة يس : ٤٩ .
[5]. سورة يس : ٥٣ .
[6]. سورة القمر : ٣١ .
[7]. سورة الإسراء : ١ .
[8]. سورة النجم : ١٣ و ١٤ .

□ الرؤية عن بعد :

قال تعالى ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ .[1]

وقال تعالى ﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ .[2]

□ تقنيات الكيمياء والهندسة والبناء :

قال تعالى ﴿ ۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴾ .[3]

وقال تعالى ﴿ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ ﴾ .[4]

وقال تعالى ﴿ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾ .[5]

وقال تعالى ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾.[6]

---

[1]. سورة فصلت : ٥٣ .
[2]. سورة ق : ٢٢ .
[3]. سورة الإسراء : ٥٠ .
[4]. سورة الكهف : ٩٦ و ٩٧ .
[5]. سورة سبأ : ١١-١٣ .
[6]. سورة الحديد : ٢٥ .

وقال تعالى ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ .[1]

وقال تعالى ﴿ وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴾ .[2]

وقال تعالى ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾ .[3]

وقال تعالى ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴾ .[4]

وقال تعالى ﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴾ .[5]

وقال تعالى ﴿ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ .[6]

وقال تعالى ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ .[7]

وقال تعالى ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴾ .[8]

---

[1]. سورة الأعراف : ٧٤ .
[2]. سورة الحجر : ٨٢ .
[3]. سورة الحج : ٤٥ .
[4]. سورة الفرقان : ١٠ .
[5]. سورة الشعراء : ١٤٩ .
[6]. سورة النمل : ٤٤ .
[7]. سورة القصص : ٣٨ .
[8]. سورة غافر : ٣٦ .

□ الذرة :

قال تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ .[1]

وقال تعالى ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨ ﴾ .[2]

□ انشطار الذرة إلي دقائق أصغر :

قال تعالى ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ .[3]

□ الانفجارات التي تصحب قيام الساعة :

قال تعالى ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝١٠ يَغْشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١١ ﴾ .[4]

وقال تعالى ﴿ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ۝٨ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ۝٩ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ۝١٠ ﴾ .[5]

وقال تعالى ﴿ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴾ .[6]

□ الغلاف الجوى :

قال تعالى ﴿ يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥۚ وَعْدًا عَلَيْنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ۝١٠٤ ﴾ .[7]

---

[1] سورة النساء : ٤٠ .
[2] سورة الزلزلة : ٧ و ٨ .
[3] سورة يونس : ٦١ .
[4] سورة الدخان : ١٠-١١ .
[5] سورة المرسلات : ٨-١٠ .
[6] سورة الفجر : ٢١ .
[7] سورة الأنبياء : ١٠٤ .

وقال تعالى ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴾ .[1]

وقال تعالى ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴾ .[2]

وقال تعالى ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ .[3]

وقال تعالى ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾ .[4]

وقال تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴾ .[5]

وقال تعالى ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴾ .[6]

وقال تعالى ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴾ .[7]

□ الضغط الجوي :

قال تعالى ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .[8]

وقال تعالى ﴿ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ .[9]

وقال تعالى ﴿ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴾ .[10]

---

[1] سورة يس : ٣٧ .
[2] سورة الذاريات : ٧ .
[3] سورة الذاريات : ٤٧ .
[4] سورة النجم : ١ .
[5] سورة نوح : ١٥ .
[6] سورة الجن : ٨ .
[7] سورة النبأ : ١٢ .
[8] سورة الأنعام : ١٢٥ .
[9] سورة الحج : ٣١ .
[10] سورة المدثر : ١٧ .

□ اكتشاف الفضاء الجوى :

قال تعالى ﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ .[1]

وقال تعالى ﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .[2]

وقال تعالى ﴿ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ .[3]

وقال تعالى ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ .[4]

وقال تعالى ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ .[5]

وقال تعالى ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ ﴾ .[6]

تعقيب وتعليق :

لقد ذكرنا العديد مما احتوى عليه الذكر الحكيم من الظواهر الطبيعية التي عرفها الإنسان وتوصل إليها وفقه حقيقتها ، وبعد ذلك ينبغي الإشارة إلي جملة من الملاحظات :

---

[1]. سورة الأنعام : ٣٥ .
[2]. سورة الأنعام : ١٢٥ .
[3]. سورة يونس : ١٠١ .
[4]. سورة الحجر : ١٤ و ١٥ .
[5]. سورة فصلت : ٥٣ .
[6]. سورة الرحمن : ٣٣ ـ ٣٥ .

○ إن القرآن الكريم هو كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وهو يشير إلي حقائق وظواهر كونيه ويذكرها في لمحات ومشاهد كشيء من علم الله الذي وسع كل شيء ، وعلم الله يخفى على الخلق ولا يحيطون بشيء من هذا العلم إلا بما شاء جلّ وعلا ، وهذه الإشارات واللمحات والمشاهد المتعلقة بالحقائق والظواهر الكونية لا يمكن أن تجعل من الذكر الحكيم كتاباً في البحث العلمي يغوص وراء الظواهر الكونية أو يحلل الحقائق الطبيعية ولا ينبغي له أن يكون كذلك ، وعلى من يبحث عن العلوم الطبيعية في القرآن الكريم أن يعلم هذه الحقيقة .

○ إن البحوث العلمية المتواصلة التي تهتم بدراسة الظواهر الكونية الطبيعية تتوصل دوماً إلي نتائج تلتقي مع الحقائق الكونية التي وردت كلمحات ومشاهد وإشارات في القرآن الكريم ، والواقع الذي لا ريب فيه أن الحقائق الكونية التي وردت أو أشير إليها في الذكر الحكيم لا تحتاج إلي تصديق العلم الطبيعي أو إقراره ولكن الأخير هو الذي ينتهي إلي إقرارها والتوصل إليها في نهاية المطاف .

○ سيظل الذكر الحكيم يحوى من الحقائق والظواهر الطبيعية الكونية ما وقف إزاءها العلم عاجزاً ولا يزال يواصل مسيرته نحو التوصل إليها وإقرارها ، وسيظل هذا الكتاب المعجز يرمز من كل ملمح أو مشهد يذكره أو يشير إليه إلي طلاقة قدرة الخالق سبحانه وسعة علمه جلّ وعلا الذي أحاط بكل شيء .

– أهداف ومقاصد العلوم الطبيعية :

يحدد الشرع الحنيف للعلوم الطبيعية هدفان ينفرد بهما الإسلام عن سواه من الأفكار الوضعية المنتشرة في العالم ، ويتمثل الهدفان في الآتي :

○ تعميق الإيمان بالله ومعرفته بحق وطاعته وعبادته :

الأصل والأساس أن تُتخذ العلوم الطبيعية مسلكاً وسبيلاً نحو تعميق الإيمان بالله ومعرفته بحق وطاعته وعبادته بصدق من خلال ما تؤدي إليه هذه العلوم من إثبات قدرة القادر والتدليل على طلاقة تلك القدرة وإقامة الدليل على صدق آياته وعظمة صنعته وفائق خبرته ودقة لطفه .

فالعلم هو الطريق إلي الإيمان الصحيح الراسخ ، وهو بينة المؤمن وقرينه إلي معرفة ربه بحق ويقين ، والعلم الطبيعي في هذا السياق أبلغ أثراً وأجل قيمة فهو يثبّت القلب ويوطد النفس بالتحقق من آيات الخالق والتيقن من آلاء البارئ ، ومن ثم كان خطاب ربنا المباشر والمتكرر في قرآنه العظيم لعباده أجمعين " اعلم " أو " اعلموا " لازماً قبل الدعوة إلي الإيمان وهذا دليل من المولى جلّ وعلا على أن الإيمان الحقيقي اليقين هو ما بنى وترتب على العلم فالأمر الصادر من الله بالعلم قبل الإيمان يدل دلالة قاطعة على قيمة العلم للإيمان وكمال وتمام الإيمان المبنى على العلم واليقين .

قال تعالى ﴿ ۞ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوۡمَيۡنِ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۖ لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴾ .[1]

وقال تعالى ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ (٢٥٨) أَوۡ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٖ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحۡيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٖ ثُمَّ بَعَثَهُۥۖ قَالَ كَمۡ لَبِثۡتَۖ قَالَ لَبِثۡتُ يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۖ قَالَ بَل لَّبِثۡتَ مِاْئَةَ عَامٖ فَٱنظُرۡ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمۡ يَتَسَنَّهۡۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجۡعَلَكَ

[1]. سورة البقرة ٢٠٣ .

ءَايَةً لِّلنَّاسِۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًاۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِيۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًاۚ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ ﴾ .[1]

وقال تعالى ﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .[2]

وقال تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُۖ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًاۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ .[3]

وقال تعالى ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَۚ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًاۚ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .[4]

وقال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْۖ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةًۖ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ ﴾ .[5]

---

[1] سورة البقرة : ٢٥٨ ــ ٢٦٠ .
[2] سورة المائدة : ٩٨ .
[3] سورة الأنعام : ٧٥ ــ ٧٩ .
[4] سورة الأعراف : ١٤٣ .
[5] سورة الأنفال : ٢٤ و ٢٥ .

وقال تعالى ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ .[1]

وقال تعالى ﴿ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾ ۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ ﴾ .[2]

وقال تعالى ﴿ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ .[3]

وقال تعالى ﴿ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾.[4]

وقال تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ .[5]

وقال تعالى ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ .[6]

وقال تعالى ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴾ .[7]

وقال تعالى ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ .[8]

---

[1]. سورة الأنفال : ٢٨ .
[2]. سورة الأنفال : ٤٠ و ٤١ .
[3]. سورة التوبة : ٢ .
[4]. سورة هود : ١٤ .
[5]. سورة فاطر : ٢٧ و ٢٨ .
[6]. سورة فصلت : ٥٣ .
[7]. سورة محمد : ١٩ .
[8]. سورة الحديد : ١٧ .

وقال تعالى ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَـٰمًا ۖ وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ .[1]

○ إفادة المجتمع بتطبيقات العلوم الطبيعية :

الهدف والمقصد الثاني من العلوم الطبيعية هو إفادة المجتمع الإنساني بتطبيقاتها والذي تعارف على تسميته " بالتكنولوجيا " ، ولا يرى الإسلام مانعاً من الاستفادة من العلوم الطبيعية في شتى شئون الحياة ابتداءً بالإنسان وانتهاءً بكافة موجودات الكون ، بل إن الشرع الحنيف يزكي الجهود العلمية التي تتجه نحو الإصلاح ونشر الخير وتعميم الوئام فكل علم أو تطبيق له يساهم في توفير الحياة الطيبة للإنسان ويساعده على التفرغ لعبادة الله وطاعته وإنفاذاً لأمر الخالق هو من قبيل فعل الخير ، وجزاء فعل الخير لا يكون إلا خيراً سواء من الخالق سبحانه أو من الناس .

إن العلوم الطبيعية وتطبيقاتها تعد من أهم مقومات الحضارة الإنسانية منذ نشأة الإنسان على ظهر الأرض فهي تمثل أداة التحاور والتفاعل مع عناصر الوجود وموجودات الكون وهي في ذات الوقت وسيلة التمكين للإنسان والسيطرة على تلك العناصر والموجودات ، فبالعلم وتطبيقاته تمكن الإنسان من تسخير قوى الطبيعة وتذليل مقدراتها واستثمارها لمصلحته ومن ثم أصبح العلم الذي يمثل أداة التمكين للإنسان في الأرض سلاحاً خطيراً وفتاكاً ، من الناس من استخدموه بشكل سيئ وأقاموا عليه حضارات زاهرة ومدنيات يانعة قوامها التجبر والطغيان وأساسها العتو والعصيان والكفر بالله فكانت عاقبتها الخسران المبين ، ومن الناس من استخدموه في طاعة الله وتوحيده وعبادته فعاشوا حياة طيبة وسعدوا في الدنيا والآخرة .

[1] . سورة الحديد : ٢٠ .

□ الذين شقوا بالعلوم الطبيعية وتطبيقاتها والحضارة التي قامت عليها :

قال تعالى ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴾ .[1]

وقال تعالى ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ .[2]

وقال تعالى ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ .[3]

□ الذين سعدوا بالعلوم الطبيعية وتطبيقاتها والحضارة التي قامت عليها :

وقال تعالى ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .[4]

وقال تعالى ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾.[5]

وقال تعالى ﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ .[6]

---

[1] . سورة الأنعام : ٦ .
[2] . سورة الأعراف : ١٠ .
[3] . سورة الأحقاف : ٢٦ .
[4] . سورة النحل : ٩٧ .
[5] . سورة الإسراء : ١٩ .
[6] . سورة الحج : ٤١ .

وقـال تعـالى ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ .[1]

– الفرق بين العالم المسلم والعالم غير المسلم :

والآن لنا أن نخوض في مسألة مهمة وحساسة وهي خاصة بالمقارنة بين العالم المسلم ونظيره غير المسلم ، فالعالم المسلم يبدأ بالعلم وينتهي بتعميق الإيمان وترسيخ خشية الله وطاعته ويعمل في ذات الوقت على إفادة مجتمعه بنشر الصلاح وتعميم الرخاء والوئام ومحصلة كل ذلك ضمان الحياة الطيبة للمجتمع المسلم .

أما العالم غير المسلم فهو يبدأ بالعلم أيضاً ولكنه ينتهي إلي تحقيق المصلحة القريبة العاجلة ذات الطابع المادي وترسيخ صروح الحضارة المادية كذلك التي تخلو من القيم وتفتقر إلي المثل والأخلاقيات .

ويمكن أجراء المقارنة التالية بين العالم المسلم والعالم غير المسلم وسوف تظهر هذه المقارنة العديد من المفارقات على النحو التالي :

○ فيما يتعلق بالهدف :

☐ العالم المسلم يتخذ من أي علم من العلوم الطبيعية أداة ووسيلة لتعميق الإيمان وترسيخ الطاعة ومعرفة الله بصدق ويقين ثم يتبع ذلك إفادة المجتمع بتوفير الحياة الطيبة لإفراده ، ومن ثم نجد أن العلم الطبيعي وتطبيقاته قد غلفت بغلاف من الإيمان والأخلاق والقيم بما لا يجعله يخرج عن مساره السوي وطريقه القويم .

---

[1] . سورة النور ٥٥ .

□ العالم غير المسلم يتجسد هدفه من وراء العلوم الطبيعية وتطبيقاتها في إفادة المجتمع وربما فئة محددة منه فقط هي القادرة على الاستفادة من ثمار ذلك العلم وتطبيقاته ، ثم يهدف العالم غير المسلم بعد ذلك إلي السمعة والصيت اللذين يجنيهما من وراء ما يتوصل إليه من إنجازات علمية وما يحرزه من تطبيقات تقنية بالإضافة إلي العوائد المادية والنفعية التي تعود عليه من جراء ذلك .

○ فيما يرتبط بالأجر :

□ العالم المسلم يُلقى جزاء علمه وما يترتب عليه من منفعة للمجتمع في الدنيا والآخرة فهو في الدنيا يلقى التكريم والتقدير والاحترام من جميع أفراد المجتمع ، وفي الآخرة يجزيه الله الجزاء الأوفى .

قال تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ .[1]

وقال تعالى ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ .[2]

وقال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ .[3]

□ العالم غير المسلم يلقى جزاء علمه وما يترتب عليه من منفعة للمجتمع في الحياة الدنيا فقط بما يحصل عليه لقاء ذلك من سمعة وثناء وعطاء مادي أما في الآخرة فليس له جزاء لأنه لم يتخذ من علمه وسيلة إلي الإيمان بالله ومعرفته عن يقين وصدق فكان علمه وبالاً عليه في الآخرة لأنه لم يستفد منه إلا في العاجلة .

---

[1] . سورة الكهف : ٣٠ .
[2] . سورة الرحمن : ٦٠ .
[3] . سورة المجادلة : ١١ .

قال تعالى ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ ﴾ .[1]

وقال تعالى ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴾ .[2]

○ فيما يختص بالتوفيق :

□ التوفيق في العلم هو فتح من الله ، والأصل فيه أنه للجميع ، والكل فيه سواء ، فكل عالم ينال حظه من التوفيق بقدر ما يبذل من جهد وتفانٍ وفهم ، والعلم هو نوع من الرزق فقد يبسطه الله للكافر ويقدره للمؤمن ، ولن ينال ذلك من إيمان المؤمن ، ولا يغير من كفر العالم غير المسلم ولا يبدل عاقبته الوخيمة .

قال تعالى ﴿ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ۚ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ .[3]

وقال تعالى ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ ﴾ .[4]

وقال تعالى ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ .[5]

---

[1] . سورة الكهف : ١٠٣ ـ ١٠٦ .
[2] . سورة الفرقان : ٢٣ .
[3] . سورة النحل : ٧١ .
[4] . سورة الإسراء : ٢٠ و ٢١ .
[5] . سورة الزخرف : ٣٢ .

□ إذا أصاب العالم المسلم توفيق من الله وفتح فهو رضا من ربه وكرامة ومنّ يستحق الشكر والحمد والثناء وزيادة الإيمان وتعميق اليقين فهذا دأب العالم المسلم .

□ وإذا أصاب العالم غير المسلم توفيق من الله وفتح فهو بمثابة ابتلاء واختبار وفتنة ليرى هل يؤمن أم يكفر ثم تقام عليه الحجة بأنه علم ولم يؤمن ثم لفائدة المجتمع البشرى حتى ولو كان غير مسلم فالله يؤتي هؤلاء جنتهم في الحياة الدنيا .

○ فيما يتصل بالإنجاز :

في مجال العلوم الطبيعية الإنجاز مقترن بالاجتهاد والمقدرة والكفاءة ، والجزاء المتوقع في مقابل الإنجاز لابد أن يأتي ممن قُدّم إليه الإنجاز العلمي ، فإن كان الإنجاز العلمي قد قُدّم من العالم المسلم حيث يبتغي من ورائه وجه الله تعالى فلابد أن يكون الجزاء من الله سبحانه والجزاء يقدر معطيه وهو سعادة الدارين ، وإن كان الإنجاز العلمي قد قُدّم من العالم غير المسلم ويبتغي من ورائه مصلحته الشخصية ثم مصلحة المجتمع الذي يعيش فيه ، فعليه أن ينتظر جزاءه من الناس والمجتمع فسوف يكرمونه في الحياة الدنيا وما له في الآخرة من خلاق .

قال تعالى ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴾ .[1]

[1] . سورة البقرة : ٢٠٠ .

وقـال تعـالى ﴿ كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ .[1]

تطبيقات العلوم الطبيعية والحضارة الإنسانية :

العلم –كما ذكرنا– سواء أكان علم دين أو علم الدنيا لا يكتسب لذاتـه ولكنـه دومـاً وسـيلة لغاية ، فهو وسيلة لتعميق الإيمان وترسيخه وطاعة الله وخشيته عن بصيرة ويقـين وتثبـت كما أنه وسيلة للنهوض بالمجتمعات البشرية وترقيتها أخلاقياً ومادياً ، وإذا كنا قد تناولنا فيما سلف جملة القضايا والمسائل المتعلقة بالعلم بشقيه الديني والدنيوي ، فسوف نفـرغ في هذه الجزئية إلي الحديث عن تطبيقات العلوم الطبيعية وعلاقتها بالحضارة الإنسانية وذلك من خلال حزمة الأفكار التالية :

– تطبيقات العلوم الطبيعية تشمل كل مناحي الحياة :

يمكننا تعريف تطبيقات العلوم الطبيعية على أنها التطبيق العملي الواقعي للنتائج والقوانين والتعميمات والنظريات التي تتوصـل إليها العلـوم الطبيعية وهذا التطبيق هـو الـذي أطلـق عليه التكنولوجيا وسوف ننطلق من هـذا التعريـف لمتابعـة العلاقـة الوطيـدة بـين تطبيقـات العلوم والحياة والطبيعة والكون وذلك من خلال ما يلي :

○ العلوم لا تطلب لذاتها :

العلم الطبيعي شأنه شأن العلم الديني لا يُطلب لذاته ولكنه دوماً يُطلب لغاية وهي تحقيـق الحياة الطيبة التي تمكن الإنسان من عبادة الله الواحد الأحد وهو الهدف النهائي الذي من أجله خلق الله الجن والإنس ، فلـم نُخلـق مـن أجـل أن نـستمتع بملـذات الحيـاة ونـسعد

[1] . سورة التوبة : ٦٩ .

بموجودات الكون وعناصر الطبيعة التي سخرها لنا الله ونظل على هذا الحال لاهين ملتهين لا نعرف لوجودنا هدفاً ولا لخلقنا غاية .

فالعلم الطبيعي إذن وسيلة وليس غاية يسّره الله وفتح به على من يشاء من عباده لعمارة الأرض وإعمار الكون ويستوي في ذلك المسلم وغيره ، وقد يكون غير المسلم أوفر حظاً من العلم الطبيعي ولا تفسير لذلك إلا أن العالم غير المسلم قد بذل من الجهد والحرص والمثابرة ما استحق به ذلك الحظ الوفير على عكس حال العالم المسلم الذي لم يقدم تلك المقدرات ، وبالرغم من أن العلم نوع من أنواع الرزق يتفاوت فيه الناس إلا أن الخالق سبحانه قد قرنه بالجهد والاجتهاد والجد المبذول من أجل نيله والبروع فيه ، فمن قدّم الجهد حصد ثماره ونحن مأمورون بعدم التواني في طلب العلم الطبيعي لمنافعه المتعددة ديناً ودنيا ، وسوف نرى في مواضع متقدمة من هذا المؤلف كم كان أسلافنا جادين مجتهدين مثابرين في طلب العلم وتحصيله والاستفادة من تطبيقاته ، وكيف كانت حياتهم جميعها منتصبة على العلم ، وكيف كانت الحضارة الإسلامية مصدراً مهماً للعلوم في كل الدنيا .

○ العلاقة الوثيقة بين العلم والحياة :

المتأمل لمعنى العلم وطبيعته يمكنه أن يكتشف أن الإنسان منذ خلقه لا يمكنه أن يعيش أو يتعاطى ويتفاعل مع الحياة وما حوله من عناصر الكون وموجوداته بدون العلم ، فلابد أن يعلم ويدرك ويعي طبيعة وكنه الأشياء التي تحيط به ، ويمكننا أن نستنبط هذه العلاقة الوثيقة بين العلم والحياة مما بيّنه لنا الحق تبارك وتعالى في كتابه العزيز عندما خلق آدم أبا البشر فعندما نفخ فيه من روحه وبث في جسده الحياة فور ذلك مباشرة علّمه الأسماء كلها أي أسماء الموجودات والمخلوقات لأن ذلك العلم كان وسيلته الوحيدة للتعامل والتعاطي مع ما حوله من موجودات ومخلوقات ومن ثم مواصلة الحياة وتحقيق غرض المولى جلّ وعلا من خلق الإنسان .

قال تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ ﴾ .[1]

وظل ذلك هو حال الإنسان في هذا الكون يجاهد من أجل أن يعلم كنه الظواهر وطبيعة الموجودات وحقيقة المخلوقات التي تحيط به حتى يمكنه التعامل معها فيتقي شرها إن شكلت عليه خطراً ويستفد منها ويسخرها لمصلحته إن كانت مصدر فائدة ونفع ، وهكذا تشابك العلم مع الحياة بشكل يجعل من الصعب الفصل بينهما ، والحياة بغير علم قد تكون مستحيلة فهي حياة ساكنة راكدة لا يسودها التفاعل والتعاطي بين الإنسان والطبيعة والكون وهي الحياة التي وصفها الناس على مر الزمن بالحياة المتخلفة المتأخرة ، أي لا تساير ركب التفاعل والتعاطي مع الطبيعة والكون ، حياة الجمود والسكون والإعراض والتقاعس عن فهم المحيط وفقه الوسط اللذين يعيش فيهما الإنسان ، إن حياة كهذه غير جدير بالمسلم أن يعيشها وهو المأمور من خالقه بأن يعلم ويتعلم ويُعلّم ، ومن ثم فقد بات العلم قرين الحياة وملازماً لها وجوداً وعدماً ، فلا حياة بدون تعلم وهذا هو نهج الإسلام .

○ العلم أداة التعامل والتفاعل مع عناصر الوجود وموجودات الكون :

لا حيلة للإنسان للتعامل مع عناصر الوجود والتفاعل مع موجودات الكون إلا بفقه تلك العناصر وفهم تلك الموجودات ، والفقه والفهم إن هما إلا مقومات العلم وأركانه الرئيسية ومن هنا فالعلم أداة الإنسان الأولية والأساسية للتعامل والتفاعل مع ما يحيط به من عناصر وموجودات ، وقد كانت الحضارات الإنسانية منذ نشأتها تعتمد اعتماداً أساسياً ومطلقاً على العلم بوصفه أداة للتعامل مع عناصر الوجود ، وبرزت على أثر ذلك العلاقة التآلفية التوحدية بين الحضارة والعلم وبات العلم هو قوام الحضارة وعمودها الفقري .

---

[1] . سورة البقرة : ٣٠ ــ ٣٢ .

لقد كان ذلك مبرراً لأن تجعل بعض الحضارات الإنسانية من العلم كل شيء بالنسبة لها وتجرد ذاتها بالتالي من كل قيم أخرى سوى العلم وهكذا اختلطت الأوراق وأصبح العلم قوام الحضارة وركنها الركين طارداً للقيم والأخلاق ومفرغاً لتلك الحضارات من روح المثل والمبادئ .

○ لا يمكن حجب نتائج العلم عن العموم :

العلم لا يكتنز ونتائجه لا تحجب ، فمهمة العلماء نقل العلم وتداوله ، ومهمة التقنيين نقل نتائجه وتعميم تطبيقاته ، فإذا كان العلم قوام الحضارة فهو كذلك الذي يمنحها سمة العمومية والإنسانية والعالمية .

– تطبيقات العلوم الطبيعية والبعد الأخلاقي :

من المسائل الحاسمة والحساسة العلاقة بين تطبيقات العلوم الطبيعية والبعد الأخلاقي ، فهذه العلاقة تميز الحضارات المختلفة وتوضح التباين فيما بينها وتبرز توجهاتها ومقاصدها النهائية ، ويمكن توضيح الوجهة الإسلامية تجاه العلاقة بين تطبيقات العلوم الطبيعية والبعد الأخلاقي في الآتي :

○ نظرة الإسلام الخاصة إلي تطبيقات العلوم الطبيعية :

ينظر الإسلام إلي تطبيقات العلوم الطبيعية على أنها نتائج ومتحصلات العلوم التي هي هبة وفتح من الله تعالى فتح به على الإنسان لكي يمكنه من الحياة الطيبة وييسر له سبل المعيشة ويعمق تفكيره ويوسّع فكره في آلاء الله وآياته في الكون والوجود ، ومن ثم فتطبيقات العلوم ليست غاية في حد ذاتها ، كما أنها ليست وسيلة للرفاهة ورغد العيش والراحة والدعة لكي يتمكن الإنسان من أن يعيش لاهياً ماجناً عابثاً بهبات الخالق ومعطيات البارئ ، فتطبيقات العلوم إذن لاستحضار عظمة الله وواسع عطائه ، وشكره

على نعمائه ثم لفائدة المجتمعات التي ينبغي أن تستثمر سعة العيش ووسائل الراحة في حسن العبادة وعميق الطاعة .

O الإسلام دين عِلماني عقلاني :

المتابعة التي قمنا بها لمكانة العلم وموقعه المميز وأهميته التي لا تضاهى في القرآن الكريم لتلفت الانتباه إلي علاقة العلم بالإيمان ولتشد الذهن إلي حميمية تلك العلاقة إلي درجة يمكن معها الجزم بأن الإيمان الصحيح هو الذي بنى على العلم .

فالعلم أمر من الله مفروض على عباده بإتيانه والتمكن منه قبل اعتناق العقيدة ثم يظل مصاحباً للعقيدة مقترناً بها يمتنها ويثبتها ويرسخها في القلب والعقل ومن ثم فالإيمان يبدأ بالعلم ثم يقترن به ويختلج إلي درجة يصعب معها الفصل بينهما بأي شكل من الأشكال ، فلا إيمان بدون علم والعلم الذي لا يقود إلي الإيمان وبال على صاحبه وسيف مسلط على رقبته حيث يمثل حجة عليه وبرهاناً قاطعاً على أنه علم ولم يقده علمه إلي نور الهدى والحق بل ساقه إلي ظلمة الغي والضلال .

ويشترك مع العلم في كل واحد شق آخر هو العقل ، والأخير هو أداة العلم ومستقره ، فالعلم يتكون – كما أوضحنا سلفاً – بالتفكر والاستدلال وتركيب التصورات والتصديقات وينتهي إلي حقائق وتعميمات ، وهذه العمليات أداتها العقل حيث يُعمل الفكر ويجرى الاستدلال ويركب التصور ويتوصل إلي التصديق ثم ينتهي إلي الحقائق والتعميمات ، وعندها يتبلور العلم ثم يعود ليختزن في العقل ويتراكم في منظومات معرفية .

والقضايا الإيمانية أساسها العلم وأداتها العقل ، ولو تابعنا إيمان الأنبياء وهو أسمى الإيمان وأرسخه لوجدناه قد جاء بتوجيه من الخالق سبحانه على وتيرة تبدأ بإعمال العقل ثم تنتهي إلي العلم الذي اقترن بالإيمان ، فالحق تبارك وتعالى عندما أوحى لأنبيائه ورسله لم

يلق عليهم الإيمان لاعتقاده مباشرة وإنما جاء ذلك عبر منهج معين يبدأ بوقائع وأحداث للاستدلال وإعمال العقل وينتهي إلي العلم ثم يتوصل إلي الإيمان الذي يستقر في العقل مقترناً بالعلم .

O الإسلام يرى ضرورة اقتران تطبيقات العلوم بالأخلاق :

للإسلام وجهته الخاصة إزاء تطبيقات العلوم ، وجهة تجمع بين تحكيم الفطرة السليمة والاعتدال والوسطية والرحابة والإنسانية وإرجاع كل الأمر لله الواحد الأحد ، فتطبيقات العلوم ونتائجها هي للناس جميعاً المؤمن والكافر فقد خلق الله الكون ليسع الجميع وكلُ يُعمل على شاكلته وهو رهين بما كسب ومآله ثم حسابه على الله ، وإذا كان البارئ قد خلق الكون وسخر موجوداته وذلل مخلوقاته لبني البشر فقد شاء سبحانه أن يستفيد من ذلك الجميع وفق قسمة الله وتفضيله وعلى الناس أن يسيروا في ذلك وفق إرادة خالق الكون ومدبر شأنه بما يكفل لكل الناس الاستفادة من تطبيقات العلوم ونتائجها التي هي لا ريب رزق من الله فتح على الناس به .

وإذا كان الإسلام يعّول على العقل ولا ينكر عليه قدرته وإمكاناته ودوره في العلم وتطبيقاته ونتائجه فهو كذلك لا يفرط في تضخيم قدرة العقل البشرى وإطلاق العنان له كي يفعل ما بدا له ، ولكن الإسلام يرى ضرورة تسييج ذلك العقل بسياج من الأخلاق والمثل والمبادئ والقيم الإنسانية المطلقة التي تمثل الكابح لجماحه حتى يظل على يقين من أنه أقل من أن يحيط بكل شيء ، وينفذ إلي نهايات الأشياء إلا بأمر الله ، وأن ما قُدّر له الإحاطة به لم يكن إلا بأمر الله ، ولا يتجاوز مثقال ذرة من مكنون علم الله اللامحدود واللانهائي .

إن نتائج وتطبيقات العلوم وما أدت إليه من راحة ودعة وسعادة لبني البشر إنما هي نعمة من الله تستحق الشكر والثناء بالطاعة والإحسان ولا ينبغي أن تكون تلك النعمة مدعاة للعتو عن أمر الله والبطر والجحود والنكران وإلا فمصيرها مهما كانت الزوال والاندثار .

قال تعالى ﴿ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .[1]

وقال تعالى ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴾ .[2]

وقال تعالى ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ .[3]

إن الإسلام يرى أن الجزاء العادل أن تقابل نعمة الله التي أنعم بها على عباده بالشكر والإحسان والطاعة حتى يثبت الإيمان وترسخ العقيدة وتزداد النعمة وتعم البركة ، قال تعالى ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴾ .[4]

– تطبيقات العلوم والحضارة الإنسانية :

لقد استخدم الإنسان منذ القدم تطبيقات العلوم في إثراء حضارته وإغناء مدنيته التي تطورت بفضل العلوم وتطبيقاتها ، وتتعدد أبعاد العلاقة بين تطبيقات العلوم والحضارة الإنسانية ويمكن تناول أهم تلك الأبعاد في الآتي :

[1]. سورة الزمر : ٤٩ .
[2]. سورة النحل : ٥٣ .
[3]. سورة القصص : ٥٨ .
[4]. سورة إبراهيم : ٧ .

○ تطبيقات العلوم هي أداة التعامل مع عناصر الوجود :

تطبيقات العلوم بوصفها نتاج العلم و حصيلته هي الأداة التي استخدمها الإنسان على مر العصور للتعامل و التفاعل مع عناصر الوجود و بالتالي فقد كانت تطبيقات العلوم حلقة الوصل بين الإنسان و ما حوله من موجودات و مخلوقات و من ثم أصبحت من أهم مقومات الحضارة و عناصرها الرئيسية وجاء ترتيب العلاقة بين الإنسان ومظاهر الحضارة مروراً بالعلم و تطبيقاته على النحو التالي الإنسان بوصفه الفاعل الرئيسي و المتعامل الوحيد مع عناصر الوجود و موجودات الكون ثم العلم باعتباره أداة التفاعل مع عناصر الوجود تطبيقات العلوم لكونها قوام الحضارة وأهم عناصرها و أركان مظاهرها و نماذجها .

○ تطور تطبيقات العلوم قاد إلى تطور الحضارة الإنسانية :

تأسيساً على العلاقة العضوية بين تطبيقات العلوم والحضارة الإنسانية كان تطور تلك التطبيقات يقود دوماً إلى تطور الحضارة ، وقد شهد التاريخ الإنساني سيراً حثيثاً للعلوم الطبيعية باتجاه التطور والتقدم مصاحباً في ركبه تطبيقات تلك العلوم وبرفقتها الحضارة والمدينة .

وقد اتسعت دائرة تطبيقات العلوم لتشمل كل ما يحيط بالإنسان من بحر وبر وجو بل الإنسان نفسه ، ويمكن اعتبار اتساع دائرة تطبيقات العلوم هو نفسه نوع من التقدم وضرب من التطور وقد مر التاريخ الإنساني بسلسلة متصلة الحلقات من التطور الحضاري الذي قاده تطور تطبيقات العلوم وهذا التواصل في حلقات التاريخ الإنساني يعني أن التطور الحضاري المقترن بتطور تطبيقات العلوم قد جاء مرتبطاً ببعضه ومترتباً بعضه على بعض ، ويعني كذلك أن تطبيقات العلوم قديمة قدم الإنسان وأن اكتشافات واختراعات كل عصر كانت تسلم للعصر الذي يليه فتكون أساساً ومنطلقاً لاكتشافات وتطورات جديدة .

○ حضارات استخدمت تطبيقات العلوم المقترنة بالقيم والأخلاق :

لم تسر الحضارات الإنسانية فيما يتعلق بقرن تطبيقات العلوم بالقيم والأخلاق على وتيرة واحدة بل توزعت إلي صنفين : الأول قرن تطبيقات العلوم بالقيم والأخلاق ومن ثم جاءت نماذج وأشكال ذلك الصنف من الحضارات وفق منهج الله ، الثاني جرد تطبيقات العلوم من القيم والأخلاق وجعل منها أداة للتجبر والطغيان والعتو عن منهج الله ، ومن ثم كانت نتائج ومآل ذلك على الصنفين من الحضارات مختلفة كل الاختلاف .

لقد أخبرنا الذكر الحكيم عن حضارات إنسانية قامت وازدهرت متخذة من تطبيقات العلوم أداتها ووسيلتها في تحقيق ازدهارها وإيناعها ولكن جاء ذلك في حدود منهج الله ووفق مشيئته وطاعته ، فبارك الله تلك الحضارات وفتح على أهلها بركات من السماء والأرض ورزقهم من كل أنواع الرزق وسخر لهم كافة المخلوقات والموجودات في الكون ، ولنضرب أمثلة لذلك بثلاثة نماذج من الحضارات الإنسانية التي جاءت على فترات تاريخية متباعدة .

□ حضارة قوم يونس :

لم يورد لنا الذكر الحكيم تفاصيل حياة القرية التي بُعث فيها نبي الله يونس ولكنه أوضح عددهم بأنهم كانوا يزيدون عن مائة ألف نفس ، وأنهم آمنوا بالله العظيم فكان هذا الإيمان سبباً في أن مَن الله عليهم بالخير والبركة ووقاهم عذابه في الحياة الدنيا .

وتشير الآيات البينات التي وردت في القرآن العظيم بشأن قوم يونس إلي أنها كانت قرية يغلب عليها حياة المدنية وأنها عاشت في سعة من الرزق والاستقرار والأمن بسبب إيمانهم .

قال تعالى ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ .[1]

وقال تعالى ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ ﴾ .[2]

□ حضارة ذي القرنين :

لم يكن عبد الله الصالح ذو القرنين — كما ورد في القرآن الكريم — على رأس حضارة مستقرة معلومة الزمان والمكان ومخصوصة بالبروع في ضرب من ضروب الحضارة التي تعارف عليها الناس ، ولكن هذا العبد الصالح قد آتاه الله من العلم والمكنة والمقدرة ما تمكّن به من التعامل مع عناصر الوجود وموجودات الكون مسخراً ذلك العلم وتطبيقاته من مكنة ومقدرة في طاعة الله والامتثال لأوامره والدعوة إلي طريقة .

والظاهر من آيات الذكر الحكيم أن ذا القرنين كان طوافاً يجوب أقطار الأرض داعياً إلي الخير والفضيلة وعبادة الله الواحد الأحد ومساعدة المستضعفين وعقاب الجبابرة العتاة بأمر ربه وارتكنت حضارته على استعماله للعلم وتطبيقاته في التعامل مع عناصر الوجود بما يخدم هدفه ومقصده وهو الدعوة إلي دين الله وفعل الخيرات ولأجل ذلك أمده الله بالعون وحيلة العلم والقوة ليمضى في سبيل الصلاح والفضيلة .

---

[1]. سورة يونس : ٩٨ .
[2]. سورة الصافات : ١٣٩-١٤٨ .

قـــال تعـــالى ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ
وَءَاتَيْنَـٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ
عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ
رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ
سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا
بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا
﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾
قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ
قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَـٰعُوا۟ لَهُۥ
نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَـٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾ ﴾ .[1]

□ حضارة داود وسليمان :

من الحضارات التي أخبر عنها الحق تبارك وتعالى في كتابه العزيز مملكة داود ثم ابنه سليمان ، وقد كانت هذه الحضارة من الحضارات التي جمع ملكاها بين النبوة والعلم والحكمة ،وبدا جلياً في هذه الحضارة العلاقة الوطيدة بين العلم بنوعية الديني و الدنيوي و تطبيقاته من جهة والعامل الأخلاقي القيمي من جهة أخرى ، فقد وهب الله داود ومن بعده ابنه سليمان النبوة والعلم والحكمة ثم الملك الذي لم يؤت مثله أحد بعد ذلك ، وجاء العلم الطبيعي وتطبيقاته لترتكن عليها حضارة داود وسليمان وملكهما العظيم ، فقد سخر الله لهذين النبيين كافة المخلوقات والموجودات في الكون بحيث تأتمر بأمرهما وبرعت تلك الحضارة في كافة نشاطات الحياة بفضل ملكيها النبيين داود وسليمان عليهما السلام اللذين شكرا الله وأخلصا في عبادته وطاعته ، ويمكننا من خلال متابعة الآيات الكريمات التالية

---

[1]. سورة الكهف : ٨٣ – ٩٨ .

الوقوف علي حضارة داود وسليمان التي بدأت بنصر الله لداود علي جالوت ثم إيتائه الملك والحكمة والعلم ، ومن بعده سليمان .

قال تعالي ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ .[1]

وقال تعالي ﴿ ۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾ .[2]

وقال تعالي ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ .[3]

وقال تعالي ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.[4]

وقال تعالي ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾ .[5]

---

[1] . سورة البقرة : ٢٥١ .
[2] . سورة النساء : ١٦٣ .
[3] . سورة الأنبياء : ٧٨-٨٠ .
[4] . سورة النمل : ١٥ .
[5] . سورة سبأ : ١٠ و ١١ .

وقال تعالى ﴿ اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ (١٧) إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ (١٨) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ (١٩) وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ (٢٠) ۞ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ (٢٢) إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (٢٣) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ (٢٤) فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ (٢٥) يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (٢٦) ﴾ .[1]

وقال تعالى ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ ۚ نِعْمَ الْعَبْدُ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾.[2]

وقال تعالى ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ ۖ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴾ .[3]

وقال تعالى ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ (٨١) وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ (٨٢) ﴾ .[4]

وقال تعالى ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٧) حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ

---

[1] . سورة ص : ١٧- ٢٦ .
[2] . سورة ص : ٣٠ .
[3] . سورة النمل : ١٦ .
[4] . سورة الأنبياء : ٨١ و ٨٢ .

ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ .[1]

وقال تعالي ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾ .[2]

وقال تعالي ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ .[3]

○ حضارات عتت عن منهج الله واستخدمت تطبيقات العلـوم في معصية الله :

على النقيض مما قدمنا قام العديد من الحضارات الإنسانية وازدهر مستغلاً تطبيقات العلـوم في معصية الله والعتو عن منهجه تعالى ، فكانت عاقبة تلك الحضارات الهـلاك والخـسران المبين ، وسوف نعمد إلي استنباط الآيات الدالة على ذلك من القرآن الكريم ، ولعـل أشـهر الحضارات في هذا الخصوص هي حضارات عاد وثمود وفرعون .

□ حضارة عاد الأولى [قوم هود][4] :

لقد تميز قوم عاد بقوة بدنية وعظم في أجسادهم وطول ، وعرفوا بالعملايق ، وقـد بـرع قـوم هود في إقامة حضارة زاهرة اعتماداً على قوتهم ، فشيدوا الأبنية الشامخة العاليـة والقـصور

---

[1] . سورة النمل : ١٧-١٩ .
[2] . سورة سبأ : ١٢ و ١٣ .
[3] . سورة ص : ٣٤-٤٠ .
[4] . يمكن الرجوع إلي الجزء الأول من هذا المجلد .

والحصون المنتصبة على الأعمدة الفريدة في تصميمها وتشييدها ، وعمروا الأرض وزرعوها وفجروا العيون واجروا الأنهار ، إلا أن أخا عاد لم يشكروا الله على نعمائه وكفروا بربهم فأخذهم بذنوبهم أخذ عزيز مقتدر .

قال تعالى ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ .[1]

وقال تعالى ﴿ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴾ .[2]

وقال تعالى ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٣١) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤) ﴾ .[3]

وقال تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) ﴾ .[4]

وقال تعالى ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ .[5]

وقال تعالى ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (١٨) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ (١٩) تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ (٢٠) ﴾ .[6]

---

[1] . سورة الأعراف : ٦٩ .
[2] . سورة هود : ٥٢ .
[3] . سورة الشعراء : ١٢٨-١٣٤ .
[4] . سورة الفجر : ٦-٨ .
[5] . سورة الشعراء : ١٣٩ .
[6] . سورة القمر : ١٨-٢٠ .

□ حضارة ثمود[1] :

مثل أختها حضارة عاد الأولى جاءت حضارة ثمود جامعة بين القوة والمكنة والجبروت من ناحية والعتو عن منهج الله وعصيانه وتكذيب أنبيائه من ناحية أخرى ، وقد ارتكنت هذه الحضارة في تفوقها وتقدمها على تطبيقات العلوم وعلى الأخص في المجالات المدنية والعمرانية فشيدت القصور ونحتت البيوت في بطن الجبال وشقت الطرق وفجرت العيون وأنشأت الجنان وخططت مدنية لا تزال آثارها شاهدة للعيان تحدّث عن أخبار من عمروها ، ولم تتم حضارة ثمود هذه النعمة بالإيمان بالله العاطي الوهاب وإنما خلت تلك الحضارة من الأخلاق والقيم والمبادئ ولم تكن سوى حضارة مادية جوفاء فكان مآلها أن لحقت بالغابرين وأهلكت بعذاب أليم .

قال تعالي ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ .[2]

وقال تعالي ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴾ .[3]

وقال تعالي ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (١٤٦) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (١٤٩) ﴾ .[4]

وقال تعالي ﴿ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴾ .[5]

---

[1] . يمكن الرجوع إلي الجزء الأول من هذا المجلد .
[2] . سورة الأعراف : ٧٤ .
[3] . سورة هود : ٦١ .
[4] . سورة الشعراء : ١٤٦-١٤٩ .
[5] . سورة الفجر : ٩ .

وقال تعالي ﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ .[١]

وقال تعالي ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴾ .[٢]

□ حضارة فرعون[٣] :

نقدم لحضارة فرعون على أنها النموذج الثالث من الحضارات التي برعت في تطبيقات العلوم وتفوقت من قبل في العلوم الطبيعية بكافة ضروبها ولا تزال علوم هذه الحضارة وتطبيقاتها ماثلة يتبارى المحدثون في فك رموزها وفقه مضامينها ودقائقها ، ولقد لعبت تلك العلوم وتطبيقاتها دوراً حاسماً في طغيان أهل هذه الحضارة حيث اغتروا بقوتهم واجترأ كبيرهم على الله وادعى الألوهية " فقال أنا ربكم الأعلى " !! ، وقاده جبروته إلي أن يتحدى رسول الله ويتعدى عليه فجرت عليه سنة الأولين وأغرقه الله نكالاً للعالمين .

قال تعالي ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ .[٤]

وقال تعالي ﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ .[٥]

وقال تعالي ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ ٱلْكَاذِبِينَ ﴾ .[٦]

وقال تعالي ﴿ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ (٢١) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ (٢٢) فَحَشَرَ فَنَادَىٰ (٢٣) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ (٢٤) ﴾ .[٧]

[١] . سورة الشعراء : ١٥٨ .
[٢] . سورة القمر : ٣١ .
[٣] . يمكن الرجوع إلي الجزء الأول من هذا المجلد .
[٤] . سورة القصص : ٤ .
[٥] . سورة يونس : ٨٣ .
[٦] . سورة القصص : ٣٨ .
[٧] . سورة النازعات : ٢١-٢٤ .

وقال تعالي ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ .[١]

وقال تعالي ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ .[٢]

وقال تعالي ﴿ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾ .[٣]

وقال تعالي ﴿ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ .[٤]

وقال تعالي ﴿ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴾ .[٥]

---

[١] . سورة غافر : ٣٦ - ٣٧ .
[٢] . سورة الزخرف : ٥١ .
[٣] . سورة الدخان : ٢٥-٢٨ .
[٤] . سورة القصص : ٤٠ .
[٥] . سورة النازعات : ٢٥ .

المبحث الثالث

العلم والتعلم والتعليم والعلوم الطبيعية وتطبيقاتها في السنة المطهرة :

ننتقل في هذه الجزئية إلي استعراض مسألة العلم والتعلم والتعليم والعلوم الطبيعية وتطبيقاتها في السنة النبوية المطهرة ، فالسنة تبدو علاقتها بالقرآن من ثلاثة جهات فهي أولاً مفسرة لما خفي عن الأذهان من أحكام وقضايا وموضوعات الذكر الحكيم وهي ثانياً : مفصلة لما أجمل من عموميات القرآن الكريم ، وهي ثالثاً : مكملة لما لم يذكر في الكتاب العظيم ، وعليه فالسنة المطهرة تفسير وتفصيل وتشريع ، وذلك من خلال الآتي :.

العلم :

عند درس أحاديث الرسول الكريم التي وردت بخصوص العلم وفي صدده يبدو أنها إنما جاءت لتعنى علم الدين ، أي الكتاب والسنة ، أو القرآن المنزل وحياً ، وأحاديث الرسول المروية عنه في الصحاح ، والتي قالها أو قررها ، ولكن التعمق في فهم تلك الأحاديث وتبيان مدلولاتها ومضامينها يوصل إلي نتيجة مؤداها أن علم الدنيا هو الآخر متضمن أو مشمول في أحاديث الرسول الكريم ، وسوف نوضح ذلك بمشيئة الله عند الحديث عن العلم الطبيعي أو علم الدنيا .

- فضل العلم وقيمته :

للعلم قيمته السامية وفضله العظيم ، فهو أي العلم أعظم شرفاً وأرقي درجة علي القول والعمل ،قال رسول الله صلي الله علية وسلم :"من يرد الله به خيراً يفهمه وإنما العلم بالتعلم ".

وعن معاوية رضي الله عنه قال :قال رسول الله صلي الله عليه وسلم :"من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين وإنما أنا قاسم والله يعطى ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله " .

ويحمل هذا الحديث أربعة قضايا أساسية : أولها : أن فقه الدين هو العلم وثانيها : أن الإيمان خير وأن من فقهه الله في الدين أعظم وأجزل له في الخير ، وثالثها : أن اختلاف الناس في الفقه في الدين على درجات ومنازل ليس من جهة رسول الله أو من فعله ولكن ذلك عطاء من الله يفسره قوله " من يرد الله به خيراً " ورابعها : أن قيام الأمة على أمر الله لن يكون إلا بالعلم والعمل والجهاد .

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال : ضمني رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : " اللهم علمه الكتاب " ويحمل هذا الحديث ما مفاده أن العلم هو علم الكتاب أي الدين .

وعن أبي موسى رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم :" مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً ، فكانت منها طائفة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكان منها أجادب أمسكت الماء ، فنفع الله بها الناس ، فشربوا منها وسقوا وزرعوا وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به ، فعلم وعلّم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به " .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" لا حسد إلا في اثنتين : رجل أتاه الله مالاً ، فسلطه على هلكته في الحق ورجل أتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها " .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له " .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :" إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً من الناس ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء ، حتى إذا لم يبق عالماً ، اتخذ الناس رؤوساً جهالاً ، فسئلوا فأفتوا بغير علم ، فضلوا وأضلوا " .

وعن أنس رضي الله عنه قال : لأحدثنكم حديثاً لا يحدثكم أحد بعدي ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :" من أشراط الساعة أن يقل العلم ويظهر الجهل ويظهر الزنا وتكثر النساء ، ويقل الرجال حتى يكون لخمسين امرأة القيم الواحد " .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :" بينا أنا نائم أتيت بقدح لبن فشربت حتى إني لأري الري يخرج في أظفاري ثم أعطيت فضلى عمر بن الخطاب " ، قالوا مما أولته يا رسول الله قال :" العلم " .

– ضآلة علم الناس في مقابل علم الله سبحانه :

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : بينا أنا أمشي مع النبي صلى الله عليه وسلم في خِرَب المدينة وهو يتوكأ على عسيب معه فمر بنفر من اليهود فقال بعضهم لبعض سلوه عن الروح وقال بعضهم لا تسألوه لا يجئ فيه بشيء تكرهونه فقال بعضهم لنسألنه فقام رجل منهم فقال يا أبا القاسم ما الروح فسكت فقلت إنه يوحي إليه فقمت فلما انجلى عنه فقال :" ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتوا من العلم إلا قليلاً " قال الأعمش هكذا في قراءتنا .

العلماء :

أوضح الرسول الكريم فضل العلماء فقال صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه أبو هريرة :" الدنيا ملعونة ، ملعون ما فيها ، إلا ذكر الله تعالى وما والاه ، وعالماً ، ومتعلماً " .

وعن أبي إمامة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :" فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم " ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" إن الله وملائكته وأهل السماوات والأرض حتى النملة في جحرها وحتى الحوت ليصلون على معلمي الناس الخير " .

ويتسم العلماء بالتواضع وإيكال العلم إلي الله وفي ذلك يرد حديث الرسول الكريم ، فعن أبي بن كعب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" قام موسى النبي خطيباً في بنى إسرائيل فسئل أي الناس أعلم فقال أنا أعلم فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه فأوحى الله إليه أن عبداً من عبادي بمجمع البحرين هو أعلم منك قال يا رب كيف به فقيل له احمل حوتاً في مكتل فإذا فقدته فهو ثم فانطلق وانطلق بفتاه يوشع ابن نون وحملا حوتاً في مكتل حتى كانا عند الصخرة ، وسرد القصة التي وردت في سورة الكهف " .

التعلم :

التعلم هو طلب العلم والرغبة فيه والمواظبة على تلقيه ، ولطالب العلم فضله وصفاته التي اهتمت بهما السنة المطهرة .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلي الجنة " .

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " من سلك طريقاً يبتغي فيه علماً سهل الله له طريقاً إلي الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع ، وإن العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء ، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب وإن العلماء ورثة الأنبياء وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر " .

وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع " .

التعليم :

أولت السنة المطهرة التعليم أهمية لا تبارى لكونه يجمع عمليات عدة تبدأ بالعلم وتنتهي بالتعلم وتلقى العلم وتداوله بين الناس .

فعن سهل بن سعد رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعلى رضي الله عنه : " فو الله لأن يهدى الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم " .

وعن عبدا لله بن عمرو بن العاصي رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " بلغوا عنى ولو آية ، وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج ، ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار " .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من دعا إلي هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً " .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " نضرّ الله امرءً سمع منا شيئاً ، فبلغه كما سمعه فرب مبلغ أوعى من سامع " .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار " .

وعنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" من تعلم علماً مما يبتغي به وجه الله عز وجل لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة " .

وعنه أنه قال : إن الناس يقولون أكثر أبو هريرة ولولا آيتان في كتاب الله ما حدثت حديثاً ثم يتلو إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات إلي قوله الرحيم ، إن إخواننا من المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالأسواق وإن إخواننا من الأنصار كان يشغلهم العمل في أموالهم وإن أبا هريرة كان يلزم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال بشبع بطنه ويحضر ما لا يحضرون ويحفظ ما لا يحفظون .

تعليم المرأة :

الرجل والمرأة في العلم سواء ، فكلاهما مكلف من قبل الله عز وجل بطلب العلم وهذا ما لسناه في تناولنا لمسألة العلم والتعلم والتعليم في القرآن الكريم ، وكذلك في السنة النبوية المطهرة ، ويتضح ذلك من الأحاديث التالية :

روى أبو جردة عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" ثلاثة لهم أجران رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بمحمد صلى الله عليه وسلم ، والعبد المملوك إذا أدى حق الله وحق مواليه ، ورجل كانت عنده أمة فأدبها فأحسن تأديبها وعلّمها فأحسن تعليمها ثم أعتقها فتزوجها فله أجران " .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال :" أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج ومعه بلال فظن أنه لم يُسْمِع فوعظهن وأمرهن بالصدقة فجعلت المرأة تلقى القُرْط والخاتم وبلال يأخذ في طرف ثوبه " .

وعن أبي سعيد الخدري قال : قالت النساء للنبي صلى الله عليه وسلم غلبنا عليك الرجال فاجعل لنا يوماً من نفسك ، فوعدهن يوماً لقيهن فيه فوعظهن وأمرهن فكان فيما قال لهن ما منكن امرأة تقدم ثلاثة من ولدها إلا كان لها حجاباً من النار فقالت امرأة واثنتين فقال واثنتين " .

وقالت عائشة رضى الله عنها : " نعم النساء نساء الأنصار لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين " .

وعن أم سلمة قالت : جاءت أم سليم إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله إن الله لا يستحي من الحق فهل على المرأة من غسل إذا احتلمت قال النبي صلى الله عليه وسلم : " إذا رأت الماء " فغطت أم سلمة تعنى وجهها وقالت يا رسول الله وتحتلم المرأة ، قال " نعم تربت يمينك فبم يشبهها ولدها " .

العلوم الطبيعية :

لا يمكن الادعاء بأنه مع مجيء الإسلام وحال وجود الرسول الكريم على رأس الدولة الإسلامية الناشئة كان هناك اهتمام بالعلوم الطبيعية وتطبيقاتها إن العرب عندما أظلهم الإسلام كانوا حديثي عهد بالحضارة المتمركزة على المدنية والعمران ذات الحياة المعقدة التي يحتل فيها العلم الطبيعي وتطبيقاته مكانة متقدمة ، فقد كانوا قبل الإسلام على صلة وثيقة بحضارة البداوة التي ترتكن على التعامل البسيط والبدائي مع عناصر الوجود وموجودات الكون والتي كانوا قد برعوا في فنونها ولا ريب .

وقد كان على العرب المسلمين في فجر ذلك الدين الجديد أن ينكبوا أولاً على فقه أركانه وفهم أسسه ثم يسعوا جاهدين إلي نشره عبر النواحي والأرجاء فقد كان ذلك هو شغلهم الشاغل الذي لم يتوانوا في العمل الدائب من أجله ولم يلتفتوا إلي أي شيء أخر إلا بعد أن

فتحوا الأقاليم والأمصار واختلطوا بأقوام وأمم وشعوب شتى واطلعوا على ما لديهم من موروثات حضارية وثقافية عبر حركة الترجمة التي كانت بمثابة المعبر الاستراتيجي لنفسيات تلك الشعوب ومكوناتها الفكرية حتى يمكن سياستها وإدماجها في بوتقة الدولة الإسلامية الواعدة .

بالرغم من كون ما تقدم هو واقع الحال بالنسبة للعلوم الطبيعية وتطبيقاتها في فجر الدولة الإسلامية ، وبالرغم من أن ذلك الواقع قد مد ظلاله إلي السنة النبوية المطهرة ، فجعل أحاديث الرسول الكريم تخلو من التركيز المباشر والصريح على العلوم الطبيعية ، إلا أن ثمة إشارات يمكن اعتمادها كأطر عامة أو خطوط رئيسية وضعتها السنة كنواة للإقبال على العلوم الطبيعية والخوض فيها والبروع في جوانبها .

ومن هذه الإشارات ما رواه عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :" إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها وهي مثل المسلم حدثوني ما هي " قال بن عباس : فوقع الناس في شجر البادية ووقع في نفسي أنها النخلة ، قال عبد الله فاستحييت ، فقالوا يا رسول الله أخبرنا بها : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" هي النخلة " قال عبد الله فحدثت أبي بما وقع في نفسي فقال : لأن تكون قلتها أحب إلي من أن يكون لي كذا وكذا .

وبنظرة فاحصة إلي هذا الحديث الشريف ومدلولاته التي يمكن استنباطها من سؤال الرسول عن " الشجرة التي لا يسقط ورقها وهي مثل المسلم " يمكن التوصل إلي أنه بالرغم من الصلة الوثيقة بين مدلول الحديث والدين أو علم الدين ، حيث تبدو العلاقة فيما تمثله النخلة من عطاء ونفع مستديم لا يتحول ، إلا أن ثمة وجهاً آخر يتعلق بالفهم الذي ينبغي أن يكون عليه المسلم لظواهر الحياة وعناصر الوجود وفقه تلك الظواهر واكتناه علاقاتها وما تمثله من دلالات إيمانية شعائرية ، وهذا بادٍ في صيغة السؤال التي تأخذ طابع اللغز

واستجلاء قدرة الصحابة على التعامل مع عناصر الوجود والطبيعة وحل مشكلاتها والتفاعل معها وما هذا إلا العلم الطبيعي وما هو إلا قوام الحضارة .

إن ثمة قواسم مشتركة بين علمي الدين والدنيا أهمها أن كليهما قائم على التفكير والتدبر واستخدام العقل ، كما أنهما يشتركان في أحكام وضوابط واحدة هي الأمانة والجهد والمثابرة والدعوة إلي الفضيلة والخير و السعي لنشر العلم وتداوله بين الناس .

والحياة التي يعيشها المسلم لا تستقيم إلا بعلم ظواهرها و فقه حقائقها و في ذلك مساندة لعلم الدين ، فكيف يمكن عمارة الأرض ، وتحقيق الحياة الطيبة للمجتمع المسلم دون تقدم العلوم الطبيعية ، وكيف نجعل من الحياة مزرعة للآخرة دون أن نوفر للفرد المسلم ما يمكنه من عبادة ربه وطاعته والإيمان به بحق وعن بصيرة .

إن العلوم الطبيعية تثبت العديد من الحقائق الدينية وفي ذلك تقوية لإيمان الناس وتمتين ليقينهم ، وقد سبق تناول ذلك تفصيلاً .

هناك اتصال وثيق بين الكثير من علوم الدين وعلوم الدنيا ، فمعظم أحوال الإنسان وتصرفاته وأطوار حياته وما يحكمها من تشريعات دينية تجد صداها ومدلولاتها من خلال العلوم التي تختص بدراسة الإنسان نفسياً وجسدياً وفكرياً ، كما أن كثيراً من الأحكام والتكليفات التي يُكلف بها الإنسان لها جوانب وأبعاد عديدة تتصل بمجالات علمية طبيعية ولعل منها ما يدخل في العبادات مثل الصيام وغير ذلك كثير .

إن ما نلاحظه من تركيز الرسول الكريم في أحاديثه على علم الدين ليس مرجعه إهمال أو التقليل من شأن علم الدنيا أو العلوم الطبيعية ، ولكن مرد ذلك أن الدين الإسلامي كان في حاجة ماسة إلي تبيان وشرح وتوضيح حتى يستقر في عقول وقلوب معتنقيه أما علم الدنيا فسوف يأتي بعد ذلك كوسيلة ضرورية للتعامل مع عناصر الوجود .

يضاف إلي ما تقدم أن العلوم الدينية هي علوم مفروضة على المسلمين فرض عين إذ لابد لكل مسلم أن يفقه دينه ويفهم أصوله وفروعه حتى يكتمل إيمانه ، أما بالنسبة إلي العلوم الطبيعية فهي مفروضة على المسلمين فرض كفاية إذ يمكن لطائفة من المسلمين أن تتخصص في العلوم الطبيعية وتحقق الفائدة المرجوة للمجتمع بأسره ، يرتبط بذلك أن الدين الإسلامي يحتاج إلي نشر ودعوة وتبليغ وذلك قد يكون واجباً على كل مسلم ومن ثم فعلم الدين أصبح ضرورة ، في حين أن العلم الطبيعي قد يُكتفي بنشره داخل المجتمع المسلم وبما يحقق مصلحة ذلك المجتمع وليس من الضرورة أو الواجب نشره خارج حدود مجتمع المسلمين .

الفصل الثاني

العلم والتعلم والتعليم والعلوم الطبيعية وتطبيقاتها في عصر النبوة الزاهر

في الفصل الفائت فرغنا من متابعة جملة المسائل المتعلقة بالعلم والتعلم والتعليم والعلوم الطبيعية وتطبيقاتها في المرجعيات أو المصادر التشريعية الإسلامية وهي المتمثلة في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، ونبدأ من هذا الفصل في رصد التطبيقات والممارسات الفعلية الخاصة بالمسائل سابقة الذكر على مدى تاريخ الدولة الإسلامية وحضارتها التي بدأت منذ تأسيس دولة المدنية وحتى وقتنا الراهن .

وتجدر الإشارة منذ بداية هذا الفصل إلي القول بأن عصر النبوة الزاهر انطلاقاً من كونه هو عصر نشأة الدولة الإسلامية الأولى وهو كذلك عصر انبعاث الإسلام وانبلاج الدعوة إليه لذا فقد اتسم بسمة أساسية وهي أن التركيز طيلة هذا العصر كان على العلوم الدينية الهادفة إلي تثبيت الدين وترسيخه في عقول وقلوب المسلمين ثم التأهب لنشره في كافة الأرجاء مما أدى إلي محدودية الاهتمام بالعلوم الطبيعية وهذا يلتقي مع طبيعة المجتمع العربي حينذاك الذي أتسم بالفقر الحضاري وشحة وتشوه الموروث الثقافي .

وسوف نتابع الحركة العلمية في المجتمع الإسلامي الأول مجتمع فجر الإسلام من خلال المباحث الأربعة التالية :

المبحث الأول : العلم .

المبحث الثاني : التعلم .

المبحث الثالث : التعليم .

المبحث الرابع : العلوم الطبيعية وتطبيقاتها في عصر النبوة الزاهر .

المبحث الأول

العلـــــم

الحديث عن العلم في عصر النبوة بوصفه النشأة الأولى للدولة الإسلامية وكذا حضارتها التي ازدهرت سريعاً يعد مسألة دقيقة وتحتاج إلي معالجة خاصـــة ، حيث تصور البعض أن المسلمين الأوائل لم يكونوا يرحبون بالعلوم الطبيعية وأنهم كانوا ينظرون إليها على أنها " الخطوة الأولى على الطريق المفضي إلي الزندقة " ولكن الأمر لم يكن بهذا الوصف الذي يصور الرعيل الأول من المسلمين على أنهم من القصور الفكري بما يجعلهم ينظرون إلي الظواهر الطبيعية وموجودات الكون بسذاجة وسطحية ويصور الإسلام على أنه دين يعادي العلم ولا يعترف بالعقل ويعتمد على غيبيات وأفكار دوجماطيقية ، ومن ثم فلابد من الإشارة إلي جملة من الحقائق الخاصة بطبيعة العلم في عصر النبوة الزاهر ، وذلك من خلال الآتي :

مبررات إعطاء الأولوية المطلقة لعلوم الدين :

يرتكز الإسلام شأنه شأن كافة الديانات السماوية على قضية محورية هي الإيمان بالله وتوحيده وإفراده بالألوهية والربوبية ، ويتداخل في هذه القضية الجوهرية ركنان أساسيان يمثلان معاً قوامها الذي تنتصب عليه ولا تبدو في شكلها الصحيح المتوازن إلا بقيام هذين الأساسين : الأساس الأول ، هو التسليم والاستسلام لله الواحد الأحد والدعوة التي جاء بها الرسول الكريم عن ظهر الغيب ، الأساس الثاني ، ضرورة إعمال العقل للنظر والتفكير والتدبر في آلاء الله وآياته بما يدعم الأساس الأول ويرسخ الإيمان الغيبي بالله فالأول يحتاج إلي قلب أسلم زمام أمره للدعوة ووقرت فيه وملكته تماماً ، والثاني يلزمه فكر سوى قويم يثبت ما وقر في القلب ويرسخه .

إذا كانت القضية الإيمانية بهذا الوصف المتقدم فهي تحتاج من الرسول الحامل للرسالة إلي جهد وعناء في تثبيت محوري القضية وترسيخ مرتكزيها في قلوب وعقول قوم يتصفون بحدة الطبع والكفر المتأصل في القلب والعقل ، وهذا الجهد كان يستوجب التركيز الشديد في اتجاه الدين أصولاً وفروعاً واعتبار ما دونه ثانوياً .

فالمحور الأول كان هدف الدعوة منذ انبعاثها وقد أبلى فيه المسلمون بلاءً حسناً حيث انقادوا للدعوة مستسلمين وأسلموا أمرهم لله ورسوله ، أما المحور الثاني فقد جاهد الرسول الكريم من أجل أن يتخول أصحابه وعموم المسلمين ببث العلم في عقولهم لكي يثبت ما في صدورهم وقلوبهم وكان علم الدين هو الأجدر بالرعاية والاهتمام ولو أن علم الدنيا لم يغفل نهائياً .

لقد جاء الإسلام نظاماً اجتماعياً شاملاً كافة نواحي ونشاطات الحياة ولم يأت شعيرة أو نسكاً يؤدى بمعزل عن الحياة وحركتها الدائبة ، وبعبارة أكثر دقة أن الإسلام إنما جاء لضبط وتأطير الحياة وفق معايير وضوابط وضعها الشارع العظيم من أجل تحقيق غاية مثلي خلق من أجلها الناس جميعاً ، ولهذا تشعبت علوم الدين وتداخلت وتغلغلت في تفاعلات الحياة ومست جميع أحوال الناس وعنيت بكافة أمورهم ، وهذا التشعب والتداخل في علوم الدين الذي كافأ تشعب تفاعلات الحياة وحركتها كان يحتاج إلي إلمام بأصولها وفروعها ودقائقها ولم يكن أمام المسلمين الأوائل من بد عن القيام بذلك العبء الثقيل الذي تلقوه عن الرسول الكريم مباشرة إما وحياً في القرآن وإما قولاً وسلوكاً وإقراراً في السنة النبوية المطهرة .

إزاء ما تقدم كان علم الدين وفقهه وفهم كافة دقائقه هو هم المسلمين الأوائل ومثل ذلك كان هم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن ثم ضاقت الفرجة ولكنها لم تنغلق تماماً أمام

العلوم الطبيعية التي برزت في حياة المسلمين بشكل إلزامي حينما أصبحت أمراً تمليه حركة الحياة وتفاعلاتها .

ثم يعن في هذا السياق سؤال آخر مفاده : هل كان لبساطة الحياة وطبيعة البيئة العربية البدوية غير الموغلة في الحضارة المعقدة إضافة إلي وازع الزهد في الحياة الذي كان يمثل ركناً مهماً من أركان العقيدة الجديدة ، هل كان لكل ذلك دور يعول عليه في عدم الاتجاه سريعاً وبشكل مباشر منذ انبلاج فجر الدعوة الإسلامية إلي العلوم الطبيعية وتطبيقاتها حال حياة الرسول الكريم وحتى في عهد الخلفاء الراشدين الأربعة ! إن مراجعة متأنية لتلك الحقبة من حياة الدعوة الإسلامية تقودنا إلي استنتاج ما يمكن أن يرقى إلي مستوى الحقيقة المؤكدة التي مضمونها أن واقع الحياة في تلك الحقبة التاريخية وفي تلك البقعة الجغرافية وما حوته تلك الحياة من معطيات معقدة وصارمة فرضت على المسلمين الأوائل الاقتصاد في كل شيء وحدت من طموحاتهم في حياة الدعة ورغد العيش التي كانت متوفرة بشكل غير أخلاقي للمياسير من رجالات قريش والقبائل العربية الأخرى ، يلتقي مع هذه الوجهة ويزكيها وازع الزهد الذي فرض نوعاً من القناعة على المسلمين الأوائل وصل إلي حد الإعراض عن الحياة الآدمية العادية وتفضيل شظف العيش بقناعة ورضا .

يرتبط بما قدمنا ارتباطاً وثيقاً أن عصر النبوة كان يمثل للإسلام وعقيدة التوحيد عصر التركيز ثم التمكين وهذان يشكلان بدورهما أهم منطلقات الانتشار في كافة الأرجاء ، وتحقيق ذلك أن الفترة التي شملت عصر النبوة وحتى عصر الخلافة الراشدة كان كل الاهتمام فيها منصباً على نشر الدعوة ، وكان ذلك يقتضي التركيز على علوم الدين التي تحتاج إلي الدعاة الحافظين لها المتفقهين في أصولها وفروعها ، وقد جعل ذلك من الصعب توفير وقت للاشتغال والانشغال بالعلوم الطبيعية التي تحتاج إلي الجهد والوقت والتأمل ،

ولكن اقتصر اللجؤ إلي العلوم الطبيعية على ما يتعلق عضوياً بحياة المسلمين في تلك الفترة مثل الطب والترجمة التي كانت ذات أهمية في نشر الدعوة الإسلامية .

القرآن والسنة مصدر كافة العلوم :

منذ فجر الدعوة الإسلامية والي أن يرث الله الأرض ومن عليها سيظل القرآن العظيم والسنة النبوية المطهرة المصدر النهائي والمطلق لأصول الدين وعلومه وكذا لأصول وأسس العلوم الطبيعية ، وقد أيقن المسلمون الأوائل ذلك وأردفوا اليقين بالفعل القويم فظلوا ينظرون إلي العلوم الطبيعية على أنها لابد أن تنطلق من القرآن والسنة وكانوا في ذلك على قدر عظيم من الرؤية الصائبة والاحترام العميق والتوقير الكافي لمصدري الشريعة الجديدة المتجددة القرآن الكريم والسنة المطهرة .

وتحتاج وجهة النظر سابقة الذكر المزيد من تكثيف الضوء والإيضاح ، فالقرآن الكريم والسنة المطهرة بتكاملهما كمصدري للشريعة الإسلامية حويا كافة أصول الدين واستوعبا جميع ثوابته ، أما المتغيرات والمستجدات والعوارض فقد حدث إزاءها فراغ تشريعي وسكوت حكيم ، حيث تركها المصدران للناس في كل زمان ومكان يتولون صياغتها وترتيبها بالشكل الذي يتوافق مع الأصول والثوابت ويتواءم مع الزمان والمكان ، هكذا تعامل القرآن والسنة مع علوم الدين .

وبالنسبة للعلوم الطبيعية فقد قدم القرآن الكريم والسنة المطهرة إشارات ولمحات لظواهر طبيعية منها ما اكتشفه الإنسان ومنها ما لم يتم التعرف عليه بعد ، كما بينا قيمة العلم لكل من الإيمان والدين والحياة ، ولكن الشريعة لم تكن في هذا الخصوص بمثابة مرجعيات ومصادر تهتم بالغوص في ظواهر الكون والعلوم الطبيعية ومسائل البحث العلمي ، ولكن

ذلك واجب المسلمين الذين يبحثون في تلك العلوم منطلقين من الحث والتشجيع اللذين زخر بهما مصدرا الشريعة القرآن والسنة .

إن ما أوضحنا كان كفيلاً بأن يجعل المسلمين الأوائل في عصر النبوة يتعاملون مع العلوم الطبيعية بحذر وعدم اكتراث مفضلين اقتفاء أثر تلك العلوم في القرآن والسنة ومكتفين بالتقاط الظواهر من القرآن الكريم ومستشهدين بالأحاديث النبوية طوال عصر النبوة وحتى في عصر الخلافة الراشدة .

الاهتمام بالعلوم الطبيعية أمر يمليه واقع الحياة وتطوراتها :

الواقع أن العلوم الطبيعية وتطبيقاتها لم تكن هدفاً أو مطلباً أساسياً سعي المسلمون الأوائل إلي تحقيقه ولكن الاهتمام بها برز من كونها أمراً يمليه واقع الحياة وتطوراتها ، فلم يكن المسلمون في عصر النبوة في حاجة ماسة إلي البحث في علوم مثل النبات أو الحيوان أو علم الأرض والمعادن ولم يكونوا كذلك مضطرين إلي دراسة الجغرافيا أو التاريخ ولم يكن ثم ما يدعوهم إلي تناول علوم مثل الرياضيات أو الفلك أو البصريات إلاَّ أن المدخل الحقيقي للمسلمين إلي هذا العلوم كان هو واقع الحياة وتطوراتها التي فرضت عليهم بشكل تلقائي ومتدرج اللجؤ إلي العلوم الطبيعية لمواجهة المواقف والوقائع التي مروا بها وهم بصدد نشر الدعوة وتبليغ الدين الذي كان يمثل شغلهم الشاغل وهمهم الأول في تلك الحقبة المتقدمة من تاريخ الإسلام .

فعلما الطب والعقاقير برزت الحاجة إليهما كوسائل لمواجهة الأمراض ثم أصبحت الحاجة أكثر إلحاحاً للأخذ بهذين العلمين وتطويرهما نظرياً وميدانياً لأهميتهما في ميادين القتال عندما تعددت البعثات الدعوية في عصر النبوة وكذا في عصر الخلافة الراشدة .

كما أن الترجمة ومعرفة اللغات باتت مطلباً حيوياً بل أمراً من الرسول الكريم لبعض الصحابة للتعامل والتعاطي مع الأمم المجاورة للدولة الناشئة سواء أكان ذلك التعامل في إطار العلاقات السلمية مثل الحبشة أو في سياق الصراع العضوي الذي يهدف إلي حمل وتوصيل الدعوة إلي الشعوب الأخرى مثل الفرس والروم ثم إلي بقية شعوب الأرض .

لقد أصبح المسلمون معنيين بتحديد اتجاهات جيوشهم والتمرس والدربة على الطرق والمسالك والإلمام بطبيعة الأرض التي يجوبونها والمدن التي يقصدونها وهنا برزت ضرورة معرفة علم مثل الجغرافيا حيث خُصص لكل بعثة رجل أو أكثر على دراية بكل ذلك حتى يسهلوا مهمة الجيش استراتيجياً وتكتيكياً وكذا لوجستياً لتحديد مواضع استراحة الجيش دون خطورة ومواضع الإمداد والتموين وأقرب وأأمن الطرق والمسالك لذلك .

ثم عندما يستقر المسلمون في منطقة من المناطق أو قطر من الأقطار فهم مدعوون إلي معرفة تاريخه وتاريخ شعوبه وحكامه بل إن ذلك كان يحدث قبل أن يتحركوا إلي تلك البلدان والمناطق والمثال على ذلك مصر حيث حدّث عنها الرسول الكريم قائلاً لأصحابه " استوصوا بأهل مصر خيراً ففيها خير أجناد الأرض " ، فعن أبي ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" أنكم ستفتحون أرضاً يذكر فيها القيراط " ، وفي رواية :" ستفتحون مصر وهي أرض يسمى فيها القيراط فاستوصوا بأهلها خيراً فإن لهم ذمة ورحماً " ، وفي رواية :" فإذا افتتحتموها فأحسنوا إلي أهلها فإن لهم ذمة ورحماً " ، أو قال :" ذمة وصهراً " ، ومن ثم كان علم التاريخ والإلمام بسير المناطق والبلدان والشعوب من العلوم التي دخلت إلي المسلمين من واقع الحياة وحركتها الدائبة .

بعد ذلك وبدءً من أواخر العصر الأموي تعقدت أشكال الحياة وتنوعت أنماطها وأصبحت العلوم الطبيعية وتطبيقاتها من أهم مقومات الحضارة الإسلامية وبرع المسلمون منذ ذلك التاريخ في الطب والعقاقير وعلوم النبات والحيوان والأرض والمعادن والجغرافيا والتاريخ

والترجمة والرياضيات والفلك والبصريات وغيرها من العلوم وكان ذلك أيضاً محكوماً بتطـور الحياة وتقدم الحضارة والمدنية .

الرسول الكريم يولى اهتماماً بالطب والترجمة :

إذا تحولنا من التعميم إلي التخصيص نجد أن الرسول الكريم منذ استقراره في المدينة المنورة وسعيه نحو تشكيل النظام الاجتماعي للدولة الجديدة وإقامة المجتمع المدني يركز اهتمامـه على ما يحتاجه ذلك المجتمع الناشئ بشكل ماس من العلوم الطبيعية ، وقـد كـان الطـب والترجمة من أهم العلوم التي برزت حاجة المجتمع الإسلامي الأول إليها ، وسوف نفـصل كيف كان اهتمام الرسول الكريم بكل من الطب والترجمة في موضع متقدم من هذا الفصل .

المبحث الثاني

التعلم

في الجزئية الفائتة تناولنا العلم في عصر النبوة من خلال تكثيف الضوء على جدلية العلاقة القائمة بين علوم الدين وعلوم الدنيا ، وكيف كان للأولى أهميتها المطلقة انطلاقاً من الطبيعة الخاصة للدين والدعوة إليه في المجتمع الإسلامي ، وكيف اكتفى ذلك المجتمع من العلوم الطبيعية بما يلبي متطلباته الأولية ويحقق أهداف حركته نحو نشر الإسلام .

وفي هذه الجزئية نتناول مسألة أخرى وهي مسألة التعلم وطلب العلم ، فما مدى أهمية التعلم وطلب العلم في فجر الإسلام وفي أول مجتمع مسلم عرفه التاريخ ، ومن المتعلمون وطالبو العلم وما هو دورهم في ذلك المجتمع الناشئ وماذا سيكون دورهم بعد ذلك في مستقبل ذلك المجتمع الذي سيكون نواة لدولة مترامية الاطراف وحضارة زاهرة ، وذلك من خلال الآتي :

أهمية التعلم وطلب العلم في فجر الإسلام وفي أول مجتمع مسلم :

التعلم هو أول واهم المسائل التي ينبغي أن تحوز اهتمام المعلم الأول وهو الرسول الكريم ومن حوله من الصحابة والحواريين الرّبيين ، حيث التعلم هو أول وأهم أدوات تحصيل العلم بالدين والإلمام بتعاليمه من الرسول الكريم الذي يوحي إليه بذلك ، ومن ثم فالمتابع لهذه الفترة المبكرة من تاريخ الإسلام والدولة الإسلامية يلحظ أن أهم عملين كان يقوم بهما المسلمون الأوائل في عصر النبوة هما : تلقي العلم من الرسول الكريم قرآناً ينزل به الوحي وأحاديث يتحدث بها الرسول أو أفعالاً يقوم بها أو أخرى يُقرها أو يسكت عنها حينما تؤدّي ، وهذا التلقي يتم عبر وسائل الحفظ في الصدور والفهم بالسؤال والاستفسار ، وبعد ذلك يأتي العمل الثاني وهو السعي نحو نشر الدين الجديد والدعوة إليه ، وهنا يلاحظ أن

العمل الأول هو تعلم وتلق للعلم وتحصيله والثاني هو تعليم ونقل للعلم وتلقينه وعليه فحياة المسلمين الأوائل هي بين هذا وذاك .

إن ما تقدم يبرز أهمية العلم وأهمية تعلمه وتحصيله في حياة المسلمين الأوائل الذين عايشوا الرسول الكريم وذلك بأنهم سيكونون حملته ومبلغيه إلي كافة الناس ، وقد اختار الحق تبارك وتعالى أمة المسلمين وهؤلاء هم أوائلها لكي يكونوا خير أمة أخرجت للناس وعليهم شهداء ، فهي إذن الرسالة ، رسالة التبليغ والدعوة في الدنيا والشهادة في الآخرة ، وفي ذلك قال الحق تبارك وتعالى في شأن هذه الأمة : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .[1]

وقال تعالى ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ .[2]

وقال تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ ﴾ .[3]

وقال تعالى ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ .[4]

---

[1] . سورة آل عمران : ١٠٤ .
[2] . سورة آل عمران : ١١٠ .
[3] . سورة البقرة : ١٤٣ .
[4] . سورة آل عمران : ١٤٠ .

وقال تعالى ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ .[1]

الصحابة وتلقى العلم وتحصيله من الرسول الكريم :

كان صحابة رسول الله أول من تلقى عنه العلم وحفظه ووعاه ، فكانوا يلازمونه في ظعنه وأقامته وحله وترحاله ، وكانوا أحرص ما يكونوا على حفظ القرآن والحديث ، وفهم أسباب النزول وتفسيره وتدقيق الأحاديث وفقه معانيها ، كما كانوا على وعي تام بمسئولية الحفظ والتلقي عن الرسول الكريم فتحروا الدقة والأمانة .

لقد كان الرسول الكريم يواظب على تعليم أصحابه ، وكانوا من جهتهم حريصين على تلقي العلم وفهمه ، فعن عمر رضى الله عنه قال " كنت أنا وجار لي من الأنصار في بني أمية بن زيد وهي من عوالي المدينة وكنا نتناوب النزول على رسول الله صلى الله عليه وسلم ينزل يوماً وأنزل يوماً فإذا نزلت جئته بخبر ذلك اليوم من الوحي وغيره ، وإذا نزل فعل مثل ذلك فنزل صاحبي الأنصاري يوم نوبته فضرب بابي ضرباً شديداً فقال أثمّ هو ففزعت فخرجت إليه فقال قد حدث أمر عظيم قال فدخلت على حفصة فإذا هي تبكي فقلت طلقكن رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت لا أدري ثم دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم فقلت وأنا قائم أطلقت نساءك قال لا فقلت الله أكبر " .

وكتب عمر بن عبد العزيز إلي أبي بكر بن حزم انظر ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فاكتبه فأني خفت دروس العلم وذهاب العلماء ولا نقبل إلا حديث النبي ولتفشوا العلم ولتجلسوا حتى يعلم من لا يعلم فإن العلم لا يهلك حتى يكون سراً .

[1] . سورة الحج : ٧٨ .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : ما من أصحاب النبي أحد أكثر حديثاً عنه مني إلا ما كان من عبد الله بن عمرو فإنه كان يكتب ولا أكتب .

وعنه أنه قال : إن الناس يقولون أكثر أبو هريرة ولولا آيتان في كتاب الله ما حدثت حديثاً ثم يتلو إن الذين يكتمون ما أنزل الله من البينات إلي قوله الرحيم ، إن إخواننا من المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالأسواق وإن إخواننا من الأنصار كان يشغلهم العمل في أموالهم وإن أبا هريرة كان يلزم رسول الله بشِبَع بطنه ويحضر ما لا يحضرون ويحفظ ما لا يحفظون .

وعنه أنه قال : قلت يا رسول الله إني أسمع منك حديثاً كثيراً أنساه ، قال أبسط رداءك فبسطته ، قال فغرف بيديه ثم قال ضمه فضممته فما نسيت شيئاً بعده .

وعنه قال : حفظت من رسول الله وعاءين فأما أحدهما فبثثته وأما الآخر فلو بثثته قطع هذا البلعوم .

وعن ابن مسعود قال كان النبي يتخولنا بالموعظة في الأيام كراهة السآمة علينا .

وعن أنس رضى الله عند أن النبي صلى الله عليه وسلم قال " يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا " .

وكما كان الصحابة يتلقون العلم ويحفظونه عن الرسول الكريم كانوا كذلك يتلقون العلم من أكثرهم علماً وفهماً للدين ، فقد كان عبد الله يذكر الناس في كل خميس فقال له رجل يا أبا عبد الرحمن لوددت أنك ذكرتنا كل يوم قال أما إنه يمنعني من ذلك أني أكره أن أمِلّكم وإني أتخولكم بالموعظة كما كان النبي يتخولنا بها مخافة السآمة علينا .

الوفود التي تقصد الرسول الكريم للتعلم ثم نقل العلم إلي قومهم :

لقد شاع التعلم وطلب العلم في عصر النبوة في العديد من الأحياء والقبائل العربية ، وقد اقترن ذلك بالدخول في الدين الجديد ، وقد جاء التعلم وطلب العلم في هذه الحقبة المتقدمة من التاريخ الإسلامي مقترناً بظروف ومعطيات شتى منها ظروف الدعوة للدين الجديد ومنها موقف العرب المنتشرين على صعيد شبه الجزيرة في أنماط ونماذج حضارية ذات طبيعة بدوية وقد ساهمت تلك الظروف والمعطيات في صياغة أشهر نموذجين من نماذج التعلم وطلب العلم ثم نقله وتداوله إلي طالبيه من حديثي الإسلام والراغبين في اعتناقه :

– الصحابة الذين انتشروا بين القبائل المختلفة على صعيد شبه الجزيرة بعد أن تلقوا العلم بالدين على يدي الرسول الكريم سواء أكانوا من أبناء المجتمع المتماس مباشرة مع الدعوة الجديدة في مكة والمدينة أي من المهاجرين والأنصار أو من تلك القبائل والأحياء العربية وعاشوا في المجتمع الجديد ثم عادوا إلي قبائلهم للتبشير بالدعوة بداءة أو لتعليم من آمن ودخل الإسلام .

– الوفود التي كانت تقصد المدينة المنورة من أنحاء شبه الجزيرة لتلتقي الرسول الكريم وتتلقى عنه العلم ثم تعود إلي قبائلها لتباشر مهمة التعليم .

فعن أنس ابن مالك قال : بينما نحن جلوس مع النبي صلى الله عليه وسلم في المسجد دخل رجل على جمل فأناخه في المسجد ثم عقله ثم قال لهم أيكم محمد والنبي متكئ بين ظهرانيهم فقلنا هذا الرجل الأبيض المتكئ فقال له الرجل ابن عبد المطلب فقال له النبي قد أجبتك فقال الرجل للنبي إني سائلك فمشدد عليك في المسألة فلا تجد عليّ في نفسك فقال سل عما بدا لك فقال أسألك بربك ورب من قبلك آلله أرسلك إلي الناس كلهم فقال اللهم نعم قال أنشدك بالله آلله أمرك أن نصلى الصلوات الخمس في اليوم والليلة قال اللهمَ نعم

، قال أنشدك بالله آلله أمرك أن نصوم هذا الشهر من السنة قال اللهم نعم ، قال أنشدك بالله آلله أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا فتقسمها على فقرائنا فقال النبي اللهم نعم ، فقال الرجل آمنت بما جئت به وأنا رسول من ورائي من قومي وأنا ضمام بن ثعلبه أخو بني سعد بن بكر .

وعن أنس رضى الله عنه قال : نسخ عثمان المصاحف فبعث بها إلي الآفاق ورأى عبد الله بن عمر ويحي بن سعد ومالك ذلك جائزاً ، واحتج بعض أهل الحجاز بحديث النبي حيث كتب لأمير السرية كتاباً وقال لا تقرأه حتى تبلغ مكان كذا وكذا فلما بلغ ذلك المكان قرأه على الناس وأخبرهم بأمر النبي .

وعن عبد الله بن عباس قال : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث بكتابه رجلاً وأمره أن يدفعه إلي عظيم البحرين فدفعه عظيم البحرين إلي كسرى فلما قرأه مزقه فحسبت أن ابن المسيب قال فدعا عليهم رسول الله أن يمزقوا كل ممزق .

وعن أنس بن مالك قال : كتب النبي صلى الله عليه وسلم كتاباً أو أراد أن يكتب فقيل له إنهم لا يقرؤون كتاباً إلا مختوماً فاتخذ خاتماً من فضة نقْشُه محمد رسول الله كأني أنظر إلي بياضه في يده فقلت لقتادة من قال نقشه محمد رسول الله قال أنس .

وعن ابن عباس قال : إن وفد عبد القيس أتوا النبي فقال من الوفد أو من القوم قالوا ربيعة فقال مرحباً بالقوم أو بالوفد غير خزايا ولا ندامى ، قالوا إنّا نأتيك من شقة بعيدة وبيننا وبيَنك هذا الحي من كفار مضر ولا نستطيع أن نأتيك إلا في شهر حرام فمرنا بأمر نخبر به من وراءنا ندخل به الجنة فأمرهم بأربع ونهاهم عن أربع أمرهم بالإيمان بالله عز وجل وحده قال هل تدرون ما الإيمان بالله وحده قالوا الله ورسوله أعلم قال شهادة ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وتعطوا الخمس من المغنم

، ونهاهم عن الدُّبَّاء والحنتم والمزفت والنقير ، وفي رواية المقير قال احفظوه وأخبروه من وراءكم .

ما قدمنا ينتهي بنا إلي خلاصة مفادها أن المسلم كان دوماً متعلماً ومعلماً ، فهو يتلق العلم من مصادره الأصلية ثم يتولى مهمة نشره ونقله إلي غيره من المسلمين ومن الناس عامة ، ويبرز في هذا السياق ما سبق وأوضحناه في صدد عدم كتمان العلم ، فقد قال الحق تبارك وتعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ ﴾ .[1]

[1] . سورة البقرة : ١٥٩ و ١٦٠ .

المبحث الثالث

التعليـــــم

التعليم هو تلقين العلم وبثه بين طالبيـه ، وقد كان العلـم في عـصر النبـــوة — كمـا سبق وأوضحنا — ينصرف جميعه إلي علـم الـدين الـذي يـشمل القـرآن الكـريم والـسنة النبويـة المطهرة ، والمعلمون هم العالمون والعلماء الذين يحملون العلم من مصادر شـتى وأهمهـا علـى الإطلاق القرآن الكريم والسنة المطهرة ، وقام بمهمة التعليـم في عـصر النبـوة ثلاثـة ، الأول علّمه الله سبحانه وتعالى بوحيه الأمين وهو الرسول الكريم ، والثـاني هـم الـصحابة وتلقـوا تعليمهم من الرسـول الكـريم والثالـث هـم الوفـود الـتي كانـت تـأتي إلـي الرسـول الكـريم والصحابة فيتعلمون العلم ثم ينقلونه إلي أقوامهم وذويهم ، وذلك من خلال الآتي :

الرسول الكريم [المعلم الأول] :

الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم هو معلم الأمة الإسلامية والبـشرية الأول ، علمـه الله سبحانه وتعالى عن طريق وحيـه الأمـين ، فقـال جـل شـأنه ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ (٥) ﴾ .[١]

وقال تعـالى ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ .[٢]

وقال تعـالى ﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ (٦٩) لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ (٧٠) ﴾ .[٣]

---

[١] . سورة النجم : ١-٥ .
[٢] . سورة النساء : ١١٣ .
[٣] . سورة يس : ٦٩ و ٧٠ .

وتمثلت وسائل التعليم في عصر النبوة في التلقي المباشر عن الرسول الكريم ثم الحفظ في الصدور ، فقد كان الصحابة يحفظون القرآن عن ظهر قلب وكذلك يحفظون أحاديث الرسول في كافة الموضوعات والمسائل والأحكام والمناسبات وكان الرسول الكريم لطيف في تعليمه لصحابته خبير بكيفية التعليم حكيم بالتأثير في مستمعيه ومتابعيه .

فعن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثاً حتى تُفهم عنه وإذا أتى على قوم فسلم عليهم سلم عليهم ثلاثاً .

وعن عبد الله بن عمرو قال تخلف رسول الله في سفر سافرناه فأدركنا وقد أرهقتنا الصلاة صلاة العصر ونحن نتوضأ فجعلنا نمسح على أرجلنا فنادى بأعلى صوته ويل للأعقاب من النار مرتين أو ثلاثاً .

وعن أبي هريرة أنه قال : قيل يا رسول الله من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة قال رسول الله لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أولى منك لما رأيت من حرصك على الحديث ، أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه أو نفسه .

وعن ابن أبي مليكة أن عائشة زوج النبي كانت لا تسمع شيئاً لا تعرفه إلا راجعت فيه حتى تعرفه وأن النبي قال : من حوسب عُذِّب قالت عائشة فقلت أو ليس يقول الله تعالى فسوف يحاسب حساباً يسيراً قالت فقال إنما ذلك العرض ولكن من نوقش الحساب يهلك .

لقد علّم الرسول الكريم الصحابة الأمانة والدقة في تلقى العلم ونقله وتعليمه فعن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " تسموا باسمي ولا تكتنوا بكنيتي

ومن رآني في المنام فقد رآني فإن الشيطان لا يتمثل في صورتي ومن كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار " .

وعن أبي جحيفة قال : قلت لعلى هل عندكم كتاب قال لا إلا كتاب الله أو فهم أُعْطِيَهُ رجل مسلم أو ما في هذه الصحيفة : قال قلت فما في هذه الصحيفة ، قال العقل وفكاك الأسير ولا يقتل مسلم بكافر .

وعن ابن عباس قال لما اشتد بالنبي صلى الله عليه وسلم وجعه قال : ائتوني بكتاب اكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده قال عمر إن النبي صلى الله عليه وسلم غلبه الوجع وعندنا كتاب الله حسبنا فاختلفوا وكثر اللغط قال قوموا عنى ولا ينبغي عندي التنازع فخرج بن عباس يقول : إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله وبين كتابه .

وكان الرسول يعلّم أصحابه وطالبي العلم في كل مكان ولعل أهم تلك الأماكن كان المسجد وقد اعتاد المسلمون بعد ذلك أن يعقدوا في المسجد حلقات العلم والذكر إلي أن تم تخصيص دور للعلم عرفت بالمدارس .

فعن عبد الله بن عمر أن رجلاً قام في المسجد فقال يا رسول الله من أين تأمرنا أن نهل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يهل أهل المدينة من ذي الحليفة ويهل أهل الشام من الجحفة ويهل أهل نجد من قرن ، وقال ابن عمر ويزعمون أن رسول الله قال ويهل أهل اليمن من يلملم وكان ابن عمر يقول لم أفقه هذه من رسول الله .

كذلك كان الرسول يداوم على تعليم أصحابه وتلقينهم العلم في كل الأحوال والمناسبات : في السفر وفي الاستعداد للقتال وحتى أثناء القتال وبعد أن تضع الحرب أوزارها .

الصحابة :

لقد تخرج في المدرسة المحمدية أعلم علماء الأمة الإسلامية ، تلقوا العلم على يدي المعلم الأول ، وتربوا على خلقه العظيم وسلوكه القويم ، ثم ورثوا عنه العلم والحكمة بهما ساسوا أكبر دولة عرفتها البشرية وأسسوا أعرق وأول حضارة في التاريخ تجمع بين قطبي الوجود ومحوري الكون الروح والمادة فكانوا ولا زالوا وسوف يبقون نجوماً نيرة في الليل الداجي الذي تتحرك الإنسانية في اتجاهه حثيثاً .

واظب صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ بعثته على حفظ القرآن ثم فقهوا معانيه وفهموا تفسيره بمعايشة الوقائع والاحداث والتطورات التي نزل فيها وحفظ الأحاديث التي تفسر آياته ومن ثم كان علم الكتاب أو القرآن يتضمن خمسة فروع :

– الفرع الأول : يتعلق بفقه المعاني اللفظية والظاهرة أو القريبة للذهن والمأخوذة من ظاهر النص أو اللفظ ثم المعاني البعيدة التي لا يلم بها إلا الراسخين في العلم وهي تفسيرات ذات خصوصية تتم من خلال ربط المعنى اللفظي الظاهري بدلالات بعيدة غير مباشرة يدركها العلماء المدققون الباحثون الذين لديهم من العلم ما ليس لدى غيرهم .

– الفرع الثاني : تفسير القرآن العظيم من خلال معايشة الوقائع والأحداث التي نزل فيها أو بسببها وهذا التفسير يعرف ببيان وتفسير أسباب النزول وهذا التفسير ينصرف إلي الآيات الكريمة التي نزلت في وقائع وتطورات بعينها وتترتب عليها أحكام خاصة وعامة ، فالأحكام الخاصة هي تلك التي جاءت في تلك الوقائع بذاتها ولا يتجاوزها حكمها إلي غيرها وهنا ما يعرف بخصوصية الواقعة والحكم ، أما الأحكام العامة فهي تلك التي جاءت في وقائع بعينها ولكنها تحمل أحكاماً عامة تنسحب على كل الوقائع المشابهة بإعمال قاعدة القياس وهنا ما يعرف بخصوصية الواقعة وعمومية الحكم ، وقد قرر الصحابة

الأجلاء الذين عايشوا هذه الوقائع الآيات التي يحمل تفسيرها أحكاماً خاصة والأخرى التي يحمل تفسيرها أحكاماً عامة .

– الفرع الثالث : حفظ الأحاديث النبوية الشريفة التي تفسر آيات الذكر الحكيم ، حيث ثم أحاديث كثيرة تفسر آيات الذكر الحكيم ، وهذا يدخل في نطاق علاقة القرآن الكريم بالسنة النبوية المطهرة ، وهنا فالسنة مفسرة للقرآن وموضحة لمعانيه ومقاصده وأحكامه وليس هناك أقدر وأعلم بالقرآن ممن نُزّل عليه .

– الفرع الرابع : تفسير القرآن بالقرآن أي تفسير الآيات القرآنية بآيات أخرى ، حيث يوضح بعضها بعضاً وتنتهي إلي أحكام وحقائق واحدة .

– الفرع الخامس : وهو المتعلق بحفظ القرآن وقراءته أو تلاوته حيث أهتم الصحابة بضبط ألفاظ القرآن وطريقة نطقها لأن في ذلك تحديد المعنى والمضمون والدلالة لكل لفظة من ألفاظ القرآن الكريم ، وقد اهتموا بذلك اهتماماً شديداً فكانوا يدققون اللفظة الواحدة ويتبينوا كيف نزلت ويتثبتوا من ذلك بشتى الوسائل وأهمها الرجوع إلي من سمعوا ووعوا تلاوة الرسول أو قراءته .

كذلك انكب الصحابة على حفظ أحاديث الرسول الكريم واكتفوا بذلك حال حياته لأنه منعهم من كتابة وتدوين أحاديثه ، كذلك راقبوا تصرفاته وسلوكاته واعتبروها الأسوة والقدوة ، وبناءً عليها تصرفوا وأقاموا تعاملاتهم مع الله ومع أنفسهم ومع الناس بل وسائر موجودات الكون ومخلوقاته .

لقد تعلم الصحابة القرآن والسنة وأصبحوا بهما عالمين وفيهما علماء ، ومن هنا بدأ دورهم في تعليم أبناء الأمة فكانوا مصدر إشعاع في زمانهم وظلوا كذلك وسيبقون أبداً ، أتسم الصحابة بصفات الأمانة والدقة في نقل العلم وبالتواضع والبساطة في التعامل مع طلاب

العلم والناس وبسعة الأفق والمدارك وعمق الفكر ودقة النظر وحصافة الرأي فوضعوا أسس هذا الدين وثبتوا قواعد حضارته التي شهد لها العالم بالريادة والتفوق ولن يقدر لنا إعادة أمجاد الإسلام وحضارته إلا إذا عدنا إلي منهج أولئك الرجال .

الوفود التي تتعلم العلم وتنقله إلي أقوامهم :

سبق لنا في بند التعلم الحديث عن الوفود التي كانت تفد على الرسول الكريم لتتعلم العلم ثم تتولى مهمة نقله وتعليمه إلي أقوامهم ، ومهمة هذه الوفود إذن مهمة مزدوجة تشمل التعلم وحفظ العلم من جهة ثم التعليم ونقل العلم وتلقينه من جهة أخرى ، وقد قامت هذه الوفود بدور يعتد به في نشر الدعوة بالقبائل والأحياء العربية المختلفة في عصر النبوة الزاهر ، وقد برز من هذه الوفود علماء حازوا شهرة ومكانة .

كما كان علماء الوفود من الأحياء والقبائل العربية يتحلون بصفات الأمانة والدقة في نقل العلم والفصاحة والبلاغة والتواضع والتقوى والورع .

المبحث الرابع

العلوم الطبيعية وتطبيقاتها في عصر النبوة الزاهر

فيما سبق من هذا الفصل قدمنا ما شاء الله بخصوص علم الدين وتعلمه وتعليمه في عصر النبوة الزاهر وننصرف في هذه الجزئية إلي تناول العلوم غير الدينية أو ما يعرف بالعلوم الطبيعية التي تتعلق بظواهر الطبيعة وحقائق الكون بما فيها الإنسان ، ونظراً لأسباب عديدة ذكرناها فيما سلف كان حظ هذه العلوم من اهتمام المسلمين في عصر النبوة غير وفير ، ولكن بدا بعض الاهتمام بعلمين من هذه العلوم برزت أهميتهما في حياة المجتمع الإسلامي الأول بشكل جعل الرسول الكريم نفسه يهتم بهما ويضع أول لبناتهما لتمثل أساس الصرح الإسلامي الشامخ في العلوم الطبيعية التي ارتكنت عليه الحضارة الإسلامية فيما بعد ، أما العلمان فكانا علم الترجمة وعلم الطب والعقاقير ، وذلك من خلال الآتي :

الترجمة :

كان أول ما سعى إليه الدين الجديد أن يتعرف على طبيعة الأقوام والأمم التي تحيط به وعليه أن يتعامل معها بكافة أشكال التعامل ، وقد انبعث الإسلام في قلب شبه جزيرة العرب وقد اتسمت الحياة المنتشرة والمتناثرة في نقاط حضارية بسيطة على امتداد هذه المنطقة بسمة التجانس إلي حد بعيد بشكل لم يجعل من الصعب على المسلمين الأوائل النفاذ إلي تلك التجمعات وفهم تفاعلات حياتها وطرق معيشتها ، ولعل أول مقومات التجانس تمثلت في اللغة العربية التي كانت لغة سكان شبه الجزيرة العربية ، وهكذا اختلط المسلمون الأوائل بالأحياء والقبائل العربية في سهولة ويسر .

إلا أن التعامل مع أهم وأكبر حضارتين عرفتا في ذلك الزمن وهما حضارة الفرس الساسانية وحضارة الروم كان هو الشغل الشاغل والأمر الجسيم ، وذلك لسببين يرتبطان عضوياً

ببعضهما : الأول أن هاتين الحضارتين بما تجمع لديهما من رصيد حضاري وفير وامتداد جغرافي عظيم وكيان نظمي وتنظيمي متين ونزعة صراعية عدوانية يغذيها امتلاكهما لجيوش جرارة متمرسة على الحرب إضافة إلي علاقتهما الثنائية المشحونة بالصراع العضوي المشهور ، كل ما تقدم جعل من هاتين الحضارتين خطراً محتملاً وسيكون أثره ثقيلاً إذا تجسد في شكل عدوان على ذلك الدين الغض ، الثاني أن قوة الدين الجديد واحتكامه على قيم عالية ونزعة إنسانية إضافة إلي الوعود الإلهية بأنه دين الله الأوحد الذي ينبغي أن يسود جعل من هاتين الإمبراطوريتين العظيمتين مطمحاً واقعياً يخلو من أي خيال أو مبالغة إزاء المفارقة العجيبة التي يحملها التصور الذي يراود ثلة من المسلمين الأوائل يتحلون بروح القوة والصلابة والعزم يغذيها إيمان مطلق بطلاقة القدرة الإلهية في أن تتمكن هذه العصابة بعد بضع سنين من طي هاتين الإمبراطوريتين داخل فضاء الدولة الإسلامية العملاقة .

لم يكن أمام المسلمين من بد إلا الاتصال بهذين المجتمعين ، وكانت الوسيلة الوحيدة لذلك الاتصال هي معرفة لغة كل من الفرس والروم ، وذلك هو الذي جعل الرسول الكريم بنفسه يكلف بعض الصحابة بتعلم اللغات الفارسية والرومية والعبرية وغيرها ، فقد طلب الرسول الكريم من زيد بن ثابت أن يتعلم لغة اليهود وهي اللغة التي نزلت بها التوارة اللغة السريالية وكان سلمان الفارسي على علم تام باللغة الفارسية وصهيب الرومي يعرف جيداً لغة الروم ثم انتشرت ظاهرة تعلم الصحابة للغات الأخرى إلي درجة أن تعلم بعضهم أكثر من لغة .

بالرغم مما تقدم إلا أن عملية تعلم لغات الآخرين لم تتجاوز معرفة المعلومات الأساسية عن أصحاب اللغة إلي نقل حضاراتهم وثقافاتهم كما حدث بعد ذلك في مرحلة متقدمة من تاريخ الدولة الإسلامي .

الطب وعلم العقاقير :

ننتقل في هذه الجزئية إلي مناقشة إحدى القضايا أو المسائل التي كانت محل خلاف بين من تصدوا لدراسة بدايات العلوم الطبيعية في عصر النبوة الزاهر وهذه المسألة تتعلق بالطب كعلم وتطبيقه كعلاج وما ارتبط به من علم العقاقير ، وحري بنا أن ندفع منذ البداية بحقيقة مفادها أن الطب كعلم والتطبيب أو العلاج كتطبيق لذلك العلم وما ارتبط بالعلم وتطبيقه من علم العقاقير لا يوجد من الكتاب والسنة ما يتنافى مع أي منهم بل إن الكتاب والسنة يحثان على العلاج والتداوي أخذاً بالأسباب والشفاء مرده إلي الله الشافي ، ولنفصل فيما يلي كيف تبلورت هذه الحقيقة إلي أن صارت حكماً يعوّل عليه في هذا الخصوص .

مقدمات :

قبل البحث في مسألة الطب والعلاج في القرآن والسنة أردنا أن نقدم لذلك بجملة من المقدمات تمثل مدخلنا إلي مرادنا من ذلك البحث وتتمثل هذه المقدمات في الآتي :

○ الأخذ بالأسباب والتوكل على الله :

لقد خلقنا الله في هذه الحياة لغاية حددها لنا سبحانه في كتابه العزيز وهي أن نعبده وحده ولا نشرك به شيئاً ومن أجل ذلك خلق لنا الكون وسخر لنا موجوداته ومخلوقاته وعلينا أن نأخذ بالأسباب في الضرب في الأرض وإعمارها ونستنفد كل ما في وسعنا من أجل تحقيق الحياة الطيبة التي تعيننا على عبادة الله كما أمرنا ومن أجلها خلقنا ، وإذا أخذنا بالأسباب وقدمنا ما في الوسع من أجل تحقيق ما نصبو إليه وهو مرضاة الله من خلال الأعمال والسلوكات الدنيوية التي هي مزرعة الآخرة فعلينا أن نتوكل على الله وندع نتائج أعمالنا ومترتباتها عليه سبحانه ، فما علينا إلا الجهد وما على الله إلا التكلان .

قال تعالى ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ ،[1] وفي هذه الآية الكريمة جاء التحرز والتحوط وهو مشاركة المؤمنين ومشاورتهم في الأمر وهذا للأخذ بالأسباب ثم العزم أي حزم الأمر وتبصره وتقليبه على كافة وجوهه ثم القيام بالفعل والتوكل على الله وترك النتائج عليه سبحانه .

وقال تعالى ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [2]، ويبدو في هذه الآية أيضاً التوكل على الله بعد أن تقطعت الأسباب وتولى المنافقون .

وقال تعالى ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ ،[3] تبرز هذه الآية الكريمة كيف أخذ نبي الله شعيب بالأسباب وقدم كل ما في وسعه واستطاعته من أجل إصلاح قومه ثم توكل على الله وأرجع إليه سبحانه كل أموره ونتائج جهوده .

وقال تعالى ﴿ وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ ،[4] تبين هذه الآية الكريمة أن نبي الله يعقوب بالرغم من علمه الكامل والمطلق بأن الحكم لله وما شاء الله لابد أن يكون إلا أنه أخذ بالأسباب

---

[1] . سورة آل عمران : ١٥٩ .
[2] . سورة التوبة : ١٢٩ .
[3] . سورة هود : ٨٨ .
[4] . سورة يوسف : ٦٧ و ٦٨ .

وأظهر ما اعتمل في نفسه وأوصى بنيه بأن يدخلوا من أبواب متفرقة ولا يدخلوا من باب واحد ثم توكل على الله وأسلم إليه أمره .

وقال تعالى ﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ .[1]

○ توخي الحذر وتحرى الدقة في الأخذ بالأسباب :

إن الأخذ بالأسباب يعنى توخي الحذر والتحوط وتحرى الدقة ودراسة الأسباب والوسائل التي يأخذ بها الإنسان في كل أمور الحياة ، وكل ذلك يفيد أن الإنسان ينبغي أن يكون على علم ودراية بكل ما يقدم عليه ، فالأسباب إذن هي الوسائل التي تبصّر الإنسان وتبين له أي الطرق يسلك من أجل تحقيق أهدافه في هذه الحياة ولا ضير في أن يدقق في دراسة تلك الوسائل وتقلبها على كافة جوانبها وهو في ذلك بأمن الزلل وينشد الصواب والفلاح .

قال تعالى ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ .[2]

○ الأمور جميعاً مرجعها إلي الله :

على المؤمن أن يعلم يقيناً أنه بالرغم من الأخذ بالأسباب في جميع أمور الحياة وبالرغم من التدقيق وتحرى الحيطة والحذر في تلك الأسباب إلا أن الأمور جميعاً مرجعها ومردها وعاقبتها إلي الله فقد وضع لكل أمر من الأمور قدراً مقدوراً ، فما شاء الله كان وما قدّر فعل ، قال تعالى ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ .[3]

---

[1] . سورة الطلاق : ٣ .
[2] . سورة التغابن : ١٦ .
[3] . سورة الحج : ٧٦ .

وقال تعالى ﴿ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ .[1]

وقال تعالى ﴿ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴾ .[2]

المرض والعلاج في القرآن الكريم :

بعد أن أوضحنا في المقدمات المبينة أعلاه أنه ينبغي الأخذ بالأسباب والتوكل على الله كما ينبغي توخي الدقة والحذر في الأخذ بالأسباب وذلك مع العلم بأن كافة الأمور مرجعها إلي الله ، علينا أن ننتقل إلي البحث في مسألة المرض والعلاج في القرآن الكريم ، وسنجد أن الذكر الحكيم قد عالج هذه المسألة في وضوح وبين إحكامها في جلاء ، وسوف نتابع ذلك من خلال العرض التالي :

○ المرض الجسماني وعلاجه بالقرآن :

أوضح الحق تبارك وتعالى في كتابه العزيز أن القرآن فيه شفاء لآلام البدن وأوجاعه وما يلم به من خلل في وظائف أعضائه ، فقال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ،[3] لقد ثبت من بحوث علمية أن قراءة القرآن وما تؤدى إليه من راحة نفسية واطمئنان وسكينة ينتج عنها انتظام في الدورة الدموية وضربات القلب لدى الذين يعانون اضطرابات أو أمراض في القلب وكذلك الذين يعانون من الأمراض العصبية الناتجة عن تقلبات وأحداث العصر .

---

[1] . سورة لقمان : ٢٢ .
[2] . سورة الشورى : ٥٣ .
[3] . سورة يونس : ٥٧ .

وقال تعالى ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [1]، والثابت — كما سيرد فيما بعد — أن الرسول الكريم كان يقرأ آيات معينة على المرض أو سورة بذاتها فيذهب الله بها البأس .

وقال تعالى ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾ .[2]

○ المرض الجسماني وعلاجه بقدرة الله ومعجزاته :

كذلك ورد في الذكر الحكيم ما يشير إلي أن الله قد أبرأ الأجسام الإنسانية من عللها وأسقامها بإذنه تعالى للدلالة على طلاقة قدرته ومعجزاته التي أيد بها أنبياءه .

قال تعالى ﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ .[3]

وقال تعالى ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ .[4]

---

[1] . سورة الإسراء : ٨٢ .
[2] . سورة فصلت : ٤٤ .
[3] . سورة آل عمران : ٤٩ .
[4] . سورة المائدة : ١١٠ .

وقال تعالى ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ .[1]

○ المرض الجسماني وعلاجه بآلاء الله ونعمه [ما يشبه العقاقير] :

ثم يحمل الذكر الحكيم في آياته البينات ما يدل على أنه سبحانه قد جعل من آلاء الله ونعمائه ما فيه شفاء للأمراض التي تنتاب الجسم الإنساني وهذه الآلاء والنعم خلقها الله وكانت بمثابة عناصر أو مواد طبيعية تشبه العقاقير .

قال تعالى ﴿ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .[2]

وقال تعالى ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ .[3]

○ المرض النفسي وعلاجه بالإيمان وذكر الله :

لقد ثبت أن المرض النفسي سبب في العديد من الأمراض الجسمانية ، وذلك المرض النفسي يرجع بالأساس إلي قلق الإنسان وعدم استقراره وخوفه من المستقبل وعدم قدرته على التآلف مع ما يحيط به من متغيرات ومستجدات العصر وما سبب ذلك إلا ضعف الإيمان والابتعاد عن ذكر الله ، وقد أوضح رب العزة ذلك في كتابه العزيز .

فقال تعالى ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ .[4]

---

[1] . سورة الشعراء : ٨٠ .
[2] . سورة النحل : ٦٩ .
[3] . سورة ص : ٤١ – ٤٤ .
[4] . سورة آل عمران : ١٣٩ .

أي أن المؤمنين لا ينبغي لهم أن يشعروا بالضعف والاستسلام لليأس والقلق ويتملكهم الضيق مما يدور حولهم من مظاهر كاذبة قد تؤشر إلي ظهور غير المؤمنين ، ولكن واقع الأمر أن المؤمنين هم الأعلون إيماناً وعاقبة بمشيئة الله ، وهذا علاج لنفسية المؤمنين وترويح عنهم وتثبيت لقلوبهم .

وقال تعالى ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾ [1]، وهذا يعنى أن نصر الله للمؤمنين يذهب غيظهم ويبرئ ما في قلوبهم من ضيق وحزن .

وقال تعالى ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [2]، وهذا حكم خاص في واقعة تتعلق بالرسول الكريم والمؤمنين ولكنه يتحول إلي حكم عام ينسحب على كل المؤمنين المقاتلين في سبيل الله حيث يذهب الله خوفهم وقلقهم وينزل سكينته عليهم ويمدهم بعونه ونصره .

وقال تعالى ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [3]، أنظر إلي هذا الموقف الجدير بالاعتبار والتأمل موقف رسول الله وصاحبه عندما استبد بصاحبه القلق والخوف على مصير الدعوة الوليدة والرسول الأمل ولكن الله قد أنزل سكينته على رسوله الكريم فأخذ يطمئن صاحبه بثقة وثبات وتحول الضعف والقلق إلي قوة بأمر الله .

---

[1] . سورة التوبة : ١٤ و ١٥ .
[2] . سورة التوبة : ٢٦ .
[3] . سورة التوبة : ٤٠ .

وقال تعالى ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [1]، وهنا قمة الاطمئنان وغاية الثبات واليقين للقلوب التي عمرت بذكر رب العالمين فلا يأتيها القلق ولا تعرف الخوف لأنها في معية الله فما أعظمها وما أمثل واقعها حيث لا تهتم بما يقلق الناس ويخرب أنفسهم ويعيشهم في قلق وخوف واضطراب مثاره الخوف والضعف والفراغ .

وقال تعالى ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ ﴾ [2]، دلالة هاتين الآيتين العظيمتين على أن المؤمنين في حرز الله ومعيته مبرؤون من كل خوف أو ضيق أو كدر ثابتون على الإيمان واثقون من حسن العاقبة .

وقال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ [3]، وهنا يكون الإيمان بالله والاستقامة على طريقه باعثاً على أن يشعر المؤمن بالراحة والثبات والاستقرار ويأمن الفزع يوم يخاف الناس .

وقال تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [4]، تسير هذه الآية الكريمة في سياق أختها التي سبقتها .

---

[1] . سورة الرعد : ٢٨ .
[2] . سورة فاطر : ٣٤ و ٣٥ .
[3] . سورة فصلت : ٣٠ – ٣٢ .
[4] . سورة الأحقاف : ١٣ .

وقـــال تعـــال ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [1]، والسكينة في هذه الآية الكريمة شـفاء القلـوب وتخليـصها مـن القلق والخوف والحفاظ عليها في معية الله .

الرسول الكريم يدعو إلي التداوي والعلاج :

بعد أن عرضنا لمنهج القرآن الكريم في تلمس العلاج والشفاء للجـسم البـشري سـواء بـالقرآن الكريم أو بقدرة الله وإعجازه أو بالهبات والنعم الطبيعية التي أنعم بها على عبـاده وجعـل فيها الشفاء وكذا علاج النفس البشرية من القلق والحـزن والكآبـة بالإيمـان والـذكر الحكـيم ننتقل بعد ذلك إلي السنة النبوية المطهرة لنرى كيف تعاملـت مـع مـسألة الطـب أو عـلاج الإنسان من الأمراض .

فعن عائشة رضى الله عنها قالت : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا اشتكى الإنـسان من الشيء أو كانت به قرحة أو جرح ، قـال الـنبي بأصبعه هكـذا — ووضـع سـفيان بـن عينيـة الراوي سبابتـه بالأرض ثم رفعهـا — وقـال :" بـسم الله ، تربـة أرضـنا ، بريقـة بعضنا ، يُشفى بها سقيمنا ، بإذن ربنا " .

وعنها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعود بعض أهلـه يمـسح بيـده اليمنـى ويقـول :" اللهم رب الناس ، أذهب البأس ، واشف أنت الشافي لا شفاء إلا شفاؤك ، شفاءً لا يغـادر سقمـاً " .

وعن أنس رضى الله عنه أنه قال لثابت رحمه الله : ألا أرقيك برقية رسـول الله صـلى الله عليه وسلم ؟ قال : بلى ، قال :" اللهم رب الناس ، مذهب البأس ، أشف أنـت الـشافي لا شافي إلا أنت شفاءً لا يغادر سقماً " .

---

[1] . سورة الفتح : ٤ .

وعن سعد بن أبي وقاص ، رضى الله عنه قال ، عادني رسول الله ، صلى الله عليه وسلم فقال " اللهم أشف سعداً " .

وعن أبي عبد الله عثمان بن أبي العاص ، رضى الله عنه أنه شكا إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعاً يجده في جسده فقال له رسول الله : ضع يدك على الذي يألم من جسدك وقل بسم الله — ثلاثاً — وقل سبع مرات : أعوذ بالله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : من عاد مريضاً لم يحضره أجله فقال عنده سبع مرات ، أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يشفيك : إلا عافاه الله من ذلك المرض " .

وعنه أن النبي دخل على أعرابي يعوده ، وكان إذا دخل على من يعوده قال :" لا بأس ، طهور إن شاء الله " .

وعن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه ، أن جبريل أتي النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد اشتكيت ؟ قال :" نعم " قال : بسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك ، من شر كل نفس أو عين حاسد ، الله يشفيك ، بسم الله أرقيك .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : رأيت رسول الله وهو بالموت ، عنده قدح فيه ماء ، وهو يدخل يده في القدح ، ثم يمسح وجهه بالماء ، ثم يقول :" اللهم أعنى على غمرات الموت أو سكرات الموت " .

والحاصل من استعراض الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة أن طلب الشفاء والعلاج أمر غير مكروه بل أنه مطلوب بكافة الوسائل سواء بالرقية وهي طلب الشفاء من الله بالدعاء أو بقراءة القرآن وتدبره أو بتعاطي بعض المواد التي جاء في القرآن أنها تشفى من الأمراض

وذلك يوصل إلي نتيجة مؤداه أن الاستشفاء أو طلب الشفاء حث عليه ربنا العظيم ونبينا الكريم .

ممارسات التطبيب والعلاج من الأمراض في عصر النبوة :

إذا كنا قد قدمنا ما ورد في الكتاب والسنة بخصوص التداوي أو العلاج من الأمراض الجسدية والنفسية وهو ما عُرف حديثاً بالطب ، فلننصرف الآن إلي التعرف على الممارسات العملية التي تمت في المجتمع الإسلامي الأول وهو عصر النبوة بخصوص الطب والعلاج من الأمراض ويمكننا القيام بذلك من خلال ما يلي :

○ الممارسات التي صدرت عن شخص الرسول الكريم :

عن ابن عباس قال : مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم مرضاً شديداً فأتاه ملكان ، فقعد أحدهما عند رأسه والأخر عند رجليه ، فقال الذي عند رجليه للذي عند رأسه ؛ ما ترى ؟ قال : طب ، قال : وما طب ؟ قال : سحر ، قال ومن سحره ؟ قال : لبيد بن الأعصم اليهودي ، قال : أين هو ؟ قال : في بئر آل فلان تحت صخرة في كريه . فآتوا الركية فانزحوا ماءها وارفعوا الصخرة ثم خذوا الكرية واحرقوها ، فلما أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث عمار بن ياسر في نفر ، فآتوا الركية فإذا ماؤها مثل ماء الحناء ، فنزحوا الماء ثم رفعوا الصخرة واخرجوا الكرية واحرقوها فإذا فيها وترفية إحدى عشرة عقدة ، وأنزلت عليه هاتان السورتان فجعل كلما قرأ آية أنحلت عقدة [قل أعوذ برب الفلق] [قل أعوذ برب الناس] .

وعن أنس بن مالك قال : صنعت اليهود لرسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً فأصابه من ذلك وجع شديد ، فدخلوا عليه أصحابه فظنوا أن ألماً به ، فأتاه جبريل بالمعوذتين فعوّذه بهما فخرج إلي أصحابه صحيحاً .

○ الاستعانة بالعالمين بالطب الممارسين له :

لقد أقر الرسول الكريم فن التطبيب ، وكان أشهر الأطباء العرب في عصر النبوة هو الحارث بن كلده الثقفي ، وقد ولد في الطائف قبل الدعوة وارتحل إلي فارس وتعلم الطب في بيمارستان جنديسابور ودرسه في هذه المدنية التي كانت تقع على مقربة من مدينة سوسة القديمة وكانت تضم أشهر مدرسة في الطب في ذلك الوقت وبها مجموعة من العلماء تمركزوا فيها بعد أن فروا من الإمبراطورية البيزنطية حيث اتهمتهم الكنيسة المسيحية في بيزنطة بالكفر .

وبعد أن درس الحارث بن كلده الطب وتعلمه عمل في خدمة خسروية ملك الفرس ، ثم عاد إلي الحجاز بعد بعثة الرسول الكريم ، وكان الحارث يستخدم في طبه الحجامة والحقن وشهدت مصادر عديدة له بالبراعة توفى عام ٣٣ هـ - ٦٥٣ م ، وخلفه ابنه النضر بن الحارث في امتهان الطب ولكن ما ذكر عنه محدود .

وأثر عن الرسول الكريم أنه أحال بعض المرضى إلي الحارث بن كلده الثقفي للعلاج ، ومن هؤلاء الصحابي الجليل سعد بن أبي وقاص عندما عاده الرسول الكريم وأطلع على ما ألم به من وجع .

عندما لجأ المسلمون الأوائل في عصر النبوة الزاهر إلي الطب كانوا على وعي تام بما ورد بخصوصه في الكتاب والسنة ، وهذه هي المرجعيات الشرعية التي تمثل منطلقات أساسية للمسلمين ولا مشاحة في ذلك ، وخاصة أن الرسول الكريم كان بينهم ، فتعاملوا مع الطب على أنه أخذ بالأسباب وأن الشفاء من الله سبحانه ، وهذه الوجهة هي التي دعت البعض إلي القول بأن المسلمين في عصر النبوة وحتى بعد ذلك كانوا ينظرون إلي التطبيب على أنه نوع من التدخل في مشيئة الله .

كما أن الرجوع إلي المرجعيات الإسلامية التي تتمثل في القرآن والسنة للبحث فيها عن وجهة الإسلام نجاه العلوم الطبيعية ومنها الطب مثلاً لا يعتبر نقيصة تجعل ذلك البعض يقول بأن " أهل السنة المسلمين كانوا يرون أن كل علم لا ينبع من القرآن والحديث لا يعتبر عقيماً فحسب ، بل يعتبر أيضاً الخطوة الأولى على الطريق المفضي إلي الزندقة " وبصفة خاصة أن القرآن والسنة لم يحرّ ما الطب أو العلوم الأخرى ، والحكم الثابت في القرآن والسنة بخصوص العلوم الطبيعية أنها مباحة ولم يقم أي دليل على تحريم أو كراهة البحث فيها بل هناك حث صريح في المصدرين على ذلك البحث — وقد سبق لنا تفصيل ذلك — بل أن ذلك يعد دليلاً على ترحيب الإسلام بالبحث في كافة العلوم الطبيعية التي ورد ذكرها أو إشارات إليها في القرآن والسنة أو التي سيتم اكتشافها ولم ترد إليها إشارات صريحة في المصدرين المذكورين ، ولننظر إلي قول الله تعالى في هذا الشأن ﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ،[1] أي أن ما سيخلقه الله وهو أعلم به ونحن لا نعلمه سيكون بعد خلقه علماً متاحاً للجميع وسيجرى عليه ما يجرى على العلوم الطبيعية ويكون بوسعنا نحن المسلمين البحث فيه ودراسته والبروع فيه وتطويره ، وبذا يكون ما تقدم من رأي لا أساس له وحجته داحضة .

يضاف إلي ما تقدم أن المسلمين كانوا في شغل بأمور الدعوة ونشر الدين وحمله وتوصيله إلي كافة الأرجاء فلم يكن لديهم الوقت الكافي للانشغال بالعلوم الطبيعية ومن ذلك فإن دراستهم للطب وامتهان بعضهم له في ذلك العصر المبكر من تاريخ الدعوة وهو عصر النبوة إنما جاء الأغراض عملية صرفة تنبع من فائدته الفعلية والمفترضة .

[1] . سورة النحل : ٨ .

الفصل الثالث

العلم والتعلم والتعليم والعلوم الطبيعية

في عصر الخلفاء الراشدين

لم يتغير الوضع كثيراً في عصر الخلفاء الراشدين فيما يتعلق بالعلم والتعلم والتعليم والعلوم الطبيعية عن عصر النبوة الزاهر ، وذلك أن عصر الخلفاء لم يكن إلا امتداداً لعصر النبوة حيث كان الرسول يمثل القدوة والأسوة إضافة إلي أن شغل المسلمين في العصرين كان منصباً على نشر الدعوة الذي وصل إلي مداه في خلافة عمر بن الخطاب ، كما بذل الخليفة أبو بكر الصديق جهداً واضحاً في إخضاع القبائل والأحياء العربية التي أعلنت الخروج على الإسلام وارتدت عنه ، كل ذلك يمثل سمات عصر الخلافة وبصفة خاصة أنه في خلافة كل من عثمان بن عفان وعلى بن أبي طالب تفجرت الفتنة الكبرى وأسلمت الدولة لحالة من عدم الاستقرار أثرت على العديد من نشاطات الحياة ، ما تقدم من سمات كان له دوره في رسم ملامح عصر الخلافة الراشدة فيما يتعلق بمسائل العلم والتعلم والتعليم والعلوم الطبيعية ، وسوف نتابع دراسة تلك المسائل في ذلك العصر من خلال المباحث الأربعة التالية :

المبحث الأول : العلم .

المبحث الثاني : التعلم .

المبحث الثالث : التعليم .

المبحث الرابع : العلوم الطبيعية وتطبيقاتها في عصر الخلفاء الراشدين .

المبحث الأول

العلـــــم

بالفعل يعتبر عصر الخلافة الراشدة نقطة تحول خطيرة ومفترق طرق صعب في تاريخ الدعوة الإسلامية ودولة الإسلام الناشئة وحضارته الواعدة ، فقد رحـل الرسـول الـذي كـان يمثـل للإسلام ودعوته ودولته وحضارته كل شيء ، فهـو القـوام والركيـزة والمنبـع والمـصب تلقـى الوحي وصدع بالأمر ونشر الدعوة وأقام الدولة ووضع أسس الحضارة ثم جـاءه الـيقين فلبـى نداء ربه وانتقل إلي جواره راضياً عما بلّغ وأدّى ومرضياً من ربه حيث أكمـل بـه رسـالات السماء وبـشره في كتابـه العزيـز عنـدما قـال لـه ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ۝٣﴾[1] ، وتلك كانت علامة الرحيل عن دنيا الناس إلي الملأ الأعلى وجنة الخلد .

ماذا كان موقف الدولة ورجالها ! لقد ارتبك واضطرب كل شـيء وكـاد الجميـع أن يفقـدوا الصـــواب ولكنه الإسلام ودولة الإسلام وفوقهم رب الإسلام ، فلقد تولى الخالق هذه الدولـة برعايته وعنايته وألهم رجالها التماسك والتآلف والصواب ، لقد تملك الجميع خوف شديد على ركني الدولة ومصدري الشريعة على القرآن والـسنة ، إلا أن الخـوف جُلّـه كـان علـى القرآن الذي حذّر النبي من تفلّته من صدور الصحابة كتفلت الإبل من عُقلهـا فكـان الأمـر الجدير بالاعتبار الحري بالعناية والاهتمام هو القرآن وكيفيـة الحفـاظ عليـه وتحـصيله مـن صدور الرجال وكتابته بين دفتي سجل ليسهل تناوله والرجوع إليه ، أما أحاديث الرسـول فظل الصحابة طيلة القـرن الأول الهجـري لا يفكـرون في تـدوين الحـديث واكتفـوا بحفظـه

[1] . سورة النصر .

واعتمدوا في استدعائه على قوة الحفظ والذاكرة عملاً بقوله صلى الله عليه وسلم " لا تكتبوا حديثي " .

لقد كان العلم إذن طيلة فترة الخلافة الراشدة هو علم الكتاب وهو القرآن ، وبالرغم من أننا سوف نفرد جزئية مستقلة لتناول علم الدين بما فيه علم القرآن إلا أننا سوف نقدم في هذا الموضع بعض الإشارات فيما يتعلق بالتركيز على علم القرآن انطلاقاً من كونه العلم الوحيد الذي استحوذ على اهتمام المسلمين الأوائل في عصر الخلافة الراشدة .

كانت خشية الخلفاء والمسلمين على القرآن أشد من خشيتهم على أي شيء آخر بعد رحيل الرسول الكريم إلي الرفيق الأعلى ، وقد شرعوا يستشعرون خطورة أن يتركوا مصير القرآن معلقاً على حفظ الصحابة له ، فاستشهاد الصحابة في الفتوحات بدأ يقلل من عدد الحفّاظ ، ولم يكن النسيان مأموناً وخاصة مع مرور الزمن ، كما أن تداول القرآن على ألسنة قبائل وأحياء العرب عرّضه للاختلاف في اللفظ والمعنى ، وهنا كان لا مفر من الوقفة الجريئة واتخاذ الإجراء الكفيل بحماية دستور الأمة وقوامها فكان القرار بتجميع القرآن .

جمع القرآن وقراءته وتفسيره :

- تعيين الرسول لكُتّاب الوحي :

لقد استشعر كافة أبناء الأمة وعلى رأسهم الرسول الكريم أهمية ومحورية القرآن الكريم في حياة تلك الأمة فعمل الرسول منذ بعثته وبدء نزول الوحي حاملاً آيات الذكر الحكم على تعيين الكتّاب الذين يكتبون القرآن من الروح الأمين بشكل مباشر ولعل أشهر كتاب الوحي كان زيد بن ثابت ، وكان كتّاب الوحي يكتبون القرآن على رقاق من الحجارة المصقولة والعظام وجريد النخل والجلد وغيرها من الرقاع ، وبالرغم من أهمية هذه الخطوة التي أقدم عليها الرسول الكريم في تدوين القرآن والحفاظ عليه إلا أنها لم تكن كافية لصونه من

التشتت والتوزع على أكثر من مكان ، وبعد رحيل الرسول الكريم بدا الأمر أكثر خطورة وجدية واستشعر الصحابة الخطر على القرآن الكريم من تّشتت آياته في صدور الحفاظ والنسيان واستشهاد الصحابة وموتهم والتباين في لهجات القبائل فكان التفكير في الخطوة التالية أمراً واجباً .

– جمع القرآن في عهد أبي بكر الصديق :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " تركت فيكم ما إن تمسكت به لن تضلوا بعدي أبداً : كتاب الله وسنتي " ، وهنا بدت الأهمية العظيمة للقرآن في حياة الأمة الناشئة بعد أن رحل الرسول الكريم إلي الرفيق الأعلى ، فاهتم الصحابة وفي مقدمتهم خليفة رسول الله أبو بكر الصديق رضى الله عنه بجمع القرآن ، ولم تكن هذه المهمة سهلة بل كانت تحتاج إلي جهود مضنية وترتيبات دقيقة .

لقد كان جمع القرآن في مكان واحد إحدى المهام الثقال التي أثقلت كاهل الأمة الفتية والدعوة الناشئة ، فالقرآن يحمل الشرع بكل ما يحويه من شريعة وشعيرة ولابد من جمعه في شكل يتواءم مع قيمته ومنزلته وأهميته في حياة الأمة ، هذا في الوقت الذي تطايرت حركات الارتداد والخروج على الإسلام والربط بين المسألتين قد يكون واضحاً ، فالقرآن بجمعه وحفظه والتمسك به دستوراً ومنهجاً للأمة قد يَجُبّ نزعات الكفر المتأصلة في حياة الكثير من أعراب العرب وأحيائهم ويحفظ على الدولة كيانها المعنوي والقيمي ، يرتبط بهاتين المسألتين مسألة ثالثة وهي أن الدولة الناشئة تتأهب للانطلاق بدعوتها إلي الآفاق محققة أمر الله ورسوله في التبليغ إلي أهل الأرض لتحقق لتلك الدعوة أهم سماتها وهي العالمية والإنسانية .

عمد خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلي تكليف كل من زيد بن ثابت وعمر بن الخطاب بجمع القرآن وذلك بإعادة كتابته من ألسنة من يحفظونه فكان الرجلان يلتقيان بالمسلمين في مسجد رسول الله ثم يكتبون من أفواه الحفاظ ، وكم كانت هذه الخطوة شاقة وتحتاج إلي تدقيق ومراجعة ، وبالرغم من ذلك تمت ببراعة لأن الله قد كتب لذكره الحفظ والصون من كل تعديل أو تبديل ، ومن ثم تم جمع القرآن في صحف لأول مرة بشكل مجمع ومرتب ، وحفظت هذه الصحف عند أبي بكر الصديق حتى وفاته ، ثم انتقلت إلي عمر بن الخطاب طيلة فترة خلافته ، وعندما توفي انتقلت صحف القرآن الكريم إلي السيدة حفصة بنت عمر أم المؤمنين وظلت عندها إلي شروع الخليفة الراشد الثالث عثمان بن عفان في الخطوة التالية .

- كتابة القرآن مجمعاً في مصحف عثمان :

كانت صحف القرآن الكريم التي استقرت عند أم المؤمنين السيدة حفصة هي المرجع النهائي فيما يتعلق بالقرآن ، ولكن ذلك لم يمنع اختلاف القراءات ولم يمنع تعدد المعاني والدلالات وقد أوجد ذلك لغطاً شديداً في كثير من المواقف والأحكام ، وقد حدا ذلك بالخليفة الراشد الثالث عثمان بن عفان إلي أن يجمع القرآن في مصحف واحد ثم تنسخ منه نسخ وتوزع على جميع الأمصار ، وهنا ينتهي الخلاف أو الاختلاف ، فرجع الخليفة إلي صحف القرآن المحفوظة عند أم المؤمنين السيدة حفصة ، وألّف لجنة لهذا الغرض وهو كتابة القرآن في مصحف واحد، وتكونت اللجنة من : زيد بن ثابت كاتب الوحي ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، وقامت اللجنة المعينة سابقاً بنسخ صحف القرآن الكريم في مصحف واحد ، ووُضعت جملة من القواعد لضبط عمل هذه اللجنة ، وكان من هذه القواعد ، وجود زيد بن ثابت في اللجنة وربما على رأسها وكان ذلك يمثل ضابطاً مهماً لأن زيد بن ثابت كان من أهم كتاب الوحي ، تكونت

اللجنة من ثلاثة من الثقاة المشهورين بالتقوى والورع والدقة والأمانة وثلاثتهم ممن يعرفون القراءة والكتابة في قريش ، ومعلوم أن العرب في معظمهم كانوا أمة أمية أي لا تعرف القراءة أو الكتابة ومن يعرف القراءة والكتابة كانوا قلة ، لقد قررت اللجنة عند اختلاف أعضائها الثلاثة مع زيد بن ثابت في شيء من القرآن أن تكتبه بلسان قريش وكان ذلك التزاماً وتنفيذاً لوصية الخليفة الراشد عثمان بن عفان المشرف على جمع القرآن في مصحف واحد حيث قال للجنة " إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم " .

وبعد أن فرغت اللجنة من كتابة القرآن مجمعاً في مصحف واحد عُرف ذلك المصحف " بمصحف عثمان " أرسلت نسخة منه إلي كل مصر من الأمصار وردت صحف القرآن الأصلية إلي أم المؤمنين السيدة حفصة ، وأمر بإحراق المصاحف الأخرى ، وهنا ظهر المصحف المعروف لدينا الآن وخرج مبرأ معافاً من أي تحريف أو تغيير .

– قراءة القرآن :

هكذا كان القرآن وتجميعه والحفاظ عليه من التعديل أو التحريف ونسخه في مصحف واحد هو شغل المسلمين الشاغل طيلة عصر الخلافة الراشدة بوصفه مسألة معتقدية وشعائرية تمثل قمة أولويات الدولة الإسلامية وخلافتها ، إلا أن تجميع القرآن ونسخة في مصحف واحد قد ارتبط بمسألة أخرى مهمة وهي قراءة القرآن .

إذ أن كتابة القرآن تختص بشكل حروفه وتشكيلها وهيئة كلماته وضبطها وإعرابها ، وهذا يمثل الشق المرئي من القرآن وهو يكافئ نصف معانيه ومضامينه ودلالاته ، أما نطق الحروف وإخراجها ولفظ الكلمات وتمرير أجزائها على آلات النطق العضوية المختلفة من حنجرة وقصبة هوائية وحلق ولسان وشفتين فيمثل الشق المسموع من القرآن وهو يكافئ النصف الآخر من معانيه ومضامينه ودلالاته ومن ثم كان الاهتمام بقراءات القرآن .

لقد ارتبطت كتابة القرآن وتجميعه في المصحف الموحد بالقراءة ، إذ أن معاني الأشياء ودلالاتها أولاً وقبل كل شيء هي سماعية ، ثم تنتقل تلك الدلالات والمعاني إلي التعبيرات الصوتية التي تخرجها في شكل مضامين وتراكيب صوتية ذات معنى متفق عليه ، ثم تتحول المضامين والتراكيب الصوتية إلي إشارات ورموز شكلية متفق عليها وهي الكتابة ، وهكذا تكون اللغة مسموعة ثم مكتوبة ، ولقد مر القرآن بهاتين المرحلتين ، القراءة المسموعة ثم الكتابة المرئية ومن هنا ارتبطت قراءة القرآن بكتابته وأصبح من الضروري أن يتطابق المعنى والمضمون المقروء المسموع مع المكتوب المرئي ، وهذه القاعدة المهمة كانت هدفاً مهماً سعى إلي تحقيقه المسلمون الأوائل حتى يضمنوا للقرآن الصون والحماية ضد عوامل التحريف أو التبديل التي يمكن أن تأتي مع الزمن .

وبالفعل عانى القرآن الكريم من بعض الاختلاف في لهجات وألسنة قبائل وأحياء العرب وللتغلب على هذه المشكلة تم اختيار سبعة من أئمة القراء ، وهم المشهورون بالثقة في مختلف أقاليم الدولة والمعروفون بالعلم والدراية والمشهود لهم بالأمانة والتقوى والورع حيث اعتبرت قراءاتهم هي القراءات السليمة المعترف بها وهم : ابن عامر المتوفى في عام ١١٨ هـ . وابن كثير المتوفى في عام ١٢٠ هـ ، وعاصم بن أبي النجود المتوفى في عام ١٢٧ هـ ، وأبو عمر المازني البصري المتوفى في عام ١٥٤ هـ . وحمزة بن حبيب الكوفي المتوفى في عام ١٥٤ هـ ، ونافع بن عبد الرحمن المتوفى في عام ١٦٩ هـ ، وأبو الحسن على الكسائي المتوفى في عام ١٨٩ هـ .

وانطلاقاً من الارتباط العضوي الشديد بين قراءة القرآن والدلالات والمعاني الخاصة بألفاظه وعباراته وآياته كان الربط بين علم القراءات وعلم التفسير ، فالقراءة هي المرحلة الأولى للتفسير ، حيث أنها تفسر القرآن وتوضح ألفاظه وآياته بالنطق والتحليل الصوتي ، وعليه فالقرآن إذا لم يُقرأ قراءة صحيحة فلا يمكن تفسيره ، أو ربما يُفسر بغير معانيه ومقاصده

الأصلية، والخلاصة أن القراءات هي المدخل إلي تفسير القرآن الذي كـان أحـد المجـالات والنشاطات المهمة للعلم في عصر الخلافة الراشدة .

– تفسير القرآن :

قد يتبادر إلي الذهن سؤال بسيط ومنطقي ولكنه في ذات الوقت مهم وحيوي في هذا السياق من تحليل العلم في عصر الخلافة الراشدة وهو : لماذا كان الاهتمام بتفسير القـرآن في عـصر الخلافة الراشدة ؟ يقف وراء الإجابة على هذا السؤال نوعان من الأسباب ، النـوع الأول ، أسبـاب عامة ، النوع الثاني : أسباب تتعلق بعصر الخلافة الراشدة بشكل خاص :

* أما عن الأسباب العامة فهي تتمثل في الآتي :

○ الأسلوب البلاغي والتراكيب اللفظية التي تتسم أحيانـاً بـالغموض والمعـاني والـدلالات العميقة التي جاء بها الذكر الحكيم مما أعجـز أهـل اللغـة والبيـان مـن العـرب ، جعـل المسلمين الأوائل يختلفون فيما بينهم في تحديد المعاني والدلالات التي تـؤثر علـى اسـتنباط الأحكام ، وقد حدا ذلك بالمجتهدين إلي وضع تفاسير للقرآن الكريم تحقق أكـبر قـدر مـن الاتفاق ، وبذا يضيق نطاق الاختلاف والتباين بين المسلمين فيما يتعلق بالمعـاني والـدلالات واستنباط الأحكام ، ومن شأن تلـك التفاسـير أن تـضع أسـساً وقواعـد ثابتـة لمـن يـرد مـن الأجيال الإسلامية التي ستكون أقل إلماماً بلغة القرآن وأسلوبه وألفاظه ومعانيـه ، وهـذا مـا نعانيه في أيامنا .

○ لقد أفسح القرآن العظيم مجالاً رحباً لأخبار الأولـين وقـصص الـسابقين ، سـاقها الحـق تبارك وتعالى على سبيل العظة والعبرة ، ولم يتيسر الإلمام بتلك الأخبار إلا لقلة مـن أهـــل العلم الذين عاشوا في عصـر النبوة والخلافة الراشدة ، فكان على هؤلاء أن يـضمنوا تفاسـير القرآن تلك الأخبار والسِيَر حتى يقدّر للآخِرين أن يطلعـوا عليهـا ويدرسـوها كمـا أراد لهـا

الخالق سبحانه فيظل القرآن مصدراً لتلك العظة والعبرة إلي أن يرث الله الأرض ومن عليها .

○ هناك شق من آيات الذكر الحكيم لم تتناوله السنة المطهرة بالتفسير والإيضاح أو بالتفصيل والتحليل وبقى تفسيره للعقل والمنطق ، فكان من الواجب على علماء الأمة والمجتهدين منها أن يعكفوا على إعمال العقل وتحكيم المنطق لتفسير هذا الشق من القرآن .

○ إلي جانب ما تقدم كان هناك شق من آيات القرآن وضعت قواعد وأصولاً عامة لكثير من الأحكام في شتى مجالات الحياة ، وتركت الفروع للمستجدات والمتغيرات ، وكذلك سكتت السنة المطهرة عن ملء تلك الفروع فيما عرف " بالفراغ التشريعي " والحكمة من ذلك أن يتولى أهل العلم والحكمة في كل زمان ومكان ملء ذلك الفراغ التشريعي بالتشريعات التي تتفق مع مستجدات الزمن وتطورات الأيام ، وقد ألحق أهل العلم في زمن الخلافة الراشدة بتفسير القواعد والأصول تفسيرات اجتهادية لملء الفراغ التشريعي المتعلق بالفروع .

○ لقد نزل القرآن بلسان قريش ثم ما لبثت الدولة الإسلامية أن توسعت وضمت بين أقاليمها أمماً وأجناساً شتى تتباين ألسنتهم ولكناتهم وكان من الصعب على هذا الخليط من البشر أن يستوعب لغة القرآن دون تفسير أو أن يفهم معاني القرآن ، وقد برزت قيمة وأهمية تفاسير القرآن في هذا الخصوص خلال عصر الخلافة الراشدة وما تلاها من عصور توسعت فيها الدول وامتدت أرجاؤها .

* أما عن الأسباب الخاصة بعصر الخلافة الراشدة فهي تتجسد في الآتي :

○ لقد أدى تفاوت إلمام الصحابة بمفردات اللغة العربية وأساليبها إلي تفاوتهم في فهم بعض آيات القرآن التي جمعت من البلاغة أحسنها واكتنزت من الفصاحة أنفسها ومن الأساليب اللغوية أرصنها وأجزلها ومن الألفاظ أقواها وأبدعها ، وترتب على ذلك اختلاف

ملحوظ لم يجبه إلا تفسير القرآن الذي كان بمثابة القاسم المشترك ولغة التفاهم والاتفاق حول المعاني والمضامين والدلالات التي تحملها آيات القرآن .

○ لم يقف الكثير من الصحابة بشكل تفصيلي ودقيق على عادات العرب القدماء وحتى الذين سبقوا البعثة وتقاليدهم الاجتماعية والدينية وغيرها من الموروثات الحضارية والثقافية والتكوينات الفكرية والعقلية والأخلاقية ، وهذا كله قد تعرض له القرآن الكريم ووصف معظمه وصفاً دقيقاً ، فكان على علماء الأمة تفسير القرآن لتبيين ذلك للصحابة والمسلمين .

○ يمثل تاريخ اليهود والنصارى موضوعاً مهماً من موضوعات القرآن الكريم إضافة إلي تطور علاقاتهم بالرسول الكريم والمسلمين خلال عصر النبوة وليس كل الصحابة على علم بتاريخ اليهود والنصارى ، وقد أدى تفاوتهم في الإلمام بذلك التاريخ إلي حدوث بعض الاختلاف الذي لم يفضه إلا تفسير القرآن الكريم .

○ كذلك من الأمور المهمة التي برزت في تفسير القرآن أن الصحابة لم يكونوا جميعاً على اتصال وثيق بالرسول الكريم ، فمنهم من كانوا أكثر ارتباطاً به ورافقوه في كل أحواله ، وهؤلاء كانوا أفهم وأفقه وأكثر إدراكاً لروح القرآن ، ومعرفة بالظروف والتطورات التي كانت الآيات تنزل فيها ، وإلماماً بألفاظ القرآن ، وهم بالتالي الذين أمكنهم أن يقوموا بتفسير القرآن .

○ لقد كان المسلمون الأوائل تواقين إلي تطبيق القرآن والعمل بأحكامه ، ومن ثم فقد عكفوا منذ رحيل الرسول الكريم على فهمه فهماً دقيقاً ، فقد بات دستور الدولة وأساس الحكم في أقاليمها المختلفة ، وقد أدى ذلك إلي الاهتمام بتفسير القرآن .

من جملة الأسباب التي قدمناها نشأ الاهتمام بتفسير القرآن وأصبح علم التفسير من أهم علوم القرآن ، وأصبح من المعتاد أن يقوم الصحابة بتفسير القرآن للناس في المساجد .

وقد عرف تفسير القرآن الكريم في عصر الخلفاء اتجاهات عديدة يمكن تناولها فيما يلي ، ويلاحظ أنها نفسها التي ظهرت في عصر النبوة الزاهر ، ولكن زاد عليها اتجاه جديد هو تفسير الرأي أو الاجتهاد :

○ التفسير بظاهر النص والأخذ بالمعاني القريبة المباشرة للألفاظ ، ووفق هذا الاتجاه كان الصحابة في عصر الخلافة الراشدة يبسطون معاني القرآن ودلالاته للناس حتى يتمكنوا من استيعابه والعمل به وفهم أحكامه .

○ التفسير بأسباب النزول ، ووفق هذا الاتجاه كان الصحابة في عصر الخلفاء الراشدين يعكفون على تفسير القرآن من خلال البحث في أسباب نزول الآيات .

○ التفسير بالأحاديث الصحيحة ، حيث يتم تفسير آيات الذكر الحكيم بما جاء في شأنها من أحاديث الرسول الكريم ، ويتطلب هذا الاتجاه من التفسير قدرة على الحفظ والتذكر وتدقيق الأحاديث الصحيحة ، وقد أفادت هذا الاتجاه مصاحبة الصحابة للرسول ، وارتباطهم به وتلقيهم عنه مباشرة ، إلا أنه في مرحلة تالية دخل من الأحاديث ما ليس بصحيح ، وذلك لتفسير بعض الآيات عن هوى ولمآرب ترتجى ، وسوف نوضح ذلك في حينه .

○ تفسير القرآن بالقرآن ، كذلك ظهر في أواخر عصر الخلافة الراشدة من عمد إلي تفسير آيات القرآن بآيات أخرى ومن ثم قيل أن القرآن يفسر بعضه .

○ تفسير الرأي أو الاجتهاد ، في أواخر عصر الخلافة الراشدة نشطت إلي حد ما الحركة العلمية ، ونضجت كثير من الآراء ، ووضع المسلمون أيديهم على ما جاء بالقرآن الكريم من آيات تحض على التفكير والتأمل والتدبر والتبصر والعلم على غرار ما قدمنا في بداية هذا الجزء ، ومن ثم كانت انطلاقة استخدام العقل في تفسير القرآن العظيم ، وهذا الاتجاه

كان اتجاهاً شاملاً ، ووظّف كافة الاتجاهات السابقة في مواطنها الصحيحة ، ففي مواطن لا تحتمل أكثر من التفسير وفق ظاهر النص والمعنى القريب للألفاظ ، ومواطن أخرى تم الرجوع بخصوصها إلي أسباب النزول ، ومواطن فسرتها أحاديث الرسول الصحيحة ، وأخيراً كان هناك آيات تفسر بعضها ، كل ذلك جاء في تحليل عقلي منطقي يبدو فيه الاجتهاد والعطاء الإنساني ، وتبرز ملكة الفرد وعلمه في شتى المجالات مثل التاريخ وسير الأمم والقرون السابقة ، ناهيك عن الإلمام ببعض الظواهر الطبيعية وعناصر الوجود التي جاءت في الذكر الحكيم وأشرنا إليها في موضع خلى .

وما يمكن قوله في هذا الصدد أن تفسير القرآن وفق هذا الاتجاه الذي يعوّل على الرأي ويفسح المجال للاجتهاد قد ينتج عنه تباين في وجهات النظر في تفسير بعض الآيات والعبارات والألفاظ ، ولكن ذلك التباين لم يصل إلي حد التعارض ، بل ظل مجالاً للاجتهاد الذي يقود في النهاية إلي إبراز سمة أساسية في الإسلام وأصوله الشرعية هي أنها لا تغلق الباب أمام الاجتهاد وإعمال العقل الذي يلائم الفطرة السوية عند الإنسان الذي كرمه الله .

مما تقدم ننتهي إلي القول بأن عصر الخلافة الراشدة كان العصر الذي وضعت فيه الأسس والقواعد والأصول المتعلقة بعلوم القرآن الكريم التي بدأت بجمع القرآن في صحف ثم كتابته في مصحف واحد ثم الاتفاق على قراءاته وأخيراً الاتفاق على تفسيره ، ومن هنا ننطلق إلي القول بأن العلم في هذا العصر كان علم القرآن ، وهذا أمر طبيعي فالأمة الإسلامية وحضارتها أساسها ذلك الكتاب العظيم الذي يتضمن منهج الحياة بكل مناحيها ومناشطها السياسية والاقتصادية والإدارية والحضارية والثقافية والاجتماعية .. الخ ، فلابد من أن تبدأ أول عصورها بترسيخ وتثبيت ذلك المنهج حتى يتضح في العقول والقلوب .

المبحث الثاني

التعلـــم

كان التعلم في فترة الخلافة الراشدة امتداداً له من عصر النبوة ، إلا أن تطور الحيـاة بتطـور مساحة الدولة الإسلامية واحتوائها على شعوب مختلفـة ذات حـضارات وثقافـات متنوعـة أدى إلي تطور التعلم حيث ازدادت أعداد طالبي العلم ، وأصبح مـن المعتـاد انتقـال هـؤلاء الطلاب إلي مراكز التعلم مثل المساجد ودور القرّاء في مراكز الدولة الإسلامية الرئيسية مثـل المدينة المنورة والناشئة مثل البصرة والكوفة والفسطاط وغيرها من الحواضر الإسلامية .

لقد استشعر المسلمون العرب أهمية أن يحصّلوا العلم ويبرعوا فيه حتى يتمكنوا من نقله إلي الشعوب التي دخلت الإسلام ، وقد كان ذلـك شـعوراً ذاتيـاً سـاد الجيـل الأول مـن أبنـاء الإسلام حيث قدروا مسئوليتهم وحددوا مهمتهم حق قدرها ، كذلك التقى هذا الـشعور مـع الحث والتشجيع من أولياء الأمور على تعليم أبناء هذا الجيـل وإعـدادهم لتحمـل مـسئولية الدعوة التي كانت في طريقها للانتشار بسرعة غير متوقعة .

وإذا انتقلنا إلي الشعوب الجديدة التي دخلت إلي الإسـلام فـنحن أمـام أفـراد دخلـوا إلـي الإسلام ولم يعلموا عنه شيئاً وهم في حاجة إلي أن يعرفوا عنـه كـل شـيء ابتـداءً مـن لغـة الدين الجديد وانتهاءً بالأحكام وأصول وقواعد المعاملات وفـق الـشرع الإسـلامي ، وكانـت هذه مهمة ليست بالهينة إلا أن أبناء الأمة يعلمون يقيناً أنهم لها ، وعندئـذ أصـبحنا أمـام نوعين من طلاب العلم : النوع الأول طلاب العلم من أبناء المـسلمين العـرب الـذين يتلقـون العلم ليتولوا مهمة تعليم المسلمين الجدد ، والنـوع الثـاني طـلاب العلـم مـن الـذين دخلـوا الإسلام ويرغبون في التعرف على الدين الجديد ويفقهون أصوله وقواعده ، ولا نـستغرب إذا كنا سنعرف بعد سنوات قليلة أسمـاءً شـهيرة لعلمـاء المـسلمين مـن الـشعوب الـتي دخلـت الإسلام حديثاً .

ولعل من القضايا الجديرة بتكثيف الضوء في هذا الموضع ونحن نتحدث عن التعلم في عصر الخلافة الراشدة قضية العلاقة بين طلب العلم والجهاد ونشر الدعوة ، فمعلوم أن فترة الخلافة الراشدة شهدت أهم فتوحات الإسلام كما شهدت الدعوة الإسلامية أوج انتشارها وتقدمها في كافة الأرجاء ، وقد انخرط كل أبناء الإسلام في هذه العملية دون توان أو تردد ، وبالرغم من ذلك اقبلوا على طلب العلم وبرعوا فيه ، وصار الجهاد وطلب العلم أهم أمرين في حياة الجيل الأول من أبناء الإسلام .

اتسم طلاب العلم في عصر الخلافة الراشدة بنفس السمات التي اتسم بها سابقوهم في عصر النبوة الزاهر ، وهي الجد والمثابرة والأمانة والتواضع واحترام العلماء وتقديرهم والجمع بين العلم والعمل إضافة إلي سمات التقوى والورع والزهد .

وكان طالبو العلم في عصر الخلافة الراشدة يقسمون أوقاتهم بين الجهاد وطلب العلم والعمل وكان العمل يلجأون إليه عندما يفرغوا من الجهاد طلباً للرزق الذي يبتغونه لأنفسهم ولمن يعولوا ثم للإنفاق منه على تحصيل العلم .

لقد كان طالبوا العلم من المسلمين الأوائل على يقين تام بأن تلقى العلم وتحصيله له غايتان : الغاية الأولى العمل به والإفادة منه بما ينمى عقل الفرد ويقوي إيمانه ويقوّم سلوكه ومعاملاته ، والغاية الثانية نشره ونقله بين الناس وتلقينه لمن أراد من طالبي العلم حتى يعم خيره المجتمع المسلم .

المبحث الثالث

التعليـم

دوماً سيكون هناك ترابط بـين الـتعلم والتعلـيم ولكـن مـن البدايـة نجـد أنـه مـن المجـدي والضروري معاً أن نوضح حقيقة مفادها أن عمليـة التعلـيم بمـا فيهـا الـتعلم والعلـم لم تكـن عملية ذات طبيعة سياسية لها صفة الإلزام أو الجبريـة مـن قبـل الحـاكم أو ولـي الأمـر ، وتتولى الإشراف عليها وتنظيمها جهات إدارية مسئولة بل كانت رغبة ذاتية تنبع من الفرد يقابلها شعور بالمسئولية الاجتماعية ، ومن ثم تصبح عملية التعلم والتعليم رغبـة ومـسئولية متداولة ومتبادلة بين كل من الفرد والمجتمع تنظمها وُزَّاع أخلاقية تجعل أهدافها واضـحة ويسعى الطرفان نحو تحقيقها ، فالفرد المتعلم لا يدفعه أحد نحو اكتساب العلم بل يرغـب في ذلك نظراً لما للعلم من فوائد متعددة ، كذلك فالفرد العالم الذي يبـث علمـه بـين النـاس ويلقنه لطلبة العلم يفعل ذلك هو الآخر انبعاثاً من رغبة داخلية واقتناعاً منه بأن العلم ليس للاكتناز بل للتداول بـين النـاس ، ومـن جمـاع هـذا وذاك نـشأت علاقـة تبادليـة بلـورت مسئولية اجتماعية لكل منهما اتجاه الآخر ، هكذا كـان الـتعلم والتعلـيم وبينهمـا العلـم في عصر النبوة الزاهر وعصر الخلافة الراشـدة حيـث لم تـبرز مـسئولية الدولـة بوصـفها راعيـاً للعملية التعليمية بل حلت محلها مسئولية المجتمع مجسدة في أفراده وجماعاته التي يمكن تسميتها بجماعات الأمر بالمعروف والنهي عـن المنكـر الـتي ظهـرت بـشكل تلقـائي بـسيط وتبلورت في شكل شبه تنظيمي دون تدخل مباشـر مـن ولـي الأمـر أو مـا يمكـن أن نـسميه مجازاً الدولة .

لقد ظهرت أهمية التعليم في هذه الفترة ، وظهر كذلك ارتباطها بتطورات ومستجدات حلت على المجتمع الإسلامي ، ولعل أهـم التطـورات الـتي جعلـت مـن الـتعلم والتعلـيم إحـدى

ضرورات ذلك الوقت هو وفاة الرسول الكريم وانتقاله إلي الرفيق الأعلى ، فقد شعر جميع أبناء المجتمع الإسلامي أن الإسلام قد اكتمل وأن الدين قد تم ولابد من تعلم مصدريه القرآن والسنة فهما بعد الرسول الكريم المنقذان من الضلال والهاديان إلي سواء السبيل ، فاتجه الجميع لتحصيل العلم ، وكان العلم هو علم الكتاب .

من القضايا التي أعطت للتعليم سمة مميزة في عصر الخلافة الراشدة هو العلاقة التاريخية والموضوعية التي نشأت في ذلك الوقت بين التعليم ونشر الدعوة ، فالجيوش الإسلامية التي آلت على نفسها حمل الدعوة وتوصيلها إلي ما قدّر لها أن تصل إليه من شعوب الأرض كان لابد لها أن تستعين بالعلماء الثقاة في القرآن والحديث حفظاً وقراءة وتفسيراً حيث توكل إليهم بعد توصيل الدعوة إلي الشعوب المقصودة مهمة التبليغ عن علم ويقين ، إذن فمن أين لتلك الجيوش بهؤلاء العلماء ، لقد وعى أبناء الأمة هذه المهمة وأدركوا خطورتها فاستعدوا لها أمثل استعداد بالتعلم وتلقى العلم والمثابرة في سبيل تحصيله والإجادة فيه إلي درجة الإحسان .

كانت مسئولية تعليم الشعوب التي دخلت إلي الإسلام مسئولية جسيمة ، فأبناء الأمة تحملوا على عاتقهم أن يحملوا الدعوة ويوصلونها إلي شعوب الدنيا والتوصيل يعقبه التبليغ والأخير يعنى الإعلام والإخبار وكليهما يعنى العلم ، والشعوب التي اعتنقت الإسلام على جهل كامل بذلك الدين الجديد وكان حاجز اللغة مانعاً قوياً حال دون وصول الإسلام إلي الشعوب التي دخلت إليه ومن ثم كان الدور البارز للترجمة التي ازدهرت بشكل لا يضاهى خلال الخلافة الراشدة التي أينعت فيها الفتوحات وانتشار الإسلام لأنها كانت مقترنة بكليهما ، كذلك ازدهرت أساسيات علوم أخرى لم يتنبه لها المؤرخون والدارسون وكلها أُخصبت في رحم الفتوحات الإسلامية في عصر الخلافة الراشدة والعصر الأموي ، وسوف نوضح ذلك في حينه .

لقد كان تعليم اللغة العربية يسير جنباً إلي جنب مع تعليم أصول وأسس الدين الإسلامي وربما يسبقه ، بالرغم من أن الدين الإسلامي قد ساهم بشكل أساسي في نشر اللغة العربية في مناطق واسعة من العالم المسكون آنذاك ، إلا أن ذلك الانتشار قد ترتبت عليه مثالب ومضار عديدة لحقت باللغة العربية من جراء ألسنة الناطقين الجدد بها من غير أهلها ، وهذا ما دعى العديد من أصحاب البصيرة والخلفاء إلي ابتكار علمي النحو والصرف لضبط اللغة والمعاجم لحصر الكلمات العربية والنأي بها عن الكلمات الدخيلة من ألسنة أخرى .

وهنا تبرز مرة أخرى مسألة تستقطب الاهتمام وهي المتعلقة بدور الدولة إن جاز لنا استعمال هذا المصطلح السابق لأوانه في عملية التعليم وبصفة خاصة إزاء الشعوب التي دخلت إلي الإسلام ، واللافت للانتباه في هذا الصدد أن التعليم ظل مسئولية اجتماعية تبرز بجلاء مفهوم " الأمة الداعية " ، حيث بدا أن كل أبناء الأمة الذين يتمتعون بمقدرة علمية في أي مجال من مجالات نشر الدين مكلفين بما يشبه تكليف الفريضة بإخراج ما في وسعهم من العلم وبذله إلي طالبيه ، ولم يكن للدولة إذن دخل مباشر في عملية التعليم إلا من خلال رسم سياسات أو تسيير أمور إجرائية وتنظيمية غير مباشرة مثل تعيين بعض أصحاب الولاية العامة أو الخاصة أو القضاة أو العلماء الذين يمثلون الرمز لوجود الدولة ، أما العملية التعليمية بتفاعلاتها وحركيتها فكانت مغلفة بغلاف المسئولية الاجتماعية من ناحية والوازع الأخلاقي القيمي المستمد من مرجعيات الدين الإسلامي من ناحية أخرى ، وقد استمرت هذه السمة طاغية على عملية التعليم في الدولة الإسلامية حتى نهاية العصر العباسي الثاني بانهيار الخلافة على أيدي المغول وبداية عصر التفكك والانهيار ، ولقد عادت تلك السمة لتسم العملية التعليمية في العديد من أجزاء الدولة الإسلامية التي تفككت على مدى فترات تاريخية متقطعة ، وسوف نولى ذلك اهتماماً وتركيزاً في مواضع لاحقه من هذا المؤلف .

إن السمة التي تضفي على عملية التعليم والعلم طابعي المسئولية الاجتماعية والوازع الأخلاقي القيمي المستمد من جوهر الإسلام لتبرز الحقيقة الدالة على أن الإسلام دين العلم والمجتمع الإسلامي مجتمع يقدس العلم بحكم تكوينه وطبعه ، لقد كانت العملية التعليمية في عصري النبوة الزاهر والخلافة الراشدة بتفاعلاتها الموضوعية ومظاهرها الشكلية التنظيمية تعبيراً عن الوعي الجماعي والسلوك المجتمعي المنبعثين من وُزّاع أخلاقية ورغبات ذاتية مدفوعة بالإيمان العميق وليست توجيهاً فوقياً منحدراً من النظام السياسي الذي يرمى إلي غرس قيم بذاتها وتنميط سلوكات بعينها يرى فيها صالحه واستمراره .

لقد برز جلياً في عملية التعليم دور علماء الأمة الذين كانوا في معظمهم من الصحابة الأجلاء الذين عايشوا الرسول الكريم وتلقوا عنه ثم نقلوا عنه بعد انتقاله إلي جوار ربه ، لقد وضع هؤلاء أصول علم الكتاب بعد رحيل المشرع الثاني وتوقف الوحي عن زيارة السماء الدنيا ، لقد وضع هؤلاء الثقاة ما يمثل الأسس والأصول لمن سيأتي من مسلمي هذه الأمة إلي يوم الدين ، نشروا العلم في ربوع دولة الإسلام ابتداءً من مركز الدولة في المدينة المنورة وانتهاءً بالأقاليم والأمصار التي تدخل في دين الله ، وأنشأوا جيلاً من العلماء التابعين الذين تسلموا لواء العلم وورثوا الأمانة فكانوا خير خلف لأمثل سلف .

وإذا انتقلنا من الحديث عن الصيغة الاجتماعية والأخلاقية للتعليم والعلماء في المجتمع الإسلامي في عصر الخلافة الراشدة إلي الحديث عن وسائل التعليم وأشكاله ونماذجه وترتيباته التنظيمية في ذلك العصر ، لقلنا أننا مازلنا بصدد الحديث عن البعد الاجتماعي للعلم والتعليم حتى ونحن بصدد الحديث عن وسائل التعليم ونماذجه ، إذ أن تلك الوسائل والنماذج كانت دوماً إفرازاً للبيئة والواقع الاجتماعي ولم تكن أبداً فرضاً من النظام السياسي فالمجتمع الإسلامي كما بعث في الناس الرغبة في التعلم وأفرز لدى العلماء

الإصرار والجهاد من أجل نشر العلم وتعليم الناس خلق لدى هؤلاء وأولئك ملكة تلمس كافة السبل والوسائل التي تمكن كلاً من تحقيق مأربه .

لقد كان المسجد في الإسلام هو المؤسسة الاجتماعية السياسية الدينية الشعائرية الثقافية العلمية ، ولعل هذه الشمولية في وظيفة المسجد لتوضح لنا بشكل مباشر لماذا بدأ الرسول الكريم بوضع حجر أساس المسجد وبنائه قبل أن يبنى له بيتاً أو مسكناً يأويه ، أن المتأمل لدور المسجد في كيان المجتمع الإسلامي ليعجب أشد العجب من ذلك الدور الشامل فالمسجد كان مؤسسة سياسة الدولة وتدبير شئون الناس وتصريف أمورهم ودرسها واتخاذ القرار ومجلس الشورى أو التشاور ومقر مبايعة الحاكم ، كذلك كان المسجد مكان انعقاد مجلس الحرب وإعلان الجهاد ووضع خطة الفتوحات الإسلامية ، كما كان المسجد ساحة للقضاء والحكم ، وكان للمسجد دوره الشعائري في إقامة الصلاة والعبادة والاعتكاف وكان له كذلك دوره التثقيفي العلمي الفكري حيث عقدت فيه حلقات العلم منذ هجرة الرسول الكريم إلي المدينة المنورة وتأسيس مسجده الحرام وأستمر كذلك في عصر الخلافة الراشدة ، كذلك كان المسجد داراً لإيواء من لا دار لهم من المسلمين الفقراء ولعل أهل الصفة خير شاهد على ذلك الدور الاجتماعي لمسجد الرسول الكريم .

فالمسجد إذن كان مؤسسة تعليمية بكل معنى الكلمة ومسجد الرسول هو أول نموذج في هذا الخصوص ، وقد مارس الصحابة التعليم في مسجد الرسول في عصر الخلافة الراشدة بل إن مسجد قباء كان مؤسسة علمية في عهد الرسول الكريم ، فقد كان لأبي عثمان بن ربيعة حلقة دراسية مشهورة في ذلك المسجد .

في عصر الخلافة الراشدة تم اعتماد المسجد كمؤسسة تعليمية يجتمع في أروقته طلاب العلم والعلماء ، كان ذلك في مسجد الرسول بالمدينة المنورة وفي مسجد البصرة وفي مسجد الكوفة وفي مسجد عمرو بن العاص في الفسطاط في مصر ، فقد انتظمت الحلقات التعليمية أو

حلقات العلم بتلك المساجد حيث كـان العلمـاء يجلسون إلـي الأعمـدة في المسجد ويلتـف حولهم الطلاب في شكل حلق أو دوائر يدونون ما يلقونه عليهم ويحاورونهم ، وقد جمعـت دروس العلم في تلك المساجد إلي جانب علوم القرآن من تفسير وقـراءة علـوم اللغـة العربيـة وآدابها من شعر ونثر ، فقد كان سعيد بن المسيب يدّرس الشعر العربي في مجلسه بمـسجد الرسول الكريم بالمدينة المنـورة في عـام ٩٥ هــ ، كمـا كـان واصـل بـن عطـاء يعلـم مـذهب الاعتزال في مجلسه في مسجد البصرة بعد أن اعتزل الحسن البصري .

إلي جانب المسجد كان هناك كذلك دور العلم وخـزائن الكتـب ، وتـشبه دور العلـم أو دور القرّاء المكتبات العامة المتعارف عليها في أيامنا ، أما خزائن الكتـب فهـي بمثابـة مكتبـات خاصة يفتحها أصحابها لطـلاب العلـم ، وهنـا تـبرز مـرة أخـرى وليـست أخـيرة الـصفة الاجتماعية للعلم ووسائله ، إذ تنبعث الوسـائل التعليميـة مـن ثنايـا المجتمـع وتتغلغـل في نسيجه ، " ولعل دار القراء التي نزلها عبد الله بن أم مكتوم في المدينة المنـورة بعـد معركـة بدر الكبرى لتمثـل نـواة دور العلـم المخصـصة للقـراءة والـدرس " والـتي تطـورت في عـصر الخلافة الراشدة بشكل واكب حركة العلـم والـتعلم والتعلـيم الـتي كانـت تغـذي باسـتمرار حركات الفتح ونشر الدعوة بالدعاة والعلماء .

المبحث الرابع

العلوم الطبيعية

نبتدر هذه الجزئية بالإشارة إلي حقيقة قد يتغافل عنها الكثيرون من المهتمين بالتاريخ الإسلامي سواء من المسلمين أنفسهم أو من المستشرقين ، وهي أن عصر الخلافة الراشدة كان الأساس للكثير من العلوم الطبيعية مثل الترجمة وعلوم اللغة وآدابها والتاريخ والجغرافيا وبدائيات التاريخ الطبيعي الذي يشمل النبات والحيوان والمعادن ، إضافة إلي أساسيات علم الأرض الذي يتصل بعلم الجغرافيا ، وكل تلك الأساسيات للعلوم إنما تولدت من خلال حركة الفتوح الإسلامية ومستلزمات الجيوش وحركتها ، وسنرى ذلك بعد قليل ، والآن إلى التفصيل :

العلوم الطبيعية وتطور المجتمع الإسلامي :

بالرغم من موقع العلوم الطبيعية في منظومة العلم والتعلم والتعليم الذي جاء غير متميز في عصر الخلافة الراشدة إلا أنه بدا يتقدم بشكل ينبئ بمستقبل مبهر ، وذلك بسبب الارتباط العضوي الذي تبدت أواصره سريعاً بين العلوم الطبيعية من جهة وتطور المجتمع الإسلامي الذي تدافعت وتيرته حثيثاً ، وذلك يتوافق مع ما سبق وقدمنا عند الحديث عن العلوم الطبيعية في عصر النبوة الزاهر من أن تلك العلوم وتطبيقاتها إن هي إلا أموراً تمليها الحياة وتطورها على المجتمع .

إلا أن المقولة السابقة لا ينبغي أن تؤشر إلي أن المجتمع الإسلامي كان يندفع في اتجاه التطور الإنساني بحكم حركة التاريخ ذات الدفع الذاتي أو التلقائي كما يدعي البعض أو بحكم قانون الصدفة الذي يذهب إليه بعض آخر ، ولكن ذلك التطور الذي شهده المجتمع الإسلامي قد حدث بفعل أكثر من فاعل : **الفاعل الأول** : هو المرجعيات الشرعية

الإسلامية التي تحث كافة ديناميات المجتمع على التحرك والاندفاع في اتجاه الترقي بالإنسان والسمو به روحاً ومادة ، **الفاعل الثاني** : هو عقل المسلم الذي وعى وأدرك بعمق وحصافة مضامين ودلالات الإشارات المرجعية التي حثته على أن يقدح زناد عقله ويتعامل مع عناصر الوجود وموجودات الكون كما أمره الخالق العظيم بتدبر وتفكير ، **الفاعل الثالث** : السمة التي اتسم بها الإسلام كنظام اجتماعي يضع الأسس لحضارة متميزة ومنطق ثقافي فريد ، وقد قُدِّر لذلك الإسلام بسمته المذكورة وفي سابقة لن تتكرر في التاريخ الإنساني لأن يدفع بالتاريخ الإنساني ذاته في حركة محسوبة ومفروضة في اتجاه ما يسمو بالإسلام حضارة وثقافة ، وهنا وهم الكثيرون أن التاريخ تحرك لصالح الإسلام ، ولكن الحقيقة أن الإسلام هو الذي دفع التاريخ في اتجاه السمو والترقي بالإنسانية ، فاكتسب تلك السمات وتميزت بها مراحله وأحقابه التي شهدت ظهور الإسلام وعاصرت ازدهاره وإيناعه ، وبذا يكون الإسلام قد صنع التاريخ على عينه وحسب مراده .

إن نظرة الإسلام إلي العلوم الطبيعية وتطبيقاتها بقدر ما كانت تنطلق من منطلقات شرعية تجد أصولها في المرجعيات الإسلامية التي تحث على الأخذ بتلك العلوم والتقدم فيها إلي غير حدود إلا أنها في ذات الوقت كانت تتوخى الواقعية وتضع كلاً من علمي الدين والدنيا في إطاره الصحيح وسياقه الطبيعي ، وهنا تبلور البعد الواقعي لنظرة الإسلام إلي العلوم الطبيعية في مأثورة صاغها علماء الأمة جيل بعد جيل وهي أن علم الدين للدنيا والآخرة وعلم الدنيا لتيسير سبل الحياة الطيبة والأخيرة تقود إلي طاعة الله وبلوغ جنته .

إن تحليلاً دقيقاً ومتأنياً لموقف المسلمين من العلوم الطبيعية في عصر الخلافة الراشدة يصل بالمتابع إلي نتيجة مفادها أن المسلمين كانوا على وعي وإدراك كاملين بأن العلوم الطبيعية تجد منابعها ومنطلقاتها في القرآن والسنة ، وأن ما لم يُعرف أو يُدرك بالعقل البشري من العلوم والمعارف هو موجود في كتاب الله بإشارة أو أثارة ، ولكن العقل البشري قد قصر عن

التوصل إليها أو اكتشافها ، وأن المسلمين كانوا في ظرف موضوعي ووضع تاريخي يفرض عليهم تولية الإسلام ونشره الاهتمام الأول والهدف الصريح المعلن ، أما علوم الدنيا فسوف ترد في ثنايا الموجة التالية من الحركة الإسلامية الساعية نحو تأسيس الحضارة وإنشاء المدنية التي تأتي في إطار الأمر الإلهي بإعمار الأرض وإقامة الحياة الطيبة ومجتمع المتقين .

ما تقدم من تحليل قد وجد الدليل على صحته فيما قادت إليه الفتوحات الإسلامية وانتشار الإسلام من وضع الأسس للعديد من العلوم الطبيعية ، فقد كانت تلك الفتوحات هي بداية الانطلاق نحو التعامل مع عناصر الوجود بشكل مباشر ومواجهة معطيات الطبيعية في صراحة ووضوح ، وهنا برز استعداد المسلمين المعتقدي والعقلي لتقبل ذلك التعامل والإقبال عليه واستثماره بشكل لم يكن متوقعاً ، ودلل على ذلك الظهور المفاجئ والتطور السريع للعديد من العلوم الطبيعية فور فتح المسلمين للبلاد المجاورة لشبه جزيرة العرب واستقرارهم فيها .

إن الإسلام يرى في الحضارة التعامل مع عناصر الوجود وموجودات الكون ، ويرى أن أداة ذلك التعامل هي العلم ، ونظراً لكون حضارة الإسلام هي حضارة أخلاقية روحية فهي تبدأ أولاً بالدين مصدر الأخلاق ومنبع القيم ، فتنتشر الإسلام وتبلّغ دعوته إلي بنى البشر ، ثم تواصل التعامل مع عناصر الوجود في إطار إعمار الأرض عن طريق العلم الذي يهدف إلي اكتناه حقائق تلك العناصر والعلاقات بينها فيتحقق إعمار الأرض وإقامة الحياة الطيبة وتُغّلف الحضارة والمدنية بالأخلاق والقيم دائماً وأبداً .

ويثار في هذا السياق سؤال مهم وهو إذا كان المسلمون في عصر الخلافة الراشدة قد توصلوا إلي أساسيات العديد من العلوم الطبيعية ، فلماذا إذن لم يبرزوا نتاجات تلك العلوم إلا في

مرحلة تاريخية تالية لعلها تبدأ مع بداية العصر العباسي ، أو بعد فترة من بدايته حيث استقرت الأوضاع لتلك الدولة ؟ .

والإجابة على السؤال المتقدم تكمن في طبيعة عصر الخلافة الراشدة وكذلك العصر الأموي وطبيعة الاهتمامات التي سيطرت على عقول أولياء أمور المسلمين في هذين العصرين ، فقد اتسم هذان العصران بأنهما عصرا نشر الإسلام وتبليغ الدعوة ، وأن العلوم الطبيعية التي وضعت أسسها في هذين العصرين ظلت على حالها من البساطة وارتباطها بمجريات الحياة إلي أن جاء العصر العباسي الذي أتسم بالفراغ والتأمل والعكوف على العلوم الطبيعية وتطويرها من خلال الاتصال بالحضارات الأخرى الذي كان قد قطع أشواطاً بعيدة وأبرز قدرة الحضارة الإسلامية على التحاور ببراعة .

العلوم الطبيعية في عصر الخلافة الراشدة :

ثم ننتقل إلي الحديث عن العلوم الطبيعية في عصر الخلافة الراشدة ، ولعل أول ما يمكن أن يسجل بخصوص هذا الموضوع أنه قد خلا من البحث الجاد والدراسة الموضوعية ، بعبارة أكثر دقة أن عصر الخلافة الراشدة لم تتعرض له دراسة ذات شأن لتبحث فيه عن العلوم الطبيعية أو عن تطبيقاتها لا من الدارسين المسلمين ولا من غيرهم فيما يعرفون بالمستشرقين ، وقد اكتفى الجميع بتعليل ذلك بأن " أهل السنة المسلمين كانوا يرون أن كل علم لا ينبع من القرآن والحديث لا يعتبر عقيماً فحسب ، بل يعتبر أيضاً الخطوة الأولى على الطريق المفضي إلي الزندقة " وقد سبق لنا مناقشة هذه المسألة وتقليبها على جميع وجوهها .

أما ثاني ما يمكن أن نلفت الانتباه إليه بنفس الخصوص هو أن عصر الخلافة الراشدة لا يزال يحتاج إلي بحث وتنقيب دقيقين ومستفيضين يستهدفان استخلاص العلوم الطبيعية

مما علق بها أو غُلّفت به من أفكار ذات طبيعة دينية شرعية أو ممارسات وسلوكات ذات صبغة واقعية عملياتية فرضتها طبيعة ذلك العصر والأهداف والمقاصد ذات الأولوية المطلقة في حياة الدولة والمجتمع وهي نشر الإسلام والدعوة إليه في كافة المناطق والأرجاء .

أما ثالث ما ينبغي أن يسترعي الاهتمام في نفس الصدد هو أن عصر الخلافة الراشدة قد أفرز بخصوص العلوم الطبيعية ظاهرة جديرة بالدراسة وهي أن تطبيقات العلوم في ذلك العصر قد عُرفت وموّرست قبل العلوم نفسها ، وسوف نرى ذلك بعد قليل ، وهذا يعنى أن التطبيقات والممارسات العملياتية قد وجدت أولاً قبل الجانب النظري الفكري للعلوم الطبيعية ، فالخبرة إذن والممارسة اللتان أوجدتهما الحياة وفرضتهما على الجميع كان لهما السبق على الشق الأصولي الفكري للعلوم الطبيعية ، وكان ذلك شأن العديد من العلوم التي وجدت في عصر الخلافة الراشدة مثل الترجمة والتاريخ والجغرافيا والهيئة والحيوان والنبات والأرض والمعادن وغيرها ، فمن هذه العلوم ما وُجد في شكل ممارسات وتفاعلات مع وتيرة الحياة ومنها ما وجد ولكن لم يكن يحمل اسمه المتعارف عليه .

أما رابع ما يمكن أن يثير الذهن أن ما تقدم كان أمراً طبيعياً لحضارة تخطو خطواتها الأولى وتتفتح على العالم والطبيعة والوجود وقد جاءت بمفاهيم أخلاقية وقيم دينية لها من الخصوصية والتميز ما يجعل التماس مع الطبيعة والوجود والتعامل مع موجوداتهما ثم التفاعل والتعاطي من الأمور التي تحتاج إلي المزيد من التريث والتعقل ، فالحضارة الإسلامية كانت لا تزال حضارة غضه تكون المفردات الأولية للمعجم الذي سوف تتعامل بموجبه مع الطبيعة والحياة ، ولم يسبق لها التعامل أو الانفتاح على أمم وأقوام أخرى تمتلك تجارب وممارسات وموروثات حضارية وثقافية ، ومن ثم فإن تطبيقات العلوم الطبيعية التي وجدت في عصر الخلافة الراشدة لم تكن إلا تجارب وممارسات ذاتية نابعة من التكوين العقلي والفكري للمسلمين في ذلك العصر ، وسوف يثريها بعد ذلك الانفتاح

على العالم والتعرف على الآخرين والتفاعل مع ممتلكاتهم وموروثاتهم سواء الحضارية أو الثقافية ، يضاف إلي ذلك التفاعل الذاتي الذي وصل إلي حد البركان الثائر الذي صهر كل ما يكتنزه بداخله ثم قذف به نفائس يستفيد منها كل العالم في وقت خيم الظلام على الجميع .

وسوف نستعرض فيما يلي جملة العلوم الطبيعية أو بالأحرى تطبيقات العلوم الطبيعية التي مارسها وخبرها المسلمون في عصر الخلافة الراشدة وجاءت مواكبه لمعترك الحياة وفي ثناياها وكأجزاء من نسيجها ، تلك الحياة التي سيطر عليها بشكل مطلق الجهاد في سبيل نشر الإسلام ومن ثم فقد مد الجهاد بظلاله على كل ممارسات الحياة وتفاعلاتها حتى منها الذي ارتبط بتطبيقات العلوم الطبيعية فجاءت في ركابه كعوامل مساعدة ودافعة لاستمرار قوة ذلك الجهاد واندفاعه ، وذلك من خلال الآتي :

– الترجمة :

ذكرنا أن الترجمة بدأت منذ عهد النبوة الزاهر وبناء على توجيهات الرسول الكريم الذي أشار على بعض الصحابة بتعلم لغات اليهود والفرس والروم لأن هذه اللغات كانت لغات الأقوام والأمم التي تحيط بالدولة الوليدة ، وسوف يكون لذلك أهميته على مستقبل العلاقات بين المسلمين وتلك الأمم سواء أكانت تلك العلاقات في اتجاه التعاون والتحاور أو في اتجاه التنافس والتصارع .

وتطورت حركة الترجمة في عصر الخلافة الراشدة بشكل لم يعد يقتصر على تعلم فرد أو عدة أفراد للغات الأمم ذات العلاقة ، ولكن تحول الأمر إلي اختلاط وتفاعل بين الجيوش الإسلامية ثم المجتمع الإسلامي ككل وشعوب الفرس والروم والقبط والبربر والترك وغيرهم

من الشعـوب ، وأصبحت الترجمة ضرورة للتفاهم بين الشعوب والمجتمعات ولم تعد وسيلة للتعرف على بعض المعلومات عن شعوب أو مجتمعات بعينها .

كانت الترجمة حلقة الوصل بين المسلمين والشعوب التي دخلت إلي الإســلام فبـدونها لم يكن في مقدور المسلمين شرح تعاليم الدين الجديـد ، وفي هـذه الظـروف التاريخيـة المتعلقـة بانتشار الإسلام في عصر الخلافة الراشدة لعبت اللغة دوراً مهماً حيث أقامت بين المـسلمين العرب حاملي الدعوة إلي الدين الجديد والشعوب التي دخلت إلي الإسـلام علاقـة تقابليـة أي في اتجاهين متقابلين :

فالعلاقة الأولى تمت عندما عبر العديد من الشعوب حاجز اللغة وقفز إلي الإسلام ، فاعتنق الدين الجديد وتعلم لغته وهجر اللغة الأصلية ، وبموجب ذلك اكتسب العروبة الـتي تمثـل أصل أصحاب الرسالة والداعين إليها ، واختلط هؤلاء بالفاتحين ، ولم يكـن للترجمـة دور واضح ومؤثر في علاقة هؤلاء المسلمين الجدد بالإسلام ولغته .أما العلاقـة الثانيـة فقـد تمـت عندما عبر الإسلام حاجز اللغة وقفز هو إلـي العديـد مـن الـشعوب الأخـرى الـتي اعتنقتـه وتعلمت لغته مع احتفاظها بلغتها الأصلية ، وهنا لعبت الترجمة دوراً مهماً حيث قام أبناء تلك الشعوب في المرحلة الأولى بنقل تعاليم الإسلام وشروحاته إلـي لغتهـا ثـم بنقـل تراثهـا الحضاري والثقافي إلي اللغـة العربيـة في مرحلـة تاليـة حـدث ذلـك مـع الفـرس والأتـراك والرومان واليونان والهنود والصينيين وغيرهم .

لم يقدر لأحد أن يؤصل لحركة الترجمة التي تمت في هـذا الوقـت المبكـر مـن عمـر الدولـة الإسلامية ، وسبب ذلك أن النظرة للترجمة كانت دائمـاً نظـرة ذات طبيعـة علميـة ثقافيـة حـضارية ، ولم تكـن نظـرة ذات أبعـاد دينيـة اجتماعيـة خاصـة بالـدعوة ونـشر الإسـلام والتفاعـل الاجتمـاعي بـين الفـاتحين وأهـل الـبلاد الأصـليين ، إن مـن درس الترجمـة في الحضارة الإسلامية كفرع من العلوم الطبيعية درسها كأداة أو معبر للمؤلفـات والمـصنفات في

العلوم الطبيعية من العربية أو إليها ، ولم يدرسها كأداة للتفاعل الاجتماعي داخل المجتمع الإسلامي الحديث ووسيلة لنشر الإسلام إلي جميع الأمم والشعوب .

- الطب والعقاقير :

أسلفنا أن الطب والعقاقير قد نشأ في عصر النبوة الزاهر وقد توسعت تطبيقاتهما بشكل متسق طيلة ذلك العصر وبترخيص من الرسول الكريم وبرع في هذا الفن الحارث بن كلده الثقفي ، وكان هو الأكثر شهرة ودرس الطب كعلم في بلاد الفرس ثم مارسه عندهم وأخيراً نقل علمه وخبرته إلي المجتمع الإسلامي في عهد الرسول الكريم ، وفي أواخر عصر النبوة ظهر آخرون ممن تتلمذوا على يدي الحارث وعرف منهم ابنه النضر بن الحارث وغيره .

شهد النضر بن الحارث في مجال الطب والعقاقير زمناً من عصر الخلافة الراشدة وظهر معه آخرون أبرزتهم الفتوحات الإسلامية ومصاحبتهم للجيوش الإسلامية لمعالجة المرضى والجرحى من المقاتلين .

كان التطبيب وعقاقير العلاج في عصر الخلافة الراشدة يغلب عليهما طابع الممارسة والحرفة المبنية على التجربة والخطأ أكثر منه علماً نظرياً مقروناً بتطبيقاته ، وذلك يعكس طبيعة العصر وواقع الحياة التي شُغل فيها المسلمون بالفتوحات ونشر الدعوة .

إن المنقب عن العلوم الطبيعية في الحضارة الإسلامية والتاريخ الإسلامي لابد أن يعطي عصر الخلافة الراشدة اهتماماً ملحوظاً ، وسوف يستنتج أن الفتوحات الإسلامية كانت بمثابة جامعة أفرزت أساسيات الكثير من تلك العلوم وتخرج فيها العديد من العلماء ، ولكنهم مارسوا مباشرة تطبيقات العلوم ولم ينقطعوا إلي تنظيراتها وفلسفاتها إلا في مرحلة تالية ، وهكذا يمكن القول بأن المسلمين في عصر الخلافة الراشدة بدأوا بتطبيقات العلوم ثم أردفوا ذلك بالفلسفة والتنظير عكس ما عهدناه في حضارات أخرى ، وعليه فالمسلمون كانوا

تطبيقيين منذ البداية ولم يكونوا فلاسفة منظرين إلا في المرحلة التالية ، لقد لاحظنا أن عصر الخلافة الراشدة ومعه العصر الأموي لم يدرسا بشكل كاف يمكّن من استخلاص الحقيقة التي سجلناها لتونا ، فالدارسون من غير المسلمين تحاشوا التدقيق في هذه الحقبة من التاريخ الإسلامي تحت وطأة الحساسية المفرطة تجاه هذين العصرين لما تميزا به من اهتمام لا يضاهى بنشر الإسلام والفتوحات الإسلامية انطلاقاً من رؤيتهم القاصرة التي تفضي إلي أن الإسلام انتشر بحد السيف وأن فتوحات المسلمين لم تكن إلا غزواً واحتلالاً واستعباداً للآخرين ، وقد أعمتهم هذه الرؤية وثبطت من همتهم وهم الباحثون الماهرون عن أن يدققوا في تلك الحقبة من التاريخ الإسلامي بجد ومثابرة وموضوعية .

أما الدارسون المسلمون فهم يمرون على هذه الحقبة من التاريخ الإسلامي مرور الكرام ويكتفون منها بوصفها بأنها كانت حقبة نشر الدعوة والفتوحات ، ولم ينفذوا ببصيرتهم إلي ما وراء ذلك وفي ثناياه ، ولو فعلوا لاكتشفوا أن عصر الخلافة الراشدة بقدر ما كان عصر الفتوحات ونشر الدعوة كان عصر التطبيق العلمي في ميادين كثيرة ، ولكن هؤلاء ينظرون إلي تلك التطبيقات من منظور حديث ومعاصر ، ولو سافروا إليها عبر الزمن وتعاملوا معها بعقلية زمانها وأفكاره لعلموا أنها تطبيقات لعلوم طبيعية بكل معنى الكلمة ، فإذا نظرنا إلي الحكماء والمطببين الذين يرافقون الجيوش الإسلامية لعلاج المرضى والمصابين بمنظار عصرنا لرأيناهم بدائيين لا علاقة لهم بمهنة الطب أو علمه ولكن لو نظرنا إليهم بمنظار ذلك الزمن لرأيناهم أطباء مهرة استخدموا المتاح من معطيات عصرهم في التطبيب والعلاج ، إلا أن ما كان ينقص هؤلاء ولم يتنبهوا إليه ، لأنه لم يكن بخاطرهم ، وليس لديهم وقت له ، هو أن يسجلوا ما يمارسون ، ويؤصلوا له ، ولو فعلوا لوضعوا مصنفات في الطب والصيدلة ، تشهد على براعتهم في ذلك الزمن ! .

وتأتي بعد ذلك مرحلة ثانية ، فالمسلمون عندما يستقر بهم المقام في منطقة من المناطق التي ينشرون الإسلام فيها ، يبدؤون مباشرة ودون تردد في التفتيش عن أسلوب حياة شعوب تلك المناطق والأقاليم في كافة مناحيها ومناشطها ، فتعرفوا سريعاً على الكثير من أساليب ممارسة الفرس مثلاً لمهنة التطبيب ووسائل العلاج والعقاقير ، دون أن يخوضوا في الإطلاع على مؤلفاتهم العلمية في علوم الطب والصيدلة ، وذلك لأنهم اعتادوا التجريب والممارسة والتطبيق ، فالتقطوا ذلك وأجّلوا الفلسفة .

ثم إن المسلمين الذين دخلوا الإسلام من عناصر وأجناس مختلفة أضافوا إلي الممارسين المسلمين لمهنة الطب والصيدلة في عصر الخلافة الراشدة قوة كبيرة حدث ذلك في فارس والشام ومصر ، وكانت هذه الحقبة الزمنية بمثابة التحضير والتمهيد لأن يضع هؤلاء بعد ذلك أو ممن جاء بعدهم مصنفات ذات شأن في الطب والصيدلة .

– الجغرافيا :

الجغرافيا كعلم تطلق على رغبة الإنسان في اكتناه الظواهر الطبيعية لسطح الأرض كالجبال والسهول والغابات والصحاري ، وما عليه من كائنات في اليابس أو الماء ، أو ظواهر بشرية صنعها الإنسان ، وما يتعرض له ذلك السطح من ظواهر جوية مثل الرياح والضغط والأمطار ودرجة الحرارة .

وما سبق يفيد أن مفردات الجغرافيا هي جميعها معطيات طبيعية من صنع الله ، حتى ولو تدخل في بعضها الإنسان بالترتيب أو بالتعديل ، وسلوك الإنسان إزاء هذه المعطيات التي تعرف كذلك بعناصر الوجود وموجودات الكون ينتج عنه الحضارة ، ووسيلة ذلك السلوك وأداته هي العلم .

وكان العرب قبل بعثة الرسول الكريم أهل تجارة وترحال ، يضربون في أقطار الأرض بغية التماس الرزق من الماء والكلأ أو من التجارة ، وكانت رحلتاهم الشهيرتان إلي الشام واليمن قد أكسبتاهم خبرة ودربة في التعرف على الطرق والمسالك ، والاهتداء بالنجوم في الليل ، والتعرف على طبيعة الأرض في النهار ، ومواسم الأمطار والرياح ، وما يرتبط بذلك من منتوجات وسلع ومحاصيل تعتمد عليها تجارتهم ، وإلي غير ذلك من أمور تتعلق بجغرافية شبه جزيرة العرب وبادية الشام .

وبعد انبعاث الإسلام في إقليم الحجاز الذي تتمثل أهم مدنه في مكة والطائف والمدينة ، زادت حركة المسلمين من هذه المدن إلي كافة حواضر شبه الجزيرة واستجدت أهم التطورات في هذا الشأن وهي حركة الفتوح الإسلامية وجيوشها ، وكان لذلك أبلغ الأثر في تطور إلمام المسلمين بالجغرافيا ، كخبرة ودراية وممارسة ، ويمكن إيضاح ذلك على النحو التالي :

* لقد كانت الجيوش الإسلامية عند وضع خطتها العامة أو إستراتيجيتها تحدد بالتفصيل وعبر خبراء متخصصين ، مواقع الأقاليم المقصودة بالفتح بدقة شديدة ، وما يحيط بها من تضاريس أو مظاهر للسطح ، وتحدد كذلك أنسب الطرق والمسالك التي توصل إليها ، وما تشتمل عليه تلك المسائل من تضاريس كالصحاري والجبال والسهول والوديان أو الأحراش والمستنقعات والغابات ، والوقت اللازم لاجتيازها ، وأنسب أوقات الحركة والتوقف ليلاً ونهاراً .

* كانت خطة الجيش تتضمن وسائل وأدوات اجتياز أنواع التضاريس المختلفة مثل الجبال الوعرة أو الصحاري المقفرة المكشوفة أو السهول المنبسطة أو الممرات المائية ، وما تتطلبه كل وسيلة من كلفة مادية وجهد ، وأنسب أوقات الاجتياز ليلاً أو نهاراً .

• كذلك كانت خطة الجيش وحركته تتضمن أنسب الأماكن وأأمن المواقع للاستراحة والتزود بالمؤن والمياه ، ثم أنشئت بعد ذلك المعسكرات الدائمة على الطرق التي تسلكها الجيوش وأصبحت بمثابة محطات للإمداد اللوجيستي .

• وتدليلاً على حنكة وحصافة القائمين على أمر الجيوش الإسلامية وخبرتهم في شئون الجغرافيا ، كانوا يضّمنون خطتهم الخاصة بتحرك الجيش الطرق البديلة التي يمكن أن يسلكها الجيش الإسلامي للتمويه أو خداع الأعداء ومفاجأتهم ، كأن يبتعد الجيش مثلاً عن السير عبر الطريق الساحلي المعهود الملاصق لساحل البحر ، ويسلك طريقاً آخر غير متوقع ، وبذلك يستثمر عنصر المفاجأة التي أكسبته كثيراً من المعارك .

• كانت الجيوش الإسلامية تستعين بالخبراء الذين يحددون مواقع النجوم وأسماءها ، ويهتدون بها في السير ليلاً ، وربما يعكس ذلك خبرة العرب في علم الفلك أو الهيئة ، وقد استثمر ذلك في حركة الجيوش الإسلامية تحت جنح الظلام لمفاجأة الأعداء .

• برعت الجيوش الإسلامية في استخدام مظاهر السطح المختلفة والتضاريس كوسائل تكتيكية للهجوم المفاجئ أو التخفي أو التحصن في موقع استراتيجي كالجبال والوديان أو الأحراش والمستنقعات أو استخدامها كموانع طبيعية .

• كانت الجيوش الإسلامية على دراية وخبرة – من خلال ما تكتنفه من عناصر بشرية خبيرة – بالظواهر الجوية مثل الرياح والأمطار ودرجات الحرارة ، مما مكنّها من تفادى آثارها واستثمارها لمصلحتها .

• استعانت الجيوش الإسلامية بخبراء في الطرق والمسالك ومظاهر الجو ، وكان هؤلاء في مقدمة الجيش وبرفقة قيادته كمستشارين .

* وكان هؤلاء يحددون وقت الهجوم ، وأنسب الطرق أو الأبواب لدخول المدن أو محاصرة الحصون أو مهاجمتها ، وتحديد أسلوب القتال داخل المدن وتحديد طرق وإمكانات الانسحاب في حالات الضرورة .

* كان المسلمون يقومون بتحديد مواقع البلاد والمدن التي يدخلونها ، ويحددون خصائصها الجغرافية ، وطبيعة تضاريسها الداخلية ، والمظاهر الجوية التي تتعرض لها مثل الرياح والأمطار ودرجة الحرارة ، وأنواع المزروعات والمحاصيل التي توجد بها ، والنشاط الاقتصادي لسكانها ، إلي غير ذلك من المعلومات الجغرافية التي أصبحت بعد ذلك علم الجغرافيا .

* كان ذلك الإلمام العملي التطبيقي الذي صاحب الفتوحات والجيوش الإسلامية بمثابة الحافز للمسلمين لكي يحوّلوا تلك الخبرة والممارسة العملية إلي مصنفات في الجغرافيا في مرحلة لاحقة .

* بعد أن استقرت الأوضاع للدولة الإسلامية في عهد الخلافة الراشدة ، وترامت أطرافها وامتدت مساحتها ، اهتم المسلمون بشكل تلقائي بجغرافية دولتهم ، لمعرفة أرجائها وما يحيط بها من مظاهر السطح والتضاريس ، ومن أمم وشعوب أخرى ، حتى يمكنهم تأمين حدودها ، والدفاع عنها ، والانطلاق من هذه الحدود لمواصلة الدعوة الإسلامية .

* كذلك ظهرت حاجة الدولة في عصر الخلافة الراشدة إلي التعرف على الطرق واكتشاف الأخرى التي تربط بين أرجاء الدولة ، لتسهيل رحلات الحج والعمرة ، وتحديد محطات البريد، وطرق القوافل التجارية واستراحات [خانات] تلك القوافل ، وطرق عمال الخراج والزكاة والي غير ذلك من المهام والعلاقات الاقتصادية والاجتماعية .

* ارتبط علم الجغرافيا بعلم الفلك ، وزادت تلك الصلة باستقرار الدولة ، وبرزت أهمية ذلك في تحديد مواقيت الصلاة والصيام والحج ودور الأهلة في ذلك ، ومن الأسماء البارزة في مجال الفلك في عصر الخلافة الراشدة تميم الداري الذي حدد النجوم الثابتة والمتحركة .

* ازدهرت في عصر الخلافة الراشدة ظاهرة الترحال والسياحة لأغراض شتى منها طلب العلم والتجارة ونشر الدعوة والتعرف على البلدان ، وساعد على ذلك سيادة الأمن واستقرار أوضاع الدولة والانتعاش الاقتصادي ، وأينعت في هذا الجو العام ظاهرة نشر الدعوة بشكل سلمي عن طريق التجارة والعلاقات الاجتماعية .

- التاريخ :

كثيراً ما يخلط الناس على مستويات شتى بين التاريخ والتأريخ ، فالتاريخ هو جميع التطورات والأحداث والأحوال التي يمر بها كائن ما أو فرد أو مجتمع أو ظاهرة طبيعية أو إنسانية ، أما التأريخ فهو تسجيل الأحوال والتطورات والأحداث والظواهر كما جرت .

ولقد أصبح التاريخ علماً له أهميته فيما يقدمه من مادة أولية وسوابق وخبرات يستفاد منها في الحاضر وتمد ظلالها إلي المستقبل ، وله كذلك منهجه الذي يُستخدم في تحليل الوقائع والأحداث والتطورات ، ويستخلص منها القوانين التي يسترشد بها في توقع حركة المستقبل تعويلاً على تطور حركة التاريخ .

وللعرب قبل الإسلام باع طويل في التأريخ ولهم كذلك شأن في التاريخ ، فكانوا يؤرخون لكافة تطوراتهم وأحداثهم الهامة وسميت بأيام العرب ، وأرخوا كذلك لنوابغهم ولكبرائهم وكل ما له قيمة عندهم ، وكانوا من وقت لآخر يستعرضون تاريخهم ويعظمونه فخراً وتيهاً .

وعندما جاء الإسلام عمق من أهمية التاريخ ، وأبرز دوره بالنسبة للفرد والمجتمع ، ومنحه خصائص وأبعاداً جعلت منه مرتكزاً أساسياً في حفظ أصول الدين ومصادر الشرع بأمانة وصدقية ، ونقلها عبر الأجيال دون تعديل أو تحريف أو تبديل ، لأجل ذلك أورد القرآن الكريم قصص السابقين وأحداث الغابرين للعظة والعبرة والالتزام بالصدق والأمانة في التأريخ للأحداث والتطورات ، وفي ذلك قال تعالى ﴿ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾.[1]

وقال تعالى ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .[2]

وقال تعالى ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .[3]

وقال تعالى ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ .[4]

فالقصص التي وردت في هذه الآيات الكريمة هي التاريخ وقد بين الحق تبارك وتعالى فائدة تلك القصص ، فهي للعظة والعبرة والتفكر والتدبر والتأمل من خلال نقل الأخبار والأنباء التي ينبغي أن تنقل بصدق وأمانة .

[1]. سورة الأعراف : ١٠١ .
[2]. سورة الأعراف : ١٧٦ .
[3]. سورة هود : ١٢٠ .
[4]. سورة يوسف : ٣ .

وإذا التفتنا إلي أهمية التاريخ للإسلام والمسلمين ، لأمكننا أن نقف على جملة من الحقائق نتناولها فيما يلي :

* لقد كان ما ورد في القرآن الكريم من قصص الأولين وأخبار الغابرين حجة أقامها الرسول الكريم والمسلمون ضد أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، بأن القرآن هو من عند الله وأن ما ورد فيه هو الحق مصدق لما معهم ، وأنهم يعلمون ذلك يقيناً لأنه جاء في كتابيهم التوراة والإنجيل ، ومن ثم كان التاريخ حجة للمسلمين على أهل الكتاب وسيظل كذلك إلي يوم الدين .

* سيظل القرآن العظيم يحمل أخبار الأمم السابقة إلي يوم القيامة ، وسيظل مصدراً للعظة والعبرة لأنه محفوظ بحول الله وقوته من التعديل أو التبديل أو التحريف ، ويبين ذلك أهمية التاريخ في الحفاظ على رسالات الأمم وصون أهم مصادر شريعتها .

* يدل القرآن الكريم دلالة قاطعة على أمانة الرسول الكريم وصدقه في تبليغ ما نزل عليه من عند الله دون زيادة أو نقصان ، ويسوق ذلك الدليل الواضح على أهمية صدق الرواة وأمانة المؤرخين والثقة في المحدثين والمخبرين .

* تبدو أهمية التاريخ في رواية سيرة الرسول الكريم وأحاديثه التي تمثل المصدر الثاني للشريعة بعد القرآن العظيم ، وتعتبر دقة تلك السيرة والأحاديث وصدق نقلها ذات أهمية عظيمة في الحفاظ على المصدر الثاني للشريعة .

هكذا برزت أهمية التاريخ والتأريخ قبل وبعد ظهور الإسلام ، وقد كان الرسول على علم ووعي بقيمة التاريخ ، وأهمية التأريخ بصدق وأمانة ، فقال حديثه المشهور الذي وضع بموجبه قاعدة مهمة ، ولعلها الأهم في كتابة التاريخ ونقل العلم ،

ورواه أبو هريرة : " تسموا باسمي ولا تكتنوا بكنيتي ومن رآني في المنام فقد رآني فإن الشيطان لا يتمثل في صورتي ، ومن كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار " .

وبرزت كذلك قيمة التأريخ في عصر النبوة الزاهر في كتابة القرآن الكريم من الوحي بدقة متناهية وفي قراءته وتلاوته وحفظه من قبل الصحابة ، وسماع الرسول له منهم وبصوتهم ، فكان يقول " إني أحب أن أسمعه من غيري " .

ومرة أخرى برزت قيمة التأريخ في حفظ أحاديث الرسول عن ظهر قلب وبدقة متناهية كذلك ، حيث لم تكن ثمة وسيلة أخرى للاحتفاظ بالأحاديث سوى الحفظ لأن الرسول منع كتابتها وتدوينها حتى لا تختلط بالقرآن الكريم وهنا كان للتأريخ أهميته بل أهميته البالغة حيث بات الحفظ والرواية والسماع والنقل والإخبار والإسناد كلها وسائل تحتاج إلي الدقة والأمانة والصدق ، إذ ليس هناك سواها للحفاظ على المصدر الثاني من مصادر الشريعة .

وفي عصر الخلافة الراشدة كان للتاريخ والتأريخ شأن آخر ، فقد اعتمدوا هجرة الرسول الكريم من مكة إلي المدينة ، وبداية تأسيس الدولة الإسلامية تقويماً لتاريخهم وأحداثهم ، وبدأ التاريخ الإسلامي رحلته الخالدة مع الزمن وبدأ تسجيل التاريخ الإسلامي في الذاكرة ، وكانت الفتوحات الإسلامية هي باكورة هذا التأريخ ، وظلت الأحداث التاريخية والتطورات والوقائع في عصر الخلافة الراشدة تعتمد على المشاهدة والرواية والنقل والإخبار ، وذلك لعدم إقبال المسلمين في تلك الفترة على كتابة التاريخ أي تدوينه ، إلا أن ذلك التاريخ تم تدوينه في مرحلة تالية نقلاً عن الرواة والمحدثين .

لقد ظل المسلمون فترة طويلة يعزفون عن تدوين التاريخ ، ويعتمدون في التأريخ على الذاكرة والرواية والنقل ، وحجتهم في ذلك النهي الذي صدر عن الرسول الكريم عن تدوين

الحديث حتى لا يختلط بالقرآن ، وقد سحب المسلمون هذا الحكم على كل ما عـدا القـرآن ، ولم يبدأ المسلمون في كتابة التاريخ وتدوينه إلاّ في عام ١٥١ هـ ، أي بعد قرن ونصف من الهجرة وذلك عندما طلب الخليفة العباسـي المنـصور مـن محمـد بـن إسـحاق كتابـة سـيرة الرسول الكريم أي كل ما يتعلق بـه وبنـسبه وشخـصيته وأقوالـه وأفعالـه وحياتـه الخاصـة والعامة والغزوات والحروب التي شارك فيها ، ولكن كتاب محمد بن إسحاق لم يقدّر لأحد أن يقف عليه إلا ابن هشام الذي قدّم له مختـصراً ضـمن سـيرته الـشهيرة الـتي وضعها في عام ٢١٨ هـ .

وما يستخلص من العرض المتقدم أن هناك قرناً ونصف قرن من الزمـان منـذ هجـرة الرسـول الكريم وتأسيس دولة المدينة تم التأريخ له اعتمـاداً علـى الـذاكرة والمـشاهدة والروايـة ، ولم يصل إلينا عن طريـق التـاريخ المـدون ، وممـا لاشـك فيـه أن كتابـة التـاريخ اعتمـاداً علـى الوسائل الحسية بمفردهـا دون إفـساح المجـال للتحليـل العقلـي والـتفكير المنطقـي وإدراك حقيقة الأحداث والتطورات والإلمام بديناميات التطور التاريخي ، تعتبر من الأخطـاء الـتي وقع فيها الكثير من المؤرخين ، وترتب على هذا المـنهج العديـد مـن التـشويهات لأحـداث وتطورات ووقائع تاريخية ذات شأن في التاريخ الإسلامي الذي يغطي الفترة غير المدونة .

فإذا كانت الوسائل الحسية المتمثلة في الذاكرة والمشاهدة والروايـة هـي المتاحـة دون سـواها لدراسة التاريخ الإسلامي خلال القرن ونصف التي تبدأ من هجرة الرسول الكريم ، فينبغـي الاستعانة بمناهج مساندة مثل التحليل العقلـي لتفـاعلات الأحـداث ، والـسياق التـاريخي لتطور الوقائع ، حتى يمكن تفادي تشويه التاريخ الإسلامي خلال تلك المرحلة .

وكان وضع التاريخ كشأن بقية العلوم الطبيعية تبدأ من طورها التطبيقي العملـي ، فالتـاريخ في عصر الخلافة الراشدة كان يعتمد على الوسائل الحسية المتمثلة في الذاكرة والمـشاهـدة ثـم الرواية ، وقد تـأثر المـسلمون في ذلـك إلـي حـد كـبير بروايـة أحاديـث الرسـول الكـريم ،

وبالرغم من أن التاريخ في ذلك العصر قد تشكل في نماذج عديدة إلا أنه ظل على نهجه غير المدون ، وبرز في هذا الصدد دور القُصَّاص الذين يقدمون الرواية التاريخية فيما يسردونه من قصص يمزجُون فيها بين الحقيقة والخيال ، وأصبح هؤلاء يمثلون أهم وسائل تسجيل التاريخ .

- اللغة العربية :

اللغة العربية ملكة العرب ، ملكوها وتمكنوا منها ، وحفظوها وحافظوا عليها واعتزوا بها إلي أن أعزها الله ورفع شأنها ، فجعلها لغة القرآن والذكر الحكيم ، لابد لكل مسلم أن يلفظ بها، وأن يفهم معاني مفرداتها ، إذا أراد فهم معاني القرآن الكريم .

كانت اللغة العربية حكراً على أهلها ، حتى بعد مجيء الإسلام وانتشاره في شبه جزيرة العرب ، أما عندما خرج خارج نطاق شبه الجزيرة ، ودخله أناس من أجناس غير عربية ، أصبحت اللغة العربية في متناول كل المسلمين لأنها لغة دينهم وكتابهم ، ولم يكن المسلمون من غير العرب على علم وفهم ودراية باللغة العربية ، وبالتالي فقد شق عليهم فهم معانيها ، وأدخلوا عليها ما ليس فيها ، وهنا بدأ العرب يخشون على لغتهم من الألسن الدخيلة والألفاظ الغريبة ، فكان التحرك نحو حفظ اللغة والحفاظ عليها ، وتم ذلك بضبط قواعدها وجمع ألفاظها وتبيان الألفاظ الغريبة والدخيلة ، وكل هذا الجهد واكب حركة الفتوحات الإسلامية التي ازدهرت في عصر الخلافة الراشدة ، ويمكننا متابعة ما طرأ على علم اللغة العربية وما يرتبط بها من علم الأدب بمحوريه الشعر والنثر من تطورات ومستجدات في ذلك العصر فيما يلي :

- اللغة العربية في مواجهة حركة الفتوحات الإسلامية :

شكلت الفتوحات الإسلامية مرحلة مهمة وفاصلة في تاريخ تطور اللغة العربية ، وانطلاقاً من كون الفتوحات الإسلامية شهدت أوج تقدمها وانتشارها في عصر الخلافة الراشدة ، لذا فذلك العصر يعد عصر تطور اللغة العربية ، وإيضاح ذلك فيما هو تالي :

○ اختصت اللغة العربية بخصائص ذاتية ميزتها عن غيرها من اللغات الأخرى ، وتشير الدراسات اللغوية المقارنة إلي أن اللغة العربية تتميز بالبلاغة ، وإمكانية استعمالها في التعبير عن الخيال وكثرة مفرداتها ، وإمكانات الاشتقاقات ، وتوظيف تلك المفردات ، إضافة إلي سهولة التعبير وسحر البيان ، كذلك تتسم بالمرونة والمطاوعة لموضوعات شتى ومجالات متباينة ، ومن ثم كانت صالحة لغة للأدب والعلم معاً ، فواكبت تطور الحضارة واستوعبت العلوم والآداب قديمها وحديثها .

○ اعتمدت اللغة العربية من حيث الترتيب الزمني في جمع مفرداتها وتعبيراتها على مصادر ثلاث : تمثل المصدر الأول في البادية موطن العرب الأول والأساسي ، والمكان الذي استخدمت فيه اللغة ، ونبعت منه دون تعديل أو تبديل ، أما المصدر الثاني فتجسد في الشعر العربي المنسوب إلي شعراء معروفين ، حيث كان ذلك الشعر ثرياً بالمفردات والتعبيرات والصور البيانية التي شكلت أصلاً مهماً للغة العربية ، في حين جاء المصدر الثالث متشكلاً في القرآن الكريم الذي جمع ثروة لغوية عظيمة وتعبيرات رائعة أعجزت أصحاب اللغة أنفسهم ، وظلت هذه المصادر الثلاثة حافظة للغة من التأثيرات الخارجية أو الداخلية .

○ لقد كان مجيء الإسلام العظيم كرسالة سماوية كتابها القرآن الكريم موجهة إلي كل بنى البشر بلغة العرب إيذاناً بدخول اللغة العربية إلي مرحلة جديدة ، حيث لم تعد لغة

العرب فحسب بل أصبحت لغة الإسلام والمسلمين من كل الأجناس والأعراق ، وكان ذلك يعني أن اللغة العربية لابد لها أن تتماس أو تحتك مع لغات أخرى ، وبغض الطرف عن مسألة التماس أو الاحتكاك التي سنتناولها لاحقاً فإن اللغة العربية أصبحت لغة عالمية تجاوزت أصحابها الأصليين إلي أقوام وأمم أخرى .

○ لقد اكتسبت اللغة العربية وقاراً ، واكتست بمسحة من الجلال والهيبة ، عندما أصبحت لغة شعائرية تؤدي بها شعائر ونسك الإسلام ، وتركت لغيرها من اللغات المحلية نشاطات الحياة اليومية التي يأتيها العوام .

○ يضاف إلي ما تقدم أن اللغة العربية كانت في كافة الأقاليم والأمصار التي دخلها الإسلام هي اللغة الرسمية للإدارة ودواوين الدولة وتعاملاتها الداخلية والخارجية ، وقد زاد ذلك من قيمة اللغة ورفع من شأنها ، وزاد من توق المسلمين الجدد إلي تعلمها وإتقانها ، وقد تم ذلك للكثيرين وأصبحوا فيها علماء مشهورين .

○ إزاء هذه الوضعية الجديدة للغة العربية لغة الإسلام والقرآن كان لا مفر من أن يحدث بعض الاحتكاكات وكثير من التماسات مع اللغات الأصلية للمسلمين الجدد ، وقد استتبع ذلك تجاوزات عديدة ومتنوعة على اللغة العربية من تلك اللغات ، ظهرت في شكل الألفاظ ، وهيئة المفردات ، ومعاني ودلالات التعبيرات ، وتركيب الأسلوب ، لأن اللغة العربية في ذلك الوقت لم تكن مُشكّلة أو منقوطة ، وكانت تعتمد على السماع وقريحة العربي وملكته التي تمثل قوام جبلته ، فلحق بالعربية أذاً كثيرُ .

○ والعربية من جهتها كانت قوية التأثير شديدة البأس ، ملكت لباب المسلمين الجدد ، ونفذت إلي عقولهم وقلوبهم معاً ، فعشقوها وذابوا فيها ، فجعلتهم يهجرون لغاتهم ،

بل ويكتبونها بالحروف العربية ، وقدّر لهذه العلاقة الحميمة بين العربية والمسلمين الجدد أن تتحفنا بنتاجهم العلمي والأدبي الذي أضاف للعربية وزاد من قدرها .

أن العربية قد غدت على مشارق مرحلة جديدة ، اختارها لها الله سبحانه وتعالى عندما قدّر لها أن تكون لغة القرآن العظيم ، وكانت الفتوحات الإسلامية هي فاتحة تلك المرحلة التي انطلقت من عصر الخلافة الراشدة ، ليأت على تلك اللغة يوماً تكون فيه منطق مليارات المسلمين ، عندما يعلنون شعار عقيدة التوحيد ويشهدون ألاّ إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله .

لقد كان اختيار الحق تبارك وتعالى للعربية لتكون لغة دينه الخالص الذي ارتضاه لعباده وجعله آخر الرسالات ولن يقبل من أحد سواه اختيار تشريف وتعظيم وإجلال ، فهل نشعر بذلك اليوم نحو لغتنا ، يا حسرةً على العربية في أيامنا عندما صارت أعجمية وصرنا عليها دخلاء غرباء ، ويا لهف نفسي على الناطقين بها المتقنين لها الماهرين بها ، عندما يصبحون طرفة تثير سخرية وتندر السوقي والغوغاء ، الذين باتوا الأعم الأغلب من الناس ولا عجب فهم صخور معجمة .

إن عزاءنا وسلوتنا إزاء هذه اللغة العظيمة أنها ستظل محفوظة مكنونة من عبث الجاهلين ولهو الماجنين ، لأنها لغة القرآن الكريم ، ارتبطت به نصاً وروحاً وأبدية وخلوداً ، لقد أعزها الله بعز هذا الدين وكرّمها بتكريمه ، وبين ذلك الحق تبارك وتعالى في كتابه العظيم في إحدى عشرة آية ، نرى من المجدي والضروري معاً إيرادها في هذا المقام :

قال تعالى ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾ [1].

[1]. سورة يوسف : ٢ .

وقال تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴾ .[1]

وقال تعالى ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ .[2]

وقال تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ .[3]

وقال تعالى ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ ﴾ .[4]

وقال تعالى ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ .[5]

وقال تعالى ﴿ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ .[6]

وقال تعالى ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾ .[7]

---

[1]. سورة الرعد : ٣٧ .
[2]. سورة النحل : ١٠٣ .
[3]. سورة طه : ١١٣ .
[4]. سورة الشعراء : ١٩٢- ٢٠١ .
[5]. سورة الزمر : ٢٧ و ٢٨ .
[6]. سورة فصلت : ٣ .
[7]. سورة فصلت : ٤٤ .

وقال تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴾ .[1]

وقال تعالى ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ .[2]

وقال تعالى ﴿ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴾ .[3]

* قوام اللغة العربية [الشعر والنثر] :

اللغة هي أداة التعبير الصوتي ، وقد أخذ ذلك التعبير الصوتي شكلين : الأول ، جمل موزونة وتنتهي بقواف متشابهة قصداً وعُرف بالشعر ، والثاني : جمل متتالية ليست موزونة ولا تنتهي بقواف متشابهة قصداً وعرفت بالنثر ، وقد ثار جدال حول أي الشكلين ظهر أولاً ، إلا أن ذلك الجدال لم يحسم بعد ، ولم يقدّر لأحد أن يقنعنا بأن اللغة كتعبير صوتي ظهرت أولاً في شكل شعر أي كلام موزون ومقفى قصداً ، أم في شكل نثر أي كلام غير موزون وغير مقفى قصداً ، ولا يؤرقنا كثيراً حسم هذا الجدال .

والحاصل أن العرب قبل مجيء الإسلام قد برعوا في استعمال الشعر كشكل من شكلي اللغة العربية ، وقد تعددت ضروب الشعر العربي قبل الإسلام وتباينت أغراضه ، وتأثر إلي مدى بعيد بخصائص البيئة العربية الطبيعية والاجتماعية والسياسية وحتى الاقتصادية ، وساعدت اللغة العربية بثرائها اللفظي وغناها التعبيري في أن يأتي الشعر العربي قوياً معبراً رصين الأسلوب جزل اللفظ عميق المعنى بليغ الفكرة حسن التعبير .

---

[1] . سورة الشورى : ٧ .
[2] . سورة الزخرف : ٣ .
[3] . سورة الأحقاف : ١٢.

ولما جاء الإسلام كان له منطقه الخاص في التعامل مع مسألة الشعر والشعراء ، فقد فرّق بين الشعراء المنافقين الماجنين والمؤمنين الصالحين ، ومن ثم فقد حكم على الشعر الملتزم الذي يصدر عن الشاعر المؤمن المحسن لأغراض تخدم الإسلام بأنه مباح ولا شيء عليه ، وفي ذلك قال الحق تبارك وتعالى ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾ [1] ، وقد قال بن عباس في سبب نزول هذه الآيات أنه " تهاجي رجلان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أحدهما من الأنصار والآخر من قوم آخرين ، وكان مع كل واحدٍ منهما غُواة من قومه وهم السفهاء ، فأنزل الله هذه الآيات " .

وعن أبي حسن البراد قال : " لما نزلت " والشعراء .. " الآية ، جاء عبد الله بن رواحة وكعب بن مالك وحسان بن ثابت ، فقالوا : يا رسول الله ، والله لقد أنزل الله هذه الآية وهو يعلم أنا شعراء ، هلكنا ، فأنزل الله ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ [2]، فدعاهم رسول الله فتلاها عليهم .

وقد قرّب الرسول الكريم منه نخبة من الشعراء أمثال عبد الله بن رواحة وكعب بن مالك وحسان بن ثابت وكانوا جميعاً من صحابة رسول الله ، واشتُهروا بالتقوى والورع ، وعُرف شعرهم بطيب المقصد والفضيلة ، وقد مدحوا الرسول في قصائد مشهورة ، ويُؤثر عن الرسول أنه قال في الشعر " إن من الشعر لحكمة " .

وظل حال الشعر كذلك في عصر الخلافة الراشدة ، كانت كل مقاصده خدمة الإسلام والشريعة الإسلامية ، وظهرت أغراض أخرى مثل الزهد والجهاد في سبيل الله ، وقد

[1] . سورة الشعراء : ٢٢٤ ـ ٢٢٦ .
[2] . سورة الشعراء : ٢٢٧ .

شجع الخلفاء الراشدون هذا الاتجاه الذي سلكه الشعر في تلك الفترة ، بل إن الخليفة الراشد الرابع الامام علياً بن أبي طالب كرم الله وجهه كان شاعراً بليغاً ، جُمع شعره في كتاب نهج البلاغة وعليه فقد سمت أغراض الشعر في عصر الخلافة الراشدة ، وإن كانت أغراضه ظلت محدودة ومقصورة على ما يتصل بالعقيدة الإسلامية .

أما بالنسبة إلي النثر فلم يكن العرب فيه أقل بروعاً من الشعر ، وقد أتقنوا فن الكتابة منذ وقت مبكر ، ولكن مع مجيء الإسلام ظهرت قيمة الكتابة ، حيث أصبحت أداة التعامل والتواصل الرسمي داخل الدولة وخارجها ، وكان للكتابة شروطها وخصائصها ، وكذلك كان للكتاب ملكاتهم ، وما تمتعوا به من الذكاء وسعة الأفق وعمق الأفكار وتمكن من اللغة .

لقد كانت الكتابة تنظيماً مهماً من تنظيمات مؤسسة الخلافة أو الحكم ، وقد كانت الكتابة بوصفها هذا معلماً مهماً من معالم الحضارة الإسلامية ، وقد وجدت الكتابة في عهد الرسول الكريم بشكل أصيل وحيوي لتسيير شئون الدولة الإسلامية الأولى ، والكتابة كانت تعنى الرسائل والمكاتبات التي ترسل باسم الدولة كشخصية اعتبارية وبتوقيع ولى الأمر أو الحاكم ، وقد كان من كتّاب الرسول الكريم عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلى بن أبي طالب وزيد بن ثابت وحذيفة بن اليمان ، وتعددت مجالات الكتابة ، فهناك كتابة ما ينزل به الوحي ، وكتابة العهود ، وكتابة الرسائل والكتب للأفراد والرؤساء والملوك وكتابة أموال الصدقات وكتابة المداينات والمعاملات وكتابة شئون ومصالح القبائل ، وكتابة ما يصيب المسلمون من غنائم .. الخ .

واستمر هذا الفن من فنون اللغة ، وبرز كتنظيم ، وترسخ كإحدى ملحقات مؤسسة الخلافة في عهد الخلفاء الراشدين ، فقد كان عثمان بن عفان كاتباً لأبي بكر الصديق ، وكتب زيد

بن ثابت وعبد الله بن خلف لعمر بن الخطاب ، وكتب مروان بن الحكم لعثمان بن عفان ، وكتب للامام على عبد الله بن أبي رافع مولى رسول الله وسعيد بن نجران الهمذاني .

ويمكن القول بأن الكتابة التي ظهرت في عصر النبوة الزاهر والخلافة الراشدة كانت بمثابة الأسس التي مهدت السبيل للكتابة في مجالات العلوم بكافة مجالاتها وتخصصاتها ، إلا أن الكتابة في العلوم كانت تحتاج دوماً إلي سهولة الألفاظ ووضوحها ، ومقدرة المفردات على أن تؤدي المعنى والمضمون المراد منها في المجال العلمي ، وقد قامت اللغة العربية بمهمتها في هذا الشأن على أكمل وجه ، ومن ثم ظهرت النتاجات العلمية لعلماء المسلمين في أرصن الأساليب وأدق المعاني .

* ضبط اللغة [النحو والصرف] :

النحو هو ضبط أواخر الكلمات إعراباً أو بناءً ، والصرف هو قابلية الكلمة لأن تظهر على آخرها علامات الضبط الثلاثة الرفع والفتح والكسر دون مانع ، وقد استشعر المسلمون — كما سبق الإيضاح — ضرورة ضبط اللغة العربية بسبب ما دخل على اللسان العربي من تأثيرات سببها الأجناس التي دخلت إلي الإسلام ، وسوف يؤدي ضبط اللغة إلي تقويم اللسان العربي والمحافظة عليه بعد أن شاع اللحن وكاد ذلك أن يهدد قراءة القرآن الكريم .

وقد ظهرت الحاجة إلي ضبط اللغة باستخدام النحو والصرف خلال عصر الخلافة الراشدة نظراً للظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والحضارية التي صاحبت حركة الفتوحات الإسلامية وترتبت عليها ، وقد دعت تلك الحاجة الخليفة الراشد الرابع الأمام علياً كرم الله وجهه إلي أن يشير على أبي الأسود الدؤلي من بنى كنانة بأن يعمد إلي ضبط اللغة بالقوانين والقواعد حتى يحفظها من الدخيل عليها فابتكر صناعة النحو .

على أن نشأة علم النحو ترتبط بمدينتي البصرة والكوفة اللتين نشأتا في عامي ١٤ هـ و١٧ هـ على التوالي في خلافة عمر بن الخطاب ، فمنذ نشأة المدينتين وهما يمثلان مركزين مهمين لاستقبال واستقطاب القبائل العربية المتباينة اللهجات ، كما أن مدينة البصرة انفردت بموقعها الاستراتيجي الذي جعل منها مركزاً تجارياً يقصده التجار من الفرس والهنود والصينيين بالإضافة إلي أصحاب الحرف المختلفة والصناعات ، وعليه فقد كانت مدينة البصرة أول مدينة تهتم بالنحو واللغة واختراع قواعد ضبطها ، في مدينة البصرة بوضعها الجغرافي والاجتماعي والاقتصادي المتميز نشأت أول مدرسة عنيت باللغة العربية واختراع القواعد التي تضمن لها الانضباط والثبات في وجه التغيرات دائمة الحدوث ، وبعد مئة عام تقريباً تبعتها مدينة الكوفة لتنشأ بها ثاني مدرسة تهتم بمسألة اللغة العربية وأدوات وقواعد ضبطها ، وتطورت المدرستان بعد ذلك تطوراً بيناً وبصفة خاصة في العصر العباسي الذي استقطب علماء اللغة من المدرستين إلي قصر الخلافة في بغداد لتتربع بغداد على قمة التطور الحضاري للحضارة الإسلامية وتترك للبصرة والكوفة ميزة التباهي بالسبق التاريخي على سبيل الترضية والإنصاف ، وسوف نتابع التحليل في الفصل التالي .

– أساسيات التاريخ الطبيعي :

أشرنا في أكثر من موضع إلي الاتجاه العملي للعلم الإسلامي منذ بداية ظهور الدولة الإسلامية وبروز حضارتها كنموذج للحياة الإنسانية ، وقد تجلى هذا الاتجاه مرة أخرى في عصر الخلافة الراشدة ونشاط حركة الفتوح الإسلامية فيما يتعلق بمجالات مثل النبات والحيوان والمعادن وهي التي تعرف بالتاريخ الطبيعي ، ويمكننا متابعة نشاط المسلمين في الحقبة المذكورة ليس بوصفهم منظرين ولكن بوصفهم تطبيقيين في مجالات الزراعة أو الفلاحة ، وتربية الحيوان ورعايته ، وفي التنقيب عن المعادن والتعرف عليها وتحديد خصائصها ، وذلك من خلال الآتي :

* نشاط المسلمين في مجالات الزراعة أو الفلاحة [النبات] :

بالرغم من طبيعة البيئة العربية التي أتسمت بندرة المياه وصعوبة المناخ ووعورة التضاريس وظواهر السطح إلا أنها لم تحرم العرب من الاستمتاع بعطاء الطبيعة وثرائها ، وقد جاء ذلك في شكلين : الشكل الأول أن ثمة مناطق في شبه الجزيرة العربية حباها الله المياه والأرض الخصبة والمناخ المعتدل فأثمرت جنات تنوعت زروعها وثمارها ، الشكل الثاني ما أورده الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم من حديث متكرر عن الأرض الميتة التي يحييها الله بالماء من السماء ثم الحديث عن العيون والأنهار مصدر الخير والنماء ثم الحديث عن الجنان التي صُوِّرت في أبدع وأبهى المناظر وما تكنه من أنواع الزروع والثمار التي يعرفها العرب والتي لا يعرفونها ولم يسمعوا حتى عنها ، هذان الشكلان من أشكال علاقة العرب بالنبات خلقا ألفة بين الجانبين ظهرت آثارها جلياً على العرب عندما أتاحت لهم الفتوحات الإسلامية فرصة التعرف والانفتاح على بيئات طبيعية ومناخية ونباتية تختلف عن بيئتهم ، فانكبوا عليها بشغف وشرعوا يدرسونها محاولين التعرف على خصائصها ورعايتها وعللها وإمكانية استنباتها في غير بيئاتها .

لقد خرج العرب المسلمون من شبه الجزيرة العربية ميممين شطر الشرق والشمال والغرب وصادفوا في هذه الاتجاهات الثلاثة بيئات مختلفة عن بيئتهم ، وكانت هذه البيئات غنية بمختلف النباتات والزروع والمحاصيل والثمار ، وبالرغم من أن العرب كانوا مشغولين في الفتح ونشر الدعوة وتبليغها إلي الناس إلا أنهم لم يدعوا الفرصة تمر دون التعرف على ما صادفهم في مجال الزرع والثمر ، فبدؤوا رحلة التعرف والتعلم بشكلها العملي التطبيقي ، وكانت هذه هي مرحلة التمهيد للعلم التنظيري في مجال النبات البعد الأول في مثلث التاريخ الطبيعي .

* نشاط المسلمين في مجال الحيوان :

وبالنسبة إلي الحيوان فقد عرف العرب الكثير عن الحيوانات التي وجدت في بيئتهم قبل مجيء الإسلام ، وبمجيء الإسلام زادت معرفة المسلمين عن الحيوانات عمقاً واتساعاً ، كذلك عرفوا حيوانات لم يعرفوها من قبل ، ولم يتعمقوا في طباعها وخصائصها ، وذلك مما ورد بالقرآن الكريم حيث أشار إلي أصناف من الحيوانات والحشرات والدواب لم تكن معروفة من قبل .

وعندما نشطت الفتوحات الإسلامية وتعددت اتجاهاتها ، وولج المسلمون بيئات متعددة ومتنوعة صادفوا أنواعاً من الحيوانات لم يروها من قبل ، بل أنهم اكتشفوا أثناء المعارك وبالذات مع الفرس أنهم يستخدمون الفيلة في القتال ، فأعاد ذلك إلي ذاكرتهم أصحاب الفيل ولجئوا إلي بعض الحيل التي تؤثر على هذا الحيوان وتجعله ينفر من الاشتراك بالمعارك وذلك بعد أن درسوا طبيعته وخصائصه .

كذلك عكف المسلمون في البلاد التي فتحوها على دراسة وملاحظة طباع وخصائص الحيوانات التي توجد في تلك البلاد ، وكان ذلك في شكل تطبيقي عملي تمهيداً لإخراج المصنفات العلمية التي صدرت فيما بعد .

* نشاط المسلمين في مجال المعادن وطبقات الأرض :

تعرف العرب منذ وقت مبكر على العلاقة بين المعادن المختلفة الثمينة والخسيسة وطبقات الأرض وذلك ثابت في حضارات اليمن وحضرموت ، وقد كان شغف العرب بالمعادن الثمينة ورغبتهم في تحويل كافة المعادن إلي الذهب أثمن المعادن المعروفة هو أساس ما عرف فيما بعد بالسيمياء ولم يخف العرب هذا التوق بالذهب والسيمياء حتى بعد مجيء الإسلام ، ولكن ذلك لم يكن بشكل واضح خلال فترة الخلافة الراشدة وازدهار الفتوحات الإسلامية .

وبعد أن أستقر المسلمون في البلاد المفتوحة زاد شغفهم بالسيمياء وتحويل المعادن إلي الذهب وبصفة خاصة أن بعض الشعوب وبالذات في فارس ومصر كان لديها نفس الاهتمام بالإضافة إلي رصيد وافر من الموروث الحضاري في هذه النوعية من العلوم ، وهذا ما سيبدو فيما بعد عندما يضع المسلمون مؤلفاتهم في الكيمياء والمعادن وعلوم الأرض إلا أن الكثير من تلك النشاطات لم يقدر له أن يظهر في مصنفات !.

إن ما قدمنا يوضح كم كانت حقبة الخلافة الراشدة وما حفلت به من حركة الفتوحات الإسلامية لها أهميتها في ازدهار العلوم الطبيعية لدى المسلمين كنشاطات وممارسات وليس كتنظيرات من خلال انفتاحهم على أمم وشعوب مختلفة تحتكم على موروثات حضارية وثقافية متنوعة ، فكانت هذه الحقبة منطلقاً لهم إلي مرحلة جديدة من التحاور والتعاطي مع تلك الحضارات والثقافات ثم العطاء بغزارة للإنسانية جمعاء .

الفصل الرابع

العلم والتعلم والتعليم

والعلوم الطبيعية وتطبيقاتها

في العصر الأموي

مثل نظيره عصر الخلافة الراشدة يعتبر العصر الأموي من العصور التي لم تلق اهتماماً كافياً من الدارسين فيما يتعلق بالعلوم الطبيعية وتطبيقاتها ، وكذلك مسائل التعلم والتعليم ، فالثابت عند من تصدوا لدراسة الحضارة الإسلامية أن العصر الأموي كان شحيحاً في إنتاجه من العلوم الطبيعية ، وربما تصيب هذه النظرة من ناحية ولا تصيب من ناحية أخرى ، فهي تصيب من ناحية أن العصر الأموي لم يشهد نتاجاً علمياً نظرياً ملموساً في شكل مصنفات وأدبيات مثلما حدث في عصر الخلافة الراشدة ، ولكنها لم تصب في أنها لم تتنبه إلي أن نتاج المسلمين في العصر الأموي كان في شكل ممارسات ونشاطات ، إضافة إلي اهتمام بنشر الدعوة ومواصلة حركة الفتوحات التي بدأت في عصري النبوة الزاهر ثم الخلافة الراشدة ، يضاف إلي ما تقدم أن العصر الأموي شهد تقدماً وازدهاراً ملحوظاً في مجالات الهندسة المعمارية والمدنية والفنون الجميلة وذلك يعرفه الجميع .

إن العصر الأموي يحتاج إلي نظرة متأنية وإعادة استقراء لحركة النشاط الإنساني عموماً بما في ذلك النشاط الفكري والذهني ، وسوف نكتشف الكثير مما لم يعرف عن ذلك العصر ونحاول القيام بذلك من خلال المباحث الأربعة التالية :

المبحث الأول : العلـم .

المبحث الثاني : التعلم .

المبحث الثالث : التعليم .

المبحث الرابع : العلوم الطبيعية وتطبيقاتها في العصر الأموي .

المبحث الأول

العلـــم

استمرت المحاور الثلاث العلم والتعلم والتعليم في العصر الأموي تتسم بالطابع الاجتماعي غير النظامي أو التنظيمي ، وحيث يعنى ذلك أنها تنبع من واقع المجتمع وظروفه وتتغلغل في نسيجه وتلبى متطلباته بشكل تلقائي دون توجيه مباشراً أو ملحوظ من الدولة أو أجهزتها المعنية ، واجتماعية العلم هذه كانت هي نفس سمته في عصري النبوة الزاهر والخلافة الراشدة – كما سبق وأوضحنا – وهي تعنى أن المجتمع يملك حركة ذاتية تلقائية تتجه به نحو تشكيل وبلورة أنساقه القيمية النابعة من علاقته القوية بالإسلام وقيمه الأخلاقية .

واستمر العلم كذلك في العصر الأموي يعنى علم الدين ، وتحددت ومصادره كما كانت من قبل في القرآن الكريم والحديث الشريف ، وزادت من شدة التمسك بهذين المصدرين وضرورة الرجوع إليهما وتكييف كافة شئون الحياة من سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية وحضارية وفقاً لما جاء فيهما وضعية الدولة الأموية سواء أكانت الوضعية السياسية أو الشرعية ، حيث عارض قيام هذه الدولة وكيفية حصول معاوية بن أبي سفيان مؤسسها الأول على الحكم جمع غير قليل من الصحابة الذين كانوا لا يزالون على قيد الحياة وأبناء من رحلوا منهم ، وطالب هؤلاء وهؤلاء بضرورة الرجوع إلي كتاب الله وأحاديث رسوله الكريم للفصل في مسألة الخلافة وقواعد وأصول انتقال الحكم داخل الدولة الإسلامية التي ودعت آخر خلفائها الراشدين بطريقة مأساوية شديدة التأثير ناهيك عما انزلقت إليه الأمة من فتنة كبرى كان أهم ما نتج عنها بروز ظاهرة التشرذم والتحزب وظهور الفرق السياسية المتمثلة في الشيعة والخوارج ، وهذا يؤشر إلي أن كلمة المسلمين لم تعد واحدة وأن آراءهم ووجهتهم فيما يتعلق بالعديد من القضايا المصيرية للأمة لم تعد كذلك واحدة ، وهكذا

برزت بشكل حاد ضرورة الالتجاء إلي كتاب الله وأحاديث رسوله كمنقذ من هذه المنزلقات .

وبنظرة على العصور الثلاثة نستخلص أن علم الدين في عصر النبوة الزاهر كان شرطاً للإيمان وبناء شخصية المسلم ، ولازماً لإلمامه بدينه كدين جديد يبحث عن مكانه في قلوب الناس وعقولهم ، فكان يعنى الإلمام والمعرفة بالجديد المجهول .

أما علم الدين في عصر الخلافة الراشدة فكان يمثل ضرورة أملتها الظروف الجديدة التي نشأت عن رحيل الرسول الكريم ، والرغبة القوية لدى أولياء الأمور والمجتمع بأسره في ترسيخ الدين بمصدريه : القرآن والحديث في العقول والقلوب ، والسير على طريق الرسول الكريم ونشر الإسلام والدعوة إليه استكمالاً لما بدأه وأوصى به .

أما علم الدين في العصر الأموي فكان بمثابة التمسك بالمصدر والأصل في وجه الذين حاولوا الخروج عليهما كحجة لأدانتهم أمام الأمة ، ثم لتذكير الناس وتنبيههم إلي خطورة ما يقوم به الأمويون من الخروج على الإجماع والبحث في تلك المصادر عن الأصول والقواعد الثابتة التي ينبغي أن يحتكم إليها الجميع .

لقد كان الوعي الجماعي للمسلمين في كل عصر من العصور الثلاثة يؤشر إلي معنى العلم كما يراه المجتمع من خلال تعبيرات ورموز يفرزها وتطفو على سطحه في شكل تطورات وأحداث وتفاعلات ظهرت في عصر النبوة في شكل إقبال على حفظ القرآن وأحاديث الرسول والجهاد في سبيل الله لنشر الإسلام وظهرت في عصر الخلافة الراشدة في شكل رغبة قوية في الحفاظ على المصدرين القرآن والسنة والجهاد في سبيل نشر الدين ، وظهرت في العصر الأموي في شكل دعوة إلي الرجوع إلي المصدرين والتفتيش فيهما عما اختلف حوله الفرقاء .

وليس من المشين أن نكرر أن البحث عن العلم في العصور الإسلامية الثلاثة المتتالية النبوة الزاهر والخلافة الراشدة والأموي ، لم يلق الاهتمام الكافي الواجب لعصور كانت هي الأساس لما تم بعد ذلك من نهضة علمية إسلامية لعلها الأشمل والاهم على مستوى العالم حتى العصور الحديثة ، والواقع أنه من الصعوبة بمكان تحديد سبب ذلك التراخي وعدم الاكتراث بشكل دقيق ومقنع ، فهل يرجع ذلك إلي قلة المصادر والوثائق التي تتحدث عن واقع العلم في تلك العصور ، والبعض يرى ذلك بل يرى أن حتى المصادر والوثائق القليلة أو النادرة التي وصلت إلينا ، الكثير مما جاء فيها موضع شك وتساؤل ! أم هل يرجع ذلك إلي عدم الاهتمام بالعلم في الأشكال والنماذج التي نريدها ونرغب في البحث عنها ، وهذا يعنى أن العلم في تلك العصور ربما كان يختلف في معناه عن العلم الذي نبحث عنه الآن ! أم هل يرجع ذلك إلي ما سبق وأكدنا عليه من أن المسلمين كانوا تطبيقيين عمليين ممارسين في تلك العصور أكثر منهم منظرين ، إلا أن ما يسمو فوق كل هذه التساؤلات وما هو ثابت ومؤكد أن العلم في العصور الثلاثة كان يتمحور حول علم الدين وهو القرآن والحديث .

والجدير بالملاحظة في هذا الصدد أن طبيعة العلاقة بين الحاكم والمحكوم وشكل النظام السياسي في كل عصر من العصور الثلاثة كان يمد ظلاله على المحاور الثلاثة العلم والتعلم والتعليم ، وقد يكون ذلك الارتباط واضحاً في العصرين : النبوة الزاهر والخلافة الراشدة ، أما فيما يتعلق بالعصر الأموي فالوضع يحتاج إلي إيضاح ، فشكل العلاقة بين الحاكم والمحكوم الذي اتسم بالقسوة ، وطبيعة النظام السياسي الذي بدا صارماً وجاداً ، تأثر بهما العلم وعمليتا التعلم والتعليم بالرغم من أن تلك المحاور — كما سبق القول — كانت إفرازات طبيعية تلقائية للمجتمع الإسلامي ، وتحقيق ذلك أن الخلفاء الأمويين كانوا يرغبون دوماً في تحبيذ وربما فرض التوجهات التي تبرر نظام حكمهم واستمراره وتدحض

حجج مناوئيهم ، وبالذات من الشيعة والعباسيين ، وما يستفاد من ذلك أن عصر الأمـويين كان أول العصور التي بدأ فيها العلم يتسم بطابع التوجيه الـسياسي ، وهـذا مـا لم نلحظـه في العصرين السابقين على ذلك العصر ، وذلك على الرغم من أن الخلفاء الأمـويين كـانوا لا يتدخلوا في القضاء وتركوا القضاة يحكمـون بـين النـاس كمـا يـرون ، ولم يتـصلوا بالفقهـاء والعلماء إلا نادراً باستثناء عمر بن عبد العزيز الذي كان على اتصال دائم بالفقهاء والعلماء .

ولكن ما هي طبيعة العلم في العصر الأموي ؟ هل هي بدايات الجدل وتعدد الآراء إزاء كافـة القضايا الخلافية التي لم تحسم في القرآن والسنة ، وكانت مقدمات لظهور المذاهب الأربعة ، أم أنه كان جدلاً خاصاً بالمسائل السياسية المتعلقة بالحكم والسياسة ؟ لقد كـان العلـم في واقع الأمر يعنى رغبة المجتمع في تكييف المستجدات والمتغيرات الـتي طـرأت علـى حيـاة الناس وفق الأصول والقواعد التي وردت في القرآن والحديث ؟ وقد تباينت تلك المستجدات والمتغيرات بين السياسة والاقتصاد والإدارة والنماذج والأنماط الثقافية والحـضارة ، وكانـت أسـباب ذلـك عديـدة كـان أهمهـا تطـور المجتمـع الإسـلامي ودخـول أمـم جديـدة إلـي الدولة الإسلامية .

ولكن هل كانت البيئة السياسية مؤهلة في العصر الأموي لكي تجعل من القـضايا الخلافيـة في السياسة والحكم وفي توزيع الثروة وفي استيعاب الأنماط الحضارية والثقافيـة للأمـم الـتي دخلت إلي الإسلام موضوعات للعلم والبحث والتنقيب في مصادر الشرع المتفق عليهـا وهـي القرآن الكريم وأحاديث الرسول ؟ .

لقد أدت المعارضة الشديدة للحكم الأموي من الشيعة العلويين والعباسـيين والخـوارج وقـسم كبير من السنة تزعمه عبد الله بن الزبير إلي تهيئة البيئة لأن تكون كافة القضايا مطروحـة أمام الناس ، وتعرب كل فرقة من تلك الفرق عن رأيها فيها ، ولم تستطع قسوة حكام بنى

أمية وعمالهم في القضاء على تلك التوجهات الفكرية ، بل ربما ساعدتها على الحصول على قاعدة عريضة من المؤيدين .

لقد كان الدين هو موضوع العلم في العصر الأموي كما كان في العصرين السابقين ، ولكن مع اختلاف شديد ، فعلم الدين في عصر النبوة والخلافة الراشدة كان لوضع الأسس وتثبيت الأصول والدعوة والتبليغ ، أما علم الدين في العصر الأموي فقد كان ذلك العلم الحراكي الذي يُقصد من ورائه دحض حجج الحاكم وتفنيد ادعاءاته ، لقد كانت بداية الاختلافات والتوجهات المتعارضة ، بل يمكن القول بأنها كانت بدايات الطروحات أو الفكر الإسلامي النابع من الاجتهاد المترتب على إعمال العقل والذي أفرز نتاجاته في العصر العباسي بكفاءة .

المبحث الثاني

التعلـــم

تشير الوثائق القليلة التي وصلتنا من العصر الأموي أن الرغبة في تحصيل العلم كانت شائعة بين أعداد كبيرة من أفراد المجتمع ، ولكن تلك الرغبة اختلفت داخل المجتمع الإسلامي من شريحة إلي أخرى ، كما اختلفت من فئة سِنية إلي أخرى ، وكذلك اختلفت من مكان إلي آخر داخل أقاليم ومناطق الدولة التي بدأت تتسع بشكل سريع .

فهناك الرغبة في التعلم لدى البسطاء وعامة الشعب وهؤلاء يعرفون طريقهم الذي لا يتجاوز حفظ القرآن والحديث ، وهناك من يواصلون طلب العلم ويقطعون في ذلك مراحل طويلة وشاقة ، ويرحلون في سبيل ذلك إلي أماكن عديدة وهي المراكز المشهورة بالعلماء من كبار الصحابة أو أبنائهم والتابعين ، وكان ذلك يتم على نفقة طالب العلم ، وقد اشتهرت في العصر الأموي مراكز للتعلم وتلقى العلم في القرآن والحديث وعلوم اللغة مثل المدينة المنورة والبصرة والكوفة الناشئة ودمشق مركز الخلافة .

وقد كان طالبو العلم في العصر الأموي الذين تتلمذوا على كبار الصحابة والتابعين هم علماء العصر التالي ورواده ، ولكنهم عاشوا في بيئة فكرية مشبعة بالتوجهات المتعددة والرؤى المتباينة والمعارضة الشديدة والدائمة للدولة الأموية ، إلا أن الفكرة التي سارت لدى هؤلاء والتي بثتها الفرق المعارضة من الشيعة والخوارج والعباسيين والتي كان هدفها سياسي بالأساس هي الرجوع بالإسلام إلي أصوله ومنابعه الصافية .

وظل التعلم وطلب العلم رغبة ذاتية ومجهوداً فردياً طيلة العصر الأموي ، ولكن طلب العلم والسعي إليه في ذلك العصر ربما يكون قد التقى بظاهرتين : الأولى دينية تتعلق بالجهاد من أجل نشر الإسلام الذي لم تتوان الدولة الأموية في السعي من أجله طيلة فترة وجودها

بالرغم من كل ظروفهـا ، والثانية سياسية ترتبط بعدم الاستقرار السياسي وتعدد الحركـات والقوى المعارضة للأمويين في شتى مناطق الدولة .

فالظاهرة الأولى قللت من فرص التفرغ لطلب العلم والارتحال في سبيله إلي المراكز العلمية في الحواضر المعروفة مثل : دمشق والبصرة والمدينة المنورة والكوفة ، هذا إذا عُلم أن التجنيـد الإجباري كان قد أصبح قانوناً في عرف الدولة الأموية ، يرتبط بذلك أن طلب العلم يحتـاج إلي جانب التفرغ المقدرة المادية التي تمكن الطالب من الارتحال والإقامة في المراكز العلميـة على نفقته الخاصة ، وقـد كانـت الظـروف الماديـة في العـصر الأمـوي غـير مواتيـة بـسبب الضرائب التي فرضتها الدولـة لتمويـل الجيـوش وتـسيير أمـور الدولـة ، ثـم الإنفـاق علـى متطلبـات الحكـام والأسـرة الحاكمـة الـتي شـرعت تطلـب الأبهـة وترغـب في حيـاة الترف والفخامة .

أما الظاهرة الثانية والتي تمثلت في عدم الاستقرار السياسي وانتشار الفتن والقلاقل في أرجاء عديدة من الدولة ، فقد صاحبتها ظاهرة أخرى على المستوى الفكري ، تجـسدت في تعـدد التوجهات والرؤى الفكرية للعلم السائد آنذاك وهو علم الدين أي القرآن والحديث ، وكـان ذلك يمثل بداية الطروحات الاجتهادية أو التحولات الكـبرى في الثقافـة الإسـلامية ، فقـد بدأ عهد جديد لا يعتمد على النص فقط ولكـن يفـسح المجـال للـرأي وإعمـال العقـل إلـي جانب النص سواء أكان نصاً قرآنياً أو حديثاً نبوياً ، من شأن هـاتين الظـاهرتين التـوأم أن تطرح على كاهل طالب العلم عبئاً ثقيلاً ، فعليه أن يحدد موقفه بالانتماء المذهبي ، ويبنى كافة مقوماته الفكرية على هذه الوضعية بمعطياتها السياسية والثقافية .

إن العصر الأموي بحق يعد هو التمهيد الحقيقي والفعلي الذي وسّد لتبلور الثقافة الإسلامية وازدهار نماذجها وأشكالها في العصر العباسي ، فإذا كان العصر الأموي هو عصر الإرهـاص

والقلق والمخاض بالنسبة للثقافة الإسلامية فإن العصر العباسي كان هو عصر الإفراز والإنتاج فيما يتعلق بتلك الثقافة بمعناها الصحيح .[1]

[1] . يمكن الرجوع إلي تفصيل ذلك في المجلد السادس ، المنطق الثقافي للإسلام – الثقافة الإسلامية ، الجزء الثاني : الخصائص - التطور - العلاقات .

المبحث الثالث

التعليـــم

التعليم في العصر الأموي تأثر بما تأثرت به مسألتا العلم والتعلم ، فقد كـان العلمـاء الـذين تولوا عملية التعليم في ذلك العصر إما من كبار الصحابة في أوله أو من أبنـائهم في وسـطه أو من التـابعين في آخـره ، وبـالرغم مـن مقـدرة هـؤلاء جميعـاً ومكـانتهم في المجتمـع ولـدى المتعلمين وطالبي العلم ، إلا أنهم لم يسلموا تماماً من روح التحزب الفكـري والمـذهبي الـتي بدأت تسري في أوساط العلماء والمتعلمين وطـالبي العلـم والـتي زرعـت بـذورها الانقـسامات السياسية التي انتهى بها عصر الخلافة الراشدة وبدأ بها العصر الأموي وهي ظهور الإسلام السياسي الذي قسم المسلمين إلي سنة وشيعة وخوارج وبينها فرق أخرى عديدة ! .

إن التقسيم الذي رسمه الإسلام السياسي موزعاً المسلمين إلي فرق متصارعة هدفها الوصـول إلي الحكم عبر إقناع الناس وإقرارهم بشرعيتها لم يكـن سياسـياً فقـط ، وانمـا كـان كـذلك تقسيماً فكرياً حيث حُكـم علـى المـسلمين وربمـا فُـرض علـيهم أن ينحـازوا أو يتحزبـوا في فصائل فكرية معينـة شـرعت منـذ تبلورهـا في صـياغة خطـوط فكريـة مـستقلة تتبنـى رؤى ووجهـات ذاتيـة في تفـسير وتحليـل الـتراث المرجعـي والـشرعي للأمـة المتمثـل في القـرآن والحديث .

فالفتنة الكبرى كانت أو بادرة للانقسام السياسي شكلاً والفكري جوهراً حول قواعد انتقـال الحكم بين أنصار الخليفة الراشد الثالث المقتـول غـدراً المطـالبين بالثـأر والخليفـة الراشـد الرابع الذي حاول التهدئة وجب الفتنة دون جدوى وكان ذلك هو منبع التشيع لعلي الإمام والخليفة الراشد ، ثم تطور الخلاف السياسي الفكري سريعاً إلي صـراع عـضوي تجـسد في موقعتين شهيرتين بين شيعة علي الخليفة الشرعي للمسلمين وبين أنـصار الخليفـة المقتـول

هما موقعة الجمل وصفين ، وكان من شأن هذا الصراع العضوي الدامي والمأساوي والذي لم يحدث من قبل بين المسلمين أن يضع حدوداً فاصلة وربما أبدية بين أفكار اللاعبين السياسيين التي اخترقت الجسد الفكري للإسلام وتحولت إلي رؤى وتوجهات فكرية نالت المرجعيات الإسلامية المتمثلة في القرآن والسنة ، وعلى أثر ذلك تبلور الفكر الشيعي في مقابل من حاولوا رأب الصدع ولم الشعث وإعادة الأمة إلي جادة الصواب والتمسك بالمنابع الأصلية وهي القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة والتي أُطلق عليهم أهل السنة والجماعة ، ومن بين أولئك وهؤلاء مرق جماعة سلكوا طريقاً ثالثة عُرفوا بالخوارج ، ومن ثم بدأت المدارس الفكرية في التبلور وكان لهذه المدارس في العصر الأموي أفكارها التي تراكمت فشكلت أرصدة من الأدبيات والطروحات التي وضعت الصياغات المذهبية والتراث الفكري لها ، وقد أنتج تلك الأفكار علماء على قدر يعتد به من الوعي والاقتناع بما ذهبوا إليه وما يدعون من أجله وفي ذات الوقت كان لتلك المدارس بعلمائها طلابها ومريدوها الذين تحمسوا لعلمائهم وتلقوا عنهم بشغف صاخب .

في هذا الجو المعبق بروائح التحزب الفكري والانقسام المذهبي كان العباسيون هم أيضاً يعملون في صمت على الصعيدين السياسي والفكري ، فقد انطلقوا من خراسان بدعوى عقيدية تشكك في شرعية دولة بنى أمية وتقدم الحجج والأدلة على أحقيتهم في الخلافة انطلاقاً من قاعدة شرعية تنتصب على قرابتهم من الرسول وآل البيت ، ولم يكن من الصعب عليهم والحال كذلك أن ينتهجوا سبيلاً فكرياً خاصاً بهم أضاف مذهباً جديداً إلي المذاهب الثلاثة المذكورة ، ولكنه ظل قلقاً ومؤقتاً إلي أن حقق هدفه في الوصول إلي الحكم ثم عاد ليعلن عن موقفه الحقيقي ووفائه للمذهب السني ويعلن ذلك صراحة .

لقد كان على العباسيين وهم في بداية دعوتهم العقيدية أن يقيموا حلفاً مع الشيعة العلويين وقد وافق الأخيرون ودخلوا في ذلك الحلف على مضض وهم يعلمون أنهم مخدوعون ولكن

مصلحتهم فرضت عليهم ذلك حتى يتمكنوا من تحقيق هدفهم الأساسي وهو تقويض الدولة الأموية والثأر للامام وآل البيت وبذلك اشترك العباسيون والشيعة العلويون في هدف واحد وهو القضاء على العدو المشترك ولو أن المواقف الفكرية والمناهج المذهبية ظلت ترفض الاتفاق أو التلاقي .

لقد تبلور إذن الإسلام السياسي بشكل نهائي وقاد إلي انشقاق الأمة الإسلامية سياسياً وفكرياً ويذكرنا التاريخ بمثال حي على ذلك الانشقاق بما يثير مفارقة جديرة بالاعتبار ، ففي حج عام ٦٨ هـ كان هناك زعيم من الخوارج وممثل للخليفة عبد الملك بن مروان وعبد الله بن الزبير الخليفة غير الرسمي وزعيم الشيعة محمد بن الحنفية !! وكان انعكاس ذلك واضحاً على العلم والتعلم والتعليم والعلماء ، ولكن تلك الأحداث والتداعيات تفرض على المحلل نتائج حتمية مفادها أن ذلك كان عصر التمهيد للتحولات الكبرى والطروحات التي أثرت الفكرة الإسلامية وشحنتها بالحيوية والحراكية ومنحتها سمة التأقلم والتكيف بحق وصدق مع الزمان والمكان !! .

وإذا انتقلنا إلي الحديث عن مؤسسات التعليم ودور الدولة في العصر الأموي فسنجد أن الكتّاب كان أول تلك المؤسسات ، والكتّاب هو أقدم مؤسسة تعليمية أهليه جماعية عرفها العرب على الإطلاق قبل مجيء الإسلام ، ويتسم الكتّاب بسمات منها أنه ذو طابع أهلي ، فهو إفراز لرغبة المجتمع في تقدير وتوفير العلم والعلماء والمتعلمين ، وتعبير عن الوعي الجماعي في الحفاظ على الموروثات الثقافية والأنماط الحضارية لذلك المجتمع ، كذلك فالكتّاب يتسم بسمة الشرعية فهو كتنظيم طوعي تطوعي يحوز على رضا المجتمع ويساهم في إقرار أوضاعه شبه التنظيمية ولو بشكل رمزي ، أيضاً فالكتّاب يتسم بكونه مؤسسة شبه تنظيمية أقر أطرافها والفاعلون فيها قوانينها وأعرافها بشكل اجتهادي واستقرت تلك الأعراف مع الزمن ، الكتّاب كذلك له صفة الجماعية فهو يعتمد على التعليم الجماعي ،

يُحدد مكان تلقي العلم فيه ، ونوعية العلم والأعمار السنية للمتعلمين وصفات المعلم الوعي الجماعي لدى المجتمع الذي تواتر على اعتبار ظاهرة الكتّاب موروث ثقافي وحضاري يحددها ذلك الوعي بشكل تلقائي ، يضاف إلي كل ما تقدم أن الكتّاب في العصور الإسلامية أصبح ضمن المؤسسات الاجتماعية التي تشملها صلاحيات الدولة وتمتد إليها رقابة ولي الأمر فقد أضحى الكتّاب يقع ضمن الاختصاصات الإشرافية والرقابية للمحتسب الذي يحدد الكثير من الأمور سابقة التبيان .

وصاحب الكتّاب ظاهرة أخرى انتشرت في المجتمع العربي والإسلامي وتختص بثالوث العلم والتعلم والتعليم وهي ظاهرة المؤدّب أو المعلّم الذي يختلف إلي البيوت لتعليم الصبيان والفتيات ، وهذه الظاهرة تختلف عن الكتاب في أمرين أساسيين : الأول : طبيعة المؤدب أو المعلم إذ ربما يكون أرقى درجة من معلّم الكتاب في العلم ، ولو أنه في بعض الحالات كان معلّم الكتاب يمكن أن يقوم بدور المؤدّب الذي يختلف إلي البيوت ، ولكن الأغلب الأعم أن المؤدب الأخير كان أكثر علماً من معلم الكتاب ، الأمر الثاني : الوضع الاجتماعي للمتعلم أو طالب العلم سواء أكان ذكراً أو أنثى إذ أنه يكون في المعتاد من الشرائح أو الطبقات الغنية التي تجزل العطاء مقابل اكتساب العلم .

أما عن مكان الكُتّاب وموقعه فذلك أمر له مغزاه في التاريخ والمجتمع الإسلامي ، ففي عصر الخلفاء كان الكُتّاب يحافظ على موقعه في المسجد وذلك لارتباط العلم بالدين تنظيماً وشعيرة إلا أنه لوحظ أن توافد الصبية على المسجد ومكثهم فيه لتلقي العلم يفقده وقاره ونظافته اللتين تعتبران من أهم خصائصه ومظاهره ، فكان اختيار أماكن الكتاتيب في مواقع قريبة مِن المسجد أو ملحقة به وفي ذلك ارتباط وجداني لدى الوعي الجماعي بين الدين والعلم ، وأن للعلم رمزه الشعائري الذي يمثله المسجد ، وسنجد أن هذا الوضع سيتجسد على

مستوى أعلى وأرقى عندما يتحول المسجد إلي جامعة وحِلَقه بمثابة كليات متخصصة في كافة أنواع العلوم الدينية والدنيوية ! .

وكان الكتّاب في العصر الأموي مؤسسة تعليمية يعتد بها ، وقد اشتهر في ذلك العصر الضحاك بن مزاحم صاحب كُتّاب الكوفة ، وكان يختلف عليه عدد كبير من الصبيان لتلقي العلم في شكل وجبات ، وقد انتشرت ظاهرة الكتاتيب كمؤسسات تعليمية في كافة أمصار الدولة الإسلامية في العصر الأموي .

وفيما يتعلق بمكان الكتّاب إضافة لما قدمنا دلت الشواهد التاريخية في العصر الأموي على أن الكتّاب كان يشغل مكاناً في منزل المؤدب أو المعلم أو تابعاً له بل يمكن القول أنه كان ضمن مسئولياته ، فهو الذي يحدد المكان بما يتوافق مع المتطلبات التي تناسب المجتمع سواء أكان قرية أو مدينة وهذه المتطلبات لا تخلو من مغزى حضاري .

وكان المحتسب في العصر الأموي يشرف على الكتّاب ويراقب العملية التعليمية ابتداءً من تحديد موقع الكتّاب وصلاحية المكان ثم صفات المعلم الأخلاقية والعلمية والاجتماعية ، فلابد مثلاً أن يكون صحيح العقيدة عاقلاً متديناً حافظاً لكتاب الله عارفاً بالقراءات ملماً بتفسير القرآن وألفاظه والحديث والخط العربي والأدب واللغة العربية وأن يكون متزوجاً ، وانتهاءً بطرق التعليم والتربية كأن يشترط على المعلّم أن يترفق بالصغير وأن يبدأ بتعليمه قصار السور بعد تعليمه حروف الخط العربي ، ثم يلقنه أصول الدين والعقيدة وبعض الأحكام وأصول الحساب مثل الجمع والتفريق والتقسيم ، ومبادئ الكتابة وإجادة الخط ، ويعلمه كذلك حسن الأدب والبعد عن السوء ليحسن الكلام وتوفير المعلم وما إلي ذلك من أصول التربية .

أما المؤسسة الثانية والمهمة من مؤسسات التعليم في العصر الأموي فقد تمثلت في المسجد ، فبعد أن يتلقى الصبي تعليمه الأولى الذي يختتمه عادة بحفظ كتاب الله وإتقان قراءته وفق إحدى القراءات المشهورة ويلم كذلك بتفسيره ثم بعدد لا بأس به من الحديث يدخل بعد ذلك المسجد حيث يترقى إلي مستوى أعلى من العلم ، والمسجد في الإسلام هو الجامعة التي تخرج فيها كافة علماء المسلمين بما فيهم صحابة الرسول الكريم ، وكان المسجد في العصر الأموي مؤسسة تعليمية مزدهرة حيث كانت بوتقة انصهرت فيها كافة التوجهات الفكرية التي برزت وأشرنا إليها في العصر الأموي .

إن ظاهرة المسجد الجامعة هي ظاهرة جديرة بالاعتبار والدراسة عند بحث مسألة العلم والتعلم والتعليم في الإسلام ، فالمسجد الجامعة برز منذ العصر الأموي حيث أصبح المسجد بمثابة جامعة يلحق بها طلبة العلم لتلقي العلوم المعمقة والمتجسدة في الدين أولاً درجة وتاريخاً ثم في علوم الدين ، ففي العصر الأموي غُصت المساجد الإسلامية الشهيرة : المسجد النبوي في المدينة المنورة ، ومسجد البصرة بالبصرة ومسجد الكوفة بالكوفة والمسجد الأموي في دمشق، ومسجد القيروان في تونس بحلق الدرس في العلوم المختلفة ولكنها اقتصرت في العصر الأموي على علوم الدين وعلوم اللغة .

ففي مسجد البصرة كانت حلقة الحسن البصري من أشهر الحِلَق في تاريخ العلم في الإسلام ، وقد زادتها شهرة حرية التعبير عن الرأي وحرية الاعتقاد والاعتداد بالرأي التي برزت في المناقشات والمطارحات التي جرت بين الحسن البصري وتلميذه واصل بن عطاء والتي انتهت باعتزال واصل حلقة أستاذه الشيخ ، ومن ثم بدأ مذهب المعتزلة وفرقته المشهورة ثم تصل المفارقة إلي مداها عندما يتوسط واصل بن عطاء حلقة الدرس أستاذاً ومعلماً لمذهب الاعتزال بمسجد البصرة بجوار حلقة شيخه وأستاذه الحسن البصري ، ألا يجدر بنا أن نتأمل عظمة هؤلاء الأفذاذ ! .

وفي مسجد الرسول الكريم بالمدينة المنورة اشتهرت حلقة سعيد بن المسيب التي كان يناقش فيها الشعر العربي وعلوم اللغة ، وفي المسجد الأموي في دمشق اشتهرت حلق الدرس في علوم التفسير والحديث والقراءات .

وعلى نفس هذا المستوى من التعليم برزت مرة أخرى ظاهرة التعليم الخاص لأبناء الأسر الغنية حيث كان يقوم العلماء والأدباء والفقهاء بتعليم أبناء الخلفاء والحكام وأصحاب الشأن من رجال الدولة والمياسير في منازلهم ، وكان للنساء حظ وافر من هذا النوع من التعليم إذ كان هو الأنسب للأنثى التي تجد صعوبة في الذهاب إلي المسجد ومزاحمة الرجال في حلق الدرس ، وإن كان الأمر قد تطور بعد ذلك في العصر العباسي وأُفسح مجال للنساء في حلقة مستقلة في مسجد عمرو بن العاص في الفسطاط في مصر في منتصف القرن الرابع الهجري .

نظراً للظروف التي عايشها المجتمع الإسلامي في العصر الأموي من اضطراب سياسي وعدم استقرار إضافة إلي انصراف قسط كبير من مجهودات الدولة الأموية إلي تجهيزات جيوش الفتح والاهتمام بنشر الدعوة فقد اقتصرت مؤسسات التعليم في ذلك العصر على الكُتّاب والمسجد ، على أنه يمكن إضافة صرامة النظام السياسي الأموي وشدته في كبت حركات المعارضة والخروج على النظام وحدة طباع الخلفاء الأمويين كعوامل قللت من فرص ازدهار العلم والتعلم والتعليم والمؤسسات العاملة في هذا المجال .

المبحث الرابع

العلوم الطبيعية

الحديث عن العلوم الطبيعية في العصر الأموي قد يضطرنا إلي الحديث عن جملة من السمات العامة والخصائص التي ميزت ذلك العصر ، وكان لها تأثيرها الفعّال في مسألة العلوم الطبيعية ومسائل أخرى كثيرة ترتبط بالعلم إجمالاً ، وتتمثل تلك الخصائص فيما يلي :

أول تلك الخصائص : أن الدولة الأموية بذلت جهوداً جبارة وحشدت مقدرات كبيرة لإقرار الأمن ونشر الاستقرار في ربوع الدولة الإسلامية ، وكان ذلك أمراً ضرورياً فرضته حركات التمرد والعصيان والخروج على الطاعة التي انتشرت في أماكن مهمة وأقاليم رئيسية من الدولة مثل خراسان والعراق والبصرة والمدينة المنورة ومصر وشمال أفريقيا .

ثاني تلك الخصائص : أن الدولة الأموية بجميع حكامها كانوا على قناعه كاملة بأن مهمتهم الأساسية تتمثل في استكمال ما بدأه الرسول الكريم وسار عليه الخلفاء الراشدون من نشر الإسلام في كافة البقاع والأرجاء ، وقد تطلب ذلك جهوداً إضافية اصطدمت بالجهود التي خصصت لإخماد حركات التمرد والثورة في أقاليم الدولة فضاعف ذلك من الأعباء الملقاة على عاتق حكام بنى أمية .

ثالث تلك الخصائص : أن المناطق التي يتم فتحها ونشر الإسلام فيها تظل في حاجة إلي إقرار الأمن في ربوعها وتأمين أهلها ، وقد أضاف ذلك عبئاً ثالثاً لأعباء الدولة الأموية – التي سبق وأوضحناها – وذلك يفسر الطبيعة العسكرية التي اتسمت بها الدولة الأموية وصرامة أنظمتها السياسية والإدارية وشدتها في التعامل مع أعدائها وحتى مع المجتمع الإسلامي .

رابع تلك الخصائص : أن الدولة الإسلامية في العصر الأموي أصبحت تضم في كنفها العديد من الأجناس مثل الفرس والرومان والبربر والزنج والأتراك وغيرهم ، ومن ثم أصبحت الدولة الإسلامية دولة متعددة الأجناس وتحتاج سياسة هذا الخليط من البشر إلي فنون تتنوع بين الشدة واللين ، إلا أن تلك الأجناس المتعددة الأهواء والمشارب كانت تطمح في قيم الإسلام وسماحته التي سمعت عنها ودخلت الإسلام على أساسها ، ولكنها لم تجد ذلك عند حكام بنى أمية فكان من السهل انقلاب هؤلاء على الدولة وانضمامهم إلي قائمة الأعداء التي باتت مزدحمة .

خامس تلك الخصائص : أن فن العمارة قد ازدهر في العصر الأموي على غير مثال سابق في عصر الخلفاء الراشدين ، وصاحب ذلك ازدهار فنون الهندسة والزخرفة وقد استلزم ذلك تخصيص مقدرات مالية كبيرة .[1]

سادس تلك الخصائص : أن حكام بني أمية قد اتجهوا إلي حياة الأبهة والفخامة ، وتخلو من حياة الزهد التي عاشها الخلفاء الراشدون ، وتدل آثارهم المعمارية على ذلك وما تحويه من مقتنيات ثمينة ، وقد زاد ذلك من الأعباء التي أثقلت كاهل أفراد المجتمع في الريف أو الحضر، فزادت الضرائب وردفتها المصائب التي أودت في النهاية بحياة الدولة .

سابع تلك الخصائص : أن حكام الدولة الأموية قد استعانوا في أخريات أيامهم بعناصر إسلامية غير عربية ثم بعناصر غير إسلامية وغير عربية في الخدمة لدى الدولة ، وقد كان لذلك آثاره السلبية على الأوضاع عموماً السياسي منها والاقتصادي والاجتماعي كذلك .

تُرى هل يمكننا الحديث بعد ذلك عن العلوم الطبيعية في هذا الجو الذي يسوده عدم الاستقرار والميل إلي العنف من قبل المجتمع ، ويقابله الحدة والصرامة من قبل الدولة

[1] . يمكن الرجوع إلي الجزء السابق ، العمران والمدنية .

والنظام وانعدام الثقة ، لنطرق باب البحث ونتابع الرحلة وننتظر النتائج ، وذلك من خلال الآتي :

- الترجمة :

الترجمة دوماً حلقة الوصل بين أصحاب الألسن والثقافات والحضارات ، وأداة التواصل بين الأمم والأجناس ، وقد اختلط العرب المسلمون خلال عصري الخلافة الراشدة والأموي بأجناس شتى وأمم ذات ثقافات وحضارات متنوعة ، فلم يكن أمام المسلمين من بدٍ إزاء هذا الحشد من التنوع الجنسي والثقافي والحضاري حتى يوصلوا دعوتهم وينشروا دينهم الذي جاءوا من أجله إلاّ أن يُلّموا بلغاتهم ويفقهوا مع ذلك بعض خصائصهم وطباعهم ويفهموا ولو قليلاً من موروثاتهم الثقافية والحضارية ، إذن فالمبادرة ملك العرب المسلمون زمامها وبات عليهم أن يعبروا حواجز اللغة والعادات والتقاليد حتى يصبحوا قادرين على الاندماج بتلك الأمم ونشر الإسلام .

إن العملية التي قمنا بوصفها نظرياً لم تكن سهلة ميسورة عملياً ، فهي تحتاج إلي مهارات خاصة في فهم اللغة ومهارات أكثر خصوصية في الغوص داخل أعماق النفس البشرية للأقوام الذين يتعامل معهم المسلمون ويرونهم لأول مرة ، ثم أن نشر الدعوة لم يكن بأقل سهولة مما تقدم بل كان أكثر صعوبة ، فهو يحتاج إلي الحكمة والرشد من خلال مداخل معينة ، ثم تقديم النموذج والقدوة في السلوك والنظام والتنظيم ، فأين للمسلمين بكل ذلك ؟ لقد بادر المسلمون وخطوا الخطوة الأولي وعبروا حواجز اللغة والثقافة والحضارة وأصبحوا مع المخاطبين بالدعوة الإسلامية وجهاً لوجه ، وبدأ التواصل بين أصحاب الرسالة والمخاطبين المستهدفين ، وحدث نوع من التلاقي ولربما العناق في كثير من الأحيان كانت نتائجهما مبهرة .

لقد كانت بالفعل نتائج اندماج المسلمين مع الأمم والأقوام الأخرى وتوصيل دعوتهم مبهرة ، ولكنها في ذات الوقت كانت غير مريحة ، فالعرب يريدون ولديهم تصميم على ذلك أن يحتفظوا بعنصرهم خالصاً نقياً لا تشوبه شائبة من جراء ذلك الاختلاط ، فكان الاختلاط لذلك مشوباً بالحذر ، إلا أن العرب لم يفلحوا دائماً في تحقيق هدفهم في الحفاظ علي عنصرهم نقياً خالصاً ولولا ذلك الإخفاق والفوضى الجنسية والاختلاس العنصري لما ظهرت إلي الوجود العرب المستعربة .

إذا كان ما تقدم هو نهج العرب المسلمين خلال عصري الخلافة الراشدة والأموي لنشر الإسلام في كافة الأرجاء التي وصلوا إليها فكيف كان نهج المخاطبين بالدعوة ، لقد كانوا أشتاتاً ، فكبار القوم معظمهم فرّ هارباً وقليلهم آثر الدخول في الإسلام ولو على مضض ، أما العموم فدخلوا إلي الإسلام ظناً منهم أنه لابد أن يكون أحسن حالاً مما كانوا فيه تحت الكبراء المستبدين إلا أن الظن سرعان ما استحال إلي حقيقة .

على أية حال لقد أصبح الجميع مسلمين وتساوى في الإسلام من حمل الدعوة وأوصلها ونشرها ومن تقبلها وأقبل عليها وبقى أن يعرف كل طرف عن الآخر كل شيء وجاء دور الترجمة ، فكان القرن الأول الهجري وكذا منتصف الثاني يمثلان مرحلة الاختلاط ولا نقول الاندماج ثم التعارف وكانت الترجمة هي لغة ذلك الحوار ، وللترجمة في هذا السياق معنيان ومضمونان وهدفان ، المعنى والمضمون والهدف الأول هو ما يقصده غيرنا ممن درس تاريخ الحضارة الإسلامية ، وكان ينظر إلي الترجمة على أنها ترجمة علوم وثقافات وحضارات الآخرين سواء أكانوا سابقين أو معاصرين ، ولابد لهذا الغير أن يخرج من العصر الأموي ومن عصر الخلافة الراشدة خالي الوفاض صفر اليدين لأن ما يريده لن يتحقق في هذين العصرين ، أما المعنى والمضمون والهدف الثاني وهو ما نقصده نحن فهو أن الترجمة في العصرين المذكورين كانت تعمل في اتجاه آخر غير اتجاه العلوم وهو اتجاه

العادات والتقاليد والتنظيمات وهو ما يرسخ وضعية الدولة الجديدة داخل تلك المجتمعات ويمكنها من إفراز نماذجها الثقافية والحضارية وهذه المرحلة للترجمة في غاية الأهمية للتمهيد للمرحلة التالية وهي التي أرادها الآخرون سريعاً والخاصة بترجمة العلوم .

وبالرغم مما قدمنا يمكن التأكيد على اهتمامات أولية من الأمويين بالترجمة في مجالات العلوم وبصفة خاصة في مجالي السيمياء والطب ، ففي المجال الأول ثبت أن خالد بن يزيد حفيد معاوية بن أبي سفيان كانت له اهتمامات بالعلوم الخاصة بتحويل المعادن العادية إلي ذهب وفضة ، ولا يمكن أن ينفي أو يقدح في تلك الميول والاهتمامات ما نسب إلي خالد بن يزيد من كتب في السيمياء ثبت أنها منحولة ، ولعل تلك الاهتمامات والميول هي السبب في أن تنسب إلي بن يزيد تلك الكتب استثماراً لميوله واهتماماته .

وفي فترة حكم مروان بن الحكم بُذلت جهود في مجال الترجمة الطبية ، إلا أن هذه الجهود قد طُمرت في جو التعتيم الذي خيم على النشاط العلمي والمعرفي عموماً في العصر الأموي .

إلا أن مجهودات عمر بن عبد العزيز في مجال الطب كانت هي الأوضح والأشهر في العصر الأموي فقد اعتمد عمر بن عبد العزيز على عبد الملك بن أبجر في الطب ، وكان بن أبجر من علماء مدرسة الإسكندرية وقدم مجهودات علمية في الطب بين التأليف والترجمة كما كان الطبيب الخاص للخليفة وأسرته نظراً لشهرته في هذا المجال .

كذلك قام عمر بن عبد العزيز بنقل تدريس الطب من الإسكندرية إلي كل من حرّان وإنطاكية في عام ١٠٠ هـ وقد كان ذلك مقدمة الاهتمام بالمشرق على حساب المغرب حيث كانت كل من حران وإنطاكية من المراكز الثقافية الناشطة في الوقت الذي فقدت الإسكندرية شهرتها التي أحرزتها في عصر الخلافة الراشدة وولاية عمرو بن العاص على مصر .

- الطب والعقاقير :

مما لا شك فيه أن الطب والعقاقير كعلمين كان نشاطهما في العصر الأموي ابرز منه في عصر الخلافة الراشدة ، وذلك لأكثر من سبب، السبب الأول أن التعامل مع الطب والعقاقير كعلوم كان قد بدأ يأخذ طريقة في العصر الأموي من خلال أطباء معروفين باهتماماتهم العلمية وانتمائهم إلي موروثات علمية تنتهي إلي الساسانيين أو الإغريق الأقدمين ومثالنا في ذلك هو عبد الملك بن أبجر الذي قدمنا له ، السبب الثاني أن ثمة مراكز علمية في مجالات الطب والعقاقير كان لها شأنها في ذلك العصر بدأت من الإسكندرية ثم انتهت في حران وإنطاكية وكانت تمثل مدارس يعتد بها في ذلك الوقت ، السبب الثالث أن الطب والعقاقير كانا بالإضافة إلي ما تقدم يمارسان كمهن لها أهميتها لدى الأسرة الحاكمة والمجتمع وبرزت أهميتها أكثر فيما يتعلق بجيوش الفتوحات وما تتطلبه من أطباء وممرضين لعلاج الجرحى والمرضى من المقاتلين التي انتشرت في أكثر من اتجاه .

- الجغرافيا :

تطورت الجغرافيا في العصر الأموي مترتبة على أساسياتها التي ارتكنت عليها في عصر الخلافة الراشدة ، إلا أن الفتوحات الإسلامية التي تمت في العصر الأموي وأدت إلي اتساع أجزاء الدولة وامتداد أقاليمها شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً جعلت من الجغرافيا بالنسبة للمسلمين اقرب إلي الفن الذي يكتسب بالخبرة والدربة والممارسة ، فقد وصل المسلمون شرقاً إلي شواطئ الهند والصين وشمالاً وصلوا إلي موسكو الحالية ومنطقة البلقان وجنوباً وصلوا إلي أواسط أفريقيا جنوب الصحراء والشاطئ الشرقي من أفريقيا وغرباً وصلوا إلي المحيط الأطلنطي ، هذا الامتداد في الاتجاهات الأربع الذي تم من خلال حركة الجيوش الإسلامية التي لا تهدأ جعل المسلمين يجوبون تلك المناطق ويحددون معالمها ومظاهر السطح وظواهر الجو فيها ، وتراكمت خبرتهم إلي أن برزت بعد ذلك في العصر

التالي في شكل تنظيرات كان لها السبق في علم الجغرافيا إضافة إلـي مجهـوداتهم الواعيـة التي صححت ما وضعه الأولون في هذا العلم .

وتفاعل المسلمون بشكل جيد خلال العصر الأموي مع الأمم التي دخلت إلـي الإسـلام فيمـا يتعلق بالمعارف الجغرافية وبالذات الفرس ، ولم يفرز ذلك التفاعل نتاجات علميـة مباشرة بل انصب في مراحله الأولى على الاطلاع والمعرفة والدراسة ثم أثمر النتاجـات العلميـة الـتي جاء معظمها في العصر العباسي .

لقد برع المسلمون منذ وقت مبكر فيما يعرف بالجغرافيا الفلكية ولعل " أقدم الرسوم الفلكية هي تلك التي تمثل دائرة البروج والتي وجدت في مبنـى أثـري أمـوي يعـرف باسـم (قـصير عمره) حوالي ٩٣ — ٩٧ هـ " .

أما فيما يتعلق بالجغرافيا الوصفية فقد قدم المسلمون منذ عصر الأمـويين مـا يفيـد في معرفـة البلدان والمناطق والأقاليم ، قـدموه بوصـفهم رحالـة أو حجـاج أو تجـار أو دعـاة ومبـشرين بالإسلام أو بوصفهم طالبي علم .

— التاريخ :

التمحيص في تاريخ الدولة الأموية والتركيز علـى اسـتخلاص مـا يمكـن أن يـسمى بالتوجـه التاريخي لدى المسلمين في تلك الفترة يؤدي بنا إلـي نتيجـة مفادهـا أن الكتابـة التاريخيـة جاءت متداخلة مع الجغرافيا الوصفية في تاريخ البلاد الإسلامية المختلفة وكذا المجتمعـات الإسلامية التي دخلها الإسـلام حـديثاً ، فبـالقطع لم تـصلنا وثـائق يمكـن الاسـتناد إليهـا للتـدليل علـى ازدهـار الكتابـة التاريخيـة في العـصر الأمـوي ، ولكـن تحليـل الأحـداث والتطورات التاريخية التي تواتر حدوثها في ذلك العصر وحتى العصر الذي سـبقه يمكـن أن يفيد في هذا السياق ، فالمسلمون الذين كـانوا بـصحبة الجيـوش الإسـلامية كـانوا يـسجلون

معلوماتهم عن البلاد والأماكن والشعوب التي يمرون عليها ، أما عندما يستقرون في المجتمعات الإسلامية الجديدة فهم يبحثون في تاريخ تلك المجتمعات من كافة نواحيه الحضارية والثقافية والأنثروبولوجية .

بالرغم من أن الكثير لم يذكر عن تلك الأدبيات التاريخية في العصر الأموي إلا أنها كانت ضرورية لعملية التفاعل المتوقعة بين الفاتحين والشعوب المخاطبة بالدعوة الإسلامية حديثة الإسلام ، كما كانت ضرورية كذلك للدولة الإسلامية وهي بصدد وضع الترتيبات التنظيمية لإدارة البلاد الجديدة .

الفصل الخامس

العلم والتعلم والتعليم

والعلوم الطبيعية وتطبيقاتها

في العصر العباسي

ثم نصل إلي عصر النضج والتحاور والتفاعل والعطاء ، العصر الذي قُدّر للحضارة الإسلامية أن تحمل فيه كافة الخصائص السابقة ، فقد نضجت مقومات تلك الحضارة وأصبح لـديها المقدرة على التحاور مع الآخر والتفاعل بين قيم الآخر والممتلك الذاتي ثم إفراز النتاج الـذي يبدو ذو طبيعة خاصة ومميزة بالرغم من أنه صهر قيم الآخر وممتلكاته في بوتقتـه ، ويـأتي هذا الفصل في خمسة مباحث على النحو التالي :

المبحث الأول : خصائص العصر العباسي .

المبحث الثاني : العلـــم .

المبحث الثالث : التعلـم .

المبحث الرابع : التعليم .

المبحث الخامس : العلوم الطبيعية وتطبيقاتها في العصر العباسي .

المبحث الأول

خصائص العصر العباسي

يحتاج هذا العصر قبل السفر إليه والانغماس في مكوناته وتفاعلاته والبحث في قضايا العلم والتعلم والتعليم والعلوم الطبيعية وتطبيقاتها أن نحدد جملة من الخصائص تعد مدخلاً إليه ووسيلة تنقلنا إلي تلك المكونات والتفاعلات التي عج بها في هدوء وألفة حتى نتمكن من البحث في ثقة وتمكن ، ونتناول تلك الزُمرة من الخصائص فيما يلي :

طبيعة الحكام .. جبلة أم مجاراة للعصر :

أول خصائص العصر العباسي تتمثل في الطبيعة الخاصة للأعم الأغلب من حكامه ، حيث اتسمت تلك الطبيعة بالجمع بين خصال التدين والحفاظ على روح الإسلام والنظرة المشرقة المتفائلة وربما المفرطة في الاستمتاع بزخارف الدنيا ومتاعها ، وهذه الطبيعة المركبة والتي تبدو متناقضة أحياناً وزعت المحللين لتقسيمات وطبائع الحكام العباسيين إلي قسمين : القسم الأول الذي اعتقد أن جبلة الحكام العباسيين وطبيعة تكوينهم هي التي حكمت عليهم بأن يعيشوا حياتهم التي كانوا عليها ، القسم الثاني الذي رأى أن وضعية العصر الذي عاش فيه هؤلاء الحكام وطبيعته التي ارتسمت بناءً على معطيات معينة هي التي فرضت عليهم أن يعيشوا في فرجة من الحياة وبحبوحة من العيش والدعة ، إلا أن الواقع التاريخي والمجتمعي وحتى الشخصي لهؤلاء الحكام يفرض علينا منحاً آخر في التحليل إذ أن ذلك الواقع يرفض منطق الأحادية في التحليل أي يرفض التحليل المرتكز على منهج أحادى الجانب ، ويرى أن متغيرات عدة ومعطيات شتى هي التي فرضت على حكام بنى العباس أن يُقبلوا على الحياة برغبة فيها وفي ملذاتها بل ويتكالبوا عليها وتبعهم الكثيرون من أفراد المجتمع حتى أخذت الحياة جميعاً هذا النمط وأصبح من سماتها ، فطبيعة

الحكـام وطبيعـة أفكـارهم عـن الحكـم والعلاقـة بـالمحكوم وسياسـة الأمـور وبـالرغم مـن مرجعياتها التي صورها البعض على أنها شرعية بـررت لهـم أسـلوبهم في الحيـاة وسـوغت تصرفاتهم حتى اقبلوا عليها دون وجـل ، وكـذلك الظـروف الاجتماعيـة والتطـورات الـتي طرأت على المجتمع عندما انتقل من الوضعية الجامدة الحادة المنصرفة إلي اتجاه واحد هو نشر الدين والدعوة إلي وضعية المجتمع المدني بكل معنى الكلمـة كـان لتلـك النقلـة فعلـها المؤثر على الحاكم والمحكوم معاً ، وهكذا ساهمت كافة الظـروف مـن اجتماعيـة وسياسـية وحتى اقتصادية في تغيير وتيرة الحياة والنمط الفكري والعقلي عند الناس .

انتهاء الفتوحات وتشكل المجتمع المدني :

بسقوط دولة بنى أمية خفتت الروح الكفاحية للإسلام المتجه نحـو نـشر الـدعوة الإسـلامية عن طريق وسائل الصراع العضوي فيما يتعلـق بمـسألتي الحمـل والتوصـيل ، وبـذا لم يعـد الإسلام قوة ديناميكية مبادرة بالفعل والسلوك بل أصبح قوة هادئـة يميـل لأن يكـون دائمـاً الراد للفعل ، أي تحول من القوة الفاعلة الفعّالة المحركة للأحـداث إلـي قـوة مفعـول بهـا وترد عن نفسها فقط أفعال وتصرفات الآخرين الموجهة نحوها ، ولكن القوة الفعّالة للإسلام تحولت من الصراع العضوي إلي صراع من نوع آخر تحولت إلـي الفعاليـة والديناميكيـة في الصراع الفكري والعقلي والذهني وهنا شرع المسلمون في ترسيخ أركان المجتمع المدني بمعناه الشامل المتكامل .

إن تشكل المجتمع المدني بالمعنى المـشار إليـه سـاهم في إثـراء الحيـاة الفكريـة والعقليـة في اتجاهات شتى وإثراء البحث والتنقيب في المجهول ليس حباً للفضول فقط ولكن انبعاثاً من التحريض والحث التي تزخر به المرجعيات ، كذلك مثّل تـشكل المجتمـع المـدني في ذات الوقت قوة ضغط مؤثرة على الحكام ومن في حكمهم لكي يـسيروا في تيـار الانفتـاح الفكـري والعقلي حتى بات نمطاً من أنماط الحياة ، والتقي المجتمع مع صناع السياسة حول مغزى

مشترك ومضمون موحد لحركة الفكر وإعمال العقل وسار الجميع في ذلك التيار إلي نهايته فكانت نتائجه مبهرة للعالم وللتاريخ منذ ذلك العصر وحتى الآن .

والسؤال الذي لا ينبغي أن يغيب عن أي مسلم سواء أكان قارئاً أو محللاً هو هل كانت الفتوحات الإسلامية والروح الكفاحية للإسلام من أجل الانتشار — كما هو باد من التحليل المتقدم — تؤدي إلي كساد الفكر وركود العقل ؟ أم أنها حولت الجهود بكافة أشكالها الذهنية والفكرية والعقلية والمادية الاقتصادية من أحد مناشط الحياة إلي منشط آخر وتبع ذلك تحول في شكل المجتمع وطبيعته ؟ .

في حقيقة الأمر أن هذا السؤال يبدو في غاية الأهمية ، كما أن الإجابة عليه لا تقل عن ذلك ، وقد أدى هذا التساؤل بالفعل إلي خلط وتشويش لدى البعض ، وحتى من أصحاب الرأي والمتخصصين ، فقد كادوا أن يجزموا بأن الفتوحات الإسلامية كانت سبباً في حدوث نوع من الابتسار في مجالات الفكر والتأمل والبحث بكافة أشكالها الفلسفية والعلمية ، ولو أنهم في الواقع لم يذكروا ذلك صراحة ، ولكنهم قدموا النتائج والشواهد ولم يغوصوا وراء الأسباب ليفسروا الظاهرة تفسيراً صحيحاً يجب اللبس ويمنع سوء الفهم .

إن الحقيقة التي ينبغي أن تذكر للإجابة على هذا السؤال أن المجتمع الإسلامي كان في عصر الفتوحات الإسلامية التي تشمل عصر الخلافة الراشدة وعصر الأمويين أكثر حيوية ونشاطاً وفاعليــة في الأحداث والتطورات فكان الصانع للأحداث والمصرّف للأمور في مساحة شاسعة من الأرض والمتحكم في مصائر زمرة من الشعوب والأمم متباينة الثقافات والحضارات ومتنوعة المشارب والأهواء ، لقد قطعت جيوش الفتح الإسلامية طيلة العصرين هذه المساحة الجغرافية طولاً وعرضاً ، وقدمت للشعوب والأمم يد العون والإنقاذ من نير الاستبداد وهوان الاستعباد بالعبودية لغير الله ، لقد بذل المجتمع الإسلامي في ذلك طاقات جبارة وقدم مقدرات عظيمة كانت هي الركيزة والأساس للإسلام حتى يومنا هذا ، وعندما

قنع المسلمون بما حققوه من انتشار للإسلام والدعوة الإسلامية ، كان على تلك الطاقات والمقدرات أن توجه إلي منشط آخر فكان النشاط الفكري والعقلي هو الأنسب لاحتواء الطاقات واستثمار المقدرات ، وتحولت كفاحية الإسلام من أجل الانتشار والامتداد إلي كفاحية من أجل بناء صروح ومقومات الحضارة الإنسانية على أسس علمية وعقلية وفكرية ، وهذا ما حدث في العصر العباسي ، فالإسلام في كل عصر كان عنصر خلق وإبداع ، فالأول بأن يرسخ وجوده ويعضد أركانه في الجغرافيا والبشر ، والثاني بأن يبنى حضارته ويؤسس مدنيته في العقول وسجلات التاريخ .

الرصيد السابق :

لا مراء في أن العصر العباسي استفاد من الرصيد الذي تركته العصور الثلاثة المتقدمة والتي بلغت قرناً وثلاثة عقود ، وربما يرى المتابع أن ذلك الرصيد قد سار في اتجاه واحد فقط هو اتجاه الانتشار الجغرافي والبشري من خلال الفتوحات الإسلامية - التي سبق مناقشتها - ، إلا أن تلك الرؤية ضحلة وخادعة ، فالرصيد الذي تراكم بفعل العصور الثلاثة التي سبقت العصر الأموي لم تقتصر على الجغرافيا والبشر ، ولكنها مهدت العقول والأفكار للانتقال وشيك الوقوع إلي طور آخر من الحياة تزدهر فيها الحضارة وتينع المدنية المترتبة على إفرازات العقل وإبداعات الفكر ، فكان عصر الخلافة الراشدة والعصر الأموي مقدمات وضعت فيها أسس وقواعد الكثير من العلوم التي برزت وأينعت في العصر العباسي ، وذلك عينه ما تحدثنا عنه باستفاضة فيما سبق .

البحث في الذات ومحاولات إثرائها :

بعد أن قدّر للمسلمين أن يثبتوا أسس وقواعد المجتمع المدني كان الإجراء التالي هو البحث عن الذات التي تتمثل في مرجعيات شرعية ، وكان السؤال التالي هو المطروح في ذلك

الوقت : كيف يمكن استنباط تلك الأسس والقواعد من المرجعيات الشرعية المتمثلة في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، ولم يكن ذلك السؤال وليد العصر العباسي ، بل إن ذلك السؤال كان قد أثير في كل عصر من العصور الثلاثة التي سبقت العصر العباسي ، وأجيب عنه في كل عصر بمقدار ، لقد أثير ذلك التساؤل في عصر النبوة الزاهر وأجاب عليه الرسول الكريم بنفسه حيث تولى صلى الله عليه وسلم بناء المجتمع الإسلامي الأول الذي بُني على وثيقة المدينة المنورة ، وفي عصر الخلافة الراشدة أثير هذا التساؤل مرة أخرى وأجاب عليه الخلفاء الراشدون الأربعة ، كلٌ بما تيسر له وساهم كل منهم في بناء المجتمع الإسلامي بقدر ما وسعه أن يستنبط من المرجعيات الإسلامية ، وفي العصر الأموي أثير التساؤل مرة ثالثة وكانت إجابة خلفاء بنى أمية ذات خصوصية تواءمت مع طبيعة دولتهم وأهدافهم وساهموا هم أيضاً في بناء المجتمع الإسلامي قدر طاقتهم ، أما في العصر العباسي فكان السؤال أكثر إلحاحاً وكانت الإجابة هي البحث في الذات بشكل أعمق وأكثر عمومية وكانت هناك محاولات جادة من أجل إثراء تلك الذات بوسائل وأدوات شتى ستتضح بعد قليل .

التحاور مع الآخر وتقييم ممتلكاته ونتاجاته الفكرية والعقلية :

البحث في الذات الذي قام به المسلمون منذ إنشاء الدولة الإسلامية في المدينة المنورة وحتى العصر العباسي موضع التحليل تم في اتجاهين : الاتجاه الأول بدأ منذ قيام الدولة — وقد سبق وقدمنا له — وهو البحث في الذات التي تمثل المتلك الخاص وهي المرجعيات الشرعية المتمثلة في القرآن والسنة ، الاتجاه الثاني ، ويمكن القول أن هذا الاتجاه بدأ منذ ازدهار الفتوحات الإسلامية في خلافة عمر بن الخطاب ، ولكن بشكل مضمر ولا يمثل ظاهرة مستقلة وواضحة في التراث الإسلامي ، ومن ثم لم تعول عليها الدراسات التي تعرضت لتلك الفترة من التاريخ الإسلامي ، ثم بدا ذلك الاتجاه واضحاً في العصر العباسي

، وذلك كان البحث في ممتلكات الآخر سواء الموروثات الثقافية والحضارية أو العادات والتقاليد والأنساق القيمية الحياتية .

إن البحث في ممتلكات الآخر – كما ذكرنا لتونا – قد بدأ مع انفتاح المسلمين على أقوام آخرين مع الفتوحات الإسلامية التي شهدت أوج قوتها وتقدمها في عصر الخلافة الراشدة ، ثم بلغت مداها في العصر الأموي ، وقبل الحديث عن الاتجاهين اللذين سار فيهما البحث في ممتلكات الآخر نود أن نشير إلي أن ذلك البحث قد جاء في منطلقات متتابعة ومتدرجة بدأت بالتفتيش والتنقيب في ممتلكات الآخر ثم تقييمها من خلال مواءمتها ومضاهاتها مع الأنساق القيمية الخاصة التي تمثل سمة الذاتية والخصوصية الإسلامية والنابعة من المرجعيات الشرعية الإسلامية وانتهت بعملية فرز واختيار لما يتفق مع الذات الإسلامية .

أما عن مسارات البحث في ممتلكات الآخر فقد ارتسمت في مسارين : المسار الأول أخذ اتجاه الموروثات الثقافية والحضارية والعادات والتقاليد والأنماط الحياتية والأنساق القيمية للشعوب التي دخلت الإسلام حديثاً واختلط بها المسلمون في المناطق والأرجاء المختلفة ، المسار الثاني اتجه نحو التراث العالمي الذي وقف عليه المسلمون لدى تلك الشعوب أو نقبوا عنه في منابعه الأصلية ، وعندئذ بدأت عملية تحاور غاية في الروعة والإبداع سنرى نتيجتها حالاً . .

التفاعل والنتاج :

كانت خاتمة التحاور الذي بدأ منذ بداية الفتوحات الإسلامية أن اندمج المسلمون في عملية تفاعل وتعاطي واسعة النطاق وصلت مداها في العصر العباسي مع ممتلكات الآخر بالوصف المتقدم ، وقد تمم ذلك التفاعل إفراز أو دفق هائل من النتاجات أخذت شكلين : الشكل

الأول : الطروحات الثقافية حيث افرز العقل الإسلامي إسهامات إنسانية على درجة عالية من النضج والإبداع تناولت كافة مناحي الحياة والمجتمع حيث اختلطت فيها ثلاثة عناصر : العنصر الأول كان المرجعيات الإسلامية الأساسية المتمثلة في القرآن والسنة ، العنصر الثاني كان ما وقع عليه الاختيار من التراث العالمي الإنساني والموروثات الثقافية والحضارية والعادات والتقاليد والأنماط الحياتية والأنساق القيمية للشعوب التي دخلت الإسلام حديثاً ، العنصر الثالث : الإسهامات الذاتية والإفرازات الخاصة للعقل المسلم وعُرف هذا المزيج بالثقافة الإسلامية ، وسوف نتناوله في موقعه الخاص تحت عنوان المنطق الثقافي للإسلام أي الثقافة الإسلامية .

الشكل الثاني : الإنجازات العلمية التي افرزها الذهن المسلم وكانت نتاج للتراث الإنساني العالمي مع الملكات والإبداعات العلمية الناتجة من قريحة العقول الإسلامية ، وقد جاءت تلك الإنجازات في نماذج شملت : مراجعات وتقييمات وتعديلات وتصحيحات لما جاء في التراث الإنساني العالمي ، ثم تتمات لذلك التراث في صورة مكتملة وصحيحة تواكب العصر ومتغيراته ومستجداته ، ثم إبداعات انفرد بها العقل المسلم على غير مثال سابق ، وهذا ما سوف يكون محلاً للدراسة في البحث في هذا المبحث والذي يليه .

المبحث الثاني

العلـــــم

لقد أصبح في مقدرونا أن نتحدث عن العلم ونتناوله في العصر العباسي على أنه يشمل علمي الدين والدنيا ، وكان العصر العباسي من الامتداد الزمني بما يكفل تطور المدركات الأساسية لكل من العلم والتعلم والتعليم والعلوم الطبيعية وتطبيقاتها داخل ذلك العصر ذاته وبما يلحق بها العديد من التعديلات والتبديلات الجوهرية وغير الجوهرية ، وبما يدخل عليها مؤثرات خارجية عديدة ومتنوعة نتيجة بروز المؤثرات الخاصة بالموروثات الثقافية والحضارية للشعوب والأمم التي انضوت تحت لواء الإسلام والتي اتسم بها ذلك العصر ووصلت فيه إلي ما يشبه الاستقلال الفعلي ، وقد تناولنا ذلك في مواضع سابقة ، فقد امتد العصر العباسي من عام ١٣٢ هـ وحتى عام ٦٥٦ هـ ، وقد مثلت هذه القرون الخمسة زهرة الحضارة الإسلامية ، فازدهرت مقومات عديدة من مقوماتها ، وقدمت للإنسانية ما برهن وسوف يظل شاهداً على أن الإسلام يملك ذاتاً حضارية لها قدرها .

ولعله من سمات العصر العباسي التي ينبغي الإشارة إليها بمزيد من التأكيد أنه لم يعد هناك تداخل أو تشابك وتعقيد محير بين العلم الديني والعلم الطبيعي ، فقد برز كل علم بشكله المميز وأهدافه الواضحة ، ولكن في ذات الوقت ما لا ينبغي التغافل عنه دوماً أنه بالرغم من ذلك الاستقلال والتميز لكل علم من العلوم إلا أن العلم الطبيعي لدى المسلمين يظل يتحرك في إطار من الأخلاق والقيم ذات المسحة الدينية التي لا تجعله يبدو أبداً علماً مادياً دنيوياً مجرداً ، وهذا هو الفارق الجوهري الذي كان وسيظل أهم سمات العلم الطبيعي في الحضارة الإسلامية ويميزها عن غيرها من الحضارات وبصفة خاصة الحضارة الغربية التي أقامت صرحها العلمي على إفرازات ونتاجات الآخر سواء كان من المسلمين أو

ممن سبقهم ، ثم أطلقت له العنان ليمتد سامقاً في الآفاق لا كابح لجماحه من قيم ولا مهدئي لروعه من أخلاق .

كذلك من الأمور المهمة الجديرة بالإيضاح في هذا الموضع أننا لابد أن ننقل الحديث عن العلوم الدينية إلي موضع آخر وهو المتعلق بالثقافة الإسلامية إذ أن تلك العلوم إضافة إلي الطروحات التي أفرزها المسلمون بشكل غزير في العصر العباسي لترتيب شئون الحياة وإبراز النظام الاجتماعي الإسلامي المتكامل والقويم يمثلان معاً قوام الثقافة الإسلامية التي بزغت بشكل مكتمل وأعلنت عن نفسها بوضوح بعد أن كانت بمثابة إرهاصات غير واضحة المعالم عجّ بها واضطرب عصر الخلافة الراشدة والأمويين .

إن المساحة المشتركة بين العلم الديني والعلم الدنيوي أو الطبيعي كانت إحدى السمات المميزة للعصر العباسي ، وقد ظهرت هذه المساحة المشتركة أو المتداخلة بشكل واضح في المقدمات الدينية أو الشرعية لكثير من العلوم الطبيعية ، وظهرت كذلك في كتابات العلماء الموسوعيين التي انصرف بعضها إلي علوم الدين ، ويمكن القول أن هذه المساحة المتداخلة هي بمثابة تخفيف من حدة التداخل التام الذي وصل إلي درجة التوحد بين العلوم ذات الطبيعة الدنيوية والعلوم الدينية حيث كان من الصعب فصل الأولى عن الثانية .

ولعل التمييز شبه الواضح بين العلوم الدينية والعلوم الدنيوية [الطبيعية] الذي كان سمة مميزة للعصر العباسي ليعد مؤشراً مهماً على اهتمام المجتمع حكاماً ومحكومين بعلم الدنيا ورغبة الطرفين المشتركة في بناء الحضارة والمدنية ، وهنا تجدر الإشارة إلي أن الحكام العباسيين وكذلك المجتمع صرحوا بتلك الرغبة وطوروها إلي واقع وسلوك ، أما في العصر الأموي فلم يصرح الحكام بتلك الرغبة بالرغم من وجودها وبالرغم من انعكاسها في سلوكهم في أشكال الأبهة والفخامة وحياة البذخ التي تشهد عليها آثارهم المروية والحفائرية ، وكذلك لم يصرح بها المحكومين نتيجة الضغوط التي عاش فيها المجتمع الإسلامي في

العصر الأموي بسبب كثرة الصراعات وحركات الخروج على النظام وكذا بسبب انصراف الناس إلي الدعوة ونشر الدين .

أبدى الحكام العباسيون اهتماماً ملحوظاً بالعلم بشقيه : علم الدين وعلم الدنيا ، فأما علم الدين فقد اهتموا به انطلاقاً من كونه يلعب دوراً مهماً في تبرير شرعيتهم التي بنوها على قرابتهم من الرسول وأحقيتهم في الحكم التي أسسوها على ذلك ، وبالرغم من النظرة الذرائعية في ذلك التوجه الذي أبداه حكام بنى العباس إلا أنهم استقطبوا عدداً كبيراً من العقول الإسلامية في مجال علوم الدين ، وفي ذات الوقت لابد من التأكيد على أن هناك عدداً من هؤلاء الحكام كانوا قد اقبلوا على العلوم الدينية وحثوا على البحث فيها والإجادة بصدق وإخلاص وسجلت نتائج مسعاهم مكتسبات تاريخية للثقافة الإسلامية التي ازدهرت وأينعت بسبب ذلك بشكل لم يسبق له مثيل ولم يتكرر بعد ذلك ، وهذا ما سوف نبحثه تفصيلاً في موضعه ، وأما علم الدنيا فقد صادف في نفوس الحكام العباسيين هوى ورغبة ، فهو يلتقي بل ويتعانق مع ما لديهم من رغبة في الحياة وإقبال على زخارفها وملذاتها ، وهذا الاتجاه قد أوجد بعداً في الحضارة الإسلامية بدأ بالسير فيه حكام بنى أمية وتبعهم بشكل صريح وواضح حكام بنى العباس وهو البعد المتعلق بحب الدنيا والإفراط في الاستمتاع بمباهجها على عكس المبادئ التي سار عليها الخلفاء الراشدون ورسم أصولها الرسول الكريم وهي مبادئ الزهد والبساطة ، وبالرغم من أن العلوم التي ازدهرت في زمن العباسيين وبسبب رعايتهم لها ليست كلها تسير في هذا الاتجاه إلا أن تأثيرهم كان ملموساً وقوياً فقد هيأ الفرصة لجميع العلوم للإيناع والازدهار .

ولو انتقلنا إلي المجتمع الإسلامي في العصر العباسي لوجدنا أنه قد تجاوب سريعاً مع التقدير والاهتمام اللذين أبداهما الحكام للعلم بشقيه الديني والدنيوي ، وقد جاء ذلك التجاوب في أشكال شتى وعلى مستويات متباينة فقد برز العلماء في كافة الحقول العلمية

وجاءت نتاجاتهم غزيرة وعميقة ، كذلك زادت إعداد طلبة العلم وتوزعوا على كافة التخصصات والحقول ثم نشطت وازدهرت وسائل العلم المختلفة من كتاتيب ومساجد ومدارس ومكتبات ، وزادت المخصصات المالية لدعم تلك الوسائل وتطويرها وزادت الأموال الموقوفة للعلم ووسائل التعليم من الحكام والمياسير وأهل البر والخير وهكذا عاش المجتمع نهضة علمية كان لها وقعها وتأثيرها على الحضارة والثقافة الإسلامية في العصر العباسي بشكل واضح وملموس .

وفي هذا السياق يبدو سؤال مهم ، إذا كان المجتمع الإسلامي في العصر العباسي قد جاري حكامه فيما يتعلق بالاهتمام بالعلم بشقيه الديني والدنيوي فلماذا لم يقدّر لذلك العلم أن يعمل على تغيير وضعية المجتمع في ذلك العصر ويرقى بمستواه ، أو بعبارة أكثر دقة لماذا لم يتمكن العلم من تغيير المجتمع ؟ لقد انتشرت في المجتمع الإسلامي في العصر العباسي الفوضى وانهيار العديد من القيم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، وذلك بالرغم من الحديث عن العلم والازدهار العلمي في كافة المجالات .

أن ثمة مسألتين لابد من مناقشتهما في هذا الخصوص : المسألة الأولى وهي المتعلقة بما يمكن أن نسميه بطبقية العلم ، والمسألة الثانية وهي الخاصة بالانفصال بين العلم والواقع الاجتماعي وهذا أدى إلي إخفاق العلم في النفاذ إلي أعماق المجتمع الإسلامي وإحداث تأثيراته المطلوبة وهذا مترتب على المسألة الأولى وهي طبقية العلم أي أن العلم ظل قاصراً على الطبقة العليا مفرزاً آثاره فيها فقط .

فالمسألة الخاصة بطبقية العلم تعنى أن العلم كان مرتبطاً بشكل النظام الاجتماعي وذلك يذكر بما سبق وأوضحناه من أن العلم إفراز اجتماعي ينبع من المجتمع عاكساً تفاعلاته وتدرجية طبقاته ، فالعلم بكافة وسائله وأدواته يتلاءم مع كل طبقة من طبقات المجتمع ، فالطبقة العليا تملك كافة الأدوات والوسائل من كتب غالية الثمن ومعلمين ومؤدبين .. الخ

، وكذلك الطبقات الأدنى تملك الأدوات التي تناسب وضعها الاجتماعي وترتيبها في تدرجية الهرم الاجتماعي ، وهذا ما سنزيده إيضاحاً بعد قليل .

أما المسألة المتعلقة بعدم تمكن العلم من النفاذ إلي أعماق المجتمع لإحداث آثاره في تغيير المجتمع إلي القيم والفضائل التي ينشدها ذلك العلم فهي لا تتنافى مع المسحة الاجتماعية للعلم في العصر العباسي ومع كون العلم إفرازاً للمجتمع ولكنها تعني أن العلم قد بات يمس الشكل دون الجوهر فلم يعد يتجاوز في كثير من الأحيان كونه شكلاً من أشكال الوجاهة الاجتماعية ومن ناحية أخرى فهو قد يحدث آثاره في كل طبقة من طبقات المجتمع بمعزل عن الطبقات الأخرى وهنا يبدو التباين في تلك الآثار بين الطبقات الاجتماعية .

المبحث الثالث

التعلـــم

التعلم ينقلنا مباشرة وتفصيلاً إلي الحديث عن فئات طالبي العلم في العصر العباسي والخلفيات الاجتماعية لهؤلاء ، وهنا سنجد أنفسنا أمام تقسيم للعلم لا يخلو هو الآخر من صبغة ذات طبيعة اجتماعية تعكس التقسيم الطبقي للمجتمع ، فهناك علوم يطلبها عامة الناس نظراً لكونها ضرورية ومرتبطة بالدين والشرع وغير مكلفة في اكتسابها وأدوات تلقينها ، وهناك علوم لا يطلبها إلا الطبقات العليا من المجتمع انطلاقاً من كون أدوات تلقيها وطرق الحصول عليها تتطلب وضعاً اجتماعياً مميزاً وكلفة مادية عالية ، إلا أن هذا التقسيم الطبقي للتعلم لم يكن تقسيماً جامداً بل كان مرناً يمكن اختراقه عبر الكفاءة والجدارة التي يملكها الأفراد من الطبقات الأدنى حين ينقطعون للعلم ويثابرون من أجل تحصيله ويبرعون في ذلك إلي درجة العلماء .

لقد كان اتجاه المجتمع نحو العلم قوياً في العصر العباسي ، فكل الطبقات أفرزت طلبة العلم والمتعلمين كلاً في نطاق المتيسر له طبقياً ، ويمكن الزعم بأن الاتجاه نحو العلم لدى كافة طبقات المجتمع كان بديلاً مقبولاً ومرغوباً فيه حل محل الفتوحات ونشر الدعوة وترك أثره في الوعي الاجتماعي على أنه نوع من الجهاد كذلك ، وربما يؤيد هذه الوجهة ويؤكدها أن الإسلام قد انتشر في العصر العباسي الأول في مناطق كثيرة من الهند والصين وأفريقيا عن طريق طلبة العلم والعلماء الذين جابوا هذه المناطق بصفتهم العلمية ومن خلالها بثوا الدعوة والتف حولهم المريدون والأتباع ، ويتضح هنا كيف أن الإسلام ينتشر عبر التفاعل والعلاقات الاجتماعية ذات الطبيعة الإنسانية ونراه يسري في نفوس الناس وعقولهم بتلقائية وسلاسة إلي أن يصبح قوام تصرفاتهم وجوهر معتقداتهم وذلك أنه دين الفطرة .

وفي نفس السياق وعلى صعيد آخر نجد أن طبقات المجتمع الإسلامي في العصر العباسي قد اتجهت نحو طلب العلم تلبية لتوق وشغف انتاباها لفقه الطروحات الجديدة والوجهات المطروحة من قبل العلماء في خصوص العلاقة بين متغيرات الحياة ومستجداتها والمرجعيات الشرعية المتمثلة في القرآن والسنة ، وفي هذه الظروف التاريخية بزغت المذاهب الأربعة التي تزعمها العلماء المعروفون إضافة إلي ازدهار المذاهب الفكرية الأخرى ، وعلى الفور أصبح لكل مذهب أتباعه المتحمسون ولكل فرقة أنصارها المتزمتون ، وانتشرت هذه الظاهرة بين طلبة العلم في المجتمع الإسلامي لدرجة أنه لا يصدق أن يكون هناك طالب علم لا ينتمي إلي مذهب من المذاهب ، والأدهى والأمر أن الخلفاء قد شجعوا ذلك بشكل يصيب بالذهول فقد أقاموا الحِلَق في المساجد لكل مذهب من المذاهب بل وأقاموا المدارس باسم المذاهب نفسها فمنهم من أسس مدرسة للعلم الحنفي أو الحنبلي أو المالكي أو الشافعي ومنهم من أسس مدرسة تضم المذاهب الأربعة وهكذا أصبح من الصعب على الفرد أن يذكر أنه مسلم فقط دون أن يلحق ذلك بانتمائه المذهبي ، وربما يكفى أن يعلن عن مذهبه فقط وقد كان ذلك بين طلبة العلم أوضح وأكثر حدة بشكل يجعل من المخجل بالنسبة للمحلل أو المؤرخ أن يخوض في ذلك الأمر لأن فيه ما يلحق بالإسلام ما ليس فيه .

الحديث عن التعلم وطلب العلم يجرنا كذلك للحديث عن إحدى أهم صفات العلم في الإسلام والتي سبق وأوضحناه وهي أن طلب العلم هدفه نشر العلم وتداوله ، والعمل به وتطبيقه لإفادة المجتمع بنتائجه وآثاره ، ولو تابعنا هذه الغاية عبر العصور الإسلامية التي تناولناها بالدراسة والتحليل لاكتشفنا أنها تمت وفق النموذج والمثال خلال العصرين الأنورين النبوة الزاهر والخلافة الراشدة وكانت أقل نموذجية ومثالية خلال العصر الأموي ، أما في العصر العباسي فكان الهدف من طلب العلم في كثير من الأحيان هو اعتناق المذهب ونشره لدى أكبر عدد من أفراد المجتمع الإسلامي ، ولم يكن طلب العلم يستهدف الرجوع

بالإسلام إلي أصوله الأولية ومصادره الأصلية وهي القرآن والسنة ، وكان ذلك سبباً مهماً ومباشراً في أن العلم لم ينفذ إلي المجتمع ويتغلغل في ثناياه ويصبح جزء من نسيجه فيغير ما لحقه من مثالب ومتناقضات ويرقى به نحو نسق القيم الإسلامية الأصيلة التي افتقد جزء كبير منها في خضم المتغيرات والأحداث والمستجدات التي شهدها خلال أواخر عصر الخلافة الراشدة والعصرين الأموي والعباسي .

لقد تبين مما تقدم أن الفاعل الرئيسي في عملية التعلم خلال العصر العباسي كما كان الحال في العصور السابقة هو المجتمع الإسلامي ، ولكن ذلك الفاعل اختلف من عصر إلي آخر وكان السبب الأساسي الذي وقف وراء ذلك الاختلاف هو طبيعة الظروف والتطورات التي مر بها ذلك الفاعل فأثرت على توجهاته ورؤياه تجاه العلم الذي تغير بدوره موضوعاً وشكلاً .

ومن الأمور ذات الأهمية في هذا الصدد البحث في أي العلوم أقبل عليها المتعلمون طلباً لها ، العلوم الدينية أم العلوم الدنيوية ، وتنبع ضرورة فرض هذا السؤال السباق من كون العصر العباسي قد شهد تمييزاً صريحاً للعلوم بين علم الدين وعلم الدنيا ، ويلاحظ المتابع أن هذا العصر قد ازدهرت فيه العلوم الطبيعية وتطورت بشكل مثير وأفرزت نتاجات بشكل أكثر إثارة ، وعليه فالمنطق يفرض على المتابع نتيجة مفادها أن العلم الدنيوي (الطبيعي) لابد أن يكون هو الأكثر انتشاراً بين الناس والمرغوب فيه دون غيره لأنه الأحدث والأكثر تماساً مع حياة الناس في ذلك العصر ناهيك عما يلقاه من تشجيع الحكام وذوي الشأن إلا أن هذه المسالة الخاصة بالتفاضل بين علمي الدين والدنيا لم تحسم وفق هذا التحليل المفرط في السطحية والبساطة ، ولكن ثمة أموراً لابد من مناقشتها في هذا الصدد لأنها قد تحمل ما يغير تلك النظرة ويزيدها تعقيداً ومن ثم يغير نتائجها ، فأول تلك الأمور أن العلوم الدنيوية الطبيعية لم تكن نابعة من قاع المجتمع الإسلامي أو نقل من ثناياه ولم تكن تمثل جزء

أصيلاً من نسيجه ، بل كانت مفروضة من الحكام وذوي الشأن وسوف نلاحظ ذلك عند الحديث عن تلك العلوم ، فالحكام هم الذين شجعوا الترجمة بشكل مباشر بل واختاروا الأدبيات التي ينبغي أن تترجم إلي العربية واختاروا كذلك العلوم وأشاروا على العلماء والمؤلفين بالكتابة والتأليف في علوم بعينها ، ومن ثم فالعلم الطبيعي جاء من أعلى ولم ينبع من وسط المجتمع ، وثاني تلك الأمور أن العلوم الطبيعية وانطلاقاً من الخاصية التي سبق تناولها كانت محصورة في طبقة الحكام وذوي الشأن والمياسير فهم الذين احتضنوا العلماء والمؤلفين وهم الذين اقتنوا الكتب والأدبيات غير العربية والمترجمة وكان كل ذلك يتم بمعزل عن بقية طبقات المجتمع التي لم تتمكن من أن تقحم نفسها في ذلك العالم المستقل بذاته المتميز بتطوراته وتفاعلاته ، وثالث تلك الأمور أنه ينبغي التفرقة بين النتاجات العلمية والأدبيات التي أفرزتها العقول الإسلامية في التخصصات العلمية الطبيعية المختلفة والتي كانت نتاجاً للظروف السابق إيضاحها وبين العلم القابل للتداول والتلقين عبر وسائل وأدوات معلومة ومتعارف عليها ، فالعلم الطبيعي في التخصصات المختلفة ظل كما سبق الإيضاح محصوراً في مخرجات وأدبيات تتلقاها وتنعم بمعارفها طبقة معينة داخل المجتمع الإسلامي ، ولم يتحول إلي علم تلقيني ويُدرس في ما بين الناس ويطلب عبر الوسائل والأدوات المتعارف عليها مثل الكتاب والمسجد والمدرسة ، رابع تلك الأمور أن العلوم الطبيعية كانت عالية الكلفة من حيث ندرة العلماء والمعلمين وكذا ندرة المادة العلمية وصعوبة الحصول عليها وارتفاع أسعار الكتب وندرتها ، وكل ذلك جعل العلم الطبيعي لا يُتداول بسهولة بين كل الناس ولا يطلبه إلا الخاصة ، خامس تلك الأمور أن ثمة قاعدة شرعية شاعت في ذلك الوقت قوامها أن العلم الطبيعي أو العلم الدنيوي ليس مفروضاً على المسلمين فرض عين مثل العلم الديني ، ولكنه مفروض فرض كفاية إذ يكفي أن يقتصر التخصص في علم من العلوم على مجموعة من أبناء الأمة ، لكي يرفعوا عن كاهل بقية الأفراد عناء تعلم ذلك التخصص .

لقد كان من شأن العوامل التي قدمناها أن تحدد موقف أفراد المجتمع من العلم الطبيعي أو الدنيوي ، وتحدد كذلك كيفية طلب ذلك العلم وطرق تحصيله والحصول عليه ، وتضع في الأخير الأصول والقواعد التي رسمها المجتمع وساهمت فيها كذلك ظروف تطوره وتقدمه للتعلم بشكل عام وفي مجال العلم الطبيعي أو الدنيوي بشكل خاص .

وبالرغم مما تقدم ينبغي الإشارة إلي أن بعض العلوم الطبيعية كانت تدرس في الأماكن المتعارف عليها كالمساجد والمدارس وهي العلوم التي كانت أكثر تماساً مع حياة الناس وتعد مهمة وضرورية للحياة مثل علم الطب والعقاقير الذي انتشر تدريسه ، وكان هناك طلب عليه في كافة مناطق العالم الإسلامي ، وأقيمت له المدارس المتخصصة في الحواضر الإسلامية من وقت مبكر لعلها بدأت في العصر الأموي .

المبحث الرابع

التعليــــم

كان التعليم في العصر العباسي مثل العلم والتعلم تميزوا جميعهم بسمات وخواص غير معهودة ، وأول ما يمكن أن نتعرض له بخصوص مسألة التعليم هو طبيعة العلاقة بين الدولة وبين التعليم فهل كان للدولة دخل مباشر في صياغة نظام للتعليم وفي فرض قيم بعينها عبر ذلك النظام وإقرار سلوكات وتصرفات محددة ، أم أن التعليم بمعناه الواسع الذي يشمل كلاً من العلم والتعلم كان إفرازاً طبيعياً للمجتمع الإسلامي دون أي تدخل من الدولة بصلاحياتها المعروفة ، وحقيقة الأمر أن التلقائية كانت موجودة وأن التدخل من الدولة كذلك كان موجوداً ولكن كلاً يتم بطريقة معينة لا تخلو من منطق ، فالمجتمع كان يفرز الرغبة في الإقبال على العلم وكان يفرز كذلك لدى العلماء إقدامهم على نشر العلم وتداوله بوازع من داخلهم ويسعون إلي ذلك سعياً ، ويفرز أخيراً الرغبة لدى ذوى الشأن والمتنفذين والمياسير في مساعدة التعليم عن طريق توفير متطلباته من أماكن وأدوات وعطاء للعلماء وما إلي ذلك من إمكانات .

وفي نفس الوقت كان التدخل من الدولة بصفتها الاعتبارية يتم بأشكال وصيغ معينة فكان الحكام بأنفسهم يشجعون العلم والتعليم والعلماء عبر تبنيهم للعلوم وتشجيعهم للعلماء والاهتمام بحلق العلم في المساجد وبناء المدارس وتزويدها بالوسائل اللازمة ، وعليه فقد التقت رغبة المجتمع مع سلوك الحكام لتعطي العلم والتعلم والتعليم وضعية مميزة في العصر العباسي ، وسوف نوضح ذلك من خلال استعراض وسائل التعليم على النحو التالي :

❖ الكتاتيب :

لا يزال الكتاب يمثل المؤسسة التعليمية الاجتماعية البسيطة والميسرة النابعة من المجتمع والغائرة في نسيجه والتي يقصدها أطفال العامة لتعلم أساسيات العقيدة واللغة ، ولقد انتشرت ظاهرة الكتاتيب في العصر العباسي في كافة أقاليم ومناطق الدولة الإسلامية من شرقها إلي غربها ومن شمالها إلي جنوبها ، وظلت هذه الظاهرة وفيّة للكثير من تقاليدها التي ولدت معها حتى قبل ظهور الإسلام ، إلا أنها منذ بداية العصر العباسي أخذت تتأثر بالظروف والمعطيات البيئية في أقاليم ومناطق الدولة المختلفة ، وقد بدا ذلك واضحاً في مقررات التعليم في الكتاتيب ، فمثلاً في المشرق الإسلامي وأفريقيا كانت الكتاتيب تعلم القرآن والحديث وبعض مبادئ الحساب والخط العربي ، وفي المغرب يقتصر التعليم في الكتاتيب على القرآن الكريم ، أما في الأندلس فكانت الكتاتيب تهتم بتعليم القرآن والشعر واللغة العربية والخط العربي .

وتوضح ظاهرة الكتاتيب في أقاليم الدولة الإسلامية عموماً كم كان المجتمع الإسلامي يهتم بعلوم الدين ويحفها بالرعاية ويحرص علي أن يكون القرآن وحديث الرسول الكريم هو أول ما يعيه الإنسان المسلم منذ نعومة أظفاره ، فكان الصبي إذا أتم حفظ كتاب الله يحتفل به ويفخر بذلك أبواه وأقاربه ومؤدبه الذي علّمه حفظ القرآن ، بالإضافة إلي ما تقدم فإن العلوم الأخرى التي كانت تُدّرس في الكتاب إلي جانب القرآن والحديث تنم عن فهم المجتمع الإسلامي لأهمية تلك العلوم في الحياة مثل علوم اللغة ومبادئ الحساب والخط العربي .. الخ .

وكان تعليم الأنثى منذ صغرها محل اهتمام المجتمع الإسلامي فأفسح لها المجال في الكتاب إلي جانب الصبيان فحفظت القرآن والحديث وبرعت في ذلك وتعلمت إلي جانب ذلك مبادئ علوم اللغة والخط العربي ومبادئ الحساب ، ويدل ذلك على تأثر الوعي

الجماعي بما سنه الرسول الكريم من تعليم الإناث ، والمساواة بينهم وبين الذكور في طلب العلم وما سار عليه الخلفاء وطبقوه من الاهتمام بتعليم الإناث اقتداءً بسنة الرسول الكريم .

وبالرغم من أن ظاهرة الكتاتيب كانت ظاهرة اجتماعية افرزها المجتمع من تلقاء نفسه وصاغ لتنظيمها وترتيب شئونها الأعراف إلاّ أن الدولة رأت ضرورة وضعها تحت الرقابة والإشراف إنطلاقاً من دورها المهم في التنشئة الإسلامية ، ومن ثم دخلت الكتاتيب ضمن واجبات واختصاصات المحتسب الذي عليه أن يتوثق من المعلم أو المؤدب ديناً وخلقاً وعلماً ثم يتأكد من صلاحية مكان الكتاب وغير ذلك من الأمور التي يرى ضرورة الإشراف عليها ومتابعتها .

لقد قام الكتاب بدور مهم كمؤسسة تعليمية إجتماعية في التنشئة الإسلامية ، وقد كانت في العصور الإسلامية الأولى تضارع الأسرة في الأهمية وفي الدور التربوي وكانت تسبق المسجد من حيث الإعداد والتأهيل له ، والغريب في الأمر أن هذا الدور للكتاب في التنشئة الإسلامية بدأ يضمحل في الوقت الراهن مما أثر بشكل خطير وحساس على الثقافة الإسلامية لدى الأجيال المعاصرة ويحتاج هذا الأمر إلي معالجة جادة وحازمة .

لقد وُجدت فكرة خصوصية التعليم منذ وقت مبكر في المجتمعات الإسلامية ، ولقد تحدثنا عنها في العصر الأموي ، إلا أنها كانت أكثر تفشياً في العصر العباسي ، وذلك لتبلور وترسخ ظاهرة الطبقية في المجتمع الإسلامي في ذلك العصر ، فالكتاب كان وسيلة ميسورة لتعليم صغار عامة أفراد المجتمع وطبقاته البسيطة والمتواضعة مادياً ، أما الطبقات الغنية فكانت تلجأ إلي التعليم ذي الخصوصية حيث يذهب المعلم أو المؤدب إلي الصغار في منزلهم ، وكان ذلك شأن أبناء الخلفاء والحكام وكبار رجال الدولة والمياسير ، ومع ذلك فالثابت أن علماء الأمة في كافة العلوم الدينية والدنيوية كانوا ممن بدأوا تعليمهم في الكتاب ! .

❖ المساجد :

كذلك كان المسجد برمزه الشعائري من أهم المؤسسات التعليمية والفكرية والثقافية على مر التاريخ الإسلامي ، وقد أوضحنا أن المسجد قام بأدوار متعددة في الدولة الإسلامية ، فقد قام بدور سياسي بوصفه مقراً للاجتماع والتشاور في أمور الحكم وسياسة شئون الناس ، كما قام بدوره في التشاور ورسم استراتيجيات وخطط الجهاد وتحريك الجيوش الإسلامية للفتوحات ونشر الدعوة ، كذلك كان له دوره الاجتماعي حيث كان يعتبر مأوًى لمن لا مأوى له ثم كان له دوره التعليمي التثقيفي الفكري ، وقبل ذلك كان له دوره التربوي كأداة من أدوات التنشئة الإسلامية .

ولم يتخل المسجد عن دوره المتعدد المهام في كل العصور الإسلامية ، ولكن حدث في بعض العصور التركيز على مهام دون أخرى بما يتواءم مع ظروف كل عصر وتطوراته ، وكانت مساجد الحواضر الإسلامية هي الأكثر شهرة بمهامها المتعددة وبالذات المهام ذات الطبيعة التعليمية الفكرية فمثلاً مساجد مثل مسجد المدينة [المسجد النبوي الشريف] والجامع الأموي ثم مسجد البصرة ومسجد الكوفة ومسجد عمرو بن العاص ومسجد القيروان والجامع الأزهر كلها مساجد كان لها دورها المهم في التاريخ الإسلامي كأداة من أدوات التعليم والتثقيف ، فهو بعد الكتاب يعد من أهم وسائل نشر الثقافة الإسلامية .

وحلق العلم أو الدرس في المساجد الإسلامية المشار إليها لها شهرتها في التاريخ الإسلامي ، فهي تشتهر بأماكنها ، وتشتهر كذلك بموضوعاتها وتشتهر أيضاً بعلمائها ، وتشتهر أخيراً بطلابها ، فكافة الحلق العلمية في المساجد الإسلامية المشار إليها اشتهرت بأماكنها ومن الحلق التي اشتهرت بموضوعاتها حلقة الاعتزال الخاصة بواصل بن عطاء في مسجد البصرة وحلقة الشعر العربي الخاصة بسعيد بن المسيب في مسجد الرسول بالمدينة المنورة ،

ومن الحلق التي اشتهرت بعلمائها حلقة الحسن البصري في مسجد البصرة ، ومن الحلق التي اشتهرت بطلابها حلقة إبراهيم بن محمد نقطويه الذي جلس إلي جوار أحد الأعمدة في جامع المنصور ببغداد دون أن يغير محله لمدة خمسين سنة ، ومن الحلق التي اشتهرت بكثرة عدد طلابها حلقة أبي بكر النعالي الذي كان يُدرس في جامع عمرو بن العاص وكانت حلقته تدور على سبعة عشر عموداً لكثرة عدد طلابها .

في العصر العباسي لم تعد حاضرة الخلافة هي التي تجتذب الأضواء في شئون العلم والفكر ولكن تعددت الحواضر الإسلامية في هذا الصدد ، فبغداد كانت مقر الخلافة ومنبع الأحداث السياسية ومبعث التطورات والتفاعلات الفكرية والعلمية في بداية العصر العباسي ، ولكنها لم تستمر الحاضرة الأكثر جاذبية للأنظار وصنعاً للأحداث فمع مرور الزمن ظهرت حواضر أخرى أعادت مجدها التليد أو أحدثت لنفسها موقعاً مميزاً على خارطة الفكر والثقافة في العالم الإسلامي ثم سجل لها التاريخ ذلك وحفره في ذاكرته ، فمن الحواضر التي تشبثت بماضيها الزاهر المدينة المنورة مدينة الرسول الكريم وموضع الحرم النبوي الشريف الذي ظل مناراً للإشعاع الثقافي والعلمي على مر التاريخ الإسلامي ، كذلك تمسكت كل من البصرة والكوفة بموقعهما الفريد فيما يتعلق باللغة العربية وآدابها وعلومها وحفرت على جبين الزمن اسم أول واهم مدرستين في هذا الخصوص ، أيضاً لم تتخل دمشق حاضرة الخلافة الأموية عن موقعها ولم تنس زمانها وذكرياتها مع الشعراء العظام ، وحافظت القيروان على موقعها كعاصمة للصحراء ومنارة علمية وفكرية سامقة في سماء أفريقيا الإسلامية ، والي جانب ما تقدم ظهرت القاهرة لتخطف الأبصار والأسماع ولتؤكد أنها ستتولى قيادة العالم الإسلامي لوقت غير قصير وأنها ستعطي الكثير وسيعطيها المستقبل كذلك ، وبعد ذلك لمعت مدن الأندلس العديدة والمتنوعة في التخصص الفكري والثقافي والعلمي كذلك .

إن المدن التي قدمنا لها ظهرت أول ما ظهرت بمساجدها وجوامعها ، فالمسجد أو الجامع كان أهم معلم من معالم المدينة ، هو الذي يعطيها الشهرة والسمعة ، ففي بغداد كان جامع المنصور هو أهم معلم ثقافي فكري علمي في بغداد في العصر العباسي الأول ، وفي المدينة المنورة كان مسجد الرسول الكريم هو المعين الذي لن ينضب للفكر والعلم الإسلامي ، وفي البصرة والكوفة ظلت مساجدهما كذلك منارات علمية وفكرية زاهرة ، وفي دمشق كان الجامع الأموي جامعة بالمعنى الحرفي للكلمة ، وفي القيروان كان مسجد القيروان المدرسة الأكثر شهرة في أفريقيا ، وفي الأندلس قامت المساجد بنفس الدور من الإشعاع العلمي والفكري والثقافي للإسلام وحضارته وثقافته ، وفي القاهرة كان المسجد الأزهر يمثل إضافة مهمة تنبه الأذهان إلي دور مصر الواعد للحضارة والثقافة الإسلامية لما سبق وقدمه مسجد عمرو بن العاص في الفسطاط ومسجد أحمد بن طولون في القطائع .

والآن يعن السؤال التالي : هل يمثل الانتشار الواسع للمساجد ودورها الثقافي والفكري على امتداد العالم الإسلامي إلي خاصية التنوع الفكري والثقافي التي انصهرت في بوتقة الإسلام تلك الخاصية التي تمتع بها وغذاها في ذات الوقت العصر العباسي بخصائصه السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والحضارية ، ونظراً لأهمية هذا السؤال وعلاقته الوطيدة بالثقافة الإسلامية فسوف نرجئ تناوله إلي المجلد التالي .

أيضاً من الأمور الجديرة بالذكر في هذا الصدد شمولية المسجد كمركز تعليمي لعلوم الدين والدنيا ، وهذا يؤشر إلي أن مفهوم العلم في الوعي الجماعي أو الاجتماعي الإسلامي قد تطور بشكل أو بأخر ، فالمسجد برمزه الشعائري أقرب إلي علوم الدين ، وقد ظل كذلك إلي يومنا هذا ، فمعظم الجامعات الإسلامية المنسوبة إلي مساجد أو جوامع تركز على العلوم الدينية أكثر من تركيزها على العلوم الدنيوية حتى ولو من الناحية الرمزية الإيحائية ، ولكن احتواء المسجد كمركز تعليمي فكري ثقافي على علوم الدنيا إلي جانب

علوم الدين يعني أن تطوراً لحق بمسألة العلم في الإسلام وأن العلم قد أصبح يعني كافة علوم الدين والدنيا .

عند هذا المستوى من التعليم الذي يعني مزيداً من النضج والوعي والإدراك بالنسبة للمتعلم أو طالب العلم وبالنسبة للمعلم أو المؤدب وكذلك بالنسبة لنوعية العلوم ذاتها ، عند هذا المستوى كان للمرأة نصيبها الذي لم يغفله المجتمع واستقاه من المصادر الشرعية والمرجعيات الإسلامية ، وانتظمت الحلق الخاصة بالنساء في المساجد الإسلامية في الحواضر المختلفة ولعل أشهر حلقات النساء كانت في مسجد عمرو بن العاص في الفسطاط عام ٣٥٠ هـ ثم في جامع بن طولون في القطائع وكذلك في الجامع الأزهر .

وتجدر الإشارة في هذا الصدد إلي أن ازدهار التعليم في العصر العباسي وقيام المساجد بدور مهم فيه كان يخص الحواضر فقط دون غيرها من مدن الأقاليم أو الأمصار ، فحاضرة الإقليم هي دوماً التي تجذب الأنظار لكونها تمثل المركز السياسي والإداري وتستقطب كذلك جماع جهود الإنماء والإحداث ، فكانت مساجد الحواضر الإسلامية هي التي أخذت على عاتقها نشر العلم والثقافة الإسلامية في العصر العباسي ، ومن ثم كان يقصدها طلاب العلم من كافة الأرجاء حيث لم يكن بين أقاليم الدولة الإسلامية أية حدود أو فواصل .

وفي ظاهرة المسجد كمركز علمي وتعليمي إسلامي اختلطت خاصية اجتماعية العلم مع مسئوليات أو صلاحيات الدولة أو الأمارة ، فخاصية اجتماعية العلم نشهدها عندما نرى أن المسجد كمركز علمي تعليمي يقوم بمهمته هذه إلي جانب مهمته الشعائرية النسكية من تلقاء ذاته وبترتيبات اجتماعية نابعة من المجتمع متمثلة في طالب العلم والعالم أو المُعَلِّم ثم نشاهد تلك الخاصية ذاتها وقد أولتها الدولة أو ولى الأمر الرعاية والإشراف فتخصص لطلبة العلم الأرزاق والعطاءات [المرتبات] وتخصص لهم داراً للسكن بجوار المسجد

فيعرفون لذلك " بالمجاورين " ، كما حفّت العلماء بالتكريم والتقدير المادي والمعنوي ومن ثم أخذ العلم شكله ومضمونه القويمين بالتلاقي بين رغبة المجتمع واهتمام ولي الأمر .

ولكن هل يمكن الحديث في هذا السياق عن التعليم الموجه ؟ أو بعبارة أكثر دقة هل يمكن الحديث عن تدخل الدولة أو ولى الأمر لترويج أفكار معينة أو مناصرة آراء ضد أخرى ؟ الحديث عن هذه الإشكالية هنا له مغزاه ، فالعصر العباسي برزت فيه المذاهب السنية الأربعة كما برزت كذلك مذاهب سنية أخرى في المغرب ، ولكن لم تلق حظاً وافراً من الاهتمام والرعاية كذلك لم يخفت الصراع السياسي والفكري بين السنة والشيعة بل ربما أزدهر ذلك الصراع وأفرز أكبر دولة شيعية عرفها التاريخ الإسلامي حتى ذلك الوقت وهي الدولة الفاطمية في مصر ، فهل ألقى ذلك بظلاله على التعليم وأكسبه صفة التوجيه السياسي أي قيام الدولة أو ولى الأمر بالإيعاز للمعلمين بترويج أفكار معينة يعتنقونها أو يشايعونها أو قيامهما بتشكيل نظام تعليمي يحقق أهدافهما السياسية والفكرية ؟ .

حدث ذلك بالفعل في العصر العباسي ، وعلى مستويين : المستوى الأول : داخل المذهب الواحد سواء أكان المذهب السني أو المذهب الشيعي ، ولكن ذلك لم يكن واضحاً ولم تتدخل فيه الدولة أو ولى الأمر بشكل صريح لأنه في نهاية المطاف نوع من تعدد الآراء داخل إطار المذهب الواحد ، ففي داخل المذهب السني ظهرت الفرق الأربعة : الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية ، وهنا كان المسجد الواحد يضم حلقاً تقوم بتدريس آراء وأفكار الفرق الأربعة فبغض الطرف عن الصراعات التي كانت تدور بين المنتمين إلي كل فرقة كانت الدولة لا تعير تلك الخلافات أو الاختلافات إهتماماً يبرر تدخلها في مناصرة فرقة ضد أخرى ، وفي داخل المذهب الشيعي ظهرت فرق عديدة أهمها : الزيدية والإثناء عشرية والإسماعيلية والجعفرية والقرامطة والفاطمية ، وقد تمكنت فرقتان من إقامة دول مستقلة وذات شأن مع وجود الخلافة العباسية ، فقد أقامت فرقة القرامطة السرية الوفية

للمذهب الإسماعيلي دولة البحرين في النصف الأول من القرن الرابع الهجري ، أما الفاطميون الذين اختلفوا في بعض التفاصيل مع المذهب الإسماعيلي فقد تمكنوا في عام ٣٥٨ هـ من إقامة دولة شيعية فاطمية في كل من المغرب وطرابلس ومصر .

لقد كانت الخلافات داخل المذهب الشيعي بين فرقه المتباينة كفيلة بأن تجعل الدولة التي تتأسس مرتكنة على أفكار فرقة من الفرق تجتهد من أجل أن تصبغ التعليم في المساجد والمدارس فيما بعد بصيغة تلك الأفكار وقد حدث ذلك في البحرين وفي مصر وفي طرابلس وفي المغرب حيث قامت الدولة الفاطمية في المراكز الثلاثة الأخيرة وقامت دولة القرامطة في البحرين .

أما المستوى الثاني فهو بين المذهبين ، فلم يكن يسمح بتدريس المذهب الشيعي داخل المساجد السنية والعكس صحيح فلم يكن يسمح بتدريس المذهب السني داخل المساجد الشيعية ، وإن كان التعليم من خلال المساجد في المذهب الشيعي يتسم بالكثير من الغموض الذي يجعله دوماً يبدو على غير حقيقته .

وهنا يمكن أن نضيف حقيقة جديدة خاصة بالعلم والتعليم وهى المتعلقة بانسحاب الإسلام المذهبي على عمليات العلم والتعلم والتعليم حيث رأينا الدولة تتدخل بشكل صريح ومباشر لتقر الآراء والأفكار التي تتفق مع توجهاتها المذهبية سنيه كانت أم شيعية ، أما الاختلافات داخل المذهب الواحد فلم تكن من الأهمية والتأثير بما يجعل الدولة تتحرك من أجل تعميقها .

لقد ساهم المسجد بشكل أو بآخر في إنماء الفكر الإسلامي وبث روح الاجتهاد والاتجاه نحو إعمال العقل في مواجهة المتغيرات والمستجدات التي طرأت على المجتمع الإسلامي بعد عصر النبوة الزاهر ، كان ذلك في المذهب السني حتى ظهرت وتبلورت المذاهب الأربعة ،

" إن الاجتهاد في التفسير أو التشريع الذي يمنح من يقوم به لقب المجتهد لا يترك لأي شخص ليقوم به " فالسنة " قد اهتمت بالإجماع وتحفظت على الرأي الشخصي بحيث اعتبرت أن أبواب الاجتهاد مغلقة منذ القرن الثالث الهجري " ، وبعبارة أكثر دقة فأن المذهب السني " قد اعترف بصفة المجتهد لمؤسسي المذاهب الأربعة التي ذكرناها ، واعتبر أن الحالات الجديدة التي قد تمر على الأمة منذ وفاة الرسول الكريم قد استنفذت وأن التقليد الأمين للقدماء والعلماء والسلف هو القاعدة الأساسية للإيمان " .

أما في المذهب الشيعي فقد أطلق العنان لاجتهاد العلماء الذي وصل بهم إلي حد التحدث باسم الامام الغائب ، وقد أدى ذلك الاجتهاد الصاخب إلي الانقسام والتعصبات الدينية التي ظهرت في شكل مدارس وآراء متصارعة طغت على وسائل العلم والتعلم والتعليم في كافة المواطن التي قُدّر للمذهب الشيعي أن يتجسد فيها في شكل دولة .

ومما لا شك فيه أن في الأمرين اساءة إلي الإسلام وإلي العلم والبحث العلمي الذي أعطته المرجعيات الإسلامية الشرعية أهمية لا تضاهي ، فمن حق كل مسلم وهبه الله عقلاً رجيحاً وفكراً رشيداً ورأياً سديداً أن يجتهد ليضيف إلي اجتهاد السابقين وذلك فيما يستجد من أمور وما يطرأ من تطورات ، وفي ذات الوقت لا يحق لأي مسلم مهما أوتى من العلم والعقل أن يتجاوز حدود المنطق والمقبول من الحقائق والمسلمات الأساسية للإسلام التي تحدد حدود الاجتهاد وإطاره العام .

وإذا واصلنا الحديث عن دور المسجد في العلم والتعلم والتعليم في العصر العباسي فسوف نتطرق إلي تعليم العلوم الطبيعية في المساجد ، فبالرغم من ثبوت إهتمام بعض المساجد في العالم الإسلامي بتدريس بعض العلوم الطبيعية مثل الحساب والرياضيات والطب والعقاقير [الصيدلة] إلا أن ذلك لم يكن نهجاً ثابتاً في كافة المساجد بل في بعضها مثل الجامع الأزهر الذي اشتهر بتدريس الطب إلي جانب العلوم الدينية ، ويرجع عدم اهتمام

المساجد الإسلامية بالعلوم الطبيعية مثل أهتمامها بالعلوم الدينية إلي أسباب منها : إرتفاع كلفة الكتب في العلوم الطبيعية وندرتها ، ومنها كذلك قلة بل ندرة العلماء الطبيعيين وتفرغهم للبحث العلمي والتأليف واقتصار علاقتهم على الحكام والأمراء ، ومنها أيضاً أن العلوم الطبيعية لم تكن في مثل أهمية علوم الدين فقد كانت تمثل فرض كفاية ولم يقر أولياء الأمور وأهل العقد والحل تدريسها في المساجد بشكل ملح .

بالرغم من بروز دور المسجد في العملية التعليمية وازدهاره في العصر العباسي إلا أن التعليم الخاص ظلت له مكانته المميزة لدى طبقة الحكام والأمراء والمياسير الذين دأبوا على استقطاب العلماء والمؤدبين لأبنائهم وبناتهم ، وقد كان لذلك التعليم ذو الخصوصية أهميته الواضحة في تعليم أبناء هذه الطبقة .

❖ المدارس :

ابتدعت المدارس في العصر العباسي لتكون بمثابة مؤسسات تعليمية أكثر تخصصاً وملاءمة من حيث الشكل والوظيفة للدراسة وتحصيل العلوم بشتى أنواعها ، فقد أعدت المدارس التي أنشئت في العصر العباسي إعداداً إنشائياً وفنياً وإدارياً يتواءم مع هدف الدراسة والتحصيل العلمي ، والثابت أن المدرسة كمؤسسة تعليمية هي ابتكار أوجد فيما يعرف إصطلاحاً باسم العصر العباسي ولكنها ليست عباسية الفكرة والنشأة ، فإن فكرتها فاطمية شيعية ارتبطت بالجامع الأزهر كمؤسسة تجمع بين السمة الرمزية الشعائرية والتعليمية لمصلحة مذهب ديني سياسي هو المذهب الشيعي الفاطمي ، إلا أن المدرسة بشكلها الفني والإنشائي والإداري فهي عباسية التصميم كرد أكثر تخصصاً ودقة على الفكرة الشيعية الفاطمية في مصر وسوف نوضح ذلك في التحليل التالي :

- فكرة الجامع المدرسة أو الجامعة الجامع الأزهر في مصر الفاطمية ٣٦١ هـ :

ببراعة واقتدار طور الفاطميون في مصر فكرة التعليم في المسجد فنياً وإدارياً وإنشائياً التي حملها التاريخ الإسلامي وأوصلها إليهم من عصر النبوة الزاهر فالخلافة الراشدة فالعصر الأموي ، ولم يقتنع الفاطميون بالترتيب والتنظيم الذي وصلهم عبر التطور المشار إليه للتعليم في المساجد ولكنهم ولعوا بدور المسجد في بث الأفكار والقيم والمعتقدات عبر رمزيه الشعائري والديني فاعتنقوا الفكرة وعكفوا على تطويرها تنظيمياً وفنياً وإنشائياً حتى أصبح الجامع الأزهر مدرسة أو جامعة بمعنى الكلمة ، ويمكن القول أنه كان في عصرهم أول مدرسة أو جامعة إسلامية .

تحدثنا سلفاً عن تطور دور المسجد كمركز تعليمي منذ عصر النبوة الزاهر وعددنا أهم المساجد التي قامت بذلك الدور وبدأناها بمسجد الرسول الكريم في طيبة الطيبة ثم مسجدي البصرة والكوفة ثم الجامع الأموي في دمشق وجامع عمرو بن العاص في فسطاط مصر ثم مسجد القيروان في مدينة القيروان ثم جامع المنصور في بغداد الخلافة العباسية ثم جامع أحمد بن طولون في قطائع مصر ثم جاء الفاطميون ليتميزوا على ما تقدم من خلال نقلة نوعية نقلت دور المسجد من دور شعائري تعليمي بشكل بسيط متعارف عليه إلي دور شعائري مذهبي منظم ومرتب على أسس فنية وإنشائية وإدارية ذات طبيعة خاصة يخضع مباشرة لتوجيه الدولة فكرياً وإدارياً ومادياً .

إن تلك النقلة النوعية المشار إليها تجعل من الصعب الحديث عن الجامع الأزهر بوصفه مسجداً يضم حلق الدرس على غرار ما قدمنا ، وبصفة خاصة في مسجدي مصر المعروفين وهما مسجد عمرو بن العاص ومسجد أحمد بن طولون ، ولكن الوضعية الحقيقية للجامع الأزهر كانت أكثر تطوراً وتقدماً من ذلك في زمانه الذي أنشئ فيه .

لقد أنشأ القائد الفاطمي المعروف جوهر الصقلي الجامع الأزهر في القاهرة في عام ٣٦١ هـ ، ومنذ إنشائه والفاطميون يعدونه للقيام بدور مهم يخدم مذهبهم الديني وتوجههم السياسي الذي ينافس الخلافة العباسية الرسمية في بغداد ، وكان ذلك مؤشراً إلي أن المسجد سيتحول دوره الدعوى العقيدي البسيط والمعروف منذ عهد النبوة الزاهر إلي دور أخر دعائي مذهبي سياسي يخدم أغراض دولة بعينها ومذهب بذاته ، وقد تأهب الفاطميون لذلك وأعدوا للأمر عدته وعزموا على تحويل الجامع الأزهر إلي مدرسة أو جامعة تعليمية على أسس فنية وإنشائية وإدارية مبتكرة ، وقد جاءت تلك الأسس بأشكالها الثلاثة في ترتيبات محددة على النحو التالي :

* حلق الدرس فصول دراسية :

لعل المتفحص للعملية التعليمية التي صممت في الجامع الأزهر يكتشف أن حلق الدرس المتعارف عليها في المساجد الإسلامية التي أشرنا إليها من قبل كانت ذات خصوصية في حالة الجامع الأزهر حيث كانت أقرب إلي الفصول الدراسية بمعناها المتعارف عليه في زماننا من جهة الترتيبات الفنية والعلمية والتنظيمية .

* إعتماد وتعميق نظام التخصصات :

كذلك عرف الجامع الأزهر كمركز علمي تعليمي نظام التخصصات ، حيث تخصصت كل حلقة في علم من العلوم وخصص لها علماؤها وطلابها ، وقد تعددت التخصصات في الأزهر بشكل غير مسبوق وشملت كافة العلوم الدينية والدنيوية ، ومن هنا عرف هذا المركز بأنه مدرسة أو جامعة .

* تخصيص الأرزاق والرواتب :

منذ البداية والدولة الفاطمية تقف بقوة وإصرار خلف هذا المركز العلمي التعليمي الذي أشتهر بسرعة ، فقد شملت الدولة الأزهر بدعمها المادي وأغدقت عليه ، فخصصت لطلبة العلم الأرزاق والرواتب ، وكذلك أجزلت العطاء للعلماء والفقهاء الذين يقومون بالتدريس في الأزهر وكانت هي الأسبق في ذلك في زمن العباسيين بعد الجامع الأموي في دمشق في عهد الأمويين حيث أن الجامع الأخير خصص له الأمويون أموالاً طائلة .

* تخصيص السكن بجوار المسجد للطلاب والعلماء :

ابتدعت الدولة الفاطمية بشكل منظم ومرتب نظام " المجاورين " حيث خصصت مساكن للطلاب والمعلمين بجوار الجامع ، وقد ساعد ذلك النظام بالفعل على تحويل الجامع وملحقاته من دور العلم [المكتبات] ومساكن الطلاب والمعلمين إلي جامعة بالمعنى الحرفي للكلمة .

* إنشاء دور الكتب [المكتبات] :

كان من ضمن الوسائل التعليمية في الأزهر كمركز علمي دور الكتب [المكتبات] التي أنشأها الفاطميون لمساعدة الطلاب على الاطلاع والدرس والتحصيل ، وقد أشتهرت هذه الدور بمحتوياتها من الكتب النادرة والمتخصصة في الفكر الشيعي الفاطمي .

* إدخال العلوم الطبيعية :

سبق الأزهر غيره من المراكز العلمية التي أنشأها العباسيون في بغداد في إدخال العلوم الطبيعية وبدأها بالطب والعقاقير ثم أدخلت بعد ذلك تخصصات أخرى مثل الرياضيات والبصريات والفلسفة والتاريخ الطبيعي والتاريخ والجغرافيا وغيرها .

* رعاية وقف الأزهر في شئونه :

وقفت على الأزهر أوقاف شتى استثمرت جميعها للأنفاق عليه ، ناهيك عن المخصصات الأميرية التي خصصتها الدولة له ، ومن ثم قام الأزهر بدور مهم في الدعاية للمذهب الشيعي الفاطمي واستقطب طلبة العلم في هذا المذهب من كافة أنحاء العالم الإسلامي ، وساعد في ترسيخ أركان الدولة الفاطمية في مصر والمغرب وطرابلس بشكل واضح نتيجة إمكاناته المادية والعلمية .

* بث الأفكار المذهبية السياسية [التعليم الموجه] :

في عصر الدولة الفاطمية في مصر اتضحت الصبغة المذهبية السياسية للأزهر كمركز إشعاع علمي ومؤسسة تعليمية ، فقد كان الأزهر يروج بشكل واضح وصريح للمذهب الشيعي الفاطمي الذي تتبناه الدولة الفاطمية في مواجهة الخلافة العباسية السنية الرسمية التي بذلت جهوداً جادة في الرد على الدعاية الفاطمية بعد أن نهض الأزهر بدوره بقوة وحزم .

تُرى هل يمكن بعد هذا التحليل لدور الأزهر كمؤسسة تعليمية ومركز علمي مزدهر أن نعتبره أول مدرسة في العالم الإسلامي أم أول جامعة ، سوف نستيقن من الحكم في هذه المسألة بعد أن نعرض للمؤسسات التعليمية التي جاءت بعده من حيث التاريخ وكذا من حيث الترتيب والتنظيم والشمولية في التخصصات العلمية والشهرة في الطلاب والعلماء وقد أطلق على تلك المؤسسات التعليمية مدارس ! .

– مؤسسة سابور بن أردشير : ٣٨٣ هـ

سابور بن أردشير هو أحد المياسير من أهل بغداد إبتاع داراً في عام ٣٨٣ هـ في محلة بين السورين في منطقة الكرخ ببغداد وعمرها وأعدها لكي تكون داراً للعلم أو مدرسة ، وقد أوقفت على الفقهاء ، وقد جمعت هذه المؤسسة بين دار العلم حيث توفرت بها أدوات

التعلم من كتب وأوراق وأقلام وخلافه ، والمدرسة حيث قام فيها الفقهاء والعلماء بتدريس علوم الدين واللغة ، وهي أول مؤسسة من هذا القبيل في بغداد أنشئت في العصر العباسي .

– مدارس نيسابور : ٤٠٦ هـ

في نيسابور شيدت عدة مدارس كان أولها مدرسة ابن تورك في عام ٤٠٦ هـ، وبعدها شيد أبوبكر البيهقي المدرسة البيهقية في عام ٤٤١ هـ ، ثم المدرسة السعيدية التي شيدها الأمير نصر بن سبكتكين في عام ٤٥٨ هـ ، وبعدها مدرسة أبي إسماعيل الاسترابادى الواعظ ، ثم مدرسة أبي إسحاق الاسقرابيني ، ومدرسة أخرى شيدها الرحالة ناصر خسرو أثناء رحلته إلي نيسابور عام ٤٣٧ هـ بالقرب من سوق السراجين بأمر من طغرل بك السلجوقي .

– مدرسة الأمام أبي حنيفة : ٤٥٩ هـ :

أنشئت مدرسة الأمام أبي حنيفة النعمان قبل مدارس الوزير نظام الملك [النظامية] بعدة أشهر بإزاء قبر أبي حنيفة في عام ٤٥٩ هـ ، وقد نزل فيها الطلاب ورتب لهم مدرساً وخصصت لهم الجرايات من أوقافها .

– مدارس نظام الملك [النظامية] : ٤٥٩ هـ

انشأ الوزير العباسي نظام الملك مدارس عديدة كان أولها مدرسة بغداد في عام ٤٥٩ هـ أي بعد مدرسة الأمام أبي حنيفة بعدة شهور ، ثم تبعتها مدارس أخرى في البصرة والموصل وبلخ ونيسابور وهراة وأصفهان ومرو وقد عرفت جميعها بالنظامية .

وقد كان الدافع وراء إنشاء هذه المدارس في المشرق الإسلامي دافعاً مذهبياً وسياسياً وذلك لمناهضة نفوذ الفاطميين في مصر حيث قام الأزهر بدور مهم في ترويج المذهب الشيعي الفاطمي مما إضطر الخلافة العباسية إلي الرد بنفس الأسلوب .

- مدارس بغداد :

أنشئت في بغداد حاضرة الخلافة العباسية عدة مدارس كان أولها المدرسة الحنيفية التي أشرنا إليها ، وثانيها المدرسة النظامية وأنشئتا في عام ٤٥٩ هـ ، بعد ذلك توالى إنشاء المدارس ويمكن أن نذكر من تلك المدارس ما يلي :

* المدرسة النظامية : بدأ في بنائها أبو سعيد الصوفي في عام ٤٥٧ هـ وافتتحت في عام ٤٥٩ هـ ، وتعد هذه المدرسة من أشهر المدارس في العالم الإسلامي بعلومها وأوقافها وتقع على شاطئ نهر دجلة .

* المدرسة الكمالية : وقد أنشأها أبو الفتوح كمال الدين المعروف بابن بقشلان في عام ٥٥٦ هـ ، وقد وقف عليها الأوقاف وتقع عند باب العامة في الجانب الشرقي من بغداد .

* مدرسة بن الشمحل : أنشئت في عام ٥٥٦ هـ بمحلة المأمونية في الجانب الشرقي من بغداد وقد أوقفت عليها الأوقاف .

* مدرسة ابن هبيرة : أسسها الوزير العباسي بن هبيرة في بغداد في باب البصرة في عام ٥٥٧ هـ وقد أقام فيها الطلاب وأجرى عليهم الأرزاق .

* مدرسة دار الذهب : أسسها فخر الدين بن المطلب في عام ٥٦٨ هـ في عقدة المصطنع في محلة المأمونية من الجانب الشرقي من بغداد .

* مدرسة بنقشه : أسستها بنقشة بنت عبدالله التركية عتيقة المستضيئ في عام ٥٧٠ هـ في محلة باب المراتب قرب باب الأزج بأسفل البلد على شاطئ دجله .

* المدرسة الموفقية : وتنسب هذه المدرسة إلي موفق الخادم وتقع في الجانب الشرقي من بغداد في درب زاخي وتطل على شاطئ دجلة وقد تمتعت هذه المدرسة بالأوقاف .

• المدرسة الاصبهابزية : أسسها الاصبهابز صباهر بن خمارتكين ، وتقع في محلة بين الدربين في الجانب الشرقي من بغداد وكانت من المدارس ذات الوقف والتدريس كما كان لها نظار لرعاية وقفها في شئونها .

• مدرسة إقبال الشرابي : وقد افتتحت في عام ٦٢٨ هـ وتسمى الشرابية أو الشرفية نسبة لمؤسسها شرف الدين إقبال الشرابي ، وتقع في الجانب الشرقي من بغداد بسوق العجم بالشارع الأعظم مقابل درب الملاحين .

• المدرسة المستنصرية : تنسب إلي الخليفة المستنصر واستغرق بناؤها ست سنوات وافتتحت في عام ٦٣١ هـ وتقع على شاطئ دجلة

في الجانب الشرقي من بغداد مما يلي دار الخلافة ، وقد كثرت أوقاف هذه المدرسة وتميزت بأنها تدرس المذاهب الأربعة وبكثرة طلابها والجراية عليهم من الطعام والمال .

• المدرسة البشيرية : وتنسب إلي السيدة المعروفة ببنت بشير عتيقة الخليفة المستعصم وتقع بالجانب الغربي من بغداد ، بُدأ في تأسيسها عام ٦٤٩ وفتحت سنة ٦٥٣ هـ ووقفت عليها الوقوف ، وكانت تدرس فيها المذاهب الأربعة كالمستنصرية ، أما المدارس الأخرى التي ذكرناها فكانت تقوم بتدريس مذهب أو مذهبين .

– مدارس الشام :

كما انتشرت المدارس في المشرق الإسلامي انتشرت في مناطقه الأخرى ، ففي الربع الأخير من القرن السادس الهجري بلغ عدد المدارس في دمشق عشرون مدرسة ، وبلغت مدارس حلب ست مدارس .

- مدارس مصر الأيوبية :

بعد زوال دولة الفاطميين أعاد الأيوبيون المذهب السني في مصر ودعموا ذلك بإنشاء المدارس التي تعمل على الترسيخ لذلك المذهب في مصر ، فقد أقام صلاح الدين الأيوبي عدة مدارس نذكر منها :

* المدرسة الناصرية : شيدها صلاح الدين الأيوبي في عام ٥٦٦ هـ لدراسة المذهب الشافعي ، ثم اشتهرت بمدرسة ابن زين النجار أو المدرسة الشريفية وقد وقفت عليها الأوقاف وأجري على طلبتها .

* المدرسة القمحية : أنشأها صلاح الدين الأيوبي إلي جوار جامع عمرو بن العاص وقد خصصت لتدريس فقه المالكية وأوقفت عليها الوقوف .

* المدرسة الصلاحية : وقد شيدها صلاح الدين الأيوبي بجوار قبة الشافعي لتدريس فقه الشافعية وبإزائها الحمام ومساكن الطلاب .

* المدرسة الحسينية : شيدها صلاح الدين الأيوبي بجوار المسجد الحسيني المنسوب إلي الحسين بن على وخصصت لتدريس فقه الشافعية كذلك .

لقد بلغ عدد المدارس التي أنشئت في مصر خلال العصر الأيوبي أربع وعشرون مدرسة ومعظمها أنشأها صلاح الدين الأيوبي لتدريس فقه الشافعية والمالكية .

- مدارس شمال أفريقيا :

انتقلت ظاهرة المدارس كمؤسسات تعليمية إسلامية إلي شمال أفريقيا حيث شيدت أول مدرسة في تونس سنة ٦٥٠ هـ في ظل نظام الحفصيين وعرفت بمدرسة المعرض .

ولو ألقينا نظرة على نظام المدارس الذي قدمنا له أمكننا أن نستنتج عدة ملاحظات :

• الملاحظة الأولي أن المدارس في العالم الإسلامي قد جمعت بين الصبغة الاجتماعية التطوعية الخيرية وبين الصفة الرسمية ، فالأولى شهدناها في معظم مدارس بغداد الخيرية ومدارس دمشق وحلب ، والثانية نلمسها في مدارس النظامية والمستنصرية والأيوبية في مصر ومدرسة الحفصيين في تونس .

• الملاحظة الثانية أن المدارس التي قامت في العالم الإسلامي قد خُصصت في معظمها لدراسة المذاهب السنية الأربعة : فمنها ما خصص لتدريس مذهب واحد ومنها ما خصص لتدريس مذهبين ومنها ما خصص لتدريس المذاهب الأربعة .

• الملاحظة الثالثة أن المدارس المذكورة لم تدرس على الأرجح العلوم الطبيعية وإنما خصصت لدراسة فقه المذاهب الأربعة .

• الملاحظة الرابعة أن هذه المدارس إذا ما قورنت بالأزهر يمكن القول بأنه كان أكثر منها تقدماً في كل النواحي على الرغم من أنه الأُقدم تاريخاً .

❖ دور العلم وخزائن الكتب [المكتبات العامة والخاصة] :

ظاهرة أخرى في مجال العلم والتعلم والتعليم تبرز بوضوح السمة الاجتماعية للعلم – التي سبق وتحدثنا عنها — حيث يساهم المجتمع في مسائل التعليم بشكل تطوعي وهذه الظاهرة هي ظاهرة دور العلم وخزائن الكتب أو المكتبات العامة والخاصة ، وقد إزدهرت هذه الظاهرة في العصر العباسي بشكل يواكب إزدهار الفكر والثقافة والتأليف في كافة المجالات العلمية الدينية والدنيوية .

• فدور العلم هي عبارة عن مكتبات عامة ينشئها الخلفاء أو الحكام أو ذوو الشأن أو المياسير ثم يطلقون منافعها للاستعمال العام ويوقفون عليها الأوقاف لتسيير أمورها ، وقد انتشرت هذه النوعية من المؤسسات العلمية وعمت فائدتها في العديد من الحواضر

الإسلامية ويلاحظ أنها أنتشرت في حواضر الخلافة والحواضر الكبرى مثل بغداد ودمشق والقاهرة وحواضر الأندلس مثل قرطبة وغرناطة وأشبيلية وطليطلة وسبب ذلك كلفتها العالية واحتياجها إلي المصروفات الدائمة والوقوف التي توقف عليها .

ففي بغداد نُقلت إلينا أخبار العديد من دور العلم أو المكتبات العامة ، فقد أنشأ الخليفة المعتضد في قصره في الشماسية في بغداد داراً للعلم تحوى تخصصات عديدة ومذاهب شتى وجمعت كما انتهى إلينا العلوم النظرية والعملية وجُعل على كل علم أو صنعة كبير يرجع إليه للاستفادة من علمه أو خبرته ، وأجرى الخليفة على هذه الدار الأرزاق الأميرية من الدولة .

كذلك كانت هناك دار علم الوزير العباسي شابور أردشير التي أسسها عام ٣٨٣ هـ في محلة بين السورين في بغداد الغربية ووقف عليها الأوقاف وأدت دورها بشكل جيد إلي أن احرقها السلاجقة في عام ٤٥٠ هـ ، فأنشأ غرس النعمة الصابي دار كتبه مكانها .

أيضاً كانت هناك دار علم الشريف الرضى الذي كان ينفق على طلابها من ماله الخاص وقد حوت تلك الدار كتباً في علوم شتى في اللغة والأدب .

ثم كانت هناك دار علم ابن المارستانية التي تقع في الجانب الشرقي من بغداد في الشاكرية وقد أسسها عام ٥٨٣ هـ ، ودار علم " دار المسقاة " التي أسسها الخليفة الناصر في عام ٥٧٦ هـ وقد زودت كل هذه الدور بكافة إحتياجات التحصيل والمطالعة والاستنساخ إلي جانب الكتب النادرة التي يصعب الحصول عليها ، وكان بعض هذه الدور يوفر إحتياجات مرتاديها من الغذاء .

وفي الموصل أنشأ أبو القاسم جعفر بن محمد بن حمدان داراً للعلم في عام ٣٣٣ هـ ووقف عليها الأوقاف ، وقد اشتملت على أنواع الكتب المختلفة وحاجات الطلاب والمرتادين من لوازم وكانت الموصل في ذلك الوقت هي حاضرة الدولة الحمدانية .

وفي مصر أنشأ الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله داراً للعلم بجوار القصر الغربي في القاهرة فتحت أبوابها للمرتادين في عام ٣٩٠ هـ ، وقد زودت هذه الدار بالكتب النادرة في كافة التخصصات مثل النحاة وأصحاب اللغة والأطباء والفلكيين وقد أجرى الخليفة عليهم الأرزاق ، وكانت منافع هذه الدار عامة لجميع الناس ، وقد اشتهرت هذه الدار في ذلك العصر حيث تكاملت مهامها مع الأزهر ، وقد زودت بلوازم النسخ كالمحابر والأقلام والورق وغير ذلك من مستلزمات .

* أما خزائن الكتب أو المكتبات الخاصة فقد انتشرت هي الأخرى في حواضر العالم الإسلامي ، ففي بغداد اشتهرت خزائن الخطيب البغدادي الذي وقف فيها الكتب للمنتفعين وخزائن أبي عبدالله الحميدي وقد وقف فيها الكتب كذلك ، وخزائن أبي العز الجيلي وأبي محمد المقرئ وأبي على المعروف بالمسكين ، وأبي الفضل بن ناصر ، وأبي محمد بن الخشاب وخزانة تربة سلجوقة خاتون ، وخزانة أبي الفضل بن القضاء ، وخزانة تربة زمرد خاتون ، وخزانة أبي المظفر الكاتب البغدادي ، وخزانة على بن يحي المعروف بالمنجم ، وكانت في قصره وقد اشتملت على أنواع المؤلفات من العلوم ووقفت على الطلاب والباحثين والعلماء .

وفي البصرة روى عن خزانة للكتب كان صاحبها يجرى المال على من قصدها ولزم القراءة والنسخ ، كذلك روى عن أخرى في شيراز شيدها عضد الدولة وزودها بالكتب ورتب فيها العاملين لخدمة مرتاديها .

وفي القاهرة أنشأ الخليفة الفاطمي العزيز بالله في القصر داراً للكتب " لم يكن اعظم منها في بلاد الإسلام " وكانت هذه الـدار تتكـون من أربعين خزانـة [مكتبـة] روى أن مجمـوع ما تحويه من كتب بلغ مليوناً وستمائة ألفاً في مختلف الموضوعات والتخصصات .

وفي الأندلس أنشأ الخليفة الحكم بن الناصر في عام ٣٥٠ هـ مكتبة ضخمة في القصر المكي في الزهراء احتوت على أربعمائة آلف مصنفاً في شتى العلوم ورتب فيها العاملين لخدمة القراء والباحثين وطلبة العلم .

❖ مؤسسات أخرى :

فيما أسلفنا من حديث حول التعليم ومؤسساته في العـصر العباسـي أوضـحنا كيـف كانـت مسألة العلم مسألة نابعة من المجتمع وكيف قام بها من خلال أفراده سواء أكـانوا حكامـاً أو متنفذين أو مياسير وكيف كانت هناك مـساندة مـن الدولـة ممثلـة في مؤسـساتها العامـة وصلاحياتها وتجدر الإشارة إلي مؤسسات أخرى قامت بدور مهم في مـسألة التعلـيم ولكـن أيضاً بشكل وصبغة اجتماعية مثال ذلك الـربط والزوايـا الـتي انتـشرت في المغـرب العربـي وكانت تقام فيها حلـق الـدرس وتقتنـى فيهـا الكتـب للبـاحثين والقـراء ، وكانـت هنـاك مجالس القصور والصالونات الأدبية التي تعقد في قصور وفيلات الأثرياء والمياسير والحكـام وكانت بمثابة مباريات ومطارحات فكرية وأدبية يرتادها كبـار المفكـرين والأدبـاء والعلمـاء والـشعراء والفقهـاء وغيرهـم ، كـذلك كانـت هنـاك حوانيـت الـوارقين أي بـائعو الكتـب والمجالس الخاصة للحكام والأمراء وكلها مواطن مهمـة لإثـراء الحـصيلة الأدبيـة والفكريـة لدى طبقة معينة في العصر العباسي .

ولعل السمة المميزة للمؤسسات الأخيرة أنها ليست في متنـاول إلا طبقـة الأغنيـاء والأثريـاء والمفكرين والعلماء والفقهاء المعروفين الذين يكون بمقدورهم إرتيـاد هـذه الأمـاكن ومجالـسة كبار القوم من الحكام والأمراء وكبار رجال الدولة من وزراء ومتنفذين ، ومن ثـم فـإن هـذه المجموعة من المؤسسات كانت قاصرة على طبقة الأغنياء فقط .

المبحث الخامس

العلوم الطبيعية وتطبيقاتها

ننتقل في هذه الجزئية إلي تحليل ما اشتهر به العصر العباسي وبرع فيه وهو العلوم الطبيعية وتطبيقاتها ، فقد شهد هذا العصر انطلاقة الحضارة الإسلامية في العلوم الطبيعية وتطبيقاتها التي وصلت إلي مداها وازدهرت إلي أن صارت أهم سمات ذلك العصر وأعظم مقومات الحضارة الإسلامية وكانت أداة مهمة من أدوات الخطاب والتحاور بين تلك الحضارة والحضارات الأخرى السابقة والمعاصرة واللاحقة .

ولعله من المجدي في هذا الصدد أن ندفع في مقدمة هذه الجزئية بزمرة من الملاحظات الأولية حول مسألة العلوم الطبيعية في العصر العباسي :

❖ العلوم الطبيعية في العصر العباسي تمثل انفتاحاً للحضارة الإسلامية على الكون ومفرداته وتحاوراً مع موجوداته ، نرى ذلك في علوم الجغرافيا والتاريخ والتاريخ الطبيعي وعلم الأرض والرياضيات والفلك والبصريات والموسيقي .. الخ .

❖ كذلك كانت العلوم الطبيعية بمثابة انفتاح وحوار مع الحضارات السابقة والحضارات المعاصرة ، فلقد انكب المسلمون منذ أن قُدّر لهم النجاح في فتوحاتهم على حضارات السابقين وثقافات المعاصرين ففتشوا فيها ونقبوا عن كل قيمة فأضافوا إليها وعمقوها وصححوا ما بها من إعوجاج أو خطأ .

❖ لقد كانت العلوم الطبيعية في العصر العباسي تنم عن فهم أوسع واستيعاب أشمل لمسألة العلم في المرجعيات الإسلامية المتمثلة في القرآن والسنة ، وقد حسم العصر العباسي إشكالية مهمة كانت دوماً مثار جدل وهي موقف الإسلام من العلم الطبيعي حيث أكد على أن العلم

جميعاً فريضة وأن العلاقة بين العلم الطبيعي وعلم الدين هي علاقة تبادلية حيث أن كلاً منهما مهم للآخر ويرسخه .

❖ انتقلت العلوم الطبيعية في العصر العباسي من مرحلة التطبيق والممارسة والفعل الذي فرضته ظروف الحياة ومتغيرات المجتمع في العصور السالفة الراشدي والأموي إلي مرحلة التنظير فيما عرف بفلسفة العلوم حيث وضعت المصنفات والمؤلفات في مختلف العلوم الطبيعية واقترنت كذلك بتطبيقاتها ، فالعصر العباسي إذن هو عصر النضج حيث جمع المسلمون بين النظرية والتطبيق في العلم الطبيعي .

❖ لقد كانت العلوم الطبيعية في العصر العباسي نتاجاً لجهود فكرية وذهنية بذلها علماء المسلمين ليقدمونها للإنسانية برهاناً ساطعاً على خصيصة من أهم خصائص الحضارة الإسلامية وهي الإنسانية المطلقة والعالمية التي لا تعرف الحدود ولا تقف عند الأعراق والأجناس ، وسوف نوضح ذلك ونفصله في حينه ، أما الآن فإلى تفصيل العلوم الطبيعية في العصر العباسي وذلك من خلال ما يلي :

❖ الترجمة :

نبدأ بالحديث عن الترجمة في سياق الحديث عن العلوم الطبيعية بوصفها حلقة الوصل المهمة التي ربطت بين علماء المسلمين ومفكريهم وبين الثقافات والحضارات الأخرى السابقة عليهم والمعاصرة لهم ، وقد شهدت الترجمة في العصر العباسي تطوراً يحتاج إلي تفصيل .

يمكن القول أن عملية النقل إلي العربية التي تمت خلال العصر العباسي كان لها دور مهم في إثراء العلوم الطبيعية عند المسلمين ، ولم تكن عملية النقل هذه وليدة ذلك العصر ولكن جذورها امتدت — كما سبق وأوضحنا — إلي العصر الأموي حيث دخل إلي الإسلام أمم

عديدة مثل الفرس والروم والهنود وغيرهم ، ونظراً لأهمية عملية النقل إلي العربية في كونها تمثل أول تعاطى أو تفتح للمسلمين على الآخرين حضاراتهم وثقافاتهم وأول استقبال لنتاجات وإفرازات الغير فسوف نقدم لعملية الترجمة أو النقل إلي العربية بجملة من الملاحظات الأولية التي لها أهميتها في هذا الصدد :

• أفضت حركة الترجمة أو النقل إلي العربية التي شهدها العصر العباسي إلي ترسيخ إحدى الخصائص المهمة للحضارة الإسلامية وهي النزعة الإنسانية ، فالمتابع لحركة الترجمة يستطيع أن يكتشف أن تلك الحضارة وهي بصدد الاطلاع على موروثات الآخرين وممتلكاتهم الحضارية والفكرية لم تشترط أن تكون أداة التواصل ذات توجه ديني أو قومي محدد إسلامي عربي مثلاً بل اعتمدت على وسائط مسيحية ويهودية غير عربية في أغلب الأحوال ، وعليه فالعلم الإسلامي الطبيعي لم يفرق بين هوية دينية أو قومية .

• لقد تأثر المسلمون في مجال العلوم الطبيعية عندما انفتحوا على الأمم السابقة والمعاصرة حضارتها وثقافاتها إبان الفتوحات الإسلامية بكل من الإغريق والهنود ، وقد كان التأثر أشد وأوثق بالعلوم الهيلينية وسبب ذلك أن النصارى الأوثق صلة بالإغريق هم الذين تولوا نقل العلوم الإغريقية إلي العربية ، وكذلك فعل الفرس ولكنهم كانوا اقل تأثراً بالإغريق وأضعف إرتباطاً فنقلوا إلي العربية ما تواءم مع مقدار تأثرهم وارتباطهم ، وفي المرتبة التالية جاء التأثر بالعلوم الهندية ولكنه كان لدى المسلمين اقل من التأثر بالهيلينية ، ولعل في ما تقدم ما ينبه الأذهان مرة أخرى إلي الدور الرائد الذي قام به النصارى واليهود وغيرهم في حركة النقل إلي العربية .

• ومما يجدر ذكره أيضاً في هذا الصدد أن اللغة العربية ساعدت كثيراً في إنجاح حركة النقل وعملية الترجمة فقد كانت لغة سهلة طيعة تواءمت مع طبيعة العلوم الطبيعية التي تحتاج إلي الأسلوب البسيط المعبر عن الفحوى والمضمون بشكل مباشر وعلى أثر ذلك أوجد

ضرب من الأسلوب اللغوي الذي يتواءم مع العلوم الطبيعية ويتواءم مع الإلمام المتواضع للمترجمين والناقلين وهو أسلوب يتسم بالبساطة والتعبير ذي الدلالة الخاصة .

• لقد لقيت حركة الترجمة تأييداً وتشجيعاً واسعي النطاق من فئتين مؤثرتين في الوسط العلمي والفكري في ذلك الوقت ، الفئة الأولى : هي فئة الولاة والحكام العباسيين الذين شملوا المترجمين برعايتهم وأغدقوا عليهم الأموال بل وطلبوا منهم ترجمة بعض المؤلفات بشكل مباشر ، فكان أن قصد المترجمون بغداد من كافة المناطق للإسهام في تلك الحركة والفوز برضا الخلفاء ، فقد إنتقل علماء مدرسة حران ، وهم من السريان الذين يتكلمون الآرامية ، إلي بغداد وعملوا على نقل كتب التراث اليوناني التي حصل عليها الخلفاء العباسيون كالمنصور والمأمون أو مما جلب من مناطق عربية مثل عمورية وأنقره بعد أن فتحها المسلمون ، أو التي جلبت من جزيرتي قبرص وصقلية بعد فتحها .

الفئة الثانية : وهي فئة المياسير الذين كان لديهم حب للمعرفة وعلى دراية بالعلوم في شتى تخصصاتها ، وقد بذل هؤلاء من الأموال الكثير من أجل ترجمة المؤلفات من اللغات المختلفة ، وممن أشتهر في هذا المجال أولاد موسى بن شاكر محمد وأحمد فقد ولعا بترجمة التراث اليوناني وكان حنين بن إسحاق من أبرز المترجمين الذين استعانا بهم مقابل راتباً شهرياً مجزياً ، وكذلك عرف في هذا الخصوص محمد بن عبدالملك الزيات الذي أنفق على الترجمة أموالاً طائلة .

أما عن أشهر المترجمين ، واللغات التي ترجموا عنها والعلوم التي ترجموا فيها فيمكن رصدها في الآتي :

* الترجمة من السريانية واليونانية والآرامية إلي العربية :

كانت الترجمة من السريانية واليونانية إلي العربية من أهم الترجمات التي مكنت المسلمين من الاطلاع على التراث الإغريقي الهيليني الذي أتاح لهم فرصة تنقيحه وتصحيحه والإضافة إليه وإنتاج إسهامات استفاد منها العالم فيما بعد ، ويمكن الإشارة إلي أهم الإنجازات في هذا السياق فيما يلي :

○ في وقت مبكر من العصر العباسي الأول قام ثيوفيل بن توما الرهاوي بنقل أحد كتب جالينوس أشهر أطباء اليونان الأقدمين بعد أبقراط ، وكان ذلك يمثل أول اطلاع للمسلمين على مؤلفات ذات شأن في الطب الهيليني .

○ كذلك وفي وقت مبكر من العصر العباسي الأول قام جورجيوس بن نحتيشوع رئيس أطباء مارستان جنديسابور والذي كان يجيد اليونانية والسريانية والفارسية والعربية بناءً على طلب من الخليفة المنصور بترجمة ثلة من أشهر كتب الطب الإغريقية .

○ واصل الخليفة المنصور رعايته للترجمة والنقل إلي العربية فكلف أبا يحي بن البطريق بترجمة مجموعة من أشهر كتب الطب لأشهر المؤلفين الإغريق جالينوس وأبقراط وبطليموس وكلها عن اليونانية ، ونُسب إلي بن البطريق كذلك ترجمة كتاب أقليدس وكتاب المجسطى لبطليموس الشهير في الفلك ، وكتابه " الأربع مقالات " وهو رسالة في صناعة أحكام النجوم .

○ أما الرشيد فقد كلف يوحنا بن ما سورية بترجمة الكتب التي عثر عليها في أنقرة وعمورية وكان معظم هذه الكتب في الطب إلي جانب علوم أخرى باللغة اليونانية .

○ ازدهرت الترجمة في عهد الخليفة المأمون وظهر في هذه الحقبة شيخ المترجمين حنين بن إسحاق وقد نقل إلي السريانية خمسة وتسعين كتاباً ونقل إلي العربية من السريانية

ولغات أخرى مثل اليونانية تسعة وثلاثين كتاباً ، وقيل " أن الخليفة المأمون كان يعطيه من الذهب وزن ما ينقله من الكتب " وقد اهتم حنين ابن إسحاق بمؤلفات جالينوس في الطب ويبدو أن حنيناً كان يفضّل جالينوس على غيره من المؤلفين اليونانيين ، ولو أن هذا المؤلف الإغريقي كان معروفاً قبل الإسلام وقد كشف بالفعل حنين الضوء حوله ، وكانت شهرته ترجع إلي أسباب عديدة لعل منها ما اتسمت به كتاباته من الشمولية والنزعة الفلسفية إضافة إلي أسلوبها الأدبي الذي يصنفها في عداد الثقافة العلمية .

○ وبالنسبة إلي الخليفة المعتضد فقد كان على علاقة وطيدة بثابت بن قرة الذي نقل القسم الأكبر من كتب اليونان في الرياضيات والفلك وأشهرها كتب أرخميدس وابلونيوس وقد أجرى علماء المسلمين تعديلات على بعض ما جاء في تلك المؤلفات وأضافوا إليها .

* الترجمة من الفارسية والتركية إلي العربية :

○ في وقت مبكر شمل أواخر العصر الأموي وأوائل العصر العباسي الأول قام عبدالله بن المقفع بترجمة كتاب كليلة ودمنة وهو كتاب هندي الأصل نقل إلي الفارسية ، كما نقل كتاب الأدب الكبير والأدب الصغير عن الفارسية وعن الفارسية كذلك نقل كتاب التاج والدب والثعلب واليتيمة وغيرها من الكتب الأدبية الفارسية والتركية .

○ بناءً على رغبة الخليفة المنصور قام أبو سهل بن نوبخت بترجمة كتاب في الكواكب عن الفارسية وقد أشتهر الفرس ببروعهم في مجال الفلك والتنجيم .

○ وترتيباً على ولع الخليفة المنصور بالفلك والنجوم نقل له محمد بن إبراهيم الفزاري عن الفارسية كتاب " سندهانتا " ومعناه مقالة النجوم وسماه " السند هند " .

○ قام أبو الحسن على بن زياد التميمي بنقل كتاب " زيج الشهريار " .

* الترجمة من الهندية إلي العربية :

كانت اللغة الهندية هي أقل اللغات التي نقل عنها العرب المسلمون في العصر العباسي لمحدودية الاختلاط من جهة ولمحدودية الإسهامات الحضارية والثقافية الهندية في مجرى الحضارة الإنسانية من جهة أخرى ، فبنظرة سريعة نلاحظ أن إسهام الحضارة والثقافة الإغريقية الهيلينية ثم الحضارة الفارسية كان أوسع وأشمل وأعمق في مجرى الحضارة الإنسانية من الحضارة الهندية ، ومع ذلك فقد أخذ المسلمون عن الحضارة والثقافة الهندية بعض ما اشتهرت به وبالذات في مجال الطب .

- فقد قام كنكة أو منكة الهندي الذي قدم بغداد لعلاج الخليفة الرشيد بترجمة بعض الآثار في مجال الطب والعقاقير .
- كذلك قدّم ابن وهز الهندي الذي عهد إليه البرامكة بالاشراف على البيمارستان الذي نسب إليه بعض الإسهامات في مجال الترجمة الطبية من الهندية .

❖ العلماء الموسوعيون :

من سمات العلم والتعليم في عصر الإزدهار الإسلامي وهو العصر العباسي تفوق الكثير من العلماء في أكثر من حقل من حقول العلم والمعرفة ، ويدل ذلك على الارتباط بين حقول العلم والمعرفة المختلفة كما يدل كذلك على سعة أفق العلماء المسلمين وعمق مداركهم وكما كانت هذه السمة سائدة عند علماء المسلمين كانت كذلك عند علماء ومفكري الإغريق الأقدمين وكانت بشكل أقل في الحضارات الأخرى مثل الهندية والفارسية والصينية ، ويمكن الحديث عن اثنين من أهم العلماء الموسوعيين المسلمين في العصر العباسي وهما : أبو بكر محمد بن زكريا الرازي وأبو الريحان البيروني من خلال ما يلي :

• أبو بكر محمد بن زكريا الرازي : ٢٥٠ – ٣١٣ هـ :

يعد الرازي من أوائل العلماء الموسوعيين المسلمين ، ولعل الحديث عن هذا العالم الموسوعي يعطي انطباعاً عن الجو الفكري والعلمي السائد في العصر العباسي ، وهذا ما سوف يتضح من استعراض سمات فكر الرازي وطريقة تفكيره :

○ سمات فكر الرازي وطريقة تفكيره :

اتسم فكر الرازي وأسلوبه في التفكير بمجموعة من السمات ميزته عن غيره من العلماء والمفكرين في تلك الحقبة ويمكن تناول تلك السمات في الآتي :

□ تعدد مجالات المعرفة والعلم والإنتاج :

من أهم سمات الرازي كمفكر وعالم أنه عدد المجالات والحقول العلمية والمعرفية التي أهتم بها وخاض فيها بحوثه وتجاربه ومن ثم مؤلفاته ونتاجاته الأدبية العلمية ، ويعد أبو بكر الرازي في العلوم ومعاصره أبو نصر الفارابي في الفلسفة من أوائل العلماء الموسوعيين المسلمين في التاريخ الإسلامي اللذين عدداً من مجالات العلم والمعرفة والتأليف ، وسوف نتحدث بشيء من التفصيل عن المجالات والحقول التي تعمق فيها الرازي في الجزئية التالية .

□ الإلمام الكامل والعميق بعلوم الأوائل وبالذات الإغريق الأقدمين :

كذلك اتسمت شخصية الرازي بسعة الإطلاع وعمق التفكير ودقة البحث في علوم الأوائل وقد نال العلم اليوناني بكافة مجالاته وتخصصاته نصيباً وافراً من إهتمام الرازي ، فقد اطلع بعمق وتوسع على العلوم اليونانية ولم يكتف بذلك بل استخدم المنهج النقدي في اطلاعه ومتابعته لهذه العلوم ولعله كان من أوائل العلماء المسلمين الذين استخدموا هذا المنهج بل من أول علماء العالم ، فقد لوحظ أن كافة من قُدِّر لهم الاطلاع على علوم اليونان

من فرس وهنود ورومان وغيرهم قد انكبوا على تلك العلوم على أنهـا مـسلمات تعتنـق دون تمحيص وكان من أول من اتبع معهم الرازي هـذا المـنهج النقـدي هـو جـالينوس الطبيـب والعالم اليوناني المعروف ، وقـد استـشهد مـن جـاء بعـد الـرازي بانتقادتـه الـتي وجههـا لجالينوس ، وقد تمكن من تفنيد العديد من المعتقـدات والاستخلاصـات الفكريـة والعلميـة للعلماء الأوائل وتصحيح تلك الحقائق بمنهجه المميز .

☐ اتباع منهج علمي متفرد :

اتبع أبو بكر الرازي منهجاً علمياً يتسم بالموضوعية ويرتكن علـى التجربـة والمـشاهدة وقـد استخدم هذا المنهج في كافة بحوثه ومؤلفاته مما جعل تلك النتاجات القيمة تلقـى " شـهرة واسعة في الغرب حيث ظلت مؤلفاته حجة يؤخـذ بهـا دون مناقـشة حتـى القـرن الـسابع عشر " ، وهذا المنهج العلمي قد وضع الرازي في مقدمة علماء المسلمين الذين اثبتوا حقيقـة أن الدين الإسلامي هو دين العلم سواء أكان علماً طبيعياً أم علماً دينياً .

☐ الاعتماد على العقل :

انطلاقاً من التوجه العلمي والمنهج النقدي الذي اسـتخدمه الـرازي في المجـالات والميـادين العديدة التي بحث فيها لم يجد بداً من أن يقرر أن العقل هو أساس كل شيء فهو أسـاس التفكير والفكر والعلم ومن ثم وجد الرازي نفسه يُفرط في الاهتمام بالعقل والتعويـل عليـه في كل شيء إلي درجة أثرت على فكرته عن الأديان عموماً مما جعله يبـدو وكأنـه يـرفض أو على الأقل يتجاهل الكثير من الحقائق الدينية ذات الصفة الغيبية ولو أن الرازي لم يـصل إلي درجة أثرت على فكرته عن الأديان عموماً مما جعله يبدو وكأنه يرفض أو على الأقـل يتجاهل الكثير من الحقائق الدينية ذات الصفة الغيبية ولو أن الرازي لم يصل إلـي درجـة إنكار وجود الله ، ولكنه قطع شوطاً بعيـداً في التـشكيك في الأديـان عمومـاً ممـا وضـعه في

مواجهة صريحة مع كثير من العلماء الذين اطلعوا على فكره ومنحهم الفرصة لكي يصفونه بالزندقة .

□ القصور في فهم فكر الرازي واستيعابه :

لا شك في أن الرازي كان عالماً موضوعياً اعتمد لنفسه منهجاً علمياً نقدياً يقوم على التجربة والملاحظة والاستنباط والاستدلال بشكلها الأصولي وكان سبيله في ذلك هو الاعتماد على العقل والنزوع نحو الابتكار والإبداع ، ولم يجد غضاضة في أن ينتقد الفقه التقليدي ويشكك في جدواه وما يمكن أن يضيفه للدين الإسلامي ، ومن ثم فقد كان الرازي رائداً لروح غير مألوفة من التجديد والإبداع القائمة على العلم والعقل وهذان العنصران لا يرفضهما الدين بل يحث على استخدامهما بما يضيف إليه ويساعد الناس على فهمه وتعميق ذلك الفهم ، إلا أنه يبدو أن هذه الروح بسماتها التي ذكرناها بدت في تلك الحقبة خطيرة ونظر إليها علماء الفقه التقليدي على أنها خروج على الإسلام ويجب محاربتها وتعاملوا معها بروح عدائية صريحة ، ونعتقد أن ذلك اللبس الذي حدث كان ناشئاً عن قصور في فهم فكر الرجل ومنهجه المبتكر الذي بدا وكأنه بدعة مضلة ، كما أن الظروف السائدة في تلك الحقبة لم تكن أبداً تساعد على استيعاب الجديد واحتوائه وتطويعه بسهولة ، إلا أنه يلاحظ أن أفكار الرازي ومنهجه تعامل معهما الإسلام بتسامح يكرس سمة ذلك الدين ويرسخ روحه التي جاء بها ، وإن كان ذلك قد " أتاح الفرصة للمواجهة بين الأديان المختلفة على نحو لم يُسمع به من قبل في أي مكان آخر " .

□ نتائج التعمق الفكري والمنهج العلمي والأسلوب النقدي عند الرازي :

أتسمت أفكار الرازي بالعمق الفكري كما اتصف منهجه العلمي بالابتكار وأسلوبه النقدي بالإبداع وقد قادت هذه الثلاثية إلي أن يتعامل الرازي مع الأفكار الدينية والمسائل الغيبية

المرتبطة بها بعمق وعلمية معتمدة على العقل وموضوعية معتمدة على الشك والتفنيد وقد مثلت هذه المعالجة للمسائل الدينية والغيبية خروجاً على النمط الفكري القائم آنذاك لقد شك الرازي في كل ما هو غيبي ، ولكنه لم يبق إلا على حقيقة واحدة مطلقة انطلق منها هي وجود الله سبحانه وتعالى ، وكانت هذه الأفكار الجريئة بالفعل تبدو خطيرة ومخيفة في زمن الرازي ، فكان أن جرّت عليه وعلى أفكاره وأسلوبه العلمي المنهجي وابلاً من النقد والهجوم ، وقد زاد الأمر حدة أنه لم يعف الفقه الإسلامي التقليدي في ذلك الوقت من النقد والشك ، فجّيش ضده جميع الفقهاء وضمهم إلي جملة خصومه وبدا الرجل في نظر كل هؤلاء زنديقاً خارجاً عن الدين وكانت تلك نتيجة منطقية لما اتسم به الرازي من عمق فكري وما استخدمه من منهج علمي وأسلوب نقدي .

□ الاستقلالية في التفكير والجرأة في الحكم على الأمور والطرح :

لم يكن الرازي في أي مجال من المجالات التي خاض فيها صداً لغيره أو مردداً لما قال به الآخرون ولكنه فنّد وانتقد وصحح وأضاف إلي من سبقوه ، ووضع أفكاراً جديدة وصاغ نظريات خاصة به معتمداً على طريقته في التفكير ومنهجه العلمي .

ولقد بدت الروح الاستقلالية في التفكير ، والجرأة في الحكم على الأمور والظواهر وطرح الأفكار الجديدة على جميع أعمال الرازي العلمية والفكرية وأهّلته لأن يُصنف على أنه أول علماء زمانه الذين قُدّر لهم أن ينتهجوا منهجاً علمياً مستقلاً ويمتلكوا القدرة على الطرح الفكري الجريء ، ولكن هل يؤخذ على الرازي أنه حاول أن يستخدم المنهج العلمي ويُعمل العقل على إطلاقه فيما يتعلق بقضايا غيبية هي من لزوميات الإيمان وترفض بطبيعتها أن تخضع للمنهج العلمي وتأبى أن تنصاع لقوى العقل الذي لابد أن يكون إزائها قاصراً محدوداً ! .

إن متابعة متأنية لبعض أعمال الرازي ذات الصفة الفكرية وقراءة فاحصة لبعض الترجمات الخاصة بحياته لتفضي إلي أن الرجل كان واعياً تماماً لما يعتقد ويقول ويرى ، فهو لم يكن يفند من أجل التفنيد والشك في ذاتهما ولكن لكي يؤسس لبناء فكري رصين قائم على الفهم والاستيعاب المتكئين على المنهج العلمي والتفكير العقلي ونستشف ذلك بجدارة في الانتقادات اللاذعة التي وجهها الرازي للمذاهب التي خرجت على الثوابت والرواسخ التي يقوم عليها الإيمان ، إلا أن ما جعل فكر الرازي ومنهجه يبدوان في تناقض وعدم إتساق هو أنه في الوقت الذي كان ينتقد المذاهب الخارجية — كما سبق القول — كان ينتقد كذلك الفقه التقليدي السائد في عصره ، فإذا بدا انتقاده الأول مقبولاً ومريحاً فإن انتقاده الثاني كان مستهجناً ووصم منهجه في كثير من المجالات بالتناقض وأوقع من تابعوه في حيرة وتشتت جعلهم يعتذرون عن عدم تمكنهم من مواصلة تأييده وموالاته في القضايا الدينية والفلسفية .

□ التطرف والغلو في الآراء الدينية والفلسفية :

إن ما ينبغي أن يقرره أي متابع لأعمال الرازي وآرائه في شئون الدين والفلسفة هو أن الرجل قد بدا متطرفاً ومغالٍ إلي حدود غير مقبوله في تلك الآراء بالرغم مما يمكن أن نخفف به من وطأة الأمر عندما نتذرع بالمنهج العلمي المبتكر والأسلوب النقدي الجديد ، فبالرغم من الارتباط الروحي العميق بين أبي الريحان البيروني خليفة الرازي والرازي الذي كان يعتبره أستاذه ومثله الأعلى وكان يعتبر نفسه من أهم وأول أتباعه إلا أن البيروني اعتذر آسفاً لأنه لم يستطع تأييد آراء الرازي الدينية والفلسفية ولم يكن من أتباعه في تلك الجوانب لأنه كان متطرفاً مغالياً .

○ أعمال الرازي والمجالات التي أبدع فيها :

أبدع الرازي في مجالات عديدة جمعت بين الطب والعقاقير والعلوم الطبيعية والفلسفة والدين ويمكن الإشارة إلي بعض المجالات التي أبدع فيها الرازي كعالم موسوعي من خلال الآتي :

□ في مجال الطب :

كان الطب من أهم المجالات التي أبدع فيها الرازي " وقد أحرز شهرة واسعة في الغرب حيث ظلت مؤلفاته حجة يؤخذ بها دون مناقشة حتى القرن السابع عشر " ، وضع كتابه الطبي العظيم الحاوي وكتاباً آخر تحت عنوان " الطب المنصوري " ، وكتاب " الشكوك على جالينوس " انتقد فيه جالينوس وابرز الكثير من أخطائه ، وكتاب " الجدري والحصبة " وهو كتاب شهير عرّف فيه لأول مرة تعريفاً علمياً دقيقاً الفرق بين الجدري والحصبة .

□ في مجال الفراسة :

كان للرازي طريقته الخاصة في علم الفراسة حيث اعتمدت على منهج ينحو منحاً علمياً أسسه على قواعد مبتكرة وأصول راسخة ، وقد خصص الرازي قسماً للفراسة في كتابه " الطب المنصوري " حمل عنوان " جمل أحكام الفراسة " .

□ في مجال الكيمياء :

لم يكن الرازي سيميائياً ، بل كان من أول العلماء الذين أسسوا علم الكيمياء وفرقوا بينه وبين السيمياء ، وكان الرازي في ذلك فريداً ، فقد استخدم منهجه – الذي سبق وأشرنا إليه – ، حيث آلّم بآراء من سبقه من الكيميائيين ، ثم قدم تقسيماً منطقياً للعناصر المعروفة لديه ، واختلف في ذلك عن سابقيه ، كذلك قدم أوصافاً دقيقة للأدوات والطرق

التي استخدمها في تجاربه العلمية ، ومن خلال تجاربه استخلص نتائج أسسها على ملاحظاته ، وضمن كل ذلك كتابه الشهير "سر الأسرار " .

□ في مجال الدين والفلسفة :

في مجالي الدين والفلسفة قدم الرازي آراءاً حاول أن يطبق عليها منهجه النقدي العلمي الذي يعتمد على العقل ولكنه تجاوز حدود الاعتدال فبدت تلك الآراء متطرفة مغالية وقفت من الأديان والمسائل الغيبية موقفاً معادياً مما جعل علماء الدين ينظرون إليها على أنها خروج غير مقبول ، ولو أن الرازي لم يعتبر نفسه كذلك .

* أبو الريحان البيروني : ٣٦٢ - ٤٤٢ هـ :

أبو الريحان البيروني هو العالم الموسوعي المسلم الثاني الذي اتسع نطاق اهتماماته العلمية ليشمل ميادين عديدة ، وكان البيروني تلميذاً وفياً ومخلصاً لأستاذه أبوبكر الرازي بالرغم من أنه لم يوافقه في آرائه المتطرفة في الدين والفلسفة ، وقد أعرب عن أسفه الشديد عن ذلك الجنوح الذي اتسمت به أفكار الرازي ، وانطلاقاً من إعجاب البيروني بالرازي وتقديره له ولعلمه فقد وضع رسالة تحت عنوان " فهرست كتب محمد بن زكريا الرازي " ذيلها بقائمة بأسماء مؤلفاته هو ، والتوضيح فيما يلي :

○ خصائص فكر البيروني ومنهجه :

مثل أستاذه اتخذ البيروني لنفسه طريقة في التفكير ومنهجاً في البحث كانا سبيله لأن يصبح بكل تأكيد " أعظم عالم مسلم في العصور الوسيطة " ، ويمكننا من خلال ما قدّر الاطلاع عليه من آثار البيروني وما كتب عنه أن نحدد بعض الملامح لفكره ومنهجه من خلال الآتي :

□ اتساع نطاق اهتماماته :

الواقع أن البيروني قد فاق الرازي في اتساع نطاق اهتماماته ، فقد قدم إسهامات مهمة في العلوم الطبيعية والتاريخ والشعر القديم واللغة ، وقد اقترن ذلك التوسع في الاهتمامات العلمية بالعمق والدقة في التناول إلي جانب الشمول .

□ صعوبة اللغة :

إن الاطلاع على أعمال البيروني وإسهاماته العلمية والأدبية يفضي إلي نتيجة مؤداها أنه قد استخدم لغة صعبة تجعل الموضوعات التي يتناولها تعز على الفهم ، كما أن طريقته التي استخدمها في معالجة تلك الموضوعات كانت هي الأخرى غامضة وغير واضحة ، وكان من شأن هاتين الخصيصتين أن جعلتا المترجمين لا يقدمون على ترجمة مؤلفاته إلي اللغات الغربية وفضلوا عليها الكتاب الأسهل والأبسط ، وسوف يتضح بعد قليل أن البيروني كان ضليعاً في اللغة .

□ تطويره لمنهج النقد العلمي :

معلوم أن منهج النقد العلمي الإسلامي قد وضع أسسه ثلاثة من أعظم علماء المسلمين وهم : الفارابي والرازي والبيروني ، إلا أن الأخير قد طور ذلك المنهج بشكل ملفت وأضاف إليه واستخدم هذا المنهج في نقد بعض آراء أستاذه الرازي نفسه ، وذلك يدل على استقلالية البيروني وجرأته العلمية وقدرته على الإبداع .

□ اهتمامه بالترجمة وتضلعه فيها :

كذلك اهتم البيروني بالترجمة وبرع فيها وذلك لأنه كان شغوفاً بثقافات وحضارات الآخرين ، فقد أورد قوائم لترجمات قام بها لأعمال علمية وغير علمية نقلها عن الهندية

وغيرها من اللغات ، وقد ثبت أن البيروني كـان مهتمـاً باللغـة الهنديـة وآدابهـا وبتـاريخ الهند وحضارتها وثقافاتها وسوف نوضح ذلك بعد قليل .

□ الاطلاع العميق على ثقافات وحضارات الآخرين :

كما قدمنا كان البيروني شغوفاً بثقافات وحضارات الآخرين وقد نالـت الهنـد قـسطاً وافـراً من اهتمام البيروني كذلك اهتم بالأديان والكتب المقدسة واطلع عليها واستشهد في كثير من كتاباته بنصوصها واقتبس منها .

○ أعمال البيروني والمجالات التي أبدع فيها :

قدم البيروني إسهامات علمية وفكرية في مجالات عديدة ، ويمكننا متابعة أهـم المجـالات التي أبدع فيها فيما يلي :

□ الرياضيات والفلك والجغرافيا :

الصلة الوثيقة بين الرياضيات والفلك تجعلنا نتناول أعمال البيروني في هذين المجالين معـاً ، فقد وضع البيرونـي كتابـه في الرياضـيات والفلـك بعنـوان " الآثـار الباقيـة عـن القـرون الخالية " " وهو كتاب تقويمي عظيم خاص بالتقويم عند الأمم القديمة " ، وقد ألـف هـذا الكتـــاب وعمره حوالي الثامنة والعشرين .

وقد أسس البيروني هذا الكتاب على قـوانين بطليمـوس في كتابـه المجـسطى وواصـل فيـه أفكاره ، وهو بمثابة دراسة مقارنة ووصفاً لحقب مختلفة من التقـويم ، وفي هـذا الـصدد " يعد الكتاب الأول من نوعه في الفكر العالمي " وهو " مورد لا يقـدر للمعلومـــات المتعلقـــة بتاريخ الأديان ومأثـورات الشعوب " ، وقد وصف البيروني الأعياد والمناسبات المهمة عنـد أهل الأديان المختلفة في ذلك الكتاب ، وقد أطلع البيروني على الكتب المقدسة وهو بـصدد تأليف ذلك الكتاب واقتبس منها .

كذلك تضمن كتاب " الآثار الباقية عن القرون الخالية الكثير من المسائل الرياضية الخاصة بالهندسة والجبر وحساب المثلثات وسوف نوضع ذلك في حينه .

وعلى غرار المجسطي وضع البيروني كتابه " القانون المسعودي " تناول فيه الموضوعات التي تناولها بطليموس في المجسطي بعد أن نقده وصحح الكثير من النظريات والمعلومات التي وردت فيه .

□ التعدين والمعادن والطب :

انتهج البيروني في كتابه " الجماهر في معرفة الجواهر " نهجاً مختلفاً تماماً عما كان مألوفاً في كتب علم التعدين عند المسلمين ، فقد أنكر وجود أية خواص سحرية للأحجار ، وقدم في هذا الكتاب شروحاً وافية لأسماء الأحجار ، ومواضع المناجم ، والأوزان النوعية للعناصر وقيم بيعها وشرائها ، وعلاقة بعض الجواهر بالطب ، كذلك قدم البيروني في هذا الكتاب معلومات أدبية ، وشروحاً نقدية لما كتبه السابقون عليه في هذا المجال .

□ تاريخ الحضارات والثقافات والأمم والديانات :

قدم البيروني كتابين هامين عن الهند ، الأول " تاريخ الهند " والثاني " تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة " وفيهما تناول تاريخ الهند ودياناتها ومذاهبها وآدابها وفلسفتها وعلومها وقوانينها ، كما أن له ترجمات عديدة عن الهندية .

كذلك تحدث البيروني في كتابه " الآثار الباقية عن القرون الخالية " عن تاريخ الأديان ومأثورات الشعوب ، واطلع على الكتب المقدسة الخاصة بالعقائد الدينية المختلفة وقدم ما يشبه الدراسات المقارنة بين الأديان في أسلوب تاريخي مشوق .

□ الشعر القديم واللغة والترجمة :

كان للبيروني رسائل في الشعر القديم ذكرها في الثبت الذي أحصى فيه ما ألفه حتى عام ٤٢٨ هـ عندما كان عمره خمساً وستين سنة هجرية ، كذلك أورد قوائم كاملة لترجمات قام بها لأعمال علمية وأخرى أدبية وتاريخية نقلها عن الهندية وغيرها من اللغات ، كما أبدى البيروني ملاحظات حول اللغة كانت معتبرة وقوية وقدمت دليلاً على تضلعه في اللغة بالرغم من أنه لم يقدم مؤلفات لغوية متخصصة .

❖ علم النجوم :

الحديث عن علم النجوم كعلم من العلوم التي برع فيها المسلمون ينبغي أن يتم من منطلق صحيح ويأخذ وجهة سليمة وليس كما أراد له المستشرقون الذين اطلعوا على تراث الإسلام وتعاملوا معه بشكل يخلو من وازع الدين وحاسة المسلم ، فالتنجيم هو العلم الذي يرصد حركة النجوم وما يترتب على تلك الحركة من عوارض وتأثيرات تثير الظواهر الطبيعية المختلفة مثل الرياح والأمطار وحركة المياه في البحار والمحيطات .. الخ ولا علاقة لذلك العلم باستشفاف الغيب أو التنبؤ بما سيقع مستقبلاً .

لم تأت نظرة علماء المسلمين لعلم النجوم بمعزل عن المرجعيات الإسلامية وما تضمنته من أحكام ومحاذير وضوابط خاصة بهذا العلم ، ومن يتعمق في هذا العلم ويفهمه حق الفهم يتوصل إلي قناعات كاملة بأن علم النجوم الذي برع فيه المسلمون ونقله عنهم الأوربيون إن هو إلا حقلاً من حقول الرياضيات ويرتبط أشد الارتباط بالظواهر التي تتكرر وترتبط بحركة وأوضاع النجوم ولم يبتغ العلماء المسلمون من وراء هذا العلم التطلع إلي معرفة الغيب أو الاطلاع على المجهول ، إلا أن هذه الفكرة لم تصل إلي المستشرقين الذين وقفوا على التراث الإسلامي في هذا الخصوص بصفاء ودقة بل اختلطت بمسائل أخرى مثل السحر

والشعوذة واستطلاع الغيب من خلال حركة النجوم وأوضاعها ، فأشاع هؤلاء أن بروع المسلمين في علم النجوم كان يقف وراءه تلك الأهداف والنوايا التي يجرمها الدين ويحمّل مقترفيها إثماً عظيماً يصل إلي حد الكفر والخروج عن الملة .

إننا ينبغي أن نتعامل مع علم النجوم في تراثنا الحضاري على أنه كان ضرباً من العلم والمعرفة الخالصة البعيدة عن الأهداف والنوايا المحظورة وذلك لأنه بالفعل كان كذلك ، إلا إذا كان ثمة من حاول أن ينحرف بذلك العلم عن مساره الذي سار فيه العلماء الملتزمون ، وما أولئك المنحرفين إلا قلة وُجدوا في كل عصر من العصور واحترفوا السحر والشعوذة والكهانة وخرجوا بذلك العلم عن مساره الصحيح وهدفه الذي أريد له وحدده الإسلام .

لقد أدى ذلك الخلط بين علم النجوم والسحر والشعوذة والكهانة إلي أن يستهوى هذا العلم الكثيرين ويُقبلوا عليه للاستفادة من مردوداته المادية والاجتماعية ، فكان هناك الكثيرون من المسلمين في العصر العباسي محل الدراسة الذين ساروا في هذا الطريق وخاضوا في مضماره " وقد ترجمت مؤلفات المسلمين في أحكام النجوم إلي اللاتينية على نطاق واسع " واختلط في هذا الأمر ما كان علماً خالصاً بما كان من قبيل السحر والشعوذة والكهانة ، وقد ذيلت بعض كتب علم النجوم بجداول فلكية مهمة لعلها كانت السبب الرئيسي في إقبال الغرب عليها .

وسوف نتناول في هذا الموضع علماء النجوم المسلمين الذين كانت لهم أهمية فكرية وثقافية وقدموا إسهامات إنسانية لها موقعها المميز في الفكر العالمي ، وذلك من خلال الآتي :

• أبو معشر جعفر بن محمد بن عمر البلخي ١٧٢ – ٢٧٢ هـ :

وأبو معشر عالم فلكي مشهور يوصف بأنه " أعلم أهل الإسلام بأحكام النجوم " توفى عن عمر يناهز المائة عام ، كان أوفر المنجمين حظاً من الاحترام والتقدير وأقواهم تأثيراً وذلك

لأنه بحث في علم النجوم بجدية ودقة ، ولم ينحرف بذلك العلم إلي مرذولات السحر والشعوذة والكهانة .

وكان أبو معشر على معرفة واسعة بالتراث القديم ، كما كان ملماً بتاريخ الفرس وأخبار سائر الأمم له تصانيف كثيرة منها : كتاب الطبائع ، المدخل الكبير ، القرانات ، هيئة الفلك ، طبائع البلدان ، الأمطار والرياح ، إثبات علم النجوم ، الزيج الكبير ، الزيج الصغير .

لقد حدا التشابه في الموضوعات التي تناولها كل من أبي معشر وأرسطو في علم النجوم بالبعض إلي القول بأن أبا معشر وغيره من علماء النجوم المسلمين هم امتداد لأرسطو وقد أحيوا فلسفته في الطبيعيات ، وتحقيق ذلك أنه من الممكن الوقوف على بعض التداخل أو التشابه في العديد من موضوعات علم النجوم بين أبي معشر ومن سبقوه مثل أرسطو أو تويسر البابلي أو العلماء المصريين القدماء ، ولكن أبا معشر قد فاق هؤلاء في الدقة والعمق وسعة الاطلاع والتوصل إلي نتائج غير معروفة من قبل ، فقد وضع نظرية مفادها أن الصور النجمية تتراءى في السماء مع حلول العشور أي عقود الشهور الست والثلاثون التي يشكل كل منها ثلث برج من الأبراج الأثنى عشر وقد عُرفت هذه الصور بالقرانات .

* أبو الحسن على بن أبي الرجال الشيباني القيرواني :

ابن أبي الرجال فلكي مشهور عاش إبان القرن الخامس الهجري وتوفى عام ٤٣٣ هـ ، تنقل بين الأندلس وتونس وبغداد ، وقام بن أبي الرجال بعدة أرصاد ووضع مجموعة من المصنفات أهمها كتاب " البارع في أحكام النجوم " و " أرجوزة في الأحكام " وكتاب في الرموز ، وكتاب في الزيج يعرف باسم " حل العقد وبيان الرصد " .

ويعتبر كتاب " البارع في أحكام النجوم " واحداً من أهم الكتب وأشملها في أحكام النجوم ، وقد وضع بن أبي الرجال في هذا الكتاب جداول فلكية عُرفت بالجداول الطليطلية ، وقد جاء من بعده إبراهيم بن يحي الزرقالي ليراجع تلك الجداول ويعد لها في حياة بن أبي الرجال .

* أبو إسحاق إبراهيم بن يحي النقاش الطليطلي القرطبي المشهور بالزرقالي أو الزرقلي :

ولد الزرقالي أو الزرقلي في عام ٤٢٠ هـ ، وهو فلكي مسلم أندلسي كان أبرع علماء الرصد في عصره ، ابتكر إسطرلاباً عرف بالزرقالة ، كذلك قام بوضع جداول فلكية عن أقترانات الكواكب واستخدم حساب المثلثات في توضيحها ، وقد أصلح الجداول التي وضعها بن أبي الرجال حال حياته واكتشف الزرقالي حركة الأوج البطيئة في مدار الشمس ، وله رسالة مخطوطة باسم " المقالة الزرقالية في تدبير الكواكب " .

❖ علم الهيئة [الفلك] :

ذكرنا فيما سلف أن علم النجوم يعنى بالنظر في النجوم وحساب مواقيتها وسيرها واستخدام ذلك في حساب واستطلاع أحوال الكون والظواهر الطبيعية ، ونتناول هنا علم الفلك بوصفه العلم الذي يبحث في الأجرام السماوية ويدرس أحوالها ، ومن ثم فإن علم الفلك هو إمتداد متجانس وطبيعي لعلم النجوم ، فكلا العلمين يبحث في النجوم ويدرس مواقيتها وسيرها وأحوالها ومواقعها المختلفة ، إلا أن علم النجوم أو ما يعرف بالتنجيم يهتم بدرجة أساسية بلون النجوم ، ولذلك أهميته الكبرى في تحديد طبيعة النجوم بالنسبة لكواكب السعد وكواكب النحس ، ومن ثم استخلاص نتائج ذلك في التأثير على أمور البشر وأحوالهم ، وهذه هي التفرقة الأساسية بين التنجيم والفلك التي فطن لها علماء المسلمين ووقفت إزاءها المرجعيات الإسلامية موقفاً حازماً .

والاهتمام الإسلامي بالصور والرسوم الفلكية يعود إلي العصر الأموي ، فقد اكتشفت رسوم وصور تمثل دائرة البروج في مبنى قصر " قصير عمره " في عام ٩٣ – ٩٧ هـ .

وقد وضع الصوفي [٢٩١ – ٣٧٦ هـ] كتاباً مهماً سماه " الكواكب الثابتة " ، وقد أصبح هذا الكتاب مرجعاً للدراسات التالية ، وقد جسد الصوفي في كتابه هذا كرة السماء معتمداً على كتاب المجسطى لبطليموس في سلسلة من الأفلاك السماوية ، ثم وزع عليها النجوم الرئيسية في المجموعات النجمية ، وافترض الصوفي أن تلك الأفلاك ثابتة عند الفلك الثامن ، واعتقد بأن الأفلاك ذات أحجام مختلفة وذلك نظراً لاختلاف أبعادها .

ويعتبر عبدالرحمن بن عمر بن سهل الصوفي الرازي ، أبو الحسن ، من أهم الفلكيين المسلمين ، وهو من أهل الري بالعراق اتصل بعضد الدولة وكان منجمه ، وقد اهتم بدراسة صور السماء وملاحظة مجاميع النجوم ، ووضع كتابه الذي أشرنا إليه والمسمى " الكواكب الثابتة " ليعتبر مرجعاً مهماً لمن جاء بعده من الفلكيين ، وضمن الصوفي كتابه صوراً ورسوماً لنحو ألف وأربعمائة وعشرين نجماً وكوكباً ، رسمها على أشكال الناس والحيوان ، وشرح تلك الأشكال وصنف خصائصها ، وزاد على العلماء السابقين عليه عدداً منها ، ووضع لها أسماءً عربية ، ولا تزال أسماء بعضها مستعملة حتى الآن مثل : الدب الأكبر والدب الأصغر والحوت والعقرب والعذراء وغيرها ، وقد صنف الصوفي كتاباً آخر بعنوان " مطارحات الشعاع " وأرجوزة في الفلك .

كذلك كانت إسهامات الحسن بن الهيثم في الفلك جيدة نظراً لارتباطه بالبصريات التي قدم فيها ما يجعله رائداً في هذا المجال ، لقد عرف بن الهيثم مجموعة نجوم درب اللبانة أو المجرة وهي نجوم تظهر في مجموعة خافتة أصغر من القدر السادس وتكاد تكون ملتصقة ببعضها ، وتم تحديد موقعها بدقة ، كذلك كانت المعارف الفلكية قد طبقت بشكل جيد في الملاحة البحرية حيث كان البحارة المسلمون يعرفون النجم القطبي وسهيل

والنجم الثابت ويهتدون بها في أعالي البحار كما أشاروا إليها في الخرائط الملاحية ، والنجم الثابت الذي عُرف فيما بعد بغيوم ماجلان عرفه المسلمون منذ وقت مبكر فقد نص عليه يا قوت الحموي في معجم البلدان ، وأشار إليه كل من تميم الداري المتوفى في ٤٠ هـ ، وابن وحشية المتوفى في ٢٩١ هـ ، والصوفي السابق الإشارة إليه والمتوفى في ٣٧٦ هـ .

لقد كانت قوة لمعان النجوم أولون النجوم هي حلقة الوصل بين التنجيم وعلم الفلك ، فقد كانت كتب التنجيم تركز بدرجة أساسية على لون النجوم ، وكان لذلك أهمية في تحديد طبيعتها ككواكب سعد أو نحس وارتبط بتأثيرها على أمور البشر ، وقد عرف الفلكيون المسلمون التغير الدوري في قوة لمعان النجوم ومنهم من استخدم ذلك في أمور تتعلق بالتنجيم الذي وقف منه الإسلام موقفاً واضحاً أساسه الرفض والتحريم ، كما نظر هؤلاء الفلكيون إلي الكون على أنه واسع بشكل مطلق وممتد بلا نهاية أو انقطاع .

كذلك عرف الفلكيون المسلمون المذنبات ، وكان أبو معشر أول من دحض رأي أرسطو القاضي بأن المذنبات لا تظهر إلا في فلكي القمر ومجرة درب اللبانة والذي أورده في كتابه " الفيزياء " إذ يرى أبو معشر أن المذنبات تظهر كذلك في فلك الزهرة وقد أثبت ذلك بالمشاهدة .

ومن الظواهر الفلكية كذلك التقاويم والأنواء وهي تعد من التطبيقات المباشرة لعلم الفلك بوصفه علماً طبيعياً ، فالتقاويم تتعلق بعلم وصف السماء ، ومن أهم التقاويم المتعارف عليها عند المسلمين التقويم القرطبي والتقويم الجلالي ، والتقويم الأول وجد في الأندلس ويتألف من جدول توقيت يتناول السنة شهراً فشهر ، ويوما فيوم ، وقد حدد هذا التقويم مواقيت الزراعة والمناسبات الدينية ومنازل القمر والأهلة .. الخ ، أما التقويم الثاني وهو التقويم الجلالي وتعود أصوله إلي التقويم الفارسي الذي أدخل عليه السلطان السلجوقي

جلال الدين ملكشاه تعديلات وعرف لذلك بالتقويم الجلالي ، هذا التقويم اشترك عمر الخيام في إعداده ، ويعتبر هذا التقويم تقويماً دقيقاً إلي درجة رفيعة .

لقد أسس علماء الفلك المسلمون تقويمهم الزمني على السنة القمرية التي تعتمد بدايات شهورها على رؤية : الهلال ، واهتموا بتحديد بدايات ثابتة لتلك الشهور وتحديد تعاقب السنوات الكبيسة والبسيطة وتم حل هذه الإشكالية نهائياً بواسطة البتاني الفلكي الإسلامي الشهير .

ومن الناحية العملية احتفظ المسلمون إلي جانب تقويمهم القمري بالتقويم اليولياني ، وذلك في الأقاليم التي كانت تابعة للإمبراطورية الرومانية وبالتقويم الفارسي القديم في بقية البلدان الإسلامية .

وتمكن علماء الفلك المسلمون من أن يحددوا لحظة ميلاد الهلال ووضعوا لذلك جداول تتكون من عناصر ضرورية ، واكتشفوا نظام تحديد الازياج أو التقاويم الفلكية للشمس والقمر وكذا للكواكب الأخرى ، وتم تطبيق ذلك في مجالات عديدة منها الملاحة في أعالي البحار .

ومن الظواهر الفلكية التي عرفها المسلمون أيضاً " الأنواء " وهي الظاهرة المتعلقة بظهور نجم وسقوط آخر في الليل ، وقال أبو عبيد في لسان العرب عن الأنواء : أنها " ثمانية وعشرون نجماً معروفة المطالع في أزمنة السنة " أي فصولها " الصيف والخريف والشتاء والربيع يسقط منها في كل ثلاث عشرة ليلة نجم معلوم في الغرب مع طلوع الفجر ويطلع آخر يقابله في المشرق من ساعته وكلاهما معلوم مسمى " ، وكانت العرب في الجاهلية إذا سقط من تلك النجوم نجم وطلع آخر يعتقدون أن يكون عند ذلك مطر أو رياح ومن ثم ربطوا ظاهرة الأنواء بالأحوال والظواهر الجوية .

ومن أهم علماء الفلك المسلمين الذين أضافوا إلي التقاويم وضبطوها وبالذات التقويم القرطبي كان البتاني ، وهو محمد بن جابر بن سنان المتوفى في عام ٣١٧ هـ ، فلكي ورياضي مشهور ويعد من أوائل الفلكيين في العالم ، ولد في بتان بنواحي حران ، اسهم في وضع أسس علم المثلثات الحديثة ووسع نطاقها ، اكتشف العديد من حقائق علم الفلك وبرع في تصحيح أرصاد الكواكب واختبار حركتها ، ومن اكتشافاته " السمت " و " النظير " وحدد نقطتيهما في السماء ، واهتم برصد الكسوف والخسوف وعدّل بعض استنتاجات بطليموس السكندري ، له مؤلفات من أشهرها " الزيج الصابئ " في ثلاثة مجلدات ، " ومعرفة مطلع البروج فيما بين أرباع الفلك " ، " وشرح أربع مقالات لبطليموس السكندري " ، " وتحقيق أقدار الاتصالات " .

لقد حاول معظم الفلكيين المسلمين أمثال البيروني وعلى بن أبي الرجال مواءمة التنجيم لعلم الفلك من خلال إيجاد مساحة مشتركة فيما بينهما هي الجانب العلمي من التنجيم أو التنجيم الفلكي وهو الذي يتناول وسائل تحديد مواقع الكواكب وأوجه القمر ونقاط التلاقي وقد استوجب ذلك التحديد تطوير علوم الرياضيات وتعقيدها ، وقد أدت تلك العلوم إلي تطوير آلات الرصد وابتكر فرع جديد من العلوم الرياضية هو علم حساب المثلثات .

ومن أهم الآلات التي استخدمت في الفلك الإسطرلاب الذي تضمنته مؤلفات بطليموس وتضمنت كذلك قواعد استخدامه ، وقد أدخل عليه العالم الأندلسي على بن خلف فلكي المأمون بن زنون ملك طليطلة في القرن الخامس الهجري تعديلات أساسية ، ثم ابتكر الزرقالي إسطرلاباً جديداً عرف باسم " الصفيحة الزرقالية " أما مظفر الدين الطوسي المتوفى في عام ٦١٠ هـ فقد ابتكر هو الآخر إسطرلاباً أكثر بساطة عُرف " بعصا الطوسي "، وثمة تطوير آخر على الإسطرلاب ادخله محمد بن أحمد بن يوسف الخوارزمي وتكنيته بأبي عبدالله وقد عاش في القرن الرابع الهجري (وهو غير الخوارزمي الرياضي) في

نيسابور إبان حكم الدولة السامانية وأتصل بالوزير أبي حسن العتبي ، وصنف له كتاب " مفاتيح العلوم " ويأتي هذا الكتاب في قسمين الأول يتناول العلوم الدينية واللغوية والتاريخ والثاني يضم الفلسفة والمنطق والحساب والهندسة والفلك والموسيقي والحيل والكيمياء .

وفي هذا الصدد يمكن ذكر عباس ابن فرناس وهو العالم الموسوعي القرطبي المتوفى في عام ٢٧٤ هـ ، كمخترع أندلسي من أهل قرطبة اشتغل بالفلسفة والأدب والفلك توصل إلي صناعة الزجاج من الرمال ، وصنع " الميقاته " لمعرفة الأوقات ، وحاول الطيران في الهواء بتقليد الطيور ولكنه لم ينجح ، أعد في منزله معملاً كهيئة السماء وجسد فيها النجوم وظواهر السحاب والبرق والرعد .

ولعل التطوير الأكثر أهمية لآلة الإسطرلاب جاء على يد البيروني الذي زوده بتروس وأصبح ميكانيكياً ، ولحق به تطور آخر على يد " ابن السمح " الذي صنع صفيحة الكواكب السبعة وقد عاش بن السمح في الفترة من ٣٦٩ هـ إلي ٤٢٧ هـ في الأندلس وقد عمل بالرياضة والفلك ومن مؤلفاته " المعاملات " وهو كتاب في الحساب التجاري ، وكتاب " الحساب الهوائي " ، وكتاب في طبيعة الأعياد وكتابات في الهندسة ، وقام بجمع جداول فلكية على غرار السندهند وقدم شرحاً نظرياً لها ، وكان آخر تطوير إسلامي للإسطرلاب على يد الزرقالي .

وبالنسبة لآلات الرصد فقد طورها العلماء المسلمون خلال العصر العباسي ، وكان أهم من استخدم آلات الرصد ذات القطر الكبير أبناء موسى بن شاكر وكانت نتائجها غير دقيقة نظراً لعدم وجود أجهزة مقسمة .

لقد ارتبط حساب المثلثات بالأغراض الفلكية التنجيمية ، وقد اكتشف البتاني المعادلات الأساسية في حساب المثلثات الكروية ، أما أبو الوفاء البوزجاني فقد أدخل نظريات ظلال

الزوايا في النسب المثلثية بالنسبة للمثلث الكروي المائل الزاوية ، وكذلك أدخل القاطع وقاطع التمام وقام بوضع معادلة إضافة الزوايا ، وأبو الوفاء البوزجاني هو محمد بن محمد يحي بن إسماعيل بن العباس ينسب إلي بوزجان الواقعة قرب نيسابور ، انتقل إلي بغداد وعاش فيها وتوفى في عام ٣٨٨ هـ ، عمل بالتأليف والرصد والتدريس ، وهو من كبار علماء الفلك والرياضيات ، أضاف إلي بحوث الخوارزمي ووطد للعلاقة بين الهندسة والجبر ، ووضع أسس الهندسة التحليلية والتكامل والتفاضل ، وكان رائداً في علم حساب المثلثات ، ووضع الجداول الرياضية للمحاسبة ، وتوصل إلي طريقة جديدة لحساب جداول الجيب ، وقد وضع عدة مؤلفات منها : استخراج الأوتار ، الزيج الشامل ، المدخل إلي الاريتماطيقي ، معرفة الدائرة من الفلك ، وتفسير كتاب الخوارزمي في الجبر والمقابلة .

وفي سياق الحديث عن حساب المثلثات وعلاقته بالفلك يمكن القول بأن أبا نصر المتوفى في عام ٤٢٧ هـ ، والذي أخذ عنه أبو الريحان البيروني من أول العلماء الذين اكتشفوا نظرية الجيوب والتي مفادها أن جيوب الزوايا تتناسب مع الأضلاع المقابلة لها ، وأبو نصر هو منصور بن على بن عراق ، عالم في الرياضيات والنجوم نشأ في خوارزم ، وله عدة مؤلفات منها : المجسطى الشاهر ، والدوائر التي تحدد الساعات الزمانية ، ورسالة في جواب مسائل الهندسة ، ورسالة في معرفة القسي الفلكية .

ثم ساهم بن يونس في وضع بعض القوانين في حساب المثلثات ، وهو على بن عبدالرحمن بن أحمد بن يونس بن عبد الأعلى الصدفي المصري ، ولد بمصر وعاش فيها ، وبرع في الفلك والرياضيات والأدب ، ابتدع بن يونس قوانين ومعادلات لها أهميتها في اكتشاف اللوغاريتمات ، كما اخترع البندول ، وقد وضع عدة مؤلفات منها : الزيج الحاكمي الذي صحح فيه أخطاء سبعة من مصنفي الازياج ، وجداول اتسمت ، وجداول في الشمس والقمر والتعديل المحكم .

ثم كان الإسهام الأعظم للحسن بن الهيثم الذي وضع نظرية الظل التمام لتحديد سمت القبلة ، ويعتبر بن الهيثم من أهم علماء حساب المثلثات والرياضيات في العالم .

لقد استخدم علماء الفلك المسلمون منهجاً فريداً في تطويرهم لهذا العلم وإبداعهم فيه ، وكان ذلك المنهج يعتمد على دراسة وتدقيق التراث العالمي في هذا العلم ، ثم مراجعة ذلك التراث وتصحيحه والإضافة إليه ثم الابتكار الذي يعتمد على ملكة الإبداع ، ولعل أمثل من استخدم هذا المنهج وبنفس هذه الطريقة هو الخوارزمي الرياضي الذي وضع جداول فلكية أخرجها في نسختين : النسخة الصغرى ويعرف باسم السندهند الصغير وقد عدلها مسلمة بن أحمد المجريطي وفقاً لخط زوال مدينة قرطبة .

أما النسخة الكبرى فقد جمع فيها بطريقة تجريبية نظريات اليونان والهنود في الفلك وهذا ما أعطى كتاب الخوارزمي أهمية خاصة .

وواصل علماء الفلك المسلمون منهجهم حيث اجروا سلسلة من الأرصاد لتصحيح النظريات والأفكار الواردة في الكتب المترجمة إلي العربية ، وقد وضعت نتائج تلك الأرصاد في جداول فلكية عرفت بالازياج المتحنة ، ومن هذه الجداول ما وضعته مجموعة من الفلكيين كانوا يعملون في خدمة الخليفة المأمون ، كما قدمت هذه المجموعة كذلك مجهودات خاصة بقياس محيط الأرض .

كذلك قدّم سند بن على مجهودات جادة في خدمة المأمون ويعتبر بن على من أشهر الفلكيين والمهندسين في ذلك العصر ، وقد كلفه المأمون بالأشراف على بناء مرصد بغداد وإصلاح آلات الرصد فيه ، ثم عينه رئيساً للفلكيين ، وكانت لبن على علاقة وثيقة بثابت بن قرة وأبناء موسى بن شاكر ، وقد وضع زيجاً مشهوراً ، كما وضع عدة مصنفات منها : المنفصلات والمتوسطات والقواطع ، والحساب الهندسي .

وفي الأندلس كان البطروجي خلال القرن السادس الهجري من أهم علماء الفلك المسلمين ، وهو نور الدين أبو إسحاق من أشبيليه ، له نظريات فلكية تتعلق بحركة الكواكب السيارة ضمنها مؤلفه المعروف باسم " كتاب في الحيل " .

❖ الطب وعلم العقاقير :

ذكرنا فيما سبق أن الطب عند المسلمين بدأ بداية عملية اعتمدت على الممارسة الفعلية ، ثم اتجه إلي التنظير والتأصيل ، ثم التأليف عبر عملية تاريخية بدأت من العصر الأموي بالاطلاع على علوم اليونان والهنود والفرس الطبية ، ثم كانت مرحلة العطاء الإسلامي في مجال الطب الذي أينع في العصر العباسي بشكل لم يسبق له مثيل ولم يعقبه نظير .

إلا أن الملاحظة الجديرة بالتسجيل في هذا السياق هي أن الطب الإسلامي شأنه شأن الكثير من العلوم الطبيعية الأخرى قد تطور سريعاً في العصر العباسي وازدهر بشكل ملفت ثم انطفأ بريقه وخفتت حدته بنفس سرعة ظهوره وتطوره ، وقد يرجع ذلك بالأساس إلي أن فترة التفكك والانهيار التي أعقبت انهيار الخلافة العباسية قد امتدت آثارها السيئة والمؤلمة إلي كافة العلوم الطبيعية وتطبيقاتها .

لقد قدم المسلمون في الطب إسهاماً مثَّل إضافة قيمة في سياق التطور الإنساني في هذا المجال مثله مثل غيره من العلوم الطبيعية محور هذا المؤلف ، ولعل متابعة هذا الإسهام تنطلق بنا من البدايات الأولى للعطاء الإسلامي في الطب ، وتزهو هذه البدايات بكتاب " فردوس الحكمة " الذي ألفه على بن ربن الطبري ، المتوفى في عام ٢٤٧ هـ ، وقد وضع هذا المؤلف في عام ٢٣٦ هـ ، وقد كان معاصراً لحنين ابن إسحاق ، وهو أبو الحسن على بن ربن الطبري ، طبيب مشهور ولد في طبرستان وتخصص في العلوم الطبيعية ، وأخذ عنه محمد بن زكريا الرازي علم الطب ، وضع عدة مؤلفات منها : فردوس الحكمة ، الدين والدولة ، تحفة السلوك ، كناس الحفرة ، ومنافع الأطعمة والأشربة والعقاقير .

وتأتي بعد ذلك إسهامات الرازي في الطب – والتي سبق وأشرنا إليها – كعلاقة بارزة على غزارة العطاء الإسلامي في هذا المجال وتعمقه فيه .

أما على بن العباس المجوسي فقد قدم إسهاماً له شأنه في مجال الطب الإسلامي ، وهو من الأطباء البارعين توفي في عام ٣٨٣ هـ ، وقد كان الطبيب الخاص للأمير البويهي عضد الدولة في الفترة من ٣٣٨ هـ حتى ٣٧٢ هـ في بغداد ، وقد قدم على بن العباس المجوسي كتابه الطب الشهير " الكتاب الملكي " أو " كامل الصناعة الطبية " لهذا الأمير ، وقد جاء في هذا الكتاب أنه يفضُل كتاب الحاوي للرازي في طريقة العرض والتنسيق ويحوى شرحاً للشرايين الشعرية (الدقيقة) وملاحظات سريرية وحقائق عن الرحم ومعلومات أخرى ، ويذكر كذلك عن هذا الكتاب أنه ذو قيمة كبيرة للغرب فيما يتعلق بكتابة تاريخ الطب ، وسوف نوضح ذلك تفصيلاً في الجزء التالي من هذا المجلد .

ثم وضع بن سينا كتابه " القانون " في الطب ليزاحم مؤلفات الرازي بقوة بالرغم من اعتماده الأساس في فصول كاملة من هذا الكتاب على مؤلفات الرازي ، إلا أن ذلك لم يحط من قدر الرجلين كعلمين بارزين في مسيرة الفكر الإنساني عموماً وفي مجال المعرفة الطبية خصوصاً .

ومن بين أشهر المؤلفين المسلمين في الطب كذلك ابن رشد ، بمؤلفه الشهير " الكليات " وقد قام بن رشد في الفصل الخاص بالتنفس من هذا الكتاب بنقد آراء جالينوس اليوناني إضافة إلي ما احتواه الكتاب من معلومات طبية قيمة وجدت طريقها إلي أوربا مثل غيرها من المؤلفات الإسلامية التي سنخصص لها جزئية مستقلة في الجزء التالي من هذا المجلد .

وفي هذه المتابعة قد يكون من المجدي الحديث عن اثنين من الأطباء المسلمين قدما إضافات مهمة إلي العلوم الطبية من خلال المجادلات والمناظرات التي جرت بينهما ، وهما :

أبو الحسن المختار بن الحسن البغدادي ، المعروف ببن بطلان ، وهو طبيب وعالم لاهوت نصراني توفي في عام ٤٥٨ هـ ، قدم نقداً مفيداً للعديد من آراء جالينوس ، كان يمارس الطب في بغداد ثم انتقل إلي بلاد الشام ومصر والقسطنطينية ، ومن مؤلفاته : تقويم الصحة ، دعوة الأطباء على مذهب كليلة ودمنة ، مقالة إلي على بن رضوان .

والثاني : هو أبو الحسن على بن رضوان بن على بن جعفر المعروف ببن رضوان ، طبيب مصري مشهور وضع عدة مؤلفات منها : كتاب العرق ، وشرح كتاب الصناعة لعلي بن العباس ، وشرح كتاب النبض الصغير لجالينوس ، وكتاب الأصول في الطب ، ورسالة في علاج الجزام ، وكتاب النافع في كيفية تعليم صناعة الطب ، ومقالة في دفع المضار عن الأبدان في مصر ، ومقالة في سيرته الخاصة .

التقى ابن بطلان وابن رضوان في مصر وجرت بينهما مناظرات في الطب حول أساسيات علم وظائف الأعضاء دونت أخبارها في بعض الرسائل .

إلي جانب ما تقدم كان ثمة اهتمام بطب العيون في العالم الإسلامي أقترن به كثافة في المعرفة الطبية التي قُدمت في هذا المجال وكذلك تقدم في الممارسات العملية ، ولعل ذلك يرجع بالأساس إلي " تفشي أمراض العيون في الشرق " ويرتبط طب العيون في العالم الإسلامي بعلم البصريات إلي مدى بعيد وقد أدى هذا الارتباط إلي استنتاج مؤداه أن التفوق في طب العيون الإسلامي يجد بواعثه في اهتمام العلماء المسلمين بعلم البصريات وتقدمهم فيه .

وفي مقدمة أطباء العيون يقف علي بن عيسى الكحال كأشهر طبيب عيون نصراني عربي عاش في بغداد في القرن الخامس الهجري ، اشتغل بصناعة الكحل ونسب إليه ، وله

كتاب مشهور في طب العيون هو " تذكرة الكحالين " قدم في هذا الكتـاب دراسـات عمليـة واسعة عن طب العيون ، كما تعمق في دراسة الكتب والمؤلفات الأخرى .

وفي مجال طب العيون أيضاً هناك أبو القاسم عمار بن على الموصـلي الـذي عمـل في خدمـة الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله ، وقد وضع هذا الطبيب كتاباً في الطب الخاص بـالعيون أسماه " المنتخب في علاج أمراض العيون " .

أيضاً وضع حنين بن إسحاق كتابه " العشر مقالات في العيون " ليمثل مرجعاً مهماً في طب العيون ، ثم أضاف إليه آخر في نفس الاختصاص .

لقد واكب التقدم في مجال الطب الإسـلامي تقدم في علم العقـاقير أو الصيدلة ، واستعملت العقاقير النباتية والحيوانية والمعدنية ، وتم التوصل إلي تلـك العقـاقير بطريقـة التجريـب والتركيب ، وقد اشتهر في هذا المضمار أبو منصور موفق بن على الهـروي في القـرن الثالـث الهجري ووضع كتاباً بعنوان " الأبنية عن حقائق الأدوية " وصف فيه حوالي ستمائة دواء اكتشفها بتجاربه الشخصية أو من المصادر اليونانية والهندية والفارسية .

ومن الصيادلة كذلك المشهورين ماسوية المـارديني المتـوفى في ٤٠٥ هــ ، وقـد وضـع عـدة مؤلفات في العقاقير والأعشاب ومنهم كذلك ابن البيطار ومؤلفه الشهير " جامع المفـردات " كمـا كـان للـرازي إسـهامه في علـم العقـاقير مـن خـلال كتابـه " منـافع الأغذيـة ودفع مضارها " .

منذ بزوغ الحضارة الإسلامية واحتلال العلوم لموقعها المميـز ضـمن مقومـات تلـك الحـضارة والعلماء المسلمون شغوفون بالبحث في أصول العلـوم الـتي عكفـوا عليهـا ، والـسؤال الـذي يطرح نفسه في هذا السياق هو : هل كانت هذه إحدى سمات الحضارة الإسلامية كحضارة

إنسانية عالمية ؟ أم أن ذلك كان يرتبط بالخصائص والتكوين الذاتي للعلماء المسلمين أنفسهم ؟ أم أن ذلك كان يتعلق بطبيعة العلوم محل البحث ؟ .

لقد كان منهج تأصيل العلوم أو تاريخ العلوم منهجاً إسلامياً مميزاً ، استعمل بشكل جيد في مجال الطب ، استعمله " أعلام أمثال البيروني وعلي بن العباس المجوسي اللذين تحدثا عن المعالجات السابقة لموضوعات تخصصهما " ، وعلى نفس المنوال وضع إسحاق بن حنين بن إسحاق المتوفى في ٢٩٨ هـ مؤلفاً مستقلاً ومختصراً في تاريخ الطب وهو كتاب " تاريخ الأطباء " وقد أدرجه بن النديم في كتابه الفهرست .

بعد ذلك وفي القرن الرابع الهجري استخدم مجموعة من العلماء نفس المنهج عندما وضع الطبيب الأندلسي ابن جلجل أبو داود سليمان بن حسان كتابه " طبقات الحكماء " ، ولقد عاش ابن جلجل في قرطبة أبان القرن الرابع الهجري ، كتب في علم العقاقير ، وقدم دراسة نقدية لكتاب الأدوية المفردة للطبيب اليوناني ديوسقوريدس ، إلي جانب كتابه " طبقات الحكماء " ووضع مؤلفاً أخر بعنوان " التبيين فيما غلط فيه المتطببين " .

وفي بغداد كان منهج التأصيل لتاريخ العلوم ومنها العلوم الطبية ينبعث مزدهراً على يدي البغدادي أبو سليمان المنطقي المتوفى في عام ٣٨٥ هـ ، الذي كان يقود حلقة للفلاسفة " أسهمت في نشر الأساليب العلمية في التفكير لدى المجتمع البغدادي " ، وأبو سليمان المنطقي هو محمد بن طاهر بن بهرام السجستاني المنطقي ، كان عالماً بالحكمة والفلسفة والمنطق ، وأصله من سجستان لكنه سكن بغداد ونسب إليها ، ومن مؤلفاته : مقالة في مراتب قوى الإنسان ، كلام في المنطق ، تعاليق حكمية وملح ونوادر ، وشرح كتاب أرسطو ، ولقد قام الأديب المتصوف أبو حيان التوحيدي المتوفى في عام ٤٠٠ هـ بوضع عدة مؤلفات تحوى المطارحات التي كانت تدور في حلقة البغدادي حيث كان أبو حيان إحدى

أعضائها ، ومن تلك المؤلفات : الإمتاع والمؤانسة ، الصديق والصداقة ، الإشارات الإلهية ، البصائر والذخائر ، مثالب الوزيرين ، المقابسات ، ورياض العارفين .

ويواصل علماء المسلمين إصرارهم على تأصيل تاريخ العلوم ، وهذا ما قام به في القرن الخامس الهجري القاضي والفلكي الطليطلي صاعد بن أحمد بن عبدالرحمن بن صاعد الأندلسي عندما وضع مؤلفاً عن تاريخ العلم في العالم بعنوان " التعريف بطبقات الأمم " ويشتمل هذا الكتاب على دراسة مفصلة لما أسهمت به الأمم المختلفة في ميادين العلم ، وصاعد بن أحمد الأندلسي مؤرخ وباحث إلي جانب معرفته بالفلك ، أصله من قرطبة ومولده في المرية ، وُلّي قضاء طليطلة إلي أن توفى في عام ٤٦٢ هـ ، له عدة مؤلفات منها : جوامع أخبار الأمم من العرب والعجم ، صواب الحكم في طبقات الحكماء ، مقالات أهل الملل والنحل ، إصلاح حركات النجوم ، تاريخ الأندلس ، تاريخ الإسلام ، التعريف بطبقات الأمم وهو المعروف بطبقات الأمم .

وفي مجال الطب تحديداً وضع بن المطران الدمشقي المتوفى في عام ٥٨٧ هـ وهو موفق الدين أبو نصر ، أسعد بن إلياس بن جرجس المطران ، وكان طبيباً مشهوراً من أهل دمشق نصرانياً وأسلم في عهد صلاح الدين الأيوبي وكانت له حظوة عند صلاح الدين ، وضع عدة مؤلفات في الطب أهمها : بستان الأطباء وروضة الألباء ، ولم يتم ابن المطران هذا المؤلف وبقى منه الجزء الثاني ، وكتاب المقالة الناصرية في حفظ الأمور الصحية ، وكتاب المقالة النجمية في التدابير الصحية ، وكتاب الأدوية المفردة ، وكتاب آداب طب الملوك ، وقد ترجم له ابن أبي أصيبعة ترجمة وافية .

وفي القرن السابع الهجري ظهر مصنفان حويا ملخصاً لجميع المعلومات السابقة في الطب وعكسا المنهج الإسلامي الخاص بتأصيل المعرفة الطبية الذي استفادت منه الإنسانية فيما بعد .

المؤلف الأول هو : " تاريخ الحكماء " للوزير علي بن يوسف القفطي المتوفى في ٦٤٦ هـ ، وثبت أن الموجود من هذا الكتاب هو مختصره الذي اختصره الزوزني وسماه " المنتخبات الملتقطات من أخبار العلماء بأخبار الحكماء " ، ويرى من اطلع على هذا المختصر أنه مليء بالأخطاء ولا يصلح للاستعمال دون تعديل ، وكان القفطي مؤرخاً عالماً جامعاً للكتب ، عاش في حلب في سوريا ولقبه الملك العزيز في عام ٦٣٣ هـ بالوزير الأكرم ، وله عدة مؤلفات أخرى منها : أخبار المصنفين وما صنفوه ، و " أنباء الرواة على أبناء النحاة " ، و " أخبار مصر " ، و " وتاريخ اليمن " وغيرها .

المؤلف الثاني هو " عيون الأنباء في طبقات الأطباء " وقد ألفه الطبيب ابن أبي أصيبعة المتوفى في عام ٦٦٨ هـ ، وهو مصنف على طريقة المعاجم قسم على أساس البلدان والفترات الزمنية ، ويؤرخ هذا الكتاب للطب إبتداءً من أصوله الأسطورية المنسوبة إلي اسقيليبيوس وحتى العصر الذي وضع فيه ابن أصيبعة كتابه ، وهو موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس الخزرجي ، طبيب ومؤرخ ولد في دمشق بعد عام ٥٩٠ هـ ، درس الطب ومارسه في المستشفى النوري بدمشق والمستشفى الناصري في القاهرة ، وضع عدة مؤلفات في الطب ولم يعثر عليها ولكنها عرفت من خلال إشارته إليها في كتابه الموجود وهو الذي أشرنا إليه بعنوان " عيون الأنباء في طبقات الأطباء " ، ومن تلك المؤلفات : إصابة المنجمين ، التجارب والفوائد ، حكايات الأطباء في علاجات الأدواء ، معالم الأمم وأخبار ذوى الحكم ، ولابن أصيبعة باع طويل في الشعر العربي .

وأخيراً يمكن الإشارة إلي " أن مؤلفات علماء المسلمين الطبية التاريخية تشكل جزءً مهماً من التراث الذي خلفه الإسلام (للإنسانية) وهو تراث لا زالت أهميته وتأثيره مستمرين إلي اليوم " .

❖ التاريخ الطبيعي :

يرتكن التاريخ الطبيعي على ثلاثة محاور هي : النبات والحيوان والمعادن ، - وقد سبق لنا أن أشرنا في أكثر من موضع إلي أن العلوم الطبيعية في معظمها قد بدأت عند المسلمين بدايات عملية ويدل ذلك على " الاتجاه العملي للعلم الإسلامي " ، وفي هذه الجزئية نقوم بعملية رصد للإسهامات الإسلامية في التاريخ الطبيعي بمحاوره الثلاثة وكذا بتطبيقات تلك الإسهامات العلمية في الحياة العملية ، والتفصيل فيما يلي :

- علم النبات :

أشرنا في استفاضة إلي المنهج الذي استخدمه علماء المسلمين في التأصيل للعلوم الطبيعية المختلفة ومنها الطب وذلك برصد ومتابعة ونقد الإنجازات العلمية التي قدمت في تلك المجالات ، إلا أن ذلك المنهج لم يستخدم في مجال التاريخ الطبيعي ، إلا في حدود ضيقة وعند الحديث عن الإسهامات الإسلامية في علم النبات ينبغي من البداية التأكيد على مسألة مهمة وهي أنه يجب التفرقة بين الإسهام الإسلامي في علم النبات بوصفه الدقيق وبين الإسهام في مجالي الزراعة والفلاحة كممارسات وتطبيقات لذلك العلم وهذا يتصل بما سبق وأشرنا إليه من طغيان البعد العملي التطبيقي للعلم الإسلامي على البعد العلمي البحت في كثير من ميادين العلوم الطبيعية .

ويطالعنا في مجال علم النبات " كتاب النبات " لأبي حنيفة الدينوري ، المتوفى في عام ٢٨٢ هـ وكان هذا الكتاب مقسماً إلي عدة أجزاء ، وقد فُقد معظمه ، ولكن مادته ظلت محفوظة في كتب اللغة والعلم ، وكان الهدف من تأليف هذا الكتاب لغوياً بالأساس ، ومن ثم فلم يترك أثراً في تطور الفكر العالمي فيما يتعلق بمجال تخصصه ولم ينقل إلي لغات

أخرى ولم يترك أثراً يذكر في الغرب ، وبالرغم من ذلك فقد استفاد من كتاب النبات للدينوري الأطباء والعشابون واستفاد منه كذلك علماء اللغة .

أما في الزراعة والفلاحة فهناك كتاب " الفلاحة النبطية " لابن وحشية ، وهو أبو بكر أحمد أو (محمد) بن علي الكلداني أو النبطي ، له مؤلفات عديدة في السيمياء والعلوم الخفية الأخرى مثل السحر ، وكان ابن وحشية نبطياً شعوبياً ، عُرف كجامع وشارح للمؤلفات القديمة في العلوم ، وترجم كتاب عن أحكام النجوم لمؤلف يعرف باسم تانكالوشا واشتهر كذلك بنقله لكتابات بابلية قديمة مزعومة ، ويستشف من كتابات بن وحشية أنه يحاول أن يثبت أن أسلافه النبط كانوا على جانب كبير من العلم ، إلا أن الثابت أن معظم مؤلفاته مثل " الفلاحة النبطية " وكتاب السموم وغيرها يجد أصولها في الحضارة البابلية (النبطية) القديمة ، وما ينبغي أن يذكر في هذا الصدد أنه لا ضير في أن يؤصل الرجل للعلوم التي خاض فيها بمرجعيات تاريخية من الحضارة البابلية حيث أن تلك الحضارة كانت من الحضارات الإنسانية المعروفة وقد تركت للإنسانية تراثاً لا عيب في الاستفادة منه والإشارة إليه شأنها في ذلك شأن الحضارة الإغريقية أو الفارسية أو الرومانية وغيرها .

وفي الزراعة والفلاحة كذلك وضع بن وافد مؤلفاً في الفلاحة والزراعة ، وهو أبو المطرف عبدالرحمن بن محمد بن عبدالكريم بن يحي بن وافد بن مهند اللخمي ، عالم وطبيب أندلسي ، ولد بطليطلة وعاش في القرن الخامس الهجري وتوفى في عام ٤٦٧ هـ ، اطلع على أعمال أعلام الحضارة الإغريقية مثل جالينوس وأرسطو ، ألف كتاباً في الأدوية المفردة استغرق إنجازه عشرين عاماً ، وله مصنفات أخرى منها : مجريات في الطب ، تدقيق النظر في علل حاسة البصر ، وكتاب الغيث .

أيضاً في الفلاحة والزراعة يأتي ابن بصال كعالم متخصص في هذا الحقل ، وهو محمد بن إبراهيم بن بصال ، عالم أندلسي متخصص في الزراعة والفلاحة ، ولد في طليطلة وعاش في القرن الخامس الهجري وتوفى في قرطبة في عام ٤٩٩ هـ ، أعتمد في التأليف على منهجه العلمي المرتكن على الملاحظة والمشاهدة الشخصية والخبرة الذاتية فيما يتعلق بالنبات ، وقد جمع بن بصال معلومات من مصادر وأماكن شتى من المغرب والمشرق ، ألف مجلداً ضخماً في مجال الزراعة والفلاحة أسماه " ديوان الفلاحة " واختصر هذا المجلد في كتاب واحد بعنوان " القصد والبيان " .

ما أشرنا إليه خصصناه للجهد الإسلامي في مجال علم النبات وقُدّر له أن يتجاوز حدود الحضارة الإسلامية ليتحول إلي تراث للحضارة الإنسانية حيث نقل إلي الغرب عبر وسائل عديدة سنتناولها تفصيلاً في الجزء التالي من هذا المجلد ، والآن لنتحول إلي رصد الجهود التي ظلت محصورة في الإطار ذي الخصوصية أو الذاتية للحضارة الإسلامية .

وتبدأ هذه الجهود على نطاق اللغة ، حيث عكف اللغويون على صيانة اللغة من مخاطر اللحن التي نتجت عن اختلاط الأجانب مع العرب وذلك من خلال جمع مفردات اللغة ، فكانت الألفاظ المتعلقة بالنبات وكذا الزراعة والفلاحة لها حظ وافر من الاهتمام ، وعندئذ تم اللجؤ إلي القرآن والحديث والشعر القديم كأهم مصادر للألفاظ العربية الصحيحة التي لا يمكن أن يدخل عليها الدخيل أو تستوعب الغريب ، ومن هذه المصادر تم استقاء المفردات النباتية وقام بهذه المهمة علماء اللغة وأصحاب المعاجم من أمثال : عيسى بن عمر الثقفي المتوفى في عام ١٤٩ هـ ، والخليل بن أحمد الفراهيدي المتوفى في عام ١٦٠ هـ ، وسيبويه المتوفى في عام ١٧٧ هـ ، والكسائي المتوفى في عام ١٨٩ هـ ، والفراء المتوفى في عام ٢٠٧ هـ وغيرهم كثير ، فالفراهيدي باشر مهمته في معجمه (العين) ، وابن دريد المتوفى في عام ٣٢١ هـ في كتابه (جمهرة اللغة) جمع المفردات المتعلقة بالنبات ، وكذلك فعل

الجوهري المتوفى في عام ٣٩٣ هـ في كتابه (الصحاح) ، وابن سيدة الضرير في كتابه (المخصص) وابن منظور في كتابه (لسان العرب) ، والفيروز أبادي المتوفى في عام ٨١٦ هـ في كتابه (القاموس المحيط) .

وهناك إلي جانب ما تقدم الشق التطبيقي العملي فيما يتعلق بعلم النبات واستخداماته المتعددة في الأغذية والأدوية والعقاقير ، وفي هذا الشق بُذلت جهود وقدمت إسهامات كان لها شأنها ، ولعل ابرز من ساهم في هذا المجال هو ابن البيطار المتوفى في عام ٦٤٦ هـ وقد عرف بتجاربه وأسفاره التي قام بها لإثراء هذا المجال ، وقد صنف كتاباً باسم (الجامع في الأدوية) .

وقبل بن البيطار بأربعة قرون ونصف كان هناك جابر بن حيان المتوفى في عام ٢٠٠ هـ الذي كرس جهوده لدراسة النبات ، وألف كتابي (النبات) و (الفلاحة) ، ثم جاء من بعده الأصمعي المتوفى في عام ٢١٤ هـ ، وقد وضع كتاب (النبات والشجر) ، ومن بعدهما جاء أبو زيد الأنصاري المتوفى في عام ٢١٥ هـ ، وقد وضع أيضاً كتاب (النبات والشجر) .

وكان للجغرافيين دورهم الذي لا ينكر في علم النبات الإسلامي ، فقد وصفوا النباتات التي شاهدوها في البلدان والمناطق التي وصلوا إليها ، ومن هؤلاء اليعقوبي المتوفى في عام ٢٨٤ هـ ، حيث وضع كتاباً باسم (البلدان) تحدث فيه عن النباتات التي شاهدها في البلدان التي وصل إليها ، ومثل ذلك فعل ابن رستة المتوفى في عام ٢٩٠ هـ في كتابه (الأعلام النفيسة) ، والهمداني المتوفى في عام ٣٣٤ هـ في كتابه (صفة جزيرة العرب) وأبو عبيد البكري الأندلسي المتوفى في عام ٤٨٧ هـ في كتابه (أعيان النباتات والشجريات الأندلسية) ، وقد فُقد هذا الكتاب ولم يستدل على مادته إلا من خلال النصوص التي نقلها منه ابن البيطار في كتابه (الجامع في الأدوية) ، والإدريسي المتوفى في عام ٥٦٠ هـ في كتابه

(الجامع لصفات أشتات النبات وضروب أنواع المفردات من الأشجار والثمار والأصول والأزهار) ، وقد ذكر الإدريسي في هذا الكتاب ما يصل إلي حوالي ٦٦٠ نوعاً من النبات ، وموفق الدين البغدادي المتوفى في عام ٦٢٩ هـ الذي وضع أكثر من مؤلف في علم النبات .

وكانت نتائج التطبيقات الإسلامية لعلم النبات مبهرة فقد زادت خبرة المسلمين بذلك العلم وبرعوا في تطبيقاته ، واكتشفوا نباتات جديدة عن طريق التطعيم ، واكسبوا بعض النباتات خصائص جديدة وعدّلوا أشكال بعض الثمار بدراسة وتطوير التربة الزراعية وما كل ذلك إلا من قبيل التمهيد للهندسة الوراثية وعلم الأجنة الحديث النشأة .

- علم الحيوان :

قدم المسلمون في مجال علم الحيوان إسهامات جادة منطلقين من المرجعيات الإسلامية على غرار ما قدموه في فروع العلوم الطبيعية الأخرى ، وقد ساعدت تلك المرجعيات والقرآن منها بشكل خاص على تطوير أفكار المسلمين حول الحيوان والطيور والحشرات والدواب عموماً ، واستنبطوا منه أسماء تلك الحيوانات وصفاتها وخصائصها .

إلي جانب ما تقدم استعان المسلمون بإسهامات الأوائل من الأمم الأخرى في مجال علم الحيوان وقد برز من هذه الإسهامات معظم مؤلفات أرسطو التي أطلع عليها علماء المسلمين ووردت اقتباساتها في بعض مؤلفاتهم مثل كتاب " الحيوان " للجاحظ ، وكتاب " طبائع الحيوان وخواصها ومنافع أعضائها " لعبيد الله بن جبرائيل بن بختيشوع ، وكتاب " حياة الحيوان " للدميري .

لقد أقبل علماء المسلمين على دراسة أشكال الحيوانات وبيان منافعها وعاداتها ، واشتهر من هؤلاء العلماء : النصر بن تعميل المتوفى في عام ٢٠٤ هـ ، وأبو عبيدة معمر بن المثنى المتوفى في عام ٢٠٧ هـ ، وأبو الحسن الأخفش المتوفى في عام ٢١٥ هـ ، وأبو سعيد بن

عبدالملك الأصمعي المتوفى في عام ٢١٤ هـ ، وأحمد بن حاتم الباهلي المتوفى في عام ٢٣١ هـ ، ومحمد بن زياد المعروف بالأعرابي المتوفى في عام ٢٣١ هـ ، وأبو جعفر بن حبيب البغدادي المتوفى في عام ٢٤٥ هـ ، وأبو حاتم سهل بن محمد السجستاني المتوفى في عام ٢٥٠ هـ .

كذلك كانت هناك مؤلفات العرب في البيزرة ، وهو يعنى الصيد بواسطة الصقور (البزاة) ومن أهم هذه المؤلفات كتاب " البيزرة " لمؤلف مجهول ، وكتاب " المصايد والمطارد " تأليف كشاجم ، وقد نُقل المؤلف الأول إلي الألمانية " بطريقة غريبة " سوف نتناولها في موضعها .

وكما ظهرت دراسات المسلمين في مؤلفات متخصصة في فروع التاريخ الطبيعي الثلاثة : النبات والحيوان والمعادن والأحجار ظهرت كذلك ضمن أجزاء في أعمال موسوعية تصف الكون وموجوداته المختلفة ومن أهم هذه الأعمال الموسوعية كتاب " عيون الأخبار " لابن قتيبة الدينوري المتوفى في عام ٢٧٦ هـ ، وقد ترجم هذا الكتاب إلي الإنجليزية ، وعيون الأخبار هو جزء من كتاب " الطبائع والأخلاق المذمومة " وهو الكتاب الرابع من الكتب العشرة التي يتألف منها مصنف عيون الأخبار لابن قتيبة الدينوري .

وإذا انتقلنا إلي المؤلفات المتخصصة بالمعنى العلمي في علم الحيوان نجد أبا عثمان عمرو بن بحر الجاحظ المتوفى في عام ٢٣٥ هـ يأتي في مقدمة العلماء الذين ألفوا في علم الحيوان بأسلوب يغلب عليه المنهج العلمي ، ففي كتابه الشهير " الحيوان " قدم الجاحظ شرحاً وافياً جامعاً متخصصاً للحيوانات المتعارف عليها ، وقد جاءت معلومات ذلك الكتاب غزيرة ودقيقة تنم عن سعة الاطلاع ودقة الملاحظة وبروع في وصف المظاهر الخارجية للحيوان وسلوكه وطبائعه وتكاثره والفوائد التي يقدمها للناس وجميع ما تقدم يمثل أهم خصائص المنهج العلمي .

ولا نعتقد أن أحداً قد سبق الجاحظ في هذا الخصوص وبهذا الوصف ، فهو أقدم العلماء المسلمين الذين صنفوا كتاباً في هذا المجال المهم من مجالات التاريخ الطبيعي الثلاثة ، ولكن لا ينبغي أن ننكر أن الجاحظ قد أطلع على مؤلفات أرسطو في علم الحيوان وتعمق فيها ثم اقتبس منها مع الإشارة إليها وفي ذلك دلالة على اعتداده بالعلم والفكر الهيليني .

ومن الإسهامات الجديرة بالذكر كذلك في مجال علم الحيوان والتي انتهجت المنهج العلمي وكان لها أثرها الفعّال في العلوم الطبيعية وتطبيقاتها في العصر العباسي إسهام ابن سينا الذي خصص أحد أجزاء كتابه المعروف " الشفاء " لدراسة مختلف أنواع الحيوان والطير .

ومن الإسهامات المهمة كذلك في علم الحيوان كتاب طبائع الحيوان وخواصها ومنافع أعضائها الذي أشرنا إليه من قبل لمؤلفه أبي سعيد عبيد الله بن جبرائيل بن بختيشوع الطبيب المشهور المتوفى في عام ٤٥٣ هـ ، ويعد هذا الكتاب من أهم الكتب التي نحت منحاً علمياً على غرار ما تقدم وقد تناول ابن بختيشوع في هذا الكتاب بأسلوب علمي طبائع الحيوانات المختلفة وخواصها والعلل التي تصيبها وطرق وقايتها وعلاجها وكيفية الاستفادة من أعضائها وقد اطلع ابن نجتيشوع على مؤلفات أرسطو في علم الحيوان واقتبس منها كما فعل الجاحظ ويعتبر كتاب بن بختيشوع في جزء منه متخصصاً في الطب البيطري .

يضاف إلي ما تقدم الإسهام الذي قدمه أبو الحسن بن سيدة من خلال كتابه " مخصص " الذي ضمنه تفاصيل عن الخيل ، وخصص الجزئين السابع والثامن من ذلك الكتاب للحديث عن حيوانات متعددة مثل الإبل والأغنام والماعز والسباع والكلاب إلي جانب الطيور وبعض الحشرات مثل النحل والنمل والعناكب وغير ذلك من المخلوقات .

- المعادن والأحجار :

وإذا انتقلنا إلي المجال الثالث من مجالات التاريخ الطبيعي وهو المتعلق بالمعادن والأحجار ، فلعل أول الملاحظات التي يمكن تسجيلها حول إسهامات العلماء المسلمين في هذا المجال هي أن معظم المؤلفات التي قدمت في هذا المجال تناولت الأحجار الكريمة وركزت على الخصائص السحرية التي تنسب إلي تلك الأحجار ، إلا أن بعض تلك المؤلفات قد تجاهل مسألة الربط بين الأحجار الكريمة والسحر وتناول المعادن والأحجار بشكل علمي وبحث في عناصرها ودرس خصائصها وكان أول من انتهج هذا النهج هو أبو بكر محمد بن زكريا الرازي .

ولم يجد علماء المسلمين غضاضة في الإفادة من مؤلفات الأوائل في مجال المعادن والأحجار ، وبرز في هذا الخصوص كتاب " الأحجار " المنسوب لأرسطو فقد أفاد منه المؤلفون المسلمون في المجال المذكور وأقتبسوا اقتباسات مهمة .

❖ الجغرافيا :

في مجال الجغرافيا كان العصر العباسي بمثابة مرحلة عطاء واسهام إضافي للرصيد السابق في العصور الإسلامية المنصرمة ، ولكن في هذه المرحلة ظهرت الجغرافيا الوصفية إلي جانب الجغرافيا التاريخية إلي جانب الجغرافيا الفلكية في مؤلفات اجتهدت من أجل أن تنحو منحاً علمياً يقوم على الرصد والمشاهدة والتجربة والحسابات الدقيقة والمعقدة لحساب المثلثات إلي جانب الاعتماد على الآلات مثل الإسطرلاب وكذا المراصد المتطورة التي انتشرت في كل مكان على امتداد إقليم الدولة .

لقد اعتمد علماء المسلمين على مهاراتهم الخاصة ومداركهم الواسعة وكذلك الاطلاع على ما قدمه الأولون في هذا العلم من إغريق وهنود وفرس ورومان ثم شرعوا في الإسهام الفعلي في

هذا العلم الذي يجمع بطبيعته بين علوم عديدة مثل علم النجوم وعلم الفلك وعلم البصريات وعلم الرياضيات [حساب المثلثات] وعلم التاريخ ، وبدت المؤلفات الإسلامية الشهيرة في علم الجغرافيا بكل فروعه والتي مثلت رصيداً خالداً للفكر الإنساني ، ومنها ما ترجم إلي لغات أوربية عديدة وقامت على أسسه علوم الجغرافيا في الدول الأوربية ، ويمكن متابعة التطورات التي طرأت على علم الجغرافيا في العصر العباسي والإسهامات التي قدمها المسلمون في هذا الحقل من خلال ما يلي :

- تطور الجغرافيا في العصر العباسي :

شهد العصر العباسي تقدماً إضافياً فيما يتعلق بالجغرافيا الوصفية التي تهتم بوصف الطرق والمناطق والبلدان ومحطات القوافل وكان لذلك أهميته في تحديد طرق الحج والتجارة وعمال الخراج والزكاة ، وهذا التقدم قد اقترن باستقرار المجتمع المدني على امتداد إقليم الدولة الإسلامية ذلك المجتمع الذي خلد إلي الراحة وانصرف إلي ترسيخ مظاهر العمران والمدنية بوصفها مقوماً من أهم مقومات الحضارة الإسلامية التي أزدهرت وأينعت في العصر العباسي ، وقد كان الوضع من قبل في العصرين الأموي والراشدي يعتمد بالأساس على حركة الجيوش التي لا تهدأ وما أدت إليه من اكتشاف في الطرق وتأمينها وإقامة المحطات على إمتدادها وشكلت العامل الأساس في الربط بين أجزاء الدولة ، ومن ثم يمكن القول أن حركة الفتوحات الإسلامية في العصرين الراشدي والأموي ثم حركة تطور واستقرار المجتمع المدني في العصر العباسي كانتا وراء تقدم الجغرافيا الوصفية في العصر العباسي .

منذ العصرين الراشدي والأموي بشكل محدود ثم بشكل مكثف في العصر العباسي بدأت حركة الترحال والتنقل داخل أقاليم الدولة الإسلامية وبرزت مع هذه الحركة ظاهرة تسجيل المشاهد والوقائع ، وكان ذلك التسجيل بمثابة وصف دقيق لوقائع الرحلة

وتطوراتها ومشاهدها منذ بدايتها وحتى نهايتها ، ويشمل ذلك الوصف الدابة التي ستحمل المسافر وما يتزود به من أمتعة ثم الطرق التي يسلكها وما بها من مظاهر السطح المختلفة [التضاريس] والبلدان التي يمر بها ويتوقف عندها والظواهر الجوية المناخية التي تحدث خلال الرحلة ثم يكتب عن تاريخ الإقليم أو المدنية التي يقصدها ويمكث فيها وترتبط بها مهمته .

إن ما تقدم من تسجيل ووصف قد قام به أناس كثيرون مختلفو الأهواء والمشارب والمقاصد فهناك الرحالة التي كانت مهمتهم هي الترحال ومقصدهم المعرفة والاكتشاف ، وهناك الحجاج الذين يقصدون البيت الحرام لأداء فريضة الحج من أماكن وفجاج عميقة ، وهناك التجار الذين يقودون القوافل أو ينخرطون في ركابها ، وهناك المبعوثون الرسميون الذين يقومون بمهام رسمية في خدمة الدولة ، وهناك السفراء الذين يمثلون الدولة الإسلامية لدى أقاليم ودول أخرى ، وهناك الدعاة الدينيون والسياسيون الذين يتحدد مقصدهم في الدعوة للإسلام أو لمذهب من مذاهبه ، وهناك المغامرون الذين تدفعهم المغامرة إلي القيام برحلات طويلة وشاقة .

ويلاحظ أن التاريخ كان يلعب دوراً مهماً في التسجيل والوصف الذي يقوم به من سبقت الإشارة إليهم ، فكثيراً ما كان يعمد هؤلاء إلي البحث في تاريخ المناطق والمدن التي يمرون بها أو يقيمون فيها ويدونون ذلك التاريخ ، ويصبح بعد ذلك تاريخاً موثقاً لها كتب بأيدي الزائرين والمرتادين .

وبالرغم من النشاط الذي دب خلال العصر العباسي في حركة الجغرافيا الوصفية إلا أن ذلك النشاط قد واكبه نشاط مكثف في اتجاهين آخرين :

الاتجاه الأول تمثل في اطلاع علماء المسلمين والمهتمين بالجغرافيا على إسهامات الآخرين من اليونان والفرس والهنود والرومان في مجال الجغرافيا وأشهر المؤلفات في هذا الخصوص كانت لبطليموس الجغرافي والفلكي الإغريقي المعروف وأهمها كتاب " السندهند " وكتاب " المجسطى " وكتاب " المدخل إلي الجغرافيا " ، وقد كان ذلك الاطلاع في معظمه ينحو منحاً نقدياً ستظهر نتائجه بعد فترة .

الاتجاه الثاني تجسد في بروز ما عرف بالجغرافيا الفلكية وهي المتعلقة إجمالاً بموقع الأرض من الكون ومن الأجرام السماوية التي تؤثر فيها من خلال ظواهر جوية معينة ، وكان هذا الاتجاه يمثل نقلة نوعية في علم الجغرافيا الإسلامي ارتبط بشكل مباشر بما قُدّر لعلماء الإسلام الاطلاع عليه من علوم الحضارات الأخرى وارتبط كذلك ببروعهم واتساع مداركهم وقدرتهم على العطاء وذلك ما بدا جلياً في نتاجاتهم القيمة في هذا المجال .

لقد ترتب على هذين الاتجاهين نتيجة غاية في الأهمية تمثلت في تلاحق الإسهامات والنتاجات في حقل الجغرافيا بكافة ضروبه الوصفية والفلكية والاقتصادية .. الخ ، وبالإضافة إلي أهمية ذلك الإسهام في الفكر العالمي والتراث الإنساني فقد لعب دوراً يعّول عليه في تصحيح الكثير من النظريات والآراء التي توصل إليها الأولون ، وأصبح الإسهام الإسلامي هو المنطلق الأساسي والصحيح للنهضة الأوربية فيما بعد ، فقد " ساعدت كتب المسلمين الجغرافية على تعليم أهل الغرب ، في وقت لم يكن قد بدأ الغرب بحثهم في جغرافية الشرق ، ولم تكن قد بدأت الدراسات الغربية الخاصة بالجغرافيا " ، وسوف نعكف في الجزء التالي من هذا المجلد على إيضاح وتفصيل هذه الحقيقة .

وكان سليمان التاجر أول وأشهر من تناول أدب الرحلات بوصفه نوعاً من الجغرافيا الوصفية وقد جاءت إسهامات هذا الأديب لتجمع بين أدب الوصف وتصريف اللغة العربية إلي مجالات شتى غير مطروقة وإثرائها بمصطلحات جديدة وإضفاء الطابع العلمي

عليها لتصبح لغة الأدب والعلم معاً ، وسليمان التاجر هو تاجر عربي تنقل في القرن الثالث الهجري بين مناطق عديدة في الهند والصين ، وكتب مسجلاً مشاهداته عن طبائع وخصائص شعوب هاتين الأمتين ، وقد أصبح ما كتبه سليمان بمثابة تأريخ لواقع تلك الشعوب في تلك الفترة التاريخية وقد كان لذلك فوائده العديدة .

- ضروب علم الجغرافيا في العصر العباسي :

تنوعت ضروب علم الجغرافيا في العصر العباسي وتعددت لتشمل الجغرافيا العامة والجغرافية الخاصة والمعاجم الجغرافية والموسوعات الجغرافيا إضافة إلي كتب الرحالة .

* الجغرافيا العامة :

ونقصد بالجغرافيا العامة تلك المصنفات التي يتعرض فيها مؤلفوها لوصف العالم الإسلامي وصفاً شاملاً ، وقد حفل العصر العباسي بنتاج كثيف وقيم في هذا الضرب من الجغرافيا ، ومن هذه المصنفات : كتاب " أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم " للمقدسي ، وكتاب " صورة الأرض " لابن حوقل ، وكتاب " المسالك والممالك " لابن خرداذبه ، وكتاب " المسالك والممالك " للاصطخرى ، وكتاب " البلدان " لليعقوبي .

* الجغرافيا الخاصة أو المحدودة :

وفي هذا الضرب من الجغرافيا يركز المؤلف على تناول منطقة معينة محددة جغرافيا وذات خصائص مميزة حضارياً أو ثقافياً أو تاريخياً ، ومن أمثلة الجغرافيا المحدودة كتاب " صفة جزيرة العرب " للهمذاني ، وكتاب " أخبار مكة " للأزرقي ، وكتاب " تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة " لابن ريحان البيروني ، وغير ذلك كثير .

* المعاجم الجغرافية :

وهذا الضرب من الجغرافيا عبارة عن كتاب يحصر أسماء الأماكن مرتبة على حروف الهجاء ، ثم يورد المؤلف كل ما يتعلق بذلك المكان من معلومات شاملة ومن مختلف النواحي ، ومن أشهر من صنف في هذا الضرب عبدالله البكري الأندلسي في كتابه " معجم ما استعجم " ، وياقوت الحموي في كتابيه " معجم البلدان " و " المفترق صقعاً والمشترك وضعاً " ، والحمري في كتابه " الروض المعطار في خبر الأقطار " وغيرهم .

* الموسوعات الجغرافية :

وهي عبارة عن مصنفات شاملة في المباحث الجغرافية المتنوعة الوصفية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية بالإضافة إلي الحوادث التاريخية ، وتدل هذه النوعية من المصنفات الموسوعية على سعة اطلاع مؤلفيها وعمق مداركهم ، ومن أهم هذه الموسوعات " مسالك الأبصار في ممالك الأمصار " لابن فضل الله العمري .

* مؤلفات الرحالة :

وهذا الضرب من الجغرافيا يعد من أهم الإسهامات التي برزت أهميتها في الفكر الإنساني العالمي لما مثلته من مصادر أساسية للمعارف التاريخية والجغرافية والاجتماعية لكثير من المناطق والبلدان فمؤلفات الرحالة تحتوي على معلومات دقيقة وعميقة عن البلاد التي زارها المؤلف مثل طبيعة البلد الجغرافية وعادات وتقاليد الشعوب ونشاطاتهم الاقتصادية ونظمهم السياسية وموروثاتهم الحضارية إلي غير ذلك من المعلومات ، ولعله من أشهر الرحالة المسلمين : ابن جبير وابن بطوطة .

- المسلمون وتصحيح المعارف الجغرافية السابقة واكتشاف حقائق جديدة :

إضافة إلي النتاجات والإسهامات التي قدمها المسلمون في الجغرافيا ، فقد قدموا كذلك ما يعد فتحاً غير مسبوق في هذا الحقل المعرفي المهم وهو اعتماد منهج علمي في الكتابة الجغرافية يعتمد على المشاهدة ، والانتقال إلي المكان ومعايشة ظروفه .

يعد القرن الرابع الهجري قرن الإنجازات الإسلامية في الجغرافيا ، فالمسعودي كان أول من اهتم بالأسفار في الشرق والغرب وذكر ذلك في مقدمة كتابه " مروج الذهب ومعادن الجوهر " واعتمد منهج الكتابة العلمية في الجغرافيا التي تعتمد على المشاهدة والملاحظة .

وفي القرن الرابع الهجري نفسه أتبع المقدسي نفس المنهج حيث أنفق على أسفاره أموالاً طائلة ، ووضع كتابه " أحسن التقاسيم " متبعاً منهج المشاهدة والملاحظة الذي ابتكره المسعودي في الكتابة الجغرافية التي عرفت بالجغرافيا الوصفية .

أما بن حوقل فقد اتبع منهجاً أخر هو منهج المطالعة والاستنباط حيث تابع كتب المسالك وألف كتابه " المسالك والممالك " .

لقد بذل علماء المسلمين في الجغرافيا جهوداً مكثفة وجادة من أجل تصحيح المعارف الجغرافية القديمة التي اطلعوا عليها في مؤلفات الإغريق وأشهرها مؤلفات بطليموس ، ومن هذا القبيل حقيقة " كروية الأرض " وحقيقة " دوران الأرض حول محورها " وقد أثبت الجغرافيون المسلمون هاتين الحقيقتين ورتبوا عليهما حقائق أخرى ، ومن هؤلاء : ابن حزدازبه وابن رسته والمسعودي والإدريسي ، وقد ضمنوا تلك الحقائق مؤلفاتهم المعروفة في الجغرافيا .

وانطلق الجغرافيون المسلمون من الحقائق التي توصلوا إليها وصححوا بموجبها معارف قديمة إلي اكتشاف حقائق جديدة ، وهذا ما قام به ابن رستة عندما انطلق من حقيقة

كروية الأرض وحقيقة دوران الأرض حول محورها ودورانها حول الشمس إلي التأكيد على حقيقة أن الشمس تطلع على مناطق الشرق قبل الغرب ، وإن غربت في الغرب فهي تشرق على الشرق وهكذا مع حركة تناوب متبادل .

وتأسيساً على الحقائق الجغرافية التي توصل إليها علماء المسلمين ، وبالذات حقيقة كروية الأرض واستعمالهم للبوصلة كانوا أول من حاول الدوران حول الأرض ، وقد ذكر الإدريسي في هذا السياق في كتابه " نزهة المشتاق في اختراق الآفاق " عن الاخوة المغربيين الذين أبحروا من لشبونة على شاطئ الأطلنطي ووصلوا إلي نقطة في أمريكا الوسطى .

– إبتكار علم الخرائط :

من الثابت أن علماء الجغرافيا المسلمين هم أول من استعمل الخرائط بشكلها العلمي وربطها بعلم الجغرافيا كعلم مكمل ، وقد أسسه الإدريسي في كتابه العظيم المشار إليه ، والذي ألفه بناء على طلب من الملك النورماندي روجر الثاني ، والكتاب بمثابة " وصف لخارطة كبيرة للأرض صنعت من الفضة لذلك الملك ، أضيفت إليها إحدى وسبعون خارطة " أخرى ، كذلك " يتضمن الكتاب بحثاً شاملاً في الجغرافيا الوصفية العامة " ، فالإدريسي إذن هو أول من رسم خارطة على سطح الكرة .

كذلك كان الإدريسي هو الذي رسم خارطة أوضح فيها منابع النيل من بحيرات الجنوب في وسط أفريقيا ، ويعتبر ذلك تحديداً واقعياً لمنابع النيل .

وتذكر مصادر غربية موثقة — هي دائرة المعارف الفرنسية — أن كولومبس أطلع على مصادر جغرافية وخرائط وضعها المسلمون قبل أن يقوم برحلته التي انتهت باستكشاف أمريكا ، ومعلوم أن الخرائط الإسلامية وما كتبه المسلمون في علوم البحار كان له أثر فعال في تقدم الملاحة الغربية ، ودليل ذلك أن الملاح الذي قاد سفن فاسكوداجاما إلي قاليقوط

على الساحل الغربي للهند ، هو الملاح المسلم المعروف أحمد بن ماجد الذي وضع دليلاً للملاحين في المحيط الهندي عرف باسم " الفوائد في أصول علم البحر والقواعد " .

❖ التاريخ :

سبق لنا أن تحدثنا عن التاريخ كعلم في العصور الإسلامية التي تسبق العصر العباسي ، وذكرنا أن العرب قبل الإسلام ألفوا كتابة التاريخ وأرّخوا لأشهر حوادثهم ووقائعهم ، ثم أوردنا كيف برز التاريخ كعلم ومعرفة بعد ظهور الإسلام وكيف تطور عبر العصور الثلاثة التي سبقت عصر العباسيين وهي عصور النبوة الزاهر والخلافة الراشدة والعصر الأموي ، وقد تطور التاريخ ممثلاً في تطور طرق كتابته والمنهج المستخدم في الكتابة التاريخية والضروب المختلفة التي خاض فيها ذلك العلم ، وتكمن أسباب ذلك التطور في حالة النضج والتفاعل التي شهدتها الحياة الفكرية والعقلية عموماً في العصر العباسي ، وكذلك في حالة النشاط في الكتابة التاريخية وإقدام علماء ثقاة على التأريخ والكتابة التاريخية ، وأيضاً في بروز مناهج وطرق وضروب مبتكرة خاصة بالتاريخ ، وذلك من خلال الآتي :

- طريقتا تدوين التاريخ :

اتبع المسلمون في تدوين التاريخ أكثر من طريقة ، ومن المؤرخين من استخدم طريقة من هذه الطرق في تدوين التاريخ ، ومنهم من استخـدم أكثر من طريقة ، ونشير إلي طريقتي كتابة أو تدوين التاريخ التي اتبعهما المسلمون في الآتي :

* طريقة التدوين الأفقي :

تعتمد هذه الطريقة على تدوين الأحداث والوقائع التي جرت خلال فترة زمنية محددة ، قد تكون سنة أو أكثر ، وتمتاز هذه الطريقة بالشمولية في تناول التطورات والتفاعلات والأحداث وتمتاز كذلك بإمكانية الربط بين الأحداث والتفاعلات المختلفة واستكشاف أثر

الأحداث والتطورات في بعضها ، وهذه الطريقة تنحو نحو الموضوعية والواقعية وعدم عـزل أو فصل الأحداث والتطـورات عـن بعـضها بـشكل تعـسفي ، ووفـق هـذه الطريقـة يمكـن استخدام منهج التحليل التاريخي ببراعـة واقتـدار واسـتخلاص نتـائج جيـدة ومعـبرة عـن الواقع ، إلا أن عيب هذه الطريقة يكمن في أن التوقف عند الفترة الزمنيـة المحـددة يعـوق متابعة الأحداث والوقائع ذات الامتداد التاريخي الذي يتجاوز تلك الفترة ، وهنا لا يمكن للمؤرخ إلا أن يتناول جـزءً مـن الحـدث ، وقـد يـؤثر هـذا التوقـف الاضـطراري في عمليـة التحليل والتدوين .

* طريقة التدوين الرأسي :

ووفق هذه الطريقة يلتزم المؤرخ برواية الحادثة من بدايتها وحتـى نهايتهـا ، ومثـال ذلـك الكتابة عن تاريخ دولة من الدول أو طبقة من الطبقات أو ترجمة لشخص .. الخ ، وبالرغم مما تمتاز به هذه الطريقة من متابعـة الحـدث دون انقطـاع إلا أنهـا تجعـل مـن الـصعوبة بمكان على المؤرخ أن يتطرق إلي كافة المتغيرات والمـؤثرات الـتي أثـرت في الحـدث علـى امتداد وجوده ، وهذا ما كـان يـضطر المـؤرخين المـسلمين عنـد اسـتخدام هـذه الطريقـة في الكتابة التاريخية إلي الاستطراد والاسترسـال لاسـتجماع كافـة المـؤثرات والمـتغيرات الـتي تفاعلت مع الحدث وأثرت فيه بشكل قد يجعل المتابع يتوهم أنها جزء منه .

- منهجا الكتابة التاريخية عند المسلمين في العصر العباسي :

تعويلاً على النضج والتطور اللذين عما الحياة الفكرية في العصر العباسي برز أكثر من منهج في الكتابة التاريخية ، ويمكن تناول لمحة عن أهم منهجين في الكتابة التاريخية وجـدا في ذلك العصر في الآتي :

* المنهج التقليدي :

المنهج الذي شاع في الكتابة التاريخية واستخدمه معظم المؤرخين المسلمين في تلك الفترة وقد انتقل إلي العصر العباسي من العصور السابقة له هو المنهج التقليدي ، وكان لهذا المنهج خصائص يمكن الإشارة إليها في الآتي : السرد المعتمد بشكل مطلق على الرواية ، بروز النزعة الانتقائية بالنسبة للرواة وعدم التأكد من صدقهم والاعتماد على أهل الحظوة منهم والمتنفذين والذين حكمت رواياتهم للأحداث والتطورات العلاقات الخاصة والمصالح والمآرب ، عدم التعويل على حقيقة الحدث والمتغيرات والظروف المحيطة به والتفاعلات التي تمت مع أحداث وتطورات أخرى ، عدم إعمال العقل في التحليل واستخلاص العلاقات بين الحدث وغيره من الأحداث والتطورات والتفاعلات الاجتماعية عموماً .

* المنهج التحليلي المبتكر :

ثار الكثير من المؤرخين المسلمين وخرجوا على المنهج التقليدي بوصفه السابق الإشارة إليه وابتكروا منهجاً مستحدثاً للكتابة التاريخية ، انحرفوا فيه عن تقاليد المنهج السائد ، واستحدثوا تقاليد جديدة تعطى للكتابة التاريخية ميزات شتى أهمها : الموضوعية والدقة والواقعية ومن التقاليد الجديدة التي أعتمدها المؤرخون الجدد ، تحليل الحدث والبحث في علاقاته بالتطورات والأحداث الأخرى والتفاعلات الاجتماعية ، الاعتماد في الرواية على الثقاة من الرواة والمعروفين بالدقة والأمانة ، إعمال العقل والمنطق في فهم الحدث ومتابعة تطوراته وتحليل تفاعلاته بجميع أبعادها ، وبالرغم من ميزات هذا المنهج إلا أنه لم يستخدم على نطاق واسع في كافة الكتابات التاريخية نظراً لاعتياد المؤرخين على المنهج التقليدي .

- ضروب التاريخ التي عرفها المسلمون :

يمكن القول بالاستناد إلي المتابعة التاريخية أن معرفة المسلمين بالتأريخ والكتابة التاريخية قد ظهرت وتطورت بشكل ذاتي تلقائي ، فالعرب قبل ظهور الإسلام ابتكروا الكتابة التاريخية انبعاثاً من احتياجهم إليها ثم طوروا تلك الكتابة بشكل تلقائي دون حاجة إلي خبرة أجنبية أو إسهامات من الآخر ، واستمرت تلك الوضعية بعد ظهور الإسلام وأخذت معرفة المسلمين بالتاريخ واحترافهم للكتابة التاريخية في تطور مستمر إعتماداً على خاصيتي الذاتية والتلقائية ، ومن ثم يعتبر التاريخ من العلوم التي برز فيها الطابع الإسلامي بشكل صرف ولم تسنح الفرصة للتأثيرات الأجنبية لكي تفعل مفعولها على غرار ما تم بخصوص العلوم الأخرى — التي سبق تناولها — والتي سيرد الحديث عنها ، وقد تعددت ضروب الكتابة التاريخية وتشعبت في مناحي شتى ، نتناول أهم تلك الضروب في الآتي :

* كتابة السيرة النبوية المطهرة ومغازي الرسول الكريم :

أحجم المسلمون لأكثر من قرن من الزمان عن الكتابة والبحث في سيرة الرسول الكريم بشكل رسمي معلن عملاً بوصيته المتعلقة بعدم كتابة أحاديثه ومن ثم سيرته حتى لا يختلط ذلك بالقرآن الكريم أو يتشابه معه تنزيهاً له وتقديساً حتى لا يسمو إلي منزلته أي شيء آخر ، إلا أن المسلمين في العصر العباسي لم يجدوا ما يمنع أو يضير في كتابة سيرة الرسول الكريم بل على العكس من ذلك وجدوا في ذلك ضرورة ومتعة كبرى لتوثيق حياة الرسول الكريم حتى يُقَدر للأجيال الإسلامية المتعاقبة الاطلاع عليها والوقوف على تفاصيلها انطلاقاً من أهميتها وكونها المصدر الثاني من مصادر الشريعة الإسلامية .

والسيرة النبوية الشريفة هي كل ما يتعلق بشخصية الرسول الكريم وأقواله وأفعاله وحياته الخاصة والعامة فهو الأسوة الحسنة والقدوة الصالحة التي ينبغي على كافة المسلمين

الاقتداء به والتأسي ، وإذا كان الأمر كذلك فعلى المسلمين أن يعلموا كل شيء عن شخصية الرسول ويفقهوا أفعاله وأقواله ، ويقفوا على دقائق حياته العامة والخاصة ، وكيف يُقّدر لهم ذلك دون أن تصلهم تلك السيرة مكتوبة وموثقة من مصادر أصيلة وأمينة ودقيقة ، أما المغازي فهي الغزوات والبعثات التي قادها الرسول الكريم بنفسه أو شارك فيها في إطار الفتوحات الإسلامية ونشر الدعوة .

لقد برز إهتمام المسلمين بكتابة السيرة النبوية الشريفة منذ القرن الأول الهجري ، ولعل أول من كتب في سيرة الرسول الكريم هو محمد بن إسحاق المتوفى في عام ١٥١ هـ ، وذلك بطلب من الخليفة العباسي المنصور ، إلا أنه لم يتم العثور على ذلك الكتاب ولم يقف له على أثر ، ولكن أخباره وردت في ثنايا سيرة بن هشام في صورة مختصرة كذلك كتب محمد عمر الواقدي المتوفى في عام ٢٠٧ هـ في السيرة النبوية الشريفة ، إلا أن أعظم وأمثل ما كتب في السيرة هو " سيرة بن هشام " لإبن هشام المتوفى في عام ٢١٨ هـ ، وتوالت بعد ذلك كتابات في السيرة لعدد من المؤرخين ولكنها جميعها نحت منحى بن هشام .

• كتابة الطبقات :

من ضروب الكتابة التاريخية الترجمة لجماعة من أفراد المجتمع الإسلامي تربطهم صفات أو خصائص مشتركة ، كطبقات : الصحابة والشعراء والأدباء والفقهاء والصوفية والأطباء وغيرهم ، ويرتبط هذا الضرب من الكتابة التاريخية بعملية جمع الحديث والتوثق فيه ، حيث أدت تلك العملية المهمة والشاقة إلي النظر في أسانيد الحديث وأحوال الرواة وصفاتهم ، وأشهر من كتب في هذا اللون من الكتابة التاريخية هو : محمد عمر الواقدى المتوفى في عام ٢٠٧ هـ ، في كتابه " طبقات الصحابة " ، ومحمد بن سعد المتوفى في عام ٢٣٠ هـ في كتابه المشهور " الطبقات الكبرى " ، ومحمد بن سلام الجمحي المتوفى في عام

٢٣٢ هـ ، في كتابه " طبقات الشعراء " ، وابن أبي أصيبعة المتوفى في عام ٦٦٨ هـ ، في كتابه " طبقة الأطباء " وغير هؤلاء كثير .

• كتابة التراجم :

وهو ضرب من الكتابة التاريخية ينصرف إلي التعريف بالأشخاص المشهورين بشكل موسوعي شامل ، ولم تختص هذه التراجم بطبقة دون أخرى مثل كتابة الطبقات بل تناولت العلماء والأدباء والقادة والخلفاء والأطباء والموسيقيين والفقهاء والمتصوفين والشعراء وغيرهم ، وأشهر من كتب في التراجم يا قوت الحمودي المتوفى في عام ٦٢٦ هـ في كتابه " معجم الأدباء " وابن خلكان المتوفى في عام ٦٨١ هـ في كتابه " وفيات الأعيان " ، وابن شاكر الكتبي المتوفى في عام ٧٦٤ هـ في كتابه " فوات الوفيات " ، والاصعدي في كتابه " الوافي بالوفيات " إلي غير هؤلاء .

• كتابة تواريخ البلدان أو ما يعرف بالتواريخ المحلية :

وهذا الضرب من الكتابة التاريخية يتناول بالدراسة تاريخ بلد بعينه أو مدنية بذاتها ومن أشهر من كتب في هذا الضرب : الخطيب البغدادي المتوفى في عام ٤٦٣ هـ في كتابه " تاريخ بغداد " ، وابن عساكر المتوفى في عام ٥٧٢ هـ ، في كتابه " تاريخ دمشق " ، والمقري المتوفى في عام ١٠٤١ هـ في كتابه " نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب " .

• كتابة الأنساب :

كان لهذا الضرب من كتابة التاريخ وقعه المميز ومكانته الرفيعة في المجتمع العربي قبل الإسلام واستمر ذلك هو حاله بعد مجيئه وسبب ذلك هو أن العرب كانوا يعتزون بأنسابهم ويفخرون بأمجاد قبائلهم وأعراقهم ، وعليه فقد كان تاريخ كتابة الأنساب يجد لديهم اهتماماً لا يذكر وعناية لا توصف ، وكتابة الأنساب تعن بتتبع انساب العرب حتى

ينتهي إلي أصولها الأولى ، ولعل أشهر من كتب في هذا الضرب هو هشام الكلبي المتوفى في عام ٢٠٤ هـ ، في كتابه المعروف " الجمهرة في الأنساب " .

• التاريخ العام والحوليات :

ولهذا الضرب من كتابة التاريخ دوره المهم في الفكر الإنساني العالمي حيث يبحث في تاريخ العالم ونشأة البشرية ، وينصرف هذا اللون إلي كتابة التاريخ متسلسلاً حسب تعاقب السنين ويبدأ فيه المؤرخ عادة بقصة بدء الخلق والأنبياء والأمم البائدة ومشاهير الحكام حتى يصل إلي عصر ما قبل الإسلام ثم يدخل إلي عصر الإسلام حيث يلتزم بالتاريخ الهجري .

وقد قدمت في هذا الضرب من كتابة التاريخ أدبيات شهيرة كان لها أهميتها العالمية في الفكر الإنساني ، ومن تلك الأدبيات العالمية كتاب " تاريخ الأمم والملوك " الذي ألفه محمد بن جرير الطبري المتوفى في عام ٣١٠ هـ ، وكتاب " مروج الذهب ومعادن الجوهر " الذي وضعه المسعودي المتوفى في عام ٣٤٠ هـ ، وكتاب " الكامل في التاريخ " الذي كتبه ابن الأثير المتوفى في عام ٦٣٠ هـ ، وكتاب " العبر وديوان المبتدأ والخبر " الذي صنفه ابن خلدون المتوفى في عام ٨٠٨ هـ .

❖ الرياضيات :

إسهام المسلمين في العلوم الرياضية لا يقل عن إسهامهم في كافة العلوم الأخرى والذي يدل على تملك هؤلاء لملكة العطاء والإبداع النابع من ذات حضارية تتسم بالاستقلالية والتفرد وتنظر إلي الكون ومفرداته بإنسانية وتجرد ، وقد شهد العصر العباسي تطوراً هائلاً في العلوم الرياضية كان له أثره البالغ في الحضارة الإنسانية عموماً والحضارة الغربية خصوصاً .

وتنصرف أصول التقدم العلمي للرياضيات عند المسلمين إلي مصدرين أساسيين : الأول يرتبط بالقرآن الكريم الذي أورد تقسيم المواريث الذي يحتاج إلي عمليات حسابية معقدة تظهر فيها كسور الأعداد وتجميعها أو تفريقها بشكل غير مسبوق ، أما المصدر الثاني فهو يرتبط بالحضارة الهندية والحضارة الإغريقية وكليهما يعتبر رافداً مهماً أمد الحضارة الإسلامية بقاعدة مهمة من قواعد انطلاقها العلمي في كافة العلوم الطبيعية ومن ضمنها العلوم الرياضية ، ويمكننا الإشارة إلي إسهام المسلمين في فروع الرياضيات من خلال الآتي :

– الحساب :

قال تعالى في كتابه العزيز ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[1] .

وقال تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴾[2] .

وقوام الحساب هو العدد ، والعدد هو مقدار ما يُعَدُّ من الأشياء ويبدأ بالمفرد ثم المثنى فالجمع إلي ما لا نهاية ، والعمليات الحسابية عديدة وأهمها العمليات الأولية البسيطة وهي أربع عمليات هي : الجمع أو الضم والتفريق أي الطرح والضرب أو التضعيف والقسمة ثم تأتى بعد ذلك عمليات أكثر تعقيداً عُرفت فيما بعد .

لقد عرف المسلمون العمليات الحسابية الأربع التي أشرنا إليها ، وأدخلوا الأرقام الهندية وهذبوها وأصبحت تعرف بالأعداد العربية وهي تستعمل في المشرق الإسلامي وأشكالها

---

[1]. سورة يونس : ٥ .
[2]. سورة الأسراء : ١٢ .

المألوفة هي ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ الخ ، ثم ابتكروا " حساب الجمل " ، وهو عبارة عن مقابلة كل حرف من حروف الأبجدية برقم خاص به يرمز له ويدل عليه ، فالحروف من (أ) إلي (ط) يقابلها الأرقام من (١) إلي (٩) ، والحروف من (ي) إلي (ص) يقابلها الأرقام من (١٠) إلي (٩٠) ، والحروف من (ق) إلي (غ) يقابلها الأرقام من (١٠٠) إلي (١٠٠٠) ، وكانوا يرمزون إلي الأعداد التي تزيد على الألف بضرب الحروف في بعضها أو بالأحرى ضرب الأرقام التي تقابل الحروف وتظهر الحروف مندمجة مثلاً : (جـق) = (٣٠٠) أي أن (ج) التي تساوي (٣) مضروبة في (ق) التي تساوي (١٠٠) [٣□١٠٠] .

لقد دخلت الأرقام الهندية إلي بلاد المسلمين في عصر الخليفة العباسي المنصور في عام ١٥٦ هـ برفقة الفلكي الهندي " كنكة " أو " منكة " الذي أحضر معه كتاب " سدهانتا " ، وقد أمر الخليفة المنصور العالم الإسلامي محمد بن إبراهيم الفزارى بترجمة هذا الكتاب وتأليف كتاب على نهجه .

وبالإضافة إلي الأرقام الهندية التي أشرنا إليها والتي وصلت إلي المسلمين بصحبة الفلكي الهندي " منكة " وصلت كذلك سلسلة أخرى عرفت باسم الأرقام الغبارية وهي أيضاً أرقام هندية سميت بذلك الاسم لأن الهنود كانوا ينثرون غباراً على لوح من الخشب ويرسمون عليه الأرقام .. ٥ ، ٤ ، ٣ ، ٢ ، ١ ، وقد انتشر استعمالها في المغرب الإسلامي وأوربا .

لقد تلقى المسلمون هاتين السلستين من الأرقام الهندية وتولوهما بالتهذيب وأصبحت هذه الأرقام هي أساس علم الحساب ، وانطلقوا يقدمون إسهاماتهم في هذا الفرع من الرياضيات حيث كانوا يعتبرونه " صنعة من ارفع الصناعات درجة وأعمها مصلحة وأتمها فائدة " ومن ثم جاءت إسهاماتهم في اتجاهين ، الأول ، الاتجاه العملي التطبيقي في مختلف نواحي الحياة والثاني ، الاتجاه النظري الذي يتعلق بالمسائل الفكرية والنظريات ، وترتيباً على ذلك قسم المسلمون الحساب من حيث الاستعمال العملي إلي قسمين ، القسم

الأول ، الحساب الغباري الذي يحتاج إلي عمليات حسابية معقدة وتحتاج إلي أدوات لإتمامها مثل الورقة والقلم ، القسم الثاني ، الحساب الهوائي أو الذهني وهو الذي لا يحتاج إلي أدوات في استعماله وينتفع به أهل السوق الذين لا يعرفون الكتابة والقراءة .

واصل المسلمون عطاءهم في هذا الفرع من الرياضيات ، فقد اكتشف غياث الدين الكاشي الكسر العشري ، وتوصلوا إلي النسبة بين محيط الدائرة وقطرها ، وقسموا الأعداد إلي زوجية وفردية ، وقالوا بأن الواحد هو أصل الأعداد جميعاً فردية كانت أم زوجية ، ووضعوا قواعد إجراء العمليات الحسابية وتوسعوا في بحوث النسبة والتناسب .

ومن علماء القرن الثالث الهجري الذين قدموا إسهامات عظيمة في علم الحساب أبو كامل شجاع بن أسلم صاحب كتاب " الجمع والتفريق " وسوف نتحدث عنه وعن إسهاماته تفصيلاً بعد قليل .

ومنهم أيضاً سنان بن الفتح الحراني وله في الحساب كتاب " التخت في الحساب الهندي " و " كتاب الجمع والتفريق " ، ومنهم كذلك أبو يوسف يعقوب الكندي المتوفى في عام ٢٥٢ هـ الذي وضع أحد عشر كتاباً في الحساب من أهمها :" رسالة في الحساب الهندسي " و " رسالة في الحيل العددية " و " رسالة في الخطوط والضرب بعدد الشعر " ، ومنهم كذلك محمد بن الحسن الكرجي صاحب كتاب " الكافي في الحساب " ، والذي سنتحدث عنه تفصيلاً بعد قليل .

إلا أن أول وأشهر عالم رياضي مسلم كبير هو أبو عبدالله محمد بن موسى الخوارزمي المتوفى في عام ٢٣٢ هـ : عاش في عهد المأمون ، وهو أول من " وضع تنظيم منهجي باللغة العربية لكل المعارف الرياضية التي قامت على أساس الترقيم وهو الذي يعني الأعداد ومنازلها والصفر " وضع كتابه الذي عرف باسم " كتاب الخوارزمي " في الأرقام الهندية ،

وقد كتبه أصلاً بعنوان " الجمع والتفريق بحساب الهند " وقد ضاع هذا الأصل ، وفي هـذا الكتاب وضع الخوارزمي القواعد اللازمة لاستعمال الأرقام الهندية ، وكان الخـوارزمي أول من كتب الأعداد على أساس المنازل أو الخانات ، وهو مكتشف رمز الصفر ، وهـو أخطـر رمز حسابي عرفته البشرية .

– الجبر :

الجبر هو أحد فروع الرياضيات ، وتشير بعض الأدبيات إلي أن أصول هـذا الفـرع ترجـع إلي نصوص إغريقية وهندية وبابلية قديمة ، إلا أنه حتى القرن الثالـث الهجـري التاسـع الميلادي لم يكن الجبر " موضوعاً لأية دراسة منهجية جادة " يعّول عليها .

ويعتبر أبو عبدالله محمد بن موسى الخوارزمي هو أول من ألف في هذا الفرع فهـو مؤسـسه دون أدنى شك ، وقد وضع الحوارزمي كتابه المؤسس في الجبر بعنوان " الكتـاب المختـصر في حساب الجبر والمقابلة " ، وكانت موضوعات الكتاب عظيمة وقيمة ومفيدة بحق ، فقـد اشتمل الكتاب على ما يلزم الناس في المواريـث والوصـايا والمقاسمـة والأحكـام والتجـارة ، وفي جميع ما يتعاملون فيه من مساحات الأرض وكري الأنهار وغير ذلك من الموضوعات .

لقد عرّف الخوارزمي الجبر والمقابلة على أنهما تعنيان العمليات التي تختزل فيها المـسائل الرياضية إلي ست معادلات بيّنها في كتابه المذكور ، فالجبر إذن كلمة تعنى نقل الكسر أو جبره واختزاله ، وعملياً تعنى نقل الحدود السالبة إلي الجانب الآخر من المعادلة لجعلـها جميعاً موجبة ، أما المقابلة فتعني اختزال الحدود المتشابهة .

وفي هذا الفرع برز كذلك أبو كامـل شـجاع بـن أسـلم بـن محمـد بـن شـجاع ، وهـو عـالم بالحساب ومهندس مصري توفي حوالي سنة ٣٤٠ هـ ، قـدم عـدة مؤلفـات في الرياضـيات أهمها : كتاب الجبر والمقابلة وكتـاب المـساحة والهندسـة ، وكتـاب الجمـع والتفريـق ،

وكتاب الخطأين ، وكتاب الكفاية ، وكتاب مفتاح الفلاح ، وكتـاب كمـال الجـبر وتمامـه والزيادة في أصوله ، وفي هذا الكتاب أشار أبو كامل شجاع بن أسلم إلي فـضل الخـوارزمي في السبق إلي علم الجبر وأنه أضاف إلي أصول هذا العلم ومسائله ، وقد استطاع أبو كامل بـن أسـلم أن يحلـل قـوانين المعـادلات ذات المجهـولات الخمـسة ، وتوصـل إلـي حـل للمعادلات غير المحددة التي تناولها ديوفانتوس اليوناني السكندري .

ومن علماء المسلمين في الجبر هناك الماهاني وهو أبو عبدالله محمـد بـن عيسى كـان يعمـل مهندساً مـن مؤلفاتـه :" رسـالة في عـروش الكواكـب " و " رسـالة في النـسبة " و " سـتة وعشرون شكلاً من المقالة الأولى مـن إقليـدس " ، وقـد حلـل الماهـاني فرضـية لأرشميـدس مأخوذة من كتاب " الكرة والاسطوانة " وهي " قسمة كـرة معلومـة بـسطح إلـي قـسمين ، تكون نسبة أحدهما إلي الآخر نسبة معلومة " ، وقد قاده التحليل إلي تصور صحيح لهذه المسألة ، التي ظلت دون حل وتمت صياغتها كالآتي : س٣ ○ أ = ب س ٢ .

بعد ذلك بعدة سنين تمكن أبـو جعفـر الخـازن مـن حـل هـذه المعادلـة ، وهـو محمـد بـن الحسين الخراساني ، عاش في النصف الثاني مـن القـرن الرابـع الهجـري وتـوفى حـوالي ٤٠٠ هـ ، وهو رياضي وفلكي شـهير ، لـه عـدة مؤلفـات منهـا : كتـاب زيـج الـصفائح ، وكتاب المسائل العددية وشرح كتاب إقليدس .

وممن اسهموا كذلك في إثراء علم الجـبر الإسـلامي الكرجـي ، وقـد اشـتغل بـالجبر وطـور نظريات ديوفانتوس السكندري وصححها ، وهو محمد بن الحسن أبو بكر الكرجـي تـوفى حوالي عام ٤٣٠ هـ ، وهو ينسب إلي الكرج وهم سكان جبال القبق شمال أرمينية ، وضـع عدداً من المؤلفات منها : كتاب الفخري في الجبر والمقابلة ، وكتاب الكافي في الحـساب ، والربع في الحساب ، وكتاب أنباط المياه الخفية .

كذلك يعد عمر الخيام من أهم العلماء المسلمين الذين اسهموا في تطوير علم الجبر الإسلامي وهو عمر بن إبراهيم الخيامي النيسابوري ، شاعر وفيلسوف ، وعالم بالرياضيات والفلك والفقه واللغة والتاريخ ، اختلف في تحديد سنة وفاته ولكن يرجح أنه توفى في عام ٥١٧ هـ ، عرفه العالمان الإسلامي والعربي برباعياته الشعرية ، ولكن لم يعرف عنه إلا القليل أنه كان عالماً متضلعاً في علوم عديدة ، له مؤلفات ورسائل منها : ما يشكك في مصادرات إقليدس ، مقالة في الجبر والمقابلة ، الاحتيال لمعرفة مقداري الذهب والفضة في جسم مركب منهما ، الخلق والتكيف ، إلي غير ذلك من المؤلفات في مجالات أخرى .

وقد قام عمر الخيام بتقسيم وتصنيف المعادلات الجبرية حتى الدرجة الثالثة وفقاً لعدد حدودها وتوزيع معاملاتها التي اعتبرها دائماً موجبة وكذلك وفقاً لتوزيع الجذور ، واستطاع الخيام كذلك بواسطة القطاعات المخروطية حل المعادلات التكعيبية من الدرجة الثالثة التي لا يمكن تحويلها إلي معادلات تربيعية من الدرجة الثانية .

أيضاً توصل الخيام إلي إيجاد مفكوك أي مقدار جبري ذي حدين مرفوع إلي قوة أسسها أكثر من اثنين ، وللخيام كذلك إنجازات أخرى في مجال الجبر .

بالإضافة إلي ما ذكرنا من علماء المسلمين الذين اسهموا في إيجاد وتطوير علم الجبر هناك أيضاً آخرون أضافوا الكثير ومن هؤلاء أبو حنيفة الدينوري المتوفى في عام ٢٨٢ هـ ، وأبو الوفاء البوزجاني المتوفى في عام ٣٨٨ هـ ، وقد قدم هذا العالم إسهامات مهمة في الجبر والهندسة تعتبر هي أساس الهندسة التحليلية والتفاضل والتكامل ، وأبو محمد عبدالله بن حجاج المعروف بابن الياسمين المتوفى في عام ٦٠١ هـ .

- نظرية الأعداد :

بالإضافة إلي علمي الحساب والجبر اللتين تحدثنا عن إنجازات المسلمين فيهما ، كان هناك ميدان آخر قدم فيه المسلمون الكثير وهو ميدان عرف بنظرية الأعداد ، وكان قوام هذا الميدان موضوعين أساسيين هما : المربعات السحرية والأعداد المتحابة .

والمربعات السحرية ترجع إلي أصول إغريقية ، وكان الفيثاغوريون أول من قدم فيها إنجازات ذات قيمة ، وتتميز هذه المربعات بطبيعة طلسمية ، وترتكز هذه المربعات على قاعدة أساسية وهي أن مجموع الأعداد المحيطة بتلك المربعات ، يظل ثابتاً سواء قُرئت بطريقة عمودية أو أفقية أو وترية ، وقد ساهم جماعة أخوان الصفا وخلان الوفا في هذه المربعات وتوصلوا إلي المربعات التي تتألف من ٩ ، ١٦ ، ٢٥ ، ٣٦ ، جزءً ، وكان الإسهام الأكبر في هذه المربعات لأحمد بن على بن يوسف البوني وهو من المشتغلين بالعلوم السحرية حيث وضع طريقة عامة يمكن بواسطتها إنشاء مربعات أكبر على التوالي ، وأحمد بن على بن يوسف ، محي الدين أبو العباس ، ينسب إلي مدينة بون الجزائرية (عنابة الحالية) وأشتهر البوني بالتصوف والاشتغال بالتأليف في علوم الطلسمات وأسرار الحروف ، وأهم مؤلفاته : شمس المعارف الكبرى ، مواقف الغايات في أسرار الرياضيات ، فضل بسم الله الرحمن الرحيم ، شرح أسم الله الأعظم ، توفى عام ٦٢٢ هـ .

أما الأعداد المتحابة فقد عرفها المسلمون بأنها كل عددين لهما خاصية معينة ، وهي أن أحدهما يساوي مجموع عوامل الآخر ، وقد كان لإخوان الصفا إسهام كذلك في الأعداد المتحابة شرحوه في رسائلهم .

وقد وضع ثابت بن قرة قاعدة عامة لإيجاد الأعداد المتحابة مستخدماً المعادلات الجبرية ، وثابت بن قرة المتوفى في ٢٨٨ هـ ، ولد في حران أو الرها ، وانتقل إلي بغداد حيث درس

الفلسفة والرياضيات ، وقد ترك ثابت بن قرة رصيداً ضخماً من المؤلفات توزعت بين المؤلفات التي وضعها هو ، وبين المؤلفات التي نقلها عن الآخرين ، وبين المؤلفات التي صحح ما بها من أخطاء ، وكان لثابت دور مهم في ترجمة الكثير من المؤلفات اليونانية إلي العربية في مجالات عدة من العلوم ، إلا أن ما ادخله من إضافات إلي علم الرياضيات تجعله هو وأبا الوفاء البوزجاني السابق الإشارة إليه من الذين مهدوا لظهور الهندسة التحليلية وحساب التفاضل والتكامل وفي نفس ميدان نظرية الأعداد اكتشف الخجندى أن " مجموع عددين مكعبين لا يكون عدداً مكعباً " والخجندى هو حامد بن الخضر أبو محمود المتوفى في عام ٣٩١ هـ ، عاش في مدينة الري وهو عالم فلكي ورياضي شهير ، اشتغل بقياس فلك البروج وصنع بعض الآلات مثل آلة السدس والآلة الشاملة واستعملهما في أبحاثه الفلكية .

كما ساهم نصير الدين الطوسي في نظرية الأعداد بنظريته القائلة بأن " مجموع عددين مربعين كل منهما عدد فردي لا يكون عدداً مربعاً " ، وقد ساهمت الجهود التي قدمها العلماء المسلمون في تحليل المتواليات العددية والهندسية .

– الهندسة :

يعتبر علم الهندسة أحد العلوم الرياضية اليونانية الأصل ، وقد بدأ علماء المسلمين الخوض في هذا الميدان بالاطلاع على التراث اليوناني فيه ، فعمدوا إلي ترجمة أمهات الكتب في مجال الهندسة ، فقام الحجاج بن يوسف بن مطر الكوفي بترجمة كتاب الأصول لإقليدس مرتين في عهد الرشيد وفي عهد المأمون ، كما ترجمه آخرون ، كذلك ترجم كتاب المخروطات لإيلونيوس ، ومؤلفات أرشميدس إلي العربية ، ولكن دور المسلمين لم يقف عند حد النقل والاطلاع بل تناولوا تلك المؤلفات بالتصحيح والتجديد والإضافة ، فقد صحح نصير الدين الطوسي نظرية أقليدس الخاصة بالفراغ المطلق ووضع لأول مرة ما يمكن

أن يعتبر أساساً لنظرية الحيز الزائد ، وهي النظرية التي تضيف بعداً رابعاً وهو الزمان إلي الأبعاد الثلاثة المعروفة في هندسة إقليدس .

إلا أن أشهر علماء الهندسة المسلمين هم الأخوة الثلاثة أبناء موسى بن شاكر الذين عاشوا في القرن الثالث الهجري ، اشتغلوا في الرياضيات والهندسة والحيل والحركات والموسيقي وعلم النجوم ، وينسب الأخوة الثلاثة إلي موسى بن شاكر أحد منجمي بلاط المأمون ، وهم : محمد بن موسى بن شاكر ، أبو جعفر توفى في عام ٢٥٩ هـ ، وكان أكثر أخوته علماً ، وأحمد بن موسى بن شاكر ، بلغ في صناعة الحيل من المهارة ما لم يبلغه أخوه الأكبر ، الحسن بن موسى بن شاكر أصغر أخوته وأنفرد بعلم الهندسة ، وقد أشترك الأخوة الثلاثة في تأليف الكتب في الهندسة والفلك والتنجيم ، قدموا كتاب " معرفة مساحة الأشكال " وهو مؤلفهم الرئيسي في الهندسة ، وقد تضمن هذا الكتاب شرحاً للنظريات والآراء اليونانية في الهندسة ، ولم يتوقف إسهام أبناء شاكر بن موسى عند حد استعراض الأفكار اليونانية بل تجاوز ذلك إلي إدخال الإضافات الجديدة والأصيلة على تلك الأفكار ، ونظراً لما تضمنه " معرفة مساحة الأشكال " من آراء ونظريات قيمة فقد ترجم إلي اللاتينية على يد جيرار الكريموني تحت عنوان آخر هو " أقوال موسى بن شاكر " .

وقد كان هناك تعاون بين ثابت بن قرة وبني موسى بن شاكر في مجال الهندسة وتحديداً في جزئية الحجوم المكعبة والأشكال المربعة ، وكان ثابت قد وضع عدة أبحاث في هذه الجزئيات منها : كتاب في قطع الاسطوانة ، كتاب في الشكل القطاع ، كتاب في المربع وقطره ، رسائل في المربعات السحرية ، بحوث في المعادلات التكعيبية ، وفي مساحة الأشكال المسطحة والمجسمة ، وتشير مصادر محايدة إلي أن ثابت بن قرة " قد بذل

جهداً أكثر مما بذله أرشميدس ، وكان له ميزة في وضع قوانين أعم للطريقة التي أتبعها " .

وقد جاء من علماء المسلمين من طوروا أعمال ثابت بن قرة في مجال الهندسة ، وأشهر هؤلاء : إبراهيم بن سنان المتوفى في عام ٣٣٥ هـ ، وهو إبراهيم بن سنان بن ثابت بن قرة عالم مسلم نبغ في علوم الفلسفة والطب والهندسة والطبيعيات والفلك عاش في القرن الرابع الهجري ، ألف العديد من الرسائل والكتب منها : كتاب في قطع المخروط المكافئ ، ورسالة في رسم القطوع الثلاثة ومقالة في طريق التحليل والتركيب ورسالة في الهندسة والنجوم ، ورسالة في الإسطرلاب ، وكتاب في حركات الشمس ، والكوهي المتوفى في عام ٣٧٨ هـ ، وهو ويجن بن رستم عالم بالهيئة والرياضيات وآلات الرصد ، من أقاليم طبرستان ، عاش في الدولة البويهية وما بعدها ، بنى مرصداً في بغداد ووضع عدة مؤلفات منها : البركار التام والعمل به ، تثليث الزاوية ، عمل المسبع المتساوي في الدائرة ، أحداث النقط على الخطوط ، كتاب مراكز الدوائر ، من طريق التحليل دون التركيب ، كتاب على المنطقتين في توالى الحركتين انتصاراً لثابت بن قرة .

كذلك ساهم الحسن بن الهيثم المتوفى في عام ٤٣٠ هـ في ميدان الهندسة المستوية ، واستوحى الآراء الواردة في الفرضيتين الثانية والتاسعة من كتاب الكرة والاسطوانة ووضع في ذلك رسالة بعنوان " قول في قسمة الخط الذي استعمله أرشميدس في كتاب الكرة والاسطوانة " ، كذلك كانت الفرضية الخامسة لأقليدس موضع اهتمام العلماء المسلمين أمثال بن الهيثم الذي وضع كتاباً حول هذا الموضوع بعنوان " كتاب حول شكوك إقليدس " والجواهري المتوفى بعد عام ٢١٤ هـ ، وثابت بن قرة الذي وضع هو الآخر كتاباً بهذا الشأن بعنوان " كتاب مقدمات إقليدس " ونصير الدين الطوسي الذي أشار إلي نقص فرضية إقليدس في المتوازيات وحاول البرهنة عليها في " كتاب تحرير أصول إقليدس "

وعمر الخيام وشمس الدين السمرقندي المتوفى بعد عام ٦٧٤ هـ ، كذلك ساهم في مجال الهندسة وتصحيح نظريات الإغريق أبو الوفاء البوزجاني وأبو الريحان البيروني ، ومن الأندلس أبو الحكم عمرو بن عبدالرحمن الكرماني المتوفى عام ٤٨٠ هـ .

وتجلت تطبيقات الهندسة الإسلامية في العمارة والزخرفة المعمارية ، والنظريات الخاصة بالري وتوزيع المياه وإقامة السدود والكباري وغير ذلك من الأعمال المدنية .

- علم المثلثات :

مثل علم الجبر يعتبر علم المثلثات علماً إسلامياً خالصاً ، عـرّفه العلماء المسلمون بعلم " الأنساب " نظراً لارتكازه على النسب بين أضلاع المثلث وهي قوام ذلك العلم ، وقد كان علماء المسلمين أول من استعمل الجيب بدلاً من وتر ضعف القوس ، وأول من أدخل الظل وتمام الظل في المثلثات ، كما ادخلوا المماس إلي حساب المثلثات ، وأوجدوا الجداول الرياضية للجيب والمماس والقاطع وتمامه .

ومن أبرز علماء المسلمين في علم المثلثات أبو عبدالله محمد بن جابر البتاني المتوفى في عام ٣١٧ هـ ، وقد جاءت إسهاماته في علم المثلثات في رسالته الشهيرة المعروفة بـ " رسالة في تحقيق أقدار الاتصالات " ، وأبو الوفاء البوزجاني ، وأبو محمود جابر بن الأفلح المتوفى بحدود منتصف القرن السادس الهجري ، ونصير الدين الطوسي الذي كان أول من فصل بين حساب المثلثات والفلك في كتابه " الشكل والقطاع " ، ومن المغرب أبو على حسن بن على المراكش أحد علماء المغرب في القرن السابع الهجري صاحب كتاب " جامع المبادئ والغايات في علم الميقات " .

❖ الكيمياء :

الحديث عن الكيمياء عند المسلمين في فترة النضج والازدهار والعطاء وهي فترة الخلافة العباسية لا يتم إلا من خلال متابعة لنشأة هذا الضرب من المعرفة الذي إختلطت فيه المعرفة أو العلم بالفن ثم بالسحر والشعوذة والغيبيات والأساطير إلي أن جاء من علماء المسلمين من بحث عن علم الكيمياء ونقاه من كل تلك الشوائب واستخلصه من وسطها كما يستخلص الذهب الإبريز من الخبث والمعادن الخسيسة ، وذلك من خلال الآتي :

– السحر والتنجيم والسيمياء :

بدأ علم الكيمياء متناثراً بين ثلاثة أفعال الأول والثاني منها حرّمه الإسلام وجعل من يُقدم عليه من المسلمين في عداد الكفار وهما السحر والتنجيم أما الثالث فكان مضيعة للوقت والجهد فيما لا طائل من ورائه وهو السيمياء التي تعنى البحث المتواصل عن المادة التي تحوّل المعادن الخسيسة إلي ذهب والإكسير الذي يُذهب الأمراض والشيخوخة ويُبقى الشباب ويُطيل العمر ! .

ولكن كيف التقت هذه الأفعال الثلاثة وكيف انتهت بعلم الكيمياء أو بالأحرى كيف استخلص علم الكيمياء من تركيبتها الجهنمية المريبة ؟ .

فالسحر هو كل ما يُخفى سببه ويُتخيل على غير حقيقته ، وهو قدرة خارقة على التأثير في الغير لحد إقناعه بمراد الساحر ورغباته وقد يتجاوز التأثير حد الإقناع إلي الإرهاب والتخويف فيصدق المتلقي قول الساحر وفعله تحت تأثير الإيحاء المزوج بالخوف والرهبة ، فلننظر إلي قول الله تعالى في السحر ﴿ قَالَ أَلْقُوا۟ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾[1] ، وقوله جل وعلا ﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ

[1]. سورة الأعراف : ١١٦ .

﴿إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ﴾[1] ، أما التنجيم فهو محاولة استشفاف ما سيكون من خلال مواقع النجوم ولونها ، وتحديد كواكب السعد أو النحس من خلال قوة لمعانها .

إن العلاقة التي تجمع بين السحر والتنجيم هي علاقة البحث عن العلة أو السبب ، إذ يرى العاملون بالسحر والتنجيم أن ثمة علاقات سحرية بين الكواكب والنجوم في السماء وبين الموجودات على الأرض وتنظم هذه العلاقات قوة خفية ومعرفتها تتيح للإنسان التحكم فيها حسب السحر ومعرفة المستقبل حسب التنجيم .

والسيمياء تعنى بتحويل القوة الكامنة إلي قوة فعلية ، فهناك لدى العاملين بالسيمياء اعتقاد بوجود قوة خفية كامنة من يملك تحريكها يمكنه التحكم في الإكسير الذي يطيل الحياة ويذهب الأمراض والشيخوخة ويشعر الإنسان بالسعادة الدائمة ، وفي المادة التي تحول كافة المعادن إلي ذهب ، وعليه فالأفعال الثلاثة بمثابة ممارسات غيبية تقوم على أساس أن جميع المخلوقات الطبيعية لها خواص معينة تربط بينها وبين العالم العلوي — أي السماء وما فيها من نجوم وكواكب وأجرام ومخلوقات علوية أخرى — وهذه الخواص هي التي تمكن تلك المخلوقات من القيام بنشاطاتها المعتادة ! ، إذن البحث عن العلاقات السببية المستترة والقوة الخفية الفعالة الخارقة هي هدف الأفعال الثلاثة والعلاقة التي تربط بينهم في نفس الوقت .

وبالرغم من رفض الإسلام المطلق لهذه الأفكار وتحريمها والنهى عن القول بها أو إتباعها إلا أنها قد شاعت بين علماء المسلمين في العصر الأموي ثم أصبحت أكثر شيوعاً في العصر العباسي ، ويكمن وراء ذلك عدة أسباب : لعل أولها يتمثل في اطلاع المسلمين على ثقافات الشعوب التي فتحوها مثل الفرس والهند وثقافات الأولين مثل اليونان والمعاصرين

---

[1]. سورة طه : ٦٦ .

مثل الرومان وكانت كل هذه الثقافات مليئة بالأفكار الخاصة بالسحر والتنجيم وبالذات الحضارة البابلية في بلاد ما بين النهرين ، وثاني تلك الأسباب يكمن في تأثر بعض علماء المسلمين بتلك الثقافات والسير في تياراتها تحت دعوى التعلم ونقل العلم ، ونجد من هؤلاء العلماء من حاول أن يضفي على هذه الأفكار مسحة علمية فلسفية بالرغم من أنها مجرد أوهام وتراهات ، ثالث تلك الأسباب أن هناك خلطاً حدث بين إنجازات بعض علماء المسلمين المتضلعين في الكيمياء ومسائل العلية المتمثلة في السحر والتنجيم والسيمياء ، ومن الصعب فك هذا الخلط وفهم مبرراته ، وعندئذ لا يكون أمام الباحث إلا أن يفسر ذلك على أنه انحراف عن النهج الإسلامي في العلم والتعلم ، رابع تلك الأسباب أنه ربما يكون ثمة بعض علماء المسلمين ممن ضعفوا أمام إغراء موضوعات السحر والتنجيم والسيمياء وخاضوا فيها تحت دعاوى كثيرة ولكن هؤلاء قد لاقوا تصدياً قوياً من علماء ثقاة اعترضوا على منهجهم وقوّموا اعواجاجهم ومن هؤلاء : أبو بكر محمد بن زكريا الرازي وأبو الريحان البيروني والخورازمي وبن سينا وابن الهيثم وغيرهم .

لقد سبق وأوضحنا أن المسلمين قد شرعوا في الاطلاع على حضارة وثقافة الشعوب والأمم الأخرى منذ بداية عصر الفتوحات الإسلامية في أيام الخلفاء الراشدين وازداد شغفهم بتلك الحضارات والثقافات وإصرارهم على التنقيب والبحث في مكنوناتها ودقائقها في العصر الأموي وكانت الحضارة والثقافة اليونانية هي أول الحضارات التي استرعت انتباه المسلمين وجذبت فضولهم نظراً لما اتسمت به تلك الحضارة من جاذبية وشمولية وتقدم لم يكن معروفاً في ذلك الوقت إلا لديها وانطلاقاً من تفوقها على ما عداها من حضارات أخرى عاصرتها أو لحقت بها ، كذلك كانت هناك الحضارات الهندية والصينية والبابلية. والمصرية وكلها حضارات برعت في نواح معينة من العلوم والمعارف والمهارات أما الحضارة

اليونانية فقد برعت في كافة ميادين العلوم والمعارف المتعارف عليها في ذلك الوقت وذلك منحها التفوق والريادة .

والثابت تاريخاً أن أول نقل واطلاع رسمي على التراث العلمي والفكري اليوناني قد حدث في أوائل العصر الأموي عن طريق خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان الذي عنى بنقل علوم الطب والسيمياء وكان شغوفاً بحل المعضلة الخرافية المتمثلة في الحصول على الذهب من المعادن الأخرى الخسيسة وقد دفعه ذلك التوق إلي تكليف اثنين من العارفين باليونانية والعربية بترجمة أمهات الكتب في مجالات الطب والنجوم والسيمياء ، وربما كان ذلك هو بداية سير علماء المسلمين في هذا الطريق المسدود .

وفي مجال السيمياء كان اسم الامام جعفر الصادق المتوفى في عام ١٤٨ هـ من الأسماء الشهيرة في هذا المجال وقد اشتغل في هذا الشأن ، ولكن يبدو أن إنجازات الامام قد انصبت جميعها على النواحي العملية ولم يترك إسهامات نظرية فكرية حيث لم يشر إلي شيء من هذا القبيل .

وعلى يدي الامام جعفر الصادق تتلمذ جابر بن حيان المتوفى في عام ٢٠٠ هـ وقد بدأت اهتمامات جابر بن حيان بالسحر والسيمياء ووضع في ذلك عدة مؤلفات منها : " كتاب البحث " و" كتاب إخراج ما في القوة إلي الفعل " وله رسائل في الطلاسم وعملها وفعلها ، وقد اهتم في هذه الأدبيات بالسحر ، وفي السيمياء ألف جابر بن حيان كتاباً أسماه كتاب " الموازين " وكتاباً آخر عن خصائص العناصر أسماه " كتاب الخواص الكبير " ، ولكن جابر بن حيان خُلص من هذا المسلك إلي ما يمكن أن يسمى بالسيمياء العلمية أو الكيمياء حيث تخلى عن المعضلة الأبدية الخاصة بتحويل المعادن إلي ذهب ، وبدأ يستكشف تركيب الكون ويفقه عناصره ومكوناته وهذا ما جعله يطور كتابه المسمى " الميزان " ليكون بمثابة نظام يحدد العلاقات العددية بين عناصر المواد ، وانتهى الأمر

بجابر بن حيان لأن يكون هو مؤسس علم الكيمياء بمعناه العلمي وأول من وضع الأسس الأولية للمنهج التجريبي .

إلا أنه لم يُقدّر لجابر بن حيان أن يضع نهاية حاسمة للسيمياء وينقلها إلي شكلها العلمي المعروف بالكيمياء واستمر التعاطي مع السيمياء دآب العديد من علماء المسلمين وشغلهم الشاغل لفترات طويلة ، وفي هذا السياق لمع نجم محمد بن أميل التميمي الذي توفى في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري ، وهو أحد المشتغلين في الصنعة وترك فيها عدة كتب ورسائل ، من هذه الكتب والرسائل : " الماء الفضي والأرض النجمية " ، و" شرح الصور والأشكال " ، و" مفتاح الكنوز وحل الأشكال والرموز " و" الحكمة في الصنعة " و" سبع رسائل في حجر الفلاسفة " و" الدرة النقية في تدبير الحجر " ، و" رسالة الكيمياء " و " رسالة الشمس إلي القمر " ، وكانت الصنعة تعنى عند التميمي إطالة الحياة وتحويل المعادن الخسيسة إلي معادن نفيسة ، وحاول الربط بين هذين الهدفين في محاولة اكتشاف الإكسير الذي ينشط الإنسان ويخلصه من المرض والشيخوخة ليطول عمره ويشعر بالسعادة .

وما يؤسف له أن مجهودات التميمي في كتابيه " رسالة الشمس إلي القمر الجديد " و" الماء الفضي والأرض النجمية " قد قادت جميعها إلي " ترسيخ الاتجاه إلي الإغراق في الأبحاث الوهمية الذي أصبح يميز السيميائيين اللاحقين " للتميمي ، " وهذا التطور هو الذي نقل السيمياء من طريق مسدود إلي آخر " وهو الذي " جعل العلماء اللاحقين من أمثال بن سينا يناصبون صنعة السيمياء العداء الشديد " كما سبق وأوضحنا .

إذا كان ما تقدم هو شأن السحر والسيمياء فإن التنجيم قد سلك نفس المسلك قبل أن يتحول إلي علم الفلك أو الهيئة ، وفي مراحله الأولى اختلط التنجيم بالسحر والسيمياء ، وظل على علاقة قوية بالسحر حتى وقتنا الراهن ، وعلى مر التاريخ الإسلامي وهذه

العلاقة قائمة ووجدت من العلماء والعارفين بهذه الفنون من تفوق فيها وقدم الكثير ، وكان هدف التنجيم دوماً هو محاولة استطلاع الغيب والتنبؤ بما سيحدث والتكهن بمصير الإنسان ومسلكه وأيام نحسه وسعده ، وقد كان المنجمون أقرب الناس إلي الحكام والأمراء وأكثرهم حظوة ولا يمكن التخلي عنهم وكان ذلك شائعاً في العصر العباسي بالرغم من بداية الاتجاهات التي فصلت التنجيم عن علم الفلك .

وفي هذا السياق ظهر منجمون مسلمون نالوا شهرة واسعة مثل أبو معشر ، جعفر بن محمد بن عمر البلخي المتوفى في عام ٢٧٢ هـ ، وأبو الحسن على بن أبي الرجال الشيباني القيرواني المتوفى في عام ٤٣٣ هـ ، وأبو إسحاق إبراهيم بن يحي النقاش الطليطلي القرطبي المشهور بالزرقالي أو الزرقلي المتوفى في عام ٤٧٧ هـ وغيرهم .

– الكيمياء :

بالرغم من الأوهام والتراهات الكثيرة التي غلّفت العلاقة بين الفنون المستورة الثلاثة وهم ، السحَر والتنجيم والسيمياء إلا أن مثابرة المشتغلين بهم وتصميمهم على الوصول إلي نتائج فيما يتعلق بالهدف الأساسي وهو اكتشاف إكسير الحياة وتحويل المعادن الرخيصة إلي ذهب وما تطلبه ذلك من إجراء المزيد من التجارب والأبحاث قاد كل ذلك إلي زيادة الرصيد المتراكم من المعارف والاكتشافات والابتكارات في مجال المواد والعناصر ومكوناتها ونواتج تحليلها أو إتحادها ، وهذه الحقائق الجديدة هي التي وضعت أسس ومبادئ علم الكيمياء ، وعليه فإن علم الكيمياء قد بدأ بمعارف وتراث يوناني استحضره المسلمون ونقبوا فيه وأضافوا إليه وتبحروا في مجاهل فنون ثلاثة هي السحر والتنجيم والسيمياء ثم استخلصوا منها علمي الكيمياء والفلك والأخير قد تناولناه بالتحليل في موضع خلا أما الكيمياء فهي محل تحليلنا .

فالكيمياء إذن هو علم إسلامي خلاصة جهود إسلامية أصيلة مشتق من لفظة عربية تعني كمي يكمي أي ستر يستر أو خفي يخفى ، والملاحظ أن اسم العلم العربي لازال متأثراً بطبيعته وميدان بحثه وأهدافه فهو يعنى عمليات خفية مستورة تهدف إلي التوصل إلي تحقيق مقاصد غير معروفة ، فالكتمان إذن كان هو المناخ الذي نشأ فيه علم الكيمياء ولا تزال التجارب الكيميائية تجرى في معامل مغلقة ومعزولة ولا يلجها إلا العاملون فيها فقط ، وبما تقدم قال الخوارزمي العالم الإسلامي الكبير في تعريف علم الكيمياء .

وفي نشوء علم الكيمياء كان لجابر بن حيان الذي تحدثنا عنه من قبل إسهامات عظيمة جعلته من رواد ذلك العلم ، ومن مآثر ذلك العالم أنه جعل من التجربة أساس علم الكيمياء ، وحلل المركبات ووصف عناصرها وحَضَّرها في المعمل ، ومن الأحماض التي حضَّرها وتعرف عليها حامض النيتريك الذي اسماه ماء الفضة ، وحامض الكبريتيك الذي اسماه زيت الزاج ، وماء الذهب والبوتاس وروح النوشادر ونترات الفضة ، وتوصل بن حيان إلي العديد من العمليات الكيميائية ووصفها ومن تلك العمليات : التقطير والترشيح والتصعيد والتبلور والتكلس والتذويب والتحويل ، وكان أول من فصل الذهب عن الفضة بواسطة الحامض ، واستخدم ثاني أكسيد المنجنيز في صنع الزجاج وحضّر مركبات الزئبق ، وكان لابن حيان بحوثه المهمة والمفيدة في مجال السموم ، ووضع فيها كتاباً بعنوان " السموم ورفع مضارها " وقسمها إلي حيوانية ونباتية وحجرية .

وبعد أن وضع الأسس الحقيقية لعلم الكيمياء جاء أبو بكر الرازي المتوفى في عام ٣١٣ هـ ليواصل ما بدأه جابر بن حيان ويضيف إضافات منهجية وعلمية عظمية لهذا العلم فيؤسس بذلك علم الكيمياء الحديثة وكان لكتابه الشهير " سر الأسرار " أهميته في هذا الخصوص ، وبعد الرازي جاء البيروني ليضيف إضافات مجدية للمنهج العلمي الذي وضعه الرازي لعلم الكيمياء وحيث اعتمد لهذا العلم منهجاً علمياً توافد العلماء المسلمون

ليضيفوا الجديد من الاكتشافات والحقائق التي أعطت هذا لعلم صبغته العالمية ومسحته الإنسانية ومن هؤلاء العلماء نذكر الكندي ، وأبا المنصور الموفق بن على الهروي ، وأحمد بن مسلمة المجريطي وغيرهم .

وكما برع علماء المسلمين في اكتشاف هذا العلم وأثروه بالتجارب والحقائق برعوا كذلك في الاستفادة منه في التطبيقات المختلفة في شتى مناحي الحياة ، كصناعة الأقمشة والجلود والصباغة ، وصنعوا المواد العازلة والمقاومة للحريق وغير ذلك كثير ، يضاف إلي ما تقدم أنهم اكتشفوا قوة البارود الدافعة واستثمروها في صناعة الأسلحة النارية وذلك بمزج البارود والفحم والكبريت بنسب معينة .

❖ علم الفيزياء [الطبيعة] :

على غرار غيره من العلوم كان علم الفيزياء أو الطبيعة التي أدلى فيه علماء المسلمين بدلوهم وتركوا عليه بصماتهم التي تدل على سعة الأفق والقدرة غير المحدودة على العطاء ، ويعتبر علم الطبيعة مثل علم الفلك وعلم الجغرافيا من العلوم التي تتعامل مباشرة مع عناصر الوجود وموجودات الكون ويعد ذلك من أهم مظاهر وأشكال الحضارة الإنسانية عموماً .

وعليه فعلم الفيزياء هو ذلك العلم الذي يعالج الظواهر الطبيعية المتعلقة بطبيعة المواد والظواهر الأخرى مثل الصوت والضوء والحركة والجاذبية والمغناطيسية وغيرها من الظواهر ، فعلم الفيزياء إذن هو علم تحليلي تفسيري ، يكتنه كافة الظواهر الكونية ويتولاها بالتفسير والتحليل .

لقد استفاد علماء المسلمين كثيراً من إسهامات اليونان وغيرهم في مجال علم الفيزياء فاطلعوا على تلك الإسهامات ودققوا ما جاء فيها ، وأعادوا إجراء التجارب للتثبت من النتائج

وصححوا الكثير منها وعدّلوا العديد من النظريات والقوانين التي توصل إليها علماء اليونان ، فقد تميز علماء المسلمين تجاه أفكار وثقافات الآخر بمنهج نقدي بناء يستهدف إثراء الفكر الإنساني وازدهار الحضارة العالمية .

وتجاوز العقل المسلم دور النقد والتقييم والتقويم إلي دور العطاء والابتكار والإبداع حيث أضافوا الكثير والمفيد لعلم الفيزياء ، وتمثل ذلك العطاء في وجهين الأول ، اكتشاف الحقائق والتوصل إلي القوانين وصياغة النظريات ، والثاني ، تطبيق ما توصلوا إليه من نظريات على الحياة العملية ، وهكذا دللوا على أن العلم هو أداة الإنسان للتعامل مع عناصر الوجود ومن ثم بناء الحضارة وتوطيد أركانها .

لقد خاض علماء المسلمين في مجالات عديدة من ميادين علم الفيزياء ، فلقد اثبتوا نظرية الأواني المستطرقة وطبقوها على أرض الواقع ، فاستفادوا منها في رفع المياه والسوائل إلي الأماكن المرتفعة مثل الحصون ومنارات المساجد ، وعلى أساس هذه النظرية فسروا ظاهرة اندفاع المياه من العيون الطبيعية ، كذلك تمكن علماء المسلمين من تقدير الأوزان النوعية للسوائل والمواد الصلبة والمعادن والأحجار الكريمة وصمموا أجهزة دقيقة لتقدير كثافة الأجسام تطبيقاً لقانون الطفو الذي صاغه أرشميدس .

وكان البيروني هو أول من وقف على فكرة وجود جاذبية للأرض وشرح تأثير هذه الجاذبية شرحاً علمياً دقيقاً ، كما كانت له أبحاث رائعة في ميكانيكا الموائع ، وأوضح طريقة عمل الأواني المستطرقة في كتابه الشهير " الآثار الباقية عن القرون الخالية " .

كذلك كان لعلماء المسلمين إسهامات عظيمة في الجاذبية والضغط الجوي ، وابتكروا موازين في منتهى التطور والدقة ، وأيضاً بحثوا في الروافع وأنواعها وآلاتها وطرق عملها ومنافعها

ومجالات استخدامها في رفع الأثقال الضخمة بجهود محدودة ، وأطلقوا على ذلك علم الحيل وسماه البعض الآلات وسماه البعض الآخر الميكانيكا .

وفي الصوت كانت جهود علماء المسلمين وإسهاماتهم وفيرة ومجدية ، فقد اثبتوا أن الصوت ينتقل على شكل موجات تتسع دائرتها وتضعف كلما بعدت عن مركز صدور الصوت ، واكتشفوا ظاهرة صدى الصوت وفسروها بأنها تحدث نتيجة انعكاس الموجات الصوتية عند اصطدامها بحاجز كجبل أو حائط ، واكتشفوا كذلك سرعة الضوء على الصوت ودللوا على ذلك برؤية البرق قبل سماع الرعد ، واستخدموا نتائج أبحاثهم في الصوت في صناعة الآلات الموسيقية .

ومن علماء المسلمين الذين قدموا إسهامات مهمة في الفيزياء ابن سينا الذي درس ظواهر طبيعية كثيرة منها السحب والظل والثلج والضباب والهالة القمرية والهالة الشمسية وقوس قزح والنيازك والبرق والرعد وهذه الظواهر تسمى علم " الميثورولوجيا " .

أما الحسن بن الهيثم فيعتبر أهم عالم فيزيائي في العصور الوسطى على الإطلاق في مجال الضوء والبصريات ، ولو أنه عاصر مجموعة من المجتهدين الثقاة وهم الخازن البصري وابن سينا والبيروني ، وقد وضع ابن الهيثم كتابه " العظيم " الذي " خلد ذكره " بعنوان " المناظر " وترجم إلي اللاتينية بعنوان " كنز البصريات " ونشر في عام ١٥٧٢ م في مدينة بازل بسويسرا وكان لما احتواه ذلك الكتاب من حقائق علمية مذهلة جعلته من اعظم علماء الطبيعة الذين وضعوا الأسس الحديثة لحقل البصريات أو علم المناظر ، وبالإضافة إلي ذلك الكتاب كان له كتب أخرى منها :" مقالة في الضوء " و " مقالة في المرايا المحرقة بالقطوع " و " مقالة في المرايا المحرقة بالدوائر " ، وتذكر روايات أن الحسن بن الهيثم صنف ما يقارب مائتي رسالة وكتاب في الرياضيات والفلك والعلوم الطبيعية والفلسفة والطب ومن ثم يمكن إلحاق ذلك العالم العظيم بالعلماء الموسوعين .

لقد تصدى بن الهيثم لموضوعات كثيرة في الفيزياء وخص منها حقل المناظر أو البصريات وقدم في هذا الحقل ما جعله " واحداً من أعظم علماء البصريات في كل العصور " ، وتمثلت أهم القضايا والمسائل التي تناولها بن الهيثم في البصريات في إنكسار الضوء وسرعته ، فذكر في كتاب المناظر " أن سرعة الضوء متناهية ولكنها كبيرة جداً لدرجة أنها تبدو في بعض الأحيان لا متناهية " ، وكان البيروني الذي عاصر بن الهيثم قد توصل إلي أن سرعة الضوء اكبر بكثير من سرعة الصوت ، كذلك قرر بن الهيثم أن " سرعة الضوء في الأوساط المختلفة تتناسب عكسياً مع الكثافة البصرية " ومن الموضوعات التي تناولها كذلك بن الهيثم في البصريات " العدسات ومميزاتها " وربطها بمسألة أخرى هي عملية الأبصار ، وتوصل إلي أن الصورة المرئية تتشكل على البلورية وليس على الشبكية كما كان معروفاً لدى العلماء السابقين ، وكان ذلك نتيجة للتجارب التي قام بها بالغرفة المظلمة وتمكن من تفسير انعكاس الصورة .

لقد اثبت بن الهيثم أن المُبصَر يجب أن يكون مضيئاً إما بذاته أو بانبعاث ضوء من غيره عليه ، وأن يكون بينه وبين العين مسافة ، وأن يكون بين كل نقطة من سطح المُبصَر وبين العين خط مستقيم غير متقطع بشيء كثيف .

أيضاً تناول بن الهيثم في القسم الثاني من كتابه " المناظر " مسألة انكسار الضوء واثبت أن العلاقة بين زاوية الإسقاط وزاوية الانكسار ليست ثابتة ، وأن خط الإسقاط وخط الانكسار والخط المتعامد على السطح المانع تكون على نفس المستوى .

كما فسر بن الهيثم الزيادة الظاهرية في قطر كل من الشمس والقمر قرب الأفق [شرقاً وغرباً] واكتشف الزيغ الكروي ، وبرهن على أن انكسار الضوء في الهواء يجعل الشمس تظل مرئية عندما تكون في الحقيقة وراء الأفق وتعرف هذه الظاهرة بالفجر والشفق ، ويرى بن الهيثم في هذه الظاهرة أنه إذا قاربت الشمس الطلوع بدا فيها عمود من نور من وراء

الأفق الشرقي يكون مخروطياً ، ويحاول الضوء أن ينفذ من هذا العمود المخروطي من خلال الهواء المعترض للمسافة بين الأفق وبين عين الناظر بعيداً عن الأفق ، وينعطف الضوء في الهواء (أي ينكسر) ويبدو ضعيفاً على الأرض وعلى الأشياء القائمة على الأرض ، ثم كلما ارتفعت الشمس وراء الأفق مال جسم العمود المخروطي إلي الغرب فكثر الضوء الواقع على الأرض وما عليها ، وزاد الضوء فيها إلي أن تشرق الشمس فيعم الضوء الأرض ويحدث النهار ، وبمثل ما تقدم يحدث الشفق عند مغيب الشمس ولكن بترتيب عكسي .

الفصل السادس

العلم والتعلم والتعليم والعلوم الطبيعية وتطبيقاتها في عصر التفكك والانهيار

لقد مر العصر العباسي بما قدمه المسلمون فيه من الإسهامات والاجتهادات والإبداعات العلمية كالبرق الخاطف الذي أخذ سناه الأبصار والعقول ، وتحول ذلك الإبهار إلي تراث وتاريخ تتناقله وتفخر به الأجيال في حين اغتنمه الآخرون واتخذوه أسساً وقواعد لحضارتهم وانطلاقتهم الكبرى ، لقد خفت سنا البرق وانطفأت أضواء الإبداعات والإسهامات وبدأ عصر الجدب والتدهور في كل شيء ، لقد ذبلت زهرة الحضارة الإسلامية ولكن أريجها ظل فواحاً يخترق الآفاق .

ويجرنا الحديث عن مسائل العلم والتعلم والتعليم والعلوم الطبيعية وتطبيقاتها في عصر التفكك والانهيار إلي إشكالية لعلها الأخطر والأكثر حساسية والأجدر بالاهتمام والبحث انطلاقاً من كونها السبب المباشر في نكبة العالم الإسلامي الحالية ألا وهي إشكالية التخلف ، وسيتضح لنا كم أن هذه الإشكالية متأصلة في المجتمعات الإسلامية منذ وقت مبكر قد يبدأ من انهيار الخلافة العباسية ، وسيتضح ذلك عندما نستعرض المسائل المذكورة في إطارها الاجتماعي داخل تلك المجتمعات ، وسنستخلص بسهولة أن التخلف اللازم للدول الإسلامية هو موروث تاريخي توزعت مقوماته على مدى الحقبتين التاريخيتين اللتين تبدآن من انهيار الخلافة العباسية وتنتهي عند يومنا هذا ، وإن عمدنا إلي التقسيم التاريخي لقلنا أن الحقبة الأولى تبدأ من انهيار الخلافة العباسية وتنتهي بنهاية القرن الثامن عشر الميلادي وبداية عصر السيطرة الأوربية على العالم الإسلامي وتعرف هذه المرحلة " بمرحلة التفكك والانهيار " ، وأن الحقبة الثانية تبدأ بالسيطرة الأوربية على العالم الإسلامي بنهاية القرن الثامن عشر الميلادي وتمتد حتى يومنا هذا ولا نزال نعيش تداعياتها وتعرف هذه المرحلة " بالتبعية وفقدان الذات " .

لقد بدأ التخلف في الحضارة والثقافة الإسلامية ومن ثم الدولة طيلة هاتين الحقبتين الطويلتين بالفكر والعلم بوصفهما أهم مقومات الحضارة والثقافة ومن الفكر والعلم تسرب

واستشرى التخلف إلي بقية المقومات ، لقد بدأ التخلف بالتخلي التدريجي الذي إنتهى بالافتقاد المطلق للنهج الخاص الذي يتضمن الإطار الفكري والنموذج العملي اللذين يتناولان الجانبين المادي والروحي في الإنسان فيرتقيان بهما نحو الكفاية والكمال وانتهى الأمر بانعدام الذات الحضارية وانتفاء المنطق الثقافي الخاص واستقرار حالة من التبعية الفكرية والسلوكية للآخر .

في هذا الفصل والذي يليه نروى قصة التخلف الذي عم المجتمعات الإسلامية من خلال استعراض فصل واحد من فصولها وهو التخلف العلمي ونرجئ تناول الفصول الأخرى إلي الجزء التالي من هذا المجلد ، هذا عن التخلف الحضاري ، أما التخلف الثقافي فسوف نتناوله في المجلد التالي .

والتخلف العلمي الذي ألّم بالحضارة الإسلامية منذ انهيار الخلافة العباسية نستوضحه من خلال خمسة مباحث هي مفردات هذا الفصل ونوردها على النحو التالي :

المبحث الأول : السمات الفكرية لمرحلة التفكك والانهيار .

المبحث الثاني : العلـــم .

المبحث الثالث : التعلم .

المبحث الرابع : التعليم .

المبحث الخامس : العلوم الطبيعية وتطبيقاتها .

المبحث الأول

السمات الفكرية لمرحلة التفكك والانهيار

إن شئنا الحقيقة لقلنا أن مرحلة التفكك والانهيار التي مرت بها الدولة الإسلامية وما اكتنفته من حضارة وثقافة قد بدأت منذ بداية العصر العباسي الثاني حيث بدأ مركز الدولة يفقد سيطرته على ملحقاته وتوابعه من الأمصار والأقاليم وشرعت الأخيرة تصبو بشغف وتنمر نحو الاستقلال عن المركز وأخذت الإقليمية تكشر عن أنيابها وصاحب ذلك التفكك السياسي والإداري اهتراء في النظام الاجتماعي وتردى في النظام الاقتصادي وانعكس ذلك وذاك على الأوضاع الفكرية والعلمية في الدولة الإسلامية وما يتبعها شكلا من مناطق وأمصار .

ثم انتهى الأمر بالتفكك ليتحول إلي إنهيار كامل للدولة الإسلامية وذلك بانكسار مركزها وتبدده أمام جحافل المغول الهمجية التي طوحت برموز الحضارة ونماذجها في قسوة وعتو ودمرت إفرازات الثقافة وإسهامات العلم في جهل وحقد وغشم ، انهارت الدولة وانهار معها ما شيد المسلمون من حضارة وما أفرزوا من علم وثقافة وبدأت مرحلة جديدة عز فيها العطاء وندر الإبداع تلك كانت مرحلة التفكك والانهيار التي دامت حتى سيطرة أوروبا على دول العالم الإسلامي .

والآن نحاول أن نجول في جنبات العالم الإسلامي خلال هذه المرحلة لنقف على أهم السمات الفكرية لهذه المرحلة الطويلة من تاريخ ذلك العالم ، ويمكننا تناول أهم تلك السمات في الآتي :

أولاً : إغلاق باب الاجتهاد والإبداع والاعتماد على ترديد ما سبق :

أثرت المستجدات التي طرأت على الدولة الإسلامية وأدت إلي تفككها وانهيارها على الحياة الفكرية والعلمية داخل المجتمعات الإسلامية وتحول الحماس للعلم والتعلم والتعبير عن الأفكار المبدعة إلي إنغماس في مجادلات لا طائل من ورائها ، وأتسمت الأفكار بالضحالة والسطحية وفترت همة العلماء وأنعدمت مثابرتهم وإصرارهم على طلب العلم ، ونتج عن ذلك افتقاد الجرأة للإقدام على الاجتهاد وتقديم الجديد وخشى الجميع الخوض في المجهول ومواصلة الاكتشافات والابتكارات واكتفوا بترديد ما قال به الأوائل وما توصل إليه السابقون وأقعد العجز علماء المسلمين عن مجاراة الزمن وملاحقة التغييرات والتطورات التي تطرأ على الإنسان وعلى المجتمع والحياة الاجتماعية ، وكان ذلك بمثابة إعلان عن بداية توقف الحضارة الإسلامية عن مواصلة العطاء .

لقد مثلت هذه السمة الخاصة بإغلاق باب الاجتهاد والإبداع والاعتماد على ترديد ما سبق أول مقومات التخلف في العالم الإسلامي وهذا المقوم يتجسد في فقدان الثقة في الذات وهو مقدمة لافتقاد الذات الحضارية المعبرة عن الإسلام والتي تحمل خصوصيته وتحول الحضارة الإسلامية إلي تاريخ وتراث .

ولكن ما هي الأسباب المباشرة وراء هذه السمة ، هل نضب معين العطاء لدى العقل المسلم أم توقفت القرائح عن الإفراز والإخراج ، هل هي أسباب شخصية تتعلق بذوات وصفات من وهبوا حياتهم للعلم والبحث والتأمل ، إن هذه الحقبة الطويلة المجدبة من تاريخ الأمة الإسلامية لم تكن تخلو بين الحين والآخر من عالم فذ ينشر علمه في الآفاق ويذكّرها بماضيها الزاخر بالعطاء والإسهام ، ولكن هل يشفع ذلك لأبناء الأمة ويجعلنا نغض الطرف عما أصابها من هزال فكري وإعتلال عقلي جعلها تقنع بالغث وترضى بالقليل

وتقبل بأن تكون عالة على الآخر تعيش على إفرازاته وتقتات من مخرجاته وتورثنا حالة من العجز ستظل تلازمنا وسوف تنتقل إلي الأجيال القادمة لتشكل تركة مثقلة بالديون والأعباء لا يعلم مداها إلا الله ، مما لا شك فيه أن نفسية المسلم قد أصيبت بإحباط وانكسار شديدين فور الاجتياح المغولي لكل شيء بدءً من الدولة برموزها وبُناها وتنظيماتها وانتهاءً بحضارتها وثقافتها ومروراً بجيوشها وقواتها ، إن فجائية الحدث وعظم الخطب وعدم توقعه على الإطلاق هزت بعنف تلك النفسية إلي درجة الزلزلة التي أذهلت الجميع وأفقدتهم الوعي ، وعندما أفاقوا لم يروا إلا حطاماً ، في وسط هذا الجو اليائس نشأت عقلية إسلامية فقدت الثقة في الذات وفي القدرة على العطاء وعندما أصبح العطاء عسيراً والإبداع مستحيلاً لم يكن من بدٍ إلا التمسك بالقديم والحفاظ عليه وتمجيده تحت دعوى أنه ليس في الإمكان أحسن مما كان ، إن انعدام الثقة في الذات وفقدان القدرة على العطاء أبرزت قيمة ما أنجزه المسلمون في كافة المجالات الحضارية والثقافية خلال عصور الازدهار والنضج ، ولو واصل المسلمون العطاء ولم يحدث ذلك التوقف المفاجئ والمدمر لأصبح ما قُدم في تلك العصور أمراً عادياً ودأباً مألوفاً ووتيرة معهودة ، ولا ينبغي أن يُفهم من التحليل أننا نحط من قدر ما فات ولكننا نبحث عن ديمومة العطاء واستمرارية الإبداع وتواصل التفوق والرقي ، فلكل عصر ما يلائمه ولكل زمن ما يكافئه ، فطبيعة المجتمع البشري الترقي وناموس الكون هو المضي قدماً إلي الأحسن والأمثل ، والتوقف أو النكوص شذوذ وخروج على المألوف .

لقد ساد في عصر التفكك والانهيار ثلاثة خصال نفسية كان لها دورها الفعال في إغلاق باب الاجتهاد أمام أبناء الأمة أول تلك الخصال الادعاء بأن ما قدمه المسلمون في عصر الازدهار والنضج لن يتكرر مرة أخرى ولن يقدر لأي مسلم أن يستطيع مجاراة الأوائل وترسم خطاهم في العطاء والإبداع الفكري والعلمي ، وثاني تلك الخصال الاعتقاد بأن ما

قدمه الأوائل يصلح للأزمنة التالية فهو آخر ما يمكن أن يقدم ، وثالث تلك الخصال الانصراف النفسي إلي شئون أخرى والتقليل من شأن العلم والفكر ، إزاء هذه المؤثرات النفسية إنتاب المسلمين خوف وهلع شديدان من أي تجديد أو اجتهاد أو إضافة واعتبروا ذلك خروجاً وحطاً من قدر الأوائل وإعترافاً بأن ما قدموه ناقصاً وبالفعل خشيت العقول التجديد وأحجمت عن الإبداع وعزفت عن الإضافة وهابت مناقشة ما قُدّم أو حتى التفكير فيه وتدبره بل باتت مجبرة على قبوله على ما هو عليه دون تفكير أو تمحيص وهكذا اغلق باب الاجتهاد والعطاء والإبداع ولم يملك الجميع إلا تكرار ما سبق وتطويعه مع المتغيرات والمستجدات حتى ولو تأبى لاختلاف العصور والأزمان ، وهنا حدثت المفارقات وبدأت إشكاليات عدم التوافق بين المجتمعات الإسلامية المتجددة بمتغيراتها ومستجداتها وبين الطروحات الإسلامية التي تضبط تلك المجتمعات وتسير شئونها في الظهور والاستحكام .

إن إشكالية التواؤم بين ما قدمه المسلمون في عصور النضج والازدهار وبين المجتمعات المتجددة بمتغيراتها ومستجداتها لهي إحدى إشكاليات المجتمع البشري والتي تمثل خصيصة من خصائصه فالمجتمع الإنساني كما خلقه الله وأراد له دائم التطور مستمر الرقي ، وعلى الإفراز الآدمي من ثقافة وحضارة وعلم أن يواكب ذلك السياق ويوائم تلك الخصيصة ، إن تطور الحضارات الإنسانية هو الوجه الآخر لتطور المجتمع الإنساني ، والحضارة الإسلامية بدورها كان ينبغي لها أن تتطور وترتقي وتصحب معها المجتمع الإسلامي ، والحضارة الإسلامية تختلف عن أية حضارة أخرى في كونها ترتكز على مرتكزين أساسيين : الأول ثابت لا يتغير ولا يتبدل وهو الشرع الإسلامي والثاني يتغير ويتبدل وفق كل مجتمع وحسب كل زمان وهو أداة تعامل الشرع مع الواقع وهذه الأداة هي مقومات الحضارة الإسلامية من دعوة إسلامية وتنظيم ومدنية وعمران وعلوم .. الخ ،

والعلاقة الدقيقة بين هذين المرتكزين هي سر استمرارية الحضارة الإسلامية وتواصلها وعندما اختلت تلك العلاقة أصيبت الحضارة بالشلل وتوقفت عن الحركة وكان هذا حالها .

إن التوقف بالفكر والثقافة والعلوم الإسلامية عند مرحلة تاريخية معينة كان بمثابة الضربة التي أصابت الحضارة الإسلامية في مقتل ، لقد أثبت ذلك التوقف عجز تلك الحضارة عن ملاحقة المتغيرات والمستجدات التي يزخر بها دوماً المجتمع الإنساني ، إن العلوم والأفكار التي افرزها العقل الإسلامي تواءمت مع زمانها التي خرجت فيه إلي حيز الوجود ولم تعد تلك العلوم والأفكار تصلح بحذافيرها للأزمان والعصور التالية فهي تحتاج إلي تطوير وتجديد وإضافة وابتكار وهذا ما لم يحدث في الحضارة الإسلامية ، لقد عكف الناس على ما سبق ورأوا فيه ضالتهم المنشودة لعدم وجود الجديد الجاد وانعدام الثقة في ذلك الجديد حتى ولو وُجد وعاش الناس في عصورهم بمجريات حياتهم وتفاعلاتهم ولكن بعقول وأفكار من سبقوهم وكانت تلك المعضلة هي أهم مقومات التخلف وبداية عصور الجهل والتقاعس عن السير في ركب الإنسانية الميمم دوماً شطر الرقي والتقدم ، إن تلك المعضلة هي أول بوادر فقدان الذات والانفصال بين الأمة وذاتها الحضارية وانعدام التوازن بين المجتمع والحياة وبين الحضارة ، فالأخيرة توقفت عند مرحلة تاريخية معينة في حين استمرت المجتمعات الإسلامية ماضية في طريقها ولكن دون حضارة ردحاً طويلاً من الزمن فقد فقدت ذاتها الحضارية وتركتها عند تلك المرحلة التاريخية وعندما أرادت أن تعيش كما يعيش الآخرون لم تجد أمامها إلا حضارة الآخر ، وكان ذلك ثاني مقومات التخلف حيث الاتجاه إلي استعارة نهج الآخر والتبعية له بشكل مطلق والانفصال عن الذات وفقدان الهوية تدريجياً .

ثانياً : طغيان الإقليمية على الاجتهاد المتوجس والإبداع النادر :

خصيصة أخرى تضاف إلي ما تقدم فتساهم في رسم ملامح الحياة الفكرية في عصر التفكك والانهيار وهذه الخصيصة ذاتها تعد سبباً ونتيجة لذلك العصر المقفر وتتمثل في انتقال الإقليمية الضيقة والمحلية المحدودة من الشئون السياسية والإدارية إلي الشئون الفكرية والثقافية والعلمية ، فعندما تناثرت الدولة إلي ولايات وأمصار وأقاليم لا يجمعها إلي بعضها إلا اشتراكها في الدين استشرى في ذات الوقت انتساب الفكر والثقافة والعلم إلي تلك الولايات والأمصار والأقاليم وأصبح يمثلها ويعكس خصائصها المحلية وموروثاتها الحضارية والثقافية ويخفى إلي حد بعيد الهوية الإسلامية فيطمرها ويعتم عليها .

وإقليمية العلم هي حصر لنطاقه وتضيق لأفقه وتحديد لأهدافه ، فبعد أن كانت جهود أبناء الأمة تصب جميعها في بوتقة الفكرة الإسلامية وتستهدف رفع شأن الأمة وزيادة رصيدها وإسهامها في الحضارة الإنسانية أصبحت الجهود الفردية النادرة التي يبذلها المسلمون في أقاليم الإسلام وأمصاره تُنسب إلي أصولهم وأعراقهم ومناطقهم الجغرافية .

ولكن ما لا ينكر أن عدم وجود مركز أو بؤرة تتجمع حولها الإسهامات والعطاءات الفكرية والعلمية في فترة التفكك والانهيار أدى بدوره إلي تعدد بؤر ومراكز الإشعاع على امتداد العالم الإسلامي فبرزت مراكز مثل القاهرة واستانبول واستعادت دمشق وبغداد بعض نشاطهما ، ولم يكن ذلك إلا فيما يتعلق بترديد ما سبق والدوران في فلكه وظل الإبداع والابتكار في أضيق الحدود .

لقد أثرت الإقليمية كذلك على عملية التواصل بين أبناء الأمة من النواحي الفكرية والعقلية ، وكان من شأن ذلك التواصل أن يثري الحركة العلمية عموماً ويوحد مسارها في اتجاه تضخيم رصيد الأمة من التقدم والرقى ، أما عن الوضعية تحت وطأة الإقليمية والتشتت

فقد حولت المجهودات العلمية والفكرية إلي حالات متناثرة لا تقوى على الظهور في تكتل يمثل الأمة ويعكس رصيدها الحضاري وتصميمها على المضي في طريق العطاء والإبداع .

إن الإسلام لم يقف موقفاً جامداً أو معارضاً من الخصوصيات الثقافية والفكرية والعلمية للمناطق الجغرافية والأعراق والعناصر البشرية التي اكتنفها بل احترمها وحاول تطويعها في ثناياه ولكن بما لا يتعارض مع قيمه وطروحاته ، ومن ثم تبلور موقف الإسلام من الإقليمية كفكر وثقافة ذات خصوصية في إجرائين تمثل الأول في احترام تلك القيم والطروحات الفكرية والثقافية إذا كانت ذات صبغة إنسانية لا تتعارض مع قيم الإسلام وطروحاته في حين تمثل الأجراء الثاني في تطويع واحتواء تلك القيم والطروحات في بوتقة الإسلام وإضفاء الهوية الإسلامية عليها ، إلا إن ما حدث خلال مرحلة التفكك والانهيار كان خروجاً على النهج الذي اعتمده الإسلام للتعامل مع الخصوصيات الثقافية والحضارية ومن ثم الفكرية والعلمية للمناطق الجغرافية والمجموعات البشرية التي انضوت تحت لواء الدولة الإسلامية ، فقد تفشت النزعات الإقليمية الضيقة واستشرت إلي حد الرغبة في العزلة والانسلاخ عن جسد تلك الدولة ومن ثم عن الحضارة الإسلامية .

لقد كان نتاج الإقليمية والتشرذم مؤسفاً ، فقد أعاد لدى أبناء المناطق الجغرافية والأصول والأعراق المختلفة ذكريات الماضي وجذبهم بعنف إلي الرغبة في استرجاع ذلك الماضي المتمثل في الموروثات الحضارية والثقافية التي كان الإسلام قد غير كثيراً من ملامحها وكاد أن يذيبها نهائياً في بوتقته ويصهرها في مركّبه المتجانس والمتفرد ، كما حفزهم على الإسهام العلمي والفكري ليس للإسلام الذي ضعفت علاقتهم به وانتسابهم إليه ولكن لما حل محله من انتماء إقليمي وولاء عرقي عنصري ، وهنا تفرض المقارنة نفسها بين طبيعة الانتماء والعطاء في العصور الإسلامية السابقة وعصر التفكك والانهيار .

لقد جاءت الإسهامات الإسلامية في العلوم وتطبيقاتها لقاء ما تقدم نادرة ومحدودة واتسمت بضيق الأفق والانحصار في مسائل وقضايا علمية بسيطة ، كما اتسمت النتائج بالضحالة والدوران في فلك ما سبق والعجز عن إضافة الجديد .

ثالثاً : الخلافات والاختلافات المذهبية وطغيانها على الإبداع والعطاء :

ارتبطت الإقليمية بالخلافات والاختلافات المذهبية بين أبناء الأمة الإسلامية من خلال علاقة جدلية جعلت من كل مهما سبباً ونتيجة للآخر ، والخلافات والاختلافات المذهبية تنقسم إلي قسمين :

* القسم الأول : الاختلافات والخلافات بين المذاهب واشهرها الخلافات بين المذهب السني والمذهب الشيعي ومذهب الخوارج ، وبالرغم من أن الخلافات والاختلافات بين تلك المذاهب كانت ذات طبيعة أصولية شعائرية ، إلا أنها انعكست على مناحي وشئون عديدة في الحياة الاجتماعية والفكرية والأدبية والعلمية .

* القسم الثاني : الخلافات والاختلافات داخل المذهب الواحد ، حيث ظهرت داخل كل مذهب مذاهب فرعية وفرق متنافرة بشكل انعكس كذلك على مجريات وتفاعلات الحياة الاجتماعية مثل الاختلافات بين المذاهب الأربعة داخل المذهب السني ، والاختلافات بين الفرق المختلفة داخل المذهب الشيعي وهكذا .

وقد التقت المذهبية مع الإقليمية عندما استقل كل مذهب أو فرقة بحيز من الأرض وأقام فيه دويلة خاصة به ، فأقام المذهب الشيعي دولة له في المغرب ثم انتقلت إلي مصر ثم ظهرت مرة أخرى بشكل أكثر استقراراً ودواماً في فارس وجزء من بلاد الرافدين ، أما المذهب السني فقد شغل باقي أجزاء العالم الإسلامي ، في حين ظهرت دويلات صغيرة في مناطق جغرافية محدودة تبنت مذهب الخوارج ، وهكذا تم انقسام العالم الإسلامي إلي

دويلات على أسس عديدة منها العرقي العنصري ومنها الجغرافي ومنها الحضاري التاريخي ومنها المذهبي .

وكان التقاء المذهبية مع الإقليمية بمثابة إزكاء لتيار التقوقع الفكري والانطواء الثقافي والانكفاء العلمي والعقلي ولم يجد الجميع في هذا الجو إلا الرجوع إلي ما سبق وترديد ما كان والعزوف عن إضافة الجديد والإحجام عن الإبداع ناهيك عن المعارك الفكرية بين المذاهب والفرق التي استنفذت الجهود وأهدرت الطاقات والمقدرات فيما لا طائل من ورائه ولا جدوى .

رابعاً : التقاعس عن استكمال مسيرة العطاء الفكري والعلمي للأوائل :

نتحول إلي خصيصة أخرى من الخصائص الفكرية لحقبة التفكك والانهيار الطويلة الجدباء وتتعلق هذه الخصيصة بطبيعة العقلية الإسلامية خلال هذه الحقبة ، وترتبط العقلية بلا شك بنفسية الذات المسلمة وتكوينها وتفاعلاتها ، وإذا كنا قد سبق لنا تناول واقع النفسية المسلمة خلال حقبة التفكك والانهيار واستخلصنا أن نتيجة ذلك الواقع كانت إغلاق باب الاجتهاد وترديد ما سبق ، فأننا سنحاول من خلال هذه الخصيصة الوقوف على طبيعة العقلية المسلمة وسماتها وتوجهاتها الأساسية واهتماماتها الرئيسية وكيف تقاعست تلك العقلية عن استكمال مسيرة العطاء الفكري والعلمي التي بدأها الأوائل .

لقد انخرطت العقلية المسلمة في فترة التفكك والانهيار في عملية معقدة ومتداخلة هي عملية البحث عن الذات الحضارية والثقافية التي كانت قد تفككت وانهارت مع الاجتياح المغولي لعاصمة الخلافة العباسية وغيرها من الحواضر الإسلامية وبات الشغل الشاغل للمسلمين هو ذلك البحث الذي استنفذ منهم جهداً كبيراً توقف معه أي تفكير آخر في

العطاء والإبداع ، وقوام عملية البحث عن الذات تراوحت بين إكبار وتعظيم التراث والرغبة في مواصلة العطاء والبناء ، فإكبار وتعظيم التراث قد استوفى حقه وزيادة أما الرغبة في مواصلة العطاء والإبداع فهي التي لم تستحوذ على اهتمام يضارع قيمتها وثقلها ، فلم يعرف المسلمون من أين يبدأوا وكيف السبيل إلي ترسم خطى السابقين وكيف يتملكون الجرأة ويسمون أفكارهم بالاستقلالية ويتبنون المنهج النقدي ، فالأوائل قد استخدموا منهجاً فريداً أوصلهم لما وصلوا إليه من إبداع وإسهام هو منهج النقد والبناء ، حيث اطلعوا على ما سبقهم من أفكار وآراء وفنّدوها ثم بنوا طروحاتهم على بصيرة وثقة جامعة بين التجربة والموضوعية والتجرد فكان عطاؤهم ميراثاً للإنسانية وانطلقت منه وبه حضارة الآخر ، أما المسلمون في عصر التفكك والانهيار فلم يقدر لهم أن يمتلكوا تلك الأدوات بل لجّوا في صراعات ومنافسات مذهبية استنفذت طاقاتهم وأقعدتهم عن استكمال مسيرة العطاء الفكري والعلمي للأوائل ولكن هل يعنى ذلك أن عقلية المسلمين في عصر الازدهار والإيناع العلمي والفكري اختلفت عن عقليتهم في عصر التفكك والانهيار ! واقع الحال أن العقلية المسلمة لم تختلف من حيث تشكليها وهيكلها ولكن ما اختلف هو مكوناتها وتفاعلاتها وطريقة تفكيرها ، فلقد حل التفكير التقليدي الجامد محل التفكير العميق الموضوعي الهادف إلي فقه الظواهر وفهم مفرداتها كما استبدل المنهج القائم على ترديد ما سبق واعتباره نهاية المطاف بالمنهج النقدي الموضوعي القائم على فهم الواقع وتفنيده وتقديم الجديد والرغبة في الابتكار .

خامساً : انصراف المجتمع أفراداً وحكاماً عن تشجيع العلم والعلماء إلي الصراعات السياسية والاجتماعية من أجل الحكم والنفوذ :

بالفعل اختلفت نظرة المجتمع إلي العلم والعلماء ، وهذه النظرة كانت نتاجاً لتفاعلات كثيرة وإرهاصات ظهرت في مرحلة التفكك والانهيار ، وقد كان لتفكك الدولة الإسلامية

وانهيارها سياسياً وإدارياً دوره المؤثر الذي انعكس على كافة شئون الحياة بما في ذلك الشأن الفكري والعلمي ، لقد تعددت الكيانات السياسية والإدارية داخل نطاق الدولة الإسلامية ، واتخذ كل كيان سياسي لنفسه خصائص حاول أن يغلّب عليها طابعي الخصوصية والتفرد ولكنه لم يجرؤ على أن يخلع عنها عباءة الإسلام وكانت القضايا الفكرية والعلمية من المسائل التي إمتدت إليها تأثيرات التشرذم والتقوقع وقد سبق لنا الإشارة إلي ذلك .

وفي إطار تداعيات مرحلة التفكك والانهيار تعرضت أجزاء الدولة الإسلامية التي تناثرت في شكل ولايات ودويلات إلي موجات متتابعة من الإندفاعات الغزوية الطموحة للعديد من القوميات التي كانت في جوهرها عنصرية وفي مظهرها غُلّفت بغلاف الإسلام وإتخذت من لَم الشمل وإعادة الخلافة مقصدها ومبرراً لتجاوزاتها التي حدثت خلال تلك الإندفاعات ، ولعل أشهر تلك القوميات التي اجتاحت معظم العالم الإسلامي وسيطرت عليه فترة طويلة من الزمن جاءت في ثنايا مرحلة التفكك والانهيار هي القومية التركية التي أقامت الخلافة العثمانية .

لقد كان تأثير تلك الإندفاعات القومية وما حملته في ركابها وما ترتب عليها من تداعيات على كافة المستويات والمجالات السياسية والإدارية والاقتصادية والاجتماعية تأثيراً خطيراً على الحياة الفكرية والعلمية في شتى أنحاء العالم الإسلامي الذي وقع تحت طائلة تلك الإندفاعات .

ثم إن تلك الإندفاعات بدأت تخمد وتفتر قوتها وتتكسر حدتها وتعاني القوميات المسيطرة من شيخوخة أصابت الحياة على أثر ذلك بالتردي والانحطاط مما زاد الطين بلة وانحدرت الأحوال من سيئ إلي أسوأ ولم تفلت الحياة الفكرية والعلمية من ذلك التدهور ، فبدت هزيلة باهتة تعكس واقع الحياة الذي كان مزرياً ويدعو إلي الإحباط .

في هذا الجو العام انصرف أفراد المجتمع عن العلم نظراً لكونه لم يعد مغرياً أو مثيراً وجذاباً فهو ترديد لما سبق وتحصيل لما هو حاصل ، وأدى ذلك التحول في عقول الناس ونفسياتهم إلي أن يظل العلم على حالته دون تغيير ، إن حصيلة ما تقدم أن إقبال الناس على التعلم لم يعد كما كان في السابق وازع كامن في عقول الأعم الأغلب من المسلمين يدفعهم حثيثاً في اتجاه طلب العلم والبروع فيه ، بل بات عملاً شاقاً يحتاج إلي عزم ومضاء ولا يملك الإقدام عليه إلا قلة ممن لديهم المقدرة على تجشم الصعاب والمشاق .

لقد انشغل أفراد المجتمع الإسلامي في فترة التفكك والانهيار بأمور الحياة وشئون الدنيا بمتاعها ومباهجها ولم يلتفتوا إلي العلم وطلبه وتجشم المشاق من أجل تحصيله ثم بثه بين الناس ، لقد حلت مسائل أخرى محل العلم والاهتمام به مثل الصراعات السياسية والاجتماعية والمذهبية ، وكان هدفها جميعاً الاستحواذ على أكبر قدر ممكن من السلطة والنفوذ في مجتمع بدأ يعلى من شأن هذين الفاعلين الاجتماعيين حتى أوصلهما إلي مصاف مؤهلات الساسة والحكام .

إن ما تقدم يعنى أن ثمة تبدلاً قوياً وعميقاً في أهم الأنساق القيمية التي تحكم المجتمع الإسلامي وهو نسق القيم والفضائل ، فبعد أن كان نسق القيم والفضائل الخاصة بالعلم والأخلاق هو النسق الأعلى الذي يتربع دون منازع على قمة تدرجية تلك الأنساق القيمية في المجتمع الإسلامي الأول ، أصبح نسق القيم الخاص بحجم السلطة ومقدار النفوذ هو الأهم والأقوى والأجدى ، ومن ثم انتزع مكان الصدارة واحتل القمة منفرداً في المجتمع الإسلامي في فترة التفكك والانهيار .

لقد بات الشغل الشاغل لأفراد المجتمع الإسلامي هو البحث عن مرتكزات السلطة ومجلبات النفوذ ، وهذا شأن الطبقة الأعلى مركزاً والأوفر حظاً في الرزق ، أما الطبقة الوسطى فقد انشغلت هي الأخرى بالبحث في إمكانيات الحراك الاجتماعي والارتقاء إلي

الطبقة الأعلى وإن كان ذلك لا يمنع من أن الذين برزوا في بعض العلوم وأحرزوا فيها قصب السبق في هذه الفترة المجدبة من التاريخ الإسلامي كانوا من بين أبناء هذه الطبقة ، في حين انخرطت الطبقة الثالثة وهي طبقة الفقراء في التكالب من أجل الحصول على لقمة العيش والبقاء على قيد الحياة ، ومن ثم لم يكن العلم بمعناه الواسع والمعمق يمثل طموحاً لأبناء هذه الطبقة ، ولكنها اكتفت في بعض الأحوال بالحصول على مبادئه والاكتفاء بأقله عن طريق الكتّاب ، ولكن شهدت بعض الفترات اللاحقة من التاريخ الإسلامي في تلك الحقبة وفي بعض المجتمعات الإسلامية إقبالاً لا بأس به من أبناء هذه الطبقة الفقيرة على تحصيل العلم والنضال المرير من أجل الوصول إلي أرقى مستوياته والبروع فيه ، والأمثلة على ذلك كثيرة في مصر والشام والعراق والمغرب العربي وغيرها من الولايات الإسلامية ، ولكن الملاحظة الجديرة بالتسجيل في هذا الصدد أن ذلك قد تم في مجال علوم الدين على وجه الخصوص ولم تسجل في مجال العلوم الطبيعية إلا نادراً .

وإذا انتقلنا إلي الحديث عن موقف المتنفذين الرسميين وغير الرسميين من العلم وطالبيه ، وعملية التعليم برمتها خلال فترة التفكك والانهيار ، فسنجد أن الموقف قد تبدل بشكل عميق ، فلم يعد الحكام وأولو الأمر تواقين إلي العلم وشغوفين بتشجيع طالبيه ، وباذلين جهودهم وأموالهم من أجل التعليم ومتطلباته , ولم يعد المياسير وكبار القوم من محبي العلم والداعين إليه، لقد انشغل الجميع بأمور أخرى لعل أهمها الصراع من أجل الاستحواذ على السلطة والنفوذ أطول وقت ممكن ، ولقد تعددت الصراعات شكلا وموضوعا، فإلى جانب الصراعات الاجتماعية كان ثمة الصراعات السياسية ناهيك عن الصراعات بين الولايات الإسلامية التي غذتها النعرات العنصرية والإقليمية ، والتحليل المتقدم لم يمنع من وجود حالات شذت عن هذا الاتجاه العام وأولى فيها الحكام وأولو الأمر وكبار القوم العلم والتعلم والتعليم أهمية عظيمة وسعى الجميع من اجل ازدهار العلم ومحاولة إعادة

أمجاد المسلمين التي ولت ، حدث ذلك في مصر وحدث ذلك في استنبول عاصمة الدولة العثمانية ، وربما كان ذلك سببا قويا من أسباب ظهور بعض الأفذاذ الذين برعوا في بعض العلوم علي مدى فترات هذه الحقبة الجدباء ، تلك الفترات التي كانت ومضات سنا برق خاطف في ليل داج .

إن خصائص الحياة الفكرية في فترة التفكك والانهيار بالوصف الذي قدمنا ، رسمت أول معالم ووضعت أول مقومات التخلف في العالم الإسلامي ، وهي التخلي عن النهج الخاص الذي يتضمن الإطار الفكري والنموذج العملي اللذين يتناولان الجانبين المادي والروحي في الإنسان فيرتقيان بهما نحو الكفاية والكمال ، وكان ذلك أول خطوات السير في طريق التبعية ، واستعارة نهج الغير ومنهج الآخر في الحياة .

سادساً : فترة التفكك والانهيار هي فترة العطاء المحدود والاعتماد علي الرصيد الموروث :

بالرغم مما تقدم فيما يتعلق بسمات التردي والانحطاط التي اتسمت بها الحياة الفكرية في فترة التفكك والانهيار ، إلا أن العالم الإسلامي لم يكن قد تخلي بعد عن هويته وذاته الحضارية ، وتجلي ذلك في تمسكه بماضيه ورصيده الثقافي والحضاري الموروث ، وتصميمه علي تمجيد وتقديس ذلك الماضي دون الإضافة إليه وإثرائه ، وقد كانت الإضافات المحدودة التي تمت في تلك الفترة خير شاهد علي استمرارية التشبث بالرغبة في العطاء والمقدرة عليه ، والتعايش في أجواء الماضي بمحتوياته الغنية وكنوزه الثمينة ، وكان من شان هذا الانجذاب للماضي أن يعفي الأمة من التبعية للغير ، يضاف إلي ما تقدم أن الحضارة الإسلامية كانت لا تزال هي الأكثر عطاء ، والأقرب من أذهان الناس ، ونجمها هو الأكثر بريقا ولمعانا ، ولم يكن قد أفل بعد ، كما أن الآخر لم تكن ذاته قد تبلورت بعد

، بل كان كل ما عدا المسلمين تابعا لهم ، ولا يزال يخطو خطواته الأولي نحو بلورة ذاته وتحديد معالم شخصيته ، معتمدا في ذلك علي ما تحصل عليه من خلاصة حضارة الإسلام ، ومضيفا إليها عزمه ومضاءه اللذين أوصلاه إلي تشييد صرحه الحضاري وتحوله من تابع إلي متبوع ، ومع بداية القرن التاسع عشر حدثت عملية تبادل أدوار لعلها الأولي من نوعها في التاريخ ، حيث شرع الغرب بزعامة أوروبا يبني حضارته بسرعة ملفتة ، والمسلمون يرقبون في ذهول وانبهار ، ثم ما لبث ذهولهم وانبهارهم أن تحولا إلي رغبة في التقليد والمحاكاة والتبعية العمياء التي أفضت بالعالم الإسلامي إلي وضعه الحالي ، وسوف نعكف علي تفصيل هذه الوضعية في الفصل التالي من هذا الجزء .

المبحث الثاني

العــلم

الحديث عن العلم في فترة التفكك والانهيار حديث ذو شجون ، فقد انتاب هذا الفعل السامي الرفيع العديد من الخصال التي جعلته لم يعد كذلك ، وجعلته يتخلى عن مفهومه الأساسي الذي كان له في عصوره الزاهرة التي انتهت بانهيار الخلافة العباسية ، فقد كان العلم في عصوره الزاهرة يعني الرغبة في إكتناه حقائق الأشياء ومكنوناتها والعلاقات فيما بينها باستخدام مناهج معينة والانتهاء إلي نظريات وقوانين تحكم تلك الحقائق والعلاقات وتوظيف مخرجات العلم في شئون الحياة ، أما في فترة التفكك والانهيار التي نحن بصدد تحليلها ودراستها ، فلم يعد العلم كذلك بل بات يحمل خصائص معينة يمكن تناولها فيما يلي :

أولا : أصبح العلم محصوراً في العلم بالدين :

لم تفق الأمة من الصدمة التي زلزلت كيانها علي أثر الطوفان المغولي الذي دمر كل شيء ، وكأن المسلمين سيبدءون من جديد ، وما كان قبل ذلك الزلزال لم يعدُ كونه تاريخا وماض ، لقد تغير كل شيء أو بات في سبيله إلي التغيير ، وكان العلم في مقدمة المسائل التي تعرضت لذلك التغيير ، والعلم في مفهومه العام قد اختلف في محتواه وفي شكله ، وهذا الاختلاف ربما يحمل في ظاهره ما لا يبدو في جوهره .

لقد ساد اعتقاد لدي السواد الأعظم من أبناء الأمة بأن العلم هو ما يتعلق بالدين بشكل مباشر وصريح ، وأن ما سوى ذلك لا ينبغي أن يشمله العلم ، فهو مضيعة للوقت والجهد ، وكان يقف وراء ذلك ظن خاطئ مؤداه أن في ذلك مصلحة الدين ونفع الإسلام ، ولكن الصواب أن الإسلام يري أن العلم يشمل كل موجودات الكون وعناصر الوجود ، كما

يشمل أمور الدين ، ويمكن الزعم بأن سبب ذيوع هذا الاعتقاد يكمن في الإخفاق والتقاعس اللذين سجلهما المسلمون فيما يخص العلم غير الديني ، إذ عندما لم يقدر للمسلمين أن يحرزوا أي تقدم في علوم الطبيعة والكون والحياة ، فقد آثروا أن يبرروا ذلك بأنه ليس من الأهمية بمكان ، وأن العلم الحقيقي الجدير بالاهتمام هو العلم بالدين .

لقد كان العلم في عصور الإسلام الزاهرة يعني اكتناه حقائق الوجود لعلاقة ذلك القوية بترسيخ الإيمان وللارتباط العضوي بين علم الدين وعلم الدنيا ، فكثير من علوم الدنيا تبدأ مداخلها من علوم الدين ، كما أن كثيرا من علوم الدين إنما جاءت لتنظيم شئون وأمور الدنيا من علاقات ومعاملات وأحكام وخلافه ، وقد ترتب علي هذه النظرة الجديدة الأحادية للعلم علي أنه علم الدين فقط الكثير من المثالب والنواقص التي لحقت بعلوم الدين تلك التي كانت تغذيها علوم الدنيا وتقرر كثيرا من حقائقها .

لقد كانت النظرة السابقة للعلم سببا مباشرا في قطع صلة المسلمين بماضيهم ، وما زخر به من ازدهار شمل علوم الدين والدنيا معا ، فالإنجاز العلمي قد توقف ، ولم يعد ثمة تواصل يربط الماضي بالحاضر ويمكن الأمة من إكمال ما بدأه الأوائل وساروا فيه أمدا طويلا ، ومن هنا بدأت مسيرة المسلمين علي طريق الجهل والتخلف والتي سوف تنتهي بهم إلي فقدانهم لذاتهم الحضارية المتفردة ومنطقهم الثقافي المميز ، ويتحولون إلي تابع للآخر يستعيرون منه المنهج والوسيلة ، وليتهم أفلحوا في ذلك ، بل فقدوا الذات ثم افتقروا كذلك إلي النجاح في محاكاة الآخر .

وبالرغم مما قدمنا ظلت هناك بؤر قدر لها أن تبث بين الحين والآخر إشعاعات علمية تذكر بأن هذه الأمة كانت ذات قرار ومعين في مجالات العلم شتي بما جعلها منهلا نهل منه الآخر ليبني صروحه العلمية والتقنية ، وسوف نشير إلي تلك البؤر تفصيلا في مواضع متقدمة من هذا الفصل ، إلا أنه وتحت وطأة الضغوط والتداعيات التي مرت بها

الأمة في عصور التفكك والانهيار لم تـتمكن تلـك البـؤر مـن أن تواصـل ازدهارهـا وعطاءهـا فتعطلت إلا قليلا منها حافظت علي وجودها ، ولكن اختلف العطاء العلمي كماً وكيفاً .

لقد تخلى العلم خلال هذه الفترة الطويلة الجدباء عـن كـثير مـن خصائـصه وسماتـه الـتي كانـت لــه مـن قبـل في عـصور الإسـلام الزاهـرة ، ومـن أهـم هـذه الخـصائص والـسمات " اجتماعية العلم " ، فقد كان العلم في عصور الإسلام الأولى " وظيفة اجتماعيـة " يؤديهـا المجتمع بكافة مفرداته ومكوناته ، والعلم من جهته يعد إحـدى تفاعلاتـه الـتي تتغلـل في نسيجه ، فالعلم لم يكن مهمة النظام السياسي أو أية جهة أخرى ذات طبيعـة رسميـة أو فوقية مسيطرة ، بل كان العلم مهمة كل المجتمع بكافـة قـواه الرسميـة وغـير الرسميـة ، وكان بمثابة فعل وسلوك داخل تفاعلاته التي تنـساب بتلقائيـة وسلاسـة ، وأصـبح العلـم إجراءً يتم ويُدفع دفعاً عبر جهات تم تحديدها حسب كل مجتمع ووفق كل زمان ، وهـذه الجهات في الأغلب الأعـم جهات ذات طبيعة رسمية ، فـالمجتمع لم يتخـل نهائيـاً عـن مسئوليته تجاه العلم بل ظل يباشر ذلك الدور بشكل أو بآخر في صور عديدة اختلفـت مـن مجتمع إلى آخر داخل دول العـالم الإسـلامي ، إلا أن ذلـك كـان هـو الاسـتثناء ولم يمثـل القاعــدة العامة .

وكانت مسئولية القوميات التي سيطرت على أجزاء الدولة الإسلامية أكيدة إزاء مـا أصـاب العلم من تقاعس واتكاء على محور واحد هو محور عـلوم الدين ، والتقليل من شأن المحور الثاني الخاص بالعلوم الحياتية أو الطبيعية ، وسوف نفصـل هذه المسألة عند الحديث عن إقليمية العلم .

وعلى الرغم مما قدمنا بصدد سلوك الأمة طوال فترة التفكك والانهيار تجاه العلـم واعتبـاره محصوراً في علم الدين ، إلا أن الأمة لم تستسلم تماماً لهـذا الـسلوك ، فقـد تمـردت عليـه بعض المناطق وخلال حقب زمنية متفاوتة من هذه الفترة الطويلة وتحت قيادة أسر حاكمـة

بعينها ، فالتاريخ الإسلامي يحمل إلينا أخبار بعض المناطق التي منحت العلم جميعاً بشقيه علم الدين وعلم الدنيا اهتماما كان بمثابة السبب المباشر في بروز علماء مسلمين قدموا إسهامات عظيمة أحدثت نوعاً من التواصل بين الماضي والحاضر .

ثانياً : إغلاق باب الاجتهاد والاعتماد على النقل والتكرار :

الاجتهاد يعني تحري ما قُدم في مجال فكري بعينه ، وابتكار الحديث بالاعتماد على العقل والمرجعيات الإسلامية المتمثلة في : القرآن الكريم والسنة المطهرة ونموذج دولة الرسول الكريم ودولة خلفائه الراشدين ، ومعلوم أن ما تقدم من تعريف لمعنى الاجتهاد يرتبط بعلم الدين ، وبالمقابل فالاجتهاد وفي شتى العلوم الأخرى يعني تفنيد ما قُدم ثم الإضافة إليه بالابتكار والاستحداث باستخدام وسائل ومناهج أصولية ، على أنه لا يمكن إغفال ضرورة التحصن بالمرجعيات الإسلامية كأطر عامة يتم التحرك بداخلها دوماً ، حيث أن الخروج على هذه الأطر يطلق العنان للعقل والفكر بما لا تُحمد عقباه ، ويخرج العلم عندئذ عن مقاصده الفاضلة وغاياته المثلى .

وإضافة الجديد وابتكار الحديث تتأتى من تخول المتغيرات والمستجدات بالتفسير والتحليل ، وإزاء هذا السلوك يلزم استخدام مناهج خاصة ووسائل معينة تتفق عادة مع طبيعة الرؤية وخصوصية المنظور ، وما من شك في أن ثمة مرحلة تسبق هذه المرحلة ، وتتجسد المرحلة الأولى في تفنيد السابق وتدقيقه حتى يمكن الإضافة إليه بثقة واطمئنان .

لقد كان ما تقدم عينه هو ما فعله المسلمون في عصور الازدهار في زمن الخلافة العباسية ، حيث برعوا في استخدام المنهج النقدي المرتكز على نقد وتحليل ما قدمه الأوائل في علم من العلوم ، وعلى حصيلة ما استخلصوه قدموا إبداعاتهم وعطاءاتهم ، وفي فترة التفكك والانهيار لم يحدث أي مما تقدم ، فقد انحصرت كافة الجهود في تكرار ما سبق

بالنسبة للعلوم الدينية ، وفي العلوم الطبيعية كان الاطلاع على مجهودات الأوائل والإلمام به ليس إلا من اختصاص قلة ممن أزمعوا مواصلة الاجتهاد والعطاء .

إن الرغبة في الحفاظ على التراث الحضاري للأمة تعد مبرراً وجيهاً لخصلة النقل الدائم والتكرار المستمر لما فات ، ولكنها لا تحمل أية وجاهة بل وتتحول إلى عنصر إعاقة عندما تؤدي إلى إغلاق باب الاجتهاد في كافة العلوم الدينية والطبيعية ، وبات النمط السائد لدى أهل العلم هو الاعتماد على النقل وتحجيم العقل ، وأصبح من المعتاد النظر إلى المتغيرات والمرور على المستجدات بعدم اكتراث ولا مبالاة ، فقد افتقد أبناء تلك الفترة المظلمة الوسائل والمناهج التي تمكنهم من التعامل مع تلك المتغيرات والمستجدات بموضوعية وجدية تتواءمان مع مرجعيات الأمة وأهدافها الحضارية .

ولعل ما تقدم كان جديراً بأن يُفقد أبناء تلك الفترة وضعهم كحلقة وصل بين ماضي الأمة الزاهر في علوم الدين والدنيا معاً ومستقبلها الذي كان ينبغي أن يماثل ماضيها ، ولكن عبر جسور من العطاء الدائب والجهد المستمر .

ولكن ما هي الأسباب التي كمنت وراء إغلاق باب الاجتهاد وتعطيل العقول الإسلامية وإيقاف جهود أبناء الأمة وحبس العلم وحصره في النقل مما فات وتكرار ما مر ، ثمة أسباب عديدة سوف نتناولها تباعاً فيما يلي من عناصر .

ثالثاً : مذهبية العلم :

تعد مذهبية العلم من الإشكاليات التي حجمت نطاق العلم وقصرت مدياته على أفكار بعينها ورؤى بذاتها ، ومذهبية العلم تعني أن العلم في فترة التفكك والانهيار كان قد أخذ نفس الأنماط الفكرية والقناعات المعتقدية التي تتعلق ببعض أصول الشرع وكثير من فروعه خلال فترة التفكك والانهيار ، ومعلوم أن الإسلام قد تعددت فيه المذاهب ، ولا يهمنا من

هذه المذاهب سوى مذهبي السنة والشيعة اللذين استشرى الخلاف والصراع بينهما ليداهم كل شيء تقريباً حتى العلم .

وبالرغم من خلو الإسلام من مثل هذه التقسيمات وعدم اعترافه بمثل هذه التسميات التي ما أنزل الله بها من سلطان ، بالرغم من ذلك إلا أن واقع المسلمين و لسان حالهم ينطق بسيادة المذهبية وسيطرتها على كل شيء تقريباً داخل الدولة الإسلامية ، واعتناق أبناء الأمة لها إلى درجة ذوبانها في الشرع ، وهذا الوضع يطالب الجميع بضرورة التعامل معه بوصفه حالة انتهى إليها أمر المسلمين منذ نهايات عهد الخليفة الراشد عثمان بن عفان ، وكانت سبباً ونتيجة في وقت واحد للفتنة الكبرى التي ضربت بأطنابها في كافة بلاد المسلمين وتغلغلت في جميع شئونهم .

لقد وضحت المذهبية وإفرازاتها في علوم الدين بشكل سافر ، وكانت أقل حدة في العلوم الطبيعية ، فالمذهبية دفعت أتباع المذهب إلى الاستقتال في سبيل الدفاع عنه والحفاظ عليه ، ولن يتحقق ذلك إلا بالمداومة على تكراره ونقله واستحضاره ليصبح معايشاً للناس حاضراً بينهم ، ولم يكن ذلك بين المذهبين الأساسيين اللذين أشرنا إليهما فقط بل تعدى ذلك إلى المذاهب الفرعية داخل كل مذهب من المذهبين ، وصلة المذهب بعلوم الدين أكثر ارتباطاً ووضوحاً ، فالمذهب في الإسلام هو الشرع نفسه ، وعلى ذلك فعلم الدين يتبع المذهب ، ويمكن أن يمتد إلى العلم الاجتماعي على اعتبار أن الإسلام هو نظام اجتماعي متكامل ، ويمكن أن نرى ذلك جلياً في الظاهرة السياسية أو ما يتعلق بالسياسة والحكم ، ونراه أيضاً في الظاهرة الاقتصادية ، ثم في الظاهرة الاجتماعية إجمالاً .

أما العلوم الطبيعية التي كانت تتواجد في ظل دول تدين بالمذهب السني أو المذهب الشيعي فكان ينبغي عليها أن تتأقلم وتوائم تفاعلاتها ومساراتها مع المذهب السائد إذا كانت تتماس مع المذهب احتكاكاً أو تصادماً أو عناقاً ، أما العلوم الطبيعية البحتة

فعلاقتها بالهوية المذهبية للدولة التي وُجدت في رحابها لم تكن قائمة أصلاً ، وإذا وُجدت مثل هذه العلاقة فهي ربما تنصرف إلى التشجيع أو التثبيط التي تتلقاه تلك العلوم من أولي الأمر معتنقي المذهب .

رابعاً : القلاقل والتداعيات :

لقد كانت القلاقل والتداعيات التي أعقبت الغزو المغولي المدمر من أهم الأسباب التي وقفت وراء إغلاق باب الاجتهاد الذي ترتب بدوره على توقف الإسهام العلمي للمسلمين ، وتحقيق ذلك أن الفترة الممتدة من استيلاء هولاكو على بغداد وحتى وفاة تيمورلنك لم تشهد أية إنجازات علمية إلا في منطقة غرب ما بين النهرين ، وهي إنجازات متواضعة مقارنة بما قُدم من قبل في ظل الخلافة العباسية ، فالبلاد التي وقعت تحت سيطرة المغول لم تقدم أية إسهامات علمية باستثناء بعض الكتب الفقهية والشرعية ، وسبب ذلك أن الدولة الخوارزمية التي ازدهر في ظلها العلم وانتعش العلماء قد اختفت من الوجود ، كذلك دُمرت وانتهت مدن بأكملها مثل همذان وأصفهان .

وبالرغم من أن ثمة مناطق لم يصل إليها الغزو المغولي وهي مصر المملوكية وشمال إفريقيا والمغرب العربي إلا أن تلك المناطق قد تأثرت بشكل أو بآخر جراء التردي الذي حدث للعلم في المناطق التي سيطر عليها المغول لكن النتيجة النهائية أن المغرب الإسلامي بالإضافة إلى مصر استمرا يمثلان مركز إشعاع علمي بشكل متواضع ، وفي هذا السياق تبلورت ظاهرة إقليمية العلم في الدولة الإسلامية حيث تفتتت تلك الدولة إلى جزيئات صغيرة استقل كل منها بشئونه الخاصة والتي كان العلم من ضمنها .

خامساً : إقليمية العلم :

كذلك اتسم العلم بسمة أخرى خلال عصر التفكك والانهيار تمثلت في إقليمية العلم , والإقليمية في هذا الخصوص تعني أن العلم لم يعد يتبع مرجعية إدارية مركزية ينضوي تحتها كل المسلمين ، بل أصبح يتبع بؤراً ومراكز إقليمية متناثرة في الحواضر على امتداد العالم الإسلامي ، وقد تأثر العلم بهذه البؤر والمراكز عبر علاقات عديدة تشمل الموروثات الحضارية والثقافية وأهمها اللغة ، وتشمل أيضاً العلاقات والتفاعلات الاجتماعية والاقتصادية والمادية ، إلا أن تلك الإقليمية وارتباطاتها المختلفة لم تتمكن من أن تنفي عن العلم في نهاية المطاف أهم سماته التي ظل يتسم بها بالرغم من كل شيء ألا وهي الهوية الإسلامية التي كانت تظهر على استحياء في بعض الأحيان .

لقد انعكست إقليمية العلم في عصر التفكك والانهيار في تفاهة الموضوعات وضحالة التفكير وغياب القدرة على الابتكار وإلغاء العقل أو تحجيمه والاعتماد على النقل والدوران في فلك ما قدمه الجيل الأول من المسلمين وانعدام الثقة بالنفس الذي أدى إلى الخوف من الاجتهاد والإعراض عن متابعة المتغيرات وعدم توخي المستجدات بالدراسة والتحليل وتقديم الطروحات التي تحتويها وتبرز وجهة نظر الإسلام إزاءها .

نقلت الإقليمية العلم من نطاقه الأوسع الذي كان يشمل كافة أرجاء الدولة الإسلامية التي تدور جميعها حول مركز محدد إلى نطاق آخر ضيق ومحدود ينحصر في الولايات التي انفصلت عن بعضها واستقلت كل منها بأمورها ، وهذه النقلة كانت كفيلة بأن تفقد العلم الإسلامي كثيراً من سماته المتمثلة في الإنسانية والعالمية والخلود ، وتتحول إلى مجرد اجتهادات تغذيها الفروق الفردية لدى بعض المثابرين في بعض الولايات الإسلامية .

سادساً : عنصرية العلم :

إلى ما تقدم نضيف سمة أخرى اتسم بها العلم في عصر التفكك والانهيار وهي عنصرية العلم ، ونقصد بعنصرية العلم أنه بات يتبع قومية الدولة ويرتبط بعنصر الحاكم ، وفي ذلك تخل عن الهوية الإسلامية للعلم التي تعني تبعية العلم للإسلام بوصفه نظاما اجتماعيا كاملاً وارتباطه بحضارته وثقافته باعتباره مقوماً من مقوماتهما ، كما تعني الهوية الإسلامية أيضاً تعلقه بالمرجعيات الإسلامية الشرعية ، كمصدر أساسي ومباشر في حالة علوم الدين ، وكإطار عام وضابط لمسارات الحركة في حالة علوم الدنيا أو العلوم الطبيعية .

وتحقيق ما تقدم أن العلم في عصور الإسلام الزاهرة كان من أجل الإسلام وحضارته وثقافته ، وكان هدفاً نبيلاً وغاية فضلى ، أما في عصر التفكك والانهيار فبات يرتبط بالقومية التي تعني جملة الروابط والعلائق العنصرية التي تربط بين أبناء جنس واحد وتجمع بينهم ، وقد التقت العنصرية مع الإقليمية في وفاق عجيب حيث استقل أبناء كل عنصر بحيز من الأرض وبمجال جغرافي محدد المعالم ، ومع إقليمية المكان ومحدودية الموقع وعنصرية الجنس أخذ العلم يتعايش ويتفاعل ويثمر ، تُرى هل قُدر للعلم أن يثمر في ذلك المناخ ؟ للأسف والأسى معاً ينبئنا التاريخ الإسلامي بأن العلم لم يتمكن من التجاوب مع القومية ذات النظرة الأحادية والفكرة الأنانية الضيقة ولا مع النطاق الجغرافي المحدود الذي كبل العلماء وغل أفكارهم ، فلقد أرادت كل قومية أن تضفي على العلم سماتها وخصائصها وتصبغه بقواسمها وخصوصياتها مثل اللغة والموروثات الحضارية والعادات والتقاليد إلى آخره ، وأن تستخدمه في التأريخ لها وتنظيف طابعها القومي قدر المستطاع ، ومن ثم خرج العلم في ذلك العصر هزيلاً عقيماً ضحلاً مملوكاً لأجناس من البشر وحكراً عليهم .

سابعاً : التقسيم التاريخي والجغرافي للعالم الإسلامي خلال عصر التفكك والانهيار وأثره على العلم :

إذا احتكمنا إلى معياري الزمن (التاريخ) والأرض (الجغرافيا) في دراسة وتحليل موقع ومكانة وأهمية وتطور العلم في المجتمع الإسلامي خلال عصر التفكك والانهيار ، لأمكننا أن نقسم العالم الإسلامي خلال تلك الفترة إلى مناطق عديدة ، وذلك خلال حقبتين متتاليتين ، ويلاحظ العلاقة المباشرة التي نشأت بين الحقبة التاريخية وبين الأسر الحاكمة والأنظمة السياسية التي سيطرت على مناطق العالم الإسلامي ، وما قادت إليه تلك العلاقة من بلورة خصائص وسمات للمجتمعات الإسلامية انسحبت على العلم في تلك المجتمعات ، وسوف نتابع دراسة وتحليل تلك العلاقة وما قادت إليه من سمات وخصائص ، وذلك من خلال ما يلي :

❖ **حقبة التفكك :**

الظاهر أن حقبة التفكك تبدأ منذ سقوط بغداد أمام جحافل المغول المدمرة ، حيث كان ذلك بمثابة الإعلان الرسمي الفعلي عن سقوط مركز الخلافة الإسلامية وعاصمة الدولة ، إلا أن التحليل الدقيق والمتابعة المتأنية للتاريخ الإسلامي يبرهنان على أن تفكك الدولة الإسلامية وتحلل أوصالها قد بدا منذ العصر العباسي الثاني ، حيث استقل العديد من الولايات الإسلامية فعلياً عن الخلافة العباسية ، ولكنها احتفظت بالولاء الشكلي الإسمي لعوامل تتعلق بحفظ كيان الدولة وتلبية متطلبات العقيدة .

ويمكن صياغة التحليل المتقدم حتى يستقيم مع الوقائع التاريخية على أساس أن الاجتياح المغولي كان بمثابة الإعلان الرسمي عن تفكك الدولة الإسلامية التي كانت فعلياً فاقدة تماماً للسيطرة على أجزائها التي استثمرت سقوط الخلافة وتدمير مركز الدولة في إعلان

الانفصال والاستقلال الفعلي ، وهنا طفت على السطح الكوامن القومية العنصرية لدى الشعوب والأمم التي انضوت تحت لواء الإسلام .

وكانت نتيجة التفكك حاسمة على جغرافية العالم الإسلامي ، فقد تفتتت الدولة الإسلامية إلى دويلات عديدة سيطر على كل واحدة منها أقوام وأسر كان لها تأثيرها وتوجيهها للعلم ، ويمكن متابعة عملية التفكك لبتي انتابت العالم الإسلامي على أثر الاجتياح المغولي وتأثيرها على العلم في المجتمعات الإسلامية من خلال ما يلي :

– المناطق التي وقعت تحت سيطرة المغول :

بعد سقوط بغداد سيطر المغول على مناطق الشرق الإسلامي بالكامل : تركيا وفارس والمناطق الإسلامية في وسط آسيا ومملكة دلهي والمناطق الإسلامية من الصين ، وقد عانت تلك المناطق من تدمير وتخريب لم تشهده من قبل ، وقد انعكست أوضاع تلك المناطق المتردية تحت سيطرة المغول على الحياة الفكرية والعلمية ، فسادها صمت مطبق ولم تظهر أية إسهامات علمية ذات شأن لا في علوم الدين ولا في علوم الدنيا ، إلا أنه بعد فترة من الزمن باشر الإسلام إحدى أهم سماته عندما بدأ يتعاطى مع الموجة المغولية العاتية فاحتواها واستوعبها وطوعها لصالحه ، وأعلن قادة المغول إسلامهم وأصبحوا من الداعين إليه ! .

وبالرغم من سيطرة المغول حدثت انطلاقة إيرانية تركية في مجالات الفنون والآداب والعلوم ، كانت بمثابة الباعث الذي بعث الحياة في القوميتين الفارسية والتركية ، فبدأ التفتيش عن مقومات وأركان الكيان القومي في الموروثات الحضارية والثقافية للفرس والأتراك ، وكانت اللغة وآدابها أهم تلك الوسائل ، وسوف نرجئ الحديث عن اللغة وآدابها إلى المجلد التالي ، أما العلوم فقد ازدهر بعضها مثل التاريخ الذي كان من رواده في إيران

تحت السيطرة المغولية الجواني والوصاف ، والأشهر منهما رشيد الدين اليهودي الذي اعتنق الإسلام ، وغزان وزير الإيلخانية ولم تشهد تلك الفترة التي سيطر فيها المغول على الشرق الإسلامي أكثر من تلك اللمحات الخاطفة .

– مصر المماليك :

كانت مصر والشام هما الحاجز الذي حال دون اجتياح المغول للمغرب الإسلامي ، عندما تمكن المماليك في مصر من هزيمة المغول في عين جالوت في عام ١٢٦٠م ، وعليه ظلت مصر وسوريا بمنأى عن تأثيرات الغزو المغولي ، وتحملتا تبعات القيام بمهمة التواصل الحضاري والثقافي مع عصور الإسلام الزاهرة ، ولم تلجأ هاتان المنطقتان إلى استدعاء أو استحضار موروثاتهما الحضارية والثقافية مثلما حدث في إيران وتركيا زمن السيطرة المغولية ، وذلك لأن دور التواصل الحضاري والثقافي الذي أزمعت كل من مصر وسوريا القيام به لصالح الإسلام وتاريخه وحضارته يختلف عما حدث في إيران وتركيا من انطلاقة خاطفة في العلوم والآداب استثمرت الموروثات الحضارية والثقافية للقوميتين كرد فعل يستهدف إثبات الذات في مواجهة المغول المدمرين .

ومن ثم مثلت الإسهامات المصرية والسورية في تلك الفترة مرحلة مملوكية في الحضارة الإسلامية ، كان همها الأول هو التواصل الحضاري أكثر من البحث عن الذات ، في هذا السياق ازدهر العلم وتعددت مجالاته واتجه نحو التعمق والغزارة ، وسوف نتناول تلك الإسهامات في موضعها من المبحث الخامس من هذا الفصل .

– الغرب [أفريقيا والبحر المتوسط] :

الغرب الإسلامي خلال فترة سيطرة المغول على الشرق كان قد تفتت إلى عدة دويلات : ففي أقصى الشمال الغربي انفضت الأندلس وانحصرت في الدولة النصرية

(دولة النصريين) في غرناطة ، وكانت آخر معاقل أسبانيا الإسلامية (الأندلس) وقد سقطت نهائياً في عام ٨٩٧ هـ - ١٤٩٢م وأسدل الستار على أسبانيا الإسلامية ، وقد كان وضع العلم في هذه المناطق ليس علم إبداع وابتكار من المسلمين الذين يستعدون للرحيل النهائي من شبه جزيرة إيبيريا ، ولكن كان علم نقل وترجمة من علوم المسلمين الذين برعوا فيها إلى لغات أوربا ، حيث كانت أسبانيا أحد أهم المعابر وحلقات الوصل بين حضارة الإسلام ومجتمعات أوربا التي كانت غارقة في ظلام دامس ، وسوف نتناول ذلك تفصيلاً في الجزء التالي من هذا المجلد .

وفي الشرق كانت هناك دولة الحفصيين وعاصمتها تونس ، وقد شهدت هذه الدولة فترة ازدهار للعلوم ، وبصفة خاصة العلوم الدينية والعلوم الاجتماعية وقد ولد المؤرخ الكبير عبد الرحمن بن خلدون في تونس عاصمة دولة الحفصيين من إحدى العائلات المهاجرة من أسبانيا الإسلامية التي أوشك نجمها على الأفول ، وقد غذت الأندلس دولة الحفصيين بالكثير من العلماء والمتضلعين في كافة العلوم ، وقد قفل هؤلاء عائدين إلي ديار الإسلام فراراً من أسبانيا التي كانت قد شرعت تغير جلدها ، ومن هؤلاء من واصل مسيرة العودة إلي مصر المملوكية ومنهم من توقف عند الحفصيين في تونس ، وقد كانوا عامل ازدهار للعلم في تلك الآونة .

وفي الوسط كان هناك دولة عبد الوديد البربرية وعاصمتها تلمسان ، وكانت هذه الدولة بحكم موقعها مثار نزاع بين دولة الحفصيين في تونس التي سبق الحديث عنها ودولة بني مرين البربرية أيضاً في الغرب وعاصمتها فاس والتي سنتحدث عنها بعد قليل ، ولم تتمكن دولة عبد الوديد من أن تنل مثل حظ دولة الحفصيين في تونس من العلم ، حيث أن الأخيرة كانت اكثر استقراراً سياسياً وأكثر تفتحاً علي اللغة العربية وعلي البحر

المتوسط وعلي العلاقات المباشرة مع أوربا في حين كانت دولة عبد الوديد مغلقة وغير مستقرة سياسياً وواقعة تحت سيطرة ونفوذ دولة بنى مرين في الغرب .

وفي الغرب كان هناك دولة بنى مرين وعاصمتها فاس ، وهم من البربر أيضاً وكان مستوى العلم فيها علي نفس مستواه في دولة عبد الوديد ، إلا أن دولة بنى مرين قد تميزت بموقعها المواجه مباشرة لأسبانيا الإسلامية التي شرعت تلفظ علماء المسلمين الذين اضطروا إلى التقهقر إلى ديار الإسلام ، فعبروا المضيق متجهين جنوباً وشرقاً فمنهم من استقر في دولة بنى مرين ومنهم من واصل مسيرته إلى الحفصيين في تونس أو الأيوبيين ثم المماليك في مصر والشام ، والبادي أن دولة بنى مرين لم تكن جاذبة للعلم والعلماء كما كان الحال في تونس ومصر والشام .

– الأطراف [إندونيسيا ـ إفريقيا الشرقية ـ إفريقيا السوداء ـ مالي] :

هكذا حالَ حالُ العلم في أجزاء الدولة الإسلامية المفككة والمنهارة إلي مجهودات تتداخل فيها فواعل عديدة ، وتتباين إفرازات تلك المجهودات من منطقة إلي أخرى ومن نظام حكم إلى آخر ، وكانت مخرجات العلم نادرة كماً ومتواضعة كيفاً مقارنةً بالعصر الذهبي للعلوم الطبيعية وتطبيقاتها في ظل الخلافة العباسية على مدى عصريها الأول والثاني ، وبالرغم من وجود بعض التباينات بين مناطق الدولة وأجزائها المختلفة إلا أنه في الأغلب الأعم اتسم العلم في كافة الولايات المسلمة بمحدودية العطاء وتواضع الموضوعات وضحالتها .

لقد كان العلم في أطراف الدولة الإسلامية متواضعاً بسيطاً منصرفاً في معظمه إلى علوم الدين المتعارف عليها ، وذلك على الرغم من ازدهاره في مركز الدولة وحواضرها الزاهرة زمن الخلافة العباسية ، ولقد تحولت تلك السمات إلى اتجاه عام ساد كافة أنحاء العالم .

الإسلامي من إندونيسيا وماليزيا إلى إفريقيا الشرقية وإفريقيا السوداء ومالي ، وقد أعلن ذلك الاتجاه العام عن عقم وجدب كانت نتيجتهما الحتمية تخلفاً وتبعية بدأت من بداية فترة التفكك مروراً بفترة الانهيار التي اقترنت بالسيطرة التركية العثمانية على مقدرات الأمة الإسلامية ، وأسلمتها إلى الوضعية الراهنة من التخلف والتبعية .

❖ حقبة الانهيار :

في الحقبة الأولى التي أعقبت انهيار الخلافة العباسية أمام الهجمة المغولية المدمرة تفككت أوصال الدولة الإسلامية ، وتفتتت إلى أجزاء مستقلة ، وربما متصارعة في كثير من الأحيان ، وكان أثر حقبة التفكك تلك على العلم شديداً إلى درجة إيقاف عطائه ، وفي هذه الحقبة التي بدأت بسيطرة الأتراك العثمانيين على أجزاء العالم الإسلامي المفككة والمتناحرة ، أضيفت إلى خصيصة التفكك التي وسمت الحقبة السابقة خصيصة جديدة وهي خصيصة الانهيار حيث انهارت كافة الأجهزة ذات الطبيعة المركزية التي تفيد انتماء كافة الولايات الإسلامية إلى مركز واحد وتجمع بينها قواسم مشتركة ، وقد حدث هذا الانهيار نتيجة الآتي : الحرب المخربة التي شنها الأتراك العثمانيون ضد كافة الأنظمة في جميع الولايات الإسلامية من أجل السيطرة عليها ، وقد حدث ذلك التخريب نتيجة الحرب التي ظن العثمانيون ومعهم الكثيرون أنها حتمية وضرورية لإنقاذ الإسلام والمسلمين مما لحقهم من تفكك وتشتت ، لقد طالت تلك الحرب كل شيء داخل المجتمعات الإسلامية بجميع مكوناتها وتفاعلاتها وأنظمتها الفرعية من سياسية واقتصادية وإدارية ، ثم بعد ذلك كان هناك عملية التغيير التي عمد العثمانيون إلى إجرائها في كافة الولايات الإسلامية التي وقعت تحت سيطرتهم ، حيث أطاحوا بالأنظمة القائمة وفرضوا أنظمتهم السياسية والاقتصادية والإدارية التي اصطحبوها معهم من الباب العالي ، وقد أخفقت تلك الأنظمة

في النهوض بدويلات العالم الإسلامي ، وأثبتت عدم كفاءتها بل لعلها كانت سبباً في تخلف العالم الإسلامي حتى الآن .

وعن وضعية العلم في العالم الإسلامي خلال حقبة الانهيار التي سيطر فيها الأتراك العثمانيون على مقدرات ذلك العالم ، وعبثوا بكافة مقدراته وأنظمته ، يمكن تحليل تلك الوضعية في إطار انقسام العالم الإسلامي إلى قسمين : قسم خضع للسيطرة العثمانية طوعاً أو كرهاً ، وقسم آخر لم يخضع للسيطرة العثمانية ، وظل بعيداً عنها ، ولكنه تأثر بما يجري فيها :

- وضعية العلم في المناطق التي خضعت للسيطرة العثمانية :

اتسمت وضعية العلم في مناطق العالم الإسلامي التي خضعت للسيطرة العثمانية التركية بسمة عامة غالبة هي الانحدار أو الهبوط ، وبالرغم من ذلك لا يمكن إغفال الفروق والتباينات التي قامت بين الولايات المختلفة وعبر الفترات الزمنية المتعاقبة ، ففي ظل هذه التباينات برزت نتاجات فكرية وعلمية في مناطق بعينها ، وفي فترات زمنية بذاتها ، أشرت إلى أن الإسلام العظيم بالرغم من كل شيء لابد أن يظل ملهماً للأفكار حافزاً للعقول مستمداً من هذه وتلك قدرته على الاستمرار ، ليس كدين فقط ولكن بوصفه محركاً للمجتمعات ، وباعثاً في نظمها وتنظيماتها الحياة كالدم يجري في العروق .

ويستوجب التحليل أن ننتقل من التعميم والإجمال إلى التخصيص والتفصيل ، وذلك من خلال النقاط التالية ، حيث أن العلم كان لصيقاً بالعديد من الأنظمة الفرعية داخل النظام الاجتماعي في المجتمعات الإسلامية ، وكان كذلك صداً للتفاعلات المعقدة والمتداخلة في ثنايا تلك المجتمعات ، وإلى التفصيل :

○ لقد نالت علوم طبيعية عديدة مثل : الطب والفلك وجغرافيا الرحلات وتاريخ الرحلات منذ بداية العصر العثماني قسطاً يعتد به من اهتمام الباب العالي في الحواضر التركية وفي المناطق الأخرى الواقعة تحت السيطرة مثل : القاهرة ودمشق ، وقد جمعت هذه العلوم بين شقيها النظري الفكري والعملي التطبيقي ، واستفاد المجتمع الإسلامي من تطبيقات تلك العلوم وتقنياتها في البيمارستانات والمراصد وخرائط الكرة الأرضية وأدلة السواحل ، وسوف نزيد ذلك إيضاحاً فيما بعد عند حديثنا عن العلوم الطبيعية وتطبيقاتها في المبحث الخامس من هذا الفصل .

○ على مدى العصر العثماني وضح ولع العلماء العثمانيين بسحب السمة التركية " القومية " على كل فروع العلوم التي برزت في زمن السيطرة العثمانية ، كما اهتم هؤلاء العلماء بوضع حصيلة العلم الإسلامي بجميع فروعه في خدمة الدولة التركية ، وهنا تجلت السمة التي اكتسبها العلم ، وسبق لنا أن تناولناها ، وهي " عنصرية " العلم ، وصبغه بالصبغة العرقية القومية .

○ برزت خلال القرن الثامن عشر وبالذات في أواخره التفرقة الواضحة التي وصلت إلى درجة الصدام وعدم القبول بين الدولة العثمانية ومذهبها السني ! وبين العلوم الطبيعية التي انتعشت خلال العصر العثماني ، وسبقت الإشارة إليها مثل : الفلك ، وأدى ذلك الصدام إلى انتكاسة خطيرة عمت آثارها معظم العلوم الطبيعية .

○ في مقابل ما تقدم ، وكنتيجة لذلك الصدام وعدم التلاقي ، ازدهرت العلوم الدينية والعقائدية والعلوم العامة ، إلا أنها ظلت تدور في فلك التكرار وترديد ما سبق ، وأغلق باب الاجتهاد ، وتقاعس العلم الديني العقيدي عن ملاحقة التطورات والمتغيرات والمستجدات التي زخرت بها المجتمعات الإسلامية وهي في سياق رحلة تطورها

كمجتمعات بشرية ، وبدا وكأن تلك العلوم قد توقفت عن ملاحقة الأحداث الاجتماعية وتفاعلاتها بنهاية العصر العباسي .

O عمد الأتراك العثمانيون بوصفهم أصحاب قومية مسيطرة إلى أن يقوموا بعملية " تتريك " واسعة النطاق للعلوم والآداب ، حيث تستخدم فيها اللغة التركية وبعض الخصوصيات المعبرة عن الذات للأتراك الغز ، ومن ثم بات من الصعب على المحلل أو المؤرخ أن يقتنع بأن ما بذل في ذلك العصر من جهد علمي أو فكري يعبر عن هوية إسلامية خالصة .

O ترتيباً على الاهتمام الخاص الذي أولاه السلاطين الأتراك للعلم في البلاد التركية ، برز معظم علماء تلك الفترة من تلك البلاد ، وصدرت نتاجاتهم العلمية والفكرية باللغة التركية ، وازدهرت بالفعل الحواضر والمدن التركية في مجالات العلوم المختلفة .

– وضعية العلم في المناطق التي لم تخضع للسيطرة العثمانية :

كان على العلم في المناطق التي لم تخضع للسيطرة العثمانية أن يعتمد في تطوره البطيء والمحدود والقليل الابتكار على عوامل ذاتية تنبعث في معظمها من تفاعلات داخلية حيث كان من الصعب على هذه المناطق الاختلاط والتفاعل مع المناطق الخاضعة للسيطرة العثمانية ، وفي عجالة يمكن المرور على وضعية العلم في تلك المناطق من خلال ما يلي :

O بلاد فارس :

على أثر التفكك الذي أصاب الدولة الإسلامية بسبب الهجمة المغولية ارتسمت معالم إيران فارس على أيدي الصفويين بقيادة كبيرهم صفي الدين الذي تحمل اسمه هذه الأسرة الحاكمة ، وقد خاض الصفويون ملحمة حربية قوية شرقاً ضد شعوب آسيا الوسطى ، وغرباً ضد العثمانيين ، وقد استقرت فارس أيام حكم عباس الأول الكبير

[٩٩٠ هـ - ١٥٨٧ م / ١٠٣٨ هـ - ١٦٢٩ م] في نفس الحدود التي نعرفها لها اليوم ، ومن ثم تأسست إيران الحديثة .

وكرس الصفويون المذهب الشيعي كمرجعية دينية وعقيدة وتراث وأسلوب للتحليل والفهم ، ولتحديد أصالة وطنية في إطار الإسلام ، وقد طور الصفويون بدهاء مشهود التعصب للمذهب إلى أن صار أداة أساسية من أدوات الصراع في مواجهة العثمانيين السنيين ، إلى جانب كونه شكلاً من أشكال الحكم الفردي شديد المركزية الذي " يجعل من الدولة وسكانها وثرواتها ملكاً للأمير - الفقيه " .

في هذا الجو كان العلم متأثراً بعاملين مهمين : الأول ، طبيعة الحكم الفردي ، الذي جعل العلم مرتبطاً بشخص الحاكم ، في تطوره ، وفي طبيعة موضوعاته ، الثاني ، تأثير المذهب الشيعي على العلم ، حيث جعله منصرفاً إلى العلوم العقائدية ، كما يراها المذهب ، كذلك جاءت العلوم الطبيعية والآداب مغلفة بمسحة من التعصب الشيعي الرسمي المعتمد للدولة الفارسية .

ظل العلم في دولة الصفويين ومن جاء بعدهم في إيران منصرفاً في معظمه إلى العلوم الدينية ، وقد تأثرت تلك العلوم مع العلوم الطبيعية بالخصوصية الحضارية والثقافية لبلاد فارس ، حيث اختلط بالموروثات الحضارية والثقافية ، ناهيك عن المذهب الشيعي الذي بات هو الآخر ضمن المكونات المميزة لهوية إيران الفارسية المعاصرة .

○ بلاد الهند الإسلامية :

كان للمغول تأثيرهم الواضح على الحياة الفكرية والعلمية في بلاد الهند الإسلامية ، وقد عانت هذه المنطقة التي شملتها مملكة دلهي من عدم الاستقرار خلال ثلاثة قرون متتالية

هي القرون : السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر ، وكان لعدم الاستقرار آثاره البالغة على العلم والحياة الفكرية عموماً في هذه المجتمعات الإسلامية .

○ بلاد الصين الإسلامية :

لقد توغل الإسلام في الصين عبر التجارة والعلاقات الاجتماعية ، وتمكن من تأسيس مجتمعات مستقرة ازدهرت فيها الآداب والعلو م الإسلامية ، وقد امتدت الموجة المغولية بتتابعاتها المتتالية إلى بلاد الصين الإسلامية ، وتركت آثارها على الحياة الفكرية عموماً والعلمية منها خصوصاً ، وكان الاهتمام الأول لتلك المجتمعات منصرفاً إلى علوم الدين ، نظراً إلى حاجاتها الماسة والدائمة إلى تثبيت العقيدة والتفقه في أصولها ، إلا أن ما تقدم لم يمنع من انتقال العديد من العلوم والآداب عن طريق فارس والمغول أنفسهم بعد أن تحضروا ودخلوا الإسلام .

○ الأطراف : [إندونيسيا وماليزيا وشرق إفريقيا ومالي] :

مثلما حدث في الصين تمدد الإسلام إلى أطرافه في أقصى الشرق في إندونيسيا وماليزيا والفلبين وكمبوديا وسنغافورة وسيلان وبورما عن طريق التجارة التي رادها المسلمون الهنود ، ولا ينكر أن الإسلام قد خاض صراعاً سلمياً مشرفاً مع الديانات التي كانت سائدة في تلك البلاد قبل مجيئه إليها مثل : البوذية والهندوسية ، وقد استقر الإسلام في هذه المناطق ابتداءً من القرن الخامس عشر ، وخلق معه أجواءً كان لها تأثيرها على الحياة الفكرية والعلمية ، وبالرغم من أن هذه المناطق قد سلمت من الهجمة المغولية في موجاتها الأخيرة ، إلا أنها لم تتلق من أصداء العلم الإسلامي الذي ازدهر في العصر العباسي إلا القليل الذي كان قد تحول إلى تراث وتاريخ ، يرتبط بما قدمنا عن أطراف الإسلام في الشرق البعيد أطرافه في شرق إفريقيا ومملكة مالي التي سبق وتحدثنا عنها عند حديثنا عن

السيطرة العثمانية على العالم الإسلامي ، وقد حافظت هذه الأطراف الإفريقية على ما تجمع لديها من علوم إسلامية تنصرف في جُلها إلى الدين والعقيدة ، بالإضافة إلى بعض المعارف الطبيعية الواردة من تراث الإسلام في العصر العباسي .

○ المغرب العربي :

كذلك كان المغرب العربي من المناطق التي نجت من الخضوع للسيطرة العثمانية ، وحافظت على إسلامها ذي الخصائص المميزة ، وفرضت على نفسها عزلة كرست ذاتية تلك الخصائص ، وبالرغم من الابتعاد المكاني والانعزال والانغلاق الفكري الذي تمتع به المغرب العربي ، ابتداءً من القرن الخامس عشر ، إلا أنه قد عايش أجواءً فكرية غذتها الحركات السياسية التي قادها الشرفاء ، ووصلوا من خلالها إلى الحكم ، وهم : السعديون الذين استقروا في مراكش ، ثم بنو حسان الذين استقروا في مكناس ، وكان لتلك الأجواء الفكرية الفضل الأول في ازدهار كثير من العلوم الدينية والطبيعية وبروز بعض الأعلام في تلك البلاد .

المبحث الثالث

التعلـــم

التعلم – كما سبق وأوضحنا – هو طلب العلم والرغبة فيه والمواظبة على تلقيه وتحصيله ، ومن ثم فالتعلم رغبة ، ثم سلوك ينتهي بهدف ، يتحقق على مستوى الفرد ، ثـم يتحـول إلى نشاط جمـاعي يستهدف مصلحة المجتمع ، ولقد مر التعلم بالوصف المتقدم خلال فترة التفكك والانهيار ، التي تبدأ من انهيار الخلافة العباسية في عـام ١٢٥٨ م ، وحتـى نهايـة القرن الثامن عشر بتطورات وتداعيات عديدة تركت آثارها على طبيعـة الأشـخاص طـالبي العلم ، وشملت تلك التطورات : الظروف والعلاقات المتردية بين أجزاء الدولـة الإسـلامية ، وطبيعة العلوم محـل اهتمام المسلمين في ذلك الوقت ، وطبيعة وسائل التعليم المختلفـة ، وطبيعة أهداف طلب العلم وغاياته ، ويمكننا تناول جملة المؤثرات التي أثرت على الـتعلم في فترة التفكك والانهيار من خلال ما يلي :

أولاً : طبيعة الأشخاص طالبي العلم :

أفراد كل مجتمع هم في المعتاد صنيعة ظروفه وتطوراته وتفاعلاته ، وقد تـأثر المـسلمون إلى مدى بعيد بالظروف والتطورات والتفاعلات التي مرت بها المجتمعات الإسلامية من تفكك وانهيار وتمـزق وانحطـاط في المـستويات الاقتـصادية والـسياسية والإداريـة ، والاجتماعيـة عموماً ، وقد انعكست تلك الأحوال جميعاً علـى طلـب العلـم ، وعلـى طبيعـة الأشـخاص الذين يرغبون في التعلم وتحصيل العلم ، ولقـد تقلبـت طبيعيـة الشخـصية الإسـلامية بـين عصرين أو حقبتين أحلاهما مر ، وسوف نتناول تحليـل الشخـصية المـسلمة خـلال هـذين الحقبتين للوقوف على موقف تلك الشخصية إزاء مسألة طلب العلم وتجشـم المـصاعب مـن أجـل تحصيله والانتفاع به :

❖ فترة التفكك [السيطرة المغولية] :

في هذه الفترة توزع العالم الإسلامي إلى قسمين : قسم خضع للسيطرة المغولية – كما سبق وأوضحنا – وقسم ظل بمنأى عن هذه السيطرة ، فالقسم الذي خضع لتلك السيطرة عان من التدمير والتخريب اللذين صاحبا الهجمة المغولية ، وانعكس ذلك على المجتمعات الإسلامية بأنظمتها السياسية والاقتصادية والإدارية التي فرضها المغول ، وكان من شأن هذه الأنظمة المفروضة من قبل المحتل الهمجي الذي يفتقر إلى أبسط مفاهيم الحضارة والمدنية أن تعصف بكافة القيم الإسلامية ، ومن ضمنها قيمة العلم وطلبه ، وإذا كان العلم كقيمة وطلبه كفضيلة قد اندثرتا تحت وطأة الاحتلال العاتي ، فإن الواقع قد رسخ تلك الوضعية وجسدها في شكل وواقع الشخصية الإسلامية التي بدت مهتزة ضعيفة غير قادرة على الابتكار وغير مهيأة لطلب العلم والإبداع فيه وإعادة أمجاد المسلمين في عصرهم الذهبي .

فشخصية المسلم في البلاد التي دخلها المغول ، كانت شخصية مدمرة اهتمت بطلب العلم الذي لا يمنحها أكثر من التعرف على أصول العقيدة التي كادت أن تنطمر تحت تأثيرات الغزو المخرب ، وهذه العلوم البسيطة تم استحضارها من الأصول والمصادر الماضية .

أما شخصية المسلم في مجتمعات الهند في مملكة دلهي ، حيث كان الإسلام هو إسلام الطبقة الحاكمة ، وكان بوسع هذه الطبقة طلب العلم بطرق شتى يغلفها الترف ، أما طبقات الشعب فكانت من الفقر والضياع بما يصرفها عن طلب العلم ، وفي أحسن الأحوال كانت تكتفي منه بما يعرفها مبادئ الإسلام وأصول العقيدة .

في حين كانت شخصية المسلم في الصين مرتبطة بطبيعة الإسلام في ذلك المجتمع ، فالإسلام لم يكن دين الشعب الفاتح ، بل كان عقيدة مثل عقائد أخرى كالبوذية

والمسيحية ، وكان المسلمون عبارة عن رابطة من التجار يتحكمون في التعاملات الاقتصادية والتفاعلات الاجتماعية من خلال مقدراتهم الاقتصادية والمادية التي جعلت منهم طبقة شبه أرستقراطية ، وكانت لديهم وسائلهم في طلب العلم ، وكانت تجمع بين القدرة المادية والطموح الشخصي ، وجذب العلوم والعلماء من مناطق العالم الإسلامي المختلفة وبالذات من فارس .

أما القسم الذي ظل بمنأى عن السيطرة المغولية ، فقد كانت الأوضاع فيه أحسن حالاً ، إلا أن جواً من الهبوط العام قد خيم كذلك على هذه المجتمعات ، وقلل من اتجاه أفرادها نحو طلب العلم والتبحر فيه ويجد هذا الجو أسبابه في تفكك أوصال الدولة الإسلامية وافتقاد العلم والتعليم لمن يرعاهما ، كما كانا في السابق ، إضافة إلى تواضع أهداف العلم ومحدودية غايات طلبه وتحصيله ، ويمكن أن نلاحظ بسهولة أن هذه المجتمعات قد أفرزت أعلاماً في حقول العلم ومجالات المعرفة المختلفة ولكنهم كانوا نوادر ولم يكونوا ظواهر .

❖ فترة الانهيار [السيطرة العثمانية] :

وإذا انتقلنا إلى فترة السيطرة العثمانية فسنجد أنها قد حلت على العالم الإسلامي في أعقاب الغزو المغولي المدمر ، وقد زاد ذلك الطين بلة ، وكان بمثابة ظلام على إظلام ، وانحدرت وضعية المجتمعات الإسلامية من سيئ إلى أسوأ ، وانعكس ذلك على طبيعة الشخصية المسلمة ، حيث لحقت بها سمة الانهزامية وفقدان الثقة في قدرتها ، إذ طال أمد خضوعها لسيطرة من لا يرجو للإسلام الفلاح والانتشار .

وبالقطع كان حال المجتمعات الإسلامية التي خضعت للسيطرة العثمانية أشد وأنكى من الأخرى التي نجت من تلك السيطرة ، فقد خيم الجهل والتخلف على المجتمعات الأولى

، وصاحب ذلك واقترن به غياب الرغبة في طلب العلم وتحصيله ، والاكتفاء لدى من يسعون في طلبه بالمكرر الموروث وبالسطحي البسيط ، في حين أغلق باب الاجتهاد والإبداع في كافة المجالات ، إلا أن ما تقدم لم يمنع أيضاً من بروز حالات قدم فيها المسلمون نتاجات علمية وفكرية أثبتت قدرتهم على تحصيل العلم والإجادة في ذلك ، وقد تكرر ظهور هذه الحالات في المدن التركية الشهيرة ، وهذا يعني أن تلك المدن كانت تعتبر بيئة مواتية لطلب العلم وتحصيله ، وأنها قد نالت من السلاطين العثمانيين اهتماماً فاق بكثير اهتمامهم بالمدن الإسلامية الأخرى المتناثرة على امتداد مساحة العالم الإسلامي الواقع تحت السيطرة العثمانية .

يضاف إلى ما تقدم أن المسلمين الذين عمدوا إلى تحصيل العلم والإبداع فيه باللغة التركية التي لاقت اهتماماً ورعاية من العثمانيين قد أبلوا بلاءً حسناً ، في حين أن من سعى إلى تحصيل العلم بالعربية أو اللغات الأخرى التي استوعبتها الدولة الإسلامية لم يقدر له تحقيق نفس النتائج .

وإذا انتقلنا إلى الحديث عن تحصيل العلم وطلبه في مناطق العالم الإسلامي التي لم تخضع للسيطرة العثمانية ، فسنجد أن هذه المناطق قد اتسمت بسمات أثرت بشكل واضح في عملية التعلم والرغبة في تحصيل العلم ، ولعل أهم تلك السمات تمثل في بروز وطغيان الخصائص الذاتية (القومية) المنبعثة من الموروثات الحضارية والثقافية والتي تفاعلت بشكل جيد مع (الطابع القومي) لشعوب تلك المناطق ، وغذتها في ذات الوقت نزعات نابعة من التداعيات والتطورات السائدة ، اتجهت نحو تضخيم الذات والرغبة الجامحة في السيادة وقيادة الآخرين ، وكان ذلك شأن مناطق مثل : إيران والمغرب العربي ، حيث اتسم طلب العلم في هاتين المنطقتين بسمات الخصوصية والذاتية النابعة من صميم تلك المجتمعات التي بدت مغلقة ومعزولة عن تطورات العالم الإسلامي .

ثانياً : طبيعة العلاقات والتفاعلات بين أجزاء العالم الإسلامي :

منذ أن نشأت الدولة الإسلامية وتوسعت وامتدت أرجاؤها ، وهي تتسم بالسلاسة والانسيابية ، فيما يتعلق بالعلاقات والتبادلات والتفاعلات بين أجزائها ، فابتداءً من خلافة عمر بن الخطاب وحتى نهاية عصر الدولة الأموية والفتوحات الإسلامية تتسارع وتتوغل في الاتجاهات الأصلية الأربع ، واستوعبت الدولة الفتية في نطاقها شعوباً شتى وأقاليم متباينة ، وعندئذ أفرز الإسلام أهم مبادئه وسماته وهو القدرة الخارقة على خلق حالة من التناغم والتجانس اللتين تطورتا إلى حالة من التلاقي والذوبان بين تلك الشعوب المتفاوتة وأقاليمها المتباينة ، وسادت هذه الوضعية النموذجية كلاً من البشر والجغرافيا ، وأصبحت الدولة المترامية الأطراف في أقل من قرن من الزمان أوسع من إمبراطورية الإسكندر أو الإمبراطورية الرومانية ، ومع ذلك فقد تجانس رعاياها ، واندمجت أقاليمها وأجزاؤها بشكل جعل من السهولة بمكان على أي من أفرادها أن ينتقل من مكان إلى آخر ، وأن يندمج ويتفاعل مع أبناء أي إقليم ، فالكل أخوة يستظلون بقيم الإسلام ومبادئه ، ويتعاملون وفق نظمه وتنظيماته وتعاليمه ، لقد كانت طرق التجارة والقوافل والتبادلات تقطع هذه المساحات الشاسعة ، وتصل إلى الفجاج العميقة والأصقاع المترامية ، ومن ثم كانت حرية الحركة مكفولة لكافة رعايا الدولة ، والتنقلات ميسورة للتجارة وطلب العلم وإقامة العلاقات بكافة أشكالها وأنواعها ، وعندئذ كانت الفرصة مهيأة لنشر الإسلام عبر الصلات والارتباطات ، وكان طلب العلم والسعي من أجل تحصيله من الفضائل التي أينعت في هذه الفترة الزاهرة من تاريخ الدولة الإسلامية .

إن ما تقدم من مجهودات من أجل ربط أجزاء الدولة بطرق مواصلات لعلها الأعظم والأمثل في زمانها ، قد انعكس بشكل مباشر وفعال على بروز الأشكال والنماذج الحضارية والثقافية ذات القواسم المشتركة في كافة أرجاء الدولة ، وكان من أهم تلك الأشكال

والنماذج العلوم الطبيعية وتطبيقاتها ، وفي ثنايا ذلك نشط طلب العلم ، وجمحت الرغبة في تحصيله وانبرى لتشجيعه الحكام والمتنفذون والمياسير ، وبات في مقدمة اهتمامات المسلمين ، حيث كان في مقدور كل مسلم أن ينتقل إلى أي مكان ، ويقيم فيه لتحصيل العلم والتبحر في المعارف ، وكانت كل بلاد المسلمين في ذلك سواء .

إلا أنه بعد أن تبدلت الأحوال ، وتفككت أوصال الدولة بفعل الهجمة المغولية ، وتحولت إلى أجزاء أو ولايات أو أقاليم شبه مستقلة ، وأصبح من الصعب التنقل من مكان إلى آخر ، وانطمرت بؤر العلم الزاهرة إلاّ اللمم ، وأصبحت النزاعات والصراعات هي السمة الغالبة للعلاقات بين الولايات والأقاليم الإسلامية ، عندئذ باتت طرق التجارة والقوافل القديمة مقطوعة وموحشة وغير آمنة ، وأمست رحلة طلب العلم والبحث عن المعرفة محفوفة بالمخاطر وغير مأمونة العواقب ، وتأثرت فضيلة طلب العلم وتحصيله أيما تأثر .

وقد يبدو منطقيا القول بأن السيطرة العثمانية على العالم الإسلامي قد جبّت ما سلف ، وقصدت إلى لم شعث أجزائه ، وإعادة دمجه وتكتيله مرة أخرى ، إلا أن ما حدث كان مخالفاً لذلك الافتراض المنطقي ، فقد تعمقت الفواصل بين أجزاء العالم الإسلامي ، وتضخمت الحواجز ، ولم يهتم العثمانيون إلا بالحواضر التركية ، وبترسيخ المفردات الثقافية المعبرة عن القومية التركية مثل اللغة والتراث الباهت الهزيل لتاريخ الغز ، وانعكس ذلك على طلب العلم ، حيث عم الإحباط كافة العناصر والأعراق التي انضوت تحت السيطرة العثمانية .

إن ما تقدم يعني أن الحواجز الجغرافية والموانع الطبيعية قد تم إزالتها وتذليلها بفعل السيطرة التركية على معظم أجزاء العالم الإسلامي ، ولكن الأتراك أنفسهم قد خلقوا نوعاً آخر من الحواجز والموانع قد يكون أعمق وأعتى وهي حواجز الاغتراب الفكري وموانع

التشرذم الثقافي ، والرغبة في السيادة القومية والريادة الحضارية ، ولم يستفد المسلمون من التواصل المزعوم الذي افتعله العثمانيون .

كذلك استمر التواصل مشكلة عويصة بين أجزاء العالم الإسلامي الواقعة تحت السيطرة العثمانية والأخرى المستقلة ، وقد خلق ذلك اختلافاً في الأنظمة السائدة على الجانبين سواء السياسية أو الاقتصادية أو الإدارية وحتى الثقافية بالرغم من التناظر أو التماثل النهائي في الأنظمة الاجتماعية ، كما كرس التوجهات الرامية نحو الإقليمية والعنصرية ، وقضى على ما كان سائداً من قواسم مشتركة وتجانس ثقافي وحضاري ، وأصبح لزاماً على أبناء كل ولاية أن يطلبوا العلم بداخلها ، ويسعون إلى تحصيله في ربوعها ، وانعدمت الآمال في الارتحال من أجل العلم كما كان الحال من قبل .

ثالثاً : طبيعة العلوم محل اهتمام المسلمين :

كانت علاقة التعلم قوية إلى مدى بعيد بطبيعة العلوم محل اهتمام المسلمين في فترة التفكك والانهيار ، فقد اتسمت العلوم بالعديد من السمات جعلتها تختلف في طبيعتها عنها في فترة الازدهار والإيناع ، فقد أصبحت العلوم مكررة ، وقل فيها بل ندر الإبداع والاجتهاد ، كذلك اتسمت بعدم التركيز والاتساق والتواصل الموضوعي إلى غيرها من السمات ، وكان لذلك تأثيره الواضح على طلب العلم وتحصيله ، فالتعلم ظهرت عليه هو الآخر هذه السمات ، فبدا نحيلاً لا يُقبل عليه إلا القلة .

فعندما سيطر المغول على مناطق شاسعة من العالم الإسلامي أصابوا المؤسسات التعليمية في تلك المناطق بالخراب والدمار ، فتوقفت عن القيام بدورها ، مما أدى إلى تدهور مستوى التعلم ، والذي انعكس بدوره على طبيعة العلوم محل اهتمام المسلمين في تلك الآونة ، فقد

ضعف محتوى تلك العلوم وبدت ضحلة وسطحية وخالية من الابتكار والإضافة المجدية ، وهذا أصاب طالبي العلم بالإحباط والاقتصار على المكرر .

وحتى المناطق التي ظلت بمنأى عن السيطرة المغولية لم تحافظ العلوم فيها على مستواها الذي كان من التواصل والاتساق والكثافة ، وقد أثر ذلك بالتتابع على طلب العلم وتحصيله وفي ذات الوقت على طبيعة الأشخاص الذين يجعلونه محوراً لاهتمامهم ، والحاصل أن العلم والرغبة في تحصيله في المناطق التي لم يصل إليها المغول وهي مصر والشام وبلاد المغرب الإسلامي قد أصيبا بهبوط عام ناتج عن الانحدار الذي حل بالعالم الإسلامي في الشرق ، وبدأ بانهيار حاضرة الدولة الإسلامية في بغداد .

وعندما خضع العالم الإسلامي في معظمه للسيطرة العثمانية ، تأثر كذلك طلب العلم والرغبة في تحصيله ، فالعثمانيون اهتموا بالعلم في حواضرهم وكان الإقبال على تحصيل العلم في تلك الحواضر ملموساً ، ولكن كان المقصد من ذلك إحياء الطابع القومي التركي ، وترسيخ الذات الحضارية للشعب التركي ، وإظهاره بمظهر الجدير بالسيطرة والريادة على القوميات الأخرى ، إلا أنه يلاحظ أن العلوم الطبيعية لم تلق ترحيباً وقبولاً سمحاً لدى الباب العالي الذي بدا ملتزماً بالمذهب السني إلى درجة التزمت ! وقد أصاب ذلك العلم وطالبيه في مقتل ، وسيئ فهم العلم ، وتقاعس المسلمون عن طلبه ، وانصرف في جله إلى علم الدين ، الذي ظهر هو الآخر حائراً بين الالتزام بالمكرر الموروث ، والطامح نحو ترسيخ الطابع القومي التركي وإضفائه على العلم الديني ، وهكذا كان مردود تلك الإرهاصات سلبياً غير مواتٍ على طلب العلم وتحصيله حتى في الحواضر التركية ذاتها ، وسوف نتناول ذلك تفصيلاً في المجلد الخامس من هذا العمل الموسوعي .

وفي هذا السياق حدثت مفارقة جديرة بالإيضاح مؤداها أن المناطق التي نجت من السيطرة المغولية في الغرب الإسلامي وهي : الشام ومصر والمغرب العربي والمناطق الإسلامية في

إفريقيا والمناطق الإسلامية في الشرق البعيد (الأقصى) قد خضعت للسيطرة العثمانية إلا القليل منها ، وقد أدى خضوعها هذا إلى أن تفقد كثيراً من المزايا القليلة التي استفادت منها بسبب إفلاتها من هجمة المغول ، وتعرضت العلوم فيها لإخفاق نابع من السياسات العثمانية ذاتها ، والتي قد بدأتها في حواضرها ذات الأصل التركي ، وقد قاد ذلك الإخفاق إلى تقاعس في طلب العلوم في الحواضر التي خضعت للسيطرة العثمانية ، وكان ذلك شأن الشام ومصر وغيرها من المدن الإسلامية الأخرى .

وبالنسبة إلى المناطق التي لم تخضع للسيطرة العثمانية فقد ظلت فيها العلوم حبيسة حدودها الإقليمية ، ولم تحظ بالتطوير الذي كان ينبغي لها ، فالمناطق التي كان يُتوقع أن تمد هذه المناطق بالتطوير قد خضعت للسيطرة العثمانية ، وتلك السيطرة قد أفرزت سياسات مناهضة للعلم الطبيعي وحطت من قدره ، ومن ثم فقد عانت مناطق مثل المغرب العربي من العزلة على مدى فترة التفكك والانهيار بحقبتيها التي شملت الهجمة المغولية والسيطرة العثمانية ، واستتبع ذلك أن كان طلب العلم يتم في جو من الإحباط والتقاعس ، فتخلف العلم الطبيعي وندر طالبوه ، ثم ركد العلم الديني ، ولم يعد يواكب التطورات والمستجدات .

رابعاً : طبيعة وسائل التعليم المختلفة :

يقصد بوسائل التعليم الأدوات المختلفة التي عن طريقها يتم نشر العلم وتحصيله ، وقد سبق لنا أن أوضحنا أن تلك الأدوات تختلف من عصر إلى آخر ، إما بالتطور والتقدم ، وإما بالتخلف والتدهور ، كذلك قد يتم اكتشاف أو إدخال وسائل وأدوات جديدة غير موجودة ، أو الاستغناء عن وسائل قديمة وانطمارها ، وقد تطورت أدوات ووسائل التعليم داخل الدولة الإسلامية منذ نشأتها ، ومرت بمراحل واكبت تطور وازدهار الحضارة

والثقافة الإسلامية ، ومن ثم نشأ ارتباط شرطي بين ازدهار الحضارة الإسلامية وإيناع الثقافة وبين تطور وسائل وأدوات التعليم والتعلم ، ولعل متابعة تاريخ العلم والتعلم والتعليم في الدولة الإسلامية لتقيد الدليل على صحة وصدق هذا التحليل ، وقد شهدت فترة التفكك والانهيار انحداراً واضمحلالاً في وسائل التعليم المختلفة ، وقد ترتب على ذلك صعوبة تلقي العلم وتعسر تحصيله ، وسوف نفصل هذه العلاقة بين التعلم ووسائل التعليم في المبحث التالي .

خامساً : أهداف طلب العلم وغاياته :

من المسائل التي تؤثر تأثيراً قوياً على عملية التعلم أهداف وغايات طلب العلم ، وتتوزع أهداف وغايات طلب العلم على ثلاثة مستويات : المستوى الأول : الأهداف والغايات الشخصية الذاتية ، المستوى الثاني : الأهداف والغايات الجماعية الاجتماعية ، المستوى الثالث : الأهداف والغايات الإنسانية ، ويلاحظ أنه كلما اتسعت دائرة الأهداف والغايات كلما كان تلقي العلم وتحصيله أكثر جدوى وأعم نفعاً .

وعند سحب التحليل المتقدم على تلقي العلم وتحصيله في الدولة الإسلامية وحضارتها ، نخلص إلى أن عصور الازدهار الحضاري والإيناع الثقافي وما سار في ركابها من تقدم وسائل تلقي العلم وتحصيله ، قد ارتبطت باتساع دائرة الأهداف والغايات المرتجاة من وراء ذينك التلقي والتحصيل ففي عصور الازدهار الحضاري والإيناع الثقافي اللذين شهدتهما الحضارة الإسلامية ، كانت أهداف تلقي العلم وتحصيله أهدافاً جماعية اجتماعية تخص جميع مجتمعات المسلمين على اختلاف أماكنها ، وحتى أزمنتها ، بل تطورت إلى ما هو أوسع من ذلك ، فغدت تلك الأهداف أهداف إنسانية تهم المجتمع الإنساني على اختلاف

عناصره وأعراقه ، ومن ثم لعبت العلوم الإنسانية دورها الفعـال في تـشييد صـرح الحـضارة الإنسانية التي يعيشها العالم الآن .

أما في عصر التفكك والانهيار فقد ضاقت أهداف تلقي العلم وغاياته إلى أحـرج نطاقاتهـا ، حيث لم تعد تتجاوز الأهداف والغايات الشخـصية الذاتيـة أو في أحـسن الأحـوال تخـص مجتمع بذاته أو إقليماً بعينه ، ويرتبط بذلك أن العلم ووسائل تلقيه وتحصيله لم تعـد كمـا كانت في السابق مهمة أو وظيفة المجتمــع بكافــة فئاته ومؤسســاته وأنظمته ، وهـذا مـا أطلقنا عليــه سلفاً " السمة الاجتماعية للعلم " ، ويمكن القول أنه في تلك العصور قد تخل المجتمع المسلم ولو جزئياً عن مهمته في العلم والتعلم .

المبحث الرابع

التعلـــيم

التعليم قد تأثر هو الآخر بسمات وخصائص مرحلة التفكك والانهيار ، والتعليم هو العملية الفكرية الخاصة بتشكيل الوعي والإدراك عمداً وقصداً ، وهي العملية المقابلة لعملية الـتعلم ، فالأخيرة إن هي إلا رغبة وسعي ومبادرة نحو تحـصيل العلم وتجميعـه للاسـتفادة منـه واستثماره في أمور شخصية ذاتية أو جماعية اجتماعية ، فكريـة و سـلوكية ، أمـا التعلـيم فهـو العلاقـة المقابلـة حيـث يتـولى المجتمـع أو مؤسـسات خاصـة فيـه بـشكل رسمـي أو اجتماعي مهام تحقيق رغبـات أفـراده في تحـصيل العلـم وتجميعـه ، وذلـك عـبر وسـائل وأدوات وأنظمـة وتنظيمـات ذات طبيعـة خاصـة ، فـالتعلم إذاً رغبـة وطلـب ، والتعلـيم اسـتجابة وتلبيـة ، والقاسـم المـشترك بـين العمليـتين : الـتعلم والتعلـيم ، هـو العمليتـان الفكريتان : الوعي والإدراك ، فالوعي يعني الفهم والحفظ وسـلامة الإدراك ، في حـين أن الإدراك يعني إعمال قوى العقل وتفعيل قدرات الذهن من أجل النفـاذ إلى حقيقـة الأشـياء وفقه طبيعتها .

ولقد تناولنا عملية التعلم في المجتمعات الإسلامية خلال فترة التفكك والانهيـار ، وأبرزنـا من خلال ذلك التناول كيف انحدر التعلم هو الآخـر وهـبط مـستواه ! ، وفي هـذا المبحـث نتناول عملية التعليم في تلك الفترة ، وذلك من خلال الأفكار التالية :

أولاً : خصائص التعليم في فترة التفكك والانهيار :

كان التعليم مثله مثل كل من العلم والتعلم ، حمل نفس خصائص فترة التفكك والانهيار ، تلك الخصائص التي صبغت الحياة الفكرية إجمالاً ، والتي سبق التعرض لها مـن قبـل ، إلا أن التعليم بشكل خاص قد استقبل تلك الخـصائص وتفاعـل معهـا ثـم شـكل وضـعيته

الجديدة التي ظلت ملازمة له حتى يومنا هذا ، وقد مرت تلك الوضعية بحالتين : الأولى : بدأت منذ الخلافة في بغداد وحتى نهاية القرن الثامن عشر ، ويمكن تسميتها بفترة العطاء المحدود والاعتماد على الرصيد الموروث ، والثانية : بدأت منذ بداية القرن التاسع عشر ، وظلت حتى وقتنا الراهن ، ويمكن تسميتها بفترة فقدان الذات والتبعية ، وسوف نقصر تحليلنا فيما يتعلق بخصائص التعليم في فترة التفكك والانهيار على الحالة الأولى فقط ، ويمكن تناول تلك الخصائص موزعة على النحو التالي :

❖ **خصائص التعليم في فترة التفكك :**

فترة التفكك تعتبر فترة الصدمة الأولى التي صاحبت الهجمة المغولية الشرسة التي نالت أجزاء العالم الإسلامي بالتدمير والتخريب ، وكان لذلك أعمق الأثر على التعليم في تلك الأجزاء بمفاهيمه الفكرية ومؤسساته النظامية والتنظيمية ، ويمكننا أن نتناول خصائص التعليم في تلك الفترة موزعين إياها على نطاقين ، نطاق المناطق التي خضعت للسيطرة المغولية من العالم الإسلامي ، ثم نطاق المناطق التي ظلت بمنأى عن تلك السيطرة :

– خصائص التعليم في المناطق التي خضعت للسيطرة المغولية المباشرة [المشرق الإسلامي] :

إن الازدهار الذي اتسم به التعليم في العصر العباسي سرعان ما انطفأ بسبب الهجوم المغولي المدمر الذي أثر على العملية التعليمية ومن ثم أكسبها سمات وخصائص أخرى ، ومن تلك السمات والخصائص ما يلي :

○ تخلي المجتمع عن دوره في العملية التعليمية :

كان للمجتمع في عهود الازدهار الحضاري والإيناع الثقافي دوراً حيّوي في عملية التعليم ، حيث كان يتولى من جانبه ابتكار الأدوات والوسائل ، ومساندة السياسات التي تطبقها

الدولة من أجل تفعيل التعليم وتحصيل فوائده وثماره ، إلا أنه بعد حدوث الاجتياح المغولي ، وسيطرة المغول على مناطق شاسعة من المشرق الإسلامي ، وتخريب مؤسسات التعليم ، وتدمير معظم البُنى التحتية للنظام التعليمي ، بدأ المجتمع المسلم يتخلى تدريجياً عن دوره ووظيفته ومسئوليته تجاه التعليم التي عهدها من قبل في عصوره الزاهرة ، وكان من شأن ذلك أن يفرض على الساحة الاجتماعية قيماً جديدة ، حيث حلت الجهود الفردية والاجتهادات الذاتية محل الجهود الجماعية التي تعكس قيم التكافل الاجتماعي والعدالة الاجتماعية في أبها صورها .

○ تدهور وتخريب الوسائل والأدوات :

كان للهجمة المغولية طبيعتها الخاصة ، حيث اتسمت بالهمجية التي تعني التخلف والفوضى ، وما يترتب عليهما من عدم تقدير العواقب وحساب السلوك ، وبالقسوة التي تعني القتل والتدمير والتخريب دون رحمة ، وكانت النتيجة النهائية لكل ذلك تدمير وتخريب كافة المؤسسات والبُنى التي كانت تمثل معظم التجهيزات الأساسية للمجتمع في ذلك الوقت ، وكانت الوسائل والأدوات التعليمية من أهم تلك التجهيزات ، فقد اختفت حِلق الدرس في المساجد ، وتم تدمير المدارس وتخريبها ، وتم تخريب المكتبات ونهبها والعبث بمحتوياتها التي كانت في معظمها من أندر وأنفس النتاجات العلمية والأدبية ، وعليه فقد توقفت تلك الوسائل عن القيام بدورها في نشر العلم وتطويره ، مما أدى إلى تدهوره وتوقفه عند حدود معينة لم يتجاوزها بسبب استمرار السيطرة المغولية .

○ انحسار الأهداف والغايات :

ترتب على ما سبق أن تدهورت أهداف وغايات التعليم ، حيث لم يعد يتجاوز مبادئ العلوم والمعارف ، وأبسطها فهماً وأقلها عمقاً ، وانتهى الأمر بالعلوم الإسلامية والتعليم

المرتبط بها عند تكرار السابق ونقل المعلوم ، واختفت الطموحات في إضافة الجديد وإعادة آفاق الاجتهاد رحبة واسعة كما كانت من قبل في أيام الازدهار الحضاري والإيناع الثقافي .

لقد ضاقت الأهداف والغايات الخاصة بالتعليم في المجتمعات الإسلامية التي مُنيت بالهجمة المغولية المدمرة ، وانحصرت في الأهداف والغايات الشخصية الذاتية التي لا تتجاوز نطاق الطموح الشخصي للأفراد الذين يتولون مهمة نشر العلم بوسائل صارت متخلفة وبدائية .

ولئن قُدر لأهداف التعليم وغايته أن تتسع فهي لا تكاد تتجاوز حدود الأقاليم والولايات التي بدأت ترتسم وفق معايير إقليمية عنصرية مقسمة العالم الإسلامي إلى وحدات مستقلة على أسس قومية .

وكان أن برزت في تلك الظروف القاهرة ظاهرة ندرة العطاء العلمي ، واقترنت بها ظاهرة أخرى وهي ارتباط كل عصر من العصور أو منطقة من المناطق باسم مفكر أو عالم من العلماء المبرزين الذين قُدر لهم مواصلة العطاء في مجالات محددة .

– خصائص التعليم في المناطق التي لم تخضع للسيطرة المغولية :

هناك تساؤل يطرح نفسه في هذا السياق : وهو لماذا تدهور مستوى التعليم وانحسرت آثاره ونتائجه في الدويلات الإسلامية التي ظلت بمنأى عن الهجمة المغولية بالرغم من أنها لم تتعرض لما تعرضت له مناطق المشرق الإسلامي من تدمير وتخريب ؟ إن الإجابة على هذا التساؤل تصحب في ثناياها خصائص التعليم في المناطق التي لم تتعرض للهجمة المغولية ولم تخضع لسيطرة المغول :

○ إن انهيار مركز الدولة وتخريب مقر الخلافة كانت له دلالته النفسية المحبطة والمخيبة للآمال من جراء توقف أهم مركز للإشعاع الحضاري والثقافي والعلمي والفكري وهو بغداد ،

كان يبث الإشعاع إلي كافة الأجزاء والأقاليم علي امتداد مساحة الدولة الإسلامية المترامية الأطراف .

○ لقد ترتب علي الغزو المغولي المدمر والذي كان بمثابة الزلزال الذي هز كيان أبناء الأمة النفسي والفكري قيام نوع من العزلة الناجمة عن تقسيم مناطق العالم الإسلامي وتوزيعها بين مناطق خاضعة للسيطرة المغولية ومعزولة بحكم تلك السيطرة الرسمية ، ومناطق غير خاضعة ولكنها معزولة فعلياً ، حيث لا يصلها الإشعاع الذي كان يصلها من قبل من مركز الخلافة في بغداد حيث الازدهار الحضاري والإيناع الثقافي .

○ إضافة إلى ما تقدم كانت تلك المناطق معزولة سياسياً ومذهبياً بفعل الانكفاء على مذاهب دينية بذاتها مثل المذهب الشيعي الفاطمي في المغرب العربي ومصر ، وقد ترتب على ذلك أن ارتبط التعليم بالمذهبية السياسية والدينية ، وأثر منذ وقت مبكر على تطوره ونموه اللذين زادتهما الهجمة المغولية تردياً وانحطاطاً .

○ كانت مؤسسات التعليم وأدواته وأنظمته في هذه المناطق تلقى الدعم من الحكام وأولي الأمر، ولكنها نُكبت في أهدافها وطموحاتها التي أصبحت محدودة نتيجة ما قدمنا ، فاعتمدت على النقل والتكرار ، وقلت الابتكارات والاجتهادات .

○ بالرغم مما تقدم ظلت هذه المناطق تفرز نتاجات فكرية وعلمية ، كانت محدودة ولكنها تمثل علامة تؤشر إلى استمرار القدرة على العطاء .

❖ خصائص التعليم في فترة الانهيار :

قبل أن يفيق العالم الإسلامي من صدمة الهجمة المغولية المرعبة ويبرأ من تداعياتها المزمنة والثقيلة ، إبتُلي بالسيطرة العثمانية التي زادت الطين بلة وأعقبت التفكك والتشتت والدمار والتخريب بانهيار كامل في كافة النظم والتنظيمات والأجهزة والمؤسسات التي

كانت قائمة في دويلات العالم الإسلامي التي ظلت بمنأى عن السيطرة المغولية ، وقد امتد ذلك الانهيار إلى مؤسسات التعليم وأدواته التي اتسمت بالآتي :

– في المناطق التي خضعت للسيطرة العثمانية :

○ بدأ التعليم مرحلة جديدة اتسمت بالتوجيه من أعلى حيث فرض العثمانيون نظماً تعليمية مصحوبة بمؤسسات وأدوات تابعة لها تحمل سمات وخصائص ذات صبغة تركية عثمانية .

○ ما تقدم خلق حالة من التذبذب في هوية التعليم بين الهوية الوطنية أو القومية للأقاليم والولايات الخاضعة للسيطرة العثمانية والهوية التركية التي أراد العثمانيون ترسيخها ، وقد أصاب ذلك النظم التعليمية في مقتل ، حيث أفرز نظماً تعليمية باهتة عديمة الهوية لا إلى الوطنية المحلية ولا إلى التركية .

○ ترتب على ما سبق تخلي النظم التعليمية في الولايات الإسلامية الخاضعة للسيطرة العثمانية عن الهوية الإسلامية الخالصة ، إلا أن الأتراك استماتوا من أجل إضفاء الهوية الإسلامية التي بدت شكلية .

○ لقد كان من التطورات المهمة التي توقع المؤرخون أن يكون لها تأثير بليغ على النظم التعليمية دخول المطبعة الحديثة التي نُقلت من أوربا ، ولكن تأثيراتها كانت سلبية ، إذ وقفت من السلطات الدينية التركية موقفاً رافضاً ، أعلن عن عدم فهمها لطبيعة الدين الإسلامي السمحة ورؤياه العميقة المتجاوبة مع العلم والتقدم العلمي ، وقد قاد ذلك إلى تخلف النظم التعليمية في الدويلات الإسلامية التي خضعت للسيطرة العثمانية .

- في المناطق التي لم تخضع للسيطرة العثمانية :

المناطق التي لم تخضع للسيطرة العثمانية لم تكن أحسن حالاً فيما يخص نظمها التعليمية خلال فترة الانهيار ، حيث أن هذه النظم ظلت أسيرة التأثر بأوضاع وظروف محلية وإقليمية فرضت عليها التخلف وعدم القدرة على مواصلة العطاء الذي شهدته مناطق العالم الإسلامي في عصوره الزاهرة ، وتكمن هذه الظروف المحلية والإقليمية فيما يلي :

○ تمثلت الظروف والأوضاع المحلية في حالة العزلة والانكفاء على الذات التي فرضتها بعض المناطق على نفسها في إطار النزعات العنصرية والنعرات العرقية ودعاوى المذهبية الدينية والسياسية ، وتجسد ذلك بشكل كلي في إيران الصفويين ومن جاء بعدهم ، وبشكل جزئي في المغرب العربي (مراكش) .

○ ثم تعينت الظروف والأوضاع الإقليمية في عدم قدرة النظم التعليمية في المناطق المذكورة من تطوير نفسها ذاتياً ، وكذا في إخفاقها في استيراد عوامل التطوير من مناطق العالم الإسلامي الخاضعة للسيطرة العثمانية ، حيث كانت تلك المناطق تفتقر هي ذاتها إلى التطوير ، وتعاني من التخلف والتدهور تحت تلك السيطرة .

ثانياً : أدوات التعليم ووسائله في فترة التفكك والانهيار :

نتحول في هذه الجزئية إلى تناول أدوات التعليم ووسائله في فترة التفكك والانهيار ، والمحلل لتاريخ التعليم في هذه الفترة يمكن أن يكتشف أنه لم يتم التوصل إلى أدوات ووسائل مبتكرة أو حديثة ، ولكن ما حدث هو توقف بعض الوسائل والأدوات التي كانت قائمة نتيجة ما أصابها من التخريب وما لحقها من التدمير لقاء الهجوم المغولي ، في حين ظلت بعض الوسائل والأدوات الأخرى تعمل بكفاءة أقل وشكل اختلف عن ذي قبل ، وذلك في عصر متأخر من السيطرة المغولية ، حيث تمكن الإسلام من استيعاب المغول الذين

أسلموا وأصبحوا دعاة للإسلام ، ففعّلوا بعض الأدوات ولكنها عملت بشكل يبث العلم بصورة مشوشة ، وكان ذلك هو الإسلام المغولي ، أما في عصر السيطرة العثمانية ، فتم تفعيل العديد من الوسائل ، ولكن أيضاً من خلال الأساليب المشبعة بالصبغة التركية لغةً وأنماطاً وقوانين ، وسوف نزيد ذلك إيضاحاً بعد قليل ، ولعله من المجدي في هذا المقام ، وطلباً لدقة التحليل لابد لدراسة وسائل وأدوات التعليم في العالم الإسلامي خلال فترة التفكك والانهيار من تقسيم هذه الفترة إلى مراحل زمنية متعاقبة ، حيث اتسمت كل مرحلة بخصائص سياسية واقتصادية وإدارية معينة تركت تأثيراتها على أنظمة التعليم ووسائله في جميع أنحاء العالم الإسلامي :

❖ **فترة التفكك :**

لقد مر التعليم في المجتمعات الإسلامية بأسوأ ظروفه إبّان الاجتياح المغولي لمناطق المشرق الإسلامي ، إلا أن حدة تلك الظروف وترديها بدأت تخف رويداً ـــ رويداً ، ووصلت إلى أمثلها عندما ذاب المغول في عالم الإسلام الزاخر بالحركة والنشاط ، وتمكن الإسلام العظيم كدأبه دوماً من أن يصهر هؤلاء البدو الرحل الجفاه في بوتقته ويحولهم بقوته الخارقة إلى دعاة لـه ، عندئذ أفرز المغول أنظمتهم في كافة نواحي الحياة ومنها التعليم ، وسوف نوضح ذلك من خلال الآتي :

– **المناطق التي خضعت للسيطرة المغولية :**

اجتاح المغول الشرق الإسلامي في هجمة لعلها الأشرس والأعتى في زمانها وقد أتت تلك الهجمــة على الأخضر واليابس ، ودمرت في سبيلها كل مشيد ، وخربت كل عامر ، وقد أثر الاجتياح المغولي على التعليم وأنظمته ووسائله في المناطق التي اجتاحها ، وقد توزع هذا التأثير على فترتين زمنيتين متعاقبتين :

○ فترة السيطرة المغولية الأولى : لقد جاء الغزو المغولي للعالم الإسلامي على مراحل ، وفي كل مرحلة كان يهزم جزءً من الأراضي الإسلامية :

□ المرحلة الأولى : تمثلت المرحلة الأولى في زعامة جنكيز خان القائد الأعظم الأول للمغول ، المتوفى في عام ١٢٢٧ م ، ويعتبر هذا الرجل هو الذي جمع شعب المغول في شمال الصين ، ثم تحرك بالقبائل المغولية في اتجاه القوقاز والفولجا ، وكان ذلك التحرك كالإعصار الذي دمر في طريقه كل شئ .

□ المرحلة الثانية : وهي مرحلة آجوداي الذي أكمل مسيرة جنكيز خان المدمرة ، وفي هذه المرحلة تم غزو شبه جزيرة كوريا وأوربا الشرقية وبولندا والمجر والأدرياتيك ، وتم الاستيلاء على إيران في عام ٦٢٨ هـ / ١٢٣١ م من جلال الدين منجبرتي آل خوارزم آخر قادة الخوارزميين .

□ المرحلة الثالثة : وهي مرحلة قوبيلاي وشقيقه هولاكو ولعلها أهم المراحل وأكثرها دموية وتأثيراً على كل من : العالم الإسلامي ، الذي قسمته إلى قسمين : قسم مدمر والآخر مغزول ، والمغول أنفسهم حيث تم إيقاف زحفهم وهزيمتهم لأول مرة في عين جالوت ، وهذه المرحلة بدأها قوبيلاي بالسيطرة على الصين بأكملها واليابان وجنوب شرق آسيا ، ثم أكملها هولاكو بالاتجاه غرباً حيث دمر بغداد في عام ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م ، وأهلك الخليفة وأهله في مدة أسبوع من القتل والنهب ، ولم يعد بعد ذلك أثر لعاصمة الإسلام واستمر تقدم المغول غرباً حتى استولوا على دمشق في عام ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م ، وعزموا على الانقضاض على الغرب الإسلامي ، ولكن المماليك أوقفوا ذلك الزحف المدمر خارج مصر في عين جالوت .

□ المرحلة الرابعة : وهي مرحلة تيمورلنك الذي اتجه من أواسط روسيا إلى شمال الهند ، كما اتجه مرة ثانية إلى سوريا في عام ١٤٠٠ م ، وكانت هذه المرحلة هي الأخرى من المراحل الأشد هلعاً وتدميراً .

تُرى كيف يمكن في هذا الجو المشحون بالرعب والخراب الحديث عن التعليم وأنظمته ومؤسساته ، وعن البُنى التحتية أو التجهيزات الأساسية لأي مجتمع من المجتمعات الإسلامية مر عليه هؤلاء الغزاة ! .

إن المشرق الإسلامي هو الذي تلقى هذه الصدمة الأولى ، وتحمل آثارها المرهقة ، وبالذات إيران ، إلا أن طبيعة النظام السياسي أو طريقة الحكم التي فرضها المغول على العالم الإسلامي الذي اكتسحوا جانبه الشرقي لتعطينا فكرة تقربنا من التحليل الصحيح لوضعية مؤسسات التعليم وأدواته في مناطق العالم الإسلامي التي وقعت تحت سيطرة المغول .

لقد ارتكز حكم المغول على سيادة الإمبراطور (الخان الأعظم) المقيم في بكين والذي كان يسند الحكم إلى ممثليه من الأمراء (الخانات) وإذا تعمقنا أكثر في نظام حكم المغول فسنجد أن هؤلاء الغزاة لم يكونوا يهتمون بالمسائل الدينية أي الإسلام كدين وكنظام اجتماعي ، بل كان كل اهتمامهم منصباً على النواحي السياسية والاقتصادية ، وسبب ذلك هو أنهم لم يأتوا معهم بدين جديد يعملون على فرضه على الشعوب المفتوحة ، بل أنهم جاءوا من أجل السيطرة السياسية والتجارية ، ويدلل على ذلك بشكل أوضح ما حدث بعد فترة ، إذ دخلوا في الإسلام ، وحملوا لواء الدعوة إليه ! .

لقد كان موقف المغول في البداية من الإسلام هو موقف عدم الاكتراث وليس موقف التسامح ، ثم أنهم عندما لم يتمكنوا من حصر الإسلام واستيعابه كدين " عالمي إنساني جماهيري " اضطروا إلى أن يقبلوا به ، حيث لم يجد من ينازعه ، فسوف يساعدهم وفق

رؤيتهم في حكم البلاد ، وهذا هو نفسه ما انتهى بهم إلى الإسلام ، وهو ما سنتحدث عنه بعد قليل .

كان من شأن ما تقدم من وتيرة حكم المغول هو عدم الاكتراث في المرحلة الأولى بالشئون الداخلية : الدينية والاجتماعية والأخلاقية والتي يندرج ضمنها النظام التعليمي في المجتمعات الإسلامية بما في ذلك أدواته ووسائله وعليه ظل التعليم وأدواته ووسائله شأناً داخلياً يعاني من التخريب والتدمير ، ويفرض على تلك المجتمعات أن تتلمس السبل الكفيلة بإصلاحه ، ومن ثم كان السعي نحو إصلاح الوسائل والأدوات الخاصة بالتعليم والتي ظل بعضها يعمل في ظروف قاسية مثل الكتاتيب والمساجد وبعض المدارس .

○ فترة ذوبان المغول في العالم الإسلامي وإسلامهم :

الفترة التالية هي فترة ذوبان المغول في عالم الإسلام ودخولهم في الدين الإسلامي وحملهم للواء الدعوة إليه ، وكان غازان الخليفة السادس لهولاكو هو أول من اعتنق الإسلام (٦٩٤ هـ-١٢٩٥م / ٧٠٣ هـ- ١٣٠٤م) ومن ذلك التاريخ أصبح المغول جزءً من التاريخ الإسلامي محسوباً عليه وليس ضده .

وقبل ذلك بفترة كان المغول أولئك البدو الرحل قد شرعوا في الاستقرار ، وألفوا حياة المدن والعمران ، وهكذا سهل على الإسلام امتصاصهم وهضمهم وصهرهم في بوتقته ، ومنذ دخول المغول للإسلام وهم يعلنون عن تبنيهم للمذهب الشيعي الذي وجدوه في إيران والذي عمّق من عداوتهم للسنية المملوكية في مصر ، ونعلم أن علاقة المغول بالإسلام لم تتوقف عند هذا الحد بل تجاوزته إلى الدعوة إليه من خلال الغزو والسلب والنهب كعادتهم ، وذلك ما فعله تيمورلنك ، المهم أن المغول كانوا قد أقاموا منذ سيطرتهم على المشرق الإسلامي عدة إيلخانيات : إيلخانية فارس التي أسسها هولاكو وحكمها من أذربيجان ،

وكانت تمتد من مشارف السند إلى نهر أموداريا ، ومن الفرات إلى جو رجيا ، ثم إيلخانية دياغتاي ، وتمتد من أفغانستان غرباً حتى الطاي شرقاً ، وأخيراً إيلخانية كيتشاق أو عشيرة الذهب ، كانت عاصمتها سراي جنوب الفولجا ، وتشمل ما يقارب مساحة روسيا الحالية ، وفي عهد تيمورلنك وحّد هذه الإيلخانيات الثلاث تحت سيطرته وكوّن إمبراطورية شاسعة ضمت إلى جانب تلك الإيلخانيات مساحات أخرى كانت حدودها من الشمال تمس موسكو ومن الجنوب تصل إلى الهند ومن الغرب دمشق وآسيا الصغرى أما في الشرق فكانت الأراضي الصينية الواسعة ، وقد اتخذ من سمرقند عاصمة لهذه الإمبراطورية العملاقة .

في إطار هذه النظم والتنظيمات المدنية السياسية والإدارية التي أقامها المغول ظهر النظام التعليمي بمؤسساته ووسائله وأدواته ، إلا أن كل هذه الحلقات المرتبطة ببعضها قد أخذت طريقاً ونمطاً قد يكون مختلفين عن التعليم الأصولي المعروف في العصور الإسلامية الزاهرة في عهود : النبوة الزاهر والخلافة الراشدة والأمويين والعباسيين ، وهذا الاختلاف أو إن شئنا القول الخروج كان راجعاً إلى إسلام المغول أنفسهم ، ذلك الإسلام الذي كانت تنقصه الروح ويعوزه الفهم العميق لأصوله ومنابعه والتفاني والإخلاص له وللدعوة إليه ، ومن ثم جاءت إفرازات النظم التعليمية في مسائل وأمور غير جوهرية وربما ينظر إليها الإسلام بحذر شديد وتحفظ مثل : الرسم والنحت والزخرفة ، أما بقية المخرجات فكانت نادرة وسطحية ، ولكن يمكن القول أن النادر منها كان مهماً في الحياة العملية مثل الفلك وبعض العلوم الطبيعية الأخرى التي سنأتي على تفصيلها في المبحث التالي .

وعند الحديث عن وسائل التعليم وأدواته في المشرق الإسلامي الذي ذاب فيه المغول وأصبحوا جزءً من تكوينه ، فيمكن القول بأن الكتاتيب كانت معروفة كونها من تراث النظام التعليمي الإسلامي قبل مجيء المغول ، وهذا يؤشر إلى حدوث ردة تمكنت خلالها

المجتمعات الإسلامية من استدعاء موروثاتها وقد سمح المغول بذلك ترتيباً على عدم اهتمامهم بتلك الموروثات من ناحية ، وإظهاراً لتعاطفهم مع مفردات النظام الاجتماعي الإسلامي من ناحية أخرى وقد سبق وأوضحنا أن من حكام المغول من كان يرعى النهضة العلمية والثقافية في الإيلخانيات مثلما حدث في عهد تيمورلنك نفسه ، بل إن هناك من أمراء المغول من اشتغل بالعلم وتطبيقاته في مجال الفلك والرياضيات ، وسوف نلقي الضوء على ذلك بالتفصيل في المبحث التالي .

شهد المشرق الإسلامي تحت سيطرة المغول وبعد أن انصهروا في بوتقته وتغلغلوا في نسيجه نظاماً تعليمياً جامعاً بين الموروث الإسلامي العريق الذي تحدى الزمن وصروفه وتطوراته وتفاعلات المجتمع ، وخرج منه فاقداً للكثير من أصالته وغير قادر على التجاوب مع المستجدات وبين بصمات قوية وواضحة ومؤثرة للمغول الدخلاء أظهرت ما ألقوه على كاهل ذلك النظام وأثقلوه به حتى تقاعس عن أداء دوره كما أريد له ، ولم تكن تلك البصمات لصالح المغول أنفسهم بل كانت لصالح الآخرين مثل الفرس والأتراك حيث أعادت صحوة تلك الشعوب ، وهكذا بدا النظام التعليمي من خلال مؤسساته وأدواته ضعيفاً غير مواكب للتطورات وغير قادر على مواصلة العطاء الذي كان في العصور الزاهرة ، إن ما تقدم يفضي إلى حقيقة مفادها أن التداعيات التي أحدثتها الهجمة المغولية قد نالت كل الأنظمة الفرعية داخل المجتمعات الإسلامية ومن ضمن هذه الأنظمة كان النظام التعليمي بأدواته ومؤسساته .

وبالتتابع ظهرت الأدوات والمؤسسات التعليمية ضعيفة وغير قادرة على إفراز نتاجات ومخرجات ذات قيمة ، فالكتاتيب ظهرت مرة أخرى ولكنها اقتصرت على تعليم القرآن وحفظه عن ظهر قلب بالعربية دون تعليم أصول اللغة العربية وقواعدها ، فهي لم تعد إلا لغة ثانية ، لغة القرآن والدين فقط ، أما اللغات الرسمية فهي لغات أهل البلاد الأصلية

من فارسية وتركية وبنغالية وأوردية .. إلخ ، وعن أهمية الكتاتيب وفاعليتها ، فقد كانت ذات أهمية بالغة في تعليم النشء نطق القرآن وحفظه باللغة العربية بعد أن كاد يُمحى بفعل تأثيرات الغزو المغولي ، ولكنها لم تكن كما كانت في الماضي تعلم بعض أصول العقيدة وتفسير مفردات القرآن .

وإذا انتقلنا إلى الحديث عن حِلق الدرس في المساجد ، فالثابت أنها قد قلت بشكل ملحوظ وربما اختفت في بعض المناطق ، وذلك لأكثر من سبب : السبب الأول ، أنها قد تأثرت بالغزو المغولي وما أصاب الناس والمجتمعات من هلع وتخريب وإحباط ، السبب الثاني ، قلة وربما ندرة العلماء الذين يمكن لهم عقد تلك الحِلق وبث العلم بوضعه الأصولي ومن منابعه الأصلية كما في القرآن والسنة ، السبب الثالث ، استشراء النعرات المذهبية حيث سيطر المذهب الشيعي في معظم الأحوال على المناطق التي سيطر عليها المغول انطلاقاً من تبنيهم له ، وهكذا كانت علوم الدين تسير في اتجاه ذلك المذهب وتنطلق من رؤياه وتخريجاته ، السبب الرابع ، أن حِلق الدرس في المساجد لم تكن الوسائل التعليمية المتعارف عليها والتي يعول على دورها في العملية التعليمية منذ بداية فترة التفكك حتى قبل مجيء المغول ، السبب الخامس ، أن حِلق الدرس في المساجد قد وجدت منافسة قوية أثرت على وجودها وفعاليتها كوسيلة تعليمية من المدارس التي انتشرت في الفترة الثانية من السيطرة المغولية وهي فترة دخولهم الإسلام واندماجهم في المجتمعات الإسلامية .

لقد سيطر المغول على الشرق الإسلامي بأكمله ، وأقاموا إمبراطورية شاسعة ، وعندما دخلوا الإسلام لم يمنع وجودهم من عودة العادات والأنظمة القديمة حتى في ظل الأنظمة المغولية ، لقد عادت المدارس التي كانت لها آثارها الفعالة من قبل في العملية التعليمية والأنظمة التعليمية ، وكان سبب عودتها يكمن أولاً في أهميتها في المجتمع وفي النظام

التعليمي الذي بدأ يبحث عن ذاته عندما خفّ الضغط المغولي ، وثانياً في تبني المغول أنفسهم لها كعامل مهم وفعّال في المنافسة المذهبية للسنية الموجودة في الغرب الإسلامي والتي يتكتّل وراءها المماليك في مصر وبقية المغرب الإسلامي .

إن الثابت أن الغزو المغولي لم يغير من لغات ولا من ثقافات المناطق التي سيطر عليها ، كما أنه لم يفرض بصماته – كما قدمنا – على الشعوب التي أخضعها ، بل أدى إلى صحوتها ، وكان الفرس والأتراك أول من استفاد من هذه الصحوة ، وسبب ما تقدم أن المغول لم يكن لديهم ثقافة منافسة أو حضارة ينطلقون منها أو حتى دين يريدون فرضه ، ومن ثم كان من الطبيعي والمنطقي أن يكونوا هم أنفسهم صدى لدين وحضارة وثقافة المناطق التي غزوها وسيطروا عليها ، وهذا يفسر منطقياً دخولهم الإسلام دون دراية كاملة عنه ، ويفسر كذلك عدم إضافتهم إليه بعد أن دخلوه ، ويفسر أخيراً كيف كانوا حدثاً عابراً في تاريخ الإسلام ، لم يتمكنوا من القضاء عليه بالرغم من فظاعة غزوهم لدولته ، ولكنهم أوقفوا عطاءه ، وعطلوا حضارته ، وقللوا من شأن نتاجات ثقافته .

لقد استمر العطاء العلمي والأدبي في فارس ، ولكنه كان ضعيفاً ومتواضعاً بالرغم من أنه تجاوز حدود إيران إلى الهند وتركيا ، وجاء العطاء من خلال المدارس التي عادت إلى الظهور مرة أخرى ، بفعل العوامل المجتمعية التي عادت إلى موروثاتها وكثفت الضوء على قيمتها ، ثم بفعل المغول أنفسهم الذين لم يمنعوا كعادتهم من بروز عادات المجتمعات بل أقاموا مدارس جديدة في المدن التي شيدوها أو أعادوا تعميرها ، ومن ثم برز إلى الوجود نوع من التعاون أو التلاقي بين الموروثات الفارسية والتركية التي أفرزتها المجتمعات الإسلامية التي سيطر عليها المغول وبين ما جلبه معهم المغول من ممتلكات لها سمة الخصوصية هي أيضاً ، في هذا السياق ازدهرت المدارس التي أنشأها المغول ، ولكنها في الأغلب الأعم أخذت نمطين أو شكلين :

□ النمط أوالشكل الأول : المدارس التي أنشأها المغول أو أعادوا نشاطها لبث العلوم الدينية وفق المذهب الشيعي الذي يعتنقه الفرس وقد تبنوه هم أنفسهم حيث التقى مع أهدافهم السياسية في سياق الصراع مع السنية المملوكية في مصر ، وكانت مدارس تبريز وبخارى وسمرقند والبورز وخراسان وطرابزون خير أمثلة على ذلك .

□ النمط أو الشكل الثاني : المدارس التي أنشأها المغول في العلوم الطبيعية مثل : الفلك والرياضيات والطب ، وفي الفنون مثل الرسم والنحت والزخرفة والعمارة ، وقد كانت سمرقند ومراغة مراكز مهمة لتلك المدارس أنشأها تيمورلنك بنفسه وواصل خلفاؤه الاهتمام بهذه المدارس ، وقد ظهرت آثار تلك المدارس في الفنون : كمسجد يزد ، وآثار سمرقند ، وأعمال المنمنمات بمناظرها الآدمية والحيوانية والتي تعد التقاءً بين التراثين الفارسي والصيني الذي جلبه معهم المغول ، وكان بهزاد رائداً من رواد هذا الفن ، كذلك انتشرت المدارس بالشكل الذي أوضحنا في دولتي دغاطاي وعشيرة الذهب ، وقد أعطت تلك المدارس الفرصة لنمو وازدهار الأدب الدغطائي الذي صحب معه في ذات الوقت الأدب التركي الذي سيأتي دوره فيما بعد ليسود عن طريق العثمانيين ، كما ظهرت مدارس العلوم الطبيعية في الفلك والرياضيات والطب وكان من الرواد في الفلك والرياضيات كل من الأمير أولوج بك حفيد جينكيزخان ونصير الدين الطوسي وغيرهم .

أما عن المناطق التي سيطر عليها المغول من الأراضي العربية في المشرق الإسلامي فلم تتمكن من إثبات ذاتها أو إعادة المدارس التي كانت في بغداد والبصرة والموصل وبلخ ونيسابور وأصفهان ومرو وغيرها من المناطق ، فمنذ أن استولى هولاكو على بغداد وحتى وفاة تيمورلنك فإن تلك المدارس لم يقم لها قائمة كما أن الإفرازات الأدبية والعلمية في تلك الفترة لا تكاد تذكر ، فلقد اختفت الدولة الخوارزمية مركز ازدهار اللغة العربية ، كما أن ثمة مدناً قد دُمرت بأكملها مثل همذان أو همدان وأصفهان ، ومن ثم فقد " فقدت اللغة

العربية احتكارها للحضارة الإسلامية وحلّت محلها وسائل تعبيرجديدة باللغات الفارسية والتركية وغيرها من اللغات الخاصة بالشعوب الإسلامية".

– المناطق التي لم تخضع للسيطرة المغولية :

والآن نواصل متابعة أدوات ووسائل التعليم في المناطق التي لم تخضع للسيطرة المغولية وهي تحديداً في الغرب الإسلامي الذي يبدأ بعصر وينتهي بالغرب (مراكش) ثم تمتد إلى الأندلس شمالاً ، وقد سبق لنا أن أوضحنا أن هذه المناطق بالرغم من أنها لم تخضع للسيطرة المغولية ولم تنلها بشكل مباشر تداعيات الهجمة المغولية إلا أنها قد تأثرت بالهبوط العام والاضمحلال الشامل الذي أصاب كافة نواحي الحياة الاجتماعية والثقافية والتي منها التعليم بأدواته ومؤسساته ، والهبوط العام والاضمحلال الشامل اللذان أشرنا إليهما لم يعنيا توقف أدوات التعليم ومؤسساته ، ولم يعنيا قبل ذلك تخريب أو إعاقة الأنظمة التعليمية ولكنهما برزا وانعكسا على إفرازاتها ومخرجاتها العلمية والأدبية ، ولنرى كيف ! ، والتفصيل فيما يلي :

○ لقد كانت مصر المملوكية هي الولاية الوحيدة في ذلك الوقت التي تحملت عبء الدفاع عن الإسلام ضد المغول المدمرين ، وتحملت في ذات الوقت عبء العمل على مواصلة العطاء الحضاري الإسلامي الذي انطفأ بريقه فجأة في سماء عاصمة الخلافة التي باتت أثراً بعد عين ، وفي مصر المملوكية تمثلت وسائل التعليم وأدواته في الآتي :

□ انتشر نظام الكتاتيب في كل ربوع مصر وكان من الوسائل المهمة في تحفيظ القرآن وتعليم القراءة والكتابة وأصول اللغة ، وقد كان الكثير من أبناء المجتمع المصري يكتفون بما يتلقونه في هذه الكتاتيب من حفظ القرآن وتعلم الكتابة والقراءة ومبادئ الحساب ،

وقد يؤهلهم ذلك لتولي الكثير من المهام في الحياة الاجتماعية أو حتى داخل الجهاز الإداري للدولة .

إلا أنه لم يثبت أن تلك الكتاتيب كانت تتبع أو تخضع لنظام التعليم الرسمي ، وعليه فهي لم تكن إحدى مؤسسات التعليم المعترف بها إدارياً ، ولكنها كانت من ضمن ما تحدثنا عنه فيما يتعلق بالوظيفة التعليمية للمجتمع أو السمة الاجتماعية للتعليم ، وما يمكن أن يقال عن دور المحتسب فيما يخص إشرافه على الكتاتيب فهو أيضاً نوع من تنظيم المجتمع لمهمته في التعليم .

□ أما عن حِلق الدرس في المساجد ، فقد كان الأزهر هو الأشهر في هذا الخصوص على مستوى العالم الإسلامي ، وقد كان بمثابة جامعة واشتمل التعليم فيه على العلوم الدينية والعلوم الطبيعية ، ولا ينبغي أن نغض الطرف في هذا السياق عن الدور الذي لعبه الأزهر في ذلك الوقت من أجل بث المذهب السني الذي كان في صراع مع المذهب الشيعي الذي تبناه المغول وسبق الحديث عنه ، كما ينبغي كذلك الإشارة إلى ظاهرة عهدناها في مصر وفي العديد من الأمصار الإسلامية الأخرى وهي استخدام المؤسسات العلمية مثل المساجد في الدعوات المذهبية ، وقد كان الأزهر قد استُخدم في الدعوة المذهب الشيعي في عهد الفاطميين ثم تحول بعد ذلك للدعوة إلى المذهب السني في عهد المماليك ، ومن الظواهر الجديرة بالذكر كذلك هي أنِ دور الأزهر كمؤسسة تعليمية كان له على مر العصور وتقلب المذاهب والأسر الحاكمة دور الريادة العلمية على مستوى العالم الإسلامي أو على المستوى الإقليمي (شمال إفريقيا) فهو جامعة إسلامية بمعنى الكلمة ، كما أنه تميز بجمعه بين العلوم الدينية والعلوم الطبيعية ، كذلك كان ذلك الصرح العلمي الإسلامي يتطور باستمرار ويواكب العصور والأزمات ، ومثل ركيزة قوية للدعوة الإسلامية داخل العالم الإسلامي وخارجه .

□ وكان للمدارس في عصر المماليك دورها المهم وحظها الوافر من الاهتمام والرعاية اللتين أولاهما لها الحكام المماليك في مصر ، ففي الوقت الذي اجتهد فيه المغول بعد دخولهم الإسلام في المشرق الإسلامي من أجل إنشاء المدارس في المدن والحواضر ، وذلك للدعوة للمذهب الشيعي بالتعاون مع الفرس أو مع أهل البلاد في المناطق الأخرى ، كان المماليك يبالغون في نشر تلك المدارس وتعميمها على جميع ربوع مصر لنفس هذا الغرض وهو خوض الصراع المذهبي مع المغول والفرس في المشرق الإسلامي .

لقد تأكد دور المدارس في مصر في عهد المماليك في نشر الدعوة المذهبية لمصلحة المذهب السني الذي تكتل خلفه المماليك ، بل وحاولوا إحياء الخلافة العباسية في القاهرة ، وكان ذلك في ذات الوقت يمثل نوعاً من إضفاء الشرعية السياسية والدينية على نظام الحكم المملوكي في مصر ، ومنحه دور الريادة على مستوى العالم الإسلامي بوصفه حامي حمى الإسلام والداعي إلى إحياء الخلافة وبعث الوحدة مرة أخرى بين أجزاء الدولة الإسلامية التي مزقها المغول والنزعات الانفصالية في الولايات المختلفة .

لقد جمعت المدارس في مصر المملوكية بالإضافة إلى كثرتها بين التخصص في المذهب الواحد والجمع بين المذاهب السنية الأربعة ، ومن هذه المدارس ما كان تابعاً للدولة ويمثل إحدى مفردات النظام التعليمي فيها ، وكانت هذه المدارس تتلقى الدعم المادي والفني من الدولة بالإضافة إلى الإشراف والرقابة ، ومنها ما كان تابعاً لكبار رجال الدولة من الحكام والأمراء علاوة على ما كان تابعاً للمياسير والوجهاء ، وكانت كل مدرسة تمثل التوجه المذهبي لأصحابها أو المشرفين عليها ، والملاحظة الجديرة بالتسجيل في هذا السياق أن الأغلب الأعم من هذه المدارس كان يقوم بتدريس علوم الدين ولم يتخصص في تدريس بعض مبادئ العلوم الطبيعية أو التطبيقية إلى جانب علوم الدين إلا القليل النادر منها .

ومما لا شك فيه أن هذه المدارس كانت قد قادت إلى إيجاد نهضة علمية في مصر بالرغم من الظروف التي كان يمر بها العالم الإسلامي ، وجعلت مصر تنفرد في ذلك العالم كمصدر إشعاع لا بأس به في مناخ الهبوط العام الذي ساد معظم مناطق ذلك العالم ، إلا أن تلك النهضة كانت تدور في إطار الرصيد الموروث والحفاظ عليه ، ولم تتجاوز ذلك إلى فتح أبواب الاجتهاد أو إضافة الجديد ، وهذا ما حدا ببعض الباحثين إلى القول بإمكانية الحديث عن ما يسمى " بالحضارة المملوكية " ولكن ذلك الإطلاق ينم عن سوء تقدير لحقيقة العلاقة بين الحضارة الإسلامية والمرحلة المملوكية كمرحلة متميزة داخل تلك الحضارة ، فالأصوب أن ما حدث في مصر المملوكية من نهضة حضارية وثقافية هو مرحلة في سياق أو مسار الحضارة الإسلامية التي اتسعت لكي تستوعب بداخلها كثيراً من النهضات على امتداد العالم الإسلامي كله ، كما أن ذلك يمثل تعبيراً صادقاً عن أن الحضارة الإسلامية لم تنقطع أو تتوقف عن العطاء ، فهي إن توقفت عن العطاء في بعض المناطق لأسباب خاصة فهي قد استمرت في عطائها في مناطق أخرى .

إلا أن الحقيقة التي لا تقبل الشك هي أن فترة النهضة المملوكية التي حدثت في إطار الحضارة الإسلامية كانت على جانب عظيم من الأهمية للعالم الإسلامي في ذلك الوقت ، كما أنها كانت أكثر أهمية لمصر نفسها كولاية إسلامية سيكون لها فيما بعد شأن في العالم الإسلامي عندما تتمرد على الإمبراطورية العثمانية وترفع رأس ذلك العالم ، ثم تنطلق في نهضة أخرى على يد محمد على باشا الوالي التركي الذي استقل بهذه الولاية عن الدولة العثمانية ، وهكذا كانت النهضة المملوكية هي أساس انطلاقة مصر الحديثة إن أردنا وضع الحقائق في نصابها وسياقها التاريخي الموضوعي الصحيح .

□ بالإضافة إلى ما قدمنا عن وسائل وأدوات التعليم في مصر كان هناك المكتبات العامة والخاصة التي يقيمها الحكام والأمراء وكذا الوجهاء والمياسير والمتنفذون ، وكانت هذه

المكتبات مفتوحة ومتاحة لأفراد المجتمع بالرغم مما تزخر بـه مـن أثمـن الكتـب وأنفسها وأندرها ، يضاف إلى ذلك مكاتب وحوانيـت الـوراقين الـتي انتـشرت في القـاهرة انتـشاراً عظيماً وساعدت طلاب العلم ووفرت لهم متطلبات الدرس والاطلاع .

□ شهدت مصر في فترة المماليك انفراجاً في الحياة الاقتصادية ميزها على غيرها من مناطق العالم الإسلامي ، ولربما عاد ذلك إلى الاستقرار السياسي النـسبي الـذي عايـشته مـصر في تلك الفترة ، ولو أنها كانت وهي تحـت حكـم المماليـك إمـا في حالـة حـرب أو اسـتعداد لحرب ضد المغول من أجل الدفاع عن سوريا ، أو ضد الصليبيين الذين تمكن المماليـك مـن أن يستأصلوا شأفتهم من الشرق الإسلامي تماماً ويحاصرونهم في جزيرتي قبرص ورودس ، إن ذلك الرواج الاقتصادي انعكس على الحياة الفكريـة والثقافيـة والعلميـة ، فـإلى جانـب الدعم الرسمي الذي تخصصه الدولة للتعليم والعلم وطالبيه كان هنـاك الوقـف الـذي وقفـه أهل الخير على طلبة العلم والعلماء ووسائل التعليم ، وقـد انتـشر ذلـك في مـصر المملوكيـة بشكل لم يسبق له مثيل .

□ انتشرت في مصر المملوكية الصالونات الأدبية والمنتديات والأمسيات الثقافية والفكرية في منازل علّية القوم من الحكام والأمراء وكبار رجال الدولة والوجهـاء والمتنفـذين والميـاسـير ، وكان لتلك النشاطات والفعاليات أهميتها علي الحياة الفكرية والأدبية في مصر المملوكية .

○ شمال إفريقيا والمغرب هي الأخرى من المناطق التي ظلت بمنأى عن السيطرة المغولية ، ولم تكن هذه المناطق بمعزل كامـل عـن بقيـة العـالم الإسـلامي ، بـل كانـت علـى اتـصال بالمشرق الإسلامي عبر مصر والشام التي تمثل إلى جانـب حلقـة الوصـل القلـب والـرأس ، ولكن تأثر المغرب الإسلامي بأحداث وتطورات وتداعيات العالم الإسلامي كان دومـاً يـأتي متأخراً ، واستوى في ذلك تناقل الأنظمة ونماذج الحركة ، إلا أن العزلة التي فرضت على المغرب الإسلامي بفعل عوامل عديدة خارجية وداخلية قـد صـبغت تلـك الأنظمـة ونمـاذج

الحركة بصبغة ذات خصوصية أبرزت ذاتية المنطقة النابعة من الموروثات الحضارية والثقافية إضافة إلى المتغيرات الاجتماعية ، وما تقدم انعكس على أدوات ووسائل التعليم في المغرب الإسلامي والتي تمثلت في ما يلي :

□ تشير الدلائل التاريخية إلى أن الكتاب قد دخل إلى المغرب الإسلامي متأخراً عن المشرق ، إلا أنه لم يتعرض للانقطاع الذي حدث في المشرق بسبب الغزو المغولي ، وظل الكتاب يلعب دوراً مهماً في تعليم النشء مبادئ القراءة والكتابة إلى جانب تحفيظ القرآن وهو الهدف الأساسي من هذه المؤسسات التعليمية الاجتماعية المبدئية .

□ أما حِلق الدرس في المساجد فقد اشتهر جامع القيروان في تونس بتدريس العلوم الدينية ، وكان يناظر الأزهر في هذا الميدان ، إلا أن وضعية جامع القيروان كمؤسسة تعليمية قد تأثرت إلى مدى بعيد بحماس الأسر التي توالت على حكم تونس للعلم والتعليم ، ولعل الحفصيين كانوا الأكثر نشاطاً في هذا الميدان ، كذلك انتشرت حِلق الدرس في بعض المساجد في الجزائر والمغرب (مراكش) ، ولكن على نطاق محدود ولم تصل إلى مستوى جامع القيروان .

□ يرتبط بما تقدم وعلى غرار حِلق الدرس في المساجد ما انفردت به منطقة المغرب الإسلامي من قيام مؤسسات تعليمية جمعت بين السمة الشعائرية والطبيعة الاجتماعية تمثلت في الرُبط والزوايا ، وكانت بمثابة خليط من الدير والضريح والمدرسة والفندق ، وهي الأصل والمنبع لفكرة المركز الإسلامي حديثة النشأة والتي انتشرت في العالم الإسلامي وغير الإسلامي في الوقت الراهن كمركز إشعاع دعوي ، وقد أخذ هذا التكوين المؤسسي التعليمي في المغرب الإسلامي وشمال إفريقيا خلال القرن الخامس عشر الميلادي شكل المؤسسة التعليمية المرتكزة على أسس اجتماعية دينية خالصة وانصرفت غاياته إلى التعليم الديني

بالأساس ، إلا أنه مع بداية القرن السادس عشر بدأ هذا التكوين المؤسسي التعليمي يتلـون بألوان سياسية تابعة لأنظمة الحكم في تلك المناطق .

والجدير بالذكر في هذا المقام أن الرُبط والزوايا قد قامت بـدور مهـم في نـشر التعلـيم والعلـم الديني وكانت مأوى ومقاماً لطلاب العلم والعلمـاء ، وانعكاساً في ذات الوقـت لخـصوصية وذاتية مجتمعات شمال إفريقيا والمغرب العربي ثم تطور ذلك الدور التعليمي الـدعوي فيمـا بعد إلى دور سياسي حيث الدعوة لمذاهب وتوجهات سياسية معينة .

□ في المشرق الإسلامي تحدثنا عن المدارس كمؤسسات تعليمية منذ وقـت مبكـر ، ولكنهـا انتقلت إلى المغرب الإسلامي منذ منتصف القرن السابع الهجري ، ففي عام ٦٥٠ هـ شُيدت أول مدرسة في تونس في ظل نظام الحفصيين وسُميت بمدرسة المعـرض ، أمـا في المغـرب (مراكش) فقد شُيدت أول مدرسة في عام ٦٨٤ هـ وهـي مدرسـة الـصفارين في فـاس ، وهـي أشهر مدارس بني مرين .

○ الأندلس : كانت بلاد شبه جزيرة أيبيريا الإسلامية هي أبعد مناطق الإسلام عما حدث في المشرق الإسلامي من تطورات وتداعيات سببتها الهجمة المغولية ، وقد ازدهـرت العلـوم والآداب والمعارف والأنظمة التعليمية في الأندلس بشكل ملفت ، وقد تفاعلت هـذه المنـاطق مع ذاتها وأفرزت النتاجات العلمية والمعرفية اعتماداً على ذلك التفاعل ، ولـذلك اتـسمت مخرجات العلوم والمعارف الأندلـسية بـسمات خاصـة ميزتهـا عـن تلـك المخرجـات الـتي أفرزتها بقية أجزاء العالم الإسلامي ، يضاف إلى ما تقدم أن الأندلس كانـت نقطـة إشـعاع متقدمة انتقل عن طريقها العلم والمعرفة الإسلامية إلى أوربـا ، كـل مـا تقـدم أعطـى الـنظم التعليمية في الأندلس وبصفة خاصة أدواتها ووسائلها نوعاً من التفرد والتفـوق ، ويمكـن أن نلقي نظرة على أدوات ووسائل التعليم في الأندلس الإسـلامية في فـترة التفكـك مـن خـلال ما يلي :

□ لا يزال انتقال الكتاب من المغرب الإسلامي وشمال إفريقيا إلى الأندلس محل شك ، إلا أنه يمكن القول أن هذه المؤسسة التعليمية لم تكن ذات ثقل وتأثير كما كان عليه الحال في المغرب الإسلامي والمشرق ، وسبب ذلك أن حِلق الدرس في المساجد ربما قامت بدور الكتاتيب .

□ لقد نشطت حِلق الدرس في المساجد الأندلسية في قرطبة وأشبيلية وطليطلة وغرناطة بشكل لم يكن له نظير في المغرب الإسلامي وشمال إفريقيا ، وقد قامت تلك المساجد بدور مهم في تعليم أصول العقيدة وتحفيظ القرآن ، وقد ازدادت أهمية ذلك الدور انطلاقاً من وضعية أسبانيا كرأس رمح متقدم للإسلام في أوربا ، وكمنطقة يجاورها ويتربص بالإسلام فيها مسيحيون يرونه دخيلاً في هذه المنطقة ويريدون إبعاده بكافة السُبل ، إضافة إلى عوامل أخرى داخلية لعل أهمها أن المسيحية كانت ديانة رسمية في أسبانيا وتسامح معها الإسلام إلى أبعد الحدود .

□ إضافة إلى حِلق الدرس في المساجد التي انتشرت في المدن الأسبانية ، انتشرت كذلك المدارس في كل من قرطبة وأشبيلية وطليطلة وغرناطة ، وكانت مدينة غرناطة من أهم المدن الأسبانية التي انتشرت فيها المدارس ، وبدت في شكلين : مدارس كبيرة من حيث الشكل وعدد الطلاب والنواحي الفنية ، وأخرى صغيرة من حيث نفس المعايير ، وفي عهد حكام بني نصر أقيمت في غرناطة في عام ٧٥٠ هـ مدرسة ضخمة شهيرة كانت أشبه بالجامعة ، وقد جمعت المدارس الأسبانية بين التعليم الديني والتعليم الدنيوي وازدهرت كثير من العلوم مثل : التاريخ والجغرافيا والفلسفة والطب والعقاقير والفلك والرياضيات والزراعة ، وكانت هذه المدارس نواة حركة الترجمة التي تمت فيما بعد للعلوم والمعارف الإسلامية من العربية إلى اللغات الأوربية ، والتي سنتحدث عنها تفصيلاً في الجزء التالي من هذا المجلد ، حيث كان لتلك الحركة دورها المهم في تشييد صرح الحضارة الغربية الحديثة .

❖ فترة الانهيار :

لقد عاش العالم الإسلامي لمدة تزيد عن قرنين ونصف من الزمان من ١٢٥٨ م وحتى ١٥١٦ م وهو يعاني من آثار صدمة المغول ، ويحاول استيعابها واستيعاب من سببوها ، ولم يكد يفيق من تلك الصدمة ويفرغ من امتصاص المغول حتى فوجئ بصدمة أخرى ولكنها في هذه المرة باسم الإسلام ومن أجله ، إنها صدمة الأتراك العثمانيين ، انبعثوا من موطنهم في آسيا الصغرى يطمحون في بسط سيادتهم على جميع أنحاء العالم الإسلامي ، وقد اصطدموا وهم في سبيل ذلك بالمغول مرة وبالفرس أخرى ثم بالعرب ثالثة ، وقد قُدر لهم السيطرة على العالم الإسلامي ولم يفلت من تلك السيطرة إلا إيران والأراضي التي خضعت للمغول والمغرب العربي (مراكش) والأندلس ، وبذا يكون العالم الإسلامي قد انتقل إلى وضعية أخرى جديدة من المعاناة ، فهل تمكن من استيعاب وامتصاص هذه الصدمة الجديدة كذلك ، أم ماذا كانت النتائج ! .

إن الفترة الجديدة المجهولة التي أقدم عليها العالم الإسلامي قد تشابهت مع سابقتها في بعض الأمور ، واختلفت معها في بعض آخر ، فكل من المغول والعثمانيين قد كان يحدوهم هدف محوري ومهم وهو السيطرة السياسية والعسكرية على العالم الإسلامي لتحقيق أغراضهم الخاصة ، فالمغول كان هدفهم عسكرياً سياسياً لم يخل من مآرب تجارية اقتصادية ، أما العثمانيون فكان هدفهم مشابهاً لذلك ، ولكنه غُلف بدعاوى عديدة مثل : إنقاذ الإسلام وإحياء الخلافة وتوحيد العالم الإسلامي .. إلخ ، فالمغول إذن كانت أهدافهم واضحة أما العثمانيون فكانت مآربهم مغلفة مضمرة ، وسبب ذلك أن المغول لم يشتركوا مع المسلمين في الدين ولم يخجلوا من القيم الإسلامية التي ستكون ضدهم ، أما العثمانيون فكانوا مسلمين ومن ثم عمدوا إلى التدثر وراء تلك الدعاوى لذر الرماد في العيون

والإفلات من مردودات القيم الإسلامية التي ستظهرهم على أنهم خارجون على قيم الإسلام .

لقد ترتب على الغزو المغولي للعالم الإسلامي سقوط الخلافة العباسية وتفكك أوصال الدولة الإسلامية بشكل نهائي ، وترسخت الإقليمية ، وتجزأت الدولة إلى أجزاء مستقلة عن بعضها ، وقد تم هذا التشرذم على أسس قومية عنصرية ، أما السيطرة العثمانية على العالم الإسلامي فقد أدت إلى انهيار الأنظمة الموجودة في أقاليم العالم الإسلامي وولاياته ، والملاحِظ في هذا الصدد أن التفكك الذي ترتب على الغزو المغولي قد رسخ الأفكار القوميــة العنصرية ، وساعد على قيام الأنظمة ذات الصبغة المحلية المتصلة اتصالاً وثيقاً بالارسابات والموروثات القومية حيث أن المغول لم يفرضوا أية أنظمة خاصة بهم ، ولم يتدخلوا في شئون الأنظمة القائمة بشكل مؤثر ، أما السيطرة العثمانية فقد أدت إلى انهيار الأنظمة المحلية القومية التي كانت قد ترسخت في فترة سيطرة المغول حيث جاء العثمانيون بأنظمتهم الخاصة لكي يفرضوها على تلك الأقاليم والولايات .

لقد كانت فترة الغزو والسيطرة المغولية على المشرق الإسلامي فترة نضوب وعقم ، فالمغول لم يُحضروا معهم ديناً ، ولم يُحضروا معهم حضارة أو ثقافة ولم يُحضروا معهم أنظمة ، ومن ثم لم يتفاعلوا مع المناطق التي سيطروا عليها إلا في القليل النادر الذي لم يمس صميم المفردات أو المقومات الحضارية والثقافية للإسلام والمجتمعات الإسلامية ، ولم تكن فترة السيطرة العثمانية بأحسن حالاً من سابقتها ، بالرغم من أن العثمانيين قد ادعوا أنهم حملوا معهم لغة وثقافة وحضارة ، في حين أن العالم الإسلامي لم يستفد مما جلبوه معهم لأنه لم يرق إلى مستوى حضارة الإسلام وثقافته ، ولم يقدر له التفاعل مع المكونات الحضارية والثقافية للمجتمعات الإسلامية ، فاللغة التركية لم تكن يوماً لغة الأدب والفكر والعلم على مستوى العالم الإسلامي كما كانت العربية ، ولم يُعرف أبداً عن الأتراك الغز

أنهم ذوو حضارة أو ثقافة موروثة أو مصنوعة ، وعليه فكل من المغول والأتـراك العثمـانيين لم يضيفوا إلى الإسلام بقدر ما كانوا عناصر إعاقة وإفلاس .

لقد سيطر المغول على المشرق الإسلامي ، وقطّعـوا أوصـال الدولـة الإسـلامية وعزلوهـا عـن بعضها ، وانتهى بهم الأمر إلى أن ذابوا في الإسلام واسـتوعبهم وصـهرهم في بوتقتـه ، أمـا الأتراك العثمانيون فقد سيطروا على كـل العـالم الإسـلامي إلا إيـران ومـا تحـت الـسيطرة المغولية والمغرب العربي (مراكش) وادعوا بعث الإسلام وزعموا توحيده وإعادة قوته ، إلا أنهم وبعد ما يقرب من ثلاثة قرون لم يُقدر لهم تحقيق أي من مزاعمهم ، بل أزاحوا كافة الأنظمة التي كانت قائمة ولم يفعلوا أكثـر مـن فـرض أنظمـتهم الـتي لم تثمـر إلا التخلـف والفقر ، وانتهى بهم الأمر إلى أن اسلموا أنفسهم واسلموا معهـم العـالم الإسـلامي للـسيطرة الأوربية ، حيث كانت أوربا قـد شـرعت في خروجهـا الثـاني أو انطلاقتهـا الثانيـة الـتي اسـتهلها نـابليون بحملتـه علـى مـصر في عـام ١٧٩٨ م مستأنـساً بتحركـات البرتغـاليين والهولنديين والأسبان والإنجليز في كـشوفهم الجغرافيـة الـتي كثفـت الأضـواء علـى العـالم الإسلامي بكوامنه وأسراره .

ينحدر العثمانيون من إحدى قبائل الغز التي وُجدت في إمارة (بيلق) في آسيا الـصغرى ، وقد استمدوا اسمهم من أوائل زعمائهم وهو عثمان الـذي تـوفى في الربـع الأول مـن القـرن الرابع عشر ، وقد باشرت الدولة العثمانية أولى انطلاقاتها على أيدي خلفاء عثمان المؤسس ، ومنهـم : أورخان ومراد الأول وبايزيد الأول ، وقد تمكن هؤلاء الأوائل من السيطرة على بحيرة مرمرة حول عاصمة الدولة العثمانية الناشئة البروسة ، ثم بدأوا الانطلاقة بالـسيطرة على الصرب والبوسنة وبلغاريا وجزء من اليونان ابتـداءً مـن أواخـر القـرن الرابـع عـشر ، وفي عام ١٣٦٢ م استولوا على أدرنه ثم سيطروا على بلاد الأناضول بالكامل .

وفي عـام ٨٠٤ هــ / ١٤٠٢ م اصـطدم العثمـانيون والمغـول ، الأولـون بقيـادة بايزيـد الأول والآخرون بقيادة تيمورلنك في موقعة أنقرة التي انتهت بأسـر بايزيـد الأول وإيقـاف زحـف العثمانيين إلى حين .

وبعد مرور خمسة وعشرين عاماً على موقعة أنقرة وتـولي محمـد الأول ثالـث أبنـاء بايزيـد ورحيل تيمورلنك ، تمكن العثمانيون بقيادة محمد الأول من السيطرة على النـصف الغربـي لآسيا الصغرى ، كما أوقفوا الحملات الصليبية بقيادة المجريين عند قارنـا في عـام ١٤٤٤ م وضموا إليهم جزيرة المورة (اليونان) وألبانيا ، ووصلوا إلى بلجراد .

لقد تحولت الإمبراطورية العثمانية إلى أكبر قوة في آسـيا بفـضل كـل مـن : محمـد الثـاني (١٤٥١ -١٤٨١ م) وبايزيد الثاني (١٤٨١- ١٥١٢ م) وسـليم الأول (١٥١٢- ١٥٢٠ م) وسـليمان الأول أو سليمان الأعظم عند الأوربيين أو سليمان القانوني بالنسبة للأتراك (١٥٢٠- ١٥٦٦ م) وفي عهود هؤلاء بدأت الانطلاقة العثمانية الكبرى التي قد لا نجد صعوبة في الإشارة إليهـا لأهميتها وعنفوان الأحداث المترتبة عليها ، حيث تبدأ بأهم حدث في تاريخ الإمبراطوريـة الناشئة وهو سقوط القسطنطينية في عام ١٤٥٣ م لتصبح العاصمة الجديدة للإمبراطورية تحت اسمها الجديد استنبول تلى ذلك الاستيلاء على جزيرة لزبوس (موللي) من جنوة في عـام ١٤٦٢ م وفي عام ١٤٦٧ م تمت السيطرة الكاملة علـى ألبانيـا بعـد مـوت إسـكندر بـيج بطـل المقاومة فيها ، كما تم انتزاع جزيرة آيبة (تجرونيت) من البندقيـة في عـام ١٤٧٠ م ، وفي عـام ١٤٧٠ م فُرضت الحماية على إيلخانيات التتار في القرم ، وسقطت جزيـرة أوترانيـت في عـام ١٤٨٠ م ، وفي عـام ١٥١٤ م هزمـوا الفـرس في معركـة تـشالديران وتم تحديـد الإطـار المكاني في موضعهم المتعارف عليه حالياً ، وانتُزعت سوريا من يد المماليـك في عـام ١٥١٦ م في معركة مرج دابق ، وفي عام ١٥١٧ م تم القضاء نهائياً على المماليك وسقطت القاهرة على إثر معركة الريدانية ، ثم سقطت بلجراد في عـام ١٥٢١ م ، وتم احـتلال المجـر لـمدة قـرن

ونصف على إثر معركة الموهاكس في عام ١٥٢٦ م ، وحوصرت النمسا في عام ١٥٢٩ م ، وسقطت بغداد للمرة الثانية في عام ١٥٣٤ م وتمت السيطرة على بلاد ما بين النهرين ، وفي عام ١٥٤٣ م تم غزو نيس ، وفي عام ١٥٧٠ م سقطت قبرص ، أما كريت فقد استولى عليها العثمانيون في عام ١٦٤٥ م ، كما تمت السيطرة على الشمال الإفريقي والمغرب العربي وهو ليبيا وتونس والجزائر باستثناء مراكش خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر .

ويعتبر السلطان العثماني أعلى الجميع على قمة الهرم أو الهيكل الإداري لهذا الفضاء العظيم ، وهو السيد المطلق والحاكم الأوحد للإمبراطورية العملاقة ، ويعيش السلطان العثماني في السراي محاطاً بغلمانه وحريمه وأسرته وخدمه الخاص ، إنه عالم العظمة والكبرياء والترف في القصور المنيفة التي تحوطها الأسوار العالية وسط مراسم صارمة وبذخ فائق ، وقد منح السلطان سليم الأول نفسه لقب أمير المؤمنين .

وفي المقاطعة كانت الشخصية الكبرى هي شخصية (البيلرباي) وهو حاكم المقاطعة الشاسعة التي يطلق عليها اسم (أيالة) ابتداءً ١٦٠٠ م وقد قسمت الإمبراطورية إلى إيالات ، وقسمت البلاد العربية إلى ثلاث إيالات هي : حلب ودمشق والقاهرة ، وانقسمت الإيالة بدورها إلى العديد من الوحدات الإدارية الأساسية التي يطلق عليها اسم (سنجق) وقد بلغ مجموع سناجق الإمبراطورية وفق مرسوم صادر في عام ٩٢٦ هـ / ١٥٢٠ م سبعة وثمانين سنجقاً ، وهكذا تحددت بشكل قاطع تقاسيم الإمبراطورية التي سيطرت على العالم الإسلامي لمدة ستة قرون متواصلة .

في ظل السيطرة العثمانية التي أزاحت كافة الأنظمة القائمة ، وفرضت أنظمتها المصنوعة في الباب العالي ، سنعمد إلى البحث عن أنظمة التعليم وكذا أدواته ووسائله ، ولكي تسهل عملية البحث والتحليل فلابد من تقسيم العالم الإسلامي إلى قسمين على النحو التالي :

- المناطق التي خضعت للسيطرة العثمانية :

لقد خضع العالم الإسلامي كله للسيطرة العثمانية باستثناء بعض المناطق في الأطراف الشرقية مثل : إندونيسيا وماليزيا والصين والهند وإيران والإمبراطورية المغولية ، والأطراف الغربية في المغرب (مراكش) ، فماذا عن التعليم ووسائله وأدواته في هذه المناطق ؟ لقد حدثت بعض التباينات بين هذه المناطق ذاتها ، مما يضطرنا إلى تقسيمها وفقاً لهذا التباين ، ثم نُعمل أسلوب التحليل على الوجه التالي :

○ الأغلب الأعم :

معظم المناطق التي خضعت للسيطرة العثمانية قد عانت من عملية إزاحة لأنظمتها التي تبلورت بفعل عوامل كثيرة تراكمت مع الزمن ، أعقبتها عملية أخرى فُرضت فيها الأنظمة العثمانية ، وكانت أنظمة التعليم وأدواته ووسائله من أهم هذه الأنظمة ، ويمكن تحديد ملامح أدوات النظام التعليمي في زمن السيطرة العثمانية من خلال ما يلي :

□ أول ملامح النظام التعليمي في العصر العثماني تتحدد في روح التزمت والجمود التي فرضتها السلطات الدينية في الدولة العثمانية على سبيل التعنت وعدم فهم الإسلام ، وهذه الروح قد وسمت النظام التعليمي بالجمود وإغلاق باب الاجتهاد والتطور والمناقشة ومتابعة المتغيرات والمستجدات بروح مبتكرة ، وسادت الشكلية القانونية وضاق نطاق البحث الحر سواء أكان في علوم الدين أو علوم الدنيا .

□ لقد عاد الكتاب ليمثل أهمية ملحوظة ودراً مهماً في النظام التعليمي في العصر العثماني ، لأنه أصبح أهم مؤسسة تعليمية اجتماعية لتعليم السواد الأعظم من أفراد المجتمع القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم ، إن بروز أهمية الكتاب في هذه الظروف التاريخية فرضتها عوامل عديدة منها سوء الأحوال الاقتصادية التي كانت حائلاً دون إتاحة وسائل تعليمية

في متناول كافة الطبقات ، ومنها كذلك انحسار دور المساجد في النظام التعليمي ، ومنها أخيراً تركيز النظام التعليمي في العصر العثماني على علوم الدين ، ولم يكن هناك من سبيل لتلقي هذه العلوم أو حتى مبادئها إلا في الكتّاب .

□ انتهت فاعلية حِلَق الدرس في المساجد وانتهى كذلك وجودها إلى في أضيق الحدود ، حيث لم تعد تتجاوز في أهدافها وغاياته أداة من أدوات الوعظ والإرشاد ، في حين انتهى دورها كأداة أو وسيلة تعليمية كما كان حال الأزهر والجامع الأموي في زمن المماليك .

□ ظهرت المدارس التي تخصصت في تعليم التلاميذ النظاميين علوم الطب والرياضيات والفلك وبعض العلوم الطبيعية الأخرى ، ولكن هذه المدارس كانت في متناول طبقة الأثرياء فقط ، كما أنها أفلتت من الرقابة الصارمة التي فرضتها السلطات الدينية في الباب العالي ، وظلت قاصرة على عاصمة الإمبراطورية في الأستانة (استنبول) ! .

□ برزت تطبيقات العلوم الطبيعية في مجالات عديدة مثل المراصد وأبراج المراقبة وخرائط الكرة الأرضية وأدلة السواحل والبيمارستانات .. إلخ .

□ كان لاستبعاد المطبعة التي وقفت منها السلطات الدينية في الأستانة موقفاً معادياً ورافضاً دورها في تخلف النظام التعليمي وانعدام فعاليته وتقاعسه عن مواكبة المستجدات ومجاراة التطورات والخوف من التطوير .

□ كان لتردي الأحوال السياسية والاقتصادية والإدارية في الإيالات العثماني دوره المؤثر في النظام التعليمي الذي بدا هو الآخر متخلفاً وجامداً ومنصرفاً إلى العلوم الدينية التقليدية ، وأصبح تحت التصرف المباشر والسيطرة القوية للسلطات الدينية في مركز الإمبراطورية .

○ مناطق التميز :

إذا كان ما تقدم هو واقع النظام التعليمي في كافة المناطق داخل الإمبراطورية العثمانية المترامية ، فإنه كان ثمة مناطق محدودة ذات خصوصية في هذا الشأن ، حيث اتسمت بنظام تعليمي وأدوات تعليمية ربما كانت أكثر رقياً وتقدماً ، كما حظيت باهتمام أكثر ورعاية أشمل من صانعي السياسة في الباب العالي ، وقد تعينت تلك المناطق في المناطق التركية وعلى رأسها استنبول عاصمة الإمبراطورية ، وتمثلت أهم مظاهر التميز في أدوات النظام التعليمي فيما يلي :

□ أصبحت الأراضي التركية مركز الدولة ومقر الخلافة ومحط أنظار العالم الإسلامي ، فقد حلت استنبول محل بغداد ، وصار الأتراك حماة العقيدة وحاملو لواء المذهب السني والمسئولون عن نشر الإسلام والدفاع عنه ، وترتب على ذلك أن أصبحوا في ذات الوقت رعاة العلوم والفنون والآداب والثقافة ، وغدا العنصر التركي يمسك بزمام الريادة للعناصر الأخرى المنضوية تحت لواء الإسلام ، ومن ثم فقد ارتفع رصيده من السمو ، وتضخمت ممتلكاته الثقافية والحضارية من لغة وعادات وتقاليد بشكل لم يسبق له مثيل ، وقد حاول الأتراك استثمار تلك الوضعية النموذجية لصلحة تاريخ شعب الغز بكفاءة .

□ ازدانت استنبول بالعلم والعلماء والمدارس ، وحلت محل بغداد العباسية والقاهرة الفاطمية ثم الأيوبية ثم المملوكية ، وذلك أمر طبيعي ، فقد كانت الأموال وثمرات كل شيء تجبى من كل أنحاء الإيالات والسناجق ثم تيمم شطر عاصمة الخلافة الجديدة ، وإذا كان ذلك هو حال الأمور المادية وواقع الوضعية الاقتصادية لحكام الباب العالي بغض الطرف عن واقع شعوب الإمبراطورية التي كانت تعاني الأمرين الفقر والتخلف ، فلا ضير في أن ينفقوا ببذخ على أشكال ومظاهر العلوم والثقافة والمعارف المختلفة لكن على بلادهم وحواضرهم فقط .

□ أصبحت المدن التركية وبالذات حاضرة الإمبراطورية موضع تطبيقات العلوم الطبيعية وفق أحدث تطوراتها من طب في البيمارستانات إلى علوم الفلك والرياضيات .. إلخ ، وعلى أثر ذلك لمعت أسماء العلماء في سماء تلك المدن حيث جذبتهم أضواؤها وإمكاناتها .

- المناطق التي لم تخضع للسيطرة العثمانية :

ظلت مناطق أخرى بعديدة عن السيطرة العثمانية فهل أن هذه المناطق لم تتعرض لعملية الانهيار التي تعرضت لها مناطق السيطرة العثمانية ، أم ماذا كان وضعها ؟ .

○ المناطق التي ظلت تحت السيطرة المغولية ، وقد سبق لنا الحديث عن تلك المناطق وعن ظروف وأوضاع الأنظمة التعليمية فيها والأدوات والوسائل التي كانت ذات فعالية .

○ إيران : تحليل والوثائق والمستندات التاريخية تشير جميعها إلى أن إيران تحت السيطرة المغولية ثم تحت حكم الأسرة الصفوية كانت تتمتع بأنظمة تعليمية مرتكزة على أدوات ووسائل أكثر فعالية من نظيرتها تحت السيطرة العثمانية ، ولعل السبب الأساسي وراء هذا التميز يرجع إلى طبيعة المذهب الشيعي الذي تعد إيران معقلاً له منذ صدر الإسلام ، والمفارقة أن ذلك المذهب يمنح مساحة واسعة لحرية البحث والاجتهاد والنقاش في علوم الدين والدنيا ، وقد انعكس ذلك على العلم وموضوعاته التي كانت أكثر ابتكاراً وجرأة في إيران ، والتي مكّنت من بروز أسماء شهيرة في تلك المناطق ، وساعدت التأثيرات الفارسية على أن تمد آثارها وتأثيراتها إلى مناطق بعيدة في الهند والصين ، بل وأثرت في المغول أنفسهم لصلحة الإسلام في نهاية المطاف .

○ المغرب العربي (مراكش) يبدو أن الموقع الجغرافي لمنطقة المغرب العربي (مراكش) في أقصى الشمال الغربي للعالم الإسلامي وعلى ممر العبور الطبيعي بين ذلك العالم وأربا المسيحية قد منحها وضعاً مميزاً في صالحها مرة وفي غير صالحها أخرى ، فهي منعزلة

عن تطورات الإسلام وتداعياته الصاخبة في المشرق والوسط ، ومن ثم فهي لا تتلق إلا النذر اليسير من تلك التطورات التي لا تكاد تصل إليها ، أصبح الإسلام في هذه المنطقة وكافة أنظمتها بما فيها التعليم إسلاماً مميزاً ، يغلب عليه طابع الذاتية والتفاعل التلقائي مع الذات ، كانت هذه المناطق أكثر تأثراً بالأوضاع والتطورات على الجانب الآخر من المضيق في أسبانيا الإسلامية ثم في أوربا المسيحية ، وكان من شأن ذلك أن يؤثر على النظام التعليمي في المغرب ويضفي عليه هو الآخر سمة الخصوصية والذاتية ، فالإسلام هنا يتطور من ذاته ويتفاعل مع مكوناته ، ليس ذلك فقط بل لوحظ أن المغرب قد مدت تأثيراتها الثقافية ذات الخصوصية إلى الجنوب حيث المناطق الإسلامية في مالي والسنغال والنيجر وحتى الصومال والشرق الإفريقي .

○ الأطراف في أقصى الشرق الإسلامي ووسط إفريقيا : الإسلام في أقصى الشرق الإسلامي في جزر إندونيسيا وماليزيا وسنغافورة والفلبين ثم في أواسط إفريقيا في مالي والسنغال والصومال والسودان قد انتشر وتفاعل مع هذه المناطق بفعل عوامل التجارة والصلات والعلاقات الاجتماعية ، فهو إذن إسلام من نوع خاص ، يضاف إلى ما تقدم أنه لم يعرف ولم يتصل مباشرة بالتطورات والتداعيات والصدمات الكبرى التي تعرض لها القلب الإسلامي وجناحه الشرقي ، بل كان صدى لها عندما تمتد إليه تأثيراتها وظلالها التي عادة ما كانت كثيفة ومظلمة ، في هذه المناطق كانت النظم التعليمية بدائية وبسيطة وكانت وسائلها أكثر بدائية وبساطة ، وتركز على مبادئ العقيدة ومبادئ العلوم الأخرى مثل اللغة والحساب .

ثالثاً : نتائج التعليم في عصر التفكك والانهيار :

تُرى ما هي النتائج التي ترتبت علي التعليم وأنظمته وأدواته في هذه الفترة الطويلة التي بدأت منذ انهيار الخلافة العباسية في عام ١٢٥٨ م واستمرت حتى نهاية القرن الثامن عشر واختتمت بالحملة الفرنسية على مصر في عام ١٧٩٨ م التي دشنت فترة جديدة وعهداً حديثاً شمل قرنين من الزمان هما القرن التاسع عشر والقرن العشرين ، حيث السيطرة الأوربية مرة أخرى على العالم الإسلامي الذي كان قد اعتاد الإذعان والقبول لسيطرة القوى الغاشمة ، من هذه الفترة الطويلة التي قاربت الخمسة قرون ونصف القرن هل يمكننا استخلاص أهم نتائج التعليم ؟ إن هذه النتائج يمكن التقاطها بسهولة لأنها ليست كثيفة ، وسوف نعددها فيما يلي :

❖العطاء النادر والإسهام المحدود :

مقارنة بما عاهدناه عن الإسلام من عطاء كثيف وإسهام غير محدود في عصوره الزاهرة فإن عطاءه في هذه الفترة كان عطاءً نادراً وإسهاماً محدوداً في كافة فروع العلم والمعرفة ، وحتى في طبيعة الأنظمة التعليمية وأدواتها ، وعن العطاء في هذه الفترة الجدباء فقد كانت له سمات ، فقد اتسم بالمحدودية في الموضوعات وكذا في حجم الإضافة والتجديد ، وارتبط بالأشخاص الذين اجتهدوا وبذلوا جهدهم في كل مجال من المجالات ، وارتبط كذلك بالأقاليم والمناطق الجغرافية التي انبعث منها وبالعناصر والعرقيات التي ينتمي إليها إن العطاء لم يعد كما كان باسم الإسلام في شموله وعموميته وباسم ثقافته وحضارته ومن أجلهما .

❖ الاعتماد على الرصيد الموروث :

إن من عظمة حضارة الإسلام وثقافته انهما عندما استشعرا نضوب معين العطاء الخاص بهما عمدا إلى استرجاع الرصيد السابق والتأكيد عليه وابرازه وتكثيف الضوء على قيمته وأهميته للإسلام بل وللعالم وللحضارة الإنسانية ، إن ما تقدم إنما يعني الرغبة الكامنة لدى الإسلام وأبنائه بالرغم مما مروا به من محن ومآسي في تأكيد الذات التي لا ينبغي أن تغرب عن البال أو الذاكرة .

إن العودة إلي الماضي واستدعاء الرصيد الموروث وتكراره لا يعد شراً خالصاً أو خطأً فادحاً ، كما لا يعد في ذات الوقت خيراً خالصاً أو صواباً خالصاً ، بل هو مزيج من الصواب والخطأ والخير والشر ، فحفظ تراث الأمة أمر مرغوب فيه وتمجيده اعتراف بالجميل وإقرار من الامتداد بولائه للأصل والمنبع ، ولكن الاقتصار على ذلك وصرف كل الجهد إلى اجترار ذكريات الماضي هو إفناء للذات في ذلك الماضي الذي لن يعود مرة أخرى ، والتلاهي عما لا ينبغي الانشغال عنه وهو جعل الذات امتداداً للماضي نحو المستقبل الذي يعكس عظمة الاثنين معاً ، إن ما حدث هو أن المسلمين في عصر التفكك والانهيار وبإرادتهم مرة ورغماً عنهم أخرى أسلموا أنفسهم للتطورات والأحداث التي أقعدتهم عن مواصلة ما بدأه أسلافهم ، وعندما فلت الزمام من أيديهم ، وفقدوا مقود العطاء والتقدم والرقي ، ووجدوا أنفسهم لا ثقل لهم ولا وزن ، تشبثوا بالماضي التليد اقتناعاً منهم بأنهم لن يدركوه بالأفعال فاستدعوه وذابوا فيه ، واكتفوا منه بالتباهي والتفاخر .

لقد كان ذلك هو حال كل أبناء الأمة من عرب وفرس وترك وغيرهم ، ولكن العرب كانوا ذوي خصوصية في هذا الشأن ، وهذا ما سوف نزيده إيضاحاً وتفصيلاً بعد قليل .

❖ الذات الحضارية للإسلام ومنطقه الثقافي الخاص لا يزالان محور شخصية المسلم :

لقد كانت الذات الحضارية للإسلام ومنطقه الثقافي الخاص لا يزالان ماثلين في أذهان أبناء الأمة حتى ولو في شكل موروثات وأمجاد ، إن شخصية المسلم كانت لا تزال مشدودة إلى ماضيها منبهرة به وفخورة بعظمته ، لقد كانت تلك الموروثات والأمجاد تفرض نفسها كثوابت ومنطلقات لابد من العودة إليها والانطلاق منها إلى مواصلة العطاء والتقدم ، ولكن ما حدث هو العودة إليها فقط والارتماء في أحضانها والانتشاء بأريج العظمة وشذا المجد إلى درجة فقدان الوعي ، وقفل أبناء الأمة إلى الماضي ولم يعودوا ! استمروا في رحابه يتغنون بعظمته ويهيمون بمجده ، وتناسوا أنهم دائماً يعودون إلى الخلف ، وعندما أفاقوا وجدوا أنفسهم لا يزالون في أحضان الماضي ، ولم يقدر لهم اللحاق بركب الإنسانية الذي لا ينتظر أحداً من الأمم .

❖ لم تفقد الأمة ذاتها ولم تتحول إلى تابع لغيرها :

بالرغم من ندرة العطاء والاعتماد على الرصيد الموروث والتقاعس عن مواصلة السير في ركب التقدم وترقية ما بدأه السابقون الأولون ، بالرغم من كل ما تقدم إلا أن الأمة ظلت لم تفقد ذاتها واعية لتراثها حافظة له ، ففترة التفكك والانهيار بالرغم من نتائجها المؤلمة ، وما حفلت به من مآسي نالت من الإسلام وأمته وحضارته وثقافته ، إلا أن كل ذلك لم يفقد الأمة ذاتها ، ولم تتحول إلى تابع لغيرها ، إن التمسك بالتراث والعودة إليه بشدة وتوق حالا بين الأمة والتبعية لغيرها .

إن وضعية العالم خلال فترة التفكك والانهيار لم تكن قد أفرزت ذواتاً حضارية يعتد بها ، فأوربا كانت لا تزال تعيش في عصورها التي تعتبر عصور بناء الذات ، ولم تكن الحضارة

الغربية قد تبلورت بعد في شكلها النهائي ، وعليه فإن الذات الحضارية للآخر في ذلك الزمن لم تصب أبناء الأمة الإسلامية بالإبهار ، لأنها لم تكن تملك من المقدرات ما يبهر .

إلا أن ما حدث في مرحلة تالية يمثل مفارقة جديرة بالذكر ، فتوقف العطاء الذي تزامن مع قوة الآخر وتزايد قدرته علي العطاء جعلت التراث يبدو في نظر أبناء الأمة قميئاً غير مجدي عند مقارنته بما يمتلكه الآخر ، ولم يعد من المستساغ العودة إليه والتمسك به وتمجيده كما كان الحال في السابق ، وكان ذلك هو بداية الانبهار بما لدا الآخر ، وذلك الانبهار نفسه هو الذي فصل أبناء الأمة عن تراثهم وماضيهم وجذبهم بشدة إلى الآخر وإلى ما لديه من حضارة وثقافة وجعلهم تبعاً له .

❖ لقد كانت الحضارة والثقافة الإسلامية لا تزال معيناً للآخرين :

إن الإسهام المحدود للحضارة والثقافة الإسلامية في عصر التفكك والانهيار لم يحل دون قيامهما بالدور الأساسي والمحوري في بناء الصرح الحضاري للأوربيين والغرب عموماً ، ففي تلك الفترة كانت الإفرازات والنتاجات الحضارية والثقافية للإسلام لا تزال تترى ، كما أن الحضارة الغربية كانت في بادئ عهدها وفي مرحلة تشييد الأسس والقواعد ، وكانت تعتمد في ذلك على ما تنهله من حضارة الإسلام .

❖ مرحلة التفكك والانهيار وتوزيع الأدوار بين المسلمين :

إن المتابع لهذه الرحلة الطويلة لتطور العلم والمعرفة كأحد مقومات الحضارة الإسلامية يمكنه أن يخلص إلى نتيجة مفادها أن العنصر العربي قد بدأ هذه الرحلة منذ عصر النبوة ثم عصر الخلافة الراشدة فالعصر الأموي ، ثم التحمت معه العناصر الأخرى من فرس وأتراك وغيرهم في العصر العباسي الزاهر والحافل بالعطاء والانتهاج ، وعندما توقف العنصر العربي تقريباً عن العطاء في عصر التفكك والانهيار انبرت العناصر الأخرى لتكمل

المسيرة وتواصل العطاء ، ولكنه كان محدوداً يسيراً ، وما هذا إلا ضرب بديع من ضروب توزيع الأدوار بين أبناء الأمة ، فالجميع قد تضافر من أجل العطاء وعندما نجم فراغ عن تقاعس العنصر العربي تقدمت بقية العناصر لتسد ذلك الفراغ وتواصل العطاء ، إنه هو الإسلام العظيم الذي سيظل دوماً مصدر إلهام لأبنائه .

المبحث الخامس

العلوم الطبيعية وتطبيقاتها

في فترة مداها خمسة قرون ونصف قرن تابعنا خلالها تطور مسائل ثلاثة هي العلم والتعلم والتعليم ، وانتهينا إلى نتائج لعل أهمها ندرة العطاء ومحدودية الإسهام واستمرارية الاعتداد بالذات وتكرار الموروث لدى المسلمين خلال هذه الفترة التي أطلقنا عليها أهم سماتها وهي فترة التفكك والانهيار ، بعد ذلك نتحول في هذا المبحث إلى رصد أشكال العطاء ومظاهر الإسهام ، وقبل أن نتولى عملية الرصد نقدم بمجموعة من الملاحظات المبدئية التي تتمثل في الآتي :

❖**الملاحظة الأولى** : إن هناك علوماً استمر فيها العطاء ، وهي علوم ظهرت متوائمة مع العصور التي جاءت فيها ، مثل علوم : التاريخ والجغرافيا والفلك والطب والرياضيات ، وكان العطاء فيها أكثف وأعمق من غيرها وكانت لازمة ومهمة لحياة تلك العصور .

❖**الملاحظة الثانية** : إن ثمة علوماً ندر فيها العطاء ، واعتمد فيها على الرصيد الموروث والعطاء السابق ومثال ذلك الكيمياء والفيزياء وغيرها .

❖**الملاحظة الثالثة** : إن تطبيقات العلوم الطبيعية اختلفت من علم إلى آخر ، وكان ذلك راجعاً إلى صلة العلم بالمجتمع وانتشار التطبيقات التي يدخل فيها فمن العلوم ما كانت تطبيقاتها واسعة الانتشار مثل الطب والعقاقير ، ومنها ما كان محدوداً مثل الفلك وهكذا .

بعد ذلك ننتقل إلى رصد وتحليل أهم الإسهامات العلمية التي تمت في عصر التفكك والانهيار ، وذلك من خلال الآتي :

أولاً : الترجمة :

لا ضير في الرجوع ولو قليلاً إلى استعراض تاريخ الترجمة في الحضارة الإسلامية ، وفي العلوم والمعارف كأهم مقوم من مقومات تلك الحضارة ، وكذا في الاندماج والتفاعل بين أبناء الأمة الإسلامية والأمم الأخرى السابقة والمعاصرة بل واللاحقة كذلك .

لقد بدأت الترجمة منذ عهد النبوة الزاهر بوصفها البداية اللازمة للتعرف على العوالم المجهولة المحيطة بالدولة الناشئة والمدخل الضروري لنشر الدعوة وتوصيلها إلى الأمم والشعوب المجاورة التي تنتظرها لترفع عنها نير العبودية وتحررها من هوان المذلة لغير الله .

وفي زمن الخلافة الراشدة حيث نشطت الفتوحات ودخل إلى كنف الإسلام أشتات من الأمم والشعوب أصبحت الترجمة الوسيلة ذات الأهمية والخصوصية للوقوف على طبائع وأحوال وظروف المجتمعات التي دخلت إلى الإسلام ، وأضيف إلى ذلك التعمق في الخوض ولو بحساب في موروثات تلك المجتمعات الحضارية والثقافية .

ثم جاء العصر الأموي ليسجل بداية الترجمة للتراث الحضاري والثقافي للأمم السابقة مثل الإغريق والصين والهند وفارس والمعاصرة مثل الرومان وكانت تلك البداية تمثل الانفتاح الأوّلي على تراث الآخر والنظرة إليه بتقدير واعتبار ، وهنا تتجلى عظمة الإسلام الذي يرفع من شأن الأقوام ، ولا يحط من قدر العطاء والإسهام الذي يثري الإنسانية ويرقى بالمجتمع البشري إلى الأمثل .

وكانت نهاية المطاف عند العصر العباسي ، عصر الازدهار الحضاري والإيناع الثقافي ، الذي لعبت فيه الترجمة دورها الأروع ، عندما كانت حلقة الوصل الرسمية بين الأمة الإسلامية بكافة أشكالها النظامية والحضارية والثقافية وبين الآخر بموروثاته الفكرية

والثقافية والعلمية ، وتنج عما تقدم نهضة عظيمة في كافة فروع العلم والمعرفة اقترن بها نهضة أعظم في مجال تطبيقات تلك العلوم والمعارف .

ثم ما لبث هذا التواصل المتتابع أن انقطع ، وذاك الاتساق المترابط أن اختل ، وكان السبب هو ذلك الإعصار المدمر الذي لم يبق ولم يذر من بلاد الإسلام التي مر عليها ، وعندئذ تبدل كل شيء ، واستحال الازدهار إلى ذبول واضمحلال والإيناع إلى أفول وخفوت ، ولكن الإسلام بقوته الخارقة وقدرته الجبارة على امتصاص الصدمات تمكن من التعاطي مع ذلك الخطب الجلل ، وسارت الأمور وتعاقبت التداعيات في فترة التفكك والانهيار – كما سبق وأوضحنا ببعض التفصيل – في جزئيات خلت من هذا الفصل ، وكان للترجمة شأن مهم في هذه الفترة جدير بالإيضاح وحري بالتبيين ، وقد يستلزم هذا وذاك أن نقسم هذه الفترة إلى حقبتين كالذي مر من قبل :

❖ فترة التفكك :

الترجمة في فترة السيطرة المغولية تحتاج إلى وقفة ، وذلك لأنها نشطت مرتبطة بالمحتلين الجدد ، وبالرغم من صعوبة الظروف وقسوة المأساة إلا أن الترجمة أدت دوراً جديراً بتكثيف الضوء عليه ، فالمغول الذين انهالوا من شمال الصين مكتسحين في طريقهم كل شيء لم يكن بصحبتهم – كما سبق وأوضحنا – ديناً يعتنقونه ويريدون نشره ، ولم يكن برفقتهم نسقاً حضارياً يزمعون تعميمه ، كما لم يكن بركابهم منطقاً ثقافياً يبتغون فرضه أو نظماً متسقة تمثل نظامهم الاجتماعي ويرغبون في زرعها في المناطق التي سيطروا عليها ، لم يكن معهم أي من هذه المقومات التي تثمل عُمد المجتمع البشري المتحضر ، إلا أن ذلك لم يمنع من أن تسير في أعقابهم دوماً عملية تلقائية ضمنية تعمد إلى إخراج ونشر الكشوف العلمية والفنية الصينية خارج حدود الصين عبر حركة ترجمة سارت في اتجاهين :

– الاتجاه الأول : وهو عبارة عن حركة نقل سريعة للكشوف العلمية والفنية الصينية تحت رعاية خانات الفرس الأوائل إلى اللغات : العربية والفارسية والتركية في الإيلخانيات التي أسسها المغول عقب اجتياحهم للعالم الإسلامي .

– الاتجاه الثاني : حيث حدثت حركة أخرى مكملة للأولى ولكنها جاءت بعد استقرار الأمور للمغول ، وترتب عليها نقل الكشوف والمتلكات العلمية والفنية الصينية إلى اللغات الأوربية ، وقد ظهرت تلك المتلكات العلمية والفنية الصينية في أوربا بشكل سريع ومُلفت للانتباه ، وهنا كان العالم الإسلامي بمثابة المعبر الذي عن طريقه وصلت هذه المتلكات الفكرية العلمية إلى أوربا من الصين عن طريق المغول ، وتجدر الإشارة والتأكيد على أننا في هذا الجزء بالكامل نتناول الترجمة كمعبر أو حلقة وصل سهّلت على المسلمين الاطلاع على علوم ومعارف وثقافات وحضارات الآخرين ، أما الترجمة في اتجاهها المعاكس حيث شكّلت أداة لنقل علوم المسلمين ومعارفهم وثقافتهم وحضارتهم إلى الآخرين وبالذات في أوربا ، فسوف نفرد له جزئية مستقلة ومساحة شاسعة في الجزء التالي من هذا المجلد الذي يحمل عنوان (الحضارة الإسلامية .. الخصائص التطور العلاقات) فعلاقة الحضارة الإسلامية بغيرها من الذوات الحضارية الأخرى تبرز بجلاء دور الترجمة كمعبر وحلقة ربط بين الحضارات .

ولعل السؤال الذي يفرض نفسه في هذا السياق يدور حول كيفية اصطحاب المغول لهذه المتلكات العلمية والفكرية الخاصة بالحضارة الصينية ، وهم الذين تم نعتهم منذ قليل بأنهم بدو رحّالة وليسوا أهل حضارة ؟! .

إن الكثير من الكشوف العلمية والفنية الصينية قد جاءت مع المغول في شكل أنماط سلوكية وتطبيقات تقنية استُخدم جُلها في بادئ الأمر في مسائل حربية ساعدت الجيوش المغولية

في مسيرتها المدمرة ، ثم تحولت بعد ذلك إلى تطبيقات مدنية للعلوم المختلفة مثل الفلك والرياضيات .

وفي مرحلة تالية حيث استقر المغول في المشرق الإسلامي وأقاموا إمبراطوريتهم بدأوا في عملية تفاعل عميقة انتهت بدخولهم الإسلام ، وبصحبة ذلك الاستقرار ، وترتيباً على ذلك التفاعل تأصلت إلى مدى بعيد عملية نقل العلوم والمعارف الصينية إلى العالم الإسلامي عن طريق المغول حكّاماً وأفراداً .

❖فترة الانهيار :

خلال فترة الانهيار التي بدأت مع مطلع القرن السادس عشر الميلادي العاشر الهجري ، توزع العالم الإسلامي إلى ثلاثة مناطق : المنطقة الأولى ، منطقة السيطرة المغولية حيث استقرت الإمبراطورية المغولية في المشرق الإسلامي وترسخت بدخول المغول إلى الإسلام ، المنطقة الثانية ، منطقة السيطرة العثمانية حيث استقرت الإمبراطورية العثمانية على معظم العالم الإسلامي – كما سبق وأوضحنا – وتحدثت باسمه وتولت شؤونه ونقلت الخلافة الإسلامية إلى استنبول العاصمة وأعادتها مرة أخرى ، المنطقة الثالثة ، الأجزاء المستقلة ، التي ظلت بمنأى عن السيطرتين المغولية والعثمانية ، وشملت إيران والمغرب (مراكش) وأقصى الشرق الإسلامي في إندونيسيا وماليزيا والفلبين وسنغافورة والأطراف الإفريقية والأندلس قبل رحيل الإسلام عنها وعودتها إلى أحضان المسيحية .

وقد شهدت هذه الفترة تياراً ضعيفاً من التبادل الثقافي والحضاري بين العالم الإسلامي وأوربا ، وكانت الأخيرة قد بدأت تشق طريقها اعتماداً على علمائها ومفكريها من أجل تشييد صرحها الحضاري ، ولعل ما يعنينا من هذا التيار الثقافي المتواضع هو ما يتعلق بالترجمة إلى العربية ، وقد تمثلت في نماذج بسيطة ومحدودة مثل :

– بعض المؤلفات المتفرقة في مجال الطب ، ومؤلفات أخرى فنية تُرجمت إلى اللغة العربية .

– كذلك في مجال الفلك تُرجم إلى اللغة العربية كتاب شهير يحمل عنوان " التقويم الدائم" لزاكوتوس .

– وفي الفلك أيضاً تُرجم " المسقط العمودي لإسطرلاب روجاس " إلى الفارسية ، وذلك في أوائل القرن الثامن عشر .

ثانياً : الأعمال الموسوعية :

تحدثنا في الفصل السابق عن العلماء الموسوعيين ، وتناولنا اثنين من أعظم العلماء المسلمين وهما : أبو بكر الرازي ، وأبو الريحان البيروني وفي هذا المحل نشير إشارة عابرة إلى بعض الأعمال الموسوعية في فترة التفكك والانهيار ، وقد تمثلت هذه الأعمال في أعمال كل من : النويري وبن فضل الله العمري والقلقشندي ، وثلاثتهم إفراز جيد للمرحلة المملوكية من الحضارة الإسلامية ، وهذا مؤشر على ازدهار الثقافة العربية الإسلامية في إطار الإسلام الأوسع الذي استوعب الجميع ، وسوف نجد أمثلة مشابهة لذلك في الثقافات الأخرى الفارسية والتركية .

ثالثاً : علم الفلك :

يعد علم الفلك من العلوم التي ظلت نشيطة في فترة التفكك والانهيار ، وذلك لأكثر من سبب : السبب الأول أن كل من المغول والعثمانيين الذين سيطروا على مناطق العالم الإسلامي خلال فترة التفكك والانهيار كانوا قد اهتموا بهذا العلم بشكل فاق اهتمامهم بأي علم آخر ، السبب الثاني أن علم الفلك قد وجد اهتماماً أيضاً في المناطق المستقلة مثل إيران والمغرب العربي وأسبانيا ، السبب الثالث أن هذا العلم قد وجد تطبيقاته في المراصد

التي انتشرت في مراغة واستنبول وغيرها وفي أدلة السواحل ، السبب الرابع أن علم الفلك وتطبيقاته التي برزت ضرورتها وأهميتها في العديد من جوانب الحياة المدنية منها والحربية قد أقام نوعاً من التعاون والتنسيق على امتداد مناطق العالم الإسلامي ، فقد ثبت أن ثمة تعاوناً بين علماء الفلك في مراغة واستنبول والمغرب العربي وأسبانيا ، وأضيف إلى كل هؤلاء علماء من الصين مسقط رأس المغول .

وفي مجال علم الفلك وتطبيقاته يعد نصر الدين الطوسي هو الشهر في الجمع بين علم الفلك التنظيري وتطبيقاته المتمثل أهمها في بناء مرصد مراغة في عصر المغول وهي أعظم مدن أذربيجان ، وقد أنشأ فيها نصير الدين الطوسي مرصداً أُعتبر من أشهر المراصد وأكبرها ، واشتهر بآلاته الدقيقة وتفوق المشتغلين فيه ، كما اشتهرت أرصاد هذا المرصد بالدقة ، لدرجة أن اعتمد عليه علماء أوربا في بحوثهم العلمية في عصر النهضة ، وكان المغول يستشيرون نصير الدين الطوسي في هذا المجال وغيره من المجالات الأخرى .

كذلك اقترن علم الفلك بعلم الحساب وحساب المثلثات والهندسة انطلاقاً من كون كافة العمليات الفلكية تتم عن طريق الحساب للجيوب والدوائر الكاملة والناقصة ، وكانت علوم الفلك والرياضيات من العلوم التي انتشرت بشكل ملفت في فترة التفكك والانهيار وسبب ذلك يرجع إلى الاستخدامات المتعددة لعلمي الفلك والرياضيات في الحياة العملية وارتباطهما بالكثير من الظواهر الطبيعية التي تتوقف عليها نشاطات الزراعة والحصاد والصيد والملاحة وغيرها من النشاطات .

ومن خلال نظرة فاحصة على النشاط العلمي في مجالي الفلك والحساب على امتداد العالم الإسلامي يمكن استنباط أكثر من ملاحظة :

❖ **الملاحظة الأولى** : أن النتاجات العلمية في هذين المجالين كانت دوماً وفي الأغلب الأعم تدور في إطار ما قدم من قبل ولم يضاف الجديد إلا نادراً ، وذلك بالرغم من أنه يرفع من شأن التراث الإسلامي في هذين المجالين ، إلا أنه يثبت أن العطاء قد أصبح محدوداً والتجديد قد بات نادراً ، كما أن التواصل مع الماضي أوشك أن يضعف .

❖ **الملاحظة الثانية** : أن النتاجات العلمية في هذين المجالين بالرغم من وفرتها نسبياً ، إلا أنها لم تترجم ولم تنقل إلى الحضارات الأخرى ، وبالذات إلى أوربا التي كانت قد التقت بتراث السابقين الأولين ، نظراً لما فيه من قيمة لا تضاهى ، في مقابل ذلك كان النتاج العلمي في فترة التفكك والانهيار يخلو من الإضافات والابتكارات ذات الشأن والقيمة ، في الوقت الذي كانت أوربا قد بدأت نهضتها بشكل كثيف وسريع .

❖ **الملاحظة الثالثة** : أن النتاج العلمي في مجالات الفلك والحساب والرياضيات والعلوم الأساسية إجمالاً كان كثيفاً وفعّالاً في حقبة التفكك عنه في حقبة الانهيار ، ويترتب على ذلك أن المناطق التي وقعت تحت السيطرة المغولية كانت أكثر عطاءاً وتفاعلاً من المناطق التي خضعت للسيطرة العثمانية ، كما أن المناطق التي ظلت بمنأى عن السيطرتين لم تكن بأحسن حال بل كانت في نفس المستوى من الهبوط العام ، وكانت في حالة من العزلة أثّرت على العطاء العلمي ونوعيته .

وفي مجالات الفلك والحساب وحساب المثلثات نبدأ جولة في العالم الإسلامي خلال الفترة من ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م وهي سنة سقوط بغداد أمام المغول ، وحتى أواخر القرن الثامن عشر حيث بدأت السيطرة الأوربية تحل على العالم الإسلامي دولة بعد أخرى .

ونبدأ جولتنا من أقصى الشمال الغربي للعالم الإسلامي ، من الأندلس الذي أوشك الإسلام فيه على الرحيل ، ويطلع علينا من الأندلس محمد بن رضوان الوادي آشي المتوفى في عام

٦٥٧ هـ / ١٢٥٩ م وقد وضع مؤلفات في الفلك والحساب منها : " تقاييد منثور ومنظوم في علم النجوم " و " الإسطرلاب الخطي والعمل به " .

ثم ننتقل إلى المشرق الإسلامي تحت وطأة الاحتلال المغولي لنجد المفضل بن عمر الأبهري السمرقندي المعروف بأثير الدين الأبهري والمتوفى في عام ٦٦٣ هـ / ١٢٦٤ م وقد اشتغل بالحكمة والطبيعيات والفلك ، ووضع في ذلك مصنفات منها : " مختصر في علم الهيئة " و" رسالة الإسطرلاب " و " درايات الأفلاك " و " الزيج الشامل " .

ومرة أخرى نشير إلى محمد بن محمد بن الحسن المعروف بنصير الدين الطوسي الذي كان على علاقة جيدة بخانات المغول ، وقد أنشأ في مدينة مراغة أهم مدن أذربيجان مرصداً شهيراً ذاع صيته بما يحويه من آلات دقيقة وبالعاملين فيه من علماء مهرة ، وقد عُرفت أرصاد هذا المرصد بالدقة ، وكان ذلك من دواعي اعتماد علماء أوربا عليه في بحوثهم في الفلك ، وقد توفى الطوسي في عام ٦٧٢ هـ / ١٢٧٤ م .

وفي اليمن يظهر محمد بن أبي بكر الفارسي المشهور بالفارسي ، والمتوفى في عام ٦٧٧ هـ/١٢٧٨ م ، وقد برع في الأدب والفلك ، وصنف " نهاية الإدراك في أسرار علوم الأفلاك " و" الدرة المنتخبة في الأدوية المجربة " .

ويستمر عطاء مسلمي الأندلس في مجالات الفلك والحساب ، ويبدو ذلك العطاء في أعمال يحي بن محمد المعروف بابن أبي الشكر المتوفى في عام ٦٨٠ هـ / ١٢٨٠ م ، ومن تلك الأعمال " عمدة الحاسب وغنية الطالب " و " تسطيح الإسطرلاب " و " النجوم " و " المخروطات " و " الجامع الصغير في أحكام النجوم " .

وفي مصر المملوكية يجد الفلك والطب حظاً ولغراً من اهتمامات أحد سلاطينها المماليك ، وهو عمر بن يوسف بن عمر والمعروف بالأشرف الرسولي ، وهو الملك الأشرف المتوفى في

عـــام ٦٩٦ هـــ / ١٢٩٦ م ، ولــه مـصنفات في الفــلك والطـب منهـــا : " الإسطـــرلاب " و " التبصرة في علم النجوم " و " المعتمد في مفردات الطب " .

وعودة إلى الأندلس حيث ينشأ محمد بن علي بن عبد الله المعروف بابن الحـاج في غرناطـة ، ويخبر شئون الفلك ، ويعمل بالسياسة ، ثم يرحل إلى فـاس في المغـرب ويـستقر بهـا ، ويصنع الدولاب المنفسح القطر ، ويتوفى في عام ٧١٤ هـ / ١٣١٥ م .

ومن مراكش نبغ أحمد بن محمد بن عثمـان الأزدي المعـروف بـابن البنّـاء في علـوم عديـدة منها : الفلك والرياضيات بجميـع فروعهـا ، وقـد صـنف في الفلـك " منهـــاج الطالـب لتعــديل الكواكب " وفي الحساب وضـع " المقــالات " و " اللوازم العقلية في مدارك العلوم " و " تلخيص أعمال الحساب " وتوفى بن البنّاء في عام ٧٢١ هـ / ١٣٢١ م .

ومن المغرب العربي كذلك يتخصص بن سمعون في الفلك ، وهو محمد بن أحمد بن سمعون المتوفى في عام ٧٣٧ هـــ / ١٣٣٧ م ويـضع عـدة مؤلفـات منهـا " التحفـة الملكيـة في الأسـئلة والأجوبة الفلكية " و " الأصول الثامرة في الأعمـال بربـع المـساطرة " و " كنـز الطـلاب في الأعمال بالإسطرلاب " .

ومن الشام يخرج محمد بن أحمد عبد الرحيم المشهور بالسمزي عالمـاً بالفلـك والحـساب ، ومن كتبه " كشف الريب في العمل بالجيب " و " رسالة في الإسطرلاب " و "العمـل بربـع الدائرة " وتوفى في عام ٧٥٠ هـ / ١٣٤٩ م .

ومن الشام أيضاً ومن دمشق تحديداً يخرج علي بن إبـراهيم بـن محمـد الأنـصاري المؤقـت المعروف بابن الشاطر وقد ذاع صـيته في الفلـك والهندسـة والحـساب ، وقـد شـارك نـصير الدين الطوسي في العديد من الآراء والنظريات الفلكية ، وقد وضع في الفلك عـدة تـصانيف منهـا " إيضاح المغيب في العمل بـالربع المجيـب " و " مختـصر في العمـل بالإسـطرلاب "

و" كفاية القنوع في العمل بـالربع المقطـوع " و" الـزيج الجـــديد " وتـــوفى بـن الـشاطر في عام ٧٧٧ هـ/ ١٣٧٥ م .

ومن بغداد عاصمة الخلافة العائدة إلى الأضواء على استحياء يظهر علي بن عثمان المعروف بـابن القاصح متخصـصاً في الفلـك ، ويـضع مـصنف " تحفـة الطـلاب في العمـل بربـع الإسطرلاب " وتوفى في عام ٨٠١ هـ / ١٣٩٩ م .

ويبرز العلماء الشّوام اهتماماً بالفلك حيث يتخـصص موسـى بـن محمـد الخليلـي المعـروف بالخليلي في علم الفلك ، ومن مؤلفاته " تلخيص في معرفة أوقات الصلاة وجهة القبلة عند عدم الآلات " و " رسـالة في الربـع المـشطّر بعـرض دمـشق " و " رسـالة في الإسـطرلاب " وتوفى في عام ٨٠٧ هــ / ١٤٠٤ م .

ومن مصر المملوكيـة يـبرع في الفلـك والحـساب عبـد الله بـن خليـل بـن يوسـف المـشهـور بالمارداني ، و يقدم رسالتين في الحـساب والميقـات : الأولى في العمـل بـالربع المجيـب ، والثانية في العمل بربع المقنطرات ، وقد توفى المارداني في عام ٨٠٩ هـ / ١٤٠٦ م .

ومن الجزائر يبرع في الفلـك العـالم أحمـد بـن حـسين بـن علـي الخطيـب ، أبـو العبـاس القسنطيني المعروف بابن قنفذ من أهل قسنطينة بالجزائر ، وضـع في الفلـك عـدة مؤلفـات منهـا " تيـسير المطالـب في تعـديل الكواكـب " و" شـرح منظومـة بـن أبـي الرجـال " و " سـراج الثقـاة في علـم الأوقـات " و " القنفذيـة في إبطـال الدلالـة الفلكيـة " وتـوفى في عام ٨١٠ هـ / ١٤٠٧ م .

كما يعتبر علي بن محمد المعروف بالجرجاني من كبـار العلمـاء بجرجـان ، ولـه في الفلـك كتاب " شـرح الملخـص " ولـه كـذلك في العلـوم " مقاليـد العلـوم " وتـوفى الجرجـاني في عام ٨١٦ هـ / ١٤١٣ م .

ثم تواصل مصر المملوكية عطاءها في هذه الفترة ، وتتميز ببعض الاستقرار الذي انعكس على الحياة العلمية والفكرية ، ومن إفرازات هذه الفترة إلى جانب الكثيرين غيره برز محمد بن أبي بكر بن عبد العزيز الحموي الملقب بابن جماعة ، الذي برع في علوم كثيرة كان الفلك من أهمها ، وقد وضع فيه كتاب " النجم اللامع " وتوفى بن جماعة في عام ٨١٩ هـ / ١٤١٦ م .

ومن فارس وأيضاً في مجال الفلك يبرع العالم المشهور جمشيد بن مسعود بن محمود الكاشاني ، الذي وضع عدة تصانيف منها " الأبعاد والأجرام " و " مفتاح حساب واستخراج نسبة القطر إلى المحيط " وتوفي الكاشاني في عام ٨٣٢ هـ / ١٤٢٩ م .

وفي الفلك كذلك هناك أحمد بن رجب أبو العباس شهاب الدين بن المجدي الذي جمع بين علمي الفلك والحساب ، ووضع في الفلك عدة تصانيف منها " تعديل القمر المحكم " و " بغية الفهيم في صناعة التقويم " وله في الحساب كتاب " إرشاد الحائر إلى تخطيط فضل الدوائر " وقد توفى بن المجدي في عام ٨٥٠ هـ / ١٤٤٧ م .

ومن مصر تخصص في الفلك خضر بن عبد الرحمن البرلسي المصري المشهور بالقباني ، ووضع عدة مؤلفات منها " بهجة الفكر في حل الشمس والقمر " و " إجابة السؤال في معرفة العمل بالهلال " و " الجواهر الحسان وشمس عين الزمان في علم القباني " وتوفى في عام ٨٥٣ هـ / ١٤٤٩ م .

لقد برز اهتمام المغول بعد أن دخلوا الإسلام ببعض فروع العلوم الطبيعية وفي مقدمتها الفلك ، إضافة إلى بعض الفنون مثل الرسم والزخرفة وفنون العمارة ، وفي مجال الفلك وتطبيقاته برز اسم وشخصية الأمير محمد طاغاي بن شاه رخ أحد أمراء المغول على تركستان وبلاد ما وراء النهر ، وجعل سمرقند مركزاً لإمارته ، وقد اشتهر الأمير محمد

طاغاي باسم أولوج بك ، وكان مولعاً بالفلك ومن أجل ذلك أنشأ في سمرقند مدرسة عالية ومرصداً فلكياً زوده بالآلات والأدوات والراصدين المهرة وكبار الفلكيين والرياضيين وقد أخرج أولوج بك في هذا المرصد زيجاً شاملاً عُرف باسمه " زيج أولوج بك " أو " الزيج السلطاني " وقد عُمم هذا الزيج في الشرق والغرب لعدة قرون ، وقد اتسمت أرصاد ذلك المرصد وحساباته بالدقة ، وقد قام مرصد أولوج بك بتصحيح أرصاد فلكي اليونان ، وكان للأمير مؤلفات في حساب المثلثات ، ووضع جداول في الجيوب والظلال ساعدت على تقدم علم الفلك ، وتوفى أولوج بك في عام ٨٥٣ هـ / ١٤٤٩ م .

ومن أهل تلمسان تخصص محمد بن أحمد المشهور بالحبال في علم الفلك ، ووضع عدة مؤلفات منها " بغية الطلاب في علم الإسطرلاب " و" تحفة الحساب في عدد السنين والحساب " وتوفى في عام ٨٦٧ هـ / ١٤٦٣ م .

وهناك الفلكي المصري عبد العزيز بن محمد الوفائي ، له عدة رسائل في الفلك منها " النجوم الزاهرات في العمل بربع المقنطرات " و" نزهة النظر في العمل بالشمس والقمر " و " رسالة في العمل بالربع المجيّب " وقد توفى في عام ٨٧٦ هـ / ١٤٧٢ م .

ومن سمرقند برع علي بن محمد القوشجي في الفلك والرياضيات ، وصنف في الحساب " المحمدية " وفي الفلك " الفتحية " وتوفى القوشجي في عام ٨٧٩ هـ / ١٤٧٤ م .

ومن علماء مصر الذين برعوا في الفلك والحساب كان محمد بن محمد بن أحمد المعروف بابن العطار ، من مؤلفاته " كشف القناع في رسم الأرباع " و " منازل الحج " وتوفى في عام ٨٨٠ هـ / ١٤٧٥ م .

ومن علماء مصر كذلك الذين برعوا في الفلك حسن بن خليل بن مزروع المعروف بالكراديسي ، له مؤلفات منها " كفاية المحتاج من الطلاب إلى معرفة المسائل الفلكية

بالحساب " و " مقدمة في عمل الهلال " و " أشكال الوسائط في المنحرفات والبسائط " وتوفى في عام ٨٨٧ هـ / ١٤٨٢ م .

ومن دمشق تخصص في الفلك محمد بن محمد بن أبي بكر الدمشقي المعروف بالتيزيني له " رسالة في العمل بالجيب " و " رسالة على ربع الدائرة الموضوعة على المقنطرات " توفى في عام ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م .

ومن دمشق أيضاً برع في الفلك والرياضيات محمد بن محمد الدمشقي المشهور بسبط المارديني ، كتب " تحفة الأحباب في علم الحساب " و " حاوي المختصرات في العمل بربع المقنطرات " و " الدر المنثور في العمل بربع الدستور " وقد توفى في عام ٩١٢ هـ / ١٥٠٦م .

ومن الفلكيين المسلمين في حقبة الانهيار عبد العلي بن محمد بن حسين البرجندي ، وضع في الفلك كتاب " مختصر التذكرة النصيرية " وفي الحساب " شرح الفوائد البهية " وتوفى في عام ٩٣٥ هـ / ١٥٢٨ م .

ومن دمشق وفي ظل السيطرة العثمانية على العالم الإسلامي برز الفلكي عبد اللطيف بن إبراهيم بن يحي المشهور بن الكيال له مؤلفات منها " مريح العاني في العمل بالزيج الخاقاني " و " جداول فلكية " وقد توفى بن الكيال في عام ٩٥٠ هـ / ١٥٤٣ م .

ويعد سليمان المهري من قلائل العلماء المسلمين الذين تخصصوا في علوم البحر وأنوائه وأحوال النجوم والرياح ، وهو سليمان بن أحمد بن سليمان المهري من بلدة سقطرى ، من مؤلفاته " المنهاج الفاخر في علم البحر الزاخر " و " العمدة المهرية في ضبط العلوم البحرية " وقد توفى المهري في عام ٩٦١ هـ / ١٥٥٤ م .

ومن علماء الفلك السوريين محمد بن علي بن إبراهيم الجبرتي المعروف بابن زريق ، صنف في الفلك " موضع الأدلة في رؤية الأهلة " و " النشر المطيب في العمل بالربع المجيب " وتوفى في عام ٩٧٧ هـ / ١٥٦٩ م .

ومن دمشق كذلك برع في الفلك والحساب محمد بن معروف المشهور بابن معروف ، صنف في الفلك " الدر النظيم في تسهيل التقويم " و " سدرة منتهى الأفكار في ملكوت الفلك الدوّار " ووضع في الحساب " بغية الطلاب من علم الحساب وتوفى في عام ٩٩٣ هـ / ١٥٨٥ م .

ومن المغرب تخصص في الفلك عبد الله بن محمد التاجوري واشتهر بالتاجوري ، وله في الفلك رسالتان ، الأولى " رسالة في العمل بربع المقنطرات " والثانية " رسالة في الفصول الأربعة " وقد توفى التاجوري في عام ٩٩٩ هـ / ١٥٩٠ م .

ومن مراكش تحديداً برع في الفلك كذلك عبد الرحمن بن عمرو الجزولي المشهور بالجرادي ، وله في الفلك " قطف النوار من روضة الأزهار " وله كذلك " شرح الروضة في التوقيت والهيئة والحساب " وقد توفى الجرادي في عام ١٠٠٨ هـ / ١٦٠٠ م .

كذلك كان عبد القادر بن محمد الفيومي من العارفين بالفلك والحساب ، وضع في الفلك مؤلفاً هو " شرح النزهة " وفي الجبر والمقابلة وضع " المقنع " وتوفى في عام ١٠٢٢ هـ / ١٦١٣ م .

ومن اليمن ظهر محمد بن أحمد بن عز الدين المشهور بابن العز متخصصاً في الفلك ووضع قصيدة رائية القافية شرح فيها معرفة المواقيت ومواد نافعة في علم الفلك ومسألة الخسوف وتوفى في عام ١٠٥٣ هـ / ١٦٤٤ م .

ومن البصرة ظهر الفلكي المعروف بابن ميمي وهو عبد القادر بن أحمد بن علي البصري ، صنف في الفلك " يتيمة العصر في المد والجزر " وتوفى بن ميمي في عام ١٠٨٥ هـ/١٦٧٤ م .

ومن علماء المغرب في الفلك محمد بن محمد بن أحمد المشهور بابن ناصر الدرعي ، وضع مؤلفاً في الفلك بعنوان " الممتع في شرح المقنع " وتوفى في عام ١٠٨٥ هـ / ١٦٧٤ م .

وكان عبد الجليل بن محمد بن أحمد العمري المعروف بابن عبد الهادي من العارفين بالفلك ، وضع كتاب " الربع الجامع " في الفلك ، وتوفى في عام ١٠٨٧ هـ / ١٦٧٦ م .

ومن أهل حضرموت نبغ في الفلك والرياضيات محمد بن أبي بكر بن أحمد الحسيني المعروف بالشلي ، وله في الفلك رسائل منها " علم المجيب " و " علم الميقات بلا آلة " و " المقنطرات " و " الإسطرلاب " وقد توفى في عام ١٠٩٣ هـ / ١٦٨٢ م .

ومن العلماء الذين تخصصوا في الفلك العالم الفلكي المصري المهندس رضوان بن عبد الله الفلكي المشهور بالفلكي ، من كتبه في الفلك " دستور أصول علم الميقات " و " بغية الطلاب في استخراج الأعمال الفلكية بالحساب " و" تقويم فلكي " و" معرفة الاجتماع والاستقبال " و " الكسوف والخسوف " وتوفي في عام ١١٢٣ هـ / ١٧١١ م .

ومن العلماء الثقاة الذين برعوا في الفلك والحساب كذلك العالم المصري رمضان بن صالح بن عمر المعروف برمضان السفطي ، من كتبه " نزهة النفس بتقويم الشمس " و " كفاية الطالب في علم الوقت والسمت " و " الكلام المعروف في الكسوف والخسوف " و " رشف الزلال في معرفة استخراج مكث الهلال " و" كشف الغياهب عن مشكلات أعمال الكواكب " و " مطالع البذور في الضرب والقسمة والجذور" وتوفى في عام ١١٥٨ هـ / ١٧٤٥ م .

ومن علماء المسلمين الذين تخصصوا في الفلك والرياضيات إسماعيل بن مصطفى بن محمود الكلنبوي الرومي ، ألّف " دقائق البيان في قبلة البلدان " ورسالة في " الربع المجيب " وتوفى في عام ١٢٠٥ هـ / ١٧٩١ م .

رابعاً : الرياضيات :

في هذه الجزئية نشير إلى عطاء العقول الإسلامية في مجال الرياضيات في فترة التفكك والانهيار ، وقبل أن نخوض في تلك الإشارات نقدم جملة من الملاحظات منها :

❖ **الملاحظة الأولى** : أن المسلمين كانوا يكتبون في علوم شتى مرتبطة ببعضها مرة ، وقد لا تكون مرتبطة ، فهناك من يكتب في الأدب والطب والرياضيات ، وقد قاد ذلك إلى تنوع عطاء وإسهام المؤلف الواحد الذي يعد بذاته موسوعة علمية .

❖ **الملاحظة الثانية** : أن ثمة علاقة قوية بين الفلك والرياضيات ، فالفلك دراسة لظواهر طبيعية باستخدام علوم رياضية وبالذات الحساب وحساب المثلثات ، وبالرغم من قوة هذه العلاقة إلا أن الفلك يظل علماً قائماً بذاته وله تطبيقاته في كافة مجالات الحياة ، ومن ثم برزت ضرورة فصل علم الفلك عن علوم الرياضيات عند الحديث عن إسهام المسلمين في العلوم الطبيعية ، وذلك لأن لكل علم مفرداته ، وكذا له منطلقاته ومسارات حركته ، فعلم الفلك – كما قدمنا – دراسة لظواهر طبيعية وتعامل مع عناصر الوجود ، أما الرياضيات فهي وسيلة تلك الدراسة وآلية ذلك التعامل وهكذا كانت دوماً .

❖ **الملاحظة الثالثة** : تتعدد فروع علم الرياضيات ، ومن علماء المسلمين من صنف في جميع هذه الفروع ، ومنهم من تخصص في بعض منها ، ولعل أشهر ما عرفه المسلمون من تلك الفروع هو : الحساب والجبر والهندسة وحساب المثلثات والديناميكا والاستاتيكا (علم الحركة وعلم السكون) والتفاضل والتكامل ، وقد قدموا فيها من الإنجازات الكثير

، إلا أن تلك الإنجازات قد انحسرت في فترة التفكك والانهيار ، واقتصرت على شرح وتكرار ما قدمه الأولون .

ونبدأ في الحديث عن الرياضيات في إسهام العلماء المسلمين من المغرب العربي ، حيث أننا قد انتهينا في الفصل السابق عند الحديث عن الإسهامات الإسلامية في الرياضيات بالتركيز على علماء المشرق الإسلامي ، ومن المغرب العربي نبدأ منذ وقت مبكر قليلاً من السموأل بن يحي بن العباس ، ويرجع اصله إلى المغرب ، ولكنه هاجر إلى بغداد ثم عاد إلى المغرب ، وهو مهندس رياضي وعالم بالطب ، من مؤلفاته " المفيد الأوسط " في الطب ، و " إعجاز المهندسين " و " القوامي في الحساب الهندي " و " المثلث القائم الزاوية " و " الباهر " في الرياضيات ، وتوفى في عام ٥٧٠ هـ / ١١٧٥ م .

كذلك عاصر السموأل بن يحي في المغرب العربي عالم آخر هو يوسف بن إبراهيم المعروف بالورجلاني له كتاب " مرج البحرين " وهو يشمل المنطق والهندسة والحساب ، وتوفى في عام ٥٧٠ هـ / ١١٧٥ م .

ثم نتحول إلى المشرق مرة أخرى حيث نجد يحي بن محمد بن عبدان المعروف بابن اللبودي الذي عاش في الشام ومصر ، وهو من العلماء في الطب والرياضيات ، من مؤلفاته " الرسالة الكاملة في علم الجبر والمقابلة " و " كافية الحساب " وتوفى في عام ٦٧٠ هـ / ١٢٧١ م .

ومن الهند الإسلامية ظهر الرياضي الهندي عبد المجيد بن عبد الله المعروف بالسامولي ، له مؤلفات عربية في الرياضيات أهمها " الرسالة النافعة في الحساب والجبر والهندسة " وتوفى بعد عام ٧٠٠ هـ / ١٣٠٠ م .

وهناك كذلك علي بن محمد المعروف بالباجي ، وهو مغربي الأصل ، عالم بالأصول والحساب ، له في الحساب كتاب " الحساب " وتوفي الباجي في عام ٧١٤ هـ / ١٣١٥ م .

ثم نعود مرة أخرى للحديث عن بن البنّاء الذي سبق أن تحدثنا عنه في الحديث عن الفلك ، وفي الحساب صنف بن البنّاء " المقالات " و " تلخيص أعمال الحساب " وتوفى في عام ٧٢١ هـ / ١٣٢١ م .

ومن المغرب تخصص في الحساب عبد العزيز بن علي الهواري ، الذي ألّف " اللباب في أعمال الحساب " وتوفى في عام ٧٤٥ هـ / ١٣٤٥ م .

ومن مصر كان عبد الرحمن بن يوسف بن إبراهيم الأصفوني من علماء الحساب صنف في الحساب " المسائل الجبرية في إيضاح المسائل الدورية " وتوفى في عام ٧٥٠ هـ / ١٣٥٠ م .

ومن الأندلس تخصص في الرياضيات العالم الرياضي يعيش بن إبراهيم الأندلسي المعروف بالأموي ، من كتبه " رفع الإشكال في مساحة الأشكال " و " مراسم الانتساب في علم الحساب " وتوفى في عام ٧٧٢ هـ / ١٣٧٠ م .

كذلك هناك العالم الرياضي المصري الشهير أحمد بن محمد بن عماد الدين بن علي المعروف بابن الهائم ، ولد في مصر وعاش فيها ثم انتقل إلى القدس ومات فيها ، له في فروع الرياضيات مؤلفات عديدة منها " اللمع " و " مرشد الطالب " و " مختصر وجيز في علم الحساب " و " المعونة " و " الوسيلة " و " النزهة " في الحساب ، و " غاية السؤال في الإقرار بالمجهول " و " المقنع " في الجبر ، وتوفى في عام ٨١٥ هـ / ١٤١٢ م .

ومن فاس تخصص في الحساب علي بن عبد الله المعروف بالتادلي ، وضع شرحاً على تلخيص بن البنّاء في الحساب سمّاه " التمحيص " وصنف " تحفة الطلاب وأمنية الحساب " وتوفى في عام ٨١٦ هـ / ١٤١٣ م .

كذلك تخصص في الحساب محمد بن محمد بن أحمد المعروف بالحجازي ، وضع في الحساب " شرح على مختصر التلخيص لابن البنّاء " ورسالة في علم الوقت والقبلة ، وتوفى في عام ٨٤٩ هـ / ١٤٤٥ م .

وفي الرياضيات أيضاً لمع الحسن بن محمد بن الحسين النيسابوري المعروف بالنظام النيسابوري ومن كتبه التي عثر عليها " توضيح التذكرة النصيرية " في علم الهيئة ، وتوفى في عام ٨٥٠ هـ / ١٤٤٦ م .

وفي مصر برع علي بن عبد القادر الشريف السني المعروف بالسيد الفرضي في الحساب , وله تصانيف شهيرة منها " الفوائد الربانية في شرح المبتكرات الحسابية " و "الفوائد الجليلة" شرح به الوسيلة في الحساب لابن الهائم ، وتوفي في عام ٨٧٠ هـ / ١٤٦٥ م .

ومن مصر كذلك نبغ العلاّمة أحمد بن إبراهيم بن نصر الله عز الدين الكناني العسقلاني في الجبر والمساحة ، كان عالماً مبدعاً ، له منظومة في الجبر والمقابلة ومنظومة في المساحة ، وتوفى في عام ٨٧٦ هـ / ١٤٧١ م .

ومن مكة المكرمة تخصص في الحساب علي بن محمد بن إسماعيل المعروف بالزمزمي له في الحساب منظومة " فتح الوهاب في علم الحساب " و " تحفة الطلاب " و " كنز الطلاب " وتوفى الزمزمي في عام ٨٨٥ هـ / ١٤٨١ م .

ومن الأندلس ظهر العالم العلامة على بن محمد بن على القرشي المعروف بالقلصادي متخصصاً في الحساب والجبر ، ومن كتبه " شرح الأرجوزة الياسمينية " في الجبر

والمقابلة ، و " قانون الحساب " و " كشف الأسرار " في الحساب ، وله كذلك " رسالة في الجبر" وتوفى القلصادي في عام ٨٩١ هـ / ١٤٨٦ م .

ومن مصر برع في الحساب عبد الله بن محمد بن عبد الله خطيب الجامع الأزهر المشهور بالشنشوري ، له مؤلفات منها " شرح مرشد الطلاب لابن الهائم " و " شرح تحفة الأحباب في معرفة الحساب " و توفي الشنشوري في عام ٩٩٩ هـ / ١٥٩١ م .

ومن دمشق يبرز في الحساب والهندسة يحي بن تقي الدين بن إسماعيل الحلبي الدمشقي المعروف بالفرضي ، وهو غير السيد الفرضي العالم المصري المشار إليه سابقاً ، ومن تصانيف الفرضي " مسلك الطلاب في شرح نزهة الحساب " وتوفي في عام ١٠٢٨ هـ / ١٦١٩ م .

وفي الحساب كذلك برز على بن أحمد بن محمد المعروف بالرسموكي ، له في الحساب " شرح منظومة في الحساب " وتوفي الرسموكي في عام ١٠٤٩ هـ/ ١٦٤٠ م .

ومن اليمن ظهر أحمد بن على بن محمد الحكمي المعروف بابن مطير متخصصاً وجامعاً بين الفرائض والحساب ، وله في ذلك مصنف " تسهيل الصعاب في علم الفرائض والحساب " توفي في عام ١٠٦٨ هـ / ١٦٥٨ م .

وأيضاً يأتي على بن أبي بكر بن على المصري المعروف بابن الجمال الذي عاش ومات بمكة المكرمة جامعاً بين علمي الفرائض والحساب ، ومبدعاً في تصانيفه الذي منها " قرة عين الرائض في فني الحساب و الفرائض " و " التحفة الحجازية في الأعمال الحسابية " و " فتح الوهاب علي نزهة الحساب " و توفى في عام ١٠٧٢ هـ / ١٦٦١ م .

ومن المغرب كذلك جمع محمد بن أحمد الصباغ بين علمي الفرائض والحساب ، ومن كتبه في الحساب " إدراك البغية في شرح المنية " لابن غازي ، وله كذلك " سلك فرائد اليواقيت في الحساب والفرائض والمواقيت " وتوفي في عام ١٠٧٦ هـ / ١٦٦٦ م .

ومن الذين تخصصوا في الجبر والمساحة الحاسب اليمني احمد بن عبد الله السلمي الأصابي ، ينسب إلى ذي أصاب باليمن ، من كتبه في الجبر " ترويح ذوي الإمعان والمحاولة في علم الجبر والمقابلة " وفي المساحة " شرح الأفهام المراحة في علم المساحة " وتوفي في عام ١١١٨ هـ / ١٧٠٠ م .

أما العالم المهندس عبد العزيز بن محمد الرحبي البغدادي المعروف بالرحبي فقد تخصص في الهندسة ، وصنف فيها " البرهان المحرر لمعرفة مساحة الحوض المربع والمدور " وتوفى في عام ١١٨٤ هـ / ١٧٧٠ م .

ومن علماء الحساب والجبر العالم المصري محمد بن موسى الجناحي المعروف بالجناحي ، له رسالة في " تحويل النقود بعضها إلي بعض " وتوفي في عام ١٢٠٠ هـ / ١٧٨٠ م .

خامساً : التاريخ الطبيعي :

التاريخ الطبيعي بحقوله الثلاثة : النبات والحيوان والأرض كان من أقل العلوم التي اهتم بها المسلمون ، وقدموا فيها إسهامات ذات شأن في فترة التفكك و الانهيار ، ويرجع ندرة الإسهام والعطاء إلي : الهبوط العام الذي اتسمت به مقومات الحضارة والثقافة الإسلامية ، ومن ضمنها العلوم الطبيعية وتطبيقاتها ، ثم إلي قلة المتخصصين في التاريخ الطبيعي ، وإلي توزع حقول هذا العلم بين علوم أخرى واشتراكها معها مثل : الطب والجغرافيا والتاريخ وحتى الأدب واللغة ، إلا أن ما قدمه علماء المسلمين في هذا العلم بالرغم من قلته

فقد ارتبط بالبيئة وكان وثيق الصلة بالواقع الطبيعي والاجتماعي ، وسوف نعرض لما قدمه علماء المسلمين في التاريخ الطبيعي بحقوله الثلاثة من خلال ما يلي :

❖ النبات :

شح العطاء بشكل ملحوظ فيما يتعلق بعلوم المسلمين في النبات في فترة التفكك والانهيار ، فعلى مدى هذه الفترة الطويلة لم نقف على أعمال ذات شأن في هذا الحقل وكل ما أفرزته قريحة أبناء الإسلام تراوح بين أشكال أربعة نشير إليها في الآتي :

– الأعمال الجادة المتخصصة وهي في هذا الشأن عمل واحد قدمه بالفارسية حمد الله بن أبي بكر بن أحمد بن نصر المستوفى القزويني والمعروف بالمستوفى القزويني ، عاش هذا العالم المسلم في القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي أبان حكم السلطان المغولي غازان حفيد هولاكو الذي دخل الإسلام ، وبتشجيع من غازان وضع حمد الله المستوفى القزويني عملين شهيرين :

○ العمل الأول : يعرف بـ " تاريخ كزيدة " أي " التاريخ المختار " بالفارسية ويتضمن متفرقات مختارة من التاريخ حتى عام ٧٢١ هـ/١٣٣٠ م .

○ العمل الثاني : وهو عمل موسوعي ضخم يسمى " نزهة القلوب " وجاء كذلك بالفارسية ، وأفرد فيه جزءً خاصاً بالنبات وآخر خاصاً بالحيوان ، وقد تُرجم الجزء الخاص بالحيوان من كتاب نزهة القلوب إلى الإنجليزية في عام ١٩٢٨ م ، ويعد القسم الخاص بالنبات في موسوعة حمد الله المستوفى القزويني العمل العلمي الجاد في هذا الخصوص ، حيث تناول فيه أنواع عديدة من النباتات وذكر خصائصها واستعمالاتها وفوائدها ، إلى جانب ما تقدم تضمن مصنف المستوفى القزويني أقساماً في الجغرافيا والفلك .

كذلك كان للمستوفى القزويني إلى جانب ما تقدم ديوان شعر يسمى " ظفر نامة " وهو يعتبر استكمالاً لديوان " الشهنامة " الذي ألفه الفردوسي ولم يتمكن من استكماله وهو الشاعر الفارسي الشهير .

– أعمال الجغرافيين الرحالة : إلى جانب عمل المستوفى القزويني في علم النبات كان هناك أعمال الجغرافيين الرحالة من أمثال : بن بطوطة المتوفى في عام ٧٧٩ هـ ، وقد قدم بن بطوطة وأمثاله من الجغرافيين الرحالة رافداً مهماً من روافد الاهتمام بعلم النبات في فترة التفكك والانهيار ، وكانت هذه المعلومات التي قدمها الجغرافيون الرحالة عن النباتات وأنواعها وخصائصها وفوائدها في المناطق والبيئات التي مروا بها تحمل في بعض الأحيان سمات الطرافة والندرة التي قد تقلل من قيمتها العلمية وجديتها ، ولكنها تبقى في النهاية سبّاقة ومفيدة في حقل علم النبات .

– أعمال اللغويين : الشكل الثالث من أشكال اهتمام المسلمين بعلم النبات في فترة التفكك والانهيار تجسد في أعمال اللغويين الذين قدموا تعاريف مهمة للنباتات المختلفة وبيئاتها التي نشأت فيها ومن أمثلة ذلك كتاب" المخصص " لابن سيدة الضرير ، وكتاب "لسان العرب " لابن منظور ، وكتاب " القاموس المحيط " للفيروزآبادي المتوفى في عام ٨١٦ هـ .

– أعمال الأطباء والعشّابين : الشكل الرابع من أشكال اهتمام المسلمين بعلم النبات في فترة التفكك والانهيار ورد في أعمال الأطباء والعشّابين ، الذين اهتموا بوصف ودراسة وتحليل النباتات التي تستعمل كأدوية ، وهذه العمال قليلة ونذكر منها ما يلي :

○ كتابي " التاج " و " الأدوية المفردة " لرشيد الدين بن علي الصوري المعروف بابن الصوري ، وهو عالم بالنبات والطب ، وتوفى بن الصوري في عام ٦٣٩ هـ / ١٢٤١ م .

○ كتاب " الأدوية المفردة " لمحمد بن أحمد الأموي المعروف بابن أندراس وهو عالم بالطب من تونس توفى في عام ٦٧٤ هـ / ١٢٧٥ م .

○ كتاب " الحاوي في علم التداوي " لمحمود بن إيلياس الشيرازي المعروف بالشيرازي وقد اشتهر بهذا الكتاب وتوفى في عام ٧٣٠ هـ / ١٣٣٠ م .

○ كتاب " النبات " لابن السراج وهو محمد بن إبراهيم من أهل غرناطة تخصص في الطب والنبات وتوفي في عام ٧٣٠ هـ / ١٣٣٠ م .

○ كتب " التسهيل " و " الفريدة في ذكر الأغذية المفيدة " و " شفاء الأسقام ودواء الآلام " و " اختيارات الشفاء " لخضر بن علي بن مروان بن علي المعروف بحاجي باشا ، وهو طبيب مصري مشهور عمل بالطب وتركيب العقاقير توفى في عام ٨٢٠ هـ / ١٢٤١ م .

○ كتاب " حديقة الأزهار في شروح ماهية العشب والعقار " لقاسم بن محمد الغساني المعروف بالوزير الغساني ، وهو طبيب أعشاب من أهل فاس توفى في عام ١٠١٩ هـ/١٦١١ م .

○ كتابي " زبدة المنحة في علمي العلاج والصحة " و " الروض المأنوب في الترياق " لعبد الواحد بن محمد بن عبد الواحد المعروف بابن الدلاج ، وهو طبيب مغربي توفى في عام ١٠٩٩ هـ / ١٦٨٨ م .

❖ الحيوان :

وإذا انتقلنا إلى الفرع الثاني من فروع التاريخ الطبيعي وهو علم الحيوان ، فسنجد أن ما قدمه المسلمون فيه من إسهام علمي ربما كان أكثف واعمق مما قُدم في الفرع الأول خلال فترة التفكك والانهيار ، وبصفة خاصة فيما يتعلق بالدراسات العلمية المتخصصة ،

وهذا ما سوف نلحظه عند استعراض الجهود والإسهامات التي قدمها المسلمون في علم الحيوان والتي جاءت في عدة أشكال نتناولها فيما يلي :

– الشكل الأول : الدراسات المتخصصة ، بالنسبة إلى الدراسات التي تخصصت في علم الحيوان يمكننا الإشارة إلى دراستين كان لهما شأن عظيم فيما يتعلق بهذا الحقل وهما :

○ كتاب " عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات " لزكريا بن محمد القزويني الذي توفى في عام ٦٨٢ هـ / ١٢٨٣ م ، وكذلك كتاب " آثار البلاد وأخبار العباد " .

ويشتمل الكتاب الأول على معلومات قيمة عن علوم متداخلة مثل : الفلك والطبيعة والنبات والحيوان والجيولوجيا ، كما أنه تضمن فصلاً مستقلاً عن الحيوان ، تحدث فيه المؤلف عن رؤيته في نشوء وتطور الكائنات الحية ، ثم أشار إلى نظرية التواؤم بين الحيوان والبيئة التي يعيش فيها ، وكذلك تطرق إلى فكرة التوازن بين طبيعة الكائنات وجدواها في الكون وطرق تكاثرها وأساليب فنائها واندثارها ، وكل ذلك بشكل علمي رصين ، إلا أن ما تخلل الكتاب أو ورد في ثناياه من بعض الطروحات التي نحت منحى غير علمي جمع بين التخمين والخرافة ، لا يمكن أن يحط من قدره كإسهام علمي له وزنه في الأيام التي جاء فيها ولا يزال كذلك .

○ كتاب " حياة الحيوان الكبرى " لكمال الدين الدميري المتوفى في عام ٨٠٨ هـ ، يمثل هذا الكتاب إحدى الإسهامات الجادة التي قدمها علماء المسلمين فيما يتعلق بعلم الحيوان ، فقد شمل هذا الكتاب جميع فصائل المملكة الحيوانية المعروفة في وقتنا ما عدا الكائنات الدقيقة ، وقد قسمها الدميري إلى خمسة " مجاميع " هي : الحيوانات المفصلية الأرجل ، البرمائيات والزواحف ، الثدييات ، الأسماك ، والطيور .

وبالرغم مما شاب هذه الدراسة من قصور منهجي وأخطاء علمية إلا أنها تبقى ذات أهمية وفائدة إذا ما تمت مضاهاتها بالزمن الذي ظهرت فيه .

– الشكل الثاني : أعمال الجغرافيين الرحالة ، كما ساهمت أعمال الجغرافيين الرحالة في إثراء الإسهام العلمي للمسلمين في علم النبات أسهمت كذلك في إثراء إسهامهم في علم الحيوان ، ويعد بن بطوطة أشهر من قدم في هذا المجال ، ويلاحظ على إسهام بن بطوطة في هذا المجال أنه لا يتجاوز إسهام الرحالة الذي يسجل مذكراته عما يشاهده أو يسمع عنه من الحيوانات مثل : بعض أوصافها وبالذات النادر منها ، ومنتجاتها التي يستعملها الناس في الغذاء والكساء ، ولم يصل إلى درجة يعتد بها من التعمق والتدقيق في وصف الجسم والأعضاء والبيئة والتاريخ الطبيعي .

– الشكل الثالث : أعمال اللغويين : على شاكلة إسهامهم في علم النبات شارك اللغويون المسلمون بجهود ملموسة في علم الحيوان من خلال معاجمهم التي وضعوها في هذا العلم ، والتي حوت تعاريف للحيوانات المختلفة وأسمائها المتعددة وأماكن تواجدها ، إلى غير ذلك من المعلومات التي كانت ولا تزال تحمل النفع والفائدة .

– الشكل الرابع : أعمال أطباء التشريح : بالرغم من اختلاف المدخل الذي يدخل منه علماء التشريح إلى علم الحيوان إلا أن أعمالهم قد أثرت هذا العلم وأضافت إليه ، وبالذات في فترة التفكك والانهيار التي نحن بصدد دراستها ودراسة إسهامات المسلمين في العلوم الطبيعية خلالها ، ويمكن أن نقدم في هذا الخصوص عملين كان لهما فائدة لا تنكر في الإضافة إلى علم الحيوان خلال الفترة محل الدراسة وهما :

O كتاب " جامع الأدوية المفردة " لابن البيطار المتوفى في عام ٦٤٦ هـ ، وقد سبقت الإشارة إليه ، وذكر بن البيطار الحيوانات في هذا الكتاب من حيث خواص لحومها

وأعضائها ومنافع هذه الأعضاء في علاج الإنسان ، وهو لذلك يذكر اسم الحيوان ويورد ما ذكره غيره من الأطباء والصيادلة عن الخواص ومنافع العلاج ، ومن ثم تبدو قيمة هذا العمل فيما قدمه من تبيان لأهمية لحوم الحيوانات كغذاء وعلاج .

○ كتاب " شرح التشريح " لابن النفيس المتوفى في عام ٦٨٧ هـ ، ويعد بن النفيس من أشهر علماء الطب والتشريح في فترة التفكك والانهيار ، وهذا الكتاب بمثابة تجميع وشرح قام بهما بن النفيس لمناقشات بن سينا وتشريحه للعضلات والأعصاب والأربطة والعظام التي جاءت مبعثرة في شتى أجزاء كتاب " القانون " للشيخ الرئيس ، لقد انتهى بن النفيس في كتابه هذا " شرح التشريح " إلى كشف يعد هو صاحبه دون منازع ألا وهو الدورة الدموية الرئوية (الصغرى) ، وسوف نعود إلى الحديث عن هذا الكتاب وصاحبه مرة أخرى عند الحديث عن علمي الطب والعقاقير .

❖ الأرض :

كان علم الأرض من العلوم التي حازت على اهتمام علماء المسلمين ، وقد جاء هذا الاهتمام مقروناً بالتطبيق العملي الواقعي المصاحب للعلم والمعرفة النظرية ، وفيما يتعلق بالحديث عن اهتمامات المسلمين بعلم الأرض في فترة التفكك والانهيار ، قد نرى من الأهمية بمكان الحديث عن مجموعة من الأعمال العلمية التي وردت متسلسلة ووجدت تطبيقاتها في الواقع العملي ، وتبدأ هذه العمال من الأندلس قبل فترة التفكك والانهيار :

– كتاب " المقنع في الفلاحة " لأبي عمر أحمد بن حجاج الإشبيلي المتوفى في عام ٤٦٤ هـ / ١٠٧٣ م ، لقد ضم كتاب الإشبيلي خبرته الفلاحية ورصد تجاربه الذاتية ثم سجل استفادته من جميع الفلاحين في الأندلس ، وبيّن المقاييس التي عن طريقها يتم معرفة الأراضي الجيدة ، ولم يقسم الإشبيلي هذا الكتاب تقسيماً منهجياً إلى فصول أو أبواب .

- كتاب " الفلاحة " لمحمد بن إبراهيم بن بصال الطليطلي المتوفى في عام ٤٦٢ هـ/١٠٧٥ م ، الشهير بابن بصال ، وهو فلاح من مدينة طليطلة الأسبانية ، رحل عنها بعد قدوم الأسبان ووشوك الإسلام على الرحيل من شبه الجزيرة ، عاصر بن بصال بن وافد اللخمي ، نقل عنه بن حجاج صاحب كتاب " المقنع في الفلاحة " ونقل عنه كذلك بن العوام .

لقد خصص بن بصال الباب الثاني من كتاب الفلاحة لأقسام الأرضين وتسمية أنواعها وتحديد طبائعها ، والاستدلال من ذلك على كرمها وخبثها وذلك مما يبدو من ألوانها وأحوالها .

لم يشر بن بصال في كتابه المذكور إلى أي من الفلاحين أصحاب التجربة أو المؤلفين ، إلا أن ما يُحسب لابن بصال هو أنه جعل من الفلاحة علماً متميزاً بعيداً عن السحر والتنجيم .

- كتاب " الفلاحة " لأبي الخير الأندلسي المتوفى في عام ٤٩٤ هـ / ١١٠٠ م وهو فلاح أصيل درس على الطبيب الإشبيلي أبي الحسن شهاب المعيطي ، وقد نقل عن غيره من الفلاحين ، وقسم كتابه إلى فصول تناولت الفلاحة الهندية والفارسية والنبطية والرومية ، ويلاحظ من كتاب أبي الخير أنه لم يصدر عن كاتب متخصص لأنه كان فلاحاً بالأساس ، ومن ثم فقد نسخ واقتبس الكثير من كتابات وتجارب الفلاحين ، وتناول صفات وخصائص الأرض الصالحة للزراعة .

- كتاب " جامع فرائد الملاحة في جوامع فوائد الفلاحة " لرضي الدين الغزي الدمشقي المتوفى في عام ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧ م ، والغزي رجل دين كتب في الفلاحة ، وهذا الكتاب يقع في مائة وثلاث عشرة صفحة ويحتوى على ثمانية أبواب ، تم تخصيص الباب الأول منها لعلم الأرض ، ونظراً لأهمية هذا الكتاب قام الشيخ عبدالغنى النابلسي المتوفى

في عام ١١٤٣ هـ باختصاره في كتاب أسماه " علم الملاحة في علم الفلاحة " ، وكتاب الغزي من الكتب المهمة في علم الأرض قدّم فيه الكثير من المعلومات والحقائق والعلاقات بين الأرض وغيرها من الظواهر ، كما قدم مصطلحات كثيرة في هذا الشأن لا تزال لها أهميتها في هذا العلم .

سادساً : الكيمياء :

كان العصران الأموي والعباسي بحق هما عصرا الإنجاز والعطاء في مجال الكيمياء أما عصر التفكك والانهيار والذي نحن بصدد دراسته في هذا الفصل فكان الإنجاز فيه محدوداً ، ولقد برز في مجال الكيمياء في عصر التفكك والانهيار عز الدين على الجلدكى ، وهو على بن محمد بن أيدمر المعروف بالجلدكى ، عاش في دمشق والقاهرة ، وهو كيميائي حكيم توفى في عام ٧٤٢ هـ/١٣٤١ م من مؤلفاته : " كنز الاختصاص في معرفة الخواص " و " البدر المنير في معرفة أسرار الإكسير " و " نهاية الطلب في شرح المكتسب في زراعة الذهب " ، كسر الجلدكى حدة شحة العطاء في مجال الكيمياء ، فقد قدم الكثير في هذا الحقل العلمي المهم ومن إنجازاته :

❖ درس الجلدكى تطور علم الكيمياء وإسهامات كافة الحضارات المختلفة في هذا الحقل العلمي ، وقدم تفسيرات للكثير من النظريات والآراء .

❖ يعد الجلدكى أول من تحدث عن قانون النسب الثابتة في الاتحاد الكيميائي ، وطور أسلوب فصل الذهب عن الفضة بواسطة حامض النتريك ، وأدخل تحسينات على صناعة الصابون .

❖ وصف الجلدكي خصائص عنصر الرصاص وعنصر الزئبق ، وطور طريقة التقطير ، فشرح التقطير بأوراق الترشيح والتقطير بالحمّام المائي والتقطير المزدوج ، وقدم وصفاً مفصلاً لطرق الوقاية وإجراءات السلامة في المختبر الكيميائي .

وقبل الجلدكي كان هناك بن كمونة . وهو سعد بن منصور بن سعد بن الحسن الشهير بابن كمونة توفى في عام ٦٨٣ هـ/١٢٨٤ م عمل بالكيمياء وعاش في بغداد ، وله مؤلف بعنوان " تذكرة في الكيمياء " ، وفي مجال الكيمياء كذلك كان هناك أحمد بن عبدالكريم بن عيسى بن أحمد نعمة الله الترمانيني ، وضع مصنفات في علوم كثيرة ، وله في الكيمياء كتاب " الجامع في الكيمياء " .

سابعاً : الفيزياء :

كما كان الوضع بالنسبة لعلم الكيمياء اتسم علم الفيزياء بشحة في العطاء وندرة تشبه الانقطاع واعتمد الجميع على عطاء الأوائل في هذا المجال ، وعن العطاء في فترة التفكك والانهيار يمكننا تناول بعض الاجتهادات فيما يلي :

❖ كمال الدين الفارسي وإضافاته الجيدة إلى مجهودات الحسن بن الهيثم في البصريات :

وكمال الدين الفارسي عالم بالرياضيات أخذ العلم عن قطب الدين الشيرازي توفى في عام ٧٢٠ هـ/١٣٢٠ م ، استوعب نظريات بن الهيثم وناقشها في الضوء ، شرح كتاب المناظر لابن الهيثم في كتاب له أسماه " تنقيح المناظر " أضاف الفارسي في هذا الكتاب شرحاً لمسائل عديدة منها " انعكاس الضوء وانكساره عند ملاقاته لجسم كروي ، ومنها تعليل ظهور قوس قزح ، ومنها كذلك الغرفة المظلمة " .

❖ قطب الدين الشيرازي واجتهاداته في البصريات :

هو محمود بن مسعود بن مصلح الفارسي أبو الثناء ، قاض ومفسر ، مولده في مدينة شيراز الإيرانية وكان أبوه يعمل فيها طبيباً ، قرأ على نصير الدين الطوسي ، صنّف في العلوم والطب والتفسير ، ومن هذه المؤلفات : " تاج العلوم " و " مفتاح المفتاح " و " نهاية الإدراك في دراية الأفلاك " ، توفى في عام ٧٦١ هـ/١٣١١ م ، من أهم المسائل التي تناولها الشيرازي بالتحليل في البصريات هي تكون قوس قزح .

❖ إضافات زكريا بن محمد بن محمود القزويني المتوفى في عام ٦٨٢ هـ/١٢٨٣ م :

قبل الشيرازي والفارسي كان القزويني قد حلل الكثير من نظريات وآراء بن الهيثم في الضوء والألوان وتكون قوس قزح وغيرها من المسائل في البصريات .

ثامناً : الطب والعقاقير :

كان ميدان الطب والعقاقير من المجالات النشطة التي شهدت عطاءً وإنجازاً يمكن أن يحسب للعلماء المسلمين ، ويقف وراء ذلك أكثر من سبب : السبب الأول ، أن مجال الطب كان مجالاً حيوياً يعتمد على الجمع بين المعرفة العلمية والممارسة العملية وكان يعّول عليه في الاهتمام بصحة الناس في البيمارستانات أو المستشفيات ، وعليه فالطب من المجالات التي تعد تطبيقاتها مباشرة للتطور العلمي والمعرفي فيها ، السبب الثاني : أن ثمة إضافات لا بأس بها في مجال الطب تمت على امتداد العالم الإسلامي وهذه الإضافات بالرغم من قلتها إلا أنها كانت مفيدة ومجدية لهذا الميدان التطبيقي للعلم ، السبب الثالث : أن جزءً كبيراً من جهود علماء المسلمين في هذا المجال انصرف إلى شرح وتحليل وتفسير مجهودات الأوائل وإنجازاتهم ، وهذا جانب من جوانب القصور وإهدار الوقت في التكرار

وابتسار الإنجاز ، وسوف نعمد في هذا المقام إلى رصد جملة الإسهامات في هذا المجال سواء ما جاء تكراراً أو ما جاء يحمل بعض الإضافات .

نعود قليلاً إلى أخريات العصر العباسي ، حيث كان الإنجاز الإسلامي في العلوم الطبيعية وتطبيقاتها ومنها الطب قد أوشك على الانحسار ، ومن العلماء الذين برزوا في أخريات ذلك العصر العالم الطبيب ابن أثردى طبيب الخليفة العباسي المقتدى بأمر الله وهو على بن هبة الله بن على بن الحسين ، وضع رسالة في الطب ، وكتاب شرح دعوة الأطباء لابن بطلان ، توفى بعد عام ٥٠٧ هـ - ١١١٣ م .

ومن المغرب العربي كان أبو الصلت الراني من النابغين في الطب ، وهو أمية بن عبدالعزيز الأندلسي الراني ، عاش في مصر والمغرب ، من مؤلفاته في الطب الأدوية المفردة وقد توفى في عام ٥٢٩ هـ - ١٠٦٨ م .

وكانت أسرة بن زهر من الأسر الأندلسية الشهيرة في العلوم والمعارف ، ومن هذه الأسرة اشتهر في الطب عبدالملك بن زهر بن عبدالملك الأيادي المعروف بابن زهر ، له مؤلفات في الطب منها : " التيسير في المداواة والتدبير " و " الأغذية " و " الجامع في الأشربة والمعجونات " وقد توفى بن زهر في ٥٥٧ هـ - ١١٦٢ .

ومن علماء المغرب العربي كذلك نبغ في الطب عمر بن على القلعي المعروف بأبي جعفر القلعي ، تخصص في الأدوية المركبة والمفردة إلى جانب معرفته بالطب ، وضع مصنفات منها : " حواشي على قانون ابن سينا " و " شرح فصول أبقراط " توفى في عام ٥٧٦ هـ - ١١٨٠ م .

ويواصل العطاء العلمي والتطبيقي في مجال الطب والعقاقير في الأندلس والمغرب العربي تقدمه وذلك بسبب انعزال هذه المنطقة عن التداعيات التي تمت داخل الدولة الإسلامية

خلال العصر العباسي الثاني ثم فترة التفكك والانهيار ، وبرع في هذا المجال محمد بن عبدالملك الأندلسي المعروف بابن الطفيل ، وقد كان فيلسوفاً ثم أصبح طبيباً للسلطان الموحدى ، له في الطب : رجزجاء في أكثر من ٧٧٠٠ بيتاً ، وله كذلك " رسم الدواء " توفى في عام ٥٨١ هـ – ١١٨٥ م .

ومن الأندلس كذلك نبغ في الطب محمد بن عبدالملك بن زهر الأندلسي المعروف بالحفيد بن زهر ، ألّف في الطب " الترياق الخمسيني " وله رسالة في طب العيون ، وتوفى الحفيد بن زهر في عام ٥٩٥ هـ – ١١٩٩ م .

ومن الأندلس أيضاً برع في مجال الطب موسى بن ميمـــون بن يوسف القرطبي ، عاش أخريات أيامه بفلسطين ودفن في طبرية من تصانيفه في الطب " الفصول " ، ورسالة في البواسير ومقالة في الربو ، ورسالة في الجماع ، ورسالة في السموم والتحرز من الأدوية القتالة وتوفى موسى بن ميمون في عام ٦٠١ هـ – ١٢٠٤ م .

ولا يزال علماء الأندلس يتحفون العالم بإنجازاتهم في الطب والعقاقير ، ومن هؤلاء عبدالمنعم الجلباني وهو عبدالمنعم بن عمر الغساني الأندلسي عمل بالطب وبرع فيه ممارسة وعلماً كما نبغ في الأدوية والعقاقير ألّف في الطب " تعاليق في الطب " وصنف في العقاقير والأدوية [الصيدلية] " صفات الأدوية المركبة " توفى في عام ٦٠٢ هـ – ١٢٠٥ م .

وممن برعوا كذلك في الطب والعقاقير والأدوية النجيب السمرقندي وهو محمد بن على بن عمر كان بروعه في الطب مشهوداً ، ألف في طب العيون " كيفية تركيب طبقات العين " وصنف في الأدوية " الأدوية المعروفة والمستعملة : الأسباب والعلاقات " و " أصول تركيب الأدوية " و " أدوية القلب " و " أسماء الأدوية " توفى في عام ٦١٩ هـ – ١٢٢٢ م .

ومن تابعوا أعمال ابن سينا فأكملوها وشرحوها ابن الساعاتي ، وهو رضوان بن محمد بن علي الخراساني عمل بالطب وبرع فيه عاش في خراسان ، صنف تكميل كتاب القولونج لابن سينا ، ووضع كتاب " الحواشي " على كتاب القانون لابن سينا ، كانت وفاته في دمشق في عام ٦١٨ هـ - ١٢٢١م .

ومن برعوا في الطب كذلك ابن اللبودي ، وهو محمد بن عبدان بن عبدالواحد ، ولد في دمشق له مؤلفان في الطب هما : " رسالة في وجع المفاصل " و " شرح فصول بقراط " توفى في عام ٦٢١ هـ - ١٢٢٤ م .

ومن علماء الأندلس الذين اشتهروا في علم العقاقير أحمد بن محمد بن مفرج الأموي الاشبيلي المعروف بابن الرومية ، احترف بن الرومية فن الصيدلة بسبب إلمامه العظيم بالنباتات ، صنف في الأعشاب والأدوية : " تفسير أسماء الأدوية المفردة من كتاب ديسقوريدس " و " أدوية جالينوس " و " الرحلة النباتية " و " تركيب الأدوية " توفى بن الرومية في عام ٦٣٧ هـ - ١٢٣٩ م .

كان بن سينا لا يزال مصدراً مهماً لعطاء الكثيرين في الطب ، ومن ذلك ما قدمه عبدالعزيز بن عبدالواحد الجيلي المعروف بالجيلي وهو طبيب دمشقي وضع كتاب " اختصار الكليات " من قانون ابن سينا ، توفى الجيلي في عام ٦٤١ هـ - ١٢٤٤ م .

ومن رجال السياسة الذين اشتغلوا بالطب وألّفوا فيه ابن غزال وهو أمين الدولة بن غزال بن أبي سعيد كان وزيراً وعالماً من أهل دمشق ، صنف كتاب " النهج الواضح " احتوى على معظم مفردات مهنة الطب وعلومه توفى ابن غزال في عام ٦٤٨ هـ - ١٢٥٠ م .

ومن دمشق كذلك أحمد بن أسعد بن حلوان المشهور بابن العالمة ، برع في الطب والأدوية كما كان أديباً ، ألّف في الطب :" المدخل إلى الطب " و " العلل والأعراض " و " الإشارات المرشدة في الأدوية المفردة " وتوفى في عام ٦٥٢ هـ – ١٢٥٤ م .

ومن البارعين في الطب كذلك سعيد بن أبي الخير بن عيسى المعروف بابن المسيحي ، عالج الخليفة العباسي الناصر لدين الله سنة ٥٩٨ هـ ، له في الطب كتاب " الاقتضاب " ثم كتاب " انتخاب الاقتضاب " توفى في عام ٦٥٨ هـ – ١٢٦٠ م .

كذلك نبغ في الطب في فترة التفكك والانهيار وفي الدولة المملوكية رشيد الدين بن الفارسي بن داود المعروف بابن حليقة عاش في دمشق والقاهرة ، صنف عدة كتب في الطب والأدوية [العقاقير] منها :" الأمراض وأسبابها وعلاقاتها ومداواتها " ورسالة في " حفظ الصحة " في الطب ، وفي الأدوية " المختار في ألف عقار " توفى بن حليقة في عام ٦٦٠ هـ – ١٢٦٢ م .

في ظل الدولة المملوكية برز كذلك في الطب على بن يوسف بن حيدرة ، اشتغل بالطب وعاش في دمشق له مؤلفات في الطب منها " خلق الإنسان وهيئة أعضائه ومنفعتها " و " تلخيص شرح فصول أبقراط " توفى في عام ٦٦٧ هـ – ١٢٦٨ م .

ومن تونس برع في الطب محمد بن أحمد الأموي المعروف بابن أندراس ، اشتغل بالطب ووضع كتاب في الأدوية سمى " الأدوية المفردة " توفى في عام ٦٧٤ هـ – ١٢٧٥ م .

وممن تابعوا أعمال بن سينا وشرحوها الطبيب الدمشقي يعقوب بن غنائم المعروف بالسامري ، ألف كتاب " شرح الكليات من قانون ابن سينا " توفى في عام ٦٨١ هـ – ١٢٨٢ م .

بعد دخول المغول إلى بغداد انقطع العطاء إلا القليل ، ومن ذلك القليل كان بروز طبيب المستنصرية ببغداد المبارك بن المبارك المعروف بابن الصباغ توفى في عام ٦٨٣ – ١٢٨٤ م .

ومن القلائل الذين برعوا في الجراحة وصنفوا فيها يعقوب بن إسحاق الكركي المعروف بابن القف صنف في الجراحة " العمدة في الجراحة " ووضع كذلك " شرح الكليات من قانون بن سينا توفى في عام ٦٨٥ هـ – ١٢٨٦ م .

ومن دمشق أيضاً برع في الطب محمد بن عباس بن أحمد المعروف بالدنيسري ، له مؤلفات في الأدوية والطب منها " المقالة المرشدة في درج الأدوية المفردة " و " نظم مقدمة المعرفة لأبقراط " توفى في عام ٦٨٦ هـ – ١٢٨٧ م .

وفى ظل الدولة المملوكية برز على بن أبي الحزم القرشي المشهور بابن النفيس ، كان أعلم أهل عصره بالطب ، اكتشف الدورة الدموية الصغرى ، ولد في دمشق وعاش وتوفى في مصر ، من كتبه :" الموجز في الطب " و " الشامل في الطب " و " شرح فصول ابقراط " توفى في عام ٦٨٧ هـ – ١٢٨٨ م .

كذلك برع في الطب إبراهيم بن على بن محمد السلمى المعروف بالقطب المصري ، وهو طبيب مغربي الأصل تتلمذ على الفخر الرازي وكان له كتب في الطب والفلسفة توفى في عام ٦١٨ هـ – ١٢٢١ م .

ومن دمشق ظهر إبراهيم بن محمد بن على الأنصاري يعود نسبة إلي قبيلة الأوس العربية ألّف في الطب " التذكرة الهادية في الطب " و " قلائد المرجان في طب الأبدان " توفى في عام ٦٩٠ هـ – ١٢٩١ م .

وأيضاً من دمشق برع في الطب عبدالوهاب بن أحمد بن سحنون كان يسمى شيخ الأطباء في دمشق وضع كتاباً في الطب أسماه " مفرح النفس " توفى في عام ٦٩٤ هـ – ١٢٩٥ م .

ومن قلائل الذين عرفوا في الطب البيطري كان عثمان بن أحمد بن عثمان ألف كتاب " بدائع الألوان في منافع الحيوان " وكان يعرف بابن أبي الحوافز توفى في عام ٧٠١ هـ - ١٣٠١ م .

وممن جمعوا بين الفلك والطب القطب الشيرازي وهو محمود بن مسعود بن مصلح الشيرازي ، له باع طويل في العقليات ، صنف " شرح كليات القانون في الطب لابن سينا " و " نهاية الإدراك في دراية الأفلاك " في الفلك توفى في عام ٧١٠ هـ - ١٣١١ م .

ومن أطباء الأندلس محمد بن إبراهيم الاوسي المعروف بابن الرقام جمع بين الطب والهندسة ألف في الطب كتاب " التكسير والطب " وتوفى في عام ٧١٥ هـ - ١٣١٥ م .

ومن فلسطين برز في طب العيون علاء الدين الكحال وهو على بن عبدالكريم الصفدى ، وضع " القانون في أمراض العيون " و " الأحكام النبوية في الصناعات الطبية " توفى في عام ٧٢٠ هـ - ١٣٢٠ م .

ومن الموصل برز الطبيب داود بن ناصر الموصلى الملقب بالموصلى ، له عدة كتب منها :" روضة الالباء في تاريخ الأطباء " و " خاص الخاص الملتقط من خواص الخواص " توفى في ما بعد عام ٧٢٦ هـ - وما بعد عام ١٣٢٦ م .

ومن أهل غرناطة برز في الأعشاب والنباتات الطبية محمد بن إبراهيم المعروف بابن السراج وضع كتاباً في النباتات الطبية أسماه " النبات " توفى في عام ٧٣٠ هـ - ١٣٣٠ م .

وفي الطب البيطري برع من مصر أبو بكر بن المنذر المعروف بالبيطار عاصر الملك الناصر محمد بن قلاوون صنف كتاب " كاشف الويل في معرفة أمراض الخيل " " ، وتوفى في عام ٧٤١ هـ - ١٣٤٠ م .

وظهر في الطب محمود بن إلياس الشيرازي المعروف بالشيرازي ، اشتهر هذا العالم بكتابه في علم الأدوية المسمى " الحاوي في علم التداوي " توفى في عام ٧٣٠ هـ – ١٣٣٠ م .

ومن العلماء الذين جمعوا بين الطب والرياضيات محمد بن إبراهيم بن ساعد المعروف بـابن ساعد السنجارى نسبة إلى سنجار التي ولد ونشأ فيها ، ألف في الرياضيات :" اللبـاب في الحساب " وألف في طب العيون " الرين في أحوال العين " وألف في الطب " غنية اللبيـب في غيبة الطبيب " و " روضة الالباء في أخبار الأطباء " توفى في عام ٧٤٩ هـ – ١٣٤٨ م .

ومن العلماء الثقاة الذين جمعوا بين الطب والتفسير محمد بن محمد بن فخر الدين المعروف بالاقسرائي وهو حفيد الإمام فخر الدين الرازي ، من مؤلفاتـه في الطـب " حـل المـوجز في الطب " و " شرح القانون لابن النفيس " توفى بعد ٧٧٦ هـ – ١٣٧٤ م .

ومن الأطباء كذلك نفيس بن عوض الكرماني وضع كتابين في الطب هما :" شرح الأسـباب والعلاقات في الأمراض ومعالجتها " و " شرح موجز القانون لابن النفيس القرشي " وتـوفى فيما بعد ٨٤١ هـ – ١٤٣٨ م .

ومن الأطباء البارعين كذلك من أهل دمشق موسـى بـن إبـراهيم المعـروف بموسـى الكحـال والذي تخصص في طب العيون وله مؤلفات منهـا : في طـب العيـون " الرسـالة النوريـة في أمراض العين الكلية " وله في الطب " الجوهر النفيس في شرح منظومة الرئيس ابن سينـا " وفي الأدوية :" الفتوح في علاج القروح " توفى في عام ٨٧٩ هـ – ١٤٧٤ م .

ومن مصر في العصر العثماني ظهر في الطب محمد بن محمد المعروف بالقوصونى له مؤلفات منهـــا " زاد المـــسير في عـــلاج البواســـير " و " المـــصباح في الطـــب " تـــوفى في عام ٩٣١ هـ – ١٥٢٥ م .

ومن أصحاب المآثر في الطب الإسلامي الحسن بن محمد الوزان " الغرناطي أصلاً ، الفاسي داراً ، المسمى عند الإفرنج ليون الأفريقي " وضع معجماً طبياً عربياً لاتينياً عبرياً ، وله كذلك رسالة باللاتينية في تراجم الأطباء والفلاسفة المسلمين ، توفى عام ٩٥٧ هـ - ١٥٥٠ م .

ومن الثقاة البارعين في الطب كذلك داود بن عمر الذي ولد في إنطاكية ونسب إليها فعرف بالانطاكي ، له تصانيف مهمة في الطب منها : " نزهة الأذهان في إصلاح الأبدان " و " زينة الطروس في أحكام العقول والنفوس " و " ألفية في الطب " و " كفاية المحتاج في علم العلاج " توفى داود الانطاكى في عام ١٠٠٨ هـ - ١٦٠٠ م .

ومن الأطباء الذين اهتموا بطب الأعشاب قاسم بن محمد الغساني المعروف بالوزير الغساني من أهل فاس صنف في مجال التداوي بالأعشاب " حديقة الأزهار في شروح ما هية العشب والعقار " توفى في عام ١٠١٩ هـ-١٦١١ م .

وفي مصر برز مدين بن عبدالرحمن القوصوني ، كان رئيساً للأطباء في مصر ، ألف " قاموس الأطباء وناموس الألباء " و " ظبيات الأنباء في طبقات الأطباء " و " تحفة المحب في صناعة الطب " توفى في عام ١٠٤٤ هـ - ١٦٣٤ م .

ومن حضرموت ظهر عبدالرحمن بن أحمد باكثير جامعاً بين الفقه والطب ، صنف كتاباً في الطب بعنوان " الزلال الصافي والدواء الشافي في الطب " توفى في عام ١٠٤٥ هـ - ١٦٣٥ م .

ومن أشهر أطباء الدولة العثمانية صالح بن نصر الله بن سلوم الحلبي كان رئيساً لأطباء الدولة العثمانية صنف في الطب : " غاية الإتقان في تدبير بدن الإنسان " و " برء ساعة " وتوفى في عام ١٠٨١ هـ - ١٦٧٠ م .

ومن المغرب برز عبدالواحد بن محمد بن عبدالواحد المعروف بابن الدلاج في الطب ، ألّف كتباً منهـا : " زبـدة المنحـة في علمي العلاج والصحـة " و " الروض المأنوس في الترياق " توفـى ابن الدلاج في عام ١٠٩٩ هـ – ١٦٨٨ م .

ومن المغرب كذلك ظهر عبدالوهاب محمد أدراق في الطب وألّف كتباً مهمة منها : " تعليق على النزهة المبهجة لداود الانطاكى " وأرجوزة ذيل بها أرجوزة بن سينا في الطب توفى أدرق في عام ١١٥٩ هـ – ١٧٤٦ م .

وفي العصور المتأخرة من حقبة التفكك والانهيار ظهر أحمد بن يوسف الكوازى العباسي البصيري ، كان أديباً وطبيباً ، وضع كتاب " المجموع في الطب " توفى في عام ١١٨٨ – ١٧٧٤ م .

تاسعاً : الجغرافيا :

ربما كان علم الجغرافيا من العلوم التي لم تتأثر كثيراً بالانقطاع الحضاري الذي شهدته الحضارة الإسلامية وإسهامها في عصر التفكك والانهيار ، لك لأن ذلك العلم كان مرتبطاً بتطورات الحياة ، كما أن حركة الرحالة خلال هذه الفترة لم تتوقف ومن ثم فإن نتاجاتهم الفكرية والعلمية لم تتوقف هي الأخرى .

لقد كان التركيز في فترة التفكك والانهيار فيما يتعلق بعلم الجغرافيا على ما قدمه الأوائل في هذا المجال ، وبصفة خاصة في الجغرافيا البحرية أو علوم البحار ، ثم على الجانب التطبيقي من ذلك العلم مثل الأدلة الجغرافية والخرائط والملاحة .

كان أدب الرحلات لا يزال يمثل محوراً مهماً من محاور علم الجغرافيا في عصر التفكك والانهيار ، وكان نصيب الأندلس في هذا المجال وفيراً إذ أثرى ابن جبير أدب الرحلات كما فعل الادريسي والمسعودي من قبل وابن بطوطة وغيرهم .

وهناك مجموعة من العلماء المسلمين الذين أتحفوا علم الجغرافيا في كافة فروعه بأدبيات على قدر عالٍ من التخصص والالتزام ومن هؤلاء أبوالفدا من مصر المملوكية وياقوت الحموى ومعجمه الجغرافي الفريد وزكريا بن محمد بن محمود القزويني وموسوعته الكونية الجغرافية وكذا حمد الله المستوفي القزويني وما قدمه من " تجميع جغرافي كوني " له قيمته العلمية والأدبية .

وفي هذا السياق تبدو أهمية الجغرافيا التطبيقية في مجال الملاحة ، وكان للمسلمين إسهامهم الواضح في هذا المجال ، ولعل أهم ما يمكن أن يذكر في هذا الصدد الملاح العربي المسلم أحمد بن ماجد الذي وضع دليلاً للملاحين في المحيط الهندي أسماه " الفوائد في أصول علم البحر والقواعد " وقد عاش بن ماجد في النصف الثاني من القرن التاسع الهجري — الخامس عشر الميلادي ، ووضع حوالي ثلاثين مؤلفاً ورسالة في علم البحار من أهمها :" الفوائد في أصول علم البحر والقواعد " وأرجوزة سماها " حاوية الاختصار في أصول علم البحار " و " الأرجوزة السبعية " و " القصيدة المسماة بالهدية " و " المراسي على ساحل الهند الغربية " وغيرها .

كذلك كان للملاح التركي المسلم بيرى ريس دوره المهم في الإضافة إلى علم الجغرافيا بشقيه النظري والتطبيقي ، فقد عاش في القرن السادس عشر الميلادي ووضع كتاباً في الملاحة في البحر الأبيض المتوسط ، وبيرى ريس قائد بحري عثماني ورسام خرائط قام بحملة بحرية استهدفت طرد البرتغاليين من بحر العرب والخليج عام ١٥٥١ م ، وقد أعدم هذا القائد بأمر من السلطان العثماني لأنه تجاوز التعليمات .

عاشراً : التاريخ :

التاريخ مثل الجغرافيا يتأثر بتداعيات التفكك والانهيار كثيراً إلا فيما يتعلق بمناهجه التي اعتمد عليها في تسجيل الأحداث والوقائع ، ويعود عدم تأثر التاريخ بتداعيات التفكك والانهيار إلى كونه أداة لابد منها لتسجيل تطورات وأحداث وتفاعلات المجتمعات الإسلامية وإن كان جزءً لا بأس به من الكتابات والأدبيات التاريخية قد انصرفت إلى تناول كتابات السابقين وإعادة كتابة التاريخ في كثير من مناطق العالم الإسلامي .

وقد تعددت وتنوعت ضروب الكتابة والإسهام التاريخي لتشمل حقولاً كثيرة نأتي عليها في هذه الجزئية ، وذلك كما يلي :

❖ **التاريخ العالمي :**

بالرغم من أن فترة التفكك والانهيار شهدت انقسام وتفتت الدولة الإسلامية إلى ولايات وأقاليم وشهدت كذلك استشراء الإقليمية والعنصرية ، إلا أنها شهدت في ذات الوقت إسهامات ونتاجات فكرية لا بأس بها من أقاليم ومناطق متعددة من العالم الإسلامي في مجال التاريخ العالمي ، ومن أهم من قدم تلك الإسهامات ابن الأثير وابن إياس وابن خلدون وابن عربي وكل هؤلاء قدموا تفسيرات للتاريخ العالمي بمناهج مختلفة وأدوات اختلفت من مؤرخ إلى آخر .

❖ **السير الذاتية :**

وفي مجال السِيَر الذاتية برزت ألمع الأسماء التي قدمت أعمالاً رائعة على امتداد مناطق العالم الإسلامي ، فهناك الزمخشري والخوارزمي والصفدى وابن خلكان والذهبي وحاجي خليفة وطاشكبرو زاد ، وكل هؤلاء قدموا أدبيات لا تزال تعكس الطابع العالمي الإنساني للحضارة الإسلامية .

❖ تاريخ البلدان :

كذلك انتشرت في فترة التفكك والانهيار طريقة كتابة تاريخ الأقاليم والمناطق ، وبالرغم من أهمية هذه الطريقة كإحدى مناهج الكتابة التاريخية إلا أنها كانت داعمة ومدعومة من الإقليمية والعنصرية ، نلمس ذلك عند كل من المقريزي والسيوطي اللذين قدما روائع خالدة في تاريخ مصر ، وعلى نفس النسق قدم حافظى أبرو ميرخوند كتابات جيدة عن تاريخ فارس ، أما الجواني والوصاف ورشيد الدين اليهودي الذي اعتنق الإسلام وغزان فقد كتبوا في تاريخ فارس وتاريخ الصين تحت السيطرة المغولية حيث كان معظم هؤلاء موظفين بالايلخانيات .

❖ المذكرات الخاصة :

لعل أشهر من قدم في هذا المجال الأمير بابور الهندي الذي تعد مذكراته صفحة دقيقة ومعبرة عن إحدى فترات الهند في ظل الإسلام .

حادي عشر : ملاحظات ختامية :

نختتم هذا الفصل بتقديم جملة من الملاحظات نوردها فيما يلي :

❖ الملاحظة الأولى :

أن ما قدم خلال فترة التفكك والانهيار من إسهامات في مجال العلم والتعلم والتعليم والعلوم الطبيعية وتطبيقاتها ، كان شرحاً وتوضيحاً لما سبق من قبل ، ولم يضف الجديد إلا في بعض المجالات ، وفي أضيق الحدود .

❖ الملاحظة الثانية :

أن أوربا لم تهتم بالنتاج الإسلامي في هذه الفترة ، لأنه لم يكن كسابقه يحمل الابتكار والاجتهاد والإضافة ، كما أن أوربا كانت قد اكتفت بما أخذته من السابقين الأولين ، وبما فيه من أسس يمكنها أن تبني عليها صرحها الحضاري .

❖ الملاحظة الثالثة :

أن أوربا كانت قد بدأت — خلال فترة التفكك والانهيار — تعتمد على علمائها ومفكريها الذين برعوا في كل شيء ، وشرعوا يضيفون ويجتهدون ، وانكبوا على العلوم الإسلامية فدرسوها وأضافوا إليها هي وما قبلها من علوم الإغريق والفرس والهنود وغيرهم ، ومن ثم يمكن القول أن أوربا كانت قد بدأت تعتمد لنفسها منهجاً خاصاً بها ، وتبنى ذاتاً حضارية تغنيها عن اتباع الآخر ، وتنتقل من التابع إلى المتبوع ، وذلك كان نهج الفترة الجديدة حيث أصبحت أوربا المتبوع وما سواها بما في ذلك العالم الإسلامي هو التابع ، وذلك هو محل تحليلنا ودراستنا في الفصل التالي .

❖ الملاحظة الرابعة :

أن في فترة التفكك والانهيار كان لدى الأمة ما تلتف حوله سواء أكان من التراث أو من العطاء المحدود ، وهكذا ظلت الذات الحضارية محور اهتمام المسلمين وإبرازها بشكل أو بأخر ، أما في الفترة الجديدة فترة السيطرة الأوربية فقد تلاشت الذات الحضارية تماماً وباتت تاريخاً وبدأت مرحلة أخرى هي مرحلة التبعية للآخر وهو محل دراسة الفصل التالي .

الفصل السابع

العلم والتعلم والتعليم والعلوم الطبيعية وتطبيقاتها

في الوقت الراهن

بالرغم من أن فترة التفكك والانهيار تمتد حتى وقتنا الراهن ، إلا أن التحليل العلمي يتطلب التوقف عند نهاية القرن الثامن عشر ، والبدء في مرحلة جديدة من بداية القرن التاسع عشر وحتى الآن ، والمرحلة الجديدة هي موضع التحليل في هذا الفصل ، ويستند هذا التقسيم على عدة معايير منها :

المعيار الأول : أن المرحلة الجديدة تبدأ بفقدان الاستقلالية ، حيث فقدت الأمة استقلالها تماماً ، بالإضافة إلى توقف العطاء والإسهام الحضاري ، وتفترق هذه المرحلة عما قبلها في أن المرحلة الأولى بالرغم من خلوها من العطاء والإسهام الجاد والكثيف إلا أن الأمة ظلت خلالها متمتعة باستقلاليتها السياسية والإدارية والفكرية .

المعيار الثاني : السيطرة الأوربية : كذلك افترقت المرحلة الجديدة التي بدأت من القرن التاسع عشر عما قبلها بأنها اتسمت بوقوع معظم مناطق العالم الإسلامي تحت السيطرة السياسية أو العسكرية لأوربا التي بدأت بحملة نابليون على مصر في عام ١٧٩٨ .

المعيار الثالث : التبعية لأوربا : كذلك اتسمت المرحلة الجديدة بالتبعية السياسية والاقتصادية والعسكرية والفكرية لأوربا ، ولم يعد للذات الحضارية للإسلام وجود إلا في ضمير الأمة كتراث وتاريخ .

وعليه فان المرحلة الجديدة قد اتسمت بتوقف عطاء الأمة الحضاري وفقدانها لذاتها الحضارية وكذا بالسيطرة الأوربية على العالم الإسلامي وتحويله إلى تابع لأوربا .

وكما اعتدنا في الفصول السابقة نعكف في هذا الفصل على تحليل مفهوم العلم ورغبة التعلم وعملية التعليم وموضوعات العلوم الطبيعية وتطبيقاتها ، وذلك من خلال المباحث الخمسة التالية :

المبحث الأول : خصائص الحياة الثقافية والفكرية في الوقت الراهن .

المبحث الثاني : العلم في الوقت الراهن .

المبحث الثالث : التعلم في الوقت الراهن .

المبحث الرابع : التعليم في الوقت الراهن .

المبحث الخامس : العلوم الطبيعية وتطبيقاتها في الوقت الراهن .

المبحث الأول

خصائص الحياة الثقافية والفكرية في الوقت الراهن

كما سبق وذكرنا نقصد بالوقت الراهن الفترة التي تبدأ من بداية القرن التاسع عشر وحتى أيامنا التي نعيشها في أوائل القرن الحادي والعشرين ، وهذه الفترة اتسمت خلالها الحياة الثقافية والفكرية في المجتمعات الإسلامية بعدة سمات أضيفت إلى السمات التي كانت قد سادت خلال فترة التفكك والانهيار والتي سبقت دراستها في الفصل السابق ، ويمكننا تناول هذه السمات والخصائص الإضافية فيما يلي :

أولاً : اليأس من عودة الازدهار والتواصل الحضاري الإسلامي :

لقد كانت فترة التفكك والانهيار كفيلة بأن تصيب المسلمين بإحباط شديد وخيبة أمل ويأس من إمكانية عودة الازدهار والتواصل للحضارة الإسلامية والثقافة كذلك ، وما من شك في أن طول فترة التفكك والانهيار التي عاشتها الأمة منذ الاجتياح المغولي لدولة الإسلام قد رسخت من ذلك اليأس وعمقته في النفوس وبلورت قناعات مفادها أنه ليس في الإمكان أحسن مما كان وأن الماضي لا يمكن أن يعود مرة أخرى ، كذلك كان لسوء الأحوال السياسية والإدارية والاقتصادية والاجتماعية في كافة المجتمعات الإسلامية دورها المهم في هذا الصدد حيث ساهمت تلك الوضعيات المزرية في ترسيخ تلك القناعات وأكدت على صعوبة بل استحالة التحول من تلك الوضعيات إلى وضعيات أخرى مثالية أو تنحو نحو المثالية ، أيضاً كان للتدخلات الأوربية في شئون العالم الإسلامي دورها الذي لا يمكن إغفاله في ترسيخ حالة الإحباط وتكريس وضعية اليأس بسبب ما أثاره الأوربيون لدى أبناء العالم الإسلامي من قناعات تفيد بأن ما يملكه العالم الإسلامي من حضارة أصبح ماضٍ لا يمكن إعادته وأن ذلك الماضي بات متخلفاً بمقاييس ومعايير الحاضر ، وأن ما يملكه من

ثقافة إسلامية لا يمكن أن تساعده على التقدم واللحاق بركب الحضارة الأوربية ، بل إن العكس هو الصحيح إذ أن تلك الثقافة الإسلامية تجذب المسلمين فكراً وسلوكاً إلى الخلف ، فهي سر تخلفهم ! وقد انطلى ذلك على كثير من المسلمين فصدقوه إلا من رحم ربي ، وكان وراء ذلك الانسياق خلف الأفكار الأوربية الهدامة الكثير من العوامل والأسباب التي سوف نأتي عليها تباعاً فيما بعد ، وكان شعور اليأس والإحباط من عودة الازدهار والتواصل قد انتاب كافة العناصر والأعراق التي شملها الإسلام وانضوت تحت لوائه .

لقد تشكل اليأس الذي أصاب أبناء الأمة في شكلين : تمثل الشكل الأول في إعراض المسلمين عن الحضارة والثقافة الإسلامية واعتبار الأولى ماضٍ وتراث والنظر إلى الثانية على أنها أفكار ورؤى مرتبطة بالإسلام كمجموعة من النسك والعبادات ، وتجسد الشكل الثاني في الاستجابة للقيم الغربية الحضارية والثقافية واللهث وراء نماذجها واعتبارها السبيل الوحيد للتقدم والرقي .

ثانياً : انحسار الثقافة الإسلامية أمام الثقافات العنصرية الإقليمية :

ترتب على الخصيصة السابقة نتيجة محورية ارتقت إلى مستوى الخصيصة الجوهرية ألا وهي انحسار الثقافة الإسلامية الخالصة أمام الثقافات العنصرية الإقليمية المحلية ، ولعل أسباب ذلك الانحسار واضحة جلية سبق الحديث عن جانب كبير منها ، وعسى أن يكون في الإعادة إفادة ، فالثقافة الإسلامية الخالصة لم تتطور بالشكل الذي يواكب تطورات وتداعيات الأحداث في العالم الإسلامي ، ومن ثم بدت ضعيفة متواضعة لم يقدر لها احتواء وتطويع كافة تلك التداعيات والتطورات وافتقدت كثيراً من كفاحيتها من أجل تطوير ذاتها ودعم منطقها وترسيخ طروحاتها ، فكان اللجوء إلى الثقافات العنصرية الإقليمية المحلية أمراً ضرورياً بدا على أنه الحل لتلك الإشكالية .

إن الثقافات العنصرية الإقليمية المحلية لم تكن علاقتها بالثقافة الإسلامية علاقة اتساق وتضافر وعناق ، بل كانت في كثير من الأحيان علاقة الرغبة في فرض الذات وتأكيدها وإبرازها من خلال التحدث باسم الإسلام سياسياً ، وفرض السيطرة والنفوذ على مناطق العالم الإسلامي التي كان بصحبتها تلك الثقافات بخصوصيتها التاريخية وذاتيتها الكامنة في مفرداتها وطروحاتها ونماذجها ، برز ذلك منذ التفكك والانهيار ، وكان أكثر وضوحاً في القرنين الأخيرين ، بدا ذلك في الفارسية والتركية والمغولية والهندية والعربية والبربرية وغيرها .

وكان من شأن ذلك أن يزوي الثقافة الإسلامية في ركن بعيد ويبرز الثقافات المحلية العنصرية ويمنحها الفرص لكي تسترجع ماضيها وتستعيد موروثاتها ولكنه ليس بمعزل عن الإسلام الدين الذي تتفاعل من خلاله تلك الثقافات بعيداً عن الثقافة الإسلامية ذات المنطق الخاص ، إنها حقاً علاقة مركبة ومعقدة ودقيقة كانت دوماً في مصلحة الثقافات العنصرية المحلية ، ولم تكن أبداً في مصلحة الثقافة الإسلامية التي بدت مثابرة مكافحة من أجل أن تحتفظ ببعض خصائصها وتحافظ على جزءٍ من وجودها الذي كاد أن يندثر أمام خصوصية الآخر وذاتية العنصر والإقليم .

لقد افتقدت الثقافة الإسلامية خصيصة العمومية والسيادة والشيوع على مستوى العالم الإسلامي مجالها الحيوي وإطار حركتها ونطاق تفاعلاتها وتطوراتها ، وأدى ذلك إلى التأثير في عقل الناس وأفكارهم ، فقد بدأت عملية مخيفة وخطيرة في هذين القرنين الأخيرين وهي إعادة تشكيل عقول الناس وأفكارهم بشكل أعادهم إلى موروثاتهم التي كانت قبل الإسلام ، ومن ثم حلت العقلية العنصرية الإقليمية محل العقلية ذات الخصائص والقواسم المشتركة التي تنبع من الإسلام بوصفه النظام الاجتماعي المتكامل الذي يشمل الحضارة والثقافة معاً ، فتفكير العربي وأفكاره اختلفت عن تفكير الفارسي

وأفكاره وعن تفكير التركي وأفكاره وعن تفكير البربري وأفكاره ، وهذا لا يتنافى مع كونهم يدينون جمعياً بدين واحد هو الإسلام ، فالإسلام هو الدين وليس الثقافة وهو النسك والعبادة وليس الحضارة وهو الشعيرة وليس الحياة والنظام الاجتماعي .

إن ما تقدم من توضيح لعلاقة الثقافة الإسلامية بالثقافات العنصرية المحلية لا ينبغي أن تؤول على أنها صراع صريح بين فرقاء ، ولكنه كان نوعاً من الجدال العميق والخطير في ذات الوقت بين ثقافة ازدهرت وأينعت واحتوت بداخلها كافة الثقافات ذات الطبيعة المحلية العنصرية ثم طوعتها لمصلحتها ثم ضعفت ولم تتمكن من الاحتفاظ بمكانتها والحفاظ على قوتها ، وفقدت أسلوبها البديع وطريقتها المثلى في الحفاظ على الثقافات المختلفة في بوتقتها وصهرها بشكل مستديم ، وبين ثقافات كادت أن تنصهر في بوتقة الإسلام لتصبح جميعها عبارة عن مزيج هو الثقافة الإسلامية ، ثم ما لبثت أن تفلتت من تلك البوتقة وغلب عليها عنصرها وتحول المزيج إلى عناصر عديدة غير منصهرة لا يربطها إلا أنها لا تزال في بوتقة الانصهار .

ثالثاً : ولوج الثقافة الأوربية ومزاحمتها للثقافة الإسلامية والثقافات المحلية والحلول محلها :

إذا كانت الثقافة الإسلامية قد أصيبت إصابات بالغة أقعدتها وجردتها من خصائصها وسماتها ، فإن الثقافات المحلية لم تخرج من هذا الجدال قوية قادرة على فرض ذاتها أو منطقها على واقع العصر ومجريات الأحداث ، وعليه فقد بدا العجز على الثقافة الإسلامية وعلى الثقافات المحلية كذلك ، فقد فقدت الأولى أساليب ووسائل تطوير مفرداتها وطروحاتها ومنطقها بما يتواءم مع المجريات والمستجدات ، أما الثانية فقد وجدت في تحللها من الثقافة الأم ضعفاً شديداً وهزالاً حاداً ، كما أن موروثاتها وماضيها

لم تزودها أو تمدها بالقوة اللازمة للتواؤم مع المستجدات فاستمدت منها القليل وظلت هي مسخاً ليس له معالم .

عند هذه اللحظة كان ثمة من يراقب عن كثب لأوضاع العالم الإسلامي المتداعي ، وكانت الفرصة سانحة لأن تقفز ثقافة أخرى هي الثقافة الأوربية لتعشعش في عقول المسلمين وتشكل عقولهم وأفكارهم .

ولكن هل فُرضت الثقافة الأوربية فرضاً على العالم الإسلامي ؟ أم أنها طُرحت كبديل ليس له نظير ولابد من اللجؤ إليه ؟ وهل زيّن الأوربيون ثقافتهم وأفكارهم في عيون المسلمين وروّجوها بطريقتهم المبتكرة ؟ أم أن المسلمين هم الذين سعوا حثيثاً نحو الثقافة الأوربية ليأسهم من إمكانية صحوة وفواق الحضارة والثقافة الإسلامية ، ولظنهم بأنها ربما تكون البديل الملائم لمواصلة العطاء الحضاري والثقافي الإسلامي ، وأن تلك الثقافة المبتدعة هي الكفيلة بتعصير أصول وقواعد الحضارة والثقافة الإسلامية وتطوير أدوات حركتها ، والدفع بهما في سبيل التقدم والرقي ! .

مما لاشك فيه أن مسألة ولوج الثقافة الأوربية بمنطقها الخاص وأدوات حركتها ابتداءً من القرن التاسع عشر إلى العالم الإسلامي مسألة ذات شجون تحمل في طياتها الكثير من الإشكاليات ، فمما لاشك فيه أن القوى الأوربية الصاعدة في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر قد دفعت بالثقافة الأوربية دفعاً وجعلت منها أداة ووسيلة غاية في الأهمية للسيطرة الفكرية والعقلية على أبناء العالم الإسلامي ، وكان ذلك دعماً قوياً للسيطرة السياسية والعسكرية التي شرعت تباشرها القوى الأوربية في خروجها الثاني نحو العالم الإسلامي ، وهكذا يكون البعد الثقافي الفكري قد شكل بعداً مهماً من أبعاد الظاهرة الاستعمارية التي استهدفت العالم الإسلامي ضمن العالم غير الأوربي ، وذلك لتحويل كل ما عدا أوربا من بلاد الدنيا إلى تابع لها سياسياً واقتصادياً وثقافياً وفكرياً .

ولعل في ذلك حكمة بالغة إذ أن تلك الأداة كانت أداة ذات أهمية وخصوصية وجهتها القوى الأوربية الراغبة في السيطرة إلى العالم الإسلامي ، وذلك لأن العالم الإسلامي يختلف عن أية بقعة أخرى من بقاع الأرض ، فهو يملك موروثاً ثقافياً وحضارياً لابد من مواجهته والتغلب عليه ، ثم إظهاره على أنه الأدنى والأقل مقدرة على المواجهة ، ثم على إخراج العالم الإسلامي من أزمته الحضارية والثقافية ، ودفعه في ركب التطور والتقدم ، وكان ذلك بمثابة التقدمة المنطقية التي تمهد لتدخل الثقافة الأوربية ومنطقها الذي ظن الجميع أوربيون وحتى مسلمون انهما المنقذ من التخلف والهادي إلى التقدم والرقي !! .

وفي هذا الظرف التاريخي الحاسم والعصيب من تاريخ الإسلام كان المسلمون بين مطرقة الثقافة الأوربية المندفعة بقوة وعنف والمصممة على اجتياح العالم الإسلامي وتحطيم صروحه الثقافية والحضارية وبين سندان الثقافة الإسلامية بوضعها غير المواتي والذي كان التفكك والانهيار قد أخذا منها كل مأخذ وأقعداها عن التمكن من التعبير عن نفسها واثبات وجودها في مواجهة المتدخل العاتي الذي اكتسح في طريقه كل شيء .

والمتأمل لوضعية الثقافة الإسلامية في هذه الظروف العصيبة والوضعية المؤسفة يلحظ أن المسلمين في الفترة التي تبدأ من الاجتياح المغولي وحتى أواخر القرن الثامن عشر قد افتقدوا المنهج وكانت هذه هي أول خطوات التخلف ، وبالرغم من ذلك كان لديهم ما يمكن أن يلتفوا حوله ويرددونه ويمجدونه وهو الموروث الحضاري والثقافي ، أما في الفترة التي تبدأ من القرن التاسع عشر وحتى الآن فقد افتقد المسلمون المنهج واتبعوا منهج الآخر وتحولوا إلى تابعين ، فلم يعد لديهم شيء خاص بهم وتحولوا إلى تبع .

رابعاً : إعجاب أبناء العالم الإسلامي بالثقافة الأوربية والأنماط الحضارية الغربية :

كان إعجاب أبناء العالم الإسلامي ناتجاً عن فراغ فكري وثقافي ومصحوباً بانبهار بما لدى الغير من مكون ثقافي ومنطق فكري فرضا نفسيهما من خلال نزعة استعلائية ونظرة دونية ورغبة جامحة في السيطرة والتسيد ، وقد صدر ذلك الإعجاب والانبهار عن طبقات بعينها أو شرائح بذاتها من أبناء العالم الإسلامي ، فهناك شرائح أو طبقات تأثرت بالثقافة والأفكار والأنماط الحضارية الأوربية تأثر فهم واستيعاب أعقبه إعجاب وانبهار ، وكانت تلك الطبقات أو الشرائح في مواقع متقدمة من الهرم الاجتماعي ، واتسمت بالثراء المادي الذي مكنها من التعايش والاختلاط بالمجتمعات الأوربية ، وهناك شرائح أو طبقات تأثرت بالثقافة والأفكار والأنماط الحضارية الأوربية نتيجة عوامل ومؤثرات دعائية نتج عنها تبلور قناعات مفادها أن طريق الأوربيين ومنهجهم هو طريق التقدم والرقي .

لقد كان أمراً منطقياً أن يقود الإعجاب والانبهار إلى اعتناق ، ولم يكن من الصعب على المسلمين اعتناق المكون الثقافي والفكري للأوربيين وبصفة خاصة في حالة غياب ثقافة إسلامية فعالة ، وعندئذ تمكنت الثقافة الأوربية والأفكار المصاحبة لها أن تتسلل إلى العقل والفكر المسلم وتستقر في أعماقه كإحدى مكوناته ، وبذا يكون العقل المسلم قد تلوث بشوائب وارسابات صاحبته بشكل مستديم .

ومن المفارقات في هذا الصدد أن الثقافة الأوربية التي تسللت إلى العالم الإسلامي وعشعشت في عقول العديد من أبنائه لم تؤثر على الثقافة الإسلامية فقط ولم تحصرها في ركن مظلم ، بل تجاوزتها إلى الثقافات الإقليمية المحلية التي ازدهرت وأينعت منذ بداية فترة التفكك والانهيار ، وأظهرتها بمظهر قميء ، فلم تعد الثقافات العربية والتركية والفارسية والأوردية وغيرها إلا بمثابة نجوم انطفأ بريقها وذهب ضوئها وتحولت إلى كواكب لا تضئ

ولكن تعكس ضوء الآخر ، وبذا تكون الثقافات الإقليمية والمحلية التي تحمست واجتهدت من أجل اجتلاب الثقافة الأوربية كانت هي الضحية الأولى التي فقدت ذاتها وفعاليتها وأصبحت مسخاً مشوهاً ، أمام الثقافة الأوربية التي بدت قوية مسيطرة .

لقد كانت ثمة تآلف وتناسق بين الثقافات المحلية والإقليمية والثقافة الإسلامية ، فقد تمكنت الأخيرة في فترة ازدهار الثقافة والحضارة الإسلامية من استيعاب وتذويب الأولى في بوتقة التسامح ، ومنذ أن ولجت الثقافة الأوربية انفض ذلك التآلف وذهب التناسق واتسعت الهوة بين الطرفين اللذين باتا في ابتئاس ذاتي واغتراب بيني ، وتسيدت الثقافة الأوربية الجميع مفروضة من الدول الأوربية المسيطرة على العالم الإسلامي ومرغوباً فيها من أبنائه الذين أعجبوا بها إلى درجة الانبهار .

وكان من شأن الحياة الثقافية والفكرية بخصائصها المتقدمة التي سادت العالم الإسلامي أن تترك آثارها على مفهوم العلم ومحتواه والرغبة في التعلم وعملية التعليم والعلوم الطبيعية وتطبيقاتها ، فكيف كانت تلك الآثار ! في المباحث التالية الإجابة على ذلك السؤال .

المبحث الثاني

العلم في الوقت الراهن

جمعت السيطرة الأوربية على العالم الإسلامي بين السيطرة السياسية والعسكرية والاقتصادية والثقافية والفكرية ، وتأثر العلم ومحتواه الذهني والمعنوي والمادي بهذه السيطرة والثابت أن آثار تلك السيطرة لم تنته بانتهائها وحصول الدول الإسلامية على استقلالها السياسي ، بل ظل العلم يحمل نفس مضمونه الذي كان مصاحباً لتلك السيطرة ، وظلت الدول الإسلامية تابعة لأوربا فكرياً وثقافياً ، وفيما يلي التفصيل :

أولاً : انقسام العلم إلى علم دنيوي وعلم بالإسلام :

العلم في ذاته وجوهره لا يتغير ولا يتبدل ولكن الذي يتغير من وقت لآخر وربما من مكان لآخر هو علاقات العلم بتطورات وتفاعلات الحياة ، والعلم في بلاد العالم الإسلامي قد طرأت عليه تبدلات وتحولات نتيجة المستجدات والمتغيرات ، وقد أثر ذلك على دور العلم في الحياة ، وقد رسخ ذلك من وضعية التخلف العلمي التي بذرت بذورها وامتدت جذورها إلى بداية فترة التفكك والانهيار التي تحدثنا عنها تفصيلاً في الفصل السابق .

وقد كان العلم من أول مرتكزات الحضارة الإسلامية التي تأثرت تأثراً شديداً بالتفكك والانهيار ، وكذا بالانقطاع الذي طرأ على الحضارة الإسلامية مثله في ذلك مثل التعلم والتعليم والعلوم الطبيعية وتطبيقاتها ، وقد بدت أول تلك التأثرات في انقسام العلم إلى قسمين : قسم انصرف إلى تناول علوم الإسلام ، وقسم آخر تخصص في تناول العلوم الأخرى المرتبطة بكافة شئون الحياة والإنسان .

وهذه المسألة تحتاج إلى تأمل وتدقيق ، فالانقسام الذي تطورت إليه وضعية العلاقة بين قسمي العلم التي أشرنا إليها لم يبد بشكل صارم إلا في الفترة محل التحليل ،

فعلوم الإسلام كان لها ذاتيتها وكذلك العلوم الأخرى ولكن العلاقة بينهما كانت قوية والارتباط كان شديداً ، فالعلوم الدنيوية كانت تنطلق من علوم الإسلام وترسخ الإيمان والفكرة الإسلامية عموماً ، كما أن علوم الإسلام كانت تقدم وتمهد لعلوم دنيوية عديدة ، كان ذلك هو حال العلاقة بين علوم الإسلام والعلوم الدنيوية منذ فجر الإسلام وحتى نهاية الخلافة العباسية ، إلا أن تلك العلاقة بدأت في التآكل والتحلل إلى أن تبددت تماماً في الوقت الراهن وأصبح ثمة استقلال تام بين علوم الإسلام والعلوم الدنيوية ولم يعد بينهما أية صلة على الإطلاق .

ولكن لماذا تعمق ذلك الانقسام ووصل إلى ما هو عليه الآن وأصبحنا بصدد علوم تدرس الإسلام كشعيرة وشريعة ونظام اجتماعي وعلوم أخرى لا علاقة لها بذلك وتدرس عناصر الطبيعة ومفردات الكون وعناصر الوجود ! يكمن وراء ذلك الفصل التعسفي سببان يتصل أولهما بضعف الثقافة الإسلامية وحلول الثقافة الأوربية محلها ، والأخيرة تفصل بشكل جذري بين علوم الأديان وعلوم الطبيعة والحياة ، وقد انتقلت تلك التقليعة من أوربا إلى العالم الإسلامي ، وتلقفها أبناؤه وهم في حالة الانبهار التي أصابتهم بفعل تأثرهم بالثقافة الأوربية ، ويتعلق ثاني السببين بالانقطاع الذي تعمق والفجوة التي اتسعت بين أبناء الإسلام وماضيهم حيث خفي عليهم الكثير من عناصر ومقومات حضارتهم ، كما أن ما وصلهم منها وعنها كان في حالة تخلو من الأصالة ويشوبها لغط ولهو أساءا لتلك العناصر وأبرزاها على أنها أحداث وأفعال للقدامى لا يستفاد منها إلا بروايتها لتسلية الأجيال ! .

وكان من شأن ذلك الانقسام بين علوم الحياة وعلوم الإسلام أن يتوغل ليصل إلى رغبة التعلم وطلب العلم وعملية التعليم ، وانقسم طلاب العلم إلى طلاب لعلوم الإسلام وطلاب لعلوم الحياة ، ومن ثم توزعت المؤسسات التعليمية إلى مؤسسات تعلم علوم الحياة وأخرى تلقن علوم الإسلام ، وقليلة هي المؤسسات التي حاولت الالتفاف على الانقسام من خلال

إقامة نوع من الازدواجية بتعليم علوم الإسلام جنباً إلى جنب مع علوم الحياة ، وكان النموذج الأمثل في ذلك هو الأزهر الشريف في مصر .

وما من شك في أن تفاعلات الحياة الاجتماعية وكذا العديد من القوى السياسية الفعالة والطبقات المميزة في المجتمعات الإسلامية كانت تزكى ذلك الانقسام وترسخ من وجوده نتيجة قناعاتها التي تشبعت بها من الثقافة الأوربية ، يضاف إلى ذلك النظم السياسية نفسها التي وقفت بكامل قواها وراء ذلك الانقسام واعتبرته أمراً ضرورياً لإنجاح سياسات وعمليات الإنماء التي شرعت فيها منذ حصولها على الاستقلال من السيطرة الأوربية ! .

وتكمن خطورة هذه المسألة فيما أفضت إليه من عملية مفاضلة لا شعورية كرستها في عقول المسلمين وتفكيرهم الجماعي بين علوم الدنيا التي ظهرت على علوم الإسلام وقد بدت دوماً مقرونة بالتخلف وتعطيل المسلمين عن اللحاق بركب التقدم والتطور .

وتجدر الإشارة إلى ردة الفعل على هذا المسعى ، وقد تناثرت تلك الردة على امتداد العالم الإسلامي وجاءت من القلة من أبناء الأمة الذين استمسكوا بالعروة الوثقى وكانوا يفهمون الإسلام حق الفهم ويعلمون أنه دين العلم ودين التقدم والرقي ، وعكفوا على تعصير أصول الدين وقواعده التي تؤسس النظام الاجتماعي الإسلامي ، واجتهدوا من أجل تطوير أدوات التعامل مع الواقع الاجتماعي بمتغيراته ومستجداته ، ومن ثم ظهرت الأدبيات النادرة التي استهدفت تبيان الاتصال الوثيق الذي لا ينبغي أن ينقطع بين علوم الإسلام وعلوم الحياة حيث لابد أن يقود كل منهما إلى الآخر ، فكانت علوم الإسلام تحض على علم الحياة وفقه حقائقها وظواهرها حتى يمكن التعامل معها كما أراد الخالق سبحانه ، كما أن هدف علوم الحياة خدمة الإنسان ثم تمكينه من التعامل المهذب مع عناصر الكون وترسيخ ايمانه باكتشاف آلاء الله وعجائب قدرته في خلقه ، ولكن تلك المحاولات لم تجد

الاستجابة اللازمة من أبناء الأمة وظلت بمثابة شاهد على أن تلك الأمة ستظل تحمل في ثناياها الخير لأن الله جعلها كذلك خير أمة خرجت للناس .

ثانياً : الاهتمام بالعلم الدنيوي على حساب العلم بالإسلام :

لم يكتف المسلمون بالفصل التعسفي بين العلم الدنيوي والعلم بالإسلام بل تطور ذلك الفصل ليعلي من شأن العلم الدنيوي على العلم بالإسلام أو على الأقل ليصرف اهتمام المسلمين بالعلم الدنيوي على حساب العلم بالإسلام ، وقد بدأت هذه الوضعية تنتشر في العالم الإسلامي منذ السيطرة الأوربية التي غشيت معظمه منذ مطلع القرن التاسع عشر ثم عمته بعد ذلك ، والمفارقة الجديرة بالذكر في هذا الصدد أن مسألة الاهتمام بالعلم الدنيوي على حساب العلم بالإسلام قد ترسخت وتوطدت ووصلت إلى حد القناعة عقب حصول دول العالم الإسلامي على استقلالها من نير السيطرة الأوربية ، وقامت النظم السياسية التي تشكلت عقب ذلك الاستقلال بدور رائد وحيوي في إقرار هذه القناعة لدى المجتمعات الإسلامية ، وكذلك عملت معها جنباً إلى جنب الطبقات العليا ذات الثقافة الأوربية سواء كانت على المذهب الفردي أو على المذهب الشمولي .

وكان ثمة أسباب عديدة وقفت وراء هذه الوضعية لعل أولها يكمن في أن العلم بالإسلام قد انتقل إلى هذه العصور المعاصرة دون تعصير لقواعده وأصوله ودون تطوير لأدوات حركته حتى يقدّر له مواءمة المتغيرات والمستجدات التي تفرضها حركة الحياة الإنسانية .[1]

يرتبط بما تقدم ويتممه سبب ثانٍ وهو أن المسلمين قد اعتبروا العلم بالإسلام لا يتعدى فقه الشعائر والنسك وتبيان الحدود والأحكام التي تم تعطيل جلّها في المجتمع الإسلامي ، وعندئذ أنزوي العلم بالإسلام في ركن مظلم على أنه أمور تعبدية شعائرية بحتة لا صلة لها

[1]. لتفصيل المقصود بتعصير القواعد والأصول وتطوير أدوات الحركة يمكن الرجوع إلى المجلد الأول: السياسة والحكم في الإسلام بجزئيه الأول والثاني .

بحركة المجتمع وتفاعلاته وشاعت مقولة خبيثة راجت لدى العامة والمرجفين مفـادها أن " لا دين في السياسة ولا سياسة في الدين " وكأن ذلك حكم على الإسلام بأن يظل حبـيس الشعيرة التعبدية .

كذلك برز سبب ثالث وثيق الصلة بما تقدم وهو أنه لم يعد ثمة مجال للحديث عن الإسلام كنظام اجتماعي ، وهذا السبب ذاته وقف وراءه ثلاثـة عوامـل دعمتـه وقـوت مـن وجـوده الأول هو العداء الشديد الـذي أظهرتـه الـنظم الـسياسية للـدول الإسـلامية المستقلة للـدين وللإسلام كنظام اجتماعي ، حيث أنها قد اسـتجلبت أيـديولوجيات جعلـت منهـا أسـس الأنظمة الاجتماعية ، يضاف إلى ما تقدم العامل الثاني الذي تبلور في أن علماء الإسـلام لم يقدّر لهم لأسباب عديدة ذكرناها سلفاً أن يـستنبطوا الطروحـات والـرؤى الإسـلامية الـتي تجعل من الإسلام نظاماً اجتماعياً كما كان الحال في دولة المدينة ودولة الخلفـاء الراشـدين ، والعامـل الثالـث هـو أن المجتمعـات الإسـلامية بكافـة فئاتهـا وطبقاتهـا قـد اقتنعـت بأيديولوجيات نظمها السياسية التي فرضت عليها فرضاً وروجهـا وزينهـا البطانـات الـتي التفت حول النظم السياسية واستفادت من التزلف لرموزها .

أما السبب الرابع وراء وضعية الاهتمام بالعلم الـدنيوي علـى حـساب العلـم بالإسـلام فقـد تمثل في سيادة اعتقاد كان بمثابة الحصيلة لكـل مـا تقـدم مفـاده أن العلـوم الدنيويـة هـي السبيل إلى تقدم المجتمعات الإسلامية ورقيهـا وأن العلـم بالإسـلام هـو سـبب تـأخر تلـك المجتمعات ، وقد تناس مروجو هذا المعتقد ومعتنقوه أن الإسلام هو دين العلـم وأنـه يعلـي من شأن العلم الدنيوي ولا يحط من قدره .

ثالثاً : انتفاء المرجعيات الشرعية للعلوم الدنيوية :

في العصور الإسلامية الزاهرة كانت العلوم الدنيوية تمر دوماً عبر المرجعيات الشرعية الإسلامية المتمثلة في القرآن والسنة ، فكانت لتلك العلوم بمثابة المنطلقات التي تنطلق منها وتجد فيها أسسها وقواعدها وأصولها والدافع إليها والحث عليها ، كما كانت تجد فيها كذلك القيم التي دأبت العلوم الدنيوية الإسلامية على التحلي بها والدعوة إليها مهما كانت تخصصاتها وتوجهاتها ، وكانت أيضاً المرجعيات الإسلامية للعلوم الدنيوية بمثابة السياج الواقي والحصن الباقي الذي يعصمها من الذلل ويجنبها الانحراف والخلل ويثبتها على طريق الصواب والفلاح ، وأخيراً حددت المرجعيات الإسلامية للعلوم الدنيوية الهدف والغاية في الارتقاء بالحياة الإنسانية وإيصالها إلى الحياة الطيبة التي تيسر للإنسان عبادة الله الواحد الأحد وتحدث التناغم والتآلف مع مفردات الكون وموجودات الحياة التي تسبح لله .

في الفترة موضع الدراسة لم تعد المرجعيات الإسلامية تمثل للعلوم الدنيوية نفس المعاني والمضامين السابقة حيث تم الفصل – كما سبق الإيضاح – بين العلم بالإسلام وعلوم الدنيا ، فباتت المرجعيات هي الأفكار البشرية التي يحدوها العقل بشطحاته وأهوائه والأيديولوجيات الإنسانية التي صاغها الإنسان وفق مشاربه وتوجهاته ، وأمست القيم من صنع الإنسان وتأليفه ، فما يراه قيمة يقره على أنه كذلك ، ولم يعد ثمة محاذير أو ضوابط أمام العلم الدنيوي فتحول إلى مارد جبار خرج من قمقمه ليعث في الأرض الفساد ولم يعد العلم في خدمة الإنسان فقط بل أصبح من أجل إفنائه وتدميره ، وعليه فقد اتضحت الصورة وانجلت الرؤية بين علوم المسلمين في عصور حضارتهم الزاهرة ، وعلوم أوربا التي استعارها المسلمون في عصور تبعيتهم وتخلفهم .

رابعاً : أوربا مصدر العلم في العالم الإسلامي :

لقد أصبح العلم دخيلاً على المجتمعات الإسلامية ، فقد تحولت أوربا من تابع للمسلمين إلى متبوع يتبعه المسلمون فيستجلبون منه علومهم وثقافتهم ومعارفهم ، وبالرغم من أن للعلم خصائصه العالية الإنسانية الموضوعية إلا أنه يتأثر بالبيئة التي يخرج منها ثم يعود ليؤثر فيها مرة أخرى ، وقد كان ذلك حال العلوم التي خرجت من أوربا تأثرت بتلك المجتمعات وما يسودها من أفكار ومعتقدات وقيم ثم عادت فأثرت في تلك المجتمعات مرة أخرى وقادت هذه العلاقة الجدلية بين العلم والبيئة إلى قيام حالة من الائتلاف والتآلف بين العلم والبيئة إلى أن أصبح من الصعب الفصل بينهما .

وتأسيساً على ما تقدم فإنه عندما أقدمت المجتمعات الإسلامية على استجلاب علوم أوربا كان عليها أن تنتزع تلك العلوم من بيئاتها انتزاعاً ثم تقوم باستنباتها في بيئاتها ذات القيم والأفكار والمعتقدات المختلفة ، وكانت تلك عملية صعبة ونتائجها مبتسرة ، وقد بدا ذلك جلياً عند تقييم نتائج عملية الاستنبات تلك النتائج التي لم تحقق آمال وطموحات المجتمعات الإسلامية الراغبة في التقدم والرقي على غرار أوربا ! .

إن ما سبق يعنى أن المجتمعات الإسلامية لم تستجلب من العلوم إلا ثمارها ونتاجاتها النهائية ولم يكن لديها القاعدة التقنية والأصول والأسس العلمية التي لابد منها لإيجاد علوم أصيلة تفرز نتائج وثماراً تعكس واقع المجتمعات وتنهض بها ، وتتوزع عناصر القاعدة التقنية إلى عناصر مادية وأخرى بشرية وأخيرة قيميه معنوية وسوف نفصل ذلك في الفصل التالي .

لقد أدرك الأوربيون ما لم يفطن له المسلمون وهو أن القطوف التي سيحصل عليها المسلمون من علوم الأوربيين لن تسمن ولن تغني من جوع ، ولكنها ستحول المجتمعات الإسلامية

إلى أذناب تتعلق بأذيال أوربا طمعاً في سراب خداع هو التقدم والرقي ذلك الذي لم تحرز منه كافة المجتمعات الإسلامية شيئاً يمكن أن يذكر حتى الآن .

لقد ذاق الأوربيون مرارة التبعية للعالم الإسلامي واستساغوا في ذات الوقت حلاوة العلوم والمعارف التي جنوها يانعة من حضارة المسلمين ، وهاهم عادوا ليشبعوا لدى أنفسهم نهم التشفي والتوق إلى الريادة والقيادة التي افتقدوها طويلاً ، فاخذوا يتفننون في التهوين من شأن المجتمعات الإسلامية ويمعنون في تحويلها إلى تابع لا يملك من أمر نفسه شيئاً .

لقد وضعت البدايات التاريخية لما تقدم منذ أن ولج نابليون بونابرت بلاد الإسلام في حملته الشهيرة على مصر في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ووصلت الأمور إلى منتهاها بحصول الدول الإسلامية على استقلالها من الدول الأوربية المسيطرة .

خامساً : تأثر العلم بالتوجهات الأيديولوجية :

منذ أن أنجبت الحضارة الغربية الأوربية بمذهبها الفردي نقيضها وهو المذهب الشمولي والعالم قد انقسم إلى معسكرين متفقين في المنبع والأصل والتراث والهدف والغاية ومختلفين في الوسيلة والأداة ، ولم يكن الانقسام على مستوى الساحة الأوربية فقط ولكنه تجاوز تلك الساحة إلى العالم أجمع حيث شايع كل معسكر فصيل من الدول وانتقلت عدوى الانقسام من أوربا إلى كل بقاع الأرض ، ولقد كان حماس المشايعين أشد من المتنافسين أنفسهم ، وتطور ذلك الحماس ليطول كل شيء من سياسة واقتصاد وإدارة واجتماع وثقافة وعلم ، وأصبح المذهب الأيديولوجي بمثابة نظام اجتماعي يقدم كل شيء في الحياة .

لقد تأثر العلم بتلك الوضعية التي آل إليها حال العالم بعد الحرب العالمية الثانية وجاء ذلك التأثر في اتجاهين : الاتجاه الأول حيث تأثرت كثير من العلوم ذات الطبيعة الإنسانية الاجتماعية النظرية بالتوجهات الأيديولوجية والتفسيرات العلمية للظواهر

الاجتماعية والإنسانية المبنية على أسس ومرتكـزات وأفكـار مستمدة مـن الأيديولوجيـة ، فالتفسير الفردي الرأسمالي لتلك الظواهر يختلف حتماً عن التفسير الشمولي الاشتراكي لها ، ولم ينج من ذلك الفصل الخـرافي إلا العلـوم الطبيعيـة البحتـة ، ولـو أن تطبيقاتهـا قـد تأثرت بالتوجهات الأيديولوجية وكان من شأن ذلك الوضع أن ينتقل بحذافيره إلى الأتبـاع الأيديولوجيين في العـالم الإسلامي وسواه من دول العالم .

الاتجاه الثاني حيث أصبح استجلاب العلم في دول العالم الإسلامي مرتبطاً عضوياً بالتبعية الأيديولوجية فلا يجوز لدولة إسلامية تتبع المذهب الاشتراكي أن تستورد العلوم مـن دولـة فردية رأسمالية ، والعكس صحيح إذ لا يجـوز لدولـة تتبـع المـذهب الفـردي أن تـستورد العلـوم مـن دولـة شمولية اشـتراكية ، ونـتج عـن ذلـك أن تـشيع أصحاب كـل مـذهب أيديولوجي من المسلمين بأفكار ومعتقدات ذلك المذهب وكان لذلك أسوأ الآثار على العقيـدة الإسلامية وحضارتها وثقافتها ، فأمست الأولى نسكاً وعبادة وشعيرة ، وباتت الثانية تراثاً وتاريخاً وأصبحت الثالثة أفكاراً مرجعية متخلفة من العيب ترديدها ومـن العبـث وإضـاعة الوقت في تناولها أو البحث فيها ! .

وعندما انتهى ذلك الانقسام الأيديولوجي الذي ساد العالم ردحاً من الزمـان وأعقبـه حالـة من الفوضى الأيديولوجية الـتي حجبـت النتـائج ولم تعلـق صراحة عـن خـسران المـذهب الشمولي الاشتراكي وظهور المذهب الفردي الرأسمالي إزاء ذلـك كـان العـالم الإسـلامي هـو الخاسر الفعلي إذ أنه لم يتلق من هـذا وذاك في مجـال العلـوم والمعـارف إلا الفتـات وبقـى متخلفاً تابعاً خسر ذاته الحضارية والثقافية التي عقّبهـا في محافـل التـاريخ وخـسر كـذلك التقدم والرقي الذي كان ولا يزال يحلم بإحرازهما من وراء علوم أوربا ومعارفها .

سادساً : التخلف العلمي في العالم الإسلامي :

انتهينا من العنصر السالف إلى وضعية التخلف العلمي في العالم الإسلامي وعلينا الآن أن نقف ملياً أمام هذه الوضعية لتشخيصها بدقة عسى أن يقدّر لنا ولغيرنا من أبناء هذه الأمة أن يستلهم العلاج للخروج من تلك الوضعية ، ووضعية التخلف التي حاقت بالعلم انتقلت كذلك إلى التعلم أي الرغبة في طلب العلم والى التعليم بكافة عملياته ومفرداته ثم إلى العلوم الطبيعية وتطبيقاتها ، وما سنقدمه من شرح وتحليل لوضعية تخلف العلم ينسحب بالتالي تلقائياً على المسائل الأخرى المذكورة من تعلم وتعليم وعلوم طبيعية .

ويهمنا في البداية أن نعرّف التخلف فيما يتعلق بمسائل العلم والتعلم والتعليم ، والتخلف هنا يعنى افتقاد النهج الخاص الذي يتضمن الإطار الفكري والنموذج العملي اللذين يتناولان الجانبين المادي والروحي في الإنسان فيرتقيان بهما نحو الكفاية والكمال ، وهذا التعريف للتخلف يمكننا تحليله إلى عناصره بما يزيده إيضاحاً من خلال ما يلي :[1]

❖ افتقاد النهج الخاص :

أول عناصر التعريف المتقدم وفي ذات الوقت أول سمات التخلف واهم مفرداته هو افتقاد النهج الخاص ، والنهج الخاص هو الطريق الذي يبرز الذاتية والخصوصية والتفرد ، ذاتية المضمون وخصوصية المحتوى وتفرد الدلالات والمقاصد ، وكل ذلك يعنى الهوية التي سينبعث منها كل تعبير عن طريقة الحياة وكل رؤية لتطوراتها وكل تصور عن أهدافها ومقاصدها .

---

[1]. موسوعة الدرر الزاهرة في الأصالة المعاصرة للمؤلف ، المجلد الرابع : الذات الحضارية للإسلام (الحضارة الإسلامية) الجزء الخامس : العمران والمدنية ، الفصل الثامن : مرتكزات المدنية ومستقبل الحضارة الإسلامية .

وبقليل من التأمل لا يمكن الاهتداء إلى دول سارت في طريق الرقي وفق مفهومها إلا وتمتلك ذلك النهج الخاص ، وبالمقابل يصعب التوصل إلى دول تخلفت عن الرقي والنهوض إلا وهي تفتقد ذلك النهج الخاص بالمعنى الذي أوضحناه ، معنى ما تقدم أن التخلف قرين اللانهج ، وأن من قطعوا شوطاً في طريق الرقي والتقدم هم الذين يملكون نهجاً خاصاً بهم يعبر عن أرادتهم ورغبتهم في نقل حياتهم من طور إلى آخر ، إذن فالتخلف في أول عناصره يعني أن المجتمع لا يملك نهجاً خاصاً به ويعتمد في حياته على نهوج مستعارة من الآخرين فهو في هذه الحالة مجتمع تابع ، أو أنه لا يمتلك نهجاً على الإطلاق .

ولقد افتقدنا نحن المسلمين النهج الخاص فيما يتعلق بقضايا العلم والتعلم والتعليم منذ وقت مبكر عندما انهارت الخلافة العباسية في بغداد ثم تحولنا إلى تابعين لأوربا عندما سيطرت علينا سياسياً وعسكرياً واقتصادياً وثقافياً وفكرياً وحضارياً .. الخ وها نحن لا نزال على حالنا من التبعية والتخلف .

❖ النهج يتضمن الإطار الفكري والنموذج العملي :

النهج الخاص للمجتمع يتضمن الإطار الفكري الذي يحدد الأصول والمرجعيات وكذلك الطروحات التي تشرح طريقة تسيير الحياة وتصريف شئون الناس في كافة النواحي والمجالات ، ويتضمن كذلك النموذج العملي أي النظام والتنظيم والقواعد والإجراءات والقاعدة التقنية التي تنقل ذلك الإطار الفكري من طوره النظري إلى واقع عملي وممارسة فعلية ، وهذا ما يطلق عليه الأيديولوجية .

❖ الإطار الفكري والنموذج العملي يتناولان في الإنسان المادة والروح :

وفق الطرح والرؤية الإسلامية الإطار الفكري والنموذج العملي يتناولان في الإنسان المادة والروح معاً ، إلا أنه في الطروحات والرؤى الأخرى هناك تركيز على الجانب المادي من

حياة الإنسان وكيانه ومن ثم تعرف تلك الطروحات بأنها طروحات ذات طبيعة مادية وتترتب عليها تجارب وحضارات وثقافات ذات طبيعة مادية كذلك .

❖ هدف الإطار الفكري والنموذج العملي الترقي بالمادة والروح نحو كفاية الأولى وكمال الثانية :

أيضاً وفق الطرح الإسلامي يتمثل هدف الإطار الفكري والنموذج العملي في كفاية المادة وكمال الروح ، وكفاية المادة تعنى أن تلبى كافة متطلبات الإنسان المادية من مأكل ومسكن وملبس ومركب وخدمات صحية وتعليمية وثقافية وفكرية وترفيهية .. الخ ، أما كمال الروح فيعنى زرع القيم وتوخيها في كافة أمور ومسالك الحياة لدى الفرد والمجتمع والنظام .

إن ما تقدم يعنى أن المسلمين يفتقدون المرتكزات والمنطلقات الأساسية للعلم من نهج خاص وتراكم معرفي يعكس ويعبر عن التواصل الحضاري بين السلف والخلف وقاعدة تقنية تربط الجهود والمساعي والإسهامات بالواقع العملي وتترجمها إلى وقائع وأحداث وتطورات .

المبحث الثالث

التعلم في الوقت الراهن

ثم ننتقل إلى تحليل عملية أو مسألة أخرى من المسائل موضع التحليل في هذا الجـزء وهـي المتعلقة بطلب العلم والرغبة في تحصيله ، وقد تأثرت هذه المسألة هي الأخرى بـالتطورات والتداعيات التي انتابت الحياة الفكرية والثقافية في العالم الإسلامي ، ويمكننا متابعة هذه المسألة منذ بدايات القرن التاسـع عـشر وحتـى الآن في ملامـح ومـشاهد معـين مـن خـلال ما يلي :

أولاً : التحول في أهداف طلب العلم :

لقد اختلفت أهداف طلب العلـم خلال هذه المرحلة عن ما سبقها من مراحل ، وكان وراء ذلك الاختلاف العديد من التداعيات والأسباب ، وقبل أن نخوض في ذلك التحول نود أن نلمح إلى ضرورة التفرقة بين علم الإسلام والعلم الإسلامي ، فعلم الإسلام هو فقه كافة أمـور ومسائل العقيدة كما هي في مصادر الشريعة الأساسية من قرآن وسنة ، أما العلم الإسـلامي فهو طرح علمي مستنبط من مصادر الشريعة المذكورة في أي شأن من شئون الحياة أو منحى من مناحيها مثـل الـسياسة والحكـم في الإسـلام أو الإدارة العامـة في الإسـلام أو الاقتـصاد الإسلامي أو الاجتماع الإسلامي .. الخ .

لقد كانت أهداف طلب العلمْ فيما قبل مرحلة التفكك والانهيار تتمثـل في تحـصيل المعرفـة والعلم للارتقاء بالذات ثم الارتقاء بالمجتمع ثم ترسيخ الإيمان بالله ومـن ثـم يبـدو التلاقـي بين أهداف العلم في تلك المرحلة وبين القيم والفضائل الإسلامية ، ثم تحوّل الأمر فيما بعد وإبان فترة التفكك والانهيار وخلال فترة السيطرة الأوربية لتتمثـل أهـداف طلـب العلـم في

مآرب أخرى غلبت عليها الذاتية والأنانية مثل طلب الجاه أو الرغبة في الارتزاق وما إلى ذلك .

ثانياً : طبيعة المسلم طالب العلم :

إن ما تقدم ينقلنا إلى تناول طبيعة المسلم طالب العلم في المرحلة موضع التحليل وهي القرنان التاسع عشر والعشرون ، فلقد كان المسلم صدى لظروف الحياة الفكرية والثقافية التي مرت بها المجتمعات الإسلامية خلال الفترة المذكورة ، حيث بدأ يعاني من التشتت الفكري المتمثل في ضعف وانزواء الثقافة الإسلامية والثقافات المحلية أمام الاجتياح العاتي من الثقافة الغربية ، ثم في التنافر الحاصل بين الثقافة الغربية والبيئة الخاصة بالمجتمعات الإسلامية التي لم تتمكن من استيعاب تلك الثقافة أو التكيف معها ، وكان من نتيجة تلك المعاناة صعوبة الحصول على العلم وتلقيه مادياً ومعنوياً ، مما قاد في النهاية إلى التقاعس عن طلب العلوم بشقيها علوم الدنيا والعلم بالإسلام أو على أحسن الظروف الاكتفاء بالقليل غير المكلف ، وقد كانت كلفة العلوم الدنيوية أكثر بكثير من كلفة الحصول على العلوم الإسلامية .

لقد كان الإقبال على علوم الإسلام أكثر بكثير من الإقبال على العلوم الدنيوية ولعل أسباب ذلك عديدة : يكمن أولها — كما ذكرنا — في ارتفاع كلفة طلب العلوم الدنيوية وعدم توفر تلك العلوم داخل العالم الإسلامي إلا في أضيق النطاقات ، كما يكمن ثانيها في سيادة اعتقاد لدى المسلمين يجعل العلوم الإسلامية أكثر أهمية وضرورية من سواها من العلوم وذلك لترسيخ المعتقد وفقه أصول الشرع ، ويكمن ثالثها في ضرورة إعداد وتجهيز الوعاظ والدعاة والمرشدين الذين يعلّمون الناس دينهم ، وإن كانت فرصة استكمال تحصيل العلم بالإسلام إلى المستوى الجامعي تعد فرصة نادرة وليست متاحة إلا للقليل .

إن التشتت الذي أصاب المسلمين وصعوبة مواصلة تحصيل العلم بشقيه الدنيوي والديني ساهما في انتشار الجهل والأمية في المجتمعات الإسلامية وتدنى مستويات التحصيل العلمي سواء الديني أو الدنيوي في الوقت الذي قل اهتمام حكومات الدول الإسلامية بالتعليم ومؤسساته ، يضاف إلى ما تقدم أن المجتمع قد تخلى عن دوره الذي كان له فيما يتعلق بتبني واحتضان مؤسسات التعليم ومساعدة طالب العلم ، لقد تحددت إذن خصائص شخصية المسلم طالب العلم في شخصية مكافحة يعاني من ضيق ذات اليد وانعدام من يمد له يد العون ، فيقنع بما يتيسر له من علوم الإسلام التي لا يطمح في مواصلة الحصول على مستويات أعلى منها إلا كبار القوم ، أما علوم الدنيا فلا يمكن للمسلم أن يفكر فيها لأن طلبها يحتم عليه الانتقال إلى أوربا وهذا أمر محال .

ثالثاً : ارتفاع كلفة طلب العلوم الدنيوية :

بالرغم من أن المرجعيات الإسلامية تحض على تعلم علوم الدنيا بكافة صنوفها وضروبها إلا أنها تظل في حكم فرض الكفاية من حيث التكليف الشرعي ، أي أنه يكفي أن يتعلمها بعض أبناء الأمة لتسقط عن البقية ، ويتولى متعلموها مهمة التنظير والتطبيق في تلك العلوم نيابة عن المجموع ، هذا على عكس العلم بالإسلام الذي يعد من قبيل فرض العين الذي يعنى التكليف الشرعي لكافة أبناء الأمة دون استثناء بمعرفة الإسلام وفقه أصوله وقواعده وأحكامه وكافة مكوناته ، لقد كان طلب علم الإسلام أيسر من طلب علوم الدنيا ويرجع ذلك إلى الأسباب التالية :

❖ **السبب الأول** : توفر المؤسسات التعليمية الاجتماعية والرسمية الخاصة بتعليم علوم الدين الإسلامي والتي تعينت في الكتاتيب والمساجد والمدارس والمعاهد والجامعات التي تدرس علوم الإسلام ، وذلك في مقابل ندرة المؤسسات التعليمية التي تتخصص في تعليم

علوم الدنيا فيمكن لطالب علوم الإسلام أن يتوجـه إلى حلـق المـساجد الـشهيرة في مكـة أو المدينة المنورة أو الجامع الأموي أو الجامع الأزهر أو غيرها من الجوامع على امتداد العـالم الإسلامي وسيجد طالب العلم الكثير من المساعدات الإنسانية والرسمية ، أما طالـب علـوم الدنيا فعليه أن يتوجه إلى حواضر معينة مثـل أسـتانبول أو القـاهرة لتحـصيل بعـض تلـك العلوم أو مبادئها على الأكثر أما احدث مبتكرات تلك العلوم فمن الصعب الحصول عليهـا في المجتمعات الإسلامية قاطبة ، فقـد كانـت كافـة المجتمعـات الإسـلامية — كمـا سـبق وأوضحنا — متخلفة في العلوم الدنيوية ، أما علوم الإسلام فبالرغم من أنهـا كانـت ترديـداً لما سـبق وتخلـو مـن الاجتهـاد والعطـاء إلا أنهـا كانـت في متنـاول الجميـع وكـان العـالم الإسلامي قبله المستشرقين من أوربا وغيرها لدراسة علوم الإسلام وحضارته وثقافته .

❖ السبب الثاني : أن كلفة عناصر العملية التعليميـة بالنـسبة لعلـوم الإسـلام في متنـاول الكثيرين من أبناء الأمة ، فـالمعلم والكتـاب والانقطـاع لتحـصيل العلـم كـل هـذه الأدوات والترتيبات من السهولة بمكان توفيرها والحصول عليها حتى ولو انتقـل طالـب العلـم مـن موطنه إلى موطن آخر داخل بلدان العالم الإســلامي ، أما فيمـا يتعلـق بـأمور علــم الـدنيا فكان الحال جد مختلـف ، فعناصـر العمليـة التعليميـة تتحـدد في المعلـم والكتـاب والأداة التعليمية ، فالمعلم نادر وندرة الكتاب لا تقل عن ندرة المعلم وإذا توافر أي منهما أو كلاهما فمن الصعب أن يواكب آخر تطورات تلك العلوم كما هي في بلادها ومنابعها في أوربا ، أما الأداة التعليمية أو الوسيلة فهي أكثر صـعوبة في الحـصول عليهـا مـن الأداتـين المتقـدمتين فالمعامل والمختبرات بالنسبة للعلوم التطبيقية لا يمكـن أن تحقـق آدنـي مـستوى مـن تلـك العلوم مهما كانت متقدمة .

لقد كانت كلفة عناصر العملية التعليمية فيما يتعلق بالعلوم الدنيويـة باهظـة وغـير متـوافرة لأبناء العالم الإسلامي ، ولم تهتم الأنظمة السياسية في الـدول الإسـلامية بتلـك العلـوم ولم

تعباً بالتالي بتوفير عناصر تعليمها ، إلا فيما ندر من المجتمعات الإسلامية التي توافرت ظروف خاصة دفعتها دفعاً في سبيل تشجيع طلب العلوم الدنيوية في حدود ضيقة ولأهداف سياسية صرفة مثل أستانبول حاضرة الدولة العثمانية ومصر في عهد محمد علي ، فالأولى كانت مضطرة لمجاراة المجتمعات الأوربية وللحفاظ على الريادة التي تستوجبها قيادة العالم الإسلامي والسيطرة على دوله حضارياً وثقافياً ، والثانية كانت تجربة فريدة على مستوى العالم الإسلامي راهنت على تطوير مصر والخروج بها من وضعية التخلف التي انخرط فيها أبناء الأمة ، وقد كان ذلك تحدياً لتركيا صاحبة الخلافة وللدول الأوربية ذاتها .

❖ السبب الثالث : بالإضافة إلى ما تقدم ثمة بعدان كان لهما تأثيرهما البالغ في إحداث حالة من العزوف عن طلب العلم الدنيوي وهما البعد الاجتماعي والبعد النفسي ، فلم يكن الإقبال على طلب العلوم الدنيوية بالأمر المستساغ والمقبول اجتماعياً ونفسياً ، إذا أن ذلك يعد من قبيل " التفرنج " والخروج على مألوف العادات ومعهود القيم في المجتمعات الإسلامية ، وكان ذلك يؤثر بليغاً في طالب العلم وينأى بهم عن تلك العلوم التي لا ترتبط إلا ببلاد الكفر والإلحاد بلاد الفرنجة الذين جاءوا إلى الشرق للسيطرة عليه وسرقة موارده ومقدراته والعبث بقيمه ومعتقداته ، وهنا حدث خلط ولبس غريبان ، فالعلوم الدنيوية ارتبطت في أذهان المسلمين بأوربا والأوربيين وانتقل كره وعداء ومقت المسلمين للأوربيين لقاء ما عانوه منهم من صلف وإيزاء إلى العلوم الطبيعية التي ازدهرت لديهم وأينعت في مجتمعاتهم وأصبحت تلك العلوم هي الأخرى مكروهة ومزدراه ولا يقبل عليها المسلمون بسهولة وفضلوا الجهل والتخلف على القبول والتسليم بتعلم علوم الفرنجة أهل الكفر والإلحاد ! ! .

❖ **السبب الرابع** : إن ما تقدم كان كفيلاً بأن يحول بين المسلم وبين الانتقال إلى أوربا لطلب العلوم الدنيوية ، حيث أصبحت تلك هي الوسيلة الوحيدة للحصول على تلك العلوم من مواطنها الأصلية ، فلم يعد هناك من بد لمن أراد تحصيل علوم الدنيا إلا السفر إلى أوربا ، وبات السفر إلى أوربا عائقاً من الصعب تجاوزه أمام القلة من المسلمين الراغبين في تحصيل علوم الدنيا ونقلها إلى المجتمعات الإسلامية ، والمبادرة الشخصية الذاتية في هذا الخصوص غير واردة إلا لأشخاص معينين ومن طبقات بذاتها — وسوف نتطرق إلى ذلك بعد قليل — وتبقى الجهود التي تبذلها النظم السياسية في بعض الدول الإسلامية هي المنفذ الوحيد من تلك المشكلة المعقدة ، فقد شرعت بعض الدول الإسلامية في وقت مبكر خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر في إر سال البعثات التعليمية إلى أوربا وبالذات فرنسا لتحصيل العلوم الطبيعية ونقلها إلى المجتمعات الإسلامية ، وكان ذلك نهج محمد علي في مصر والعثمانيين في الباب العالي ولم تكن النتائج مبهرة لأسباب عديدة ليس هنا موضع ذكرها .

رابعاً : التعلم في ظل الاحتلال الأوربي :

ثم ننتقل إلى وضعية جديدة داخل العالم الإسلامي خلال المرحلة محل التحليل والدراسة ، وهذه الوضعية هي انتقال العالم الإسلامي بكامله تقريباً إلى السيطرة المباشرة للأوربيين سياسياً وعسكرياً وثقافياً واقتصادياً ، والتي بدأت منذ أواخر العقد الثالث من القرن التاسع عشر بتحرك فرنسي بريطاني عنيف ودامي في المغرب العربي والشام ومصر والعراق ، أعقبه وربما زامنه تحرك روسي في وسط آسيا ، واختتم بتدخل إيطالي غاشم في ليبيا والصومال وهكذا أطبقت السيطرة الأوربية على العالم الإسلامي .

ولعل أول سمات عملية التعلم وطلب العلم في ظل السيطرة الأوربية على العالم الإسلامي قد تمثلت في تعميق الهوة بين العلم بالإسلام والعلم الدنيوي ، وليس ذلك فقط بل حدث تفضيل علني سافر للعلوم الدنيوية على العلوم الإسلامية عموماً ، وأدخل الأوربيون في روع المسلمين أن سبب تأخر العالم الإسلامي هو تمسكهم بالعلوم الإسلامية وعدم اهتمامهم الكافي بالعلوم الدنيوية التي سوف تنتشلهم من التخلف والجهل والفقر ! ! وهنا تثار عدة تساؤلات منها : لماذا لم يستفد المسلمون في العلوم الدنيوية من التماس مع أوربا أثناء السيطرة الأوربية على العالم الإسلامي ؟ وما هي الطبقات التي قدّر لها الاستفادة من أوربا وكيف حدث ذلك ؟ وكيف استفادت ؟ .

مما لا شك فيه أن التماس الذي حدث بين أوربا والعالم الإسلامي كان تماساً صراعياً قائماً على الصدام بين إرادتين الأولى غازية تنزع إلى السيطرة واستنزاف مقدرات الطرف الآخر وتنظر إليه نظرة احتقار وازدراء ، والثانية محبطة تعاني من فترات طويلة من التفكك والانهيار تفقد ذاتها الحضارية ومنطقها الثقافي ، وتكافح من أجل الإفلات من نير الاستعباد والسيطرة التي تحاول الأولى فرضه عليها بالقوة ، ولم تكن هذه العلاقة الصراعية التصادمية مواتية لا قدام المجتمعات الإسلامية على الاستفادة مما لدى الأوربيين من العلوم الدنيوية .

لقد قرن الأوربيون حملتهم السياسية والعسكرية للسيطرة على بلدان العالم الإسلامي بحملة أخرى أعتى وأشد ، تلك كانت الحملة الفكرية الثقافية حيث أمعن الأوربيون في التقليل من شأن الثقافة الإسلامية والتهوين من أمر الحضارة الإسلامية ، وبالغوا في ذلك إلى درجة استخلاص ما مؤداه أن التمسك بالثقافة الإسلامية هو سبب تخلف العالم الإسلامي ! وذلك عندما تصدوا لتشخيص حالة المجتمعات الإسلامية ووضعيتها المتردية ، وظل الأوربيون يعزفون على ذلك الوتر إلى أن تمكنوا من أن يستميلوا آذان عدد غير قليل من

المسلمين الذين استحسنوا تلك المعزوفة وطربوا لها وكانوا هم أول المستفيدين من السيطرة الأوربية وعقدوا حلفاً مقدساً مع الحضارة والثقافة الأوربية كان بمثابة زواج كاثوليكي ظلت بموجبه تلك الشرائح والطبقات تدين للثقافة والحضارة الأوربية بالطاعة والولاء ، فما هي طبيعية تلك الشرائح والطبقات التي استفادت من علوم أوربا ومعارفها وثقافتها ؟ وكيف حدث ذلك التلاقي بين الطرفين ؟ وكيف استفادت تلك الطبقات ؟ وهل كان لها تأثير يذكر في مجتمعاتها الإسلامية ؟ وما هي طبيعة ذلك التأثير ؟ وماذا كان موقفها عندما حصلت الدول الإسلامية على استقلالها من السيطرة الأوربية ؟ وهل لا يزال لتلك الشرائح والطبقات أثر في مجتمعاتها في وقتنا الراهن ؟ .

في الأغلب الأعم لم يكن ثمة علاقات يمكن أن تذكر بين أية شرائح أو طبقات أو قطاعات من المجتمعات الإسلامية وبين أي من الدول أو المجتمعات الأوربية على كافة المستويات الرسمية أو غير الرسمية (الاجتماعية) بعد خروج الإسلام من أسبانيا ، إلا أنه بعد وصول مقدمات السيطرة الأوربية ممثلة في الكشوف الجغرافية ثم حملة نابليون ثم الحملة الإنجليزية بدأت شرائح بعينها تفتح أعينها على المتلكات الحضارية والثقافية للدخلاء الأوربيين وكانت النظرة في البداية نظرة توجس وريبة ثم تحولت إلى ما يشبه العلاقات الطبيعية عندما حاول الدخلاء الأوربيون توطيد وجودهم من خلال إقامة علاقات تحت أي مسمى مع بعض الناس من أهالى البلاد الإسلامية وعندما تحول الوجود الأوربي في ديار المسلمين إلى احتلال صريح أخذ عدد المستفيدين من العلاقات مع المحتلين في التزايد وتنوعت تلك العلاقات فشملت العلاقات المادية الاقتصادية والعلاقات السياسية والعلاقات الثقافية الفكرية وانتقلت العلاقات الأخيرة إلى حالة من التأثير والتأثر الفكري والقيمي بين الأوربيين ومجتمعاتهم وبين شرائح وطبقات داخل المجتمعات الإسلامية اتسمت بالثراء المادي والخصوصية في الفكر والثقافة .

وما من شك في أن عدداً كبيراً من أفراد الشرائح والطبقات التي ارتبطت فكرياً وثقافياً بالأوروبيين قد تأثرت ثقافته الإسلامية الركيكة من الأساس ، حيث بدت ضعيفة أمام الأفكار والقيم والمنطق الثقافي الأوربي الذي انبهر به أبناء تلك الشرائح والطبقات ، وبالفعل استفاد هؤلاء من علوم الأوربيين وثقافتهم وأفكارهم ، ولكن ما تجدر الإشارة إليه في هذا الصدد أن ثمة قلة من هؤلاء ظلت محتفظة بهويتها الثقافية الإسلامية بل ربما تعمقت في بعض الأحيان واقتصرت استفادتهم على تحصيل العلوم الطبيعية في العديد من المجالات مثل الطب أو الهندسة أو الطبيعيات وغيرها .

لقد حدث التلاقي بين الشرائح والطبقات المذكورة وبين الدول الأوربية المسيطرة على العالم الإسلامي وفق منطق " البحث عن المصالح " فقد أيقن كل طرف أن مصالحه لدى الآخر ، فللوهلة الأولى أدرك الأوربيون انهم في حاجة ماسة إلى من يوطد أقدامهم في المجتمعات الإسلامية وأن عدداً غير قليل من كبار القوم ليس لديهم ما يمنع من الالتقاء أو التلاقي حول ما يحقق مصالحهم وقد تكون تلك المصالح مادية وقد تكون معنوية ، وبالمقابل أيقن ذلك العدد غير القليل من كبار القوم في المجتمعات الإسلامية انهم يمكن أن يستفيدوا مادياً وفكرياً وثقافياً من الأوربيين بل وذهبوا إلى أبعد من ذلك عندما توهموا وأوهموا غيرهم بأن الأوربيين إنما جاءوا إلى ديار الإسلام للأخذ بيدها إلى التقدم والرقي ، وهكذا التقت مصالح الطرفين حول استفادة كل منهما من وجود الآخر .

كانت الدول الأوربية على استعداد لأن تكافئ القريبين منها لقاء سكوتهم على الاحتلال ومن ثم تمثلت تلك المكافآت في المنفعة المادية من ثروات البلاد المحتلة ، وفي السفر إلى الدول الأوربية لمعايشة مجتمعاتهم ومعاينة حضارتها وثقافتها ، وكانت الفرصة مواتية أمام الأوربيين لإبهار المسلمين وتكريس نمطهم الحضاري ومنطقهم الثقافي لديهم ، ومن ثم اقتربت الشرائح والطبقات الغنية من الدول الأوربية وسياساتها ومن المجتمعات الأوربية

وقيمها وعاداتها وتقاليدها وثقافاتها فرضيت باحتلال بلادها وغضت الطرف عن استبداد شعوبها وهجرت حضارتها وثقافتها الإسلامية وفضلت عليه الحضارة والثقافة الأوربية .

لقد حصلت هذه الشرائح والطبقات من علم أوربا الكثير في كافة المجالات والتخصصات وبصفة خاصة المجالات ذات الطابع الإنساني الاجتماعي التنظيري ، وكان حظها أوفر في اقترابها من الدول الأوربية حكومات ومجتمعات ، وفي ظروفها المادية المواتية ، وكان من شأن ذلك أن يمكن أفرادها من السفر إلى أوربا لتحصيل العلم الدنيوي الذي اشتهاه الكثير من أبناء العالم الإسلامي ولم تتوفر لهم مقدرات تحصيله .

وظل لهذه الشرائح والفئات تأثيرها الواضح في المجتمعات الإسلامية ، فقد اتسعت الفجوة بينها وبين بقية طبقات المجتمع وفئاته واعتبر تميزها المادي والاجتماعي مكافأة نالها أفرادها لقاء علاقتهم بأوربا سياسياً واجتماعياً وثقافياً وفكرياً ، كما أنها استحوذت على إعجاب عدد غير قليل من ضعاف العقول والنفوس من الطبقات الاجتماعية الأدنى ، الذين قالوا يا ليت لنا مثل ما آوتوه انهم لذوو حظ عظيم ! ، بالإضافة إلى ما تقدم فقد اقترفت تلك الطبقة في حق الثقافة الإسلامية الكثير فقد حطت من قدرها وأظهرت الثقافة الأوربية عليها ، وأوحت لأفراد مجتمعاتها بأن ما هي فيه من وضع مميز مادياً وفكرياً ! واجتماعياً هو بفعل الثقافة الأوربية المتطورة ، وأن تخلف المجتمعات الإسلامية هو بسبب تمسكها بالثقافة الإسلامية وعزوفها عن الأخذ بالثقافة والعلوم الأوربية ، وفي الأخير ظلت الطبقات والشرائح القريبة من أوربا حلقة وصل فعالة بين أوربا والمجتمعات الإسلامية حتى بعد استقلال تلك المجتمعات عن السيطرة الأوربية وسوف نتطرق إلى هذه المسألة بعد قليل .

خامساً : التعلم بعد الاستقلال السياسي عن السيطرة الأوربية :

تطورات عدة دخلت على التعلم وطلب العلم بعد انقشاع السيطرة الأوربية عن دول العالم الإسلامي ، ولم تتطرق تلك التطورات إلى المستوى أو الكيف الذي ظل على ما هو عليه وربما تدنى في بعض المناطق ومعظم التخصصات ، ولكنها انصرفت في معظمها إلى أشكال التعلم وطلب العلم ودور النظم السياسية في ترتيبه وتنظيمه وفي ارتباطه بسياسات وعمليات الإنماء والإحداث ثم في تعلقه بالتوجهات الأيديولوجية وأخيراً في ارتباطه بالكم على حساب الكيف .

ولعل أول ما يمكن أن يسجل في هذا الصدد تشبث الأنظمة الجديدة بالعلوم الدنيوية وفصلها بشكل كامل ورسمي عن العلوم الدينية ، وقد ارتبط بذلك كسبب ونتيجة في ذات الوقت ما تبلور لدى تلك الأنظمة من قناعات مؤداها أن العلوم الدنيوية هي بمثابة مفتاح التقدم والرقي وأنها في مسيس الحاجة إلى تلك العلوم لانتشال المجتمعات الإسلامية من التخلف والجهل ثم الفقر ، وألمحت تلك النظم أيضاً وعن قناعة إلى أن علوم الإسلام لا علاقة لها بأمور الحياة وأنها إنما تنصرف إلى العبادة والنسك ليس إلا ، وواصلت معلنة من طرف خفي أن علوم الإسلام واستمساك المجتمعات الإسلامية بها كانت سبباً في تأخر تلك المجتمعات وجهلها وربما ما حل بها من فقر وضنك ! ! .

ويبدو أن النظم السياسية في الدول الإسلامية بعد استقلالها عن السيطرة الأوربية كانت على حق — أريد به باطل — عندما رأت أن العلوم الدنيوية هي أداتها الضرورية ووسيلتها الحتمية لصياغة سياسات وقيادة عمليات الإنماء ، ولكن هل كان ذلك مبرراً منطقياً ومقبولاً لفصلها بشكل متعسف عن العلوم الإسلامية ، والجدير بالدراسة والبحث في هذا السياق هو الإشكالية الماثلة في الوقت الراهن بالدول الإسلامية ، ومفاد تلك

الإشكالية أن الدول الإسلامية قد أتاحت لأبنائها الحصول على العلوم الدنيوية فنقلتها من أوربا بل وبعثت أبناءها إلى أوربا للتعلم وتحصيل العلم واستخدمت العلوم بكافة تخصصاتها في صياغة خطط الإنماء وفي تنفيذ تلك الخطط ، وفي النهاية كانت النتائج مخيبة للآمال ، فلم تتقدم المجتمعات الإسلامية على سبل التقدم والرقي ولم تقض على الجهل ولم تودع الفقر ، بل ظلت على حالها من الجهل والتخلف والفقر تابعاً لأوربا في كل أمورها وتخدع نفسها وشعوبها بأكذوبة الاستقلال السياسي ! .

لقد وقعت النظم السياسية الإسلامية بعد الاستقلال فريسة لمسألة ارتباط العلم بالتوجهات الأيديولوجية فمعلوم أن النظم السياسية في العالم الإسلامي بعد حصولها على استقلالها من السيطرة الأوربية قد توزعت بين التوجهيين الأيديولوجيين اللذين أنقسم إليهما العالم فيما بعد الحرب العالمية الثانية ، فكانت هناك النظم السياسية التي تعتنق التوجه الأيديولوجي الفردي الرأسمالي الليبرالي ، وهناك النظم السياسية التي تعتنق التوجه الايديولوجي الشمولي الاشتراكي الموجه ، وأصبح العلم على ارتباط وثيق بالتوجه الأيديولوجي الذي يعتنقه النظام السياسي بداية من مسألة الفصل بين علوم الإسلام وعلوم الدنيا وانتهاءً بطرق ووسائل استخدام العلم في تخطيط سياسات الإنماء وتنفيذها ومروراً بالدول التي يُستجلب منها العلم وتُرسل إليها البعثات لتلقي العلم وتحصيله واعتناق الأيديولوجيات والأفكار والقيم والمعتقدات .

لقد خرج العالم الإسلامي من ربقة الاحتلال والخضوع المباشر للسيطرة الأوربية لينزلق إلى مستنقع التبعية والخضوع غير المباشر لأوربا عبر الانصياع القيمي والولاء الفكري والطاعة الثقافية والانبهار الحضاري ولا أمل في الانفكاك من هذه الوضعية على الأجل المنظور ! ، إن تحليل وضعية طلب العلم وتحصيله بعد استقلال الدول الإسلامية عن السيطرة الأوربية يفضي إلى مجموعة حقائق يدركها الجميع لأنها بمثابة واقع قائم ولكن ما لم يُدرك حتى

الآن هو كيفية الخروج من ذلك الواقع ! أول تلك الحقائق هو أن تحصيل العلم قد أتيح لكافة أفراد المجتمع وهذه الفرصة لم تكن متاحة من قبل — كما سبق الإيضاح — كذلك فإن كلفة تحصيل العلم لم تعد غير محتملة بل لم يعد تحصيل العلم مكلفاً على الإطلاق فقد ارتبط في كثير من الأحيان بمخصصات مالية للتشجيع والإعانة وهذه كانت الحقيقة الثانية ، أما ثالث تلك الحقائق فإن ثمار العلم ونتاجاته قد استجلبت إلى المجتمعات الإسلامية دون قوامه وأصوله ليس ذلك فقط بل أصبح من اليسير على أبناء الإسلام الذهاب إلى العلم وتحصيله من قواعده ومنابعه ، ورابع تلك الحقائق أن طلب العلم في الحالتين قد ارتبط عضوياً بالقيم والأفكار والمعتقدات المدسوسة في طياته ، والتي حولت طلبة العلم إلى أتباع وحواريين تشبعوا بالقيم وأشربوا الأفكار واعتنقوا المعتقدات ، وغدوا خير دعاة للمذاهب الأيديولوجية ، وأكثر حماساً لها من أصحابها ، وأحتدم النزاع والصراع بين من كانوا طلبة للعلم من أبناء الإسلام ، وتحولت ديار الإسلام إلى حلبة لصراع أبنائه حول أفكار الآخر ، الذي أخذ يرقب في دهشة وهو يغذي تلك الصراعات ويتمنى ألا تنتهي إلا بفناء أبناء الإسلام ، وهكذا تحول العلم إلى نقمة على طالبيه ، لأنه تخلى عن مرجعياته الأصلية وقيمه الفاضلة وأهدافه السامية وغاياته النبيلة التي اجتمعت في الإسلام .

المبحث الرابع

التعليم في الوقت الراهن

أما العملية الأكثر شمولية فقد تمثلت في التعليم ، حيث عكس التعليم في الفترة محل الدراسة الكثير من القضايا والإشكاليات الفكرية والاجتماعية وحتى السياسية والاقتصادية داخل المجتمعات الإسلامية ، وعليه يكون من المجدي والدقيق معاً أن ندرس التعليم خلال مرحلتين متباينتين المرحلة الأولى : مرحلة السيطرة الأوربية على العالم الإسلامي ، والمرحلة الثانية : مرحلة الاستقلال السياسي عن السيطرة الأوربية ، والتفصيل على الوجه التالي :

أولاً : التعليم خلال مرحلة السيطرة الأوربية على دول العالم الإسلامي:

زحفت السيطرة الأوربية على العالم الإسلامي من خلال مقدمات كانت في معظمها ذات طبيعة فكرية ، وعندما غشيت ديار الإسلام كان التعليم من أول وأهم العمليات التي تأثرت بتلك السيطرة وتمثلت أوجه التأثير فيما يلي :

❖ **التدخل في التعليم من قبل القوى المسيطرة :**

كانت عقول وأفكار أبناء الإسلام هي الشغل الشاغل للدول الأوربية التي انطلقت صوب العالم الإسلامي تريد السيطرة عليه واستنزاف مقدراته ، والتعليم وملحقاته هي أهم الأدوات التي تتحكم في العقول والأفكار ، فكان عبث الأوربيين في التعليم هو وسيلة تشكيل العقول والأفكار الإسلامية وفق رؤيتهم وأهوائهم ، وقد جاء ذلك العبث من خلال التعليم وعن طريق أسلوبين نوضحهما فيما يلي :

– التدخل المباشر : كان التدخل الأوربي سافراً صريحاً في التعليم في الدول الإسلامية منذ أن فرضت سيطرتها على تلك الدول وجاء ذلك التدخل على النحو التالي :

○ التدخل في تحديد ما هية العلم ومضمونه : كرست الدول الأوربية الفصل بين العلوم الدنيوية وعلوم الإسلام وشرعت تعلى من شأن علوم الدنيا وتعتبرها وسيلة التقدم والرقي للمجتمعات الإسلامية وفي المقابل تحط من قدر علوم الإسلام وتعتبرها سبباً مباشراً للتخلف والجهل وبالفعل أفلحت في تقطيع كافة الأواصر بين علوم الإسلام والعلوم الدنيوية .

ولم يقتصر تدخل الدول الأوربية على الفصل بين علوم الإسلام والعلوم الدنيوية بل تجاوز ذلك إلى تحديد طبيعة ومضمون العلوم التي ينبغي أن تصدّر إلى دول المسلمين وقد تم التركيز على العلوم المادية البحتة والتي تزكى الأفكار والقيم المادية وتنأى بطالبيها عن القيم الأخلاقية ، وروجت لتلك العلوم بكافة الوسائل والسبل .

○ التدخل في الوسائل التعليمية : يرتبط بما تقدم تدخل الدول الأوربية في تحديد الوسائل التعليمية التي تتولى مهمة تدريس العلوم المشار إليها أعلاه ، فقد أشرفت بشكل مباشر على المدارس والجامعات وعلى ما تحويه من أدوات تعليمية ومن معلمين يبثون مع العلم القيم والأفكار الغربية وانتشرت عمليات التنصير عبر ظاهرة الاستشراق التي ازدهرت في تلك الآونة ، وسوف نشير إليها بعد قليل .

○ التدخل في تحديد طالبي العلم : كذلك امتد التدخل الأوربي في أمور وشئون التعليم في الدول الإسلامية إلى طالبي العلم والراغبين في تحصيله ، حيث قصروا فرصة تحصيل العلوم الدنيوية بالالتحاق بالجامعات القليلة في العالم الإسلامي أو بالسفر إلى أوربا على الشرائح والطبقات العليا ذات الثراء المادي أو النفوذ والسلطة داخل مجتمعاتها ، واعتبروا التعليم في هذه الحالة نوعاً من المكافأة على مساندة الاحتلال و " عربوناً " للصداقة المرجوة

بين الفئات والطبقات الموعودة وبين المجتمعات الغربية بقيمها وأفكارها ومعتقداتها وحضارتها وثقافتها التي سيعتنقها طلبة العلم من العالم الإسلامي بعد وقت ليس بالطويل .

لقد كانت هذه الطبقات والشرائح من طالبي العلم الدنيوي الذي مصدره الوحيد والأمثل هو أوربا بمثابة المدخل الطبيعي للسيطرة الأوربية فكرياً وثقافياً على المجتمعات الإسلامية ، ومن ثم توطدت عرى الصداقة بين الحكومات الأوربية وبين المتنفذين من تلك الطبقات والشرائح وبعد أن مهدت السبيل لتلك السيطرة أصبحت حلقة وصل لم تنقطع حتى بعد حصول الدول الإسلامية على استقلالها عن السيطرة الأوربية ، وحتى بعد تحول الكثير من النظم السياسية الإسلامية إلى توجهات أيديولوجية معاكسة للفلسفة الغربية ذات السمة الفردية ، وسوف نعكف على توضيح هذه الجزئية بعد قليل .

أما بقية طالبي العلم من أبناء المجتمعات الإسلامية من غير ذوي الحظوة فقد ترك لهم التعليم الديني أي علوم الإسلام عبر وسائل وأدوات بدائية مثل الكتاتيب والمدارس أو المعاهد الأساسية أما الجامعات فكانت كذلك للمتنفذين والمياسير ، أما الراغبون في العلوم الدنيوية من عامة المجتمع فلا يستطيعون ولوج الجامعات النادرة إلا بدعم من المتنفذين أو من سلطات المستعمر .

O التدخل في توظيف مخرجات العملية التعليمية : شملت مخططات السيطرة الأوربية على أمور التعليم في بلدان العالم الإسلامي التحكم في توزيع وتوظيف مخرجات العملية التعليمية ، وذلك راجع إلى أن خطة إدارة المجتمع وتوزيع العنصر البشري تتم من البداية بالتعاون بين النظام السياسي وسلطة المستعمر ، وعليه فقد كان توزيع مخرجات العملية التعليمية من العنصر البشري يتم وفق هذه الخطة التي يغلب عليها رغبة وإرادة السيطرة الأوربية .

وحسب ما تقدم فقد كان الحاصلون على التعليم الدنيوي داخلياً أو من أوربا يحتكرون المراكز المتقدمة والمناصب العليا في الجهاز الإداري داخل المجتمعات الإسلامية في الوقت الذي انزوى التعليم الديني وقل شأن طالبيه وانحط مستوى الوظائف التي يشغلها خريجوه وانحصرت في أعمال يزدريها الناس وينظرون إليها نظرة سخرية واستهزاء ، وقد شمل ذلك كل مفردات التعليم الديني ابتداءً من الزي والهندام وانتهاءً بطبيعة العمل والأجر ومروراً بنظرات الناس وانطباعاتهم ! ! ، كل ذلك قد تم عن عمد وكان القصد من ورائه الإساءة إلى الثقافة الإسلامية التي يعكسها التعليم الديني ويمثلها في ذات الوقت وباتت الثقافة الإسلامية في وضع يرثى لها .

– التدخل غير المباشر : إلى جانب التدخل المباشر بالوصف الذي تقدم كان هناك التدخل غير المباشر من قبل سلطات الدول الاستعمارية الأوربية ، وقد اخذ هذا التدخل غير المباشر شكلين نشير إليهما في عجالة :

○ الشكل الديني الذي تشكل في ازدهار الدعوة المسيحية أو ما عرف بحركات التنصير التي توجهت إلى العالم الإسلامي ، وكان هدفها إجراء مفاضلة بين الفكرتين الإسلامية والمسيحية ومآثرها ، ولم يكن المقصد بالضرورة هو نشر المسيحية ولكن زعزعة ثقة المسلمين في دينهم ثم في حضارتهم وثقافتهم وإبرازها جميعاً على أنها الأقل والأدنى .

– الشكل الفكري الذي تجسد في إيناع ما عرف بحركة الاستشراق ، حيث تبع الهجمة الأوربية الثانية (الخروج الأوربي الاستعماري) هجمة فكرية ، حيث وجهت الدول الاستعمارية عقول وأفكار باحثيها ومفكريها وعلمائها إلى العالم الإسلامي لدراسة كافة جوانبه وشئونه الجغرافية والجيوسياسية والأنثروبولوجية والاجتماعية والدينية والحضارية والثقافية والسياسية والاقتصادية .. الخ ، وخرج من جراء ذلك سيل من الدراسات المحشوة بالآراء عن الإسلام وحضارته وثقافته وأنظمته ومجتمعاته ، وكثير تلك الدراسات

كان عن غير فهم وتعمق ، فجاء ضحلاً يخلو من الموضـوعية والنزاهـة والأمانـة العلميـة ، وقليلها تم عن تجرد وحيدة فجاء موضوعياً ذا شأن ويعتمد عليـه ويعتـد بـه داخـل العـالم الإسلامي وخارجه .

لقد برزت أهمية تلك الدراسات غثها وسمينها في كونها كانت هي المـصدر الوحيـد تقريبـاً لمعرفة العالم الإسلامي بجوانبه المختلفة وبصفة خاصة في وقت ندر وربما انعـدم مـا يكتـب عن الإسلام وحضارته وثقافته ومجتمعه بأقلام أبنائه الذين هم أجدر النـاس بالكتابـة عنـه وأحقهم بذلك ، فأصبحت المعرفة بالإسلام تكتسب من الآخر الذي لم يؤمن به ولم يعتنقه ولم يقر في قلبه أو يسـكن جوارحه ، بل تعامل معه كظـاهرة توضـع علـى بـساط البحـث وتتجاذبها الآراء والرؤى !! .

❖ رد فعل الدول الإسلامية :

مما لا شك فيه أن الدول الإسلامية لم تستسلم لتدخل الـدول الأوربيـة في حياتهـا الفكريـة والثقافية وفي نظم تعليمها ، ولكن هذه الدول كانـت تعـاني مـن التخلـف والجهـل والفقـر وعدم المقدرة على تقديم البدائل التي يمكنها عن طرقها مقاومة ذلك التـدخل العنيـف مـن الدول الأوربية ، وتمثلت ردود أفعال الدول الإسلامية إزاء ذلك التدخل في الأتي :

- رد فعل النظم السياسية : كانت النظم السياسية في معظم دول العالم الإسلامي في حالـة استنفار ومقاومة وتصدي للاحتلال الأوربي ولتدخله في شئونها جميعاً والفكرية منها بشكل خاص ، ولم تكن وسـائل الـنظم الـسياسية في مقاومـة التـدخل الأوربـي في شـئون التعلـيم والثقافـة فعالـة بالـشكل الكـافي ، لـذا لم تـتمكن مـن إيقـاف عبـث الأوربـيين بمقـدرات مجتمعاتها الفكريـة والثقافيـة ، وربمـا أدى انـشغال الـنظم الـسياسية في مقاومـة التـدخل والنضال من أجل الحصول على استقلال السياسي إلي التغافل عن التدخل في أمـور الفكـر

والثقافة والتعليم ، ولم يكن ذلك هو شأن كافة النظم السياسية في العالم الإسلامي ، فقد كان ثمة نظم متواطئة مع التدخل الأوربي في الوقت الذي ألقيت تبعات مقاومة الاحتلال على كاهل الشعوب التي خرجت من بين أظهرها قوى التحرر الوطني وأفلحت في نيل مآربها .

– رد فعل المجتمعات : ربما اختلف واقع المجتمعات عن وضعية النظم السياسية فيما يتعلق بمقاومة التدخل الأجنبي ، فربما وجد من النظم السياسية من تواطأ مع القوى المسيطرة ، وربما وجد من تهاون مع تلك القوى ، وربما وجد من هادن تلك القوى وكان أكثر هوادة معها ، أما المجتمعات أو الشعوب الإسلامية فلم تستسلم أبداً لذلك التدخل بالرغم مما كانت تعاني منه من التخلف والجهل والفقر ، ولا يقدح في كفاح تلك الشعوب ونضالها المستميت تخاذل بعض الفئات والشرائح والطبقات التي فرضت عليها مصالحها الأنانية مجاراة قوى الاحتلال وموالاتها ، وهي الفئات والشرائح والطبقات التي انشقت على مجتمعاتها وانتبذت طريقاً خاصاً بها ، فقد تعالت على مجتمعاتها وميزت نفسها بما قدر لها من وضع مادي مميز وثقافة منقولة من أوربا ، وساعدت تلك الفئات والشرائح والطبقات قوى الاحتلال ضد شعوبها ومجتمعاتها ، ولم يكن ذلك هو دأب الفئات والشرائح والطبقات الثرية في كافة المجتمعات الإسلامية ، بل إن ثمة فئات وشرائح وطبقات متميزة مادياً واجتماعياً وثقافياً قادت حركات التحرر والكفاح ضد التدخل الأوربي في مجتمعاتها ، وصفوة القول أن المجتمعات والشعوب الإسلامية في الأغلب الأعم لم تقبل بتدخل قوى السيطرة الأوربية في حياتها الثقافية والفكرية وفي نظمها التعليمية بالرغم من تخلفها وجهلها وعوزها المادي .

❖ وسائل التعليم في ظل السيطرة الأوربية :

تعددت وسائل التعليم في العالم الإسلامي إبان السيطرة الأوربية ، ولكنها كانت جميعاً تعاني من القصور والتخلف ، وتمثلت في الآتي :

– الكتاتيب : كانت الكتاتيب لا تزال تمارس دوراً مهماً في التعليم ، وقد انتشرت في أنحاء كثيرة من العالم الإسلامي ، وبدت أهميتها في الوقت الذي قلت حِلق المساجد ، ولم تكن المدارس في متناول الجميع ، أما الجامعات فكانت للخاصة وهي بطبيعتها نادرة ، والكتاب بمثابة مؤسسة تعليمية اجتماعية ابتكرها المجتمع لتستقبل النشء في سن مبكرة ، فتعلمهم مبادئ القراءة والكتابة والحساب إضافة إلى تحفيظ القرآن وهو الهدف الأساسي من وراء ظهور الكتاب ، وهي تمهد لتعليم علوم الإسلام في المدارس النظامية المتخصصة أو في حِلق الدرس في المساجد ، والكتاب الذي خرج من المجتمع دون هيمنة رسمية محسوسة من دوائر الدولة الإسلامية أو من القوى الأوربية المسيطرة كان هو الأقل كلفة والأقرب إلى وضعية عامة الناس المتواضعة مادياً بشكل مأساوي .

وكان اهتمام الكتاب ينصب على تحفيظ القرآن الكريم ومحو الأمية بتعليم القراءة والكتابة ، ومن ثم فهو وسيلة التعليم الوحيدة المتاحة أمام النشء من أبناء طبقة الفقراء التي تمثل السواد الأعظم في المجتمعات الإسلامية ، والذي يؤهل هؤلاء الصغار لتلقي علوم الإسلام فيما بعد في حِلق الدرس في المساجد الشهيرة مثل : المسجد الحرام بمكة المكرمة ومسجد الرسول الكريم بالمدينة المنورة والجامع الأموي بدمشق والجامع الأزهر بالقاهرة وجامع القيروان بتونس وغيرها .

ولم تتلق الكتاتيب التي انتشرت في هذه الفترة – فترة السيطرة الأوربية – أي دعم من النظم السياسية في العالم الإسلامي ، كما عوملت من قوى السيطرة والاحتلال الأوربي

بتجاهل وعدم اكتراث ، وربما تعرضت للإساءة في بعض الأحيان ، إلا أن ما يمكن استخلاصه هو أن الكتاب كان بمثابة المنجم الذي يزود المساجد بطالبي علوم الإسلام الذين سيصبحون فيما بعد قوة سياسية واجتماعية مؤثرة في الحركة السياسية وحركة الكفاح ضد السيطرة الأوربية ، ومن لم يصل من مرتادي الكتاب إلى رحاب المسجد الجامعة ليحصل على العالية وهي الشهادة المعروفة والمعتمدة في العالم الإسلامي ، فهو يعتبر من حفظة كتاب الله والعارفين بمبادئ علوم الإسلام وذوي الحظوة والمكانة الاجتماعية المرموقة في القرى والنجوع .

– المدارس : ظهرت المدارس في العالم الإسلامي خلال فترة السيطرة الأوربية لتأخذ مساراً منقوصاً ومشوهاً لشكل المدارس الموجودة في أوربا ، ولتخرج في ذات الوقت على السياق الأصولي للمدارس التي كانت قائمة في العالم الإسلامي قبل ذلك ، فهي لم تحافظ على شكل المدارس التي كانت قائمة في العالم الإسلامي بشكلها الصرف النابع من المجتمع الإسلامي ، ولم تنقل الشكل الموجود فعلاً في أوربا وأريد لها أن تنتقل إلى بلاد الإسلام ، وأصبحت مسخاً مذبذباً لا إلى هذا ولا إلى ذاك ، إلا أنها في نهاية المطاف كانت وسيلة مبتكرة من الوسائل التعليمية في ظل السيطرة الأوربية ، وكانت هذه المدارس قليلة وشبه مخصصة لأبناء المياسير والمتنفذين ، وكانت تنشأ في المدن الكبرى وعواصم الأقاليم ، وكثيرها تخصص في مبادئ العلوم الطبيعية ، وقليلها خصص لعلوم الإسلام ، وبعضها جمع بين النوعين من العلم .

وقد اتبعت تقاسيم تقليدية في تقسيم هذه المدارس لعلها لم تختلف كثيراً عما هو قائم في الوقت الراهن ، وهذه التقاسيم مصدرها أوربا على الأرجح ، ووفق المراحل السنية (العمر) قسمت المدارس إلى :

○ مدارس التعليم الأساسي التي تبدأ من سن السادسة وتستغرق الدراسة فيها ست أو تسع سنوات ، تدرس فيها مبادئ وأساسيات العلوم .

○ مدارس التعليم المتخصص (الفني) أو العام ، والتعليم الفني يعد مرحلة مستقلة تشمل دراسة نظرية وعملية لكافة أنشطة ومجالات الحياة من صناعة وزراعة وحرف أخرى ، وهي أشهر مجالات التفاعلات الاجتماعية ، أما التعليم العام فهو مرحلة وسيطة وتمهيدية للالتحاق بالتعليم الجامعي ، ولم يكن يلتحق بالتعليم العام إلا أبناء كبار القوم وخاصتهم ، وكان التعليم في مدارس القسم الأخير مكلفاً وغير متاح لكافة الناس أو عامتهم ، وكانت المدارس المشار إليها تقع في عواصم الأقاليم في المعتاد ، وكانت وسائط الانتقال متخلفة ولا تتجاوز السكك الحديدية النادرة وظهور الدواب أو العربات التي تجرها .

وقد امتدت يد السيطرة الأجنبية الأوربية إلى هذه المدارس فحددت عددها وأماكنها والمناهج الدراسية بها والمعلمين فيها والأدوات والوسائل التعليمية ومخصصاتها المالية وتوزيع مخرجاتها على أماكن الإنتاج والخدمات المتخلفة .

– الجامعات : عرفت جامعات العلوم الدنيوية في العالم الإسلامي على غرار الجامعات الأوربية في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، ونشأت أول تلك الجامعات في كل من تركيا ومصر ، وقد جاء ترتيب تلك الجامعات وتنظيمها بجهود أوربية ، وأدارها وأشرف عليها إدارياً وأكاديمياً أوربيون طيلة فترة السيطرة الأوربية ، وكان المقصد الأساسي من وراء إنشاء هذه الجامعات هو نقل الفكر والثقافة الأوربية ونشرها وغرسها في العالم الإسلامي لإحداث نوع من التبعية الفكرية والثقافية ، وبالفعل قامت تلك الجامعات بدور لا ينكر في تحقيق ذلك المقصد ، وكانت تلك الجامعات مقصورة على أبناء طبقة المياسير والمتنفذين المقربين من رموز السيطرة الأوربية ، وكان الالتحاق بها يتم بالاختيار وفق معايير دقيقة لعل أهمها موالاة قوى الاحتلال ، أما كلفة الدراسة بها فكانت باهظة

، إلا أنه مع مرور الوقت أصبح من اليسير نسبياً الالتحاق بها ، فدخلها وتخرج فيها العديد من أبناء الطبقة المتوسطة العليا ، وكانوا دوماً قوة فعالة في حركة الكفاح ضد السيطرة الأوربية وكان التنافر والصدام هما سمتا العلاقة بين أبناء الطبقتين الغنية والوسطى داخل رحاب تلك الجامعات ، حيث يعبر كل فريق عن الثقافة التي انطلق منها وتأثر بها .

ولم تقم تلك الجامعات بدورها كاملاً في إخراج العنصر البشري الذي يمكنه قيادة عمليات الإنماء والإحداث المتواضعة في المجتمعات الإسلامية لأكثر من سبب : أولها أن سياسة التعليم في تلك الجامعات كانت تتبع القوى المسيطرة ، ولم تكن مصممة لمصلحة تلك المجتمعات ، وثانيها أن المجتمعات الإسلامية لم تستفد من العنصر البشري الذي تعده تلك الجامعات حيث أنها كانت مكبلة بسياسات القوى المسيطرة التي أجهضت كافة جهود الإنماء السياسي والاقتصادي .

– الجامعات الإسلامية : يقصد بالجامعات الإسلامية المساجد التي تحولت إلى جامعات لتعليم علوم الإسلام بالأساس ثم أدخلت العلوم الدنيوية ، وكانت أكثر انتشاراً في العالم الإسلامي من الجامعات التي تدرس العلوم الدنيوية ، وقد وجدت تلك الجامعات في مصر وتركيا والمغرب العربي وسوريا وشبه الجزيرة العربية وفي إيران والهند الإسلامية وباكستان وإندونيسيا ، وكانت هذه الجامعات متاحة لقطاع أعرض من أبناء الشعوب الإسلامية ، وكانت كلفتها متواضعة نظراً لمساهمة المجتمع في الإنفاق عليها إضافة إلى الأموال الموقوفة عليها ، وكانت تلك الجامعات بعلمائها وطلابها تمثل قوة سياسية فعالة في الكفاح ضد السيطرة الأوربية ، وظلت الوسيلة الوحيدة المتاحة أمام الشعوب الإسلامية للدفاع عن الثقافة والحضارة الإسلامية ضد طغيان وعتو الثقافة والحضارة الأوربية ، إلا أنها لم توفق في تطوير أدواتها ووسائلها باستمرار للرد الناجع والفعال على الهجمة

الفكرية والثقافية الأوربية ، مما جعلها تبدو عاجزة وتوسم من الأوربيين بالتخلف ، وتفقد الكثير من ثقة أبناء الشعوب الإسلامية .

ثانياً : التعليم في العالم الإسلامي بعد الاستقلال عن السيطرة الأوربية :

بعد أن تملصت الدول الإسلامية من السيطرة الأوربية ، كانت قد بدأت فترة من التحول لدى هذه الدول ، فترة شرعت خلالها في البحث عن ذاتها ومرجعياتها الحضارية والثقافية ، وقد عمت عملية البحث كافة أمور ونواحي الحياة من سياسية واقتصادية وحضارية وثقافية واجتماعية ، ولم تكن عملية التحول بالأمر السهل الذي توقعه الكثيرون من رجال الفكر ورجال الحركة الذين عاصروا بدايات مرحلة التحول ، تلك المرحلة الحاسمة التي مثلت مفترق طرق خطير كان من المحتم على تلك الدول أن تمر به ، وسوف نعمد في هذا الموضع إلى تحليل أوضاع التعليم في العالم الإسلامي خلال مرحلة التحول التي لا يزال يعيشها حتى الآن ، وذلك من خلال ما يلي :

❖ إشكاليات التحول :

تحول المجتمعات الإسلامية بأفكارها ونظمها وتنظيماتها من وضعية الخضوع للسيطرة الأوربية إلى وضعية الاستقلال والاعتماد على الذات خلف إشكاليات عديدة في كافة المجالات ، ولعله من المجدي والضروري معاً التصدي لبعض هذه الإشكاليات ، حتى نتمكن من دراسة وتحليل أوضاع وظروف التعليم في المجتمعات الإسلامية خلال المرحلة الجديدة ، ونتطرق إلى أهم الإشكاليات التي تمت بصلة للتعليم من خلال الآتي :

– إشكالية التحول الأيديولوجي : نتيجة لما حدث خلال مرحلة التفكك والانهيار ولما أضافته السيطرة الأوربية حدث فراغ أيديولوجي خطير لدى دول العالم الإسلامي كانت محصلته أن الإسلام لم يعد يمثل نظاماً اجتماعياً متكاملاً ، ولم تعد الحضارة الإسلامية إلا

تاريخاً والثقافة الإسلامية جملة علوم الدين ، وباتت معظم الدول الإسلامية في حالة بحث دائم عن أيديولوجية تتوخاها كنظام اجتماعي بعد حصلت على استقلالها عن السيطرة الأوربية ، وكان أن انقسم العالم إلى توجهين أيديولوجيين متصارعين منذ منتصف خمسينيات القرن العشرين ، وكان لكل توجه نصيب مفروض من دول العالم الإسلامي ، وأصبح لزاماً على كل دولة أن تكيف ظروفها وترتب شئونها مع التوجه الذي اختارته ، ولم يكن اختيار التوجه إلا بناءً على معايير وحيثيات تفرضها التطورات التاريخية خلال مرحلة السيطرة الأوربية .

واستلزم التوجه الأيديولوجي تغيير كافة شئون الحياة من سياسية واقتصادية وفكرية وثقافية .. إلخ ، وكان التعليم هو أحد أهم الشئون المفروض تغييرها ، ومعلوم مدى ارتباط التعليم للحياة الفكرية والثقافية أولاً ثم بالأوضاع السياسية والاقتصادية والحضارية ثانياً ، وما أصعب التغيير وما أشق التحول في هذه الظروف الحاسمة ، فالتعليم لابد أن ينطلق من مرجعيات بذاتها فأين تلك المرجعيات وماذا عن مصدرها ، لقد باتت الأيديولوجيات التي تم استيرادها هي المرجعيات فهل كانت صالحة لظروف المجتمعات الإسلامية لنحتكم إلى الزمن والأيام ! .

- إشكالية التحول في الهدف والغاية : الإشكالية التالية ارتبطت بضرورة التحول في هدف التعليم وغايته ، فلقد كان التعليم إبان فترة السيطرة الأوربية يخدم أهداف الدول المسيطرة والتي تمثلت بالأساس في نشر الثقافة الأوربية وترسيخها في المجتمعات الإسلامية ، وبعد الاستقلال تغير الهدف وتحول إلى بناء المجتمع الجديد وترسيخ الأيديولوجية التي تبناها بواسطة نظامها السياسي ، والتعليم وفق غايته الجديدة يتطلب مواصفات خاصة .

– إشكالية التحول في الوسيلة والآلية : وهذه الإشكالية نابعة ومرتبطة بالإشكاليتين الأولى والثانية ، وهي ترتبط أيضاً بالتحول في الوسيلة والآلية ، فوسائل التعليم وآلياته كانت جميعها مستوردة من أوربا ، أما بعد الاستقلال فينبغي البحث عن وسائل وآليات نابعة من داخل المجتمعات الإسلامية ، ولم ولن يقدر للدول الإسلامية صياغة وسائل وآليات للتعليم نابعة من ذاتها ، لأنها لا تملك الأسس العلمية والأصول التقنية التي تمكنها من ذلك ، وسبب هذا الإخفاق هو التخلف والجهل اللذان حددنا أهم عناصرهما وأول خصائصهما في التبعية وعدم القدرة على امتلاك النهج الخاص .

❖ وطنية التعليم :

تأكدت وطنية أو محلية التعليم بعد حصول الدول الإسلامية على استقلالها عن السيطرة الأوربية ، وأصبح التعليم شأناً خاصاً بكل دولة ، ولم تعد ثمة قواسم مشتركة بين مناهج التعليم أو أدواته ووسائله أو أهدافه وغاياته أو مرجعياته ومنطلقاته في الدول الإسلامية وقد بدت وطنية التعليم جلية في أمور بعينها ولم تكن كذلك في أمور أخرى ، فوطنية التعليم كانت أكثر بروزاً في الارتباط العضوي بين التعليم والأيديولوجية التي يتبناها النظام السياسي في الدولة الإسلامية ، وكذلك برزت في أهداف وغايات التعليم التي ارتبطت بأهداف وغايات المجتمع وربما بأهداف وغايات النظام السياسي الذي اتسعت الفجوة بينه وبين المجتمع في كثير من الأحيان في العديد من الدول الإسلامية وأيضاً اتضحت وطنية التعليم في المرجعيات والمنطلقات التي ينطلق منها حيث حددت كل دولة أو نظام سياسي في الدول الإسلامية لنفسها المرجعيات والمنطلقات التي ترى فيها ما يحقق الهوية أو التوجه الذي ترغب في الانتماء إليه أو تبنيه ، إلا أن وطنية النظم التعليمية لم تبد فيما يتعلق بالأدوات والوسائل لأن الأخيرة في كل الأحوال كانت مستوردة من أوربا ولم تكن نابعة من بيئة المجتمعات الإسلامية ، ولكن ظلت سمة التفاوت النسبي في تقدم تلك

الوسائل والأدوات من الأمور التي عكست إلى حد ما وطنية أو محلية التعليم وأنظمته في العالم الإسلامي .

وبالإضافة إلي وطنية أو محلية النظم التعليمية في العالم الإسلامي في فترة ما بعد الاستقلال عن السيطرة الأوربية ، كان ثمة ما يعرف بقومية النظم التعليمية ، ويقصد بالقومية في هذا السياق أن تنعكس الانتماءات القومية التي تجمع بين العناصر والأعراق داخل العالم الإسلامي على النظم التعليمية داخل الدول التي تنتمي إلى قومية واحدة ، وكانت قومية التعليم مبرزة في العلوم التي تتناول الروابط القومية والتراث القومي والطابع القومي وخصائصه عموماً ، بالإضافة إلي الموروثات الحضارية والثقافية ، وقد كان لكل من وطنية التعليم وقوميته دورهما الذي لا ينكر فيما يتعلق بتوسيع الهوة بين النظم التعليمية على المستويين القومي والوطني في العالم الإسلامي ، وطمست في ذات الوقت ما يمكن أن يطلق عليه الهوية الإسلامية للنظم التعليمية ، والسؤال الآن : هل كانت هذه الإشكاليات التي يمكن بلورتها في : وطنية التعليم وقوميته ، وفي طمس الهوية الإسلامية ، ناتجة عن السيطرة الأوربية على الدول الإسلامية ، أم أنها كانت بمثابة إفرازات لتداعيات داخل العالم الإسلامي ؟ إن التحليل الدقيق والمتابعة التاريخية المتأنية التي قمنا بهما من خلال هذا المؤلف تفضيان بنا إلي خلاصة مؤداها : أن تلك الإشكاليات قد برزت منذ بداية فترة التفكك والانهيار التي أعقبت تدمير الخلافة الإسلامية على أيدي المغول في بغداد ، وقد رسختها السيطرة الأوربية وحولتها إلى مسلمات وقناعات رضي بها المسلمون ، ولم تعد موضع مراجعة أو إعادة نظر ! ! .

إزاء ما تقدم كانت الهوية الإسلامية للنظم التعليمية في العلم الإسلامي مثار جدل عنيف بين أطراف عديدة : بين الطبقات والشرائح والفئات التي تنتمي إلي ثقافات مختلفة في العالم الإسلامي ، وبين النظم السياسية وبعضها ، وبينها وبين الطبقات والشرائح والفئات

التي لا تزال تتشبث بالهوية الإسلامية في الثقافة والحضارة والتعليم ، وقد احتدم هذا الجدل ووصل إلى حد الصراع العضوي ! وبالرغم من ذلك فالهوية الإسلامية فرضت نفسها على كافة الفرقاء من خلال علوم الإسلام التي حافظت على موقعها ضمن خارطة النظم التعليمية ولم تزحزحها علمانية النظم التعليمية في النظم السياسية الاشتراكية ، ولم تزلزلها عداوة تلك النظم التي جاءت بشكل سافر وحاد ، ووصلت إلي حد العنف وإراقة الدماء .

❖ التوجهات الأيديولوجية :

ألمحنا إلى أن التوجهات الأيديولوجية التي اعتنقتها النظم السياسية الإسلامية بعد الاستقلال عن السيطرة الأوربية قد انتقلت إلى العلم والتعليم ، حيث أصبحت كل دولة تكيف نظامها التعليمي وفق التوجه الأيديولوجي الذي يتبناه نظامها السياسي ، وبالذات في الوسائل والأدوات ، وكذلك في العديد من العلوم الاجتماعية النظرية ، والتوجه الأيديولوجي عندما انتاب نظم التعليم والعلم فرض على الدول الإسلامية أن تتبع النظم والتنظيمات التي تأخذ بها الدول صاحبة التوجه ، وتستورد منها الأدوات والوسائل ، وترسل إليها البعثات التعليمية ، وكان ذلك مدعاة لأن تتأثر بثقافتها وأفكارها .

ولعل أيديولوجية التعليم والعلم كان مثلها مثل وطنية وقومية التعليم والعلم ، ساهمت في طمس الهوية الإسلامية لنظم التعليم في الدول الإسلامية ، بل أنها كانت أكثر شراسة وحدة في عداوتها للهوية الإسلامية ، وربما اكتسبت تلك الشراسة الحادة من النظم السياسية التي لم تنظر بارتياح إلى الحضارة والثقافة الإسلامية والحركة الإسلامية عموماً .

لقد كانت التوجهات الأيديولوجية التي تبنتها النظم السياسية في الدول الإسلامية بعد استقلالها عن السيطرة الأوربية وبالاً على الثقافة الإسلامية ، وكذا على الثقافات الإقليمية

والمحلية ، والمطلع على حقيقة الأوضاع وواقع التطورات في تلك الآونة يكتشف أن التحرر من سيطرة الثقافة الأوربية لم يكن إلا للوقوع في حبائل التوجه الأيديولوجي بمفرداته الفكرية والمعتقدية والقيمية ، واستبدلت تلك النظم السياسية تبعيتها لثقافة الأوربية بتبعيتها لثقافة المعتقد أو الأيديولوجية ، وتدخلت ثقافة المعتقد أو ثقافة التوجه الأيديولوجي في كافة شئون الحياة ، وشكلت نظم التعليم ، وتدخلت فيها بشكل لم يسبق له مثيل حتى في زمن الثقافة الأوربية ، فالأخيرة لم يكن مرغوب فيها من معظم قطاعات المجتمع الإسلامي ، أما التوجه الأيديولوجي فقد اعتنقته النظم السياسية وفرضته على المجتمعات وروجت له بكافة السبل .

لقد كانت ثقافة التوجه الأيديولوجي في تعاملها مع المجتمعات الإسلامية بثقافاتها الإسلامية والمحلية تتبع نفس منهج الثقافة الأوربية القائم على الحط من قدر الآخر والتهوين من شأنه ، فثقافة التوجه الأيديولوجي كانت تنظر إلى من استعانوا بها نظرة الفقير الذي لا يملك ذاتاً حضارية ولا منطقاً ثقافياً ، وتمتعت ثقافة التوجه الأيديولوجي بسيادة وسطوه لا مثيل لهما ، ومرد ذلك إلى تبني النظم السياسية لها والولاء الذي أبدته لها قطاعات عريضة من المجتمعات الإسلامية على أنها المنقذ من الثقافة الأوربية ، ووصل الأمر إلى حد أن المجتمعات الإسلامية كادت أن تعتبر ثقافة التوجه الأيديولوجي بديلاً للثقافة الإسلامية ومعبراً عن ثقافة تلك المجتمعات في شكلها الجديد .

لقد أطلق العنان للتوجه الأيديولوجي لكي يمد تأثيراته إلى كافة شئون الحياة ، وقد نال التعليم حظاً وفيراً من تلك التأثيرات ، شمل المناهج والأدوات والوسائل ، وتطرق إلى الاستراتيجيات والأهداف والغايات ، وأمسى نظام التعليم نظاماً موجهاً أيديولوجياً .

❖ **التعليم وسياسات وخطط الإنماء :**

في كل دول العالم يرتبط التعليم بالإنماء ارتباطاً عضوياً ، فسياسات وخطط الإنماء ترتكز جميعها على مخرجات التعليم ، حيث أن العنصر البشري هو الفاعل الأساسي في صياغة السياسات وتنفيذ خطط الإنماء ، ومن ثم كان اهتمام الدول الإسلامية بعد استقلالها بالتعليم تعويلاً على دوره في سياسات وخطط الإنماء التي تعتبرها النظم السياسية في تلك الدول أهم وأول أهدافها ، وربما سبب وجودها ومبرر استمرارها ، فإن نجحت تلك السياسات وأفلحت الخطط في تحقيق التقدم والرقي ، فقد نالت النظم السياسية شهادة تقدير لدورها ولأهمية وجودها .

لقد نال التعليم جل اهتمام النظم السياسية في الدول الإسلامية ، وخصصت له مقدرات مادية هائلة ، ووضعت له خططاً طموحة ربما فاقت امكاناتها وتجاوزت متطلباتها ، وعلى أثر ذلك برزت مشاكل عديدة مثل : ضعف القاعدة التقنية بالدول الإسلامية وتخلف الامكانات والوسائل والمناهج ، وعدم التواؤم بين مخرجات التعليم من العنصر البشري وبين متطلبات خطط وبرامج الإنماء ، والاهتمام بالكم على حساب الكيف ، وشرعت تلك المشاكل تجعل من نظم التعليم في الدول الإسلامية عبئاً ثقيلاً ، وتحتاج هي ذاتها إلى التقويم والإصلاح .

وما من شك في أن سياسات وخطط الإنماء هي التي وضعت نظم التعليم في الدول الإسلامية على محك تجربة قاسية أبرزت ما في تلك النظم من مثالب وأخطاء ، وأوضحت سمات التخلف وعدم الدقة وافتقاد الموضوعية التي اتسمت بها تلك النظم .

وكان من شأن الارتباط العضوي بين التعليم وبين سياسات وخطط الإنماء أن يبرز تركيز النظم السياسية على العلوم الدنيوية ، وإهمالها المتعمد لعلوم الإسلام الذي باتت لا

تستشعره إلا في المناسبات ، وكان مبررها المعلن هو أهمية تلك العلوم للإنماء ، أما واقع حالها فيعلن عداءها للإسلام ولعلومه التي لا تساعد على التقدم بل ربما تعوقه حسب وجهة نظر تلك النظم ! .

❖ افتقاد المرجعيات الثقافية والحضارية :

لقد أصبحت النظم التعليمية في الدول الإسلامية بعد الاستقلال عن السيطرة الأوربية نظماً مجردة من المرجعيات الثقافية والحضارية ، فانتماؤها للثقافة وللحضارة الإسلامية لم يعد له وجود ، وحتى انتماؤها للموروثات الثقافة والحضارية المحلية بات مشكوكاً فيه ، وذلك لأنها تنصلت من هذه وتلك واعتبرتها وصمة تخلف ، وشرعت تبحث عن التقدم لدى الآخر الذي لم تتحلل من سيطرته إلا بالأمس القريب .

لقد أصبحت المرجعيات الثقافة والحضارية للنظم التعليمية في الدول الإسلامية هي نفسها ثقافة وحضارة التوجه الأيديولوجي الذي تبنته النظم السياسية في تلك الدول ، ولم تدرك أن ثقافة وحضارة التوجهين الأيديولوجيين المتصارعين الفردي والشمولي هي واحدة ، فكلاهما ينتمي إلى الثقافة والحضارة الغربية ، إلا أن ما حدث هو أن الثقافة الغربية أساس المنهج الفردي قد ولدت نقيضها وذلك وفق منطق أو نظرية الصراع أو التناقض داخل الثقافة الواحدة ، كما أن كليهما يهدف إلى تحقيق غاية السيطرة والهيمنة على الآخر الذي هو غير الغربي ، ولكن الخلاف بينهما في الأداة والوسيلة فقط .

وهنا يتحقق المتابع من أن مرجعيات النظم التعليمية في الدول الإسلامية في زمن السيطرة الأوربية هي نفسها مرجعياتها في زمن الاستقلال السياسي الشكلي عن تلك السيطرة ، ففي الفترة الأولي كانت متمثلة صراحة في الثقافة والحضارة الأوربية ، وفي الفترة الثانية

كانت مستكنة ضمناً في التوجهين الأيديولوجيين الفردي والشمولي اللذين ينحدران صراحة من ثقافة وحضارة أوربا .

إن ما تقدم من وضعية افتقار النظم التعليمية بالدول الإسلامية للمرجعيات الثقافية والحضارية انعكس على علاقة تلك النظم بالبيئة التي تتعاطى معها وتوجد فيها ، وهي المجتمعات الإسلامية فلم يكن لتلك النظم جذور غائرة في تلك البيئة ، حيث أنها لم تنبعث منها ، ولم تمثلها أو تعكسها ، ولم تتفاعل معها ، ولم تتمكن في النهاية من تحقيق أهدافها ومقاصدها ، وكان ذلك سبباً جوهرياً في إخفاق معظم إن لم يكن كل النظم التعليمية في كافة الدول الإسلامية .

كذلك جاءت النظم التعليمية في الدول الإسلامية بعد الاستقلال نظماً مجهولة الهوية ، فهي لم تجرؤ على إعلان هويتها الإسلامية لخلوها من المرجعيات الإسلامية الثقافية والحضارية ، كما أنها كانت تستحي من أن تعلن أن هويتها تعود إلى التوجه الأيديولوجي الذي تبنته النظم السياسية ، وظلت هكذا مسخاً لا مضمون له ولا مدلول ، وإزاء هذه الوضعية لم تجد أمامها من بد إلا التشبث بفكرة لا مبرر لها ولا قبول وهي دعوى الوطنية التي كانت بمثابة الملاذ الأخير .

❖ تخلف التعليم في العالم الإسلامي :

كل ما قدمنا أفضى إلى نتيجة نهائية مفادها تخلف التعليم في العالم الإسلامي – وقد سبق لنا الحديث – عن التخلف بخصوص العلم والتعلم ، وهو ذاته ما يسري على التعليم ، أما أشكال ومظاهر ذلك التخلف في مجال التعليم فهي تتمثل في الآتي :

– تخلف المناهج : يبدو تخلف المناهج المتبعة في التعليم لأنها لا تنبع من البيئة الخاصة بالمجتمعات الإسلامية ولكنها تستجلب دوماً من الخارج وليس لأبناء الشعوب الإسلامية أية بصمات أو تأثيرات فيها .

– تخلف الأدوات والوسائل : بالرغم من الوفرة المادية التي توجد لدى بعض الدول الإسلامية إلا أن وسائل التعليم وأدواته تعاني في المعتاد من التخلف وعدم مواكبتها لأحدث التقنيات التي تظهر في أوربا المصدر الأساسي لتلك التقنيات ، ويرجع السبب الأول والأخير في تخلف الأدوات والوسائل التعليمية إلى عدم توفر قاعدة تقنية خاصة بالعالم الإسلامي ، وسوف نناقش هذه المسألة تفصيلاً في الفصل التالي .

– الاهتمام بالكم على حساب الكيف : تحت وطأة الحماس الذي انتاب النظم السياسية في العالم الإسلامي بعد الاستقلال من أجل الإنماء والإحداث التحقت بمجال العلوم الدنيوية المختلفة أعداد هائلة من أبناء الشعوب الإسلامية ، ولم تتمكن المناهج المتخلفة ولا الأدوات والوسائل المتهالكة من استيعاب هذه الأعداد ، وكانت النتيجة حدوث عدم توازن بين الكم الهائل والكيف المتواضع ، مما أدى إلى أن تصبح مخرجات التعليم أداة إعاقة لسياسات وخطط الإنماء بدلاً من أن تكون وسيلة إنجاز وتحقيق للطموحات والأهداف .

❖ **الأدوات والوسائل :**

في كافة أنحاء العالم الإسلامي تم تقسيم التعليم إلى قسمين : تعليم دنيوي وتعليم ديني ، ووجدت بعض الجامعات التي جمعت بين النوعين من التعليم على غرار جامعة الأزهر في مصر ، ويمكننا تناول هذين النوعين من التعليم بإيجاز في ما يلي :

– التعليم الدنيوي : تعددت المدارس والجامعات التي أنشأتها النظم السياسية في الدول الإسلامية وعرفت بالتعليم النظامي أو الحكومي أو الرسمي ، ووجد إلى جانب ذلك في الكثير من الدول ما عرف بالتعليم الأهلي ، حيث تنشأ المدارس والجامعات بجهود أهلية داخلية أو خارجية ولكن تحت إشراف الدولة ، وقد ثار جدل واسع حول مدى أهمية وجدية الخدمات التي يقدمها التعليم الأهلي ، وحول ما إذا كان يعد تدخلاً ثقافياً من الغير في شئون الحياة الفكرية والثقافية في الدول الإسلامية ، إلا أنه يمكن القول بأن ثمة مؤسسات أهلية تعليمية وعلمية تقدم من الخدمات التعليمية والعلمية ما يفوق الخدمات التي تقدمها المؤسسات التعليمية والعلمية الرسمية من حيث الجودة والكفاءة ، ونوضح ذلك من خلال الاتي :

○ المدارس : تعد المدارس المؤسسة التعليمية الأولي التي تستقبل الطفل المسلم من سن السادسة في المعتاد ، ويتلقى في هذه المدارس مبادئ وأساسيات العلوم الدنيوية والقليل النادر من أصول التربية الإسلامية ، وتستمر الدراسة في هذه المدارس مدة تتراوح ما بين ست وتسع سنوات ، وتعرف هذه المرحلة عادة بمرحلة التعليم الأساسي التي أصبحت إلزامية إجبارية في معظم الدول الإسلامية .

وبعد أن يجتاز الصبي هذه المرحلة من التعليم الأساسي ينتقل إلى مرحلة أخرى من التعليم أكثر تقدماً ، حيث يدرس مجموعة من العلوم المتخصصة الأكثر تطوراً وعمقاً وكثافة ، وهذه المرحلة تتفرع إلى اتجاهين :

□ الاتجاه الأول : اتجاه يغلب عليه طابع التعليم التقني الحرفي المهني ، حيث يتم إعداد الشاب مهنياً وحرفياً لشغل المهن والحرف التي تتطلبها تفاعلات الحياة الاجتماعية ، وتتراوح الدراسة في هذا الاتجاه ما بين ثلاث وخمس سنوات ، وتعمد بعض النظم

التعليمية إلى استيعاب الخريجين في هذا الاتجاه في جامعات تقنية لصقل العلوم والخبرات التي اكتسبوها في التعليم الثانوي .

□ الاتجاه الثاني : اتجاه يعد الشاب للتعليم الجامعي ، حيث يدرس بعمق وكثافة وتخصص أي فرع أو حقل من فروع العلوم الدنيوية العملية التطبيقية أو النظرية الاجتماعية .

○ الجامعات : يعرف التعليم الجامعي في كافة أنحاء العالم الإسلامي تقريباً بالتعليم العالي ، وتنتشر الجامعات الحديثة النشأة في كافة الأنحاء ، وقد يكون في كل مدينة أو عاصمة إقليمية جامعة ، وتعاني هذه الجامعات المستحدثة من قلة الإمكانيات المادية وندرة الأساتذة ، وتوجد في معظم هذه الجامعات كليات ومعاهد عليا لكافة فروع العلم والمعرفة الطبيعية التطبيقية والإنسانية النظرية ، وتتخلل هذه الجامعات كليات ومعاهد وأقسام تخصصت في علوم الإسلام .

ويعاني التعليم الجامعي في العالم الإسلامي عموماً من مشاكل عديدة تتمثل في : شحة الإمكانيات المادية التي تتطلبها عمليات البحث العلمي ، وعدم وجود قاعدة تقنية خاصة بالتراكم المعرفي تعد بمثابة الرصيد المتنامي للمكتسبات العلمية والمعرفية في العالم الإسلامي ، وتخلف وسائل وأدوات البحث العلمي التطبيقي الميداني ، وعدم المقدرة على الاستفادة من تطبيقات البحث العلمي ، مما افقد البحوث العلمية قيمتها حيث تظل حبيسة التنظير .

– التعليم الديني : إلى جانب ما قدمنا من أشكال ونماذج التعليم الدنيوي وجد التعليم الديني في كافة الدول الإسلامية ، والتعليم الديني يبدأ من طور الطفولة مثل التعليم الدنيوي ، ويمكن الإشارة إلى تدرجية التعليم الديني السائدة في معظم دول العالم الإسلامي فيما يلي :

○ تهميش الكتاب : بالرغم من تهميش دور الكتاب بشكل قد يكون متعمداً من النظم السياسية ، وكاستجابة لمتطلبات العصر من وسائل الاتصال والتقنية الحديثة إلا أن الكتاب ظل هو الأداة الفعلية الأساسية التي تعد الطفل المسلم فكرياً ونفسياً للانخراط في سلك العلم الديني ، وترتفع آراء ومناشدات علماء المسلمين في الوقت الراهن التي تنادي بإعادة تفعيل الكتاب كمؤسسة اجتماعية تعليمية ، والكتاب هو الشكل المتعارف عليه في معظم الدول الإسلامية لهذا النوع الأساسي والبدائي من التعليم الديني ، ويعرف في شمال أفريقيا والمغرب العربي بالزاوية ، وقد أثر تقدم الحياة ورقيها سلبياً على الكتاب ودوره التعليمي إلى درجة يمكن معها القول بأن هذه المؤسسة التعليمية الاجتماعية هي في سبيلها إلى الانقراض .

○ المدرسة أو المعهد الديني : إذا اختار ذوو الطفل المسلم له التعليم الديني فعليه أن يلتحق من سن السادسة بالمدرسة الدينية أو المعهد الديني ، وتبدأ المرحلة الأولي من هذه السن المبكرة وتستمر لمدة تسع سنوات ، يدرس خلالها الطفل كافة علوم الإسلام الشرعية من شريعة وتوحيد وفقه وعلوم القرآن وعلوم الحديث وعلوم اللغة وغيرها ، ثم ينتقل مباشرة إلى المرحلة التالية وهي مرحلة الإعداد للتعليم الجامعي ، وهذه المرحلة لا تقل مدة الدراسة فيها عن خمس سنوات ، وخلال هاتين المرحلتين اللتين لا تقلان عن اثني عشر عاماً يتلقى خلالها طالب العلم علوم الإسلام بشكل متدرج من حيث الكثافة والعمق والتفصيل .

إلا أنه في بعض الأحوال قد يوجد التعليم المختلط حيث يدرس الطالب إلى جانب العلوم الدينية العلوم الدنيوية التي يمكن أن يتخصص فيها في التعليم الجامعي ، ويتخرج فيها ، وتكون دراسة العلوم الدينية لاكتساب المعرفة فقط ، ونري ذلك في مصر وبعض الدول الإسلامية الأخرى .

○ الجامعات : الجامعات التي تتخصص في العلوم الدينية تنقسم إلى قسمين على النحو التالي :

□ القسم الأول : هو الجامعات التي لا تدرس إلا العلوم الإسلامية ، وتحاول هذه الجامعات النهوض بما تقدمه من خدمات تعليمية ، ولكن تلك المحاولة تتوقف على مدى نجاح التعاون والتنسيق بين النظم السياسية وعلماء المسلمين الذين يتولون أمر التعليم الديني ويقومون مسيرته .

□ القسم الثاني : وهو الجامعات التي تدرس العلوم الإسلامية إلى جانب العلوم الدنيوية ، كما يوجد بها كليات ومعاهد تخصصت في علوم الإسلام فحسب .

وتستقبل هذه الجامعات بنوعيها الطلاب من المدارس أو المعاهد الدينية ، وتتراوح فترة الدراسة الجامعية بين خمس وست سنوات .

وتتجه معظم مخرجات التعليم الديني في العالم الإسلامي إلى التعليم الديني في المراحل دون الجامعية ، أو إلى أمور الدعوة والوعظ والإرشاد الديني وإقامة الشعائر في دور العبادة ، ولا تجد الدول الإسلامية صعوبة كبيرة في تمويل التعليم الديني لاعتماده الأساسي على الأوقاف الإسلامية وما تدره من مدخولات ، ومن التبرعات المتبادلة بين الدول الإسلامية ، وتعد الجامعات الإسلامية مراكز راسخة لبث الصحوة الدينية في كافة أنحاء العالم الإسلامي ، وهي التي تتحمل التصدي لكافة أنواع الغزو والاختراق المعتقدي والفكري والثقافي التي تعمد إلى اجتياح العالم الإسلامي وتدمير ممتلكاته وموروثاته الثقافية والحضارية ، إلا أن الجامعات الإسلامية تحتاج إلى الكثير من الدعم والتشجيع وتطوير أساليب البحث العلمي وترقية جهود الاجتهاد لاحتواء المتغيرات واستيعاب المستجدات وتقديم الرؤية الإسلامية الأصيلة لكافة القضايا والإشكاليات المعاصرة .

المبحث الخامس

العلوم الطبيعية وتطبيقاتها في الوقت الراهن

هل أحرز المسلمون تقدماً أو سجلوا عطاءً في مجال العلوم خلال الفترة محل الدراسة التي تبدأ من أواخر القرن الثامن عشر وحتى أوائل القرن الحادي والعشرين ؟ لقد كان للتداعيات والإشكاليات التي سبق رصدها وتحليلها بخصوص العلم والتعلم والتعليم آثارها البليغة على العلوم الطبيعية أو الدنيوية ، وذلك من خلال الآتي :

أولاً : عوامل إخفاق المسلمين في الإنجاز في مجال العلوم الطبيعية وتطبيقاتها :

لقد سادت مجموعة من الخصائص أو العوامل التي حالت بين أبناء الإسلام وبين العطاء في مجال العلوم الطبيعية ، ويمكن تناول تلك العوامل في الآتي :

❖ **فقدان الاتصال بالتراث الإسلامي :**

لقد انغمس المسلمون في مشاكلهم وتمزقوا فكرياً بين الانبهار بالثقافة والحضارة الأوربية التي جاءتهم غازية عاتية ، وبين الدفاع عن ممتلكاتهم وموروثاتهم الثقافية والحضارية ، وقد ألهاهم هذا وذاك وصرفهم عن الاتصال بتراثهم العلمي ، واستيعاب قيمته والبحث فيه ، وبات المسلمون وكأنهم بلا ماضي أو تاريخ ، وكانت هذه أول مراحل فقدان الذات الحضارية والمنطق الثقافي ، وشرعوا يلهثون وراء ما لدى الآخر بدعوى أنه هو الذي سيدفعهم إلى الأمام في ركب التقدم والرقي ! .

❖ **فقدان المقدرة على التواصل مع التراث :**

تاه المسلمون عن تراثهم ، وضلوا عنه السبيل ، ولم يتمكنوا من التواصل معه ، فالأمر قد أصبح صعباً ومعقداً ، فالتواصل يتطلب من المسلمين :

- البحث عن تراثهم وفهمه واستيعابه .

- ثم يستلزم عطاءً مضاعفاً جباراً لسد الفجوة الزمنية بين ذلك التراث والحاضر المعاش ، فمن أين لهم بهذين المطلبين ؟ ! .

ولعل التواصل وفقدان المقدرة على إحرازه هو أهم الإشكاليات التي تصادف علاقة المسلمين بثقافتهم وحضارتهم ، وإن كانت هذه الإشكالية تبدو جلية في كافة مقومات الحضارة الإسلامية ، فهي أكثر جلاءً فيما يتعلق بالعلوم الطبيعية وتطبيقاتها ، وذلك لأن العلوم الطبيعية لا ترتقي وتتقدم إلا من خلال تراكم متواصل من الإنجازات العلمية والمعرفية يمتد في حلقات تسلم كل منها إلى الأخرى ، وفقدان أية حلقة من هذه الحلقات يعني الانقطاع والاختلال ، وأن ذلك يستوجب البدء من جديد أو الاعتماد على الرصيد المتراكم لدى الآخر ، والبدء من جديد هو أمر في عداد المستحيل ، أما الاعتماد على الرصيد المتراكم لدى الآخر فهو البديل المقبول ، ولكنه يتطلب جهداً جباراً للانطلاق والاعتماد على الإنجاز الذاتي الذي يعول عليه في تقديم الجديد باستمرار ، فالإنجاز في مجال العلوم حركة لا تهدأ من الابتكارات والاكتشافات والاختراعات والتطوير ، فعلى المسلمين عندما يفكروا في التواصل مع تراثهم أن يخوضوا غمار هذه الإشكاليات .

❖ التبعية لأوربا في نقل كافة العلوم الطبيعية وتطبيقاتها :

كذلك كانت التبعية لأوربا في نقل كافة العلوم الطبيعية وتطبيقاتها من أهم العوامل التي حالت دون تمكين المسلمين من العطاء في مجالات العلوم الطبيعية وتطبيقاتها ، فالتبعية قد أفقدت المسلمين الشخصية المستقلة ، كما أفقدتهم كذلك المقدرة على العطاء وبذل الجهد ، وحبذت لديهم الاكتفاء بما يملكه الآخر والاعتماد على ما يحرزه في مجال العلم والمعرفة .

وقد اعتاد المسلمون التبعية لأوربا والاعتماد على عطاء علمائها وإنجازاتهم منذ أن اقتحم الأوربيون العالم الإسلامي وشرعوا يعبثون بمقدراته الثقافية والحضارية ، ومن هنا كف المسلمون أيديهم عن العطاء والإنجاز العلمي ، واكتفوا بما يردهم من أوربا ، واستساغوا ذلك واستمرأوه عندما أيقنوا بعجزهم واقتنعوا وانبهروا بقدرات ومكنات الآخر ، وأخذوا ينقلون العلوم والمعارف عن أوربا ، واعتادوا الكسل وألفوا التهافت والتطفل على جهود الغير وإنجاز الآخر ، ولم يعد أمامهم من طريق غير طريق التبعية ونقل كافة العلوم وتطبيقاتها ، وكان من شأن ما تقدم أن يعمق تخلف المسلمين في تلك العلوم ويوسع الفجوة بينهم وبين الأوربيين في تطبيقاتها .

❖ افتقاد القاعدة التقنية على مستوي العالم الإسلامي :

نقصد بالقاعدة التقنية تأسيس وعاء للتراكم العلمي والمعرفي على مستوي العالم الإسلامي يجمع بين العلوم وتطبيقاتها , ويدفع بها دوماً في سبيل التقدم والرقي من خلال التطوير المستمر والإنجاز الدائم المعتمد على القدرات الذاتية والمكنات الإبداعية ، فالعلوم هي البحوث والتجارب ، والتطبيقات هي وضع تلك التجارب على أرض الواقع ، فالعالم الإسلامي لم ينشئ هذه القاعدة لأسباب عديدة : منها التخلف العلمي ، ومنها كذلك السيطرة الأوربية ، ومنها أيضاً قلة الامكانات المادية ، ومنها أخيراً عدم اهتمام النظم السياسية بالعلوم وتطبيقاتها .

ثانياً : مراحل تطور العلوم الطبيعية وتطبيقاتها خلال الفترة محل الدراسة :

وتأسيساً على ما تقدم يمكن الحديث عن وضعية العلوم الطبيعية وتطبيقاتها في العالم الإسلامي من خلال مراحل ثلاثة :

❖ المرحلة الأولي : مرحلة ما قبل السيطرة الأوربية :

خلال هذه المرحلة كان اعتماد المسلمين في العلوم الطبيعية على التراث الذي وصلهم كنتاج من فترة الازدهار العلمي للحضارة الإسلامية ، فانكب المسلمون على كتب التراث في الطب والعقاقير والفلك والرياضيات والطبيعة والكيمياء والجغرافيا والتاريخ والتاريخ الطبيعي ، وخلال هذه المرحلة لم يفقد المسلمون ذاتهم بالرغم من إحجامهم عن العطاء والإسهام والإبداع ، والتفتوا إلى تراثهم ، وعكفوا على البحث فيه واسترجاعه .

❖ المرحلة الثانية : مرحلة السيطرة الأوربية :

وخلال هذه المرحلة شرع المسلمون يتجهون نحو أوربا حيث بدأت ترسل حملاتها إليهم وقللوا من الاعتماد على التراث والعناية به والاستفادة منه ، وبدأت حركة الابتعاث إلى أوربا للدراسة في مصر وتركيا ، ونشطت هذه الحركة بشكل لم يكن متوقعاً ، وعاد المسلمون من أوربا بالعلوم في كافة التخصصات وهم في حالة من الانبهار والإعجاب بالحضارة والثقافة الأوربية ، وبدأت العلوم الطبيعية الحديثة تنتقل إلى العالم الإسلامي من أوربا ، وأصبح المسلمون ناقلين من الطراز الأول .

❖ المرحلة الثالثة : مرحلة الاستقلال عن السيطرة الأوربية :

بالرغم من الاستقلال السياسي الشكلي عن الدول الأوربية إلا أن العالم الإسلامي استمر في نقل العلوم الطبيعية وتطبيقاتها من دول التوجه الأيديولوجي وهي دول أوربية ، وتم ذلك عن طريق الابتعاث والترجمة إلى العربية واستجلاب الأكاديميين والخبراء من دول أوربا وأمريكا على اختلاف توجهاتها الأيديولوجية .

إن ما يمكن استخلاصه من هذا التحليل هو أن العالم الإسلامي كان خلال الفترات الثلاث موضع التحليل في هذا البحث ناقلاً للتكنولوجيا وليس مبتكراً أو مؤصلاً لها ، فقبل

السيطرة الأوربية كان ناقلاً من التراث ، وخلال فترتي السيطرة الأوربية والاستقلال عنها كان ناقلاً عن أوربا ، فقد نقل عن دول السيطرة الأوربية في الفترة الأولى ، ثم عن دول التوجه الأيديولوجي في الفترة الثانية ، وعليه فهو تابع في كل الأحوال فاقد لذاته مفتقد لهويته .

الفصل الثامن

مرتكزات التواصل الحضاري فيما يتعلق بالعلم والتعلم والتعليم والعلوم الطبيعية وتطبيقاتها

في ختام هذه الرحلة غير القصيرة التي تابعنا خلالها تطور العلوم في الحضارة الإسلامية كإحدى مقوماتها ، نخلو في هذا الفصل ، وكما اعتدنا في كافة أجزاء هذا المجلد إلى البحث في طرق وأساليب التواصل الحضاري في مجال العلوم ، وهذه الطرق والأساليب تتدرج في منطلقات متتابعة وتمثل في ذات الوقت مرتكزات لمستقبل الحضارة الإسلامية التي نأمل في بعثها وازدهارها من جديد .

ولعل أول المرتكزات التي تلعب دوراً مهماً في عملية التواصل الحضاري هو الاتفاق حول مفهوم العلم والعلاقة بين نوعيه : الديني والدنيوي على مستوي العالم الإسلامي ، وكم لهذا الاتفاق من أهمية في إيجاد نوع من التآلف والتوافق المبدئي بين أبناء الأمة حول العلاقة العضوية المفترضة بين النوعين من العلم .

ويرتبط بالمرتكز السابق مرتكز آخر لا يقل أهمية وهو الاتفاق بين أبناء العالم الإسلامي على ضرورة أن ينطلق العلم الدنيوي مثله مثل العلم بالإسلام من المرجعيات الشرعية المعروفة وهي : القرآن والسنة لأن تلك المرجعيات هي الرباط الذي يشد النوعين من العلم إلى بعضهما ثم ينطلق بهما إلى الغايات والمقاصد المرجوة .

ومن المرتكزات المهمة أيضاً ضرورة الاتفاق بين أبناء الأمة حول المنهج ، ويقصد بالمنهج في هذا السياق طرق ووسائل دراسة وتدريس العلوم الدينية والعلوم الدنيوية ، وكيفية الربط بينهما ، بالإضافة إلى ضرورة تدريس الحضارة الإسلامية في كافة التخصصات الدينية الدنيوية .

ومن المرتكزات الأساسية والحيوية فيما يتعلق بالتواصل الحضاري في مجالات العلم والتعلم والتعليم والعلوم الطبيعية ضرورة إعداد وتهيئة أبناء الأمة من طالبي العلم والعلماء لتلقي

وتعليم علوم الإسلام وكذا علوم الدنيا والربط بينهما بما يخدم مصلحة الأمة وحضارتها وثقافتها ورسالتها الخالدة كأمة رائدة بين الأمم .

أما المرتكز الخاص بالنسق القيمي ، فهو أيضاً من المرتكزات المهمة في هذا السياق ، والنسق القيمي هو تلك المجموعة المترابطة والمتفاعلة من القيم التي تسيج عمليات العلم والتعلم والتعليم والعلوم الطبيعية وتضفي عليها سماتها الخاصة وتمنحها هويتها الإسلامية كما كانت من قبل في زمن ازدهار الحضارة الإسلامية .

ومن المرتكزات المهمة كذلك لإحراز التواصل الحضاري في مسائل العلم والتعلم والتعليم والعلوم الطبيعية ضرورة تأسيس قاعدة تقنية إسلامية ، وهي بمثابة الوعاء الذي يحوي الإسهامات العلمية والمعرفية التي يقدمها أبناء الأمة الإسلامية من أي مكان يقيمون فيه ، وتجمع هذه القاعدة التقنية بحوث علماء المسلمين ودراساتهم وتطبيقات هذه البحوث والدراسات ، وتقوم هذه القاعد على عناصر محددة تتمثل في : الجهود والإسهامات العلمية والمعرفية ، الجهود البحثية ، الجهود التطبيقية ، الجهود التمويلية ، ومن شأن هذه القاعدة التقنية أن تحوي الجهود الخاصة بأبناء الإسلام وتستقطب أدمغة النابغين منهم وتمنع تسربهم إلى الغرب .

ثم يأتي آخر المرتكزات الخاصة بالتواصل الحضاري متمثلاً في تحديد الأهداف والغايات النهائية لعمليات العلم والتعلم والتعليم والعلوم الطبيعية على أن تتواءم تلك الأهداف والغايات مع المرجعيات والنسق القيمي .

في هذا الفصل سنتناول جملة المرتكزات التي أشرنا إليها ، وذلك من خلال المباحث السبعة التالية :

المبحث الأول : الاتفـــاق حـــول مفهـــوم العلـــم .

المبحث الثاني : الاتفاق حول المرجعيات الشرعية .

المبحث الثالث : الاتفـــاق حـــول المنهـــج .

المبحث الرابع : تهيئة العنصر البشري [طلبة العلم والعلماء] .

المبحث الخامس : الاتفاق حول النسق القيمـــي .

المبحث السادس : تأسيس قاعدة تقنية إسلامية .

المبحث السابع : الاتفاق حول الأهداف والغايات .

المبحث الأول

الاتفاق حول مفهوم العلم

إن الوفاق والاتفاق بين أبناء الأمة الإسلامية ضرورة لا غنى عنها لإحياء التواصل الحضاري بالأساس ، ويتبع ذلك كافة المجالات والمقومات ومنها وعلى رأسها مسائل العلم والتعلم والتعليم والعلوم الطبيعية ، ومن ثم فالاتفاق حول مفهوم العلم بين أبناء الأمة الإسلامية يبدو ضرورة واجبة ، والاتفاق المطلوب يستوجب اتخاذ جملة من الإجراءات يمكن رصدها في ما يلي :

أولاً : تفعيل دور هيئة كوكبة علماء الأمة وذلك بإنشاء هذه الهيئة وتحديد نظامها الأساسي واعتبارها المرجعية الحركية التنظيمية لكافة الأمور والشئون ، وقد سبق لنا أن اقترحنا إنشاء هذه الهيئة نظراً لأهميتها كركيزة أساسية من ركائز التواصل الحضاري ، وكدافع مهم نحو الاتفاق بين أبناء الأمة الإسلامية ، ومن ثم فستكون هذه الهيئة بمثابة المرجعية النهائية في مسائل العلاقة بين علوم الإسلام وعلوم الدنيا[1] .

ثانياً : الاتفاق حول ضرورة فرض علوم الإسلام فرض عين في المراحل الدراسية الأساسية ، حيث يكون الفرد المسلم في مسيس الحاجة إلى بناء معتقداته وترسيخها ، وذلك بالنسبة للتعليم الدنيوي الذي بدأ في الكثير من الدول الإسلامية ينأى تماماً عن تعليم علوم الإسلام ويتعامل مع تلك العلوم على أنها علوم غير أساسية وغير مهمة ولا تفعل أكثر من تعطيل طلبة العلم وتأخيرهم في تحصيل العلوم الدنيوية ، وفي الدول الإسلامية التي تقدم بعض مبادئ العلوم الإسلامية في المراحل الأساسية الأولية من التعليم فهي تقدم بعض المبادئ

[1]. لتفصيل أكثر يمكن الرجوع إلى : المجلد الرابع : الذات الحضارية للإسلام (الحضارة الإسلامية) الجزء الثالث : تشكيل النظام الاجتماعي ، الفصل الثامن ، المبحث الرابع .

المقتضبة بشكل مخل ، ومن ثم فهي غير كافية لتأسيس أصول العقيدة وتعميقها ، وفي الأخرى التي تقدم جرعة مكثفة من علوم الإسلام فهي في حاجة إلى ترتيب منطقي وبسط ميسر ومبتكر يبعد عن الأساليب التقليدية الجامدة .

ومعني ما تقدم أن تدريس علوم الإسلام في المراحل الدراسية المختلفة ينبغي أن يعاد فيه النظر بشكل شامل ، وذلك بالمواءمة بين طبيعة ما يقدم من مفردات وبين المراحل السنية (العمرية) لأبناء المسلمين ، إضافة إلى التركيز على طرق وأساليب العرض المبتكرة والميسرة والتي تتناسب مع روح العصر وطبيعة المتغيرات التي يعيشها المسلمون في عالم متجدد من حولهم .

ثالثاً : الاتفاق حول ضرورة تدريس علوم الإسلام إلى جانب العلوم الدنيوية في الجامعات ، فإذا كنا قد سلمنا بضرورة تدريس علوم الإسلام في المراحل الدراسية الأساسية ، فلابد من متابعة تدريس تلك العلوم في الجامعات إلى جانب العلوم الدنيوية ، وبما يتناسب مع المرحلة السنية (العمرية) ومدى النضج العقلي والذهني والفكري لدى طالب العلم ، وفي هذه المرحلة يمكن لطالب العلم أن يعمق من معتقداته ، ويوسع من آفاقه ويرسخ مدركاته ، ويقرن بأسلوب علمي علوم الإسلام بعلوم الدنيا ، ويكيف العلاقة بينهما تكييفاً دقيقاً وصائباً ، يوضح أهمية كل منهما للآخر ، ومن ذلك تتضح المساندة الفعالة التي تقدمها علوم الإسلام لعلوم الدنيا ذهنياً وعقلياً ، وإبراز الهوية الإسلامية لعلوم الدنيا ، وأن ما يقدمه طالب العلم من جهد وإسهام هو بصفته مسلماً ، ومن منطلقات مرجعية شرعية معروفة ولها احترامها وتقديرها عند المسلمين ، ومن هنا يزداد انتماء طلبة العلم ويترسخ ولاؤهم لعقيدة الإسلام ، ويبدأ تفعيل عملية التواصل الحضاري المنشودة .

إن خلو التعليم الجامعي من علوم الإسلام واقتصاره على علوم الدنيا يؤدي إلى جمود عقلية الشاب المسلم ، لأنها انصرفت تماماً إلى استقطاب علوم دنيوية صرفة تخلو كلية من مبادئ ومفردات عقيدة الإسلام ، وهو في مسيس الحاجة إلى ما يبين له علاقة ما يتلقاه من علوم بعقيدته وفائدة ذلك لترسيخ مبادئ وأصول تلك العقيدة ولمجتمعه مسلم ، إن الفصل الحاصل في التعليم الجامعي بين علوم الدنيا التي تدرس في الجامعات في الدول الإسلامية وبين علوم الإسلام هو أمر خطير مقصده لفت اهتمام عقل الشاب المسلم وقلبه بشكل كلي عن عقيدته وحمله على أن يتعامل مع تلك العقيدة على أنها لا تعدو أن تكون نسكاً منعزلاً وشعيرة منفصلة عن الحياة وتفاعلاتها ، وذلك أسوأ ما احتفظ به المسلمون من الميراث الاستعماري البغيض الذي لا يزالون عاجزين عن تغييره والتخلص منه .

رابعاً : الاتفاق على التعامل مع العلوم الدنيوية على أنها فرض كفاية ، ولا ينبغي الإفراط في إعداد المتخصصين في العلوم الدنيوية إلا بالقدر الذي تحتاجه الأمة ، فعلوم الدنيا هي علوم مهمتها تسيير شئون الحياة ، وتطلب لذلك ، وقد تطلب لذاتها إذا كانت تغذي الإيمان وترسخ العقيدة ، ومن ثم فينبغي على أولياء أمور المسلمين تحديد القدر الذي يكفي لتصريف شئون المسلمين وقضاء حوائجهم وإعمار الأرض وإنماء مواردها ومقدراتها ويغنيهم عن الاحتياج لغيرهم ، وما زاد عن ذلك فهو من قبيل إهدار الجهود وتبديد الأموال وتعطيل العقول والطاقات ، وهذا يتنافى مع أحكام الشرع الحنيف ويأثم المشاركون في اقترافه .

العلوم الدنيوية إذاً هي علوم تهيئ الفرد المسلم وتعده لاستقبال ما يكلف به لتصريف شئون الحياة وإعمار الأرض ، وهو في قيامه بهذه المهام لابد له أن يتحصن بمبادئ العقيدة وكذا أصولها ، ويضمن له ذلك ما يتلقاه من علوم الإسلام التي جاءت مقرونة بالعلوم الدنيوية المتخصصة التي درسها في الجامعة أو في المؤسسات التعليمية المناظرة ، ومن ثم يبدو مرة

أخرى التلاقي والعناق بين علوم الإسلام وعلوم الدنيا في كافة مراحل التعليم ، وهذا يفرض على علماء الأمة الإسلامية أن يقدموا تعاريف ومضامين متفقاً عليها لماهية العلم من وجهة نظر الإسلام وعلاقة علوم الإسلام بعلوم الدنيا .

إن ما تقدم يجرنا إلى الحديث عن مسألة التوازن في توزيع العنصر البشري على مناطق العالم الإسلامي ، حيث ينبغي الاستعانة بالمتخصصين المسلمين في المناطق التي تعاني من ندرة في التخصصات المختلفة ، وهنا تكتفي الأمة بأبنائها ولا تحتاج إلى غيرها ، فالاستعانة بغير المسلمين في تخصصات وكفاءات متوافرة لديهم من الأمور المحذورة ، إلا في حالة التخصصات النادرة والضرورة القصوى ، وعلى أولياء الأمور أن يتنبهوا إلى مسألة التوازن في توزيع العنصر البشري داخل العالم الإسلامي ، ولن يتم ذلك إلا بالاتفاق والتوافق بينهم وتقديم مصلحة الأمة فوق كل مصلحة أنانية ذاتية ، وإنهاء الخلافات المذهبية والصراعات السياسية القطرية ، لأن في كل ذلك إنهاكاً للأمة وإهداراً لمقدراتها البشرية والمادية وفي ذلك إثم عظيم .

خامساً : فتح باب الاجتهاد في علوم الإسلام ، إن علوم الإسلام كدين وكنظام اجتماعي في مسيس الحاجة إلى الاجتهاد والعطاء ، والإسهام الذي ينبغي أن يقدمه علماء المسلمين بشكل دائم حتى يتمكنوا من احتواء المستجدات والمتغيرات ، وإيضاح رؤية الإسلام وطروحاته تجاه تلك المستجدات والمتغيرات التي عمت كافة أمور الحياة وشملت جميع شئون الناس ، وقد أخذت التوجهات الأيديولوجية والفكرية المختلفة تقدم رؤيتها وتبسط وجهتها في الوقت الذي أصيب الإسلام بصمت مطبق إلا فيما ندر ، وفي الآونة الأخيرة وتحت ظروف ضاغطة .

إن علوم الإسلام فيها الأسس الثوابت والأصول الرواسخ التي لا تتغير ولا تتبدل ولكنها تحتاج إلى تعصير بأساليب وطرق وآليات معينة ، وفيها كذلك الأدوات المتغيرة والآليات المتبدلة التي تحتاج هي الأخرى إلى تطوير بوسائل خاصة ، وكل ذلك يحتاج إلى جهود أبناء الأمة وعقول علمائها ، حتى يتفاعل الإسلام مع الحياة ويطوع متغيراتها ويحتوي مستجداتها ويملك زمام المبادرة بل ويقدم هو الجديد والمبتكر من ثنايا علومه القيمة التي وهبها الله خاصية الأبدية والخلود ، ومنحها أيضاً سمة التواؤم مع كل زمان ومكان .

إن فتح باب الاجتهاد بالوصف المتقدم هو أهم الأبواب التي يمكن أن ينطلق منها أبناء الأمة تجاه التواصل الحضاري في مجال العلوم ، حيث يتلاقى الإسهام والابتكار بين عصرنا وعصر الازدهار الذي كان ، ويتعانق الإبداع والتفتح بين وقتنا وزمن الإيناع الذي فات ، الاجتهاد إذن وسيلة تلقائية وآلية حيوية للتواصل الحضاري في مجال العلوم حتى يقدر لأبناء الأمة أن يتجاوزوا فترة الانقطاع الطويلة ويعبروا زمن التدهور والتفكك الذي امتد .

المبحث الثاني

الاتفاق حول المرجعيات الشرعية

العلم وفق الرؤية الإسلامية لابد أن يكون له منطلقات ينطلق منها ومرجعيات تحدد أطره وغاياته ، وهذه المرجعيات تهم العلم الدنيوي بالأساس لأن علوم الإسلام معلومة المرجعيات ، فمنذ فترة التفكك والانهيار التي أصابت الثقافة والحضارة الإسلامية والعلوم الدنيوية في العالم الإسلامي قد تفلتت من المرجعيات الشرعية الإسلامية ، وانتهي بها الحال إلى أن اتخذت لها مرجعيات نأت بها عن تلك المرجعيات تماماً ، وعليه فلابد من الاتفاق بين المسلمين على اعتماد المرجعيات الإسلامية كمرجعيات أساسية ومنطلقات أصولية للعلوم الدنيوية في العالم الإسلامي ، ويتم ذلك من خلال إجراءات محددة يقوم بها أبناء الأمة متمثلة في ما يلي :

أولاً : استبعاد الأيديولوجيات كمرجعيات :

منذ الحصول على الاستقلال عن السيطرة الأوربية ودول العالم الإسلامي تكيف حياتها ونظمها الاجتماعية وفق أيديولوجيات مستوردة من أوربا صاحبة السيطرة على العالم الإسلامي من قبل ، وقد أصبحت تلك الأيديولوجيات مصدراً لكل فعاليات الحياة ونشاطاتها المختلفة من سياسية واقتصادية وإدارية وثقافية وحضارية وعلمية ، وأصبحت كذلك مرجعيات نهائية لتلك المناحي والمناشط ، وسارت العلوم الدنيوية على وتيرة الفعاليات والنشاطات المختلفة داخل النظام الاجتماعي ، فاتخذت من الأيديولوجيات مرجعيات نهائية تحدد مسارات حركتها ، واستمر ذلك هو حال العلوم الدنيوية في العالم الإسلامي حتى وقتنا الراهن .

بالرغم من أن ظاهرة العولمة كمرحلة تاريخية في تطور المجتمع الإنساني قد أوشكت أن تقضي على ظاهرة أيديولوجية العلم الدنيوي إلا أنها قد نقلته من التبعية لإحدى الأيديولوجيتين الفردية أو الشمولية بوضعهما الفج المتباين إلى التبعية للآخر صاحب السيادة والسيطرة المادية والمعنوية مهما كانت توجهاته ومشاربه .

إن أخطر ما في هذه الوضعية هو أنه يفقد العلوم الدنيوية في العالم الإسلامي هويتها الإسلامية ، ويحكم عليها مسبقاً بالحرمان من تحقيق تلك الهوية وإجهاض مساعي المسلمين الهادفة إلى تأسيس قاعدة تقنية تحقق ذاتيتهم في إحراز التقدم والإسهام في العلوم الدنيوية وتطبيقاتها بما يحقق التواصل الحضاري بين حاضرهم وماضيهم ، وعليه فمن الضروري والمجدي معاً التجرد من التبعية للأيديولوجيات مهما كانت منابعها ومصادرها .

ثانياً : استبعاد الأفكار البشرية كأطر ومنطلقات :

يرتبط بما تقدم التخلي عن الأفكار البشرية والرؤى الذاتية المعتمدة على العقل البشري كأطر ومنطلقات للعلوم الدنيوية في العالم الإسلامي ، لأن ذلك يتنافى مع طبيعة المسلمين وطبيعة عقيدتهم التي ترفض إلا أن تكون هي منطلقهم الذي منه يبدأون ، وإطارهم الذي يحدهم في حركتهم وتطورهم .

إن ما تقدم يعني استبعاد النظريات المعتمدة على قدرات العقل البشري والمستمدة من اجتهاداته الصرفة التي لا تعطي اعتباراً للأسس والأصول المستنبطة من المرجعيات الشرعية ، وتحقيق ذلك أن العقل البشري لا يؤمن جانبه عندما يعتمد على قواه الذاتية ، فهو عرضة للزلل والخطأ وسوء التقدير والشطط ، وبصفة خاصة في كثير من الموضوعات التي تعتمد على تقديرات غير مرئية وليست تحت سيطرته ، فمثلاً في كثير من الظواهر

الطبيعية والكونية يعتمد العقل البشري في تفسيره لتلك الظواهر وتقديره للعلاقات فيما بينها على المتغيرات المعتمدة على التفاعلات الظاهرية ، وفي خضم تلك التفاعلات ودقائقها المتشابكة والمعقدة ينسى إرادة الخالق وتدبيرها لكل صغيرة وكبيرة في هذا الكون ، فالتفاعلات المرئية هي التفسيرات الظاهرية البسيطة لظواهر الكون التي تدركها الحواس ويلم بها العقل البشري ، وتظهر في شكل نظريات وقوانين ، أما الأسباب الحقيقية الجوهرية لكافة تفاعلات وحركات الكون فمرجعها إلى القدرة الإلهية وطلاقة تلك القدرة .

قال تعالى ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ .[1]

و قال تعلى ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ .[2]

وقال تعالى ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ .[3]

وقال تعالى ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ .[4]

إن أصحاب النظريات والقوانين قد صاغوا نظرياتهم ووضعوا قوانينهم بناء على مدركاتهم الذهنية وقدراتهم العقلية المحدودة وهذا مبلغهم من العلم ، أما نحن المسلمون فينبغي أن

---

[1]. سورة الأنعام : ٣٨ .
[2]. سورة الأنعام : ٥٩ .
[3]. سورة الأنبياء : ٤٧ .
[4]. سورة لقمان : ١٦ .

ندرك يقيناً بأن هذه النظريات هي نتاج العلم المحدود والبسيط المتواضع ، وأن العلم المطلق اللانهائي هو علم الله الذي أحاط بكل شيء .

قال تعالى ﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ .[1]

وقال تعالى ﴿ قَدِ ٱفۡتَرَيۡنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنۡ عُدۡنَا فِي مِلَّتِكُم بَعۡدَ إِذۡ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنۡهَاۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَاۚ رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ ﴾ .[2]

وقال تعالى ﴿ فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ﴾ .[3]

وقال تعالى ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ﴾ .[4]

ثالثاً : الاتفاق حول المرجعيات الشرعية كأصول وقواعد للعلوم :

إن الإسلام هو دين العلم ، بدأ به كما بدأت به كل الرسالات ، وعقيدة التوحيد قائمة على العلم ، قال تعالى ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ﴾[5] ، وعليه فالمرجعيات الشرعية المتمثلة في القرآن والسنة تحض

---

[1]. سورة الأنعام : ٨٠ .
[2]. سورة الأعراف : ٨٩ .
[3]. سورة يوسف : ٧٦ .
[4]. سورة الطلاق : ١٢ .
[5]. سورة محمد : ١٩ .

على العلم بالإسلام والعلم بأمور الدنيا والكون ، فالأخير يقوي الأول ويدعمه بالإطلاع على آلاء الله وآياته في الكون بكافة عناصره ومفرداته ، كما أن تلك المرجعيات تتضمن أصول وقواعد العلوم الدنيوية والكونية .

إن العلم الدنيوي مثله مثل العلم بالإسلام يجد أصوله وقواعده في المرجعيات الإسلامية وقد سبق لنا أن أوضحنا في الفصل الأول من هذا الجزء كيف أن القرآن والسنة يحويان أصول وقواعد العلوم الدنيوية ، والأصل والقاعدة هما الأساس الذي يتفرع عنه كافة الإضافات والاكتشافات والابتكارات والاختراعات والتطويرات ، فإذا كان القرآن الكريم يحض على التأمل والتدبر والبحث والتنقيب عن الحقائق وأصول الظواهر وعلاقاتها فإنه بذلك يكون قد وضع الأساس للابتكار والاختراع والاكتشاف والتطوير ، وهكذا ينبغي أن يلم علماء المسلمين بذلك ويقدموا على خطوات البحث العلمي ونماذجه من ابتكار واختراع واكتشاف وتطوير وهم على يقين من أن أصول كل ذلك ومحفزاته ودوافعه وأهدافه وغاياته مكنونة في كتاب الله وسنة رسوله الكريم وما علينا إلا أن تستنبطها ونبينها حتى تكون هي المنطلق الأساسي كما كانت لأسلافنا من قبل حينما كانوا يقدمون ويؤصلون لكل علم من العلوم الدنيوية بمقدمات وأصول مستنبطة من الكتاب والسنة .

والاعتقاد بأن العلوم الطبيعية أو الدنيوية لا أساس لها في المرجعيات الإسلامية ولا صلة لها بها هو من أسوأ مخلفات فترة التفكك والانهيار والسيطرة الأوربية وأيديولوجية العلم في فترة ما بعد الاستقلال عن تلك السيطرة ، فهذه الإشكاليات الثلاثة أفرزت مثالبها في اتجاه الفصل التعسفي بين العلوم الدنيوية والمرجعيات الإسلامية ، ولعله من قبيل الجهل ونقصان الإيمان الزعم بأن المرجعيات الإسلامية لا علاقة لها بالعلوم الدنيوية ، فأصحاب هذا الزعم لم يدرسوا القرآن الكريم ولم يفهموا السنة النبوية المطهرة ، ولكن عقولهم محشوة بأفكار مشوشة ومعتقدات دخيلة تستهدف إقناع المسلمين بأن مرجعياتهم الشرعية

لا ترغب في العلم ولا تحض عليه بل ربما تعاديه ، ومن ثم تصبح مقولات أن المسلمين لا يرغبون في العلم وأن تخلفهم هو بسبب دينهم مقولات مقبولة وسائغة .

وعليه فينبغي الاتفاق بين أبناء الأمة الإسلامية على أن العلوم الدنيوية وما يرتبط بها من تعلم وتعليم ووسائل تعليمية يجب أن يمروا جميعاً عبر المرجعيات الإسلامية ، ويبقن علماء المسلمين أنهم مأمورون شرعاً بالبحث في علوم الدنيا وأن منطلقهم في ذلك البحث هو المرجعيات الإسلامية ، وأنها قد وضعت لهم الأصول والأسس المبدئية لمواصلة رحلة البحث العلمي ، وأن تلك الرحلة لا بد أن تنتهي بترسيخ العقيدة وتوطيد أركان الإسلام .

رابعاً : الاتفاق على صلاحية وكفاءة العقل الإسلامي والأفكار النابعة منه :

إذا كنا قد سلمنا بضرورة استبعاد الأيديولوجيات كمرجعيات للعلوم بشقيها الدينية والدنيوية واستبعاد الأفكار البشرية كآراء نهائية يعتد بها ويعول عليها ، وأكدنا على حتمية الاتفاق على اعتماد المرجعيات الإسلامية كأصول وأسس لتلك العلوم ، فإننا نؤكد كذلك على أهمية الاتفاق بين المسلمين على توقير واحترام العقول الإسلامية وما يصدر عنها من طروحات ورؤى في مجالات وفروع علوم الإسلام والعلوم الدنيوية ، وذلك لأن تلك العقول مسيجة بسياج متين من القيم والمثل والمبادئ الإسلامية ، فهي لا تنطق عن الهوى وإنما تنطلق من أصول وأسس شرعية وتلتزم بقيم إسلامية وتبتغي مقاصد وغايات إنسانية خالدة .

إن العقول الإسلامية عندما تبدع وتجتهد في علوم الإسلام والحياة فهي محل ثقة الجميع لأنها عقول مؤمنة هدفها وغايتها العطاء الخالص لوجه الله ومنفعة الناس دون من أو أذى ، ومن شأن هذا أن يعيد للعقل الإسلامي وقاره وعظمته التي كانت له زمن ازدهار الحضارة الإسلامية ، وهكذا تعود الثقة لذلك العقل ويتم تواصله مع ماضيه .

المبحث الثالث

الاتفاق حول المنهج [إحالة] [1]

المنهج هو أسلوب الطرح وطريقة العطاء والإسهام ، ولقد كان للمسلمين الأوائل دوماً منهجهم الخاص الذي توسلوا به في عطائهم وإسهامهم في الحضارة الإنسانية ، والمسلمون من أوائل الأمم الذين وضعوا المنهج وعولوا عليه في البحث والاستقصاء والاستنتاج والعطاء ، وقد طوروا منهجهم باستمرار تبعاً لفروع العلم ووفقاً للظروف والتطورات .

وأصبح المسلمون مطالبين مرة أخرى باعتماد منهج خاص بهم كما كان أسلافهم ، وخصوصية منهج المسلمين تنبع من تفرد مرجعياتهم ومن تفوق قيمهم ومن نموذجية وسائلهم وأدواتهم ومن مثالية غاياتهم ومقاصدهم .

إننا ينبغي أن نصيغ منهجنا من جديد آخذين في الاعتبار مصادره ومنابعه المتمثلة في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ونموذج دولة الرسول الكريم ودولة الخلفاء الراشدين ، كذلك نرسخ ذلك المنهج على أسس وأصول ثابتة هي : استنباط الأسس والأصول من المرجعيات الإسلامية التي تمثل المصادر والمنابع ، وابتكار القيم المعاصرة التي تعاصر التطورات والأحداث وتواكبها ، وانتقاء القيم والمبادئ الإنسانية التي تتفق مع الأسس والأصول .

ويتسم منهجنا بخصائص منها : النظرة الكلية لمجموع حركة الإنسان في الكون ، والعلاقة العضوية الوثيقة بين الشعيرة والشريعة ، والعلاقة العضوية الوطيدة بين الروح والمادة أو بين الأخلاقيات والحياتيات ، والمساندة بين الأصول والأسس والعقل البشري ، ثم واحدية المنبع والأصل وموائمة التطور والعرض .

[1]. للتفصيل يمكن الرجوع إلى كتاب الاستهلال : منهج الطرح الإسلامي .

وللمنهج الإسلامي أدواته وآلياته المرصودة في : المفكر الباحث ، والإطار العالم أو الوسط أو البيئة ، والمنهاج الإسلامي (النظام السياسي) وأخيراً أدوات البحث والتحليل .

ولا بد أن نؤكد على مقدرة المنهج على التعامل والتفاعل مع الواقع المعاصر ، وذلك الواقع يغص بالمتغيرات المتلاحقة والمستجدات المتتالية ، كما أن الإنسان في ذاته يحمل أبعاداً متغيرة وعلى المنهج أن يواجه تطورات العصر ومتغيرات الإنسان بتعصير الأصول والقواعد وبتطوير أدوات ونماذج الحركة .

ونؤكد كذلك على قابلية المنهج وما يفرزه من طروحات للتطبيق على أرض الواقع ، وفي هذا أكبر تحدي لأعداء الإسلام الذين يرون في الإسلام وطروحاته أفكاراً نظرية بعيدة عن واقع الحياة ومنعزلة عن إيقاع الحركة والنشاط .

ثم علينا أن نحرص على ضرورة تخول طروحات المنهج بالمتابعة والتطوير ، وفي ذلك أصدق دليل على موائمة الإسلام وطروحاته للزمان والمكان .

وأخيراً تتحدد أهداف وغايات المنهج في إقامة المجتمع على أساس الإسلام وتأسيس العلوم الإسلامية وعلوم الدنيا على مرجعيات الإسلام ، فنقيم مجتمع المتقين وحياته الطيبة .

وعليه يصبح هذا المنهج ضمن أدوات أخرى وسيلة مهمة من وسائل التواصل الحضاري فيما يتعلق بالعلوم الدنيوية بجميع فروعها .

المبحث الرابع

تهيئة العنصر البشري [طلبة العلم والعلماء]

من ضمن مرتكزات التواصل الحضاري فيما يتعلق بالعلم والتعلم والتعليم والعلوم الطبيعية تأتي عملية تهيئة وإعداد العنصر البشري المتعين في العالم والمتعلم ، فهما قطبا العملية التعليمية بالكامل ، ويحتاج كل منهما إلى تلك العملية ليتم نقلهما مادياً وفكرياً من الواقع الإسلامي غير المواتي إلى ظروف تناسب المأمول والمتوقع منهما من العطاء والإسهام ، ويمكن الإشارة إلى مقترح عملية التهيئة والإعداد بالنسبة للعالم والمتعلم من خلال الآتي :

أولاً : تهيئة الظروف العامة والبيئة المشتركة :

يقصد بالظروف العامة والبيئة المشتركة واقع المجتمع وأوضاعه المختلفة وهذه الأوضاع تخص كل من العالم والمتعلم لأنهما يعايشان سوياً تلك الظروف ويعاينان نفس الأوضاع ، وتهيئة البيئة تكون بزرع القيم الإسلامية أو بإعادة بثها من جديد في كافة نواحي الحياة السياسية والاقتصادية والثقافية والحضارية ، وعندئذ يعيش العالم والمتعلم في مجتمع يساعدهما علي صياغة العلم وبثه وتلقيه ، فالبيئة إذن هي الأساس والمنطلق ثم إن ذلك العلم يعود مرة أخرى ليتفاعل مع البيئة فتستفيد منه وتعمل على تطويره باستمرار .

ومعلوم أن تهيئة الظروف العامة والبيئة المشتركة ليس بالأمر السهل لأنه يعني تغيير ظروف المجتمعات الإسلامية وأوضاعها ، وهذا الهدف هو أهم أهداف المسلمين في الوقت الراهن بالرغم من عدم اتفاقهم على كيفية تحقيقه .

ثانياً : تهيئة الظروف الخاصة :

بالإضافة إلى الظروف العامة المتعلقة بالمجتمع المسلم في شموله وعموميته ثمة ظروف خاصة بكل من العالم والمتعلم موضع التحليل في هذا المبحث ، وينبغي تهيئتها من خلال الأتي :

❖ **المنهج :**

ينبغي على العالم وطالب العلم أن يلم بالمنهج الإسلامي ، ويضعه موضع التطبيق في بحثه وفي كافة تصرفاته ، فللعالم ما يخصه من المنهج وللمتعلم ما يخصه كذلك .

❖ **أدوات ووسائل البحث :**

ربما يشترك كل من العالم وطالب العلم في أدوات ووسائل البحث وينبغي أن تتسم هذه الأدوات والوسائل بالهوية الإسلامية قدر المستطاع ، وبصفة خاصة في العلوم النظرية الإنسانية .

❖ **التواصل مع التراث :**

كذلك يشترك العالم والمتعلم في هذه المسألة ، وهي التواصل مع التراث العلمي الإسلامي ، فهو مادة خصبة وثرية لابد من الإطلاع عليها والتعامل معها كأصوليات وأسس ينبغي مراجعتها والانطلاق منها وربطها بالواقع المعاصر .

❖ **التحلي بالقيم الإسلامية :**

على العالم والمتعلم أن يتحلى بالقيم الإسلامية كل في مجاله ، وكل وفق وضعه ، فللعلماء في الإسلام سماتهم وخصائصهم – التي سبق وأوضحناها – ولطلبة العلم كذلك سماتهم

وخصائصهم ، ومن شأن ذلك أن يعيد قيم العلم والتعلم إلى سالف عهدها ، فيتم التواصل في الفعل والسلوك كما يتم في الأداة والآلية .

❖ وسائل الإيصال :

تخص وسائل الإيصال العالم ، حيث أنه يختار من الوسائل ما يمكنه من بث علمه وتوصيله إلى طالبيه بسهولة ويسر متوخياً في ذلك المنهج الإسلامي ومترسماً خطى السلف الصالح من علماء المسلمين .

❖ الحافز المادي :

لا ينبغي التقليل من شأن الحافز المادي في هذا الخصوص ، فهو يعين العالم على الحياة ومواصلة البحث ونشر العلم ، ويعفيه من أن يقع فريسة الاستقطاب الذي يتعرض له علماء المسلمين من المجتمعات الغربية ، وهو كذلك يساعد المتعلم على مواصلة طلب العلم وتحقيق مبتغاه وإفادة مجتمعه ، ومعني ذلك أن الحافز المادي مهم لكل من العالم والمتعلم وينبغي التعويل عليه والاهتمام به من النظم السياسية والجهاد ذات الاختصاص .

المبحث الخامس

الاتفاق حول النسق القيمي

نقصد بالنسق القيمي جملة القيم المرتبطة بالإسلام كنظام اجتماعي ، وهذه القيم تتوزع على كافة أمور وشئون الحياة ، ولمسائل العلم والتعلم والتعليم والعلوم الطبيعية نصيبها من تلك القيم التي كانت سائدة لدى سلفنا الصالح والتي ينبغي إعادتها مرة أخرى بوصفها إحدى أدوات ووسائل التواصل الحضاري في مجال العلوم جميعاً .

ولا ينبغي إغفال الصلة الوثيقة بين نسق القيم في مجال العلوم وبين المرجعيات الإسلامية ، فالثابت أن تلك القيم مستنبطة ومستخلصة من المرجعيات الإسلامية ، وهي مصدرها الأصيل والأساسي إما بشكل مباشر أو بشكل غير مباشر ، وقد جاءت تلك القيم لتخص كافة عناصر العملية التعليمية ، فقد كان لكل منها نصيب مفروض ، فكان للعالم ما يخصه من قيم ، وكان للمتعلم أو طالب العلم ما يخصه كذلك ، وكان للعلم ذاته ما يخصه من قيم أيضاً حتى الوسائل التعليمية كان لها ما يناسبها من القيم ، نذكرها فيما يلي :

أولاً : القيم الخاصة بالعالم والمتعلم :

يمكننا تقديم نسقاً للقيم الإسلامية الخاصة بالعالم والمتعلم مستنبطة من المرجعيات الإسلامية وذلك على النحو التالي :

❖ التقوى والورع :

لعل أول ما ينبغي أن يتحلى به العالم والمتعلم هو الإيمان بالله وتقواه ، فهذه القيمة هي أساس كافة القيم الأخرى ، وتعرف هذه بالقيمة العليا التي تنبعث منها القيم الأخرى ، فالعالم المسلم والمتعلم ينبغي أن يكونا مؤمنين بالله شديدا التقوى والورع إلى درجة الإحسان

وذلك لأن مسئولية طلب العلم ونشره تتطلب أرفع درجات الإيمان وأمثله ، فالعلماء ورثة الأنبياء وهم حفظة الأمة من الغواية والضلال ، وقد سبق لنا إيضاح ذلك في الفصل الأول من هذا الجزء .

❖ ابتغاء وجه الله :

يأتي في المرتبة التالية قيمة ابتغاء وجه الله في طلب العلم وتعليمه ، وهذه ترتبط بما سبقها ، فالعلم يطلب وينشر لترسيخ الإيمان ولإفادة الناس ولتزكية النفس وتربيتها على الفضائل والقيم والمثل ، والعلم لا يطلب للسمعة ولا للشهرة ولا للرياء ولا للارتزاق ولا للمنفعة المادية ، ولكن لأن يكون هدفه النهائي هو وجه الله تعالى .

❖ الأمانة والدقة :

على العالم والمتعلم أن يكون أميناً دقيقاً في عرض آرائه وفي استعانته بالآخرين قدامى ومحدثين ، وأن يتوخى الصدق في كل ما يقول ، فالعلم لا ينبغي أن يشوبه الكذب والبهتان .

❖ التفاني والتمكن :

العالم المسلم يتفانى من أجل تحصيل علمه والتمكن منه وتنقيته من كافة الشوائب والآفات ، وأن يوصله إلى طالبه سليماً نقياً وألا يحتفظ بعلم يرى أنه موضع شك أو شبهة ، فهو متضلع في علمه فقيه فيه .

❖ الصبر والجلد :

طلب العلم وتعليمه يحتاج إلى الصبر في التحصيل والدرس ، والجلد في تجشم الصعاب للوصول إلى منابع العلم وأصوله ، وكذلك الصبر على المتعلم ومساعدته والأخذ بيده .

❖ المثابرة والدأب :

العالم وطالب العلم مثابران لا يملان ولا يقنطـان مهمـا اسـتغلقت عليهمـا الأمـور وخفيـت الحقائق وساء الحفظ وعز الفهم وضاق الإدراك ، فكل ذلك بمثابة مقدمات الفرج ، والدأب يقهر الصعاب ويذللها .

❖ التواضع والحلم والأخلاق الكريمة :

كل ما تقدم من قيم وخصال يغلفها التواضع ويزينها الحلم وصالح الأخـلاق حتـى لا يغـتر العالم بعلمه ، ولا يفرح طالب العلم بما حصل ، فكل منهما لم يؤت من العلم إلا قلـيلاً ، فعلى العالم أن يخفض جناحه للناس ويتواضع لطالب العلم ، فيتبـسط في غـير إسـفاف ، ويترفع في غير تـأفف أو تكـبر ، فالعـالم كلمـا ازداد علمـاً ازداد تواضـعاً وأدرك أنـه كـان جاهلاً .

❖ عدم اكتناز العلم أو البخل به :

إن ما يفتح به الله على العلماء وطـالبي العلـم مـن علـم ومعرفـة ينبغـي أن يكـون للتـداول والانتشار ، وهنا يسعى العلمـاء لنـشر علمهـم ، ويجـب أن يـتم الاتفـاق علـى تخـصيص مؤسسات تهتم بنشر العلم بين المسلمين وغير المسلمين .

❖ الموضوعية والعلمية :

على علماء المسلمين أن يتحلوا بالموضوعية في البحث العلمي وتناول القضايا والحكم عليهـا ، ويدعم الموضوعية العلمية التي تعني البعـد عـن الارتجاليـة أو العـشوائية والحكـم علـى الأمور بالانطباع الشخصي وتغييب الحقائق .

❖ الاجتهاد والابتكار والشجاعة والإقدام في الحق :

لعل أهم ما ينبغي أن يتضمنه نسق القيم الإسلامية هو الاجتهاد والابتكار في علوم الإسلام وعلوم الدنيا ، والجرأة والشجاعة في تبني الآراء الصحيحة والبعد عن المحاباة والتزلف والمجاملة في مسائل العلم .

❖ التحلي بشيم وخصال وسنة الرسول الكريم ، والصحابة والسلف الصالح :

فالعلماء هم أولى المسلمين بإتباع سنة الرسول الكريم والتابعين ، ويعينهم ذلك على القيام بمهامهم واكتساب تقدير المجتمع وتوقيره .

❖ القدوة والأسوة والمثل الأعلى :

يرتبط بما تقدم أن العلماء يقدمون للمجتمع القدوة والأسوة والمثل الأعلى وهم الأجدر بذلك ، فهم الذين يحيون سنة الرسول الكريم ، وهم في ذات الوقت ورثة الأنبياء في العلم والمعرفة .

❖ المساواة في طلب العلم :

المساواة في طلب العلم بين كافة المسلمين مهما اختلفت أصولهم أو أعراقهم ، وكذلك بين ذكران المسلمين وإناثهم ، وتعد هذه من أهم قيم العلم والتعلم والتعليم في العالم الإسلامي .

❖ بث العلم ونشره بين غير المسلمين :

وذلك للدعوة والتبليغ ، وفي ذلك دليل بليغ على أن علوم الإسلام هي لكل الناس حتى ولو كانوا غير مسلمين وهكذا تكون عالمية الإسلام وإنسانيته .

❖ طلب العلم والعمل :

طلب العلم ونشره لا يتطلب بالضرورة الانقطاع أو التفرغ ، فالرعيل الأول من علماء المسلمين كانوا جميعاً يعملون في أعمال ومهن شتى ، ولم يثنهم ذلك عن طلب العلم وتعليم المسلمين في كافة المجالات .

❖ رفعة شأن الإسلام بالعلم :

استخدام العلم في الدفاع عن الأمة الإسلامية وقيمها ، وفي رفعة شأن الإسلام والتدليل على أنه دين العلم .

ثانياً : القيم الخاصة بالعلم :

وبالنسبة إلى القيم التي ينبغي الاتفاق عليها فيما يتعلق بالعلوم والمعارف ، فيمكن الإشارة إلى القيم التالية :

❖ إن العلوم التي يسعى إليها علماء المسلمين ينبغي أن تحقق مصلحة أو منفعة إنسانية عامة ، ولا تتسم بالخصوصية أو الذاتية .

❖ كذلك تتسم العلوم الإسلامية بأنها علوم نافعة في ذاتها ترسخ القيم والمثل والمبادئ الإنسانية .

❖ أيضاً ينبغي أن تبرز العلوم الإسلامية خصائص وسمات وقيمة المرجعيات الإسلامية التي تعد أساس تلك العلوم ومنطلقاتها .

المبحث السادس

تأسيس قاعدة تقنية إسلامية

من أهم المرتكزات التي يرتكز عليها التواصل الحضاري فيما يتعلق بالعلم والتعلم والتعليم والعلوم الطبيعية هو تأسيس قاعدة تقنية إسلامية ، وهي بمثابة وعاء يضم كل ما يتعلق بمسائل العلم والتعلم والتعليم والعلوم الطبيعية من نظم تعليمية وبحوث ودراسات واكتشافات واختراعات وابتكارات ، وتشكل لها إدارة خاصة مستقلة لا تتبع أية دولة إسلامية ، ويمكن الإشارة إلى بعض عناصر تلك القاعدة من خلال الآتي :

أولاً : الجانب العلمي البحثي :

ينصرف الجانب العلمي البحثي في القاعدة التقنية الإسلامية إلي ترسيخ وترقية الجانب البحثي التطبيقي فيما يتعلق بالعلوم الطبيعية ، وما يرتبط منها بعلوم الإسلام ، ويتم إنماء هذا الجانب من خلال إحداث تراكم بحثي معرفي في كافة العلوم وتخصصاتها ، وهذا التراكم بمثابة سلسلة متواصلة الحلقات من التطورات البحثية العلمية تتضمن الابتكارات والاكتشافات والاختراعات والتطويرات ، ويتضمن هذا الجانب قسمين :

❖ القسم الأول :

ويضم البحوث والدراسات التي تتم وفق المنهج الإسلامي ، أي التي تتم وفق المقترح الذي قدمنا وتعتبر جهوداً في اتجاه إحراز التواصل الحضاري المنشود .

❖ القسم الثاني :

براءات الاختراع ، وهو بمثابة سجل يحوى ما توصل إليه علماء المسلمين من اختراعات واكتشافات وابتكارات وتطويرات في كافة العلوم وفروعها ، وعليه يعتبر القسم الأول هو

المحتوى النظري التمهيدي للقاعدة التقنية ، أما القسم الثاني فيمثل الطور العملي التطبيقي للقاعدة .

ثانياً : الجانب المادي :

أما الجانب المادي من القاعدة فينصرف إلى التطبيقات العملية (التقنية) للجانب العلمي البحثي ، ويعتمد نشاط وفعالية هذا الجانب على نواحي مادية صرفة تتمثل في اعتماد مخصصات مالية لتمويل عمليات البحث العلمي ثم لتمويل التطبيقات وإخراج الاختراعات إلى نماذج وأشكال تقنية من خلال مصانع ومؤسسات إنتاجية .

ثالثاً : الجانب الإجرائي التنظيمي :

يتعلق الجانب الإجرائي التنظيمي بالترتيبات الخاصة بتأسيس القاعدة وتنظيمها وإدارتها على أن تساهم فيها كافة الدول الإسلامية وعلماء المسلمين من الدول الإسلامية ، وأولئك الذين يقيمون في دول غير إسلامية ويتم تمويل القاعدة من الدول والهيئات الخاصة وشركات القطاعين العام والخاص وذلك لتأسيس القاعدة واستثمار مخرجاتها التقنية .

رابعاً : أهداف القاعدة التقنية الإسلامية :

إن القاعدة التقنية الإسلامية وفق المقترح الوارد أعلاه تحقق جملة الأهداف الحيوية في هذه الظروف الحاسمة الذي يمر بها المجتمع البشري والعالم الإسلامي ومن هذه الأهداف ما يلي :

❖ تحقيق الهوية الإسلامية لعمليات البحث العلمي والتكنولوجيا تكون بمثابة النواة الخاصة بالمنهج الذي طالما افتقده المسلمون منذ بداية فترة التفكك والانهيار .

❖ الاعتماد على الذات والاستغناء التدريجي عن استيراد التكنولوجيا وإنماء القدرات العقلية والمهارية لدي علماء المسلمين .

❖ إنماء الاستثمارات في مجال تصنيع مخرجات القاعدة التقنية ، وذلك لخلق قاعدة صناعية إسلامية تكون بمثابة نواة للإنماء والتطوير في كافة المجالات .

❖ استقطاب علماء المسلمين ومفكريهم وباحثيهم المنتشرين في أنحاء العالم وتكثيف جهودهم لتأسيس هذه القاعدة وتفعيلها وتحقيق أهدافها .

❖ القضاء على التخلف العلمي والتكنولوجي في العالم الإسلامي ، وبدء مرحلة جديدة من التقدم والتطور المعتمد على الذات والعودة إلى المنهج الخاص الذي يعبر عن الهوية الإسلامية .

❖ تعد القاعدة التقنية الإسلامية أهم مرتكزات تحقيق التواصل الحضاري في مجالات العلوم والتكنولوجيا وفاتحة تعاون وثيق بين أبناء العالم الإسلامي يمكن أن ينتقل إلى مجالات أخرى .

المبحث السابع

الاتفاق حول الأهداف والغايات

أما عن آخر مرتكزات التواصل الحضاري في مسائل العلم والتعلم والتعليم والعلوم الدنيوية فيتمثل في الاتفاق بين أبناء الأمة الإسلامية حول الأهداف والغايات التي تحكم هذه المنظومة من العمليات الفكرية والثقافية ، وتتوزع هذه الأهداف والغايات على مستويين كما يلي :

أولاً : الأهداف الوسيطة :

الأهداف الوسيطة هي أهداف غير نهائية يسعى المسلمون إلى تحقيقها في مجال العلم والتعلم والتعليم والعلوم الدنيوية من أجل تحقيق أهداف أخرى بعيدة المدى ونهائية ، وثمة ثلاثة أهداف وسيطة يمكن الإشارة إليها في هذا السياق ، وذلك على النحو التالي :

❖ **التواصل الحضاري :**

لعل أول الأهداف التي يسعى إليها المسلمون في الوقت الراهن يتمركز حول التواصل الحضاري ، والتواصل الحضاري في مجال من المجالات يعني تفعيل الحضارة الإسلامية وبعثها من جديد في شكل يتواءم مع طبيعة العصر الذي نعيش فيه ، والسؤال الذي يمكن أن يثار في هذا الخصوص هو : هل يمكن تحقيق التواصل في مجال معين بشكل جزئي دون المجالات الأخرى ، أم لا بد من تحقيق التواصل في كافة المجالات دفعة واحدة ؟ .

والإجابة المنطقية على هذا التساؤل تبدأ من النظر إلى وضعية المسلمين الحالية حيث أنهم في حالة لا تسمح لهم بإحراز التواصل في كافة المجالات دفعة واحدة ، ولكن يكفيهم

إحراز التواصل الحضاري وإحياء الحضارة الإسلامية في مجال أو أكثر ثم التحول من الجزء إلى الكل إلى أن يتم التواصل في كافة مقومات الحضارة الإسلامية ، ولعل مجال العلوم والثقافة هو أجدر المجالات وأكثرها تواؤماً مع عملية التواصل الحضاري ، ولكن لا ينبغي أن نغفل أن ذلك التواصل في مجال العلوم والثقافة يحتاج هو الآخر إلى جهود جبارة من المسلمين على مستوى الدول والمجتمعات .

❖ إقامة تعامل إسلامي فعال في مجال العلوم الدنيوية وعلوم الإسلام :

هناك اتفاق بين الدول الإسلامية على قسط لا بأس به من علوم الإسلام والعلوم الإسلامية ، إلا أن العلوم الدنيوية تحتاج إلى تعاون فعال بين أبناء الأمة ، وذلك سيتحقق من خلال عوامل كثيرة لعل أهمها ما أشرنا إليه بخصوص القاعدة التقنية بالإضافة إلى جملة المرتكزات التي رصدناها في هذا المقترح .

وإقامة التعامل بين الدول الإسلامية فيما يتعلق بالعلوم الدنيوية يعد هدفاً وسيطاً مهماً سيخرج الأمة من وضعها الراهن وسيعدها للإقدام على نماذج أخرى من التعاون ، إلا أن ذلك التعاون يحتاج إلى ترتيبات جادة وجهود مكثفة وهي مرهونة بتصميم أبناء الأمة ومضائهم ورغبتهم الصادقة .

❖ إفادة المجتمع المسلم :

من الأهداف الوسيطة كذلك التي يسعى إليها أبناء الأمة وهم بصدد إعادة التواصل الحضاري فيما يتعلق بالعلوم الدنيوية هدف إفادة المجتمع المسلم ، بإخراجه من التخلف العلمي والفكري والعقلي الذي يعاني منه ذلك المجتمع منذ سنوات طويلة ، ثم بإفادته من التكنولوجيا أو تطبيقات العلوم التي ستكون مخرجات طبيعية للقاعدة التقنية وحصيلة منطقية للتعاون العلمي والتقني بين أبناء الأمة .

❖ إفادة الحضارة الإنسانية :

لن تقتصر فائدة التعاون التقني والعلمي بين أبناء الأمة الإسلامية على مجتمعاتها فقط ، ولكنها تمثل في ذات الوقت إفادة للحضارة الإنسانية جميعاً ، والتواصل الحضاري سيعيد الحضارة الإسلامية إلى سالف عهدها من العطاء والإسهام ، وتتبوأ مكانتها الرائدة التي كانت لها .

ثانياً : الأهداف النهائية :

الأهداف النهائية تخص الإسلام كنظام اجتماعي وكعقيدة خالدة ارتضاها الله لعباده على أنها الدين الأمثل ، وتتمثل الأهداف النهائية في هدفين :

❖ إن من شأن التواصل الحضاري الارتفاع بشأن الإسلام وتحقيق التفوق والسبق له كدين ولأبنائه كمؤمنين .

❖ كذلك فالتواصل الحضاري يحقق المجتمع الإسلامي الأمثل مجتمع المتقين والحياة الطيبة في هذا الزمن العصيب ، وبذلك تتحقق الأصالة المعاصرة .

والله من وراء القصد



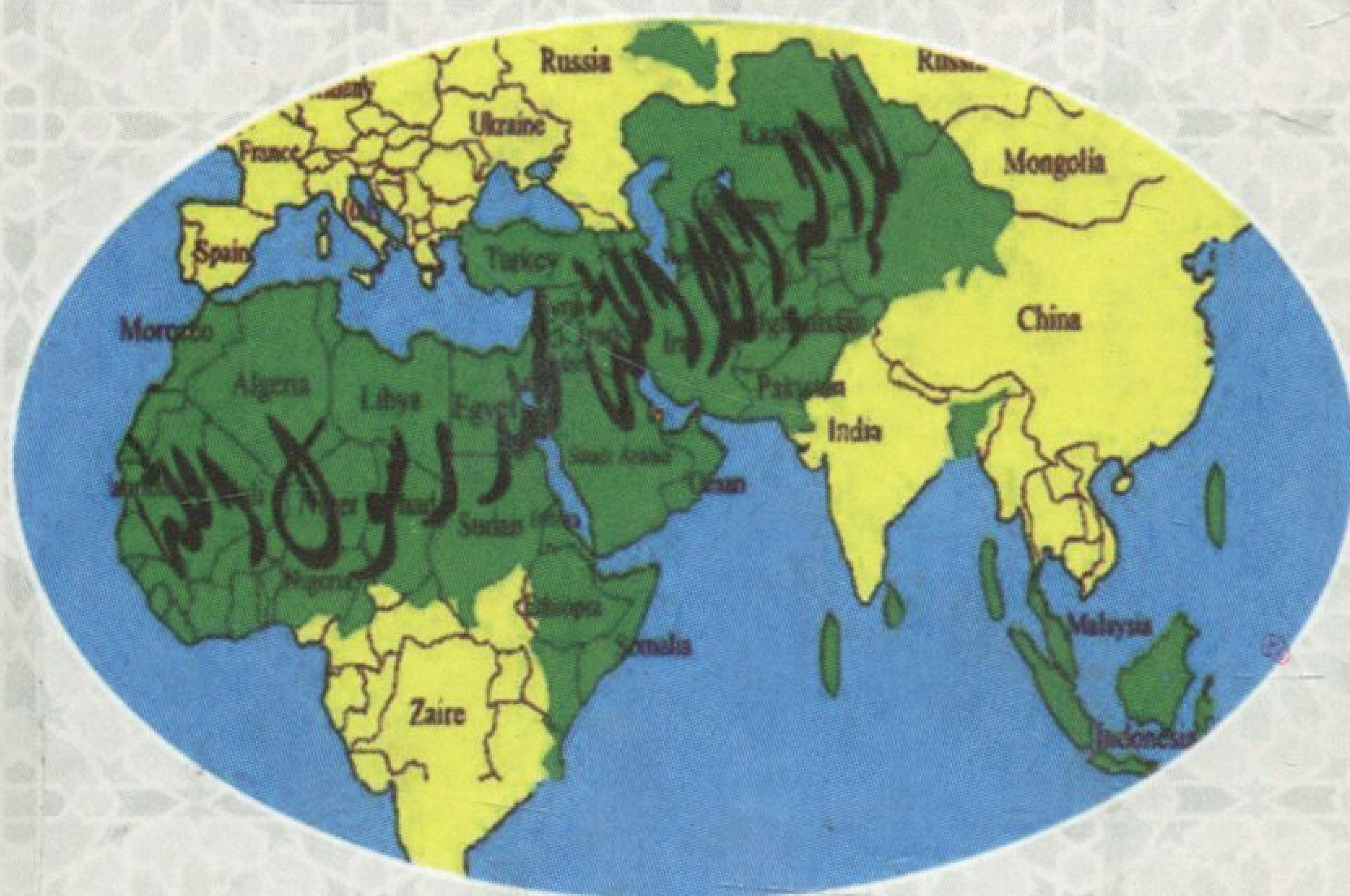
1429 هـ

2008 م

البريد الإليكتروني

ALDORAR_ALZAHERA@YAHOO.COM

من أجل
منهج إلهي محقق
وعالم إسلامي موحد
وحياة اجتماعية طيبة
ومسلم صالح حصيف
وخاتمة سعيدة





نهدي هذا
الجهد المتواضع
العبد الفقير إلى عون ربه